مذكرات المناضل
بهجت أبو غربيّة
١٩١٦ - ١٩٤٩

في خضم النضال العربي الفلسطيني

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

١ مقدمة: مولدي وطفولتي

قديما قيل: ان خير ما يكتبه الانسان ترجمة حياته. ذلك لأن في حياة كل شخص تجربة انسانية فريدة ليس لها مثيل مطابق، ولأن ما يكتبه عن حياته لا بد أن يرافقه تصوير للمرحلة التي عاش فيها.

واذا كانت الفترة الزمنية مرافقة لقضية تاريخية هامة كالقضية الفلسطينية زاد ذلك في أهمية ما يكتب.

سأقدم في الفصول المقبلة ترجمة لحياتي، وليس تأريخا للقضية الفلسطينية. ولكنني مضطر الى التعرض للقضية الفلسطينية، بل الى جوانب من القضية القومية، في سياق الحديث عن تاريخ حياتي، لأن حياتي الشخصية ارتبطت بالقضية الفلسطينية والنضال العربي من ناحيتين:

الأولى: هي الفترة التاريخية، فقد ولدت مع ولادة قضية فلسطين وعشت شبابي بل معظم حياتي في أخطر مراحل هذه القضية.

الثانية: انني لم أعش على هامش هذه القضية وأحداثها، بل شاركت في نضال شعبنا ضد الهجمة الاستعمارية الصهيونية على الأمة العربية في القرن العشرين، تلك الهجمة التي كانت اقامة دولة صهيونية على أرض فلسطين غايتها الرئيسية.

وسيرى القارىء انه لم تكن لي حياة تاريخية خارج اطار القضية الفلسطينية بخاصة والقضية العربية بعامة.

وربما يجد القارىء أحيانا انني توسعت في التأريخ للمرحلة، حتى أصبحت ترجمة حياتي هامشية. وهذا صحيح في بعض الفترات وفي بعض الأحداث ولم يأتِ عفوا. فالقضية الفلسطينية والقضية العربية والتأريخ لهما أهم من ترجمة حياتي، وستُقرأ مذكراتي في الحاضر وبخاصة في المستقبل كتاريخ لهذه المرحلة من الزمن التي عشتها والتي أروي أحداثها كشاهد عيان وكمشارك في الأحداث وربما كصانع لبعضها.

ويلاحظ القارىء أيضا انني عندما أتحدث عن واقعة او مرحلة، أتوسع في ما شاهدت وما عشت وما شاركت، أكثر من التوسع في الكلام على المناطق والأحداث التي كنت بعيدا عن مسرحها. ولا أرى بأسا من ذلك طالما انني اعتبر ما أقدمه، ولو من حيث الشكل أو العنوان، ترجمة لحياتي، او شهادة شاهد عيان. ولا تخفى على القارىء الأهمية التاريخية

لشهادة شاهد العيان اذا كان أمينا على ما يكتب أمانة علمية ــ وهذا ما سأحاوله ــ بعيدة عن المبالغة وبعيدة عن المعلومات التي تفتقر الى الدقة. وتجدر الاشارة هنا الى أن بعض الكتب التي نشرت عن القضية الفلسطينية، استند مؤلفوها الى وثائق رسمية أجنبية، وبصفة خاصة البريطانية، بل ان بعضها كان صهيونيا. ومن الطبيعي أن تصف مثل هذه الوثائق أو المراجع الاحداث من وجهة نظرها، ولا يستبعد ان تغالط او تزيف. وتزداد خطورة مثل هذه الكتب عندما لا يعلق بعض المؤلفين على الوثائق أو الكتب الأجنبية التي ينشرونها أو يعتمدون عليها، ولو فعلوا وبينوا الزيف أو المغالطة في تلك المراجع لانتفى الضرر. وهم لا يفعلون ذلك إما لأنهم لم يعيشوا الفترة والأحداث التي يؤرخون لها بما يمكنهم من اكتشاف الدس أو التزييف، أو لأنهم لم يحاولوا التدقيق المتعمق في تلك المراجع.

ولا بد لي أن أشير الى أنني سأورد أسماء الكثير من الأشخاص الذين تعلقت مجريات حياتي ــ وبصفة خاصة نضالي ــ بهم، وسأتحدث عنهم وعن نضالهم. ولكني اعتذر ان لم أستطع أن أوفيهم حقهم في الحديث عن حياتهم ونضالهم لئلا يخرج بي ذلك عن الصدد. فايفاء الحديث، عن بعضهم او عن كل منهم، يحتاج الى كتاب خاص، وتاريخ حياة بعضهم من الناحية النضالية أوسع من تاريخ حياتي. ولن أحاول أيضا أن أضع قائمة أو قوائم بأسماء جميع من شاركتهم وشاركوني النضال للأسباب السالفة الذكر نفسها، ولأنني أدون هذه الوقائع بعد مرور فترة طويلة من الزمن على وقوعها.

بدأت تدوين هذه المذكرات يوم الأربعاء ١٦ حزيران / يونيو ١٩٧٦ في معتقل الجفر. ولا بد أن أشير أن هذه ليست المرة الأولى التي أقوم فيها بمحاولة لتدوين مذكراتي. فقد دونت في ربيع سنة ١٩٤٩ مذكرات موسعة عن الحرب الفلسطينية والنضال الفلسطيني في السنوات ١٩٤٧ ــ ١٩٤٩ وعن دوري فيه، وسميت تلك المخطوطة «نضال شعب فلسطين». وكانت تقع في نحو ١٢٠ صفحة من القطع الكبير، طبعتها على الآلة الكاتبة في أربع نسخ أو خمس، تفرقت هنا وهناك، ولم يبق عندي سوى واحدة ضاعت هي الأخرى في حرب حزيران/ يونيو سنة ١٩٦٧، حينما احتل الجيش الصهيوني بيتي في القدس ونهب أو أتلف معظم موجوداته. وفي هذه الحرب أيضا ضاعت من بيتي نسخة مخطوطة وحيدة كانت تتضمن تاريخ حياتي ومذكراتي منذ ولدت حتى سنة ١٩٤٧، وهي تكوّن مع المخطوطة الأولى جانبا كبيرا وأساسيا من تاريخ حياتي. ولقد دونت تلك المخطوطة سنة ١٩٥٧ عندما كنت مطاردا ومختفيا في القدس وفي غيرها من المدن والقرى، ذلك الاختفاء الذي استمر نحو سنتين ونصف السنة.

كثيرا ما كان أصدقائي في مجالسنا يعلقون على حديثي ــ حين يدور الحديث عن القدس وعن نضال شعب فلسطين ــ مطالبين أن أدون مذكراتي، أو أن أواصل تدوينها حتى اكتمالها. ولم تكن ظروف حياتي تساعد على ذلك، على الرغم من قناعتي بضرورة تدوين هذه

المذكرات وفائدتها. وفي أية حال، ها أنا أدونها وسأحاول اكمالها، ليس لأن اصدقائي يرون أن تدوينها ضروري فقط بل لأنني أرغب في الحديث للأجيال الحاضرة والقادمة من خلال هذه المذكرات، مبينا لهم ان آباءهم واجدادهم ناضلوا بشرف في سبيل حرية الأمة العربية، وفي سبيل منع تنفيذ وعد بلفور وقيام الدولة الصهيونية، وفيما بعد، في سبيل تحرير فلسطين وانقاذها من أيدي الامبريالية والصهيونية. واني لأرى في سرد هذه الوقائع حافزا للأجيال الحاضرة والقادمة للاستمرار في حمل الامانة واداء الرسالة من أجل تحرير فلسطين، كل فلسطين وكل أرض عربية محتلة، ومن أجل تحقيق الحرية والوحدة والاشتراكية للأمة العربية جمعاء.

مولدي وطفولتي

كان والدي عليان عبد العزيز عليان ابو غربية رحمه الله خلال الحرب العالمية الأولى مدير ناحية، أي حاكما إداريا عثمانيا. ومدير الناحية أدنى مرتبة من مراتب الحكام الاداريين في العهد العثماني. تولى هذا المنصب في أكثر من مكان: في أريحا والفَالوجة وبيت جبرين وخان يونس. ووالدي، في الأصل، من أهالي مدينة الخليل وابن كبير عائلة ابو غربية، عبد العزيز، الذي عاش شبابه في الإقليم المصري حيث ولد والدي في بلدة الزقازيق نحو سنة ١٨٧٥. وقد أتيح له أن يتعلم اللغتين العربية والتركية قراءة وكتابة. وبعد أن عاد جدي ووالدي وأسرتها الى مدينة الخليل، سافر والدي الى استانبول ومكث فيها بضعة أشهر حتى تمكن من الحصول على وظيفة مدير ناحية.

أما والدتي فكرية حسن رحمها الله فهي من مواليد بلدة نيش في بلاد صربيا، التي هي الولاية الرئيسية في يوغوسلافيا. فوالدتي تركية الأصل كانت عائلتها كغيرها من العائلات التركية مستوطنة تلك البلاد في أثناء حكم الدولة العثمانية. واضطرت عائلتها في أواخر القرن التاسع عشر الى الهجرة بسبب حرب البلقان الضروس، فكانت هجرتها الأولى الى قرية صوما الواقعة بجوار ميناء إزمير في تركيا الآسيوية. ثم جاءت هجرتها الثانية مع والدها ووالدتها وبعض اقاربهم الى فلسطين، واستقرت في مدينة الخليل. ونحو سنة ١٩٠٠ تزوجت والدي.

من المعروف ان سكان فلسطين قاسوا، في اثناء الحرب العالمية الأولى، المجاعة والأوبئة والجراد، الى جانب ويلات الحرب الأخرى. ولكن والدي وأسرته عاشوا تلك الفترة في بحبوحة بحكم منصبه وبحكم صداقته مع القادة العسكريين الأتراك، وخصوصا القائد بهجت بك أحد مساعدي جمال باشا قائد الجيش التركي الرابع الذي كان يتمركز في سوريا الطبيعية. وخلال الحرب، في أواخر سنة ١٩١٦، ولدت في بلدة خان يونس حيث كان والدي مديرَ ناحيتها. وكان لوالدي قبلي ثلاثة أولاد أحياء هم: صبري رحمه الله ورشاد ونهاد،

وسماني بهجت لصداقته مع بهجت بك المذكور.

عندما سقطت خان يونس ثم مدينة غزة في أيدي الانكليز سنة ١٩١٧ رحل والدي الى مدينة الخليل. وكانت عائلتنا، وانا معها، سبقته اليها بوقت قصير. ولم يطل الوقت على مدينة الخليل حتى سقطت سنة ١٩١٧ بعد القدس بقليل. وفي الخليل ولد شقيقي الاصغر صبحي نحو سنة ١٩٢٠ وهو الذي أفنى حياته مناضلا مقاتلا ومات شهيدا في القدس سنة ١٩٦٧.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وبعد أن استقر المقام بعائلتنا في الخليل، حدث تطور هام في العائلة اذ تزوج أخي البكر صبري وعمي ابراهيم شقيق والدي وتزوج ابـي ثانية. جرى ذلك كله في الوقت نفسه تقريبا، مما أدى الى افلاس والدي ماليا. أشير الى هذا لأنني شخصيا قاسيت الأمرين، فإخوتي الكبار صبري ورشاد ونهاد ترعرعوا في فترة اليسر العائلي، أما أنا وشقيقي الأصغر صبحي رحمه الله ففتحنا أعيننا على الفقر، وعلى الخلافات العائلية الحادة. واستمرت هذه الفترة العصيبة حتى سنة ١٩٢٢ حيث تحسنت أحوالنا بعض الشيء. فبعد انتهاء الحرب حصل والدي على وظيفة في مالية القدس، ولكن لم يطل به المقام في هذه الوظيفة حتى اصطدم برئيسه وكان من أعوان الاستعمار البريطاني، مما أدى الى استقالته، وبقي حتى سنة ١٩٢٣ تقريبا من غير عمل، الى أن حصل على وظيفة مالية في بلدية القدس ظل فيها الى ان أحيل على التقاعد. ولكن أحوال عائلتنا المالية ظلت قاسية سنوات طويلة بسبب دخل والدي المحدود، وخصوصا بعد أن زاد عدد أفراد عائلتنا بزواج أخي وأبـي، وبعد أن ولدت زوجة أبي أخوَي فؤاد والشهيد شفيق رحمهما الله، وفيما بعد ولدت حسن وحسين واحسان، هذا فضلا عن ان عائلتنا كانت تضم أيضا ابن عمي عزت رحمه الله الذي استشهد والده عبد المنعم رحمه الله في الحرب العالمية الأولى، فكفله والدي. وتضم أيضا عمتي فاطمة وابنها كامل اللذين كانا من أفراد الأسرة المقيمين تقريبا بسبب فقر زوجها وسوء صحته المستمرة.

التحقت بمدرسة المعارف في مدينة الخليل سنة ١٩٢٣/١٩٢٤، وهي مدرسة حكومية درست فيها سنتين. وأذكر من أساتذتي فيها الشيخ مصباح حمور والأستاذ عبد الرحمن الدويك رحمهما الله، والأستاذ صائب الناظر أطال الله في عمره. ثم انتقلت عائلتنا جميعها الى القدس مركز عمل والدي سنة ١٩٢٥ وسكنا حي باب السلسلة. والتحقت بمدرسة حكومية أيضا هي مدرسة التمرين حيث أمضيت الصفين الثاني والثالث الابتدائيين. واذكر من أساتذتي فيها الأستاذ طلعت السيفي وكان مدير المدرسة، كمال الخطيب وحسين الدجاني وروبرت كفلكنتي وفخري جوهرية رحمهم الله. ومن الأحداث الهامة التي اذكرها في هذه الفترة الزلزال الشديد سنة ١٩٢٧ الذي هدم الجزء الأكبر من البيت الذي كنا نسكنه وانتقلنا الى بيت آخر في حي النبي داود. وقد أمضيت سنة ١٩٢٧/١٩٢٨ الدراسية في مدينة حيفا ودخلت فيها

مدرسة الحكومة حيث انهيت الصف الرابع الابتدائي. وكان انتقالي الى حيفا في هذه السنة بسبب تعيين أخي رشاد معلما في المدرسة الاسلامية فيها ورغبة والدتي في رعايته. ولما كنت أنا وأخي صبحي صغيرين اضطرت الى اصطحابنا معها. ولا بد لي أن أذكر هنا أنني أحببت حيفا حبا عميقا، أحببت شواطئها وبحرها وسهلها، وجبل الكرمل واحراجه، وكان لهذا الحب العميق أثر كبير في شعوري الوطني واتجاهي الوطني فيما بعد. واذكر من اساتذتي في حيفا الاستاذ سعيد الصباغ رحمه الله وكان مديرا للمدرسة.

ومن أعز ذكرياتي في حيفا أنني تعرفت على الشهيد عز الدين القسام رحمه الله، حيث كان مدرسا في المدرسة الاسلامية وزميلا لأخي رشاد. وكثيرا ما زارنا في بيتنا ولاطفني، وكنت أحيانا أحضر دروسه في جامع الاستقلال.

في السنة التالية (١٩٢٨/١٩٢٩) عدنا الى القدس والتحقت بالمدرسة الرشيدية في الصف الخامس الابتدائي، وبقيت فيها حتى الصف الثاني الثانوي سنة **١٩٣١/١٩٣٢**. ومن أساتذتي فيها الأستاذ شريف النشاشيبي، وكان مديرا للمدرسة ثم حل محله الأستاذ عارف البديري. ومن الأساتذة أيضا حسن عرفات، ومحمود الكرمي، وحسن الكرمي، ووصفي العنبتاوي، وضياء الدين الخطيب، وياسين الخالدي، وشكري المهتدي.

وقد كنت في جميع سنوات دراستي تلميذا مجدا ناجحا وكان ترتيبي، في الصف، الأول أو الثاني في أغلب الأحيان. وسأعود للحديث عن نشأتي وتعليمي فيما بعد.

٢ وعد بلفور، وسياسة إقامة الوطن القومي اليهودي

اذا كان القرن التاسع عشر هو قرن التوسع الاستعماري والتسابق والصراع بين الدول الاستعمارية، فان اوائل القرن العشرين كانت مرحلة تثبيت هذا الاستعمار. وتروي بعض المصادر التاريخية ان مؤتمرا عقد سنة ١٩٠٧، على الرغم من استمرار الصراع بين الدول الاستعمارية على احتلال المستعمرات، صدر عنه ما عرف فيما بعد بتقرير لجنة كامبل بانرمان.

عقد هذا المؤتمر في انكلترا وشارك فيه عدد من مفكري الدول الاوروبية الاستعمارية وكان محور أبحاثه دراسة الاخطار التي تهدد مستقبل الاستعمار، ووضع الخطط الكفيلة بدرئها، وضمان استمرار احتفاظ الدول الاستعمارية بمستعمراتها.

ويتضمن تقرير لجنة كامبل بانرمان الذي صدر عن هذا المؤتمر دراسات وتحليلات، ثم مقترحات وقرارات تلخص في ما يلي:

١ ــ ان أكبر خطر يهدد بقاء الدول الاستعمارية في مستعمراتها يكمن في حوض البحر الابيض المتوسط، حيث يعيش على شواطئه الشرقية والجنوبية شعب واحد له ماض تاريخي مرموق، يتكلم لغة واحدة، ويدين كله تقريبا بدين واحد، وتوجد في بلاده امكانيات الرقي والتقدم.

٢ ــ ان هذا الشعب مجزأ الى اقاليم ويجب ان تعمل الدول الاستعمارية بكل الوسائل على استمرار هذه التجزئة وتعميق أسبابها.

٣ ــ يجب ان يقام فاصل بشري غريب في انسب مكان من هذه البلاد ليفصل بين عرب المشرق وعرب المغرب ويقطع الامتداد العربي، وهذا المكان هو فلسطين.

في الوقت نفسه، كانت الحركة الصهيونية قد أُسست وهي التي كان في برنامجها اقامة دولة يهودية في فلسطين.

ولا أريد هنا ان أتوسع في تاريخ الحركة الصهيونية وارتباطها بالاستعمار، فمصادر هذه الابحاث كثيرة وموسعة، ولكنني اريد ان اؤكد الارتباط القوي منذ البداية بين الصهيونية والاستعمار.

وتروي بعض المصادر ان فكرة اقامة دولة يهودية في فلسطين اقدم مما ذكر، وان نابليون

بونابرت كان يحمل هذه الفكرة.

ومن المعروف انه في الثاني من تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩١٧ صدر الوعد المشهور بوعد بلفور عن وزير خارجية بريطانيا، والذي صيغت عباراته بعناية فائقة شارك فيها الدكتور حاييم وايزمن بنفسه وهو زعيم الحركة الصهيونية في ذلك الوقت، وجاء في هذا الوعد ما يلي:

> عزيزي اللورد روتشيلد!
>
> ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى اقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي وسوف تبذل خير مساعيها لتسهيل بلوغ هذه الغاية، وليكن معلوما انه لا يسمح باجراء شيء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين الآن، او بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في البلدان الاخرى وبمركزهم السياسي فيها.

صدر الوعد، كما هو واضح، خلال الحرب العالمية الاولى وبقي سرا فترة من الزمن، وصيغت عبارته بشكل مضلل. وهو باختصار خطة متفق عليها بين الاستعمار والصهيونية لمصلحة الطرفين، وتعهد من بريطانيا بتنفيذ هذه الخطة، واقامة دولة لليهود في فلسطين يوم كانت بريطانيا لا تملك فلسطين ولا تملك السيطرة عليها. ومهما قيل في وعد بلفور انه مجرد وعد، إلا انه كان الأساس الذي قامت عليه الدولة الصهيونية فيما بعد. وان وعد بلفور واقامة دولة صهيونية في فلسطين يقعان في اطار الخطط الاستعمارية المرسومة بعناية من اجل تمزيق العالم العربي واضعاف العرب، وبالتالي من اجل احتفاظ الدول الاستعمارية بمستعمراتها ونفوذها الاستعماري ومصالحها الاستعمارية في المنطقة العربية.

صدرت عن المسؤولين البريطانيين، فيما بعد، عدة تصريحات تؤكد ما سبق، منها قول ونستون تشرشل سنة ١٩٢٢ وكان وزيرا للمستعمرات في حينه:

«ان بريطانيا ملزمة تنفيذ وعد بلفور وليس في وسع العرب منع تنفيذه وليس امامهم الا ان يقبلوا به.» وسنرى ان حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين بذلت جهدا جبارا وقدمت مساعدات فعالة للحركة الصهيونية لانشاء دولة صهيونية في فلسطين. ومن هنا بدأت المشكلة وما تزال قائمة: هل ارض فلسطين للعرب أم للصهاينة؟

سايكس ـ بيكو

لا بد هنا من الاشارة الى معاهدة سايكس ـ بيكو التي عقدت قبيل صدور وعد بلفور حيث اشتركت فيها بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية، وكانت معاهدة سرية اتفقت فيها الدول الثلاث على اقتسام الممتلكات العثمانية بعد انتهاء الحرب، ومعظمها بلاد عربية. ومن المعروف ان هذه المعاهدة فضحتها روسيا بعد قيام الثورة الاشتراكية فيها. وهذه المعاهدة ايضا تؤكد النوايا الاستعمارية وتوضح الاساليب الاستعمارية والنظرة الاستعمارية الى الشعوب الضعيفة؛ فالدول الاستعمارية اقتسمت البلاد العربية بموجب معاهدة سايكس ـ بيكو قبل

ان تحتلها، وأُعطيت فلسطين للصهيونية قبل ان تصبح فلسطين تحت سيطرتها. كل ذلك جرى من دون اي اعتبار لرأي السكان الاصليين اصحاب البلاد، ورغباتهم وأمانيهم، بل من غير علمهم.

وعلى هذا الاساس يمكن ان نفسر مساعدة الانكليز للشريف حسين وللعرب في الثورة ضد الاتراك العثمانيين خلال الحرب العالمية الاولى. فالمستعمرون، وخاصة بريطانيا، كانوا يعرفون ان العرب متذمرون من الحكم والاستبداد العثمانيين وانهم ينزعون الى الخلاص منها، فاتصلوا بالشريف حسين وشجعوه على الثورة ضد الاتراك ووعدوه وعودا، بالرغم من غموضها، توحي بأن بريطانيا ستساعد العرب على الاستقلال والوحدة العربية.

ومهما كانت نوايا العرب ورغباتهم وأهدافهم من الثورة على الاتراك، فالاستعمار عمل على جعل هذه الثورة في خدمة المخططات الاستعمارية وحاول جاهدا ان يأخذ موافقة الشريف حسين والامير فيصل بن الحسين على سياسة اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين.

ومما لا شك فيه ان قيام الثورة العربية ضد الدولة العثمانية ساعد الحلفاء مساعدة كبيرة على احتلال فلسطين وسوريا الكبرى كلها والعراق.

فرض الانتداب

نشطت بريطانيا وفرنسا، بعد الاحتلال، في إعطاء الشرعية القانونية لاحتلالها فلسطين وشرق الأردن والعراق بالنسبة لبريطانيا، وسوريا ولبنان بالنسبة الى فرنسا. ونتيجة لهذه المساعي وبالرغم من بعض الصراع مع الولايات المتحدة الأميركية قررت عصبة الامم سنة ١٩٢٢ فرض الانتداب على هذه البلاد. وتضمنت المادة الثانية من صك الانتداب البريطاني على فلسطين ان على الدولة المنتدبة

> ان تضع فلسطين في أوضاع سياسية وادارية واقتصادية تضمن انشاء الوطن القومي اليهودي.

وبذلك أصبح وعد بلفور متضمنا ومعززا بصك الانتداب، وليس بموافقة بريطانيا فقط بل بقرار من اكثر من عشرين دولة. وبالرغم من ان الولايات المتحدة لم تكن عضوا في عصبة الامم، فقد اعلنت موافقتها هي الأخرى على صك الانتداب على فلسطين.

ونصت المادة الرابعة من صك الانتداب على فلسطين:

> الاعتراف بوكالة يهودية تشير على حكومة الانتداب، وتتعاون معها في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك، مما يؤثر في انشاء الوطن القومي اليهودي.

ولا عجب بعد هذا ان اصبحت الوكالة اليهودية بعد فترة قصيرة من الانتداب حكومة داخل حكومة.

من ناحية اخرى قضى الفرنسيون على حكم الملك فيصل في دمشق وشتتوا الرعيل الاول من قادة بلاد الشام الذين التفّوا حول الملك فيصل، وعين الانكليز الامير عبد الله بن الحسين اميرا على شرق الاردن. وبذلك تمزقت بلاد المشرق العربي الى اقاليم معزولة بعضها عن بعض. ولهذا كان على عرب فلسطين ان يواجهوا وحدهم تقريبا المؤامرات والمخططات الاستعمارية الصهيونية المدبرة لفلسطين. وعملت بريطانيا باستمرار كل ما تستطيع لعزل فلسطين عن امتدادها العربي لتمهد للصهيونية ولتساعدها على انشاء الدولة الصهيونية.

ادارة حكومة الانتداب في فلسطين

لكي يكون مجرى الاحداث واضحا للقارىء اذكر هنا بايجاز شكل الحكم ايام الانتداب البريطاني على فلسطين، فمنذ الاحتلال قام حكم عسكري برئاسة ضباط بريطانيين، كان كل منهم يمارس صلاحيات الحاكم العسكري في منطقته. فأصبحت كل مدينة وقضاؤها منطقة ادارية عسكرية منفصلة عن الاخرى، ويرتبط الحكام العسكريون مباشرة بالقيادة العامة للجيش البريطاني. وقد ظل الحكم العسكري قائما حتى سنة ١٩٢٢، بالرغم من ان بريطانيا كانت عينت السير هربرت صموئيل وهو يهودي بريطاني مندوبا ساميا على فلسطين وشرق الاردن سنة ١٩٢٠. وكان لتعيين هذا اليهودي مندوبا ساميا مدلول واضح على اصرار بريطانيا على سياسة اقامة الوطن القومي اليهودي. ومن التصريحات التي صدرت عن هربرت صموئيل سنة ١٩١٩ حين كان مستشارا للحكومة البريطانية في الشؤون الفلسطينية قوله: «في الوقت المناسب يجب ان تصبح فلسطين كومنولث ذا حكم ذاتي تحت رعاية اكثرية يهودية قائمة.»

وبعد انتهاء الحكم العسكري سنة ١٩٢٢ اقيمت ادارة مدنية برئاسة المندوب السامي يساعده في حكم فلسطين مجلس تنفيذي يتألف من السكرتير العام ومن جميع رؤساء الدوائر، وكلهم من الانكليز. وبذلك يكون السكرتير العام بمثابة رئيس الوزارة، والمجلس التنفيذي الوزارة. وقسمت فلسطين اداريا الى ألوية، وقسم اللواء الى اقضية، وكان يحكم كل لواء حاكم انكليزي ويحكم كل قضاء مساعد لحاكم اللواء انكليزي ايضا.

كانت قيادة البوليس انكليزية محضة اي ان جميع ضباطها انكليز. وفي كل لواء مدير بوليس انكليزي وفي كل قضاء مساعد لمدير البوليس وكلهم انكليز. وإلى جانب هذا الكادر الرئيسي كان هناك جيش من كبار الموظفين البريطانيين في مختلف الدوائر فضلاً عن رؤسائها وعدد غير قليل من الضباط وصف الضباط والافراد من رجال البوليس البريطاني.

ولم يكن هناك موظفون اداريون عرب اعلى من مرتبة قائمقام، اي مساعد لمساعد حاكم اللواء. ومن ناحية البوليس لم يكن في القيادة العامة اي ضابط عربي، ولم يكن هناك أي

مدير بوليس او مساعد مدير بوليس عربي، وكان محرما على غير الضباط الانكليز حمل رتبة اعلى من رتبة رئيس (ثلاث نجوم)، وفضلا عن ذلك كانت هناك باستمرار حاميات من الجيش البريطاني النظامي ترابط هنا وهناك لمساندة الحكم عند اللزوم.

يتبين مما ذكر ان شكل حكم الانتداب لم يكن يختلف في شيء عن حكم المستعمرات البريطانية، سوى ان القبضة البريطانية في فلسطين كانت اشد من اجل ضمان اقامة الوطن القومي اليهودي: الدولة الصهيونية.

مواجهة عرب فلسطين
للمخططات الاستعمارية ـ الصهيونية

تنبه عرب فلسطين الى خطر الحركة الصهيونية ايام الحكم العثماني. فمنذ سنة ١٨٨٢ بدأت الموجة الاولى من الهجرة اليهودية الى فلسطين حين كان عدد اليهود في فلسطين ٢٤٠٠٠ فقط. ولم تقابل هذه الموجة بالمعارضة الا بعد ان اخذت فيها بعد الطابع الاستيطاني الزراعي متأثرة بالافكار الصهيونية. وبدأ الاحتكاك في الريف ثم تحول الى صدام عنيف عندما بدأ المستوطنون الجدد باجلاء الفلاحين عن الاراضي التي اشتروها من الملاك الاقطاعيين اللبنانيين والسوريين ومن الحكومة. وجرى اول صدام سنة ١٨٨٦ عندما قام الفلاحون المطرودون من الخضيرة وملبس (بيتح تكفا) بمهاجمة هاتين المستعمرتين، مما دفع الحكومة العثمانية سنة ١٨٨٧ الى فرض قيود على الهجرة الصهيونية. وتكرر الهجوم على مستعمرات يهودية اخرى للأسباب نفسها سنة ١٨٩٢، وصدرت قرارات جديدة من الحكومة العثمانية للحد من الهجرة اليهودية لم تلبث ان أُلغيت تحت ضغط اوروبي.

وامتد العداء للصهيونية الى المهنيين والتجار، ثم شمل قطاعات لم تتضرر مباشرة من الهجرة الصهيونية في مراحلها الاولى. واخذت المقاومة تشتد بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول سنة ١٨٩٧، وشهدت سنة ١٩٠١ حملة احتجاجات واسعة من العرائض الجماعية ضد شراء اليهود الاراضي الزراعية، خصوصا عندما قامت الجمعيات الصهيونية بشراء مساحة واسعة من الارض من عائلة سرسق اللبنانية بالقرب من طبريا. ونجح العرب بالفعل في استصدار قرارات من الباب العالي العثماني بالغاء بعض الصفقات.

في سنة ١٩٠٣ بدأت موجة الهجرة اليهودية الثانية الى فلسطين، وفي سنة ١٩٠٧ أُنشيء اول كيبوتس يهودي يعتمد العمل اليهودي الزراعي الجماعي. ووقع صدام بين العرب والصهيونيين في يافا سنة ١٩٠٨ سقط فيه قتلى وجرحى، واتسعت مقاومة الصهيونية واصبح السياسيون والمثقفون والصحفيون يبدون اهتماما متزايدا بموضوع الهجرة واستملاك الاراضي، واستمرت مقاومة الصهيونية حتى صدور وعد بلفور واحتلال بريطانيا فلسطين.

وبالرغم من ذلك بلغ عدد اليهود في فلسطين في نهاية الحكم العثماني سنة ١٩١٧ نحو ٥٦ ألفا.

وعلى الرغم من عمليات التستر والتمويه التي لجأت اليها الحكومة البريطانية لاخفاء حقيقة نواياها ومخططاتها، فقد اعلن شعب فلسطين منذ البداية رفضه الاحتلال البريطاني ورفضه وعد بلفور والهجرة اليهودية، وطالب بالاستقلال. وعبر عن ذلك بوسائل متعددة منها تشكيل المنظمات الشعبية، وعقد المؤتمرات الوطنية، والقيام بالمظاهرات والاضرابات، والنشاط الصحفي، وارسال الوفود السياسية الى بريطانيا.

٣ تنظيم النضال

ابتداء من سنة ١٩١٩ شُكلت في جميع أنحاء فلسطين الجمعيات الاسلامية ــ المسيحية* التي انتشرت في جميع المدن وكانت تضم المسلمين والمسيحيين، وشعارها الهلال وفي داخله الصليب. وعملت على تنظيم المقاومة ضد الاحتلال والصهيونية. وجاء اختيار هذه التسمية لأسباب عدة منها أن بريطانيا كانت تدّعي أن مقاومة شعب فلسطين احتلالها كانت لأسباب دينية اسلامية فقط، فكان من الضروري ابراز الوجه القومي والوطني لهذه المقاومة. ومنها أن حكومة الانتداب حاولت أن تشق الصف العربي الى مسلم ومسيحي بشتى الوسائل لاضعاف المقاومة من جهة، ولتحقيق صورة للمجتمع الفلسطيني تنسجم مع ما جاء في نص وعد بلفور في عبارة «بشرط أن لا يؤثر ذلك في مصالح الطوائف الأخرى».

المؤتمرات الفلسطينية

ابتدأ عقد المؤتمرات الفلسطينية سنة ١٩١٩ وكانت تضم عددا كبيرا من الشخصيات ذات النفوذ العائلي والعشائري والمالي، من المسلمين والمسيحيين، وتكرر عقد المؤتمرات كالتالي:

١ ــ المؤتمر الفلسطيني الأول عقد في القدس في ٢٧ شباط / فبراير ١٩١٩.

٢ ــ المؤتمر السوري العام عقد في دمشق في تموز / يوليو ١٩١٩ وحضره أعضاء فلسطينيون.

٣ ــ المؤتمر الفلسطيني الثاني كان من المقرر عقده في أيار / مايو ١٩٢٠ ومنعت السلطات البريطانية عقده.

٤ ــ المؤتمر الفلسطيني الثالث عقد في حيفا في ١٣ كانون الأول / ديسمبر ١٩٢٠.

٥ ــ المؤتمر الفلسطيني الرابع عقد في القدس في ٢٩ أيار / مايو ١٩٢١.

٦ ــ المؤتمر الفلسطيني الخامس عقد في نابلس في ٢٠ آب/أغسطس ١٩٢٢**.

---

* كان والدي رحمه الله رئيسا للجمعية الاسلامية المسيحية في الخليل وأذكر أنه سجن بسبب ذلك سنة ١٩٢١.

** كان والدي رحمه الله أحد أعضاء هذا المؤتمر وكانت صورة أعضاء المؤتمر الخامس تزين بيتنا منذ العشرينات.

٧ ــ المؤتمرالفلسطيني السادس عقد في يافا في تشرين الأول / اكتوبر ١٩٢٥.

٨ ــ المؤتمر الفلسطيني السابع عقد في القدس في ٢٠ حزيران / يونيو ١٩٢٨.

٩ ــ المؤتمر الاسلامي عقد في القدس في ١ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٢٨.

وكانت هذه المؤتمرات تؤكد على رفض الانتداب ورفض وعد بلفور والمطالبة بالاستقلال. ومن أهم قرارات المؤتمر الفلسطيني الثالث سنة ١٩٢٠ انتخاب اللجنة التنفيذية وهي الهيئة التي قادت النضال الفلسطيني من سنة ١٩٢٠ حتى ١٩٣٥. وفي أثر هذا المؤتمر أقالت سلطات الانتداب البريطاني موسى كاظم باشا الحسيني من رئاسة بلدية القدس، وأصبح رئيسا للجنة التنفيذية حتى وفاته.

الوفود الفلسطينية

في هذه الأثناء أرسلت القيادة الفلسطينية عدة وفود الى بريطانيا لشرح وجهة نظر العرب للحكومة البريطانية وللرأي العام البريطاني، ولاعلان رفض العرب لوعد بلفور والمطالبة بوقف الهجرة الصهيونية وانتقال الأراضي لليهود، واقامة حكومة وطنية مستقلة.

وخلال فترة قصيرة سافرت الى لندن أربعة وفود فلسطينية، ففي آب / أغسطس ١٩٢١ سافر الوفد الأول وتلاه الوفد الثاني في ١٩٢٢/٢/٢٢ والثالث سنة ١٩٢٣ والرابع في ٦ آذار / مارس ١٩٣٨، ولكن لم تؤت هذه الوفود أية فائدة أو أي تغيير أو تعديل في سياسة بريطانيا نحو فلسطين.

الكفاح الشعبي

قامت في فلسطين إلى جانب النضال السياسي المذكور عدة تحركات شعبية عنيفة: ففي نيسان / ابريل ١٩٢٠ قامت اضطربات في القدس أثناء الاحتفال بموسم زيارة النبي موسى استمرت بضعة أيام أسفرت عن ٩ قتلى و ٢٥٠ جريحا من اليهود و ٤ شهداء و ٢١ جريحا من العرب، وفي أثرها منعت السلطات عقد المؤتمر الفلسطيني الثاني. وتنحى موسى كاظم باشا الحسيني عن رئاسة بلدية القدس، وشُكلت لجنة تحقيق لمعرفة أسباب الاضطرابات.

وفي أيار / مايو ١٩٢١ حدثت اضطرابات في مدينة يافا ومنطقتها استمرت ١٥ يوما حيث قام اليهود بتظاهرات اتجهوا فيها الى حي المنشية بيافا فاصطدم بهم العرب، ثم اتسعت الاضطرابات فعمت قضاء يافا وشُنت هجمات على المستعمرات اليهودية في ملبس، الخضيرة، ديران، وتل حي. وتدخل الانكليز الى جانب اليهود واعتقلوا الشيخ شاكر أبي كشك وأحرقوا بيته كما هاجموا مضارب قبيلة أبي كشك وخربوها، ثم فرضت السلطة غرامات مالية على كل من قلقيلية وطولكرم وقاقون ووادي الحوارث وكفرسابا وعرب أبي

كشك. وأسفرت هذه الاضطرابات عن ٩٥ شهيدا و ٤٨ جريحا من العرب و ٤٧ قتيلا و ٢١٩ جريحا من اليهود. وفي أثر ذلك شكلت لجنة تحقيق عرفت باسم لجنة هيكرافت، وهو رئيسها، وكان قاضي قضاة فلسطين. وجاء في تقريرها أن السبب الرئيسي للاضطرابات هو تخاوف العرب الحقيقية من ازدياد الهجرة الصهيونية الجماعية. ونشير هنا الى أن عدد المهاجرين الذين سمحت لهم سلطات الانتداب بالهجرة الى فلسطين سنة ١٩٢٠ كان ١٦٥٠٠ مهاجر. ومما هو جدير بالذكر أنه في سنة ١٩٢١ جرى تعيين الحاج أمين الحسيني مفتيا لمدينة القدس.

وفي آذار/مارس ١٩٢٥ جرى في فلسطين اضراب عام احتجاجا على زيارة اللورد بلفور صاحب الوعد المشؤوم لمدينة القدس للمشاركة في انشاء الجامعة العبرية التي تعتبرها الصهيونية ركنا أساسيا في دعم الكيان اليهودي في فلسطين.

اضطرابات سنة ١٩٢٩

منذ طفولتي كنت أسمع بالجمعيات الاسلامية - المسيحية وبالمؤتمرات والوفود الفلسطينية، والاصطدامات الدموية السالفة الذكر، واسمع عن تحيز البريطانيين لليهود واصرارهم على تنفيذ وعد بلفور رغما عن ارادة العرب. ولكن اضطرابات سنة ١٩٢٩ كانت أوسع اضطرابات وقعت في فلسطين منذ الانتداب، وكانت بدايتها في القدس ثم عمت جميع فلسطين ووقعت أخطر أحداثها في مدينة الخليل.

سأتوسع في الحديث عن هذه الاضطرابات للأسباب التالية:

١ ـ لأنني شاهدت بعض أحداثها بنفسي ووعيتها برغم صغر سني.

٢ ـ لأنها كشفت نوايا الحركة الصهيونية أكثر فأكثر كما كشفت للعرب التنظيم الصهيوني والاستعداد الصهيوني لتحقيق المخططات الصهيونية وأخص بالذكر الاستعدادات العسكرية.

٣ ـ لأن كثيرا من التشويه والشائعات أحاطت بهذه الأحداث وعشش بعضها حتى في أذهان بعض أبنائنا.

كان من عادة أهل مدينة الخليل أن يهجروا منازلهم في فصل الصيف وينتقلوا الى السكنى في الكروم، وهي كروم العنب والتين والفاكهة والخضر التي كانت، وما زالت، تحيط بمدينة الخليل مشكلة غوطة جبلية خضراء. وكانت هذه العادة مفيدة جدا وذات أثر ملموس في تربية أبناء الخليل حيث يتعودون الاعتماد على النفس وتحمل المشاق. وكانت عائلتنا تسكن الكروم سنويا. وحتى بعد انتقال العائلة الى القدس، كنا ننتقل أنا ووالدتي وأخوتي الى الخليل ونسكن الكروم في صيف كل سنة.

وفي آب / أغسطس ١٩٢٩ بينما كنا نقيم في الكروم حدثت الاضطرابات الدموية المشار اليها، وشاهدت بأم عيني الحرائق والقتلى وسمعت اطلاق الرصاص بغزارة لأول مرة في حياتي والذي حدث هو ما يلي:

كان للصهيونيين عدة أحزاب في فلسطين أهمها الماباي الذي يضم الهستدروت ويكوّن الأكثرية في الوكالة اليهودية ورئيسه في ذلك الوقت حاييم وايزمن. والحزب الاصلاحي، وزعيمه في ذلك الوقت فلاديمير جابوتنسكي، وهو الحزب الذي يسمى اليوم حيروت ويرئسه شمير حاليا، ومن قبله مناحم بيغن. وكان من سياسة حزب الماباي أن يتستر ما أمكن على أهداف الحركة الصهيونية إزاء فلسطين والعرب مستعملا وسائل الدعاية والتمويه والبرامج الطويلة المدى، لئلا ينتبه العرب الى حقيقة أهداف الصهيونية ويقاومونها قبل أن ترسخ أقدامها.

أما الحزب الاصلاحي فكان خلاف ذلك، يرى أن أهداف الصهيونية يجب أن تكون معلنة وأن تحقيقها يتم باستخدام القوة والسلاح، وكان شعار هذا الحزب، هو شعار منظمة الإرغون (إيتسل) فيما بعد، يتضمن خريطة فلسطين وشرق الأردن وجنديا مسلحا يحمل بندقية ويضع قدما في فلسطين وأخرى في شرق الأردن وكتب تحت الصورة عبارة (هكذا فقط).

وفي آب / أغسطس ١٩٢٩ وبمناسبة عيد الأحزان قام الحزب الاصلاحي بمظاهرة شبه عسكرية في تل أبيب. ثم قام بمظاهرة مماثلة في القدس، فسار طابور عسكري من رجاله من شارع يافا الى باب الخليل ودخل مدينة القدس القديمة وسط الأسواق والأحياء العربية الى أن وصل الى ساحة حائط المبكى (البراق الشريف) وأدوا صلواتهم وقاموا بطقوس وأعمال ممنوعة وفقا لمبدأ (الستاتيكو) أي: القديم على قدمه، الذي كانت اعتمدته حكومة الانتداب البريطاني فيما يتعلق بالحقوق الدينية للطوائف المختلفة وشؤونها. ومن جملة ما فعلوه النفخ في الأبواق المصنوعة من قرون البقر، وذلك يعني عندهم الدعوة إلى إعادة اقامة هيكل سليمان على أنقاض الحرم القدسي الشريف. ثم عادوا من حيث أتوا في طابور عسكري مخترقين الأحياء العربية ومنشدين الأناشيد الصهيونية. وفي ذلك كله لم تتعرض لهم سلطات الحكومة البريطانية في شيء. أثار هذا الاستفزاز المشاعر والمخاوف العربية، فقام العرب في يوم الجمعة الثاني بمظاهرة شعبية كبيرة في مدينة القدس، حيث توافدت على القدس من القرى المجاورة جماهير غفيرة ثائرة. وكان الفلاحون الفلسطينيون يشكلون ٧٥٪ من عرب فلسطين وكانوا أكثر طبقات الشعب تحسسا بخطر الصهيونية لأنها تهدف إلى الاستيلاء على الأرض، مصدر رزقهم، كما أن حكومة الانتداب كانت أثقلت كاهلهم بالضرائب.

انطلقت المظاهرة من المسجد الأقصى المبارك بعد صلاة الجمعة، وجابهتها السلطة، فانتشرت في أنحاء المدينة وأطرافها، حيث جرت هجمات غير منظمة على بعض الأحياء اليهودية، وكان العرب مسلحين بالعصي والحجارة، ولا يحملون أسلحة نارية.

رد اليهود على هذه الهجمات ردا عسكريا منظما، وكشفت هذه الأحداث أن لدى اليهود قوات عسكرية مسلحة (الهاغاناه) اتخذت لها مقر قيادة تجمع فيه الجنود المسلحون، وكانت تحت تصرفهم عدة سيارات. وراحت القيادة توجه النجدات العسكرية الى كل منطقة يقع عليها هجوم عربي فترده بالسلاح الناري وتقتل وتجرح العشرات. أما رجال الشرطة الانكليز فوقفوا يدافعون عن الأحياء اليهودية يساعدهم في ذلك جميع الموظفين البريطانيين المدنيين الذين حملوا السلاح الى جانب رجال الشرطة.

أسفرت الاشتباكات في اليوم الأول عن سقوط عدد من القتلى والجرحى العرب أكثر بكثير مما سقط من اليهود مما أثار الرأي العام في جميع أنحاء فلسطين، وترتب على ذلك وقوع مصادمات بين العرب واليهود في معظم مدن فلسطين، خاصةً في الخليل وصفد ويافا فضلا عن القدس. واستمرت المعارك أكثر من أسبوع على الرغم من اعلان الأحكام العرفية واستخدام الجيش البريطاني في إخمادها. وسقط في هذه المعارك في عموم فلسطين ١٣٣ قتيلا يهوديا و ٣٣٩ جريحا ومن العرب ٩١ شهيدا و ١٨١ جريحا.

سأتحدث الآن عما جرى في مدينة الخليل حيث كنت شاهد عيان وحيث كان عدد القتلى أكثر من أي مكان آخر.

عندما وقعت الاضطرابات في القدس يوم الجمعة، وصلت أخبارها الى الخليل فأثارت الرأي العام على أساس أن (اليهود ذبحوا العرب في القدس). وفي صباح اليوم التالي، السبت، شكّل بعض الشباب والطلاب مظاهرة احتجاجا على أحداث القدس، مما أدى الى اغلاق الدكاكين واشتراك عدد كبير من الأهلين في المظاهرة. وطوقت قوات من البوليس الخيالة المظاهرة. وفي بداية الأمر لم يحاولوا تفريقها، وكان على رأس قوات البوليس مساعد مدير البوليس البريطاني (كفراتا)، وكان أفراد البوليس الخيالة من العرب وبينهم خيال يهودي واحد حاول بعض الشباب الاعتداء عليه، وهنا ـ وكما روى لي أكثر من شخص ـ قال رجال البوليس للمتظاهرين: لا تمسوا هذا الشرطي وأمامكم بيوت اليهود لن يمنعكم أحد من مهاجمتها. وفي أثر ذلك انقسمت المظاهرة بشكل مرتجل الى جماعات هاجمت البيوت التي يسكنها اليهود الصهيونيون بالعصي والحجارة والسكاكين (الشباري) ولم تستعمل الأسلحة النارية. واستمر الهجوم ساعتين أو ثلاث ساعات واستهدف، في الدرجة الأولى، بيوت اليهود الصهيونيين، أي المهاجرين الجدد. أما يهود الخليل القدامى فقد أجارهم جيرانهم وحموهم في بيوتهم، وكانوا أكثرية يهود الخليل.

وكان رجال البوليس خلال ساعات الهجوم يطلقون النار في الهواء بغزارة، ولكن في النهاية تغير الأمر وأطلق مساعد مدير البوليس النيران على الأهلين ويعتقد أنه قتل بنفسه ١٥ من العرب. وبعد الظهر توقف الهجوم وتفرق الناس وتوجهت نجدات من أهالي الخليل المسلّحين إلى مدينة القدس حيث استمرت الاشتباكات في ذلك اليوم ولمدة أسبوع، واشتركت

فيها نجدات عربية مسلحة جاءت من عدة أنحاء بما في ذلك من شرق الأردن.

أما في الخليل فقام البوليس بعد الظهر بجمع جميع اليهود الناجين ونقلهم الى مركز البوليس في وسط المدينة وكانوا كلهم مختبئين في بيوت جيرانهم العرب، وجاوز عددهم ٦٠٠ شخص تم ترحيلهم الى القدس. أما القتلى اليهود فبلغ عددهم حوالي ٦٠ قتيلا بموجب احصاء الحكومة وبيانها الرسمي و ١٢٠ قتيلا على أكبر تقدير. وأعلنت الحكومة الأحكام العرفية فورا ونقلت الى الخليل قوات من الجيش البريطاني وفرضت منع التجول وأطلقت النار على كل شيء يتحرك في المدينة مما أدى الى سقوط عدة قتلى.

انتشرت في البلاد بل وفي أنحاء العالم شائعات كاذبة بالغت في عدد القتلى وتحدثت عن حوادث تشويه القتلى. والحقيقة أنه لم تقع أعمال تمثيل بالقتلى بتاتا. وجرت بالفعل أعمال نهب في البيوت التي هوجمت، ولكن قصر مدة الهجوم جعلت أعمال النهب محدودة.

استمرت أعمال الارهاب العسكري ضد العرب فترة طويلة في طول البلاد وعرضها وخاصة في مدينتي الخليل وصفد. ثم فرضت على مدينة الخليل غرامة مالية جماعية قدرها ١٢٠٠٠ جنيه فلسطيني جمعت من الناس (بالكرباج). فكل من كان يمتنع أو يعجز عن الدفع يعتقله رجال الشرطة والجيش ويضربونه بالسوط وسط المدينة وعلى مرأى من الناس، الى أن يتقدم من يدفع عنه المبلغ المطلوب. واعتقل عدد كبير من الرجال ثم جرت محاكمات بشكل ارهابي وصدرت أحكام قاسية تضمنت إعدام شابين من الخليل هما الشهيدان عطا الزير ومحمد جمجوم، وشاب من صفد هو الشهيد فؤاد حجازي. كما صدرت أحكام بالسجن المؤبد وبالسجن ١٥ عاما وعشرة أعوام على عدد كبير من شبان الخليل يقارب الأربعين، فضلا عن أحكام كثيرة أخرى أقل مدة. وفي يوم الثلاثاء السادس عشر من حزيران/ يونيو ١٩٣٠ تم اعدام الشهداء الثلاثة في سجن عكا وكان يوم اعدامهم يوما مشهودا أضربت فيه البلاد اضرابا عاما، وجرت مظاهرات واسعة، خاصة في مدينة عكا. وبرز في هذه المظاهرات حسن مكاوي ضابط البوليس الذي عرف فيما بعد بحسن الكاتب وهذا الشخص أبدى وقاحة وتحديا للمشاعر الوطنية خدمة لأسياده المستعمرين فأقدم على ضرب المتظاهرين بنفسه وانتزع من أيديهم العلم العربي وداسه ومزقه على مرأى من الناس.

في أثناء تنفيذ الاعدام كان المؤذنون ينعون الشهداء وكانت أجراس الكنائس تدق دقات حزينة في طول البلاد وعرضها مما شحن نفوس الناس بالأسى والحقد على المستعمرين والصهيونيين. وبطبيعة الحال وكما جرت العادة ألفت الحكومة البريطانية لجنة تحقيق لتهدئة الخواطر وايهام الناس بالعدالة.

٤ نشأتي وتربيتي

التربية السياسية النضالية

نشأت في مرحلة مشتعلة من مراحل النضال العربي الفلسطيني، لا أسمع فيها الا الحديث عن الاحتلال البريطاني الظالم، وعن وعد بلفور والصهيونية، وعن مساندة الانكليز للحركة الصهيونية، وتعهدهم باقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، ووضع البلاد في ظروف سياسية واقتصادية تساعد على انشاء الوطن القومي اليهودي بما في ذلك تسهيل الهجرة الصهيونية الى فلسطين، وتسهيل استيلاء الصهيونيين على الأراضي. وكنت وأبناء جيلي نلاحظ بوضوح ازدياد عدد اليهود في القدس، ونشعر بازدياد خطرهم. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كنت أسمع باستمرار أخبار المظاهرات، والاضرابات والاضطرابات، والمؤتمرات الوطنية للاعراب عن رفض الانتداب البريطاني، ومقاومة سياسة وعد بلفور والمطالبة بالاستقلال. وكنت استمع باعجاب الى قصص البطولة التي يبديها شعبنا في مقاومته وكنت شغوفا جدا بحضور محاكمة العرب الوطنيين الذين يحاكمون لمقاومتهم الاستعمار والصهيونية.

ومن أبرز المحاكمات التي شهدتها في صغري في القدس سنة ١٩٢٩ / ١٩٣٠ محاكمة مجموعة من رجال مدينة الخليل عددهم اثنا عشر رجلا، من بينهم الشهيدان محمد جمجوم وعطا الزير، وكان بينهم أيضا عمي ابراهيم أبوغربية شقيق والدي، الذي كنت أزوره في سجن المسكوبية بانتظام، لأحمل إليه ملابس نظيفة وطعاما. وكان مشهد السجناء وهم مقيدون بالأصفاد والسلاسل، عندما ينقلون من السجن إلى المحكمة وسط الحراسات المشددة، منظرا لا ينسى. أما جلسة المحكمة التي صدرت عليهم فيها الأحكام، وقد حضرتها بالطبع، فكانت مثيرة جدا باجراءاتها وشكلياتها وبأحكامها القاسية. ولا يمكن أن أنسى منظر القضاة البريطانيين وهم يرتدون ألبسة تقليدية وعلى رؤوسهم شعور مستعارة مختلفة الأنماط. ولا يمكن أن أنسى صيغة النطق بحكم الاعدام على الشهيدين جمجوم والزير، وبالسجن المؤبد أو بالسجن خمسة عشر عاما على معظم المتهمين الباقين.

وفيما بعد أثارتني أخبار اعدام الشهداء، جمجوم والزير وفؤاد حجازي، وكيف تسابقوا الى المشنقة، وكيف حكم على ١١٨٨ عربيا بالسجن مددا مختلفة معظمها بالسجن المؤبد أو لخمسة عشر عاما. أما اليهود فحكم على واحد منهم بالاعدام وهو شرطي يهودي قتل عائلة عربيّة بأكملها ومع ذلك استبدل هذا الحكم بالسجن سبع سنوات.

التربية المدرسية

كان أساتذتنا في المدارس الحكومية يتحلون بروح وطنية في معظم الأحيان، وكانوا يغرسون فينا روح النضال ومقاومة الاحتلال والسعي الى الاستقلال. وكانوا يؤكدون أننا جزء من الأمة العربية، ويغرسون في نفوسنا حب العرب ويمجدون تاريخ العرب، ويحببون لنا الوحدة العربية ورفض التجزئة والتسميات الاقليمية التي خلقها الاستعمار في وطننا العربي لدرجة أنهم كانوا يطلبون منا أن لا نستعمل لفظة فلسطين ولا عبارة شرق الأردن وأن نستعمل بدلا منها عبارة (سوريا الجنوبية).

التربية البيتية

لم تكن التربية البيتية تقل أثرا عن التربية المدرسية، وكان آباؤنا وأمهاتنا يعربون عن عدائهم للاستعمار وشعورهم بالأخطار التي يحملها المستقبل لنا، ولذلك كانوا يشحنون الأبناء بروح المقاومة من حيث يقصدون أو لا يقصدون. وكانت والدتي رحمها الله تشجعني على الاشتراك في المظاهرات. وفيما بعد، عندما بدأت تشعر باحساس الأم المرهف، أنني كنت أشارك في عمليات المقاومة المسلحة، وكنت أخفي ذلك عنها، كانت تقدم لي النصائح بشكل غير مباشر، كأن تقص علي أقاصيص سمعتها عن الأبطال، وكيف يتصرفون بجرأة وحذر، وكيف يضللون أعداءهم. فتقول لي مثلا: لا تكتب اسمك على طربوشك أو على منديلك لئلا يسقط منك في أثناء قيامك بعملية فيُستدل به عليك. كما تقول: سمعت أنه عندما يطلق الانسان النار على عدوه بالمسدس، أو يطعنه بالسكين، يلعق كعب المسدس او السكين لكي لا (يعرقب) اي لكي لا يتشنج فلا يستطيع الهرب.

الصحافة

تمتعت الصحافة الفلسطينية بقسط من الحرية قبل ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩. وكان لها شأن في تربية الوعي والروح الثورية، وكانت تهاجم الاستعمار، وتكشف حقيقة نوايا الانتداب البريطاني وأخطار سياسته على مستقبل شعبنا وبلادنا. وبالاجمال ساهمت الصحافة مساهمة كبيرة في تربية جيلنا تربية نضالية. وكانت أبرز الصحف في الثلاثينات: فلسطين والدفاع والجامعة الاسلامية والجامعة العربية واللواء. وبعد ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ فرضت الرقابة الشديدة على الصحف وكان يشرف على ذلك مدير المطبوعات في ذلك الوقت البريطاني مستر تويدي ومساعده العربي محمد كمال.

المواسم الشعبية

كانت لنا في العشرينات والثلاثينات مواسم (أعياد) شعبية مهمة شكلت متنفسا وطنيا لنا. ولكن سلطات الانتداب البريطاني عملت على تقليصها منذ سنة ١٩٣٨، حتى غدت محدودة وكأنها غير موجودة. ومن هذه المواسم موسم زيارة مقام النبي موسى، وموسم النبي روبين، وموسم النبي صالح، وموسم الخضر وغيرها. وكان لهذه المواسم شأن كبير في ثقافتنا الشعبية وتعلقنا بأمجاد أمتنا.

أهم هذه المواسم وأبرزها موسم زيارة مقام النبي موسى قرب مدينة أريحا، حيث كانت تقام الاحتفالات الرئيسة بهذا الموسم في مدينة القدس لمدة أسبوع. وكان سن لنا هذه السُنّة وشرع لنا هذه الاحتفالات البطل المجاهد صلاح الدين الأيوبي طيب الله ذكره. وظل أجدادنا وآباؤنا يتوارثون إحياء هذه الاحتفالات.

تأخذ احتفالات موسم النبي موسى شكل المواكب أو المظاهرات الشعبية واسعة النطاق وتشترك فيها عشرات الألوف. كنا نرقص فيها وندبك، وننشد الأناشيد والأهازيج الوطنية، ونهتف ضد الانتداب والصهيونية، ونطالب بالحرية والاستقلال، ونشعر بنشوة وطنية عندما نشاهد الأعلام: علم القدس الأحمر، وعلم الخليل الأخضر، وعلم نابلس البنفسجي، وكذلك أعلام المسجد الأقصى والنبي داود والنبي موسى. وكانت تحف بكل علم من الأعلام غابة من السيوف المشرعة وكأنها حرس شعبي. وكان يبهرنا منظر المفتي الحاج أمين الحسيني وهو يسير في الموكب ممتطيا حصانا أبيض ويحيي الجماهير.

الكشافة

شُغفت منذ صغري بالرحلات والحياة الكشفية. ففي سنة ١٩٢٦ / ١٩٢٧ المدرسية انتظمت في فرقة أشبال مدرستنا ــ مدرسة التمرين ــ بالقدس. وكان معلمنا وقائدنا المرحوم الأستاذ فخري جوهرية. وعندما انتقلت الى مدرسة الحكومة في حيفا سنة ١٩٢٧ / ١٩٢٨ المدرسية، انتسبت الى فرقة المدرسة الكشفية، وكان معلمنا وقائدنا الأستاذ عبد الله تيمور. وإن أنسَ لا أنسى مخيما أقمناه مع أستاذنا على جبل الكرمل وسط الأحراج، حيث هاجمت المخيم في احدى الليالي ضبع فقتلناها.

في ربيع سنة ١٩٣٥ شاركت في مخيم بئر سالم. وهو مخيم تدريبي لأساتذة الكشافة، كان يقام في ربيع كل سنة لمدة خمسة عشر يوما في موقع بئر سالم غربي مدينة الرملة. ومع أن قائد هذا المخيم كان مدير المعارف المستر بومان وهو استعماري بريطاني عريق ومساعده المستر هوغبن ومعلم الرياضة المستر توملنسن شعرت أنني استفدت من مشاركتي في هذا المخيم ومن الحركة الكشفية عموما خبرات ومهارات وكفاءات ذات قيمة، كالصبر على

الشدائد، والاعتماد على النفس، والروح القيادية. وقد حصلت في نهاية المخيم على وسام الغاب وهو أدنى وسام يمنح لأساتذة الكشافة وقادتها، ويؤهلهم لتأليف الفرق الكشفية وقيادتها. وأذكر من أساتذتنا ومدربينا في هذا المخيم المرحومين الأساتذة عبد الله تيمور، وفوزي محيي الدين النشاشيبي، وفخري جوهرية، وروبرت كفلكنتي.

ثابرت فيما بعد لفترة طويلة على المشاركة في الحركة الكشفية كقائد ومدرب سواء في المدرسة الابراهيمية أو في الأندية الرياضية أو في التنظيمات شبه العسكرية كحركة النجادة وحركة الفتوة في أواخر الأربعينات. وأتاحت لي الحياة الكشفية التعرف الجيد على بلادي في مدنها وقراها وجبالها وسهولها وأوديتها وأنهارها وينابيعها وشواطئها وحتى مغارات جبالها، مما أفادني في مستقبل حياتي النضالية، وحبب الي وطني. وكانت الحياة الكشفية بالنسبة إلي حقلا ممتازا لتربية جيل وطني مناضل وتنظيم عدد من الشبان حملوا السلاح الى جانبي في سنة ١٩٤٧ / ١٩٤٨.

الرياضة البدنية

نشأت منذ الصغر ميالا للرياضة البدنية، أقبل عليها في المدرسة بشغف شديد سواء في درس الرياضة البدنية التقليدي أم في لعبة كرة القدم بعد انتهاء الدروس. وكنت أرتاد في القدس ملعبين غير ملاعب المدرسة: ملعب حارة السعدية أو ملعب الأميركان وكان قريبا من مدرستنا ــ المدرسة الرشيدية ــ والآخر ملعب النبي داود، قرب البيت الذين سكناه في حي النبي داود منذ سنة ١٩٢٧ حتى سنة ١٩٣٢. وكان في الملعبين أراجيح ومتوازيان وطاولة لكرة الطاولة وغير ذلك من أدوات الرياضة، كما كنا نلعب كرة القدم وكرة السلة والكرة الطائرة.

ومن الطريف أن ملعب النبي داود اقامته هيئة يهودية، ربما كانت الوكالة اليهودية، واختارت له موقعا بين حي النبي داود العربي وحارة اليهود في مدينة القدس القديمة. وكان يرتاده الأولاد من العرب واليهود وكانوا يقولون ان الهيئة اليهودية أنشأته لكي ينشأ فيه جيل من العرب واليهود يحبون بعضهم. فجاءت النتيجة على عكس ذلك، وأصبح الملعب مبعثا للكراهية وميدانا للمشاجرات الحادة بين العرب واليهود. وكانت لي في هذه المشاجرات صولات وجولات مع الأولاد اليهود ومع الأستاذ اليهودي المشرف أدون ألوف ومع الحارس موسى، مما أدى الى سوقي للمرة الأولى في حياتي سنة ١٩٣١ الى مخفر حارة اليهود مع عدد من أصدقائي الفتيان العرب، حيث أطلقوا سراحنا بالكفالة. وأغلب ظني أن الغاية من انشاء هذا الملعب وأمثاله التغطية على أغراض الحركة الصهيونية وأخطارها.

في سنة ١٩٣٤ انتسبت إلى النادي الرياضي الاسلامي بالقدس وكان مقره في شارع مأمن الله. وكان النادي المنافس في ذلك الوقت هو النادي العربي، وكنت أرتاده أحيانا

وكان لي فيه صديق عزيز مناضل هو الشهيد عوني الشهابي. تدربت في النادي الاسلامي على الملاكمة والمصارعة ورفع الأثقال والركض لمسافات طويلة. وقد رافقني في هذا النادي وفي هذه النشاطات صديق المدرسة العزيز الشهيد سامي الأنصاري رحمه الله، حيث كنت واياه نتلاكم يوميا لساعات، أو نركض عدة كيلومترات. وكان من أصدقائنا في النادي من أبناء جيلنا، موسى محمود السلوادي وأحمد علي عريقات. وأذكر من أعضاء النادي الأكبر سنا موسى رصاص، وابراهيم عوض، وضياء الدين النمري، وكاشف مراد، وزهدي عوض.

وفيما بعد أغرمت برياضة الدراجات الهوائية، فتدربت عليها تدريبا شاقا. وفي صيف ١٩٣٥ قمت برحلة كشفية على الدراجات بمصاحبة سبعة من زملائي الجوالة أذكر منهم أحمد علي العيساوي وعاشور معتوق ويوسف ناصر وأيوب الحموري. وكانت هذه الرحلة شاقة جدا، ركبنا من القدس الى أريحا والسلط وعمان، وجرش واربد ثم بيسان وجنين ونابلس ورام الله والقدس. واستغرق ذلك ستة أيام فقط.

والجدير بالذكر أنني دونت يومياتي في هذه الرحلة، أورد هنا فقرة منها:

«في الخامس عشر من شهر تموز [يوليو] سنة ١٩٣٥ استيقظنا مع الفجر وركبنا دراجاتنا متجهين من بيسان الى جنين، وبعد مسيرة نحو ساعة توقفت مع زميلين على أبواب مستعمرة (عين حارود) اليهودية ننتظر وصول باقي رفاقنا. فاستلفت نظرنا جمال المستعمرة ومزارعها المتطورة واستلفت نظري أكثر من ذلك منظر قافلة جمال عربية تحمل حصاد القمح، مارة من أمام المستعمرة، والى جانبها جرار يهودي يقطر مقطورة تحمل من حصاد القمح أضعاف ما تحمله القافلة، وترامت أفكاري إلى البعيد وتساءلت: ماذا يخبىء لنا المستقبل؟».

التربية الدينية

نشأت منذ الصغر متدينا، في بيئة بيتية متدينة، فكان الدين الاسلامي من أكبر المقومات التي بنيت عليها شخصيتي وتركيبي الذهني والنفسي، من الناحيتين الأخلاقية والنضالية. كنت ولا أزال شديد الاعجاب بشخصية الرسول الكريم محمد ﷺ، وجهاده القاسي الطويل، وأخلاقه الحميدة. وحاولت جهدي في صغري وشبابي وطيلة حياتي ان أتخلق بأخلاقه وأن أنهج نهجه، متخذا لي شعارا من أقواله (الدين المعاملة) ذاكرا الصفة التي كرمه بها الله (وانك لعلى خلق عظيم). ودرست الكثير مما كتب أو نشر عنه، ومن ذلك سيرة ابن هشام كما كنت أتلو القرآن الكريم كثيرا، خاصة في شبابي واختم قراءة المصحف في رمضان أكثر من مرة وأتمعن في تفسيره. وكنت أحفظ غيبا كثيرا من السور بل الأجزاء. وجمعت معظم الآيات التي تحض على الجهاد والاستشهاد وحفظتها غيبا وما أزال.

وشغفت في شبابي بقراءة كتب التصوف وما كتب عن الصوفية مما كان له أثر في سلوكي. وكنت أتبنى ما كنت أدعوه (صوفية المناضلين) وأورد قول رابعة العدوية في حب الله:

«أحبك لا طمعا في ثوابك، ولا خوفا من عقابك، ولكن لأنك تستحق الحب». وأرى أن المناضل الصوفي يناضل لا طمعا في مغنم ولا خوفا من لومة لائم، ولكن لأن وطننا يستحق الحب ويستحق أن نموت في سبيله.

الثقافة المدرسية والثقافة الذاتية

لا شك في أن الكتب المدرسية التي تعلمت فيها والكتب التي قرأتها فيما بعد ساهمت أيضا في تكوين شخصيتي. كنت قارئا جيدا طيلة حياتي، تستهويني قراءة التاريخ والحقوق والأدب العربي وتاريخ الثورات. قرأت بل أقول درست منذ الصغر بالتفصيل تاريخ الثورة الفرنسية، وحرب الاستقلال الأميركية، وثورة كرومويل في بريطانيا، وثورة أكتوبر الاشتراكية، وقرأت كتاب رأس المال لكارل ماركس وكثيرا من الأدبيات الماركسية ـ اللينينية، كما قرأت كتاب كفاحي لأدولف هتلر.

وقرأت الكثير من الكتب القومية العربية، وتاريخ الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية والثورة السورية في أول عهد الاحتلال البريطاني للعراق والاحتلال الفرنسي لسوريا.

وكنت مولعا بحفظ الشعر العربي القديم والحديث، فحفظت الكثير من القصائد القصيرة والمطولات، سواء كانت تتعلق بمنهج الدراسة أم لا. وكنت أتخذ من بعض الأبيات شعارات لي ظلت تلازمني طيلة حياتي ومنها:

إذا القومُ قالوا مَنْ فَتى خِلْت انني عُـنيت فلم أكسل ولم أتبلدِ

وكنت أتوسع في فهمي لهذا البيت (الشعار) وتطبيقه فأحاول أن أكون دائما في طليعة المبادرين والشاعرين بالمسؤولية العامة، المتقدمين للعمل والتضحية.

وأود أن أسجل هنا، أنني تأثرت كثيرا بمسرحية يوليوس قيصر لشيكسبير التي درستها باللغة الانكليزية في المدرسة. وكنت وزميلي في الصف وصديقي الحميم ورفيقي في النضال فيما بعد الشهيد سامي الأنصاري نحفظ هذه المسرحية الشعرية ونحن في الصف الثاني الثانوي عن ظهر قلب بالرغم من صعوبة شعر شيكسبير على الطالب العربي. وأسجل هنا أيضا أنني كنت معجبا بشخصية (كاشيوس) شخصية الثوري المتحرك المنظم، الذي يأخذ دور الشخص الثاني مع أنه هو الذي يحرك الشخص الأول (بروتس).

الأناشيد الوطنية

كانت للأناشيد الوطنية أهمية كبيرة وآثار ملموسة في تربيتنا الوطنية فكنا نحفظها غيبا وننشدها في مناسبات كثيرة في المدارس والرحلات و(الشطحات) المدرسية وفي الاحتفالات الشعبية وخاصة في موسم زيارة مقام النبي موسى. ولولا أن يخرج بي القلم عن الصدد

لدونت الكثير من القصائد التي ما زلت حتى اليوم أحفظها كاملة تقريبا، ولا أملك الآن الا أن أدون بعض الأبيات. واستميح القارىء عذرا في ذلك، لأنني مندفع عاطفيا لتدوينها وأشعر أن هناك فائدة للقراء لأنها تعطيهم فكرة عن التوجهات الوطنية والقومية والفكرية في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن بل ربما لأبعد عن ذلك، واليكم الأبيات المختارة:

أ ـ ويلي على أوطاني من غارة العدوان
قد قرّحت أجفاني مبادىء السلام
أبدوا لها ابتساما واظهروا الوئام
حتى قضوا المرام سقوها الاقتسام
سمعتها تنادي والنار في فؤادي
هلموا يا أولادي لنيل الاستقلال
هلموا للقتال ورفع الاحتلال
ونيل الاستقلال بالصارم البتّار

***

ب ـ شبوا على الخصم اللدود نار الوغى ذات الوقود
يا أيها العُرْب الكرام يا أيها العرب الأسُود
الى متى أنتم نيام الى متى أنتم جمود
سيروا الى الموت الزؤام وامشوا له مشي الأسود

***

جـ ـ الحماية والوصاية كل ذا معنى الأسرْ
وعلى العيش بذلّ أبدا لا نَصْطَبِرْ

***

د ـ نحن جند الله شبان البلاد نكره الذل ونأبى الاضطهاد
فارفعوا الأعلام وامشوا للجهاد حيث أعدانا تمادوا في الغرور

***

هـ ـ عرّف من أنت يا عربي قوماً ظَنُّوك بلا نسب
جهلوا ماضيك وأنت به فَخْر الدنيا وسَنا الحَسَب

***

و ـ بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان
ومن نجد الى يمن الى مصر فتطوان
فلا حد يباعدنا ولا دين يفرقنا
لسان الضاد يجمعنا بغسان وعدنان
لنا مدنية سلفت سنحييها وان دثرت
ولو في وجهنا وقفت دهاة الانس والجان

***

ز ـ سل الرماح العوالي عن معالينا واستشهد البيض هل خاب الرجا فينا
إنــا لَقَـوْم أبت أخلاقنا شرفا أن نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا

***

ح ـ سيروا للمجد طرا سيروا للحرب
واستعيدوا بالمواضي دولة العرب
أيه أمة العرب

كنتم فيما تَمَضَّى بهجة الأزمان
فلماذا اليوم ترضى عيشةَ الهوان
أيه أمة العرب

***

ط ـ سائلوا عنا العصور الأولى يوم فقنا الناس مجداً وعلا
سائلوا الشام ومصر والعراق وسواها سائلوا السَّبعَ الطِّباق
سائلوا الأسياف السُّمر الرقاق ما بيننا من عوالي الحَسَب
أيها الشبان هبوا فالرقاد ضربَ الأطناب في كل البلاد
فَحُرِمْنا النفعَ والغير استفاد نائلاً كل المُنى والأرب
أن يكن هَدَّم قوم ذهبوا مجدنا العالي وعنه رغبوا
فمعالينا لنا ترتقب وتنادينا بمجد العرب

***

ي ـ يا ظلام السجن خيم اننا نهوى الظلاما
ليس بعد الليل الا فجر مجد يتسامى
ايه يا دار الفخار يا مقر المخلصين
قد هبطناك شبابا لا يهابون المنون

***

ك ـ ان دماء الجدودِ ممزوجةٌ في ذي الترابْ
أنا على تلك العهودِ فلنمش لا نخشى الصعابْ
ولترتعد من أصواتنا شمُّ الهضب الرواسي ولْنَسِرْ
ولنسر

***

ل ـ سوريا يا ذات المجدِ والعزةِ في ماضي العهدِ
ان كنت لنا أسمى مهدِ فثراك لنا أهنا لحدِ
سندافع عنك بذا القلبِ فيه قد جال دم العُربِ
وسنحيي المجد في الرمسِ بأُولي عزم وأُولي بأسِ
جهلوا أبدا معنى اليأسِ ورأوا في الموت هنا النفسِ
فاسقِنا نَسْقِ ثراك دما كي نُحيي العزةَ والشمما
ونعيد به مجدا هَدمَ فالكل فِداك يا وطني

***

هذه القصائد الوطنية وغيرها شحنت نفوس جيلنا بروح قومية تحررية. ولاحظت أن معظم أبناء جيلنا الأحياء لا يزالون يحفظون هذه القصائد التي أنشدناها منذ أكثر من نصف قرن. وتجدر الملاحظة أن هذه القصائد جميعها تتجلى فيها الروح القومية والتطلع الى النهوض وبعيدة كل البعد عن الاقليمية، ولم يرد اسم فلسطين في أي منها، مما يدل على أن تربية جيلنا

كانت قومية وضد الاقليمية التي كان الاستعمار يحاول فرضها منذ ذلك الزمن. وكانت سليقتنا تأباها الى أن أفسد الاستعمار هذه السليقة وغرس الروح الاقليمية فيها بعد في غير جيلنا.

الأسس النظرية التي بني عليها حكم الانتداب والمفصّلة في صك الانتداب الذي أقرته عصبة الأمم في جنيف هي :

١ ــ ان فرض الانتداب ناشىء عن ان الشعوب العربية التي فرض عليها متأخرة ولا تستطيع ان تحكم نفسها بنفسها، ولا بد من مرحلة انتقالية تتولى الحكم فيها الدولة المنتدبة.

٢ ــ ان حكومة الانتداب على فلسطين مكلفة بوضع البلاد في اوضاع سياسية وادارية واقتصادية تضمن انشاء الوطن القومي اليهودي (المادة الثانية من صك الانتداب).

٣ ــ كما تضمنت المادة نفسها نصا عن تطوير مؤسسات الحكم الذاتي. وكان هذا يعني ان حكومة الانتداب تنقل بالتدريج شيئا من سلطاتها الى هيئة محلية تصبح مع مرور الزمن حكومة تحل محل حكومة الانتداب.

٤ ــ نصت المادة الرابعة من صك الانتداب على الاعتراف بوكالة يهودية ملائمة كهيئة عمومية لاسداء المشورة الى ادارة فلسطين والتعاون معها في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الامور التي قد تؤثر في انشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين. . الخ.

كما نصت فقرة اخرى من المادة الرابعة على الاعتراف بالجمعية الصهيونية.

القيادة الصهيونية

اعتبرت بريطانيا ــ من الناحية العملية والواقعية ــ الوكالة اليهودية الهيئة العمومية المحلية التي يجب ان تنقل اليها سلطات الحكم تدريجا لتحل فيا بعد محل حكومة الانتداب البريطاني. وهناك مؤشرات كثيرة فضلا عن صك الانتداب، تؤكد ان ذلك كان حقيقة نوايا الحكومة البريطانية والدول الغربية المشتركة في عصبة الامم وحكومة الولايات المتحدة الاميركية، على الرغم من كل اساليب التضليل ووسائل التعمية التي احاطوا بها صك الانتداب وتفسير مدلولاته في ذلك الوقت لتضليل العرب.

ومن المعروف ان الوكالة اليهودية منظمة عالمية ترتكز على منظمات صهيونية منتشرة في

انحاء العالم. ولم يكن لهذه الوكالة في البداية قاعدة شعبية في فلسطين نفسها سوى عدد قليل من اليهود الطلائع (المهاجرين اليهود الأوائل)، وكانت أغلبية اليهود في فلسطين في بدء الانتداب لا تؤمن بالحركة الصهيونية. وكان عدد اليهود في فلسطين في نهاية الحرب العالمية الاولى نحو ٥٦ الفا، نسبتهم ٨ ٪ يملكون ٢ ٪ فقط من ارض فلسطين.

وعلى ذلك تولت الوكالة اليهودية زعامة اليهود السياسية في فلسطين برئاسة حاييم وايزمن وحاولت ان تضم اليها جميع الاحزاب والمنظمات الصهيونية.

ومن الناحية الادارية والتنفيذية اعتبرت اهم واجباتها هي:

١ ـ نقل المهاجرين اليهود من انحاء العالم وتوطينهم في فلسطين.

٢ ـ جمع الاموال اللازمة للهجرة من جميع انحاء العالم وشراء الاراضي والاستيطان.

٣ ـ اعداد قوات مسلحة صهيونية استعدادا للمستقبل بحجة الحاجة اليها لحراسة المستعمرات اليهودية.

٤ ـ كان المهاجرون اليهود الوافدون من شتى انحاء العالم لا تربط بينهم روابط اجتماعية او ثقافية، ولا يتكلمون اللغة العبرية. فكان من اهم واجبات الوكالة اليهودية العمل على صهر اليهود المقيمين والوافدين في بوتقة اجتماعية وثقافية واحدة.

تولت الوكالة اليهودية منذ بدء الانتداب الاشراف على التربية والتعليم الخاصين باليهود في فلسطين، فأنشأت ادارة للتعليم مستقلة عن حكومة الانتداب، وليس لحكومة الانتداب عليها اية سلطة، سواء في مناهج التعليم او تعيين المعلمين اوتوسيع التعليم. وكل ما فعلته حكومة الانتداب هو انها خصصت في ميزانيتها حصة لتعليم اليهود تقدمها كل سنة للوكالة اليهودية من دون اية شروط. وتتولى الوكالة صرفها إلى جانب ما تخصصه الوكالة من ميزانيتها الخاصة للتعليم.

٥ ـ ضمت الوكالة اليهودية شعبا ادارية اخرى منها شعبة المساحة وتختص برسم خرائط البلاد واجراء الاحصاءات وجمع المعلومات المتعلقة بالاراضي ومساعدة دائرة التسوية التابعة لحكومة الانتداب في عملها لتمليك الاراضي المشاع مما يسهل عملية بيع الاراضي وشرائها. كما كانت تقوم بانتقاء انسب الاماكن لاقامة المستعمرات الجديدة.

ومن الشعب والدوائر الاخرى التي أنشأتها الوكالة اليهودية دوائر: الشؤون الاجتماعية والمالية والاعلام.

٦ ـ سمحت حكومة الانتداب البريطاني للوكالة اليهودية، بل ساعدتها في ايجاد قوة

عسكرية باسم الهاغاناه واعترفت بها رسميا وعينت في مراحل متقدمة ضباط ارتباط بين الجيش البريطاني في فلسطين والهاغاناه. وفي مراحل اخرى خصصت لتدريب الهاغاناه أمهر خبرائها في حرب العصابات (القائد البريطاني وينغيت) كما زودتها بالسلاح رسميا. وصدر بذلك اعتراف رسمي من حكومة الانتداب سنة ١٩٣١ حين اصدرت الحكومة بيانا رسميا قالت فيه انها زودت المستعمرات اليهودية بالبنادق ووضعتها في مستودعات مختومة لاستعمالها بقصد الدفاع في الاحوال الاضطرارية. وغضت حكومة الانتداب النظر عن عمليات تهريب السلاح الواسعة للمنظمات العسكرية الصهيونية.

٧ ــ على الصعيد التشريعي عيّنت حكومة الانتداب الخبير القانوني اليهودي بنتويتش مستشارا قانونيا للحكومة منذ اوائل ايام الانتداب، وعهدت اليه وضع القوانين التي تساعد في انشاء الوطن القومي اليهودي. وقام هذا الخبير، بموافقة حكومة الانتداب، بالغاء الكثير من القوانين المرعية وسن قوانين جديدة تناولت جميع نواحي حياة السكان، وكانت تهدف إلى:

أ ــ سلب السكان مظاهر الحرية كلها ووضع جميع الصلاحيات والسلطات في يد الحكومة. وكمثال على ذلك الغاء قانون البلديات العثماني الذي كان يخول مجالس البلديات صلاحيات واسعة، وسن قانون جديد، يلغي جميع صلاحيات مجالس البلديات ويضعها تحت السلطة المباشرة لحكام الالوية الانكليز.

ب ــ تسهيل تمليك اليهود الاراضي، كمثال على ذلك القانون الذي يسمح لحكومة الانتداب بالتنازل عن ملكية اراضي الدولة للمؤسسات ذات النفع العام، كما يسمح لها بأن تستولي على أراضٍ خاصة فتنتزع ملكيتها من اصحابها العرب وتملكها للمؤسسات «ذات النفع العام».

ج ــ فرض ضرائب جديدة باهظة على الاراضي يعجز الفلاحون عن ادائها، فكانت الضرائب تتراكم عليهم لعدة سنوات. ثم تعمد الحكومة الى بيعها بالمزاد العلني لكي تستوفي الضرائب، وبذلك كانت تنتقل الى الصهيونيين.

يتضح ان الوكالة اليهودية كانت منذ بداية الانتداب حكومة مصغرة تتمتع بصلاحيات وافقت عليها حكومة الانتداب، وافسحت لها في حرية العمل والحركة. وبذلك كانت لليهود في فلسطين قيادة منظمة فاعلة تدعمها حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين والحكومة البريطانية نفسها والدول الغربية عامة.

القيادة العربية

لم يعترف العرب بالانتداب البريطاني على فلسطين، واعتبروه غير شرعي وغير قانوني لأنه فُرض عليهم من غير موافقتهم، وهم الاكثرية الساحقة من سكان فلسطين. وكان الموقف العربي إزاء صك الانتداب ووعد بلفور مماثلا. ونتيجة لهذا الموقف الوطني وبسبب سير حكومة الانتداب في سياسة اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، كانت علاقة حكومة الانتداب بالحركة الوطنية العربية الفلسطينية سلبية باستمرار بل عدائية في كثير من الاحيان.

الجدير بالملاحظة ان القيادات العربية الفلسطينية ايام الحكم العثماني كانت لها علاقات قومية، ثم تحولت بعد الاحتلال البريطاني وتجزئة البلاد العربية الى علاقات قطرية وفقدت صلاتها القومية الى حد بعيد. ففي ١٩١٣/٦/٨ عقد في باريس المؤتمر العربي الاول وضم مندوبين عن الحركة القومية العربية في الاقاليم العثمانية. وحين تألفت جمعية العربية الفتاة، وكانت التنظيم الأول من حيث وضوح الرؤية والبناء السياسي، احتل بعض الفلسطينيين مواقع قيادية فيها أمثال عوني عبد الهادي. وفي تموز/يوليو ١٩١٩ عقد في دمشق المؤتمر العربي السوري الاول وكان يضم عددا كبيرا من ابناء فلسطين. وجاء في البيان السياسي لهذا المؤتمر ما يلي: «.. وبناء على ما شاهدناه من عزم الأمة الثابت على المطالبة بحقها والوصول الى ذلك بكل الوسائل، نعلن باجماع الرأي وحدة بلادنا السورية بحدودها الطبيعية بما في ذلك فلسطين، ورفض مزاعم الصهيونية في جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود ومحل هجرة لهم».

اخذ التيار الوطني الفلسطيني اطارا تنظيميا إقليميا بعد ذلك، فنرى ان عددا من الفلسطينيين ألفوا جمعية النهضة الفلسطينية ثم عادوا وأنشأوا في اول حزيران/يونيو ١٩٢٠ الجمعية العربية الفلسطينية لتعمل «في سبيل جَمْع كلمة الجمعيات الفلسطينية وتوحيد غاياتها، وتسعى الى مقاومة الهجرة الصهيونية، وابقاء فلسطين ضمن اطار الوحدة السورية»، وكان من بين اعضائها: ابراهيم القاسم عبد الهادي، وامين الحسيني (فيما بعد مفتي القدس)، وسليم عبد الرحمن، ومعين الماضي، وعزت دروزة، وعارف العارف. وتبلورت القيادة الفلسطينية في:

١ ــ **الجمعيات الاسلامية المسيحية**، التي كونت لفترة طويلة القاعدة الشعبية المنتظمة الواسعة. وكانت كل جمعية منها تمثل القيادة الشعبية في مدينتها، وتتمتع بتأييد شعبي واسع، ومن بين اعضائها كان يجري اختيار ممثلي كل مدينة في المؤتمر العربي الفلسطيني.

٢ ــ **المؤتمرات العربية الفلسطينية**، وكانت تتألف من ممثلي مختلف المدن، ومعظمهم من رجال الطبقة المتنفذة من رؤساء العائلات والعشائر والاغنياء. فمنذ سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٢٨ عقدت سبعة مؤتمرات رئيسة، وفي ١٩١٩/١٠/٢٦ عقد في القدس مؤتمر نسائي ضم

٣٠٠ مندوبة، وفي كانون الثاني / يناير **١٩٣٢** عقد في يافا مؤتمر الشباب العرب، وفي ايار / مايو **١٩٣٥** عقد مؤتمر الشباب العرب اجتماعه الثاني.

٣ ـ اللجان التنفيذية: كانت تنبثق عن كل مؤتمر لجنة تنفيذية تعتبر القيادة الوطنية للنضال الفلسطيني. وترأس اللجنة التنفيذية في العشرينات واوائل الثلاثينات المرحوم موسى كاظم باشا الحسيني (والد القائد الشهيد عبد القادر الحسيني) وكانت تضم نحو سبعين عضوا من الطبقة المتنفذة في ذلك الوقت.

ويشير تاريخ هذه القيادة النضالي الى ما يلي:

أ ـ انها بلورت الاهداف الوطنية في رفض الانتداب ووعد بلفور والهجرة اليهودية، والمطالبة بوقف الهجرة اليهودية ووقف تسرب الاراضي لليهود، وانهاء الانتداب واقامة حكومة وطنية يشارك فيها اليهود من سكان فلسطين قبل الاحتلال البريطاني ومن تناسل منهم.

ب ـ انها حظيت بتأييد شعبي واسع واستجابة شعبية لقراراتها.

ج ـ انها كانت مخلصة وصلبة في رفضها الانتداب وسياسة الوطن القومي اليهودي.

د ـ ان طبيعتها الارستقراطية كانت تجعل بعض اعضائها متذبذبا، فيتصور ان مهادنة الاستعمار ربما توصل الى حلول وسطية. غير ان التيار الشعبي كان في معظم الاحيان يمنع مثل هذه العناصر من التأثير في المسيرة الوطنية.

٤ ـ تشكيل الأحزاب السياسية: قام الحزبان الرئيسان في فلسطين على اساس تكتلات عائلية، ولم تتوفر لهذين الحزبين، في البداية ولفترة طويلة، بنية الاحزاب الحديثة.

أ ـ فحزب عائلة الحسيني (الحسينيون او المجلسيون او حزب المفتي) كما كان يسمى والذي عرف فيما بعد بالحزب العربي الفلسطيني كان رئيسه الروحي والفعلي الحاج امين الحسيني مفتي القدس ورئيس المجلس الاسلامي الاعلى، وكان امينه العام جمال الحسيني. وكان من اسباب قوته فضلا عن التكتل العائلي، سيطرة الحاج امين الحسيني على المجلس الاسلامي الاعلى وعلى أجهزة المحاكم الشرعية والاوقاف الاسلامية. وكان حزب المفتي الذي شكل رسميا باسم الحزب العربي الفلسطيني في **٢٤** نيسان / ابريل **١٩٣٥** يحظى بتأييد الجماهير الشعبية على نطاق واسع في المدن والقرى ومحاطا بالمشاعر الدينية بسبب شخصية الحاج امين الحسيني الدينية واعوانه من المشايخ والقضاة الشرعيين والائمة والوعاظ، هذا إلى جانب نفوذ قادته الذين كانوا من الزعماء العشائريين والاقطاعيين والاغنياء. وكان يستمد قوته من نشاطات الحاج امين الحسيني الاسلامية على مستوى الدول العربية والاسلامية. ونتيجة لذلك كله كان حزب المفتي يلقى تأييد نحو ٨٠٪ من عرب فلسطين.

ب ـ حزب عائلة النشاشيبي وكان يسمى (حزب النشاشيبيين، او حزب المعارضين)

وفيما بعد سُمي بحزب الدفاع. وكان رئيسه راغب بك النشاشيبي الذي كان فيما مضى عضوا في البرلمان العثماني (مجلس المبعوثان)، وقد عينته حكومة الانتداب رئيسا لبلدية القدس. استمد هذا الحزب شيئا من القوة والنفوذ مستفيدا من جهاز بلدية القدس، وكان الذراع اليمنى لراغب النشاشيبي قريبه فخري النشاشيبي. وهذا الحزب يؤيده عدد من رؤساء العائلات في القدس ونابلس. وشكل رسميا في ٢ كانون الاول / ديسمبر ١٩٣٤ باسم حزب الدفاع وكان مشابها في تركيبه القيادي للحزب العربي الفلسطيني، الا ان انصاره من الجماهير في المدن والقرى كانوا قلة، وكانت الشبهات تحوم حول قادته وعلاقاتهم بأجهزة الحكم والمخابرات البريطانية فضلا عن علاقته القوية بالامير عبد الله امير شرق الاردن.

ج ــ في سنة ١٩٢٥ أسست جمعية العمال العرب الفلسطينية وكانت نقابة عمال السكك الحديدية في حيفا القاعدة الاولى والصلبة لهذه الجمعية. وفي سنة ١٩٣٠ عقد في فلسطين مؤتمر العمال العرب الاول. ثم اصبحت لهذه الجمعية ولفروعها التي انتشرت في جميع مدن فلسطين قوة شعبية ملموسة يحسب لها حساب، وكان رئيس الجمعية سامي طه شخصية وطنية نشيطة.

د ــ في آب / أغسطس ١٩٣٢ أسس حزب الاستقلال من عناصر وطنية معروفة شاركت في العهد العثماني في جمعية العربية الفتاة السرية. وكان من ابرز اعضاء هذا الحزب عزت دروزة، وعوني عبد الهادي وعجاج نويهض، وقد قام هذا الحزب بدور جوهري في شحن الحركة القومية العربية بالروح الثورية فأسهم في تحويل المعركة في فلسطين ضد الانكليز مباشرة واعتبار الصهيونية ذيلا للقوى الاستعمارية.

هـ ــ في ١٠ أيار / مايو ١٩٣٥ اصبح مؤتمر الشباب حزبا رسميا مستقلا برئاسة الحاج يعقوب الغصين وهو من عائلة معروفة في منطقة الرملة. وكان يضم بعض القادة اليساريين مثل حمدي الحسيني من مدينة غزة، وكانت مواقفه وطنية ولكن نفوذه وشعبيته ضعيفان.

و ــ في ١٨ حزيران / يونيو ١٩٣٥ قام حزب الاصلاح برئاسة الدكتور حسين فخري الخالدي الذي اصبح في تلك السنة رئيسا لبلدية القدس. وفي السنة نفسها شكل ايضا حزب الكتلة الوطنية برئاسة عبد اللطيف صلاح من نابلس.

ز ــ اما الحزب الشيوعي فيعود تاريخ تأسيسه الى سنة ١٩١٩. ويذكر اميل توما في كتابه (**ستون عاما على الحركة القومية العربية الفلسطينية**، ص ٦٨): «حين بدأت عناصر من المهاجرين اليهود الذين وصلوا الى فلسطين من اوروبا بعد الحرب العالمية الاولى تنسلخ عن الجناح اليساري من الصهيونية بتأثير الافكار الاشتراكية العلمية التي اجتاحت اوروبا آنذاك». وفي سنة ١٩٢٤ بدأ الحزب يضم عربا الى صفوفه. وفي سنة ١٩٢٦ اصبح بعض قادة الحزب من العرب، وقد حصلت تطورات كثيرة على هذا الحزب فيما بعد. ومن المؤكد ان الحزب منذ تأسيسه ولفترة غير قصيرة اعطى الاولوية في نشاطه للصراع الطبقي واتجه الى

العمال، ولم يول الفلاحين والقضية القومية الاهتمام اللازم. ولذلك كان معزولا ومحدود الاثر كحزب مع ان بعض شخصياته القيادية كانت تتمتع بشيء من النفوذ والشعبية.

ويعود السبب في تأليف الاحزاب العربية الفلسطينية رسميا في اوائل الثلاثينات الى انتهاء وجود المؤتمر الفلسطيني واللجنة التنفيذية بعد وفاة موسى كاظم باشا الحسيني، وبعد ان اصيبت اللجنة التنفيذية بالفشل والعجز عن مواجهة الاحداث، واتهامها بالتذبذب والمهادنة.

لكن الحزب العربي الفلسطيني (حزب المجلسيين) برئاسة الحاج امين الحسيني ظل يتمتع بالتأييد الشعبي الواسع الى ان شكلت في **٢٥** نيسان / ابريل **١٩٣٦** اللجنة العربية العليا فضمت ممثلين عن جميع الاحزاب الوطنية الفلسطينية لمواجهة أحداث ثورة سنة **١٩٣٦**. وتألفت هذه اللجنة برئاسة الحاج امين الحسيني من ممثلي الاحزاب وهم: احمد حلمي عبد الباقي، عوني عبد الهادي، راغب النشاشيبي، الدكتور حسين فخري الخالدي، عبد اللطيف صلاح، يعقوب الغصين، يعقوب فراج، ألفرد روك، جمال الحسيني، فؤاد سابا.

٦ على أبواب الحياة العامة

ذكرت أنني وصلت في تعليمي الى الصف الثاني الثانوي في المدرسة الرشيدية بالقدس سنة ١٩٣٢/١٩٣١. وفي هذه السنة مررت بمنعطف مهم كانت له آثار بعيدة في مجرى حياتي التعليمية والعامة.

ترك المدرسة

على الرغم من ان دخول المدرسة الرشيدية، وخاصة في الصفين الأول والثاني الثانويين، كان صعبا جدا وأمنية كبيرة لكل طالب لأن التعليم الثانوي كان محدودا جدا في مدارس الحكومة في ذلك الوقت، وبالرغم من أنني كنت تلميذا مجدا ناجحا، بل متفوقا ولافتا لأنظار أساتذتي، اضطررت لترك المدرسة والانقطاع عن التعلم في أواخر تلك السنة الدراسية، وحرمت من دخول الصف الثالث الثانوي في دار المعلمين (الكلية العربية فيما بعد). وكان الصف الثالث الثانوي هذا هو الوحيد من نوعه في مدارس الحكومة في جميع أنحاء فلسطين، وكان بامكاني أن ألتحق بهذا الصف بسهولة لو ثابرت على تعليمي.

تركت المدرسة بسبب وقوع والدي رحمه الله وعائلتي عموما في خطأ فاحش شاركتهم فيه، ولكني لم أعتبر نفسي مسؤولا عن هذا الخطأ لصغر سني في حينه. كان التعليم في مدارس حكومة الانتداب محدودا جدا، يهدف إلى توفير العدد اللازم من الموظفين للحكومة، ولذلك كانت الوظيفة الحكومية قبلة أنظار كل من يتعلم، وكان التوظيف خاضعا لفحص طبي دقيق. وفي هذه السنة كان من المفروض أن ينهي أخي نهاد الصف الرابع الثانوي في دار المعلمين. ولما كانت احدى عينيه ضعيفة (عليها رشقة) كان طريق الوظيفة مسدودا. وصار هذا الموضوع حديث العائلة وشغلها الشاغل، وتبين أنه لا يستطيع الحصول على وظيفة حكومية على الرغم من كل الوساطات التي بذلت ونجاحه في امتحان المتريكوليشن وهذا ما جعل والدي وجميع أفراد العائلة يفكرون بانفعال وبمنطق خاطىء فيما يتعلق بي. وأنا أيضا، بسبب أمراض الطفولة، ولكون منطقة الخليل موبوءة بأمراض العيون، كنت مثل أخي نهاد فاقد البصر جزئيا بعيني اليمنى، مع ان بصري بالاجمال كان وما يزال حتى الآن جيدا جدا. ولضيق والدي بدفع الرسوم المدرسية حيث كان طلاب الصفوف الثانوية في مدارس الحكومة يدفعون قسطا مدرسيا يبلغ نحو ستة الى ثمانية جنيهات فلسطينية سنويا،

صدر قرار عائلي بأن أترك المدرسة وأتدرب على صنعة لكي أضمن مستقبلي.

صنعة الساعاتي

تركت المدرسة قبل أن أنهي الصف الثاني الثانوي بقليل، وراجعني بعض أساتذتي ليثنوني عن ذلك، ومنهم المرحوم الأستاذ ياسين الخالدي الذي اهتم كثيرا بالموضوع، ولكن من دون جدوى.

بعد ذلك، جرت محاولة لالحاقي بمشغل ميكانيك متطور لاصلاح السيارات، يملكه رجل الماني في القدس يدعى هانس، ولكن المحاولة فشلت لأنه لم يقبلني عنده، ولا أدري لماذا. ومن ثم جرت محاولة ثانية لأتدرب على حرفة الساعاتي أي اصلاح الساعات. ونجحت المحاولة، والتحقت بالفعل بدكان ساعاتي يهودي اشكنازي يدعى يوسف ريختمان في حي ميئه شعاريم بالقدس. وكانت صناعة الساعات في ذلك الوقت يحتكرها اليهود تقريبا ولم يكن في القدس من يعرف هذه الصنعة من العرب سوى اثنين.

داومت على التدرب في هذا الدكان نحو سنة ونصف السنة، وكان في الدكان فضلا عن الساعاتي يوسف، خياط يهودي من السفارديم اسمه يانكي ولديه عدد من الاجراء اليهود بعضهم اشكناز وواحد منهم بخاري واخر روسي من الطلائع (حالوتسيم) أي من المهاجرين الصهيونيين الأوائل الذين أتوا فلسطين بدوافع صهيونية لاقامة دولة اسرائيل. ومع أن اختلاطي بهؤلاء جميعا كان محدودا، الا أن تجربة هذا الاختلاط كانت مفيدة لي فيما بعد، من قبيل (اعرف عدوك). فتعلمت التحدث بالعبرية، وصرت أتكلمها باللهجة الدارجة لأنني تعلمتها على السماع فكانت لهجتي أصيلة. وتعلمت كثيرا من الكلمات والجمل باليديش أو كما يسمونها أيضا (جرغون) وهي لغة يهود أواسط أوروبا وقريبة جدا من الألمانية. وكثيرا ما كان يجري نقاش بين العمال اليهود حول الدولة اليهودية ومستقبل فلسطين، ويحاول (الحالوتس) أن يقنع الجميع بأن الدولة اليهودية لا بد أن تقوم، ويتحدث بعصبية وتعصب للصهيونية ليس لها حدود ويهزأ منه الآخرون، غير معتقدين بأن هناك إمكانا لقيام مثل هذه الدولة. ويتحدث أحيانا عن تفاصيل البرنامج الصهيوني والموقف من عرب فلسطين، متصورا أنني لا أفهم ما يقول. ومنذ تلك الأيام شعرت في أعماقي بخطر الصهيونية، وأنه لا بد من أن نصل الى موقف: إما نحن أو هم، وأن لا مجال للتعايش مع الصهيونية أبدا. فمنهم قوم يؤمنون بأن أرض فلسطين هي أرض آبائهم وأجدادهم، وأن العرب لصوص (جنافيم) سرقوا هذه الأرض ولا بد من طردهم وعودة شعب الله المختار الى أرضه، أرض اسرائيل.

علمتني هذه التجربة الشيء الكثير عن نفسية اليهودي، وخاصة الصهيوني. فأسطورة شعب الله المختار تجعلهم يضعون أنفسهم فوق كل البشر، وتجعل التمييز العنصري عقيدة في أعماقهم، ويعتقدون بشكل ديني متعصب أن الله خلق باقي البشر غير اليهود (غوييم) لخدمة

اليهود، تماما كما نعتقد نحن المسلمين أن الله خلق لنا الدواب والأنعام لنركبها ونأكلها. وهذا التعصب والاستعلاء والتمييز العنصري تفسر تاريخ اليهود في جميع أنحاء العالم، حيث تجدهم أعداء للشعب الذي يعيشون بينه. فاليهودي الألماني يعتبر نفسه فوق البشر، بمن في ذلك أبناء دينه اليهود من غير الألمان (الأشكناز) ولذلك كان الأشكناز يحتقرون السفارديم واليهود العرب واليهود اليمنيين، ويعتبرون اليهود الأكراد والعجم والكرجيين أحط الأجناس اليهودية. وباختصار كان اليهود نازيين عنصريين قبل أن تنتشر فلسفة التمييز العنصري التي اعتنقها هتلر وأتباعه.

كنت ألمس أيضا أن اليهود يكرهون النصارى كرها عنيفا يقوم على أساس ديني وتاريخي: يكرهونهم من الناحية الدينية أكثر من كرههم للمسلمين.

كذلك كان لهذه التجربة فائدة أخرى يخبئها لي المستقبل، فتعرفت على حي ميئه شعاريم وبيت يسرائيل جغرافيا بحيث أفادتني هذه المعرفة الدقيقة التفصيلية فترة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ في أثناء القتال عندما تركزت مسؤوليتي العسكرية في الدفاع عن أحياء المصرارة وسعد وسعيد وباب الساهرة والشيخ جراح المواجهة تماما للحيين اليهوديين اللذين أشرت اليهما.

وبعد سنة ونصف السنة من العمل في تعلم حرفة الساعاتي أتقنتها، ولكن لأكتشف أنا وليكتشف أهلي معي خطأ جديدا فاحشا هو أنني لا أستطيع ممارسة هذه الصنعة بسبب ضعف بصري، وأنني اذا داومت على ممارستها فسيضعف بصري سريعا وتسوء عاقبتي.

المدرسة الابراهيمية

أُسست المدرسة الابراهيمية في القدس (فيما بعد الكلية الابراهيمية) سنة ١٩٣٢/١٩٣١ الدراسية، واشتغل فيها أخي نهاد في البداية كمعلم، وبعد شهر أصبح شريكا. وكانت المدرسة في البداية تضم صف أطفال وصفين ابتدائيين فقط في بناية تقع في حي المصرارة قرب ما يسمى حاكورة المسكوب. وبعد سنة انتقلت إلى بيت أكبر في حي المصرارة أيضا تملكه عائلة نسيبة، وازدادت صفوفها عددا.

كان من المألوف في ذلك الوقت أن يوظف عدد كبير من خريجي الصف الثاني الثانوي كمعلمين في مدارس الحكومة، ويطلق عليهم (معلم اضافي). وكان يتاح لهم في أثناء عملهم في التدريس أن يزيدوا معلوماتهم، وأن يترقوا مرحلة بعد مرحلة الى درجات عالية في التدريس.

وقياسا على ذلك وبعد أن أصبح استمراري واشتغالي في حرفة الساعاتي غير محتملين وغير ممكنين، توظفت في المدرسة الابراهيمية معلما سنة ١٩٣٤. وأتاح لي ذلك العودة الى الدراسة فالتحقت بالمدرسة الليلية لجمعية الشبان المسيحية، وأنهيت دراسة مقرر امتحان

(لندن مترك)، ولكني لم استطع أن أتقدم للامتحان بسبب نشوب ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩. ولا شك أن اشتغالي في المدرسة الابراهيمية أتاح لي فرصا أخرى، كالتثقيف الخاص، حيث كنت قارئا جيدا دؤوبا، وممارسة الرياضة البدنية، وحياة الكشافة والرحلات المدرسية والنضال الوطني الثوري.

مخاض الثورة

تعتبر فترة ١٩٣٢ ــ ١٩٣٥ فترة مخاض لثورة فلسطين الكبرى (١٩٣٦ ــ ١٩٣٩). فبعد أحداث سنة ١٩٢٩ مرت فترة نشاط استعماري لتهدئة الأوضاع في فلسطين، فتوالى الارهاب، وارسال لجان التحقيق البريطانية التي كانت تشغل تفكير الناس وتستحوذ على اهتمامهم بتقاريرها التي يجيء بعضها في مصلحة العرب، ثم يأتي بعدها ما ينسخها من دون أن يتغير أي شيء في مجرى ما تمارسه حكومة الانتداب من أعمال استعمارية، سواء ما تعلق منها بالهجرة أو بتمليك الأراضي لليهود، مما ضاعف الشعور بالخطر لدى شعب فلسطين العربي وحفزه على التحرك والنضال وسط تراكم أحداث جسام مهدت لقيام الثورة الكبرى. وأولى هذه الأحداث:

انتفاضة سنة ١٩٣٣

بعد أن يئست الحركة الوطنية الفلسطينية من اللجان البريطانية وتقاريرها جددت نشاطها النضالي. وتعتبر سنة ١٩٣٣ من أبرز سنوات النضال الشعبي الفلسطيني.

سبق هذه الانتفاضة وأدى الى قيامها نهوض فكري تزعمه حزب الاستقلال الذي كان يدعو الى توجيه النضال الفلسطيني ضد الانكليز مباشرة وليس ضد اليهود. ولاقت هذه الأفكار استجابة شعبية وتبنتها سائر الأحزاب الفلسطينية بما فيها حزب المفتي ــ وهو أكبر الأحزاب ــ حتى أن جريدة هذا الحزب «الجامعة العربية» قالت في أحد مقالاتها: «اركلوا هؤلاء الصهيونيين بأقدامكم، وقفوا وجها لوجه أمام بريطانيا العظمى... فالصهيونية ليست سوى مشروع اجرامي تشجعه بريطانيا وتحميه بحراب جنودها، وهي تهدف الى قمع العرب واخضاعهم لارادتها».

بدأ التحرك بانعقاد مؤتمر الشباب في يافا يوم ٢٦ آذار/مارس ١٩٣٣ الذي حضره نحو ألف شخص من مختلف مدن فلسطين وقراها وكان بينهم أعضاء اللجنة التنفيذية. وتبنى المؤتمر برنامجا للنضال ضد حكومة الانتداب يقوم على مبدأ اللاتعاون فيما يشبه أسلوب غاندي زعيم نضال شعب الهند، والعصيان المدني.

وفي ٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٣ اجتمعت اللجنة التنفيذية وتبنت أفكار مؤتمر

الشباب، ووضعت لذلك برنامجا صدر في بيان مفصل ودعا إلى القيام بسلسلة مظاهرات، يصاحبها الاضراب العام والامتناع عن دفع الضرائب واضراب الموظفين. وتصاحب هذا البرنامج ومهدت له سلسلة من الاجتماعات والمؤتمرات الشعبية تعقد في جميع المدن والقرى على أوسع نطاق لتوعية الشعب، وتعريفه بواجباته. وأقر أن تكون المظاهرة الأولى في القدس وبعدها بأسبوعين في يافا ثم في نابلس ثم في الخليل... وهكذا.

مظاهرة القدس

جرت المظاهرة الأولى في القدس يوم الجمعة ١٣ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٣، وصاحبها اضراب عام في جميع فلسطين، واشترك في المظاهرة ـ كما هو مقرر ـ جميع أعضاء اللجنة التنفيذية الذين جاؤوا القدس مع وفود كبيرة من جميع أنحاء فلسطين، وسار على رأسها رئيس اللجنة التنفيذية موسى كاظم باشا الحسيني، وكان في نحو الثمانين من عمره. وضمت المظاهرة جماهير غفيرة من سكان القدس وقراها بلغ عددهم نحو ٣٠ ألف متظاهر.

كانت هذه المظاهرة أول مظاهرة اشتركتُ فيها، وعند تفريقها أصبت بضربة عصا شجت رأسي، وكنت طيلة المظاهرة أحاول أن أكون في المقدمة بالقرب من الرئيس.

انطلقت المظاهرة من المسجد الأقصى بعد صلاة الجمعة واتجهت الى باب السلسلة فباب الخليل متحدية أوامر رجال البوليس المسلحين بالهراوات، وخلفهم سيارات محملة بالجنود المسلحين بالبنادق وتكاد السيارات تغلق الطريق إغلاقا كاملا. ويظهر أن السلطة كانت عازمة على منع امتداد المظاهرة خارج أسوار البلدة القديمة، وعلى عدم تفريقها داخلها لصعوبة ذلك.

لم تخرج المظاهرة خارج باب الخليل وتوجهت الى الباب الجديد حيث انطلقت خارج السور. وهنا كانت حواجز الشرطة أضعف منها في باب الخليل. وفي وسط هدير الأناشيد والأهازيج الشعبية اصطدمت الجماهير برجال البوليس. ولم يكن المتظاهرون مسلحين بأي نوع من السلاح، حتى الحجارة والعصي لم تكن متوافرة في هذه الشوارع. فخلع الناس أحذيتهم ورشقوا بها رجال البوليس، واجتازوا حاجزا يؤدي الى باب العمود خارج السور. وهنا عند باب العمود وحي المصرارة دارت معارك الحجارة مع رجال البوليس الخيالة.

تفرقت المظاهرة ولم يقتل فيها أحد وسقط جرحى كثيرون وكاد الرئيس موسى كاظم يهوي على الأرض اعياء، ثم أدخل الى مدرسة استراح فيها.

مظاهرة يافا

جرت المظاهرة الثانية في مدينة يافا يوم الجمعة ٢٧ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٣. فمنذ الصباح الباكر أمت المدينة وفود كبيرة جدا من جميع أنحاء فلسطين، وعلى رأسها



مظاهرة القدس الكبرى سنة ١٩٣٣

أعضاء اللجنة التنفيذية وبينهم الرئيس موسى كاظم باشا الحسيني. وكانت الحشود الشعبية تملأ الشوارع منذ الصباح والاضراب يعم المدينة ودوريات البوليس والخيالة تجوب الشوارع وتحاول تفريق الناس. وتسلح الناس بالعصي والحجارة. وأعلنت الحكومة منع المظاهرات واعتبارها غير مشروعة، ومنعت حمل السلاح والعصي وتَجَمْهُر أكثر من ثلاثة أشخاص. وحينما حاولت الشرطة تفريق الجماهير المحتشدة في الشوارع وقعت اصطدامات هنا وهناك قتل فيها أحد رجال البوليس البريطاني، وسقط عدد من الجرحى العرب.

وبعد صلاة الجمعة انطلقت الجماهير الغفيرة وقدر عددها بـ ٥٠ ألفا من الجامع الكبير وقرب السراي وهي مركز قيادة الشرطة. فاعترضت المظاهرة حواجز ضخمة من رجال البوليس الذين حاولوا تفريق المظاهرة في البداية بالعصي. ولكنهم فشلوا في ذلك وهربوا أمام الجماهير عدة مرات واحتموا بالسراي. وبعد ذلك استخدم البوليس الأسلحة النارية وأطلق الرصاص بغزارة قرب السراي ثم عم اطلاق النار جميع الشوارع وسقط القتلى بالعشرات والجرحى بالمئات وظلت الاشتباكات الدامية حتى الساعة الخامسة بعد الظهر، وأسفرت عن سقوط نحو ١٠٠ شهيد وأكثر من ٢٠٠ جريح. وذكرت المصادر الحكومية أن عدد الشهداء ٣٠ وعدد الجرحى ٧٨ وقتل شرطي واحد وجرح ٢٥ شرطيا. ونقلت الوفود العائدة من يافا الى مدنها أخبار هذه المذبحة ونقلت معها بعض الشهداء والجرحى، فهاجت الخواطر، مما أدى الى قيام مظاهرات واضرابات متعددة في كثير من المدن طيلة ذلك الأسبوع.

مظاهرة القدس الثانية

بعد مظاهرة يافا بيومين أي يوم الأحد ٢٩ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٣ وفي أثر انتشار أخبار مظاهرة يافا نظم أعضاء النادي العربي والنادي الاسلامي، وهما ناديان رياضيان في القدس، مظاهرة شعبية، وكنت وعدد من أصدقائي أعضاء في النادي الاسلامي.

انطلقت المظاهرة من المسجد الأقصى بعد صلاة العصر واتجهت الى حي باب السلسلة، وكنت مشاركا في هذه المظاهرة. فسرنا صفوفا ونحن مسلحين بالعصي والحجارة والسكاكين والشباري، ننشد الأناشيد الوطنية فتردد صداها جدران البلدة القديمة وقناطرها. ولما وصلنا الى قرب مقهى الباشورة (داخل أسوار القدس) كان هناك حاجز من رجال البوليس حاول أفراده تفريقنا بأعقاب البنادق فاشتبكت مقدمة المظاهرة معهم اشتباكا لم يستغرق نصف دقيقة، وإذا بالبوليس يفتح النار على المتظاهرين فاختلطت أصوات الرصاص بنشيد الجماهير.

نحن جند الله شبان البلاد نكره الذل ونأبى الاضطهاد
فارفعوا الأعلام وامشوا للجهاد حيث أعدانا تمادوا في الغرور

وتبين أن البوليس لا يطلق الرصاص لمجرد تفريقنا بل لتقتيلنا في تلك الشوارع الضيقة

حيث سدد الرصاص الى صدور الجماهير المتراصة فكانت الرصاصة الواحدة تخترق عدة أشخاص، وسقط العشرات قتلى وجرحى فورا، وتفرق المتظاهرون في الأزقة المتفرعة من طريق حي السلسلة. ومع أن اطلاق النار لم يستمر أكثر من دقائق فإن تسعة قتلى ونحو خمسين جريحا سقطوا فورا.

وكانت هذه المظاهرة أول مناسبة أتعرض فيها للنار، وكنت في الصفوف الأولى من المظاهرة معرضا للموت في كل لحظة، وسقط من حولي القتلى والجرحى وتلطخ وجهي وملابسي بالدماء. ولكني وصلت الى مكان آمن (حوش النيرسات أي الممرضات) من دون أن أصاب بأذى. وعند دخول الحوش شاهدت عشرات الجرحى على الأرض، وجعلت أتحسس جسدي وأطرافي خشية إصابتي بالرصاص والجرح بارد (كما يقولون) فوجدتني سليما الا من ضيق في التنفس ومن تنهدات متقطعة. وتملكني الغيظ ولعنت الانكليز وعدت أدراجي الى مكان وقوف البوليس بعد أن توقفوا عن اطلاق النار. ووصلت بالقرب منهم فاذا بهم ينفخون في صفاراتهم طلبا للنجدة وقد اصفرت وجوههم. واعتقدت أنهم في ورطة وظننت أن رصاصهم قد نفد، وعدت فورا الى (حوش النيرسات) ودعوت الرجال الموجودين هناك وعددهم يزيد على العشرين الى الهجوم على البوليس والاستيلاء على بنادقهم وقتلهم، وقلت لهم أن رصاصهم قد نفد. فقالوا لي اهدأ ولا تكن مجنونا فكل واحد من رجال البوليس يحمل نحو خمسين طلقة. وعدت راكضا الى مكان المعركة وشاركت في نقل القتلى والجرحى، ثم توجهت الى باب الخليل عن طريق حارة النصارى لاحضار أطباء. وعند التقاء حارة النصارى بطريق السويقة أطلقت النار على جمهور من الشباب لحظة وصولي الى المكان وتقدم البوليس مقتحما الشارع وهو يطلق النار بغزارة، فصعدت راكضا الى حارة النصارى ومنها سرت مخترقا الأزقة الى باب الخليل، وما كدت أصل الى قرب قلعة باب الخليل، اذا بالرصاص يطلق بغزارة. وعلمت فيما بعد أن الرصاص أطلق في الوقت نفسه على المصلين المنصرفين من المسجد الأقصى في حي الواد فقتل بعض الأشخاص من دون أن يكونوا من المتظاهرين كما أطلقت النار قرب باب الساهرة. وكان ذلك يعني أن الحكومة قررت استعمال أقصى درجات الارهاب لاخماد الانتفاضة الشعبية تنفيذا لتهديدات الحكومة التي أعلنت في نشرات ألصقت على الجدران جاء فيها: ستطلق النار لتفريق كل تجمهر يزيد على ثلاثة أشخاص. ومنذ ذلك اليوم نشأ في صدري حقد عميق على الانكليز، صارت معه أمنيتي الكبيرة أن أقتل أنكليزيا أو أكثر.

مظاهرة نابلس

استمرت الانتفاضة واستمرت الاضرابات. وفي يوم الجمعة التالي تشكلت مظاهرة كبيرة في مدينة نابلس واحتاط الناس، مستفيدين من تجارب يافا والقدس. فتمركز عدد من

الرجال المسلحين في الجبال المشرفة على المدينة. وبسبب ذلك ولأن المدينة تخلو من اليهود ــ على حد قول السلطات ــ لم يخرج رجال البوليس الى الشوارع ومرت المظاهرة بسلام باستثناء حرق أحد المتاجر الأجنبية (محلات سبينس) الانكليزية.

مظاهرة الخليل

لم يقع اصطدام بين الشرطة والجماهير في مظاهرة الخليل. وشعر الناس أن سلطة الدولة بدأت تتضاءل.

محاكمات بعض أعضاء اللجنة التنفيذية

بعد مظاهرة يافا الكبرى اعتقلت السلطة عددا من أعضاء اللجنة التنفيذية وقدمتهم للمحاكمة بتهمة إحداث الشغب. حضرت المحاكمة جماهير كبيرة من الناس كانوا يملأون قاعة المحكمة وممراتها وساحاتها الخارجية على شكل مظاهرة. وقد شاهدت هذه المحاكمة وتابعتها باهتمام كبير، وكان بين المتهمين السيد جمال الحسيني سكرتير الحزب العربي الفلسطيني. وفي النهاية حكمت المحكمة بأن يدفع المتهمون غرامات مالية أو يسجنوا بضعة أشهر. وهنا نشأ خلاف حاد اذ كان البعض يرى أن دفع الغرامة يتناقض مع القرار المتعلق بالامتناع عن دفع الضرائب، والذي كان الشعب يطبقه ويلتزمه على الرغم مما كان يتعرض له من اجراءات الحكومة القاسية بهذا الصدد. ورأى البعض الآخر أن بقاء القيادة على رأس الجماهير أفضل. وفي النهاية وبالرغم من صرخات الجماهير وكنت معهم، دفع الزعماء الغرامات وأفرج عنهم فورا ما عدا واحد هو الشيخ عبد القادر المظفر الذي رفض أن يدفع الغرامة ودخل السجن ثلاثة أشهر.

على الرغم مما يبدو من بساطة هذا الموقف إلاّ أنه كان ذا أثر سيىء في نفسية الجمهور. وقد رافقنا جمال الحسيني الى بيته القريب ونحن نهتف محتجين. وعند وصوله الى البيت ألقى علينا خطابا حاول فيه تهدئتنا.

الامتناع عن دفع الضرائب

طبقت الجماهير طيلة الانتفاضة قرار الامتناع عن دفع الضرائب على نطاق واسع، وانخفضت واردات الحكومة انخفاضا كبيرا. وبالرغم من أساليب الارهاب والقسوة التي اتبعتها الحكومة استمر الامتناع عن دفع الضرائب فترة طويلة من الزمن حتى بعد أن توقفت الانتفاضة. ودخل السجن أشخاص عديدون لهذا السبب.

اضراب الموظفين

بعد أسبوعين أو ثلاثة على الانتفاضة بدأ اضراب الموظفين واعتبر تطورا خطيرا في مجرى الانتفاضة التي أخذت شكل العصيان المدني. ونجح الاضراب نجاحا باهرا بين صغار الموظفين وكان فاشلا بين كبارهم بحيث ــ كما سمعت ــ لم يشترك فيه من كبار الموظفين سوى شخصين فقط هما السيد موسى العلمي، والضابط محمد علي العناني.

تأثرت أعمال الحكومة بهذا الاضراب الى حد بعيد، فشلت شللا كبيرا لأن أغلبية صغار الموظفين كانت من العرب.

المؤسسات العسكرية
وتهريب الأسلحة لليهود

سبق أن ذكرت أن الحزب الاصلاحي (التصحيحي كما يترجمها البعض) برئاسة جابوتنسكي، كان يرى أن احتلال فلسطين وشرق الأردن وانشاء وطن قومي لليهود لا يمكن أن يتم الا بالقوة واستخدام السلاح، وأن هذه الأهداف يجب أن تكون معلنة لترهيب العرب وحَمْلهم على الرحيل. وكانت لهذا الحزب تشكيلات عسكرية تتدرب على استعمال السلاح، وتجوب أنحاء البلاد في رحلات كشفية. وقلنا إن حزب الماباي برئاسة وايزمن كان يتستر على حقيقة النوايا العدوانية الصهيونية. ورغم ذلك كانت لهذا الحزب مؤسسة الهاغاناه العسكرية التي تولت حراسة المستعمرات اليهودية والتي كانت الحكومة البريطانية تعترف بها وتتعامل معها كقوة عسكرية مشروعة بالرغم من أنها تابعة للوكالة اليهودية. وإلى جانب ما تقدم أعطيت بلدية تل أبيب صلاحيات وسلطات لم تتمتع بها أية بلدية في فلسطين حتى أصبحت حكومة أو نواة حكومة. وكان من ضمن صلاحياتها رئاسة قوة البوليس في تل أبيب التي كانت مستقلة ومنفصلة تقريبا عن رئاسة البوليس الفلسطيني. وكان أفرادها يرتدون زيا متميزا عن باقي أفراد البوليس الفلسطيني.

احتاج الصهيونيون من حكومة الانتداب، بسبب هذه المؤسسات العسكرية والبوليسية، كميات كبيرة من الأسلحة إلى جانب ما كانوا يتسلمونه من حكومة الانتداب. لذلك كانوا يقومون بتهريب السلاح سرا. وحدث أن كشفت الصدفة يوم ١٦ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٤ عملية تهريب كبيرة جدا عندما رست في ميناء يافا باخرة كبيرة محملة براميل كبيرة. وفي أثناء تفريغ الحمولة سقطت من الرافعة بعض البراميل صدفة وانكسرت. وأمام دهشة الناس الموجودين من عمال وبوليس وموظفين، وجدوا بداخل كل برميل صفيحة مثبتة وسط الاسمنت تحتوي على أسلحة وذخائر مهربة من بلجيكا وكان معظمها مسدسات ضخمة من نوع (ماوزر) الذي يسميه العرب (منشن)؛ وهي مسدسات حربية طويلة السبطانة يمكن أن

تطلق دراكا ويمكن أن تطلق رشا، ومدى رماياتها ألف ياردة ولها جراب خشبي يركب كأخمص (كعب) فيصبح المسدس رشاشا من أحسن أنواع الرشاشات الخفيفة في ذلك الوقت.

عند انكشاف أمر الأسلحة المهربة كانت السفينة أنزلت معظم حمولتها وكانت هناك سيارات شاحنة تنقلها الى ساحة قرب معرض تل أبيب، ومن هناك تولت شاحنات غيرها نقلها الى مكان مجهول!! عُرف فيما بعد أنه مستودعات شركة (سوليل هابونيه) وهي مؤسسة كبيرة من مؤسسات الهستدروت مختصة بالانشاءات والأبنية. تسترت الحكومة البريطانية على هذه العملية وتظاهرت بأنها لا تعرف أين استقرت الأسلحة. وبعد انتهاء الانتداب وقيام دولة العدو ورد في بعض الكتب الصادرة عن اليهود أن الإنكليز نصحوا اليهود في أثر انكشاف عملية التهريب هذه ألا يقوموا بعمليات تهريب جديدة كيلا يثيروا اهتمام العرب، وأن يستوردوا مصانع أسلحة تحت حجة انها مصانع زراعية للعصير أو مطاحن بحيث لا يستطيع موظفو الجمارك معرفة حقيقتها. وقام اليهود بالفعل باستيراد مصنعين أو ثلاثة لصناعة الأسلحة الخفيفة والذخائر. وتأكدت من هذه الحقيقة بنفسي سنة ١٩٤٧ عندما استطعنا أن نشتري من رجال البوليس البريطاني رشاش (ستن) وذخيرة من عيار ٩ ملم من صنع يهود فلسطين.

في أثر هذه العملية ثارت الخواطر وتوتر الجو في فلسطين الى حد بعيد. وبدأ العرب يحاولون اقتناء السلاح بشكل فردي. ومن ناحيتي اشتريت مسدسا صغيرا جديدا من صنع ايطاليا ماركة (برتا) عيار ٧ ملم وكان العرب يسمونه (أبو نقطة حمراء). اشتراه لي أحد أقاربي اسمه شاكر عبد الحميد أبو غربية وكان في ذلك الوقت شرطيا متقاعدا، وله الفضل في تشجيعي على المضي في طريق الرجولة والنضال. وفي الوقت نفسه اشترى صديقي الحميم الشهيد سامي الأنصاري مسدسا صغيرا من عيار ٧ ملم من صنع فرنسي ماركة (لافاييت).

وهكذا كان انكشاف عملية التهريب من الأسباب التي مهدت لقيام ثورة فلسطين الكبرى.

٧ حركة الشهيد القسام

كانت حركة الشهيد الشيخ عز الدين القسام، رحمه الله، من الاسباب التي مهدت لقيام ثورة فلسطين الكبرى خلال السنوات ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩.

كان الشيخ عز الدين القسام عالم دين أزهريا من جبلة في قضاء اللاذقية بسوريا ومن مواليد سنة ١٨٧١. لجأ الى مدينة حيفا بعد انتهاء الثورة السورية الكبرى. وتعرفت عليه شخصيا سنة ١٩٢٧ / ١٩٢٨ الدراسية إذ كنت أعيش في مدينة حيفا ــ كما ذكرت سابقا ــ والمعروف ان الشيخ الشهيد تتلمذ في الجامع الازهر على الاستاذ الشيخ محمد عبده ومنه تعلم مبادىء العدل والثورة على الظلم. وشارك القسام في ثورة سوريا ضد الاحتلال الفرنسي سنة ١٩٢٢، فحمل السلاح والتحق بعصبة الثوار التي كان يقودها الشيخ صالح العلي في الجبال المحيطة باللاذقية. وبعد انتهاء الثورة السورية انتقل الى حيفا حيث سبقه اليها صديقه الشيخ كامل القصاب الذي عمل في حيفا مديرا للمدرسة الاسلامية التابعة للاوقاف الاسلامية، فعمل الشيخ عز الدين القسام مدرسا في هذه المدرسة أيضا. وكان في الوقت نفسه يعمل مدرسا وخطيبا في جامع الاستقلال الذي كانت تشرف عليه الجمعية الخيرية الاسلامية بحيفا التي يرئسها رشيد الحاج ابراهيم. وكانت هذه الجمعية تقود الحركة الوطنية في حيفا.

سكن الشيخ عز الدين قرية الياجور القريبة من حيفا، وهي قرية فقيرة تضم عددا كبيرا من العمال الذين يعملون في حيفا.

تعتبر سنة ١٩٢٥ بداية تشكيل حركة القسام الثورية، اذ بدأ رحمه الله خلالها بتأليف حلقات صغيرة، مستفيدا من لقائه العمال والفلاحين الفقراء في الياجور وفي جامع الاستقلال بحيفا. ومن أهم شروط القبول في هذا التنظيم ان يكون المنتسب مستعدا للثورة المسلحة والاستشهاد في سبيل القضية الفلسطينية مقاتلا ضد الصهيونية والانكليز لطردهم من فلسطين. والشرط الثاني ان يقتني المنتسب سلاحه من ماله الخاص.

وشيئا فشيئا نما التنظيم الثوري الشعبي وكان ذلك تعبيرا عمليا عن ان الكفاح السياسي والشعبي الذي خاضه شعب فلسطين ضد الصهيونية والانتداب البريطاني لا يكفي وحده للتغلب على الأعداء، ولا بد من اللجوء الى الكفاح المسلح للوصول الى الاهداف الوطنية. وكانت هذه هي حقيقة دعوة القسام وبها آمن رجاله.

وفي أواسط سنة **١٩٣٥** بدأ التنظيم يقوم سرا بعمليات مسلحة، جرى بعضها في مستعمرة نحلال في مرج ابن عامر حيث قتل اثنان من حرس المستعمرة اليهود على يد مجموعة احمد طه الصفوري، واحمد توبه، وابراهيم احمد طه، ومصطفى علي أحمد، والغلاييني، الا ان السلطات استطاعت بعد حين ان تعتقل مصطفى علي احمد والغلاييني. وبعد تعذيب وحشي طويل حكمت على مصطفى علي احمد بالاعدام وحكمت على الغلاييني بالسجن خمسة عشر عاما.

وجرت حوادث مماثلة في مستعمرة عليتا، وقرب الياجور. وفي **٢** تشرين الثاني / نوفمبر **١٩٣٥** خرج الثوار الى جبال قرية يعبد وام الفحم وأحراجها، معلنين الثورة المسلحة ضد الاستعمار والصهيونية. وكانت السلطات البريطانية لهم بالمرصاد، وبادرتهم بالهجوم قبل ان يشتهر امرهم وتلتحق بهم اعداد كبيرة من الثوار. وفي **١٩** تشرين الثاني / نوفمبر **١٩٣٥** شنت قوات الجيش البريطاني والبوليس وقوات حدود شرق الاردن التي حشدت من جميع انحاء البلاد هجوما على مواقع الثوار، واصطدمت بدورية لهم تتألف من محمد سالم المخزومي ومحمد الحلحولي، فجرح الحلحولي وتوفي فيها بعد وقتل من الجيش البريطاني جاويش وجرح جندي آخر.

وفي فجر **٢٠** تشرين الثاني / نوفمبر ابتدأت المعركة الفاصلة حيث كان الطوق اكتمل على **١١** رجلا من الثوار يقودهم القسام بنفسه قرب موقع الشيخ زايد. وبعد ساعتين من الاشتباك استشهد يوسف الزيباوي، ومحمد حنفي المصري، ثم أوقف الجيش البريطاني اطلاق النار وطلب من الشيخ القسام ورفاقه الاستسلام، فصاح الشيخ بأعلى صوته (لن نستسلم، هذا جهاد في سبيل الله، يا رفاقي موتوا شهداء). وفي نحو التاسعة صباحا استشهد القسام، وجُرح نمر السعدي، واستمر القتال الى ان نفدت ذخيرة الثوار الباقين واصبحوا في حالة اعياء شديد، مطوقين من كل جانب. فتوقف القتال واعتقل الباقون على قيد الحياة. وفي الايام التي تلت المعركة وبعد ان انتشرت اخبارها حصل غليان شديد في جميع انحاء فلسطين وخاصة في اثناء تشييع جنائز الشهداء الذين دفنوا في الياجور قرب حيفا، وأقيمت على أرواحهم الصلوات في الجوامع والكنائس. وأذكر ان عنوان جريدة فلسطين في ذلك اليوم كان: «**بررة أتقياء لا فجرة أشقياء أيتها الحكومة**».

ردود الفعل: كان لخروج الشيخ عز الدين القسام ومن ثم استشهاده اثر كبير في تفكير الشعب وفي نفسيته. فقد شعر الناس انه كان على حق حين عبر بثورته عن ضرورة قيام الثورة المسلحة لأي شعب ينشد التحرر من الاستعمار أو الاستبداد، وان جميع النضالات الشعبية الجماهيرية والنشاطات السياسية والاعلامية هي جوانب مهمة من كفاح الشعب، ولكن لا غنى للشعب عن الكفاح المسلح اذا اراد مناجزة العدو. وبهذا الانطباع اصبح كل وطني مخلص يشعر بأن من واجبه ان يواصل الكفاح المسلح الذي بدأه الشهيد القسام، وان راية



الشيخ عز الدين القسّام

الثورة المسلحة يجب ان تظل مرفوعة رغم استشهاد القائد الشعبي البطل. وبهذا كان استشهاد القسام حافزا وقدوة، وكان تعميقا للحقد على المستعمرين ومهيئا للثورة الكبرى.

ونتيجة لذلك بدأت تتألف في جميع انحاء البلاد خلايا ثورية سرية، وازداد الاقبال على اقتناء السلاح، وذلك بمبادرات شعبية لم يكن للقيادة التقليدية في البلاد اثر ملموس فيها.

تنظيمنا

في هذه الفترة بالذات بدأت حياتي النضالية المسلحة تتطور انا وعدد من رفاقي الثوار. وكما سبق ان ذكرت، كنا منذ سنة ١٩٣٤ شكلنا في القدس مجموعة ثورية مسلحة، وجاء استشهاد القسام البطل ليحفزنا على الاقدام والتحرك وان نتخذ منه قدوة لنا.

اذكر من الاعضاء الاوائل في تنظيمنا: الشهيد الشيخ عبد الحفيظ بركات (كندرجي ومتدين صوفي) استشهد في موقع نمرة قرب مدينة الخليل سنة ١٩٣٦، والشهيد سامي ابراهيم الانصاري (استاذ مدرسة) استشهد في القدس سنة ١٩٣٦، والشيخ ياسين البكري (رجل دين ومعلم مدرسة)، وعزت عبد المنعم ابو غربية (عامل)، وأحمد المحتسب (كندرجي)، ومحمد سعيد بركات (خياط) وعبد القادر ادكيدك (نجار)، وهناك آخرون لا أتذكر اسماءهم.

ثم اقتفى أثرنا عدد من الشباب الاصغر منا سنا، فساروا على نهجنا وألفوا مجموعة مستقلة. وفيما بعد انضموا الينا وقاتلنا سوية، أذكر منهم أخي الشهيد صبحي ابو غربية (طالب) استشهد سنة ١٩٦٧، والشهيد صبحي بركات (تاجر صغير) استشهد في القدس سنة ١٩٤٨، وفوزي القطب (طالب) وداود العلمي (طالب) وحافظ بركات (كندرجي) وابراهيم جمجوم (حداد)، والفتياني والنمري والبكري والاشهب وغيرهم ممن لا أتذكر اسماءهم.

في هذه الاثناء — أوائل سنة ١٩٣٦ — كان القائد الشهيد عبد القادر الحسيني يعمل على تأليف تنظيم ثوري مسلح، ولم ننكشف عليه ولم ينكشف علينا الا بعد قيام الثورة، حيث جرى الاتصال والتعاون خصوصا عند استئناف الثورة سنة ١٩٣٧، واستمر التعاون حتى استشهاده رحمه الله سنة ١٩٤٨.

كما جرى التعاون مع قائد منطقة الخليل سنة ١٩٣٦ ناجي النبي (أبو نعيم) وفيما بعد مع عبد الحليم الجيلاني قائد منطقة الخليل في فترة ١٩٣٧ — ١٩٣٩.

كانت مجموعتنا في مقدمة المشاركين في ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ وعلى رأس المدافعين عن مدينة القدس في قتال السنوات ١٩٤٧ — ١٩٤٩.

لم يكن لتنظيمنا في البداية اسم معين ولكن فيما بعد سميت منظمتنا باسم «الحرية». وقد برز هذا الاسم للعلن سنتي ١٩٤٦ و١٩٤٧ ثم اندمجنا في جيش الجهاد المقدس سنة

١٩٤٧ بقيادة الشهيد عبد القادر الحسيني، وكنا نحاول منذ البداية ان نضع لانفسنا مناهج ومبادىء نلتزمها أشد الالتزام، منها:

١ ــ السرية التامة الشديدة: فكان أهلنا واصدقاؤنا لا يعلمون شيئا عن تنظيمنا اوعن نشاطنا، وكنا نبذل كل جهد حتى لا تعرف نشاطنا وتنظيمنا اي جهة مناضلة اخرى بما في ذلك رجال الحاج امين الحسيني وغيرهم من الاحزاب.

٢ ــ ان نشتري اسلحتنا وذخيرتنا من مالنا الخاص.

٣ ــ ان نتدرب على استعمال السلاح بكل سرية.

٤ ــ ان نمارس الرياضة العنيفة لنبني اجسامنا بناء متينا، قادرا على تحمل مشاق النضال.

٥ ــ ان نقوم بالرحلات في ريف بلادنا فنتعرف على قراه وجباله ووديانه وطرقه الجبلية واماكن الينابيع والكهوف.

٦ ــ ان ندرس قوانين الجزاء وأصول المحاكمات وان نحضر جلسات المحاكم، لنكون قادرين على مواجهة المشاكل اذا اعتقلنا.

٧ ــ وكان من آرائنا انه يجب علينا ان نطور مفهوم الثأر بحيث يصبح مفهوما وطنيا وليس فرديا او عائليا. كنا نعجب لعائلة يُقْتَل احد افرادها من قبل عرب او حتى اقارب، فتهب للاخذ بالثأر من العائلة المعتدية ولو كانت من أقرب الاقربين، وفي الوقت نفسه لا تتحرك للأخذ بالثأر إذا كان الصهيونيون أو الانكليز هم الذين قتلوا قريبا لها. لذلك كنا نقول: «إذا قتل عربي في صفد اي في أقصى اطراف فلسطين فعلينا نحن في القدس ان نأخذ بثأره لا ان نتواكل ونقول ان على أهله الاقربين او على اهل بلدته ان يثأروا له»، وهذا الرأي أقرب ما يكون الى نظرية تقديم التناقض الرئيسي على التناقض الفرعي.

٨ ــ كنا نؤمن ان الاستعمار البريطاني هو عدونا الرئيسي، ولذلك يجب ان نقاتله من دون توقف حتى تتحرر فلسطين. وحتى اذا تمكنا من تحرير فلسطين فيجب ان نستمر في محاربة الاستعمار البريطاني حيثما وجد في اي جزء من الوطن العربي حتى يتحرر جميع الوطن.

٩ ــ كان من مبادئنا ان المناضل الحقيقي لا يتوقف عن النضال، مهما كانت المصاعب كبيرة ومهما كانت الامكانات المتوافرة ضئيلة، بل يواصل النضال ضمن الامكانات والظروف القائمة. وكانت عملياتنا النضالية الأولى سنة ١٩٣٥ واوائل سنة ١٩٣٦ تتركز على حرق المتاجر اليهودية الكبيرة. وسعينا الى هذا الاتجاه بعد ان سمع رفيقي سامي الانصاري حديثا عرضيا من السيد جمال الحسيني الذي كانت تربطه بعائلة الانصاري رابطة المصاهرة. وفي هذا الحديث

كان جمال الحسيني يحث الشبان على حرق المتاجر اليهودية لأن اليهود يتأثرون الى حد كبير من تعرض مصالحهم المالية للخطر.

وكان أبرز ما قمنا به في هذا المجال احراق مخازن زلبرشتاين في شارع يافا، ومخازن أخرى في سوق الشماع. وكنا ابتكرنا طريقة لاشعال الحريق بعد ابتعادنا كثيرا عن مكانه. فكنا نستعمل فتيل القداحات وهو فتيل قطني كان معروفا في ذلك الوقت سريع الاشتعال يستعمله القرويون والبدو للقداحات. وطريقة الاستعمال ان نترك مسافة خمسة أو عشرة سنتمترات عند أول الفتيل على حالها، ثم نضع بعدها رؤوس عيدان الكبريت داخل نسيج الفتيل، وعند الاستعمال نشعل أول الفتيل بسيجارة ونضعها في مكان مناسب داخل المتجر، مستفيدين من وجود فتحة في الباب او تحت الباب أو من الشباك، فتسري النار في الفتيل ببطء وعندما تصل النار الى عيدان الكبريت يحصل اشتعال كبير يمتد الى البنزين الذي نكون قد سكبناه داخل المخزن، ونكون قد ابتعدنا عن مكان الحريق مسافة كبيرة.

خططنا لاغتيال المندوب السامي البريطاني آرثر واكهوب. وبذلنا في هذه المحاولة الكثير من الجهد كالتدريب والاستطلاع والترصد. ولكننا وصلنا في النهاية الى طريق مسدود حيث ان بساطة اسلحتنا وشدة الحراسة على المندوب السامي جعلتنا نقتنع ان هذه العملية أكبر من امكاناتنا. ومرة حاولنا انا ورفيقي سامي الانصاري الاقتراب منه في اثناء وجوده في حفلة العاب لمدارس لواء القدس وكنا نحمل مسدسين صغيرين، فلم يمكننا الحرس من الاقتراب الى مدى رماية المسدس الفعالة. ولا بد من الاشارة الى ان عهد آرثر واكهوب كان أكثر عهود الانتداب البريطاني سوادا حيث وصلت معدلات الهجرة اليهودية الى حدها الاقصى وكذلك نقل ملكية الاراضي إلى اليهود. وعمل واكهوب على شق الصف الفلسطيني الى مدني وفلاح. هذا فضلا عن تحيزه الشديد الى جانب الصهيونيين.

دخول السجن لأول مرة

في أوائل نيسان / إبريل سنة ١٩٣٦ دخلت السجن لأول مرة حيث اصطدمت مع بوليس بريطاني في شارع يافا وتبادلنا اللكمات. وتفصيل ذلك انني قمت انا ورفيقي سامي باحراق مخزن كبير لبيع الاحذية في شارع يافا قرب سينما زيون. وبعد ان ابتعدنا مسافة طويلة اشتد اللهب وتجمع الناس بأعداد كبيرة لمشاهدة الحريق، كما تجمع رجال الاطفاء والبوليس وحتى الجيش للمساعدة على ابعاد الناس واطفاء الحريق. فعدت وسامي للتفرج على ما يجري، وكنا مسرورين جدا، وأخذنا نضحك فظن البوليس البريطاني اننا نضحك منهم، فاشتبكوا معي وساقوني الى مخفر باب الخليل ثم الى سجن (القشلة). وفي اليوم الثاني خرجت بالكفالة، ثم جرت محاكمتي بتهمة ضرب البوليس البريطاني، ولم تثبت علي التهمة وحكم قاضي الصلح، وكان عربيا، ببراءتي.

هناك دائما أسباب غير مباشرة وأسباب مباشرة لكل ثورة شعبية كبيرة. ويوما بعد يوم وسنة بعد سنة تصبح الأسباب غير المباشرة رغبة مكبوتة وطاقة مختزنة مشدودة قابلة للانفجار والانطلاق عند أول عامل مباشر كالشرارة التي تشعل الحريق الكبير. وفيما يتعلق بشعب فلسطين وثورته الكبرى كانت هناك الأسباب والعوامل التالية:

١ – نقمة العرب على احتلال بريطانيا البلاد، في الوقت الذي كانوا يسعون الى الاستقلال والوحدة. ومن أجل ذلك ثاروا على العثمانيين. فكانت النتيجة الواقعية للثورة على العثمانيين وقوع المشرق العربي بما فيه فلسطين تحت الاستعمار الغربي البريطاني والفرنسي، وتمزيق المشرق العربي الى دويلات.

٢ – تبني بريطانيا سياسة وعد بلفور بكل إصرار وبذلها اقصى ما تستطيع لمساعدة الحركة الصهيونية على قيام الوطن القومي اليهودي.

٣ – مساعدة بريطانيا الصهيونيين على تملك الأراضي في فلسطين وخوف العرب خصوصا الفلاحين من ان يصبحوا بلا أرض وبلا مورد رزق.

٤ – الهجرة اليهودية الكثيفة التي بلغت ٦٢ الف مهاجر رسمي سنة ١٩٣٥، ومثل هذا العدد من المهاجرين المهربين مما أصبح يهدد عرب فلسطين بالتحول إلى أقلية في فلسطين أو أن يطردوا منها.

٥ – تشكيل قوات مسلحة صهيونية بمساعدة بريطانيا، بدأ عرب فلسطين يلمسون وجودها وقوتها وخطرها على وجودهم.

وإلى جانب هذه الأسباب والعوامل العامة وقعت الأحداث التي أشرنا اليها سابقا والتي سميناها مخاض الثورة وهي:

١ – انتفاضة سنة ١٩٣٣.

٢ – انكشاف عملية تهريب السلاح لليهود.

٣ – حركة الشهيد الشيخ عز الدين القسام.

٤ – نشوء الخلايا الثورية المسلحة في جميع انحاء فلسطين.

نتيجة هذه العوامل وصل التوتر الشعبي إلى مستوى عال وبدأ الاستعداد للثورة. ومن

مظاهر ذلك تأليف فرق كشفية من الجوالة باسم (الكشاف المسلم) بحيث صار في كل قرية فرقة لها قيادة عامة تربطها بفرق الكشافة في المدن. وكان الحزب العربي الفلسطيني يدعم هذه الحركة ويشرف عليها. وكان كل شاب من أفراد الكشافة يعتبر نفسه جنديا مستعدا للمشاركة في الثورة عند قيامها.

في كانون الأول / ديسمبر ١٩٣٥ قام المندوب السامي البريطاني بمحاولة فاشلة لتهدئة الأجواء المضطربة فاقترح إنشاء مجلس تشريعي في فلسطين يتألف من ٢٨ عضوا: ٥ منهم موظفون و١١ معينون و١٢ منتخبون. ومن اصل المنتخبين ٨ مسلمين و٣ يهود ومسيحي واحد. وبهذا لا يختلف مشروع المجلس التشريعي لسنة ١٩٣٥ كثيرا عن المجلس التشريعي لسنة ١٩٢٢ الذي رفضته القيادة الفلسطينية في حينه. فالمندوب السامي البريطاني يبقى الفيصل في القوانين التي تعرض على المجلس وله حق الفيتو علما ان اكثرية المجلس معينة. كما نص المشروع المقترح على عدم جواز أي اقتراح يضع (صحة) الانتداب البريطاني موضع الريبة او الشك، وان يبقى تحديد جدول الهجرة من صلاحيات المندوب السامي وحده.

أعلنت حكومة بريطانيا انها ستنفذ هذا المشروع سواء قبله العرب ام رفضوه وسواء قبله اليهود ام رفضوه. وأعلنت القيادة الصهيونية رفضها المشروع لأنه يتعارض مع وعد بلفور ويضع اليهود في موضع الأقلية. اما القيادة العربية فوافقت ضمنا على الاقتراح مع نقده والعمل على تعديله. وفيما بعد هاجم البرلمان البريطاني المشروع وقرر إلغاءه.

كانت ردة الفعل على إلغاء مشروع المجلس التشريعي عنيفة. وأصبح جليا أن النضال السياسي لن يحل مشكلة فلسطين ولا بد من الثورة المسلحة. وبذلك ازداد التوتر والتحفز الثوري.

وفي كانون الثاني / يناير وشباط / فبراير ١٩٣٦ أُعلن في سوريا الاضراب العام المستمر الى ان تتحقق المطالب الوطنية. وكانت الاستجابة للاضراب واسعة جدا، وتجاوب صدى هذا الاضراب في انحاء فلسطين. وفي ٤ / ٢ / ١٩٣٦ اضربت فلسطين اضرابا عاما تضامنا مع اضراب سوريا الشمالية، وارتفعت دعوات وكتبت مقالات تنادي بامتداد الحركة الثورية من سوريا الشمالية الى فلسطين. واضطرت سلطات الانتداب الفرنسي الى الاستجابة لبعض مطالب الحركة الوطنية في سوريا، وأعلنت سياسة جديدة تقوم على أساس تأليف حكومة وطنية من أبناء سوريا تحول اليها سلطات الانتداب شيئا فشيئا. وكانت لهذا الانتصار ردة فعل كبيرة في فلسطين أوصلت حدة التحفز الشعبي إلى القمة.

الاضراب التاريخي

نتيجة للعوامل السالفة الذكر والمعاناة الشعبية والتراكمات النضالية كان من الطبيعي والمنتظر ان يتحرك الشعب في ثورته عند اول فرصة.

لم يقم شخص معين او حزب من الأحزاب بالتخطيط لبدء ثورة ١٩٣٦. ولكن ارادة الشعب هي التي أنشبت الثورة وسبقت بذلك ارادة القيادات. انطلقت الشرارة مساء الأربعاء ١٥ نيسان / ابريل ١٩٣٦ حين اعترضت عصابة مسلحة عدة سيارات على الطريق العام بين نابلس وطولكرم وقتلت يهوديا وجرحت آخر. ثم رد اليهود يوم الخميس ١٦ نيسان / ابريل فقتلوا عربيين في كوخهما على طريق نابلس ـ كفار سابا، وفي ١٧ و١٨ و١٩ نيسان / ابريل وقعت تعديات من اليهود على العرب في ضواحي يافا وتل أبيب رد عليها العرب بهجمات مضادة.

اصبحت يافا في صباح الاثنين ٢٠ نيسان / ابريل ١٩٣٦ وهي مضربة عن بكرة أبيها. وجرت اصطدامات بين العرب واليهود واطلق البوليس البريطاني النار على العرب فقتل اثنين وجرح ٣٢. وفي هذا اليوم ألّف أهالي يافا لجنة قومية اصدرت بيانا دعت فيه الى الاضراب الذي كان قائما بالفعل في جميع انحاء فلسطين احتجاجا على أحداث يافا. وأحب أن أؤكد بقدر معرفتي الشخصية ان الاضراب انتشر تلقائيا بمبادرات شعبية لا علاقة لها بالقيادات التقليدية. واذكر انه في ذلك اليوم التاريخي ٢٠ نيسان / ابريل كان عشرات من شبان القدس ـ وكنت واحدا منهم ـ يطوفون الشوارع من دون تكليف ويطلبون من الناس ان يواصلوا الاضراب قائلين (فلنُضرب شهرا مثلما جرى في سوريا لكي نحصل على الاستقلال كما حصلت عليه سوريا). وكان هذا النداء يلقى تجاوبا كبيرا من الشعب، وبذلك كان الاضراب عاما وشاملا جميع مرافق البلاد ولم تعرف له فلسطين مثيلا من قبل واستمر ستة اشهر.

يقول عيسى السفري* «إن الاضراب بدأ في يافا أولا، ولم يمض عليه قليل من الزمن حتى شمل البلاد كلها وأصبح يشرف عليه نظام دقيق: لجان قومية، ولجان اسعاف، ولجان مقاطعة، ولجان اضراب وجمعيات وشبان، فكان هذا الاضراب مدفوعة اليه الأمة بارادتها، فلا تحريض ولا ارهاب ولا أحزاب ولا رئاسات».

تشكيل اللجنة العربية العليا

بعد قيام الاضراب بنحو اسبوع تنادت القيادات التقليدية الى اجتماع في القدس. ففي مساء ٢٥ نيسان / ابريل ١٩٣٦ عقد رؤساء الأحزاب الفلسطينية اجتماعا ترأسه الحاج أمين الحسيني. واذكر ان الاجتماع عقد في بيت بحي المصرارة والتف حول المنزل عدد كبير من الشبان كنت من بينهم. وطال الاجتماع ونحن بالانتظار، ثم طلب الشبان من الدكتور حسين الخالدي رئيس بلدية القدس ان يلقي خطابا يرد فيه على ديزنغوف رئيس بلدية تل ابيب،

---

* عيسى السفري، «فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية» (الجزء الثاني)، (يافا: مطبعة مكتبة فلسطين الجديدة، ١٩٣٧)، ص ٢٥.

الذي كان القى خطابا تهجم فيه على العرب بشكل مقذع. فخرج علينا من غرفة الاجتماع راغب بك النشاشيبي رئيس بلدية القدس السابق، وألقى كلمة رد فيها على ديزنغوف، ولكن الشباب اصروا على سماع كلمة الدكتور الخالدي، فخرج علينا الحاج امين الحسيني والقى كلمة وطلب ان لا نحرج الدكتور الخالدي. ومع ذلك اصر الجمهور على ان يلقي الدكتور الخالدي بنفسه كلمة، وعلا هتافنا مطالبين الدكتور الخالدي. واخيرا اضطر الى الخروج الينا من غرفة الاجتماع والقى كلمة رد فيها على ديزنغوف. أسرد هذه الواقعة التي كنت فيها شاهد عيان لأبين الدور الطليعي المبادر للشبان في هذه المرحلة ومحاولتهم طرح رغباتهم على القيادة التقليدية.

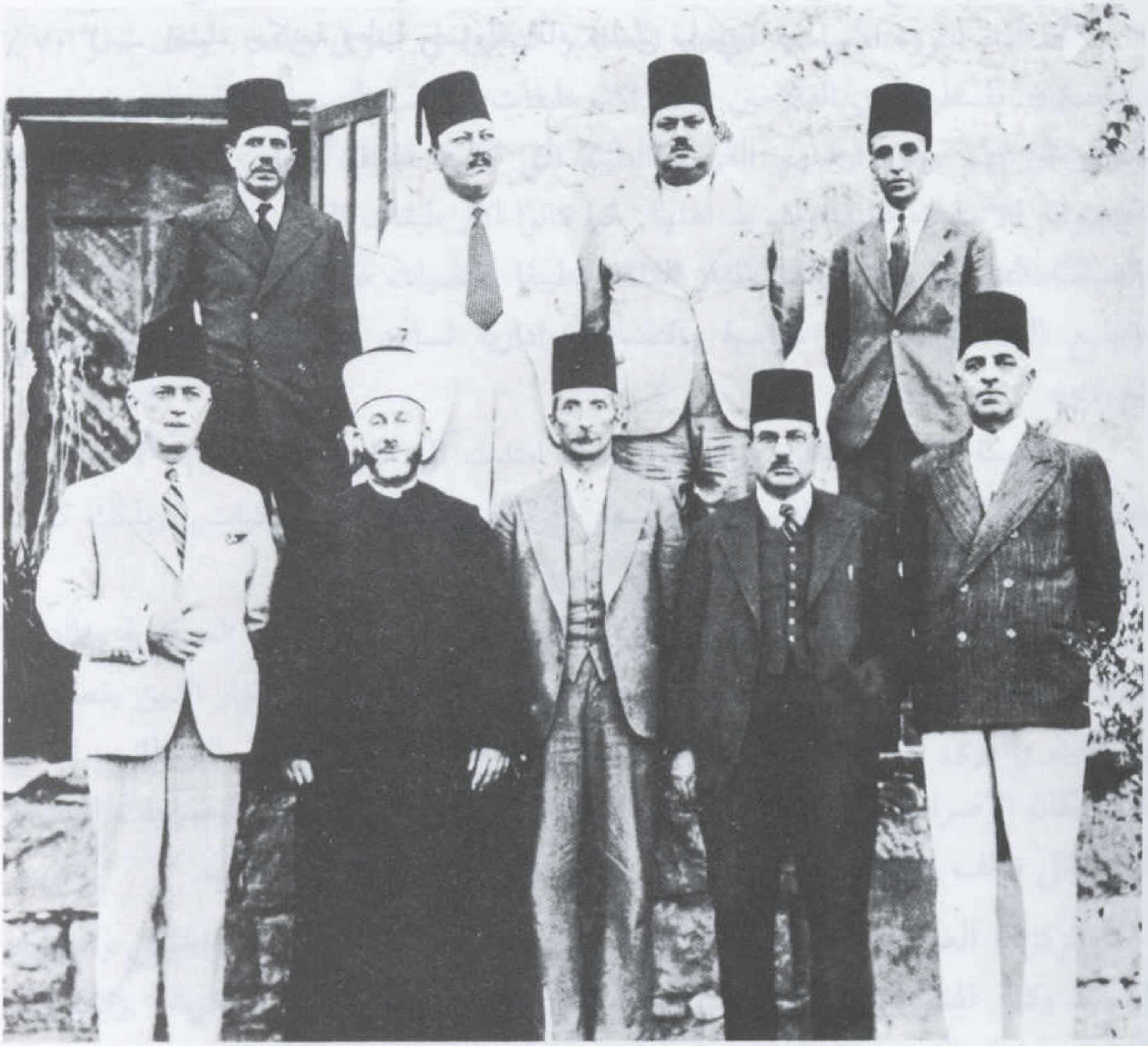
ومع ان هذا الاجتماع كان يهدف إلى ضمان سيطرة القيادة التقليدية على حركة الجماهير والمحافظة على مواقعها القيادية، الا ان واقع الأمة يقتضي تشكيل قيادة عامة للبلاد، وكان من غير الممكن أن يتم تأليف قيادة خارج اطار الزعامة التقليدية.

تمخض هذا الاجتماع عن قرارين رئيسيين:

أ ــ تشكيل قيادة عامة لشعب فلسطين باسم (اللجنة العربية العليا) عرفت فيما بعد باسم الهيئة العربية العليا برئاسة الحاج امين الحسيني وعضوية راغب النشاشيبي، واحمد حلمي عبد الباقي، والدكتور حسين فخري الخالدي، ويعقوب فراج، وألفرد روك، وعوني عبد الهادي، وعبد اللطيف صلاح، والحاج يعقوب الغصين، وجمال الحسيني، وفؤاد سابا. وبذلك ضمت اللجنة (المجلسيين) و(المعارضين) لأول مرة في قيادة واحدة وكأنها قيادة تجمع وطني او جبهة وطنية. كما كان اشتراك الحاج أمين الحسيني رسميا في هذه اللجنة وتولي رئاستها حدثا هاما ترتبت عليه آثار بعيدة. فقد حرص الحاج أمين الحسيني حتى هذا التاريخ على أن يكون الرئيس الروحي للحزب العربي الفلسطيني وأن لا يتولى منصبا رسميا لأنه كان في واقع الأمر موظفا يفترض ان لا يشتغل بالسياسة رسميا. وشيئا فشيئا بدأت علاقة الحاج امين تسوء مع الادارة البريطانية وحكومة الانتداب بسبب توليه هذا المنصب وبفعل التحريض الشديد من اليهود في فلسطين وفي انكلترا لعزله من منصبه كمفتٍ للقدس وكرئيس للمجلس الاسلامي الأعلى.

ب ــ القرار الثاني الذي كان موضع تندر الشباب الثائر كان الدعوة الى استمرار الاضراب الى ان تبدل الحكومة سياستها المتبعة في فلسطين تبديلا أساسيا تظهر بوادره في وقف الهجرة اليهودية.

لم تقر القيادة شيئا جديدا، مما يبين انها كانت متخلفة عن حركة الجماهير التي كانت



اللجنة العربية العليا سنة ١٩٣٦

سبقتها الى اعلان الاضراب العام ومارسته فعلا. والأهم من ذلك، انه في الوقت الذي اعلنت فيه القيادة التقليدية قرار استمرار الاضراب كان الشباب الثوري يحمل السلاح في المدن والقرى معلنا الثورة المسلحة ضد الانتداب البريطاني. جرى ذلك بمبادرات شعبية صرفة، خارج علم القيادة بل خارج ارادتها. وكمثال على ذلك الشيخ فرحان السعدي وداود الديري، وهما من القساميين، اللذان خرجا بسلاحهما الى الجبال مع مجموعة من الثوار. وشاع ان هذه المجموعة هي التي قتلت يهوديا وجرحت آخر على طريق نابلس ــ طولكرم يوم ١٩٣٦/٤/١٦. أما مجموعتنا فانطلقت في احراق المتاجر اليهودية في الحي اليهودي في البلدة القديمة وخارجها، كما أطلقت النار على مراكز الشرطة.

كررت اللجنة العربية العليا في بيانها الذي اصدرته المطالب الاساسية التي كانت لا تفتأ تطالب بها وهي:

١ ــ منع الهجرة اليهودية منعا باتا.

٢ ــ منع انتقال الأراضي العربية إلى اليهود.

٣ ــ إنشاء حكومة وطنية مسؤولة امام مجلس نيابي.

٩ انطلاق الثورة المسلحة
١٩٣٦ - ١٩٣٩

استمر الاضراب التاريخي شاملا جميع مرافق الحياة، ورافقه عصيان مدني تبلور في الامتناع عن دفع الضرائب وعدم التعامل مع دوائر الحكومة.

لكن حرب العصابات في الجبال وحرب الشوارع في المدن كانت ابرز مظاهر الثورة التي اتصفت بشموليتها، اذ عمت جميع انحاء البلاد بلا استثناء، وشارك فيها كل رجل وكل امرأة وكل طفل وكل شيخ، كل في مجاله وبوسائله المتوفرة.

أما أداة الثورة الأساسية فكانت الجماهير الشعبية في القرى والمدن. وكان نحو ٧٠٪ من سكان فلسطين من الفلاحين وهم اكثر طبقات الشعب تحسسا بخطر الصهيونية على مصادر ارزاقهم وعلى ارضهم العزيزة الطيبة التي كانت الهدف المعلن والواضح للحركة الصهيونية للاستيلاء عليها وتشريد اهلها. كما كانوا اكثر طبقات الشعب معاناة من الضرائب والسياسة الضريبية التي أرادت افقار الفلاح تطبيقا لمقتضيات صك الانتداب ووعد بلفور: «وضع البلاد في ظروف سياسية واقتصادية وادارية تساعد على انشاء الوطن القومي اليهودي».

وفي سنة ١٩٣٦ لم تكن طرق المواصلات امتدت الى القرى، والسيارات لا تصل الى بعض القرى الا عبر طرق ترابية ضيقة يسهل تخريبها واغلاقها على المركبات. وبذلك كانت القرى بجبالها واشجارها حصونا للثورة.

حمل الفلاحون القسط الأكبر من اعباء الثورة المسلحة من النواحي العسكرية والمادية. فكان على كل قرية ان تسلح عددا من رجالها، وان تطعم عصابات الثوار الذين يقصدونها من المدن والقرى الأخرى. وبذلك اصبحت القرى هدفا لانتقام الجيش البريطاني. اما في المدن فكان الاضراب عبئا ماديا قاسيا على العمال وصغار التجار. وكانت المجموعات المسلحة التي تقاتل تتألف على الغالب من العمال وصغار الشبان من معلمين وطلاب.

تركزت العمليات العسكرية في المدن على مهاجمة دوريات البوليس والجيش واصطياد الضباط وكبار المسؤولين البريطانيين والهجوم على مخافر البوليس ودوائر الحكومة. وكان ثوار المدن يجدون في القرى والجبال خير ملجأ لهم عند الضرورة او عند الانكشاف، فيخرجون الى الجبال وينضمون الى عصاباتها موقتا او باستمرار. وكان هناك تنسيق لا بأس به بين ثوار المدن

وثوار الجبال، كما كان هناك تعاون لا بأس به بين الثوار وبين رجال البوليس العرب الذين كانت غالبيتهم مؤيدة للثورة ومتعاونة معها او مشاركة فيها.

لم يكن السلاح متوفرا، ولم تحاول القيادات السياسية ان تقوم بعمليات تسليح منظمة فكان كل ثائر يشتري سلاحه وذخيرته من تجار السلاح الذين يهربونه من شرق الأردن حيث كان اقتناء السلاح مباحا. وسلاح ثوار المدن لم يتعدَ المسدسات والقنابل اليدوية، وسلاح ثوار الجبال البنادق. ومعظم الأسلحة قديم وكذلك الذخيرة والقنابل، وتكاد لا تصلح للاستعمال. ولذلك كان مبدأ الحصول على السلاح من ايدي العدو معمولا به. فاستولى الثوار على السلاح في كثير من الأحيان من مخافر البوليس. وفي مراحل متأخرة سقطت في ايديهم مستودعات كاملة كما جرى في بئر السبع عندما احتلها الثوار لفترة من الزمن واستولوا على مستودع رئيسي للسلاح كان يحتوي نحو ٦٠٠ قطعة منها رشاشات لويس غن. وكان كل جندي او شرطي بريطاني هدفا للثوار لخطف سلاحه. ونجحت عمليات كثيرة حتى اصبح على كل جندي او شرطي يسير في المدن او يقوم بالحراسة ان يربط بندقيته إلى سلسلة حديدية في حزامه.

من الناحية التنظيمية كانت الخلايا الثورية المسلحة في المدن سرية للغاية، تألف معظمها بمبادرات ذاتية منفصلة بعضها عن البعض. اما في كل قرية فتم تأليف فصيل من الثوار المسلحين يتراوح عدد أفراده من ١٠ ــ ٢٠ ثم زاد العدد ليصل احيانا الى ٥٠. وبعد دخول فوزي القاوقجي الى فلسطين ازداد تنظيم الثورة تركيزا وتغير تكتيكها الحربي.

ابرز العمليات العسكرية

في المرحلة الأولى

بدأت العمليات العسكرية المسلحة في قطع اسلاك الهاتف وقطع طرق المواصلات وتخريب قضبان السكك الحديد والجسور ونسف القطارات ونسف أنابيب البترول ومهاجمة دوريات البوليس والجيش ومهاجمة دوائر الحكومة. وكذلك صد الهجمات العسكرية وعمليات التطويق التي كان يقوم بها الجيش البريطاني على مواقع الثوار.

ان مثل هذه العمليات لا تعد ولا تحصى، ولذا انوه ببعض العمليات التي وقعت في المرحلة الأولى من الثورة والتي سميت بالمرحلة التمهيدية (نيسان / ابريل ــ آب / اغسطس ١٩٣٦).

كانت السكك الحديد وجسورها والقطارات من الأهداف الرئيسة لهجمات الثوار، فالجيش البريطاني يعتمد عليها كثيرا في مواصلاته وامداده. وخلال هذه الفترة حدث أكثر من عشرينٍ هجوما، نذكر منها: ١ ــ حادث بالقرب من محطة اللد عند الكيلومتر ١٠٧ بين قرية كفر جنسّ ومحطة اللد حيث سقط القطار من على جسر جرى تخريبه، واشتبك الثوار مع

حرس القطار. ٢ ــ اصطدم قطاران جراء تخريب الخطوط في محطة رأس العين. ٣ ــ اخرج قطار شحن عن الخط وانقلب بين قلقيلية وجلجولية. ٤ ــ تدهور قطار عند كفرجنس وتحطمت ١٥ عربة من عرباته. ٥ ــ انقلبت قاطرة بست عربات بين السافرية واللد. ٦ ــ انقلب قطار الدورية والتفتيش عند قاقون. ٧ ــ اخرج قطار بضائع عند رأس العين.

وكانت المعارك على الطرق العامة ــ طرق السيارات الرئيسية ــ تبدأ باقامة حواجز من الحجارة وغيرها من العوائق التي كانت في كثير من الأحيان ملغومة، وكان الثوار يتركزون بالقرب منها انتظارا لمرور قافلة عسكرية، لأن الجيش البريطاني اصبح لا ينتقل الا بقوافل تحرسها المصفحات والدبابات والطائرات. وعند وصول القافلة الى الحاجز تفجر الألغام ويمطرها الثوار بالرصاص، وتخف النجدات العسكرية لكن معظمها لا يتمكن من الوصول الى مكان المعركة بسبب حواجز جديدة وكمائن يقوم بها ثوار القرى المجاورة.

ومن ابرز هذه المعارك: ١ ــ معركة نور شمس في ٢٢ حزيران / يونيو التي استمرت ٧ ساعات وامتدت الاشتباكات من دير شرف قرب نابلس حتى طولكرم، واشتركت فيها ثلاث طائرات. ٢ ــ معركة عين حارود في ٩ حزيران / يونيو في مرج ابن عامر. ٣ ــ معركة باب الواد في ٢٦ تموز / يوليو على طريق القدس ــ يافا. ٤ ــ سلسلة معارك عين خير الدين وجورة بحلص وبيت خيران قرب الخليل. ٥ ــ سلسلة معارك قوافل البحر الميت على طريق القدس ــ اريحا.

وأبرز عمليات المدن: ١ ــ الهجوم على سينما اديسون في القدس في ايار / مايو. ٢ ــ الهجوم على سيارة مفتش بوليس القدس البريطاني سيكرست في ١٢ حزيران / يونيو. ٣ ــ الهجوم على اثنين من ضباط الطيران الانكليز في القدس.

موقف الجيش البريطاني والسلطات من الثورة

ألقى الجيش البريطاني بكل ثقله العسكري لمقاومة الثوار. وقامت المنظمات الصهيونية بعمليات تفجير وحشية في الأماكن المكتظة بالسكان العرب.

الحشد: جلبت بريطانيا نجدات متوالية من الجيش، فضلا عن القوات العسكرية البريطانية الموجودة والمزودة بالأسلحة الحديثة بما فيها المدفعية والدبابات والطائرات إلى جانب رجال الشرطة وحرس المستعمرات والهاغاناه وقوة حدود شرق الأردن.

العمليات العسكرية: كانت عمليات الجيش العسكرية فاشلة في اغلب الأحيان ولم تتمكن من توجيه ضرباتها للثوار. فلجأ الجيش إلى الانتقام والبطش والعقوبات الجماعية في المدن والقرى على السواء.

التطويق والتفتيش: كان الجيش بعد وقوع هجوم على دورية عسكرية وبعد توقف المعركة وانسحاب الثوار يجلب نجدات عسكرية كبيرة تطوق القرى القريبة من مكان المعركة. وبعد محاصرة القرية واطلاق النار عليها بغزارة وقتل بعض سكانها من الرجال والاطفال والنساء تتقدم بعض القطعات الى داخل القرية وتجمع السكان في ساحة تحاط بالأسلاك الشائكة. ويبقى السكان بلا ماء ولا طعام لعدة ايام تحت الشمس المحرقة. وفي الوقت نفسه تجري عملية التفتيش في البيوت بيتا بيتا بأسلوب يتعمد التخريب اكثر من التفتيش، فتنهب بعض موجودات البيوت، وتحرق بعض المنازل، وتتلف جميع المؤن المخزونة بعد طرح بعضها فوق بعض من طحين وقمح وارز وسكر وغيرها، ويصب فوقها ما وجد من البترول أو زيت الزيتون. وفي كل عملية تفتيش لا بد من نسف عدد من بيوت القرية وتصديع عدد آخر ووضع شارات على غيرها من البيوت لنسفها في المستقبل فيما لو جرى اي حادث قرب القرية ولو كان مجرد قطع اسلاك التلفون. كما تفرض على القرية عقوبات جماعية عسكرية ومالية وعينية ولا بد ان يجري اعتقال عدد من رجال القرية. وفي كثير من الحالات كان الاعتقال يشمل جميع رجال القرية من سن ١٤ فما فوق. ومن أكبر عمليات التطويق والتفتيش ما جرى يوم ٥ تموز/ يوليو ١٩٣٦ حينما تم تطويق عدد كبير من قرى نابلس وطولكرم ورام الله في آن واشترك فيها اكثر من اربعة آلاف جندي بريطاني مدججين بالسلاح والدبابات يساندهم عدد كبير من الطائرات. وانقسمت الحملة الى مجموعتين رئيستين: انتشرت الأولى على امتداد الطريق العام من رام الله الى نابلس واتجهت غربا، والثانية على امتداد السكة الحديد من طولكرم الى اللد واتجهت شرقا بحيث تلتقي القوتان على شكل كماشة واسعة. وتقدمت القوتان ببطء وفتشتا كل قرية وكل مغارة وكل بئر وقامت بالأعمال الانتقامية التخريبية على الشكل المذكور.

عمليات النسف والغرامات
والعقوبات الجماعية

هذه العمليات لا تعد ولا تحصى. وكأمثلة عليها نذكر ما يلي: ١ ــ نسف عدد من دور مدينة اللد وتغريم المدينة خمسة آلاف جنيه، ٢ ــ نسف سبع دور في الخليل وغرامة ثلاثة آلاف جنيه، ٣ ــ في نابلس ١١ دارا وغرامة خمسة آلاف جنيه، ٤ ــ ومثل ذلك في غزة والمجدل وبيت لحم وخان يونس وقلقيلية وصفد. اما القرى التي جرت فيها اعمال النسف فلا يمكن حصرها نذكر منها اندور، والبيرة، وترمسعيا، وسنجل، وبلعا، وعنبتا، وكفر اللبد، وعين كارم، وعلما، وراس الأحمر، وبلد الشيخ، وبيت فجار، والسافرية، وبيت حنينا، وجبع، وعاقر، وذنّابة، وابو شوشة، ونحف، وبيت عور التحتا، ودير استيا، والعيزرية، وخربتا، وحمامة، والحميدية، ومرار، والمغار، ومجد الكروم، وسمخ، وساكية،

وعتيل، وعين الزيتون، والجاعونة.

وفرضت غرامات مالية على اكثر من ٢٥٠ قرية، على ان تدفع نقدا وعينا مثل الخراف، والبقر، والخيل، والدجاج، والبيض، والحبوب.

وكانت اوسع عملية نسف مدينة يافا القديمة، ففي ١٦ حزيران / يونيو ١٩٣٦ حلقت طائرة فوق المدينة وألقت نشرات تتضمن انذارا بالنسف، وتهديدا لمن سيقاوم. وفي ١٨ حزيران / يونيو بدأ الجيش البريطاني عمليات النسف الواسعة (عمليات التجميل كما سماها الانكليز) فشملت اكثر من ٢٢٠ دارا تشتت سكانها واصبحوا بلا مأوى. وكان عددهم يزيد على ٦٠٠٠، كما تشعثت عشرات المنازل من شدة الانفجارات.

العمل على عزل الثورة عن محيطها العربي

امارة شرق الأردن هي الممر الى عمق فلسطين العربي. لذلك عملت السلطات البريطانية في شرق الأردن بقيادة بيك باشا، قائد الشرطة وقوات البادية، بالتعاون مع قوة حدود شرق الأردن، التي كان يقودها ضباط انكليز، على جعل شرق الأردن منطقة عازلة لحصر الثورة في فلسطين، فكانت هذه القوات تقوم بما يلي:

١ ــ منع او عرقلة تحرك الثوار من والى فلسطين، خصوصا على الطرق المؤدية الى دمشق. فكانت الدوريات العسكرية تشتبك بالسلاح مع كل مسلح فلسطيني او عربي ومع كل من يحاول ادخال السلاح الى فلسطين.

٢ ــ العمل على منع شبان شرق الأردن من الالتحاق بالثورة، بأساليب ووسائل متعددة منها عرقلة التنقل بين فلسطين وشرق الأردن، وترحيل كل اردني يقبض عليه في فلسطين، ومنها اعتقال اقارب من يصل الى علم اجهزة السلطات انهم التحقوا بالثورة في فلسطين، واجبار شيوخ عشائرهم على اعادتهم لكي تفرج السلطة عن اقاربهم المعتقلين. ومن ذلك ايضا فتح طرق ترابية لقرى شرق الأردن لتشغيل اكبر عدد من الفلاحين الأردنيين وصرف اهتمامهم عن الالتحاق بالثورة.

كان لهذه الاجراءات اثر ملموس، ومع ذلك انضم عدد من شبان السلط واربد وقراها الى الثورة فضلا عن المتطوعين العرب الذين دخلوا مع فوزي القاوقجي فيما بعد.

العمل على تخريب الثورة من الداخل

نشطت السلطات البريطانية في نشر اخبار ملفقة وشائعات وشنّ حرب نفسية للتشكيك في القيادة الفلسطينية، فروّجت انها قيادة افندية ولا يشترك فيها الفلاحون، وان المندوب

السامي آرثر واكهوب هو صديق الفلاحين وذلك من اجل ايجاد انقسام بين فلاح ومدني. وكانت الشائعات تطلق كذبا على فلان بأنه جاسوس للانكليز، كما قامت السلطة بالفعل بدس بعض الجواسيس على الثورة. هذا إلى جانب النشرات المتعددة التي كانت توزعها السلطات وتؤكد فيها ان لا طائل من الاخلال بالأمن ومن الاضراب.

١٠ دورنا في المرحلة الأولى من الثورة

سبق أن ذكرت انني وعددا من رفاقي شكلنا مجموعة ثورية مسلحة منذ اواخر سنة ١٩٣٤، وقبل الحديث عن دورنا في ثورة سنة ١٩٣٦ اود ان انوه بما يلي:

١ ــ كان تنظيمنا (الحرية) ــ كما سمي فيما بعد ــ سريا للغاية حتى للقيادة الفلسطينية، ولو اننا فيما بعد كنا نحصل، أحيانا، على قليل من الذخيرة والقنابل اليدوية من بعض رجال المفتي الطيبين مثل ابو مجدي الجاعوني من دون ان نكشف لهم عن انفسنا. اما في هذه المرحلة فلم نحصل على اي سلاح سوى ما نشتريه من تجار السلاح الموثوقين وبخاصة التاجر الشهم عبد المحسن قطينة الملقب بالحلفون الذي اعتقله الانكليز وعذبوه ليعترف لمن من الثوار يبيع السلاح فصمد واجتاز التجربة القاسية.

٢ ــ اقتصرت عملياتنا العسكرية خلال هذه الفترة على منطقتي القدس والخليل.

٣ ــ لم يكن جميع أفراد مجموعتنا يعلمون ما نقوم به من عمليات، وخاصة في المدن حيث اتبعنا اسلوب (السرية على السرية) بشكل مشدد، فلا يعلم بتفاصيل العملية الا من يقوم بها حتى بعد تنفيذها بسنوات. ولم يكن تخطيط العمليات وتنفيذها يجري ــ في هذه المرحلة ــ بأوامر قيادية بل كان احيانا يجري بمبادرات ذاتية، اقتناصا للفرص المتاحة.

٤ ــ لم تكن تربطنا ــ في هذه المرحلة ــ روابط تنظيمية وقيادية بالمعنى التنظيمي والقيادي المعروف.

الحض على الاضراب

عندما بدأ الاضراب العام في ٢٠ نيسان / ابريل ١٩٣٦ شاركنا في مدينة القدس ــ كما أشرت سابقا ــ بالتشجيع على الاضراب والاستمرار فيه. وهنا كان لزميلنا الشهيد فريد العوري شأن ملموس في قيادة اضراب المدارس، حيث كان يجري الاتصالات بالطلاب النشيطين ويوجههم ويقودهم ويسلمهم النشرات لتوزيعها على الطلاب. وعلى الرغم من نشاطات السلطات الواسع لاحباط اضراب طلاب المدارس كان الاضراب تاما وشاملا، وتوقفت جميع المدارس عن العمل حتى نهاية الاضراب بما في ذلك المدارس الأجنبية مثل المطران، وتراسانطا، والفرير، وصهيون التي احتاجت من الشهيد فريد العوري جهدا خاصا. ولا بد من الاشارة الى ان فريد استشهد في اواخر حزيران /يونيو ١٩٣٦ نتيجة

لانفجار قنبلة بين يديه، وكان في الثامنة عشرة واستشهد بعد فترة قصيرة من استشهاد سامي الأنصاري (شهيدنا الأول).

التدريب

ساعد الاضراب على أعمال التدريب. فالجميع كان بلا عمل ولدينا متسع من الوقت للخروج الى ظاهر المدينة خاصة شرقي قريتي الطور والعيساوية. ولعل من الطريف ان اذكر اننا كنا نقوم احيانا بالتدريب واختبار صلاحية المسدسات والذخيرة واخفائها في مغارة سليمان المعروفة لأبناء القدس، وهي مغارة كبيرة جدا في وسط مدينة القدس بالقرب من باب العمود، وتحت انظار الشرطة والجيش. إذ كنا خبراء بمداخلها ومخارجها ودهاليزها السرية.

مع الشهيد سامي الأنصاري

ربطتني به صداقة متينة منذ ايام الدراسة في المدرسة الرشيدية بالقدس، فكنا زملاء دراسة وفي الفصل نفسه لعدة سنوات. ولا شك ان صداقة المدرسة امتن الصداقات ولو ان صداقتنا بدأت بعد شجار وملاكمة متكافئة. وسبق ان ذكرت اننا مارسنا الرياضة والتدريب العسكري واشترينا مسدسين وكانت امنيتنا قبل قيام الثورة ان نلتحق باحدى الكليات العسكرية في البلاد العربية كالعراق مثلا، ولكن ذلك كان غير ممكن. وفكرنا ان نلتحق بالفرقة الأجنبية الفرنسية (ليجيون اترانجيه) ثم عدلنا لأننا سمعنا ان هذه الفرقة سيئة السمعة فهي مؤلفة من المرتزقة وأداة استعمارية قذرة. وفكرنا ان نلتحق بمدرسة البوليس الفلسطيني، ثم انصرفنا عنها. ولذلك ظل تدريبنا العسكري محدودا وكان الأمر ينطبق على معظم شباب فلسطين العرب.

كان الجو الثائر المضطرب في فلسطين يزيدنا حماسة يوما بعد يوم وتشوقا للقتال. وكان البطش والاذلال البريطانيان والتعاون الفظيع المكشوف مع الحركة الصهيونية والاصرار على اقامة الوطن القومي الصهيوني على تراب فلسطين تملؤنا حقدا. ولعل من الضروري ان اذكر اننا شعرنا بقوة بريطانيا وجبروتها وقوة الحركة الصهيونية، التي كنا نشاهد بأعيننا شبابها وشاباتها في فلسطين يجوبون الجبال والسهول في فرق كشفية ورياضية، ونعرف نحن بالذات بعض قاعات التدريب على السلاح التي اقاموها في اقبية بعض العمارات الكبيرة في حي محانيه يهودا بل وفي الحي اليهودي في البلدة القديمة ايضا. كما كنا نلمس لمس اليد ازدياد عدد الصهيونيين المهاجرين الى فلسطين واصبحنا نخشى بأن نصبح في بلادنا اقلية عربية.

كنا نتطلع الى أشقائنا العرب في البلاد العربية ونعلق املا كبيرا على العراق وجيشه اكثر من غيره. ونأمل ان نعمل على توحيد البلاد العربية لكي يصبح الطريق لانقاذ فلسطين ممكنا

وللحيلولة دون اقامة الوطن القومي الصهيوني. وكنا نسمي العراق (بروسيا العرب). وما ازال اذكر بهذه المناسبة ــ وكأن الحديث جرى بالأمس ــ قول اخي سامي في احد الأيام تعليقا على خبر نشر في الصحف عن اكتشاف البترول في العراق (يا سلام يا مصيبتنا!! «شرش» الاستعمار في بلادنا!! «راحت» الوحدة العربية!!) وكأنه كان يستشرف الغيب. رحمك الله اخي سامي وشرفك بالشهادة فأراحك قبل ان ترى ماذا فعل البترول بنا وببلادنا وبآمالنا في الوحدة العربية، ماذا فعل البترول بفلسطيننا.

نتيجة لشعورنا بثقل الحمل وضخامة المسؤولية ارتأينا الحصول على السلاح بوسائل أنجع وبمستوى اعلى لكي تصبح منظمتنا قادرة على تحمل مسؤولية المواجهة. لذلك قررنا ان أسافر انا إلى العراق لشراء مسدسات كبيرة رشاشة سمعنا انها متوافرة هناك وهي من النوع الذي كانت تستعمله عصابات التهريب في اميركا والتي كنا نشاهدها في افلام السينما، وان اقوم بتهريبها في زكائب من التمر العراقي. ولما كان ذلك يحتاج الى المال وهو غير متوفر بين أيدينا قررنا ان نقابل انا وسامي الشيخ سليمان التاجي الفاروقي صاحب جريدة «الجامعة الاسلامية» ورئيس تحريرها وان نعرض عليه الفكرة ونطلب منه تزويدنا بالمال اللازم. وكان الشيخ الفاروقي من اكبر اغنياء مدينة الرملة ومن اكبر اصحاب الأراضي فيها، وهو الى جانب ذلك كان ينشر في جريدته مقالات بليغة نارية تملأ الشباب حماسة واندفاعا، وكان من معارضي الحاج امين الحسيني، ويعتبر نفسه احق منه بالزعامة. ولا ادري لماذا لم نفكر بالاتصال بالحاج امين الحسيني، زعيم فلسطين الأكبر في ذلك الوقت.

وفي اية حال سافرنا انا وسامي الى الرملة وقابلنا الشيخ في ديوانه هناك. وعندما دخلنا إلى الديوان كان سماحة الشيخ يتصدره بجبته وعمته ومهابته رغم عماه. وربما زاده العمى مهابة. وكان في الديوان زهاء عشرين رجلا من مختلف انحاء فلسطين وكان حديثهم يدور حول القضية الفلسطينية، ولكن اغلبه كان نفاقا ورياء. ثم وقف احد الخطباء المعممين والقى قصيدة طويلة مكسرة الوزن في مدح الشيخ الفاروقي، والفاروقي سيد من سادات اللغة العربية ومن افصح كتابها، وكان سماحته يتمايل طربا ويصفق للشاعر المنافق، الأمر الذي جعلني انا وسامي نتهامس متشائمين.

في البداية عرفت نفسي للشيخ وعرفت على رفيقي فرحب بنا، وطلبت أن نقابله منفردين. ولما انفض السامر، جلسنا ثلاثتنا فرحب بنا ببشاشة وشرحت له امر منظمتنا وغايتنا التي من اجلها قابلناه. ومن دون ان يفكر كثيرا اجابنا: «يا ابنائي أنا صحيح صاحب املاك كبيرة، ولكنني لا املك نقدا ولذلك لا استطيع تلبية طلبكم». ثم فكر قليلا بعد ان توسلنا اليه وقال: «استطيع ان اقدم لكم نصيحة قد تساعدكم. اتصلوا بالشيوعيين! اتصلوا بالشيوعيين!».

يا لخيبة الأمل! خرجنا من الديوان العامر نجر اذيال الخيبة.

عزيزي القارىء: اؤكد لك، وان شئت اقسم لك انني لم ازد حرفا، ولم أبالغ ولم انس شيئا مما جرى في هذه الواقعة، ولعل الذي يدفعني إلى ذكرها، رغبتي في ان اعطي مثالا على زعامتنا العائلية والقبلية في ذلك الوقت، الزعامة التي تريد ان تسيطر على حركة الجماهير ولكنها بتفكيرها وتربيتها ومصالحها الخاصة، لا تستطيع ان تتحمل اعباء الكفاح او ان تجابه الحكام، بل لا بد ان تبقى على علاقة حسنة بهم. كان ذلك منذ العهد العثماني واستمر ايام الانتداب البريطاني. وما ينطبق على الشيخ الفاروقي ينطبق على امثاله. وأؤكد اخيرا ان هذه الحادثة خيبت امالا كبارا لنا، الا انها لم توهن عزائمنا.

عودة الى الحديث عن حياة سامي الأنصاري ونضاله: في صيف سنة ١٩٣٥ تخرج في دار المعلمين في القدس بعد ان انهى الصف الخامس الثانوي فيها (صف التربية). وقبل ذلك بسنة حصل على شهادة (المتريكوليشن) وكان متفوقا فعين مدرسا في المدرسة الرشيدية بالقدس سنة ١٩٣٥ / ١٩٣٦ الدراسية، وكنت سبقته الى التدريس في المدرسة الابراهيمية ــ كما ذكرت سابقا ــ وبذلك اصبح سامي مثلي قادرا على الحركة، وممارسة التدريب الرياضي والعسكري. كما قمنا انا واياه، في اغلب الأحيان، ومع بعض رفاقنا احيانا اخرى، بعمليات احراق المتاجر اليهودية في القدس، كما سبقت الاشارة الى ذلك. وسأذكر فيما بعد بعض عملياتنا العسكرية واعود للحديث عن سامي.

العمليات العسكرية

بعد فترة قصيرة من بدء الاضراب طرح المرحوم الشهيد الشيخ عبد الحفيظ بركات اقتراحا بأن يخرج جميع رفاقنا للقتال في الجبال، واختلفنا على ذلك. وكان الرأي المقابل ان القتال في المدن اشق واخطر من القتال في الجبال ولذا لا يجوز خروجنا جميعا الى الجبل. واخيرا اتفقنا على ان يخرج الشيخ عبد الحفيظ الى الجبل تلبية لرغبته الشديدة في ذلك، وان يخرج معه عدد منا ويبقى عدد آخر في مدينة القدس ثم يلتحق به من ينكشف امره في المدينة.

كان الشيخ عبد الحفيظ صاحب دكان صغير يصنع الأحذية في سوق العطارين، ويعمل معه اخوه الصغير حافظ بركات. وكان الشيخ سَنياً يرتدي الجلباب الأبيض والعمة البيضاء ذات العذبة الطويلة. لم يكن ازهريا، ولكنه كان مؤمنا شديد التدين وصوفيا.

كان من الضروري ان يخرج الشيخ الى الجبال في منطقة الخليل، حيث تأخر اشتعال الثورة في جبل الخليل عن غيرها من مناطق فلسطين نحو شهر، مع ان الاستعداد للثورة كان متوافرا، ولكن الأمر احتاج الى من يطلق الشرارة. كما ان جبال الخليل صالحة جدا لحرب العصابات لوعورتها وكثافة اشجارها وشجاعة رجالها.

اخذ الشيخ يعد العدة للخروج. ولم يطل به الأمر فخرج هو وعدد من رفاقنا اذكر منهم

ابن عمي عزت عبد المنعم ابو غربية، وهو عامل، وهاشم الأشهب وهو (تنكجي) وشاب افريقي اسود لا اتذكر اسمه، كان الآخر عاملا وكان سَنياً ايضا. واستعان الشيخ عبد الحفيظ بخاله الحاج منير البكري وهو من الرجال الأشداء ومشهور بأنه حامل علم الخليل في موسم زيارة النبـي موسى، وذو نفوذ في عائلته وحارته فتشكل من المذكورين وآخرين فصيل مسلح تمركز في كروم العنب قرب موقع الرامة. وكان يشاركهم بين الحين والآخر الشيخ ياسين البكري وكنت انضم اليهم بين الحين والآخر. وساند الشيخ عبد الحي عرفه هذا الفصيل، وكان من اركان الحاج امين الحسيني في الخليل. ولا بد من الاشارة الى ان هذه المجموعة الصغيرة كانت اول من اشعل الثورة في منطقة الخليل، ثم انتشرت الثورة وتوسعت بسرعة.

الأسلوب الذي اتبعه الشيخ عبد الحفيظ في قتاله تركز في ناحيتين: يقود الأخوة ليلا في كثير من الأحيان الى موقع نمرة في ضواحي مدينة الخليل، ومن هناك يطلقون النار على مركز للبوليس البريطاني قرب موقع عين خير الدين ويجري تبادل اطلاق النار فترات من الزمن ثم ينسحبون. وفي كثير من الاحيان يتمركز واخوانه في موقع جورة بحلص قرب الخليل او موقع بيت خيران قرب قرية حلحول على طريق الخليل ــ القدس، وينتظرون مرور قافلة او دورية عسكرية فيطلقون النار عليها ويشتبكون معها لفترة غير طويلة ثم ينسحبون الى الجبال. واستمر على هذه الحال نحو ثلاثة اشهر، وابلى بلاء حسنا هو ورفاقه، الى ان استشهد في موقع نمرة حيث وقع والمجموعة في كمين نصبه الجيش البريطاني، وجرح في الموقعة نفسها هاشم الأشهب. ومما هو جدير بالذكر ان الجيش البريطاني لم يراع حرمة الاستشهاد، فبعد سقوط الشهيد وانسحاب رفاقه ضربه الجنود بحرباتهم وجروا جثته جرا لمسافة كيلومتر او اكثر، وكان لاستشهاده رحمه الله وقع عظيم على اهل مدينة الخليل فأقاموا له جنازة كبيرة. واندفع من بعد استشهاده عدد كبير من الرجال للمشاركة في الثورة. وتولى القيادة من بعده ناجـي النـي المشهور باسم ابو نعيم كما استمر الحاج منير البكري، خال الشهيد في قيادة المجموعة الأولى.

بعض عملياتنا في القدس

عندما بدأ الاضراب العام وجدنا فرصتنا في القيام بهجمات مسلحة، فقمنا بعدة عمليات سأتحدث عن ابرزها. وكان اتجاهنا ان تكون ضرباتنا موجهة الى الانكليز من شرطة وجنود، ومراكز بوليس. وبدأنا بالفعل ببعض عمليات اطلاق النار والقاء القنابل على الانكليز. غير ان حادثا جرى في الحي اليهودي بالقدس القديمة اضطرنا الى توجيه أول عملية كبيرة نقوم بها نحو اليهود. وذلك ان احد أعضاء فرقة الجوالة التي كنت اقودها واسمه محمود عبد الباسط التميمي يسكن في حي اليهود قرب الكنيس الكبير مر امام بيتي في درجة الطابونة متوجها الى بيته ومعه اخوه الصغير. وبعد بضع دقائق عاد اخوه الصغير يصرخ ويولول

ويقول قتل اليهود اخي . فأمسكت بيده وركضت واياه الى داخل الحارة ووجدت محمود ملقى على باب داره بلا حراك وقد اخترق الرصاص صدره، فشهرت مسدسي وتلفت يمنة ويسرة فلم أر يهوديا لأنتقم منه . وقال لي اخوه ان القاتل دخل البيت المقابل، وكدت ادخل الدار ولكني عدت حذرا بعد ان خطوت في (الحوش) بضع خطوات . وكنت أظن ان محمود ما زال حيا فحملته ثم ساعدني آخرون الى ان وصلنا به الى عيادة اقرب طبيب وهو الدكتور حسام ابو السعود، الذي فحصه وقال لنا: مع الأسف مات منذ مدة إذ اصابته الرصاصة في القلب.

هنا لم يكن لنا مناص من تحويل انظارنا الى اليهود. فلننتقم اذن!! والا تمادى اليهود. ولن يوقفهم عند حدهم الا ضربة كبيرة تشعرهم ان الاغتيال سيف ذو حدين، خاصة ان اغتيال الشهيد محمود عبد الباسط لم يكن الأول. فمنذ الأيام الأولى للاضراب قتل اليهود عددا من العرب في يافا وفي ضواحي القدس، وكنت رأيت بعيني جثتي قرويين جيء بهما الى الحرم مشوهتين.

وبهذه المناسبة اشير الى ان الصهيونيين حاولوا دوما ان يكون بيدهم زمام المبادرة، ففي كل مناسبة مضطربة في البلاد يتحركون بسرعة ويضربون هنا وهناك لتكون لهم الهيبة ولارهاب العرب. وكنا نلاحظ انه عندما يقوم العرب بعملية ضد اليهود تتحرك قوات منظمة منهم فورا بعد ساعة او ساعتين على الأكثر للقيام بعملية انتقامية سريعة ومنظمة، مما جعلنا نعتقد ان عملياتهم تكون مخططة ومدروسة سلفا ومعدة لتنفذ فورا عند صدور الأوامر.

لذلك قررنا ان نقوم بعملية رادعة ضد اليهود.

عملية سينما اديسون

تقع سينما اديسون في صميم المنطقة اليهودية بالقدس، وكنا نعرف تلك المنطقة جيدا حيث يقع بالجوار منها مقهى براموني اليهودي. وكنا انا وسامي وآخرون نرتاد هذا المقهى لنلعب الشطرنج ولنعقد اجتماعاتنا في الوقت نفسه بعيدا عن الشبهات. ولذلك اوحت لنا معرفتنا بالمنطقة قبل الثورة ان نهاجم هذا الهدف، ولا سيما اننا نتكلم العبرية قليلا. وبدأنا الاستطلاع والتخطيط. فنذهب الى المقهى عادة وإلى السينما من شارع عام (شارع يافا) او شارع المستشفى الألماني. ولكنني اكتشفت طريقا فرعيا متعرجا يبدأ بحي المصرارة العربي ويمر خلف المستشفى الايطالي في منطقة كان يملكها العرب، فزاد ذلك من حماستنا لأنه طريق مأمون للعودة الى المنطقة العربية. وموضوع العودة مهم جدا لأننا نعرف بالتجربة، ان البوليس البريطاني يتحرك بسرعة عندما يقع حادث ضد اليهود لاغلاق الطرق المؤدية من مكان الحادث الى الأحياء العربية المجاورة.

ووضعنا الخطة انا وسامي ومثلناها معا على سبيل التجربة. اشترينا تذاكر لحفلة السينما المسائية ودخلنا السينما وحضرنا الفيلم حتى نهايته وجلسنا في الصالة وليس في (اللوج) ليسهل



الشهيد سامي الأنصاري



موسى كاظم الحسيني

خروجنا. وعند انتهاء العرض تفتح للصالة ثلاثة ابواب تؤدي الى شارع جانبي. وعند خروج الناس يتكدسون على الأبواب، ونتأخر نحن قليلا ثم نبدأ باطلاق النار ونفرغ مسدسين وبذلك لن تضيع طلقة واحدة من الأربع عشرة طلقة في الهواء، ونركض مع الهاربين الى الشارع الفرعي ومنه الى الطريق الفرعي المرسوم المؤدي الى حي المصرارة حيث يسكن سامي. وبعد المصرارة يكون دخولي الى البلدة القديمة سهلا حيث يقع بيتي. هكذا وضعنا الخطة وهكذا جربناها، ثم حددنا ليلة التنفيذ.

في الليلة المقررة في اواخر ايار/مايو ١٩٣٦، التقيت وسامي وكل واحد يحمل مسدسه و٧ رصاصات احتياطية، وقبل ان نتوجه الى العمل بقليل سمعنا من الاذاعة اعلانا يفرض منع التجول على البلدة القديمة حيث اسكن. وذلك يعني وقوع هجوم في البلدة القديمة، فأسقط في أيدينا. واهل سامي لا يعرفون شيئا عن نشاطنا ولا استطيع ان ابيت في بيت سامي او في بيت غيره، وحتى لو امكن ذلك فسيؤدي الى ان يكتشف اهلي امري. فاقترحت التأجيل واعترض سامي بشدة قائلا: انا انفذ العملية وحدي، انا وانت سنطلق ١٤ طلقة. فلماذا لا اذهب وحدي واحمل مسدسين واطلق النار من المسدسين في آن. فرفضت الفكرة بشدة واصررت على التأجيل وتجادلنا طويلا، واخيرا ناولته مسدسي وتمنيت له التوفيق وفي عيني الدموع. فانطلق رحمه الله غير هياب ولا وجل، ونفذ العملية بالشكل المرسوم مع تعديل اضطراري، وذلك اننا لم نكن تدربنا على اطلاق النار من مسدسين في آن. فشهر مسدسه في الوقت المناسب واخذ يطلق النار عازما على استعمال المسدس الثاني بعد افراغ رصاصات المسدس الأول. وهنا ايضا وبعد انطلاق خمس رصاصات فقط توقف مسدسه عن الاطلاق. ذلك لأنه كان قبل العملية مخبأ في الأرض. وعلى الرغم من تنظيفه فلم يكن نظيفا تماما. وكان بالقرب من سامي يهودي ويظهر انه احد العمال او الحراس فأمسك به فضربه سامي بمسدسه على رأسه فأطاح به ارضا وركض مع الراكضين، فلم يتمكن من اطلاق رصاصات المسدس الثاني... الكل خارج من السينما يركض، وسامي يركض معهم، ويسأله يهودي (ما ييش) اي ماذا يجري؟ فيجيب سامي بالعبرية (اني لو يوديا) أي لا أعرف. ويستمر راكضا وبعد مسافة قصيرة دخل الطريق الفرعي المرسوم وراح يمشي مشيا عاديا الى ان انتهى الى اول حي المصرارة، وما كاد يدخل حي المصرارة حتى شاهد قوة من البوليس البريطاني تصل الى مدخل الزقاق الفرعي وترابط فيه، فاستمر سائرا ووصل بيته سالما.

كانت نتيجة العملية قتل ثلاثة من الصهيونيين وجرح اثنين. هكذا اذيع الحادث في البلاغ الرسمي. ولكن وقع الحادث كان بالغ الأهمية فهو اول حادث يقتل فيه ثلاثة ويجرح اثنان من الصهيونيين منذ بداية الاضراب، والمهم ايضا ان الحادث وقع في صميم الأحياء اليهودية.

في الصباح الباكر التقيت سامي وتعانقنا فرحين ضاحكين وراح يروي لي التفاصيل بكل

غبطة واعتزاز. قال لي: هل تعلم ان هناك نقطة في الخطة لم تكن محسوبة؟ قلت مندهشا: ما هي ونحن درسنا كل الاحتمالات؟ قال: ألا تذكر اننا كنا متضايقين لأننا حسب الخطة سنضطر لاطلاق النار على الصهيونيين من الخلف؟ قلت: نعم، قال: بعد اطلاق الرصاصة الأولى حصلت المفاجأة غير المحسوبة، استدار جميع من في قاعة السينما الى الخلف وبذلك اطلقت النار عليهم وجها لوجه كما كنا نتمنى، وهذا هو البلاغ الرسمي يؤكد ذلك، فواحد اصيب في عينه وآخر في جبهته وهكذا.

وجن جنون الانكليز، واعتبروا الحادث تطورا خطيرا وارتفاعا في مستوى الأحداث، فقاموا بعدة اجراءات عسكرية واسعة وألقوا القبض في ليلة الحادث على عربي يحمل مسدسا من عيار ٥ملم وقدموه للمحاكمة ونسبوا اليه اطلاق النار مع ان خراطيش الرصاص التي استعملها سامي كانت من عيار ٧ ملم. وشهد خبير اسلحة بريطاني ان المسدس عيار ٥ ملم يمكن ان يطلق رصاصا من عيار ٧ ملم. فكانت تلك نكتة الموسم حتى القضاة البريطانيون ضحكوا من شهادة الخبير العظيم ولم يدينوا المتهم.

في اليوم التالي قام الجيش البريطاني باستعراض عضلاته ارهابا للناس. فسارت طوابير من جميع الوحدات البريطانية الموجودة في معسكرات القدس بعرض عسكري ارهابي وطافت معظم شوارع القدس وهي تحمل جميع صنوف الأسلحة. وامام كل طابور قائد او اكثر يمتطي الخيول. كان الأمر مفرحا جدا فأشعرنا بأهمية العملية، ولذلك سرنا نتفرج على العرض من شارع الى شارع نعلق ونضحك جذلين. واستمرت نشوتنا نحو اسبوعين كنا خلالها نخطط للقيام بعملية أخرى.

١١ الهجوم على قائد شرطة القدس البريطاني وقتله

ما زال عدد من أهالي القدس الأحياء يذكرون قائد شرطة القدس الانكليزي سيّىء الذكر آلن سيكرست ووحشيته في معاملته للعرب والاعتداء عليهم. ولا بد ان بعض من كانوا يومها اطفالا يذكرون انهم كانوا بعد الهجوم يهتفون في مظاهراتهم فرحين «سيكرست مات! سيكرست مات ما خلف ولا بنات». في تلك المظاهرات الطريفة، كان الاطفال يضعون على رؤوسهم خوذا من الصحون المعدنية ويحملون السيوف الخشبية ويتظاهرون في الشوارع بالمئات وهم يهتفون ضد الاستعمار ويرددون هتاف سيكرست مات.

كان هذا الضابط استعماريا قذرا، شديدا عربيدا، اراد ان يذل شبان القدس وأن يرهبهم. وازداد شراسة بعد الهجوم على سينما اديسون وبخاصة بعد قتل الشرطي البريطاني بيرد في شوارع القدس القديمة. فعزز نقاط التفتيش على ابواب سور القدس القديمة، ورافق هذا التفتيش ضرب واهانات. كما سير دوريات كثيفة في الشوارع والاسواق تجبر الناس عندما تمر الدورية في الشوارع، وبعضها مكتظ مثل سوق خان الزيت، ان يقفوا إلى جانبي الشارع مؤدين التحية للدورية، ولسبب او من دون سبب ينهالون على الشبان والمارة بالعصي او بالارجل أو باللكمات.

كان سيكرست يتجول يوميا في الشوارع بسيارته الموريس الصغيرة، وخلفها سيارة حراسة، وكلما رأى شابا او أكثر يسيرون في الشارع يتوقف وينهال عليهم ضربا بعصاه وبيديه وبرجليه من دون أي سبب، حتى أصبحت الشوارع التي يمر بها تخلو من المارة كلما ظهرت سيارته المعروفة من بعيد، فيتراكض الناس ويدخلون الى الدكاكين أو العمارات القريبة بأسرع ما يمكن، ومن يتخلف منهم لا بد ان يناله الضرب حتى تكسر يده أو ساقه او رأسه. ولا أزال اذكر حادثة جرت امامي قرب مدرسة شميت بباب العمود حيث وصلت سيارة سيكرست. وكان الشارع مفروشا بالمسامير التي كنا نلقيها بكثرة لعرقلة الدوريات، فجعل يوقف كل مار ويطلب منه أن يلتقط المسامير، مع اتحافه ببعض اللكمات او ضربات الهراوات. وصدف ان خرج من عمارة شميت ــ وكانت تشغلها دائرة السكرتير العام، أي رئاسة الحكومة ــ موظف عربي انيق يشغل وظيفة قائمقام، وهو السيد خلوصي الخيري، فطلب منه سيكرست ان يلتقط المسامير عن الأرض، فقال له بانكليزية فصيحة: أنا قائمقام. وقبل ان يتم جملته

انهال عليه سيكرست ضربا، وطار طربوشه الانيق ليتدحرج نحو باب العمود وشرع يلتقط المسامير معي ومـع من كانوا مارين.

وكثرت الاحتجاجات على فظاعة سيكرست وغطرسته مما دعا الاستاذ عوني عبد الهادي امين سر اللجنة العربية العليا الى أن يقابل السكرتير العام مرتين للشكوى من دون جدوى. وقدم القائمقامون خلوصي الخيري ونظيف الخيري ونقولا سابا ووديـع منطورة شكاوى ضده على انفراد، فلم تصـغ السلطة لشكاويهم. وابرق الاستاذ شكري قطينة في اثر الاعتداء الوحشي على اخيه صبحي الذي أدى الى كسر جمجمته وتشويه وجهه ودخول المستشفى بالبرقية التالية: «المندوب السامي ــ القدس. وحشية سيكرست ألقت بأخي طريحـا في المستشفى بجراح خطرة. إذا لم تؤدبه الحكومة وتقطـع يده التي اعتدت على الابرياء فسنؤدبه نحن ومرحى للموت خلاصا من ظلمكم».

انا شخصيا ضربني أربـع مرات: الاولى بباب العمود والثانية بباب الخليل، والثالثة في شارع مأمن الله والرابعة، وكانت اقساها، في حي المصرارة، عندما انفرد بي وكان الشارع خاليا ولم أهرب عندما شاهدت سيارته المعروفة. أوقف سيارته وفتشني، ثم نزل من السيارة وفتشني ثانية، ثم كال لي اللكمات (الشلاليط)، وطار طربوشي يتدحرج على الارض. ومـع ذلك لم اهرب امامه فغاظه ذلك وشهر مسدسه وقال: «اذهب والا اطلقت عليك النار» Go or I'll Shoot you. فأخذت طربوشي عن الأرض وسرت لاعنا متوعدا واقسمت ان اقتله وان (أشلحه) مسدسه الذي شهره علي.

بعد ذلك بنحو اسبوع كان رفيقي سامي الانصاري يسير مـع بعض اصدقائه في شارع المحطة، فأوقفتهم دورية للشرطة البريطانية وفتشتهم، وضربوا سامي ضربا مبرحا مهينا. فجاء في اليوم التالي الى بيتي وسأل عني، ولم اكن موجودا هناك. ولما علمت بحضوره ذهبت اليه فروى لي حادثة ضربه وقال: اقترح ان نقوم حالا بالهجوم على مركز شرطة الانكليز (الترافيك) في شارع يافا لننتقم منهم، ونقتل من نقتل وليكن بعدها ما يكون. فأقنعته أن أفضل هجوم يجب ان يوجه الى سيكرست نفسه لأنه هو الذي سن هذه السنة، وقتله فقط هو الذي يوقف هذا البلاء. فوافق على ذلك، وشرعنا نراقب سيكرست لنهاجمه في انسب مكان. راقبته يوميا قرابة شهر واكتشفت انه في كل يوم جمعة، ونحو الساعة الحادية عشرة يتوجه بسيارته التي يقودها بنفسه للتفتيش على مخفر باب الاسباط من دون أن ترافقه سيارة الحراسة، ومعه حارس واحد يجلس الى جانبه. فأخبرت سامي وقررنا ان نهاجمه عند مدخل حي وادي الجوز عند عودته من تفتيش مخفر باب الاسباط. وهذا المكان مناسب للهجوم لأن سيارته الصغيرة تكون صاعدة صعودا صعبا فتكون بطيئة، ويجري الهجوم عند مفترق طرق. ولا يعيبه الا امر واحد هو انه لا يبعد اكثر من مئة متر عن باب المتحف الفلسطيني حيث يوجد حاجز عسكري في مدخل المدينة لتفتيش السيارات.

وحددنا يوم الهجوم وتفاصيل الخطة. وفي صباح ١٢ حزيران / يونيو ١٩٣٦ توجهت الى مكان اللقاء. ولما تأخر ذهبت الى بيته فالتقيته قرب البيت وكان والده الشيخ ابراهيم الانصاري مارا ورآنا معا. ذهبنا في الوقت المحدد الى مقبرة باب الاسباط وكمنا في مكان ملائم قرب برج لقلق. ونحو الساعة الحادية عشرة رأينا سيارة سيكرست تمر متجهة الى مخفر باب الاسباط، وكان من عادته ان يعود حالا بعد التفتيش. فنزلنا الى الشارع العام (طريق اريحا) حيث طلوع ستنا مريم عند مفترق وادي الجوز، الطور، كرم الشيخ. كان سامي ممسكا بمسدسه الجاهز للاطلاق وقد دسه مع يده في جيبه، وانا امسك بمسدسي جاهزا للاطلاق وقد غطيته مع يدي بطربوشي فقط. واقبلت السيارة، وكنا نسير في وسط الطريق وكأننا في نزهة الى ان وصلت السيارة صاعدة عقبة ستنا مريم ببطء. كنا الى يسار السيارة الى الجانب الذي فيه سيكرست وكان يقودها بنفسه والى جانبه الحارس، وكنا اتفقنا ان نوجه نحن الاثنين النار الى سيكرست أولا ثم الى الحارس باعتبار ان الحارس مسلح ببندقية ولا يستطيع ان يستعملها وهو في داخل السيارة. كما اتفقنا ان نقترب جدا من السيارة وان لا نسرع في الرمي خشية أن يضيع رصاصنا في جسم السيارة.

وصلت السيارة الى محاذاتنا فبدأنا انا وسامي اطلاق النار على سيكرست من مسافة متر واحد، فأصيب فورا، والقى برأسه وجسمه الى الخلف رافعا يديه عن المقود، كما رفع قدمه عن البنزين فتوقفت السيارة، ثم راحت تنحدر الى الخلف لشدة انحدار الطريق. الا ان عدة مفاجآت جرت تباعا: فاجأنا حارسه باطلاق النار من مسدس كان بيده وبدأ الرمي في اللحظة نفسها التي بدأنا فيها الرمي. والظاهر انه اشتبه بحركتنا وسيرنا في وسط الطريق فهيأ مسدسه قبل ان يصلنا. وبعد اطلاق رصاصتنا الاولى ارتد سامي الى الخلف قليلا وهو يطلق النار بسرعة غريبة خلافا لما اتفقنا عليه وصاح (طخ بهجت طخ)، وافرغ مسدسه بسرعة فائقة واتجه راكضا نحو وادي الجوز مع اننا كنا اتفقنا ان ننسحب الى كرم الشيخ. وفي هذه اللحظة بقي في مسدسي ثلاث رصاصات بعد ان اطلقت على سيكرست اربع رصاصات، فبدأت اطلق النار على الحارس وهو يطلق النار علي والسيارة تنحدر الى الخلف منحرفة الى جانب الوادي وانا اتابعها ويدي اليسرى على جناحها الامامي الايسر. وكانت رصاصتي قبل الاخيرة موجهة الى الحارس من خلال زجاج السيارة الامامي، ولدهشتي لم تحطم الزجاج وانزلقت عنه. واطلق الحارس علي ايضا من خلال زجاج السيارة الامامي فتحطم فاعطاني فرصة لأطلق عليه آخر رصاصة في مسدسي، فأصابته واستدرت لأنسحب فوقعت ارضا بسبب وجود كثير من الحصى على الارض المنحدرة، ثم نهضت وانسحبت متجها الى طريق الطور قرب المسلخ لانني رأيت من بعيد قافلة عسكرية تحرس قافلة سيارات شركة بوتاس البحر الميت مقبلة وقدرت ان الانسحاب الى طريق المسلخ أسلم. وبذلك سرت في طريق غير الطريق التي سار فيها سامي وكان غاب عن نظري. وتدهورت سيارة سيكرست وهو فيها

وسقطت الى يمين الطريق من علو أربعة امتار.

بعد ان ابتعدت قليلا عمَّرت مسدسي من جديد، وسرت مطمئنا الى أن سامي ابتعد بسلام، واصبح في أمان وان علي ان اتدبر امري لأسلم انا ايضا. ومشيت في طريق متعرجة عائدا الى وادي الجوز فحي باب الساهرة فالمصرارة، وعندها شعرت انني اصبحت في امان نسبي. وداومت السير الى الباب الجديد ودخلت البلدة القديمة ووصلت بيتنا في حي السلسلة (درجة الطابونة) وغيرت ملابسي، واتجهت الى المسجد الاقصى برفقة اخي نهاد لاداء صلاة الجمعة. وقبل ان نصل الى المسجد سمعنا الناس يتحدثون عن الهجوم ويقولون ان احد المهاجمين قتل وجُرح الآخر لكنه انسحب، وان سيكرست قتل وحارسه جرح. وتساءلت هل قتل سامي حقا ولم يكن ذلك خطر على بالي بتاتا. وعرفت، فيما بعد، ان سامي اصيب منذ بدء الهجوم برصاصة اخترقت صدره من اليمين الى اليسار فمزقت رئتيه، وادركت انه بسبب ذلك ارتد الى الخلف وافرغ مسدسه بسرعة، وانسحب بسرعة، متحاملا على نفسه، وساعده احد المارة وادخله اول بيت صادفه. الا ان القوة العسكرية التي تحرس قافلة البوتاس والتي وصلت الى مكان الحادث بسرعة شاهدته يدخل البيت فداهمت البيت فورا وقبضت عليه وهو ما زال حيا، فحمله الجنود البريطانيون ورموه في سيارة شحن ونقلوه الى سجن مستشفى الحكومة في المسكوبية من دون اسعاف. كما قاموا في الوقت نفسه بنقل سيكرست وحارسه.

عدت بعد الصلاة الى البيت، وفي الطريق سمعت اسم سامي الانصاري يتردد على ألسنة الناس، وانه ما زال حيا ولكنه مصاب بجراح مميتة. وكانت والدتي رحمها الله تعتبر سامي ابنها فبكت عليه بحرقة، وبكى اخوتي ايضا، وتساءلوا من الذي كان مع سامي؟ وهم يعرفون وكل من يعرفني ايضا اننا لا نفترق، فحيث يوجد سامي يوجد بهجت. وكان اخي نهاد وحده يعرف الحقيقة، ومعنى ذلك ان امري ربما يكشف، فما العمل؟ تجلدت وانكرت اني كنت مع سامي ورحت اطرح الاسئلة على الناس عمن كان مع سامي قبل أن يسألوني هم. ونزلت من البيت الى النادي الاسلامي اكرر الموقف نفسه، أسأل اصدقاءنا عمن كان مع سامي. واقترح بعض الاصدقاء من اعضاء النادي ان نذهب الى المستشفى لزيارته، ولكنني تملصت بحجة ان سامي ربما يكون في غرفة السجن ولا يمكن رؤيته.

هرع أركان البوليس والمباحث الى المستشفى يحققون مع سامي قبل ان يفارق الحياة، وكان يعاني سكرات الموت ويردد بالعربية والانكليزية: لم يكن معي احد. واغتنم فرصة فأسر لأخيه بعض الكلمات، كان رحمه الله يسأل عن مصيري!!

وفارق الحياة رحمه الله بعد نحو ثلاث ساعات من اصابته. وكانت القدس مضطربة فرحة وحزينة في آن. وأُقر دفنه مساء اليوم نفسه بعد أن يصلى عليه في المسجد الاقصى، على الرغم من ان ذلك يتعارض مع اوامر منع التجول التي كانت مفروضة عند الغياب. وامتلأ المسجد بالمشيعين متحدين أوامر منع التجول. وحضرت الصلاة مع الجماهير الغفيرة وسمعت

خطبا تأبينية في ساحة المسجد، وشاركت في الجنازة وشاهدت جثمانه الطاهر يوارى ثرى القدس الشريف في مقبرة باب الاسباط. وساعد ذلك في تبديد الشبهة عني، ولا سيما ان معظم الناس اعتقدوا ان رفيق سامي جرح، وذلك لاني، كما ذكرت، سقطت ارضا، ورآني البعض وانا اسقط.

صدر بعد ظهر ذلك اليوم بلاغ رسمي اذيع من الاذاعة، يصف الحادثة وهذا نصه: «جرت قبل ظهر اليوم محاولة للقضاء على حياة المفتش آلن سيكرست، فبينما كان يقود سيارته عائدا من باب الاسباط هاجمه شابان كانا مختبئين تحت مستوى الطريق، وافرغا مسدسيهما على السيارة فأصيب المفتش بجراح خطيرة في صدره وكتفه وجرح حارسه جرحا بسيطا، واطلق الحارس النار على المهاجمين فأصاب احدهما بجراح مميتة وتمكن الآخر من الهرب».

كذبوا والله! لم نكن «مختبئين تحت مستوى الطريق». كنا نسير في وسط الطريق تماما، ولا حتى الى جانبها، كنا واقفين (بطولنا) على بعد متر من السيارة وهي تعبر الى جانبنا عندما بدأنا اطلاق النار. وكذبوا ايضا عن سيكرست؛ شاهدته بعيني عندما اصيب فتوقفت فيه الحياة ثم تدهورت به السيارة وسقطت من علو أربعة امتار مما ادى ــ كما علمنا فيما بعد ــ الى كسر العمود الفقري. وبذلك استطيع ان اجزم انه قتل وان البلاغ حاول أن يخفف من وقع الحادثة. في أية حال لم تر القدس فيما بعد وجهه البغيض. وهتف اولادنا في مظاهراتهم سيكرست مات، سيكرست مات، ما خلف ولا بنات! وادت هذه الحادثة الى رفع المعنويات وتخفيف اجراءات رجال البوليس وتصرفاتهم.

وذهبت محاولات البوليس والمباحث لمعرفة رفيق سامي عبثا، وحتى اهلي واصدقائي لم يستطيعوا ان يجزموا انني كنت معه، ولم اصرح بهذه الحقيقة الا بعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، مع استثناء واحد: جاءني شقيقه عادل بعد بضعة ايام من استشهاد سامي، ورجاني ان اذهب معه الى البيت لمقابلة شقيقات سامي. وكانت والدته رحمها الله متوفاة، فوافقت ووجدتهن متشحات بالسواد، وقلن لي: «عليك أمان الله ولن نبوح بسرك، كل ما نريد أن نعرفه هل فعلا هاجم سامي سيكرست ام ان سيكرست وحارسه قتلا سامي بلا مبرر كعادة سيكرست؟ نريد أن نعرف هل شقيقنا بطل، ام أنه ضحية رخيصة؟ كما نريد أن نعرف هل أنتما من قاما بالهجوم على سينما اديسون؟ وفكرت مليا هل انكر كل شيء؟ لم يكن هنا للانكار الا مبرر واحد، هو المحافظة على حياتي. وشعرت ان انكاري فيه اهدار لحقوق سامي علي، ولا سيما انني أعلم ان والده شاهدني معه صباح ذلك اليوم، وانني سمعت أن سامي وهو يعاني سكرات الموت سأل شقيقه راغب هامسا: ماذا جرى لبهجت؟ لكل ذلك اخبرتهن ان سامي كان بطلا، وانه قام وحده بعملية سينما اديسون. فقاطعنني قائلات: «لا تخف قل الحقيقة، فلن نبوح بسرك». فقلت: «لم انكر شيئا، الحقيقة انه كان في حادثة سينما اديسون وحده، والذي يؤكد لَكُنَّ صدقي انني اقول أمامكن انني كنت معه عندما هاجمنا

سيكرست وقتلناه، وان سامي أدى دوره بكل بسالة ومات بطلا، وسأثأر له». فارتحن لما ذكرت، وناشدنني أن احرص على نفسي وانهن يعتبرنني أخاً لسامي ولهن.

كان لاستشهاد سامي أثر عميق في نفسي، وعلى الرغم من ثقتي الشديدة بنفسي واعتدادي برجولتي، كنت في الواقع في ميعة الشباب، لم أكمل العشرين بعد، ولم أكن فقدت عزيزا قبله. تساءلت لماذا اصيب هو ولم اصب انا برغم انني تعرضت لرصاصات الحارس أكثر منه؟ لماذ خصه الله بالشهادة من دوني؟ هل كان ذلك لانه ادى عملا بطوليا في الهجوم على سينما اديسون فاستحق الشهادة والجنة؟ لماذا لم يمهله حتى يقوم بأعمال اخرى اعظم وهو جدير بذلك وامثاله نادرون؟ رحمك الله يا سامي قدمت باستشهادك مثلا للأجيال جديرا بأن يقتدى، وغرست جسدك في تراب باب الاسباط (مقبرة الرحمة) على بعد امتار من سور القدس فأضفت الى قدسية أرضنا ووطننا قدسية جديدة، ولا بد ان تفرخ هذه الغرسة وتنبت وتينع وتثمر ثمار الحرية.

وسلام عليك، وعلى رفيقك فريد العوري الذي دفن الى جانبك بعد اسبوعين من استشهادك وسلام على شهدائنا اجمعين.

«ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون».

١٢ الهجوم على رجال الطيران البريطاني والمعارك الكبرى

مقتل بريطاني وجرح آخر

يوم دفنا سامي، أقسمت أن أثأر له من الإنكليز بسرعة ولو أدى ذلك الى هلاكي. فصار مسدسي لا يفارقني وأنا أتجول هنا وهناك باحثا عن صيد سمين يكون كفوءا لثأر سامي. ومما زادني انفعالا ان رفيقنا فريد العوري استشهد بعد استشهاد سامي بنحو اسبوع، عندما انفجرت بين يديه قنبلة يدوية ودفناه في قبر ملاصق لقبر سامي.

كان الانكليز هدفي. ذهبت الى الخليل عند مجموعة الشيخ عبد الحفيظ بركات، وحملت البندقية عند جورة بحلص، ولكن لم أعرف ان قتلت إنكليزيا أم لا، لأننا كنا نتبادل إطلاق النار من مسافة ١٠٠ ــ ٢٠٠ متر، ومعظم الاشتباكات كانت تحدث في ظلام الليل. عدت الى القدس مُصمما على أن أهاجم دورية عسكرية في البلدة القديمة. ولكن دوريات البوليس البريطاني توقفت وحلت محلها دوريات من الجيش البريطاني تتألف كل دورية من نحو ١٥ جنديا مسلحين بالرشاشات ويحملون اجهزة لاسلكية ويمشون دوما متباعدين ومنقسمين الى صفين، كل صف الى جانب من الطريق او الشارع. ولذلك فانني لو هاجمتهم فلن استطيع ان أقتل اكثر من واحد ثم أقتل فورا.

وكان بالقرب من بيت سامي دكان نجار يهودي يعمل فيه عدد من العمال اليهود، فقررت ان أهاجم هذا الدكان لأقتل اكبر عدد ممن فيه من اليهود. وبعد الاستطلاع اللازم، توجهت ظهر احد الايام للتنفيذ. وعندما وصلت إلى الهدف، قلت في نفسي ان الانكليز هم العدو الرئيسي، فهل جبنت عن مواجهتهم؟ ومررت بباب الدكان، وكان الدكان يقع في مكان خال ومن السهل جدا قتل عدد ممن فيه. ولم أفعل! أريد الانكليز...

أخيرا وجدت ضالتي المنشودة اذ تبين لي بعد كثرة الاستطلاع ان بعض الضباط والجنود الانكليز يزورون كنيسة الجسمانية ويمرون سيرا على الاقدام بالمكان نفسه الذي هاجمنا فيه سيكرست. لماذا اذن لا أقتل بعضهم في المكان نفسه؟ اعجبتني الفكرة واخذت أقوم بالترصد كل يوم ساعات في مقبرة باب الاسباط. وفي ضحى ١٠ آب / أغسطس ١٩٣٦، وجدت بالقرب مني ضابطين من ضباط الطيران عائدين من كنيسة الجسمانية الى المدينة مشيا، فتبعتهما ومسدسي في يدي جاهز للاطلاق وقد غطيته بطربوشي، وبدأت المسافة تتقارب بيننا.

وعندما وصلا الى المكان الذي هاجمنا فيه سيكرست حيث أصيب سامي اصبحت المسافة بيننا أقل من مترين، فأحسا بالخطر واستدارا لمواجهتي وهما بين الشك واليقين، فأطلقت عليهما النار فورا، فمسدسي كان مشهرا ومسددا نحوهما ومغطى بالطربوش فقط. أطلقت خمس طلقات فأصيب كل واحد منها بطلقتين (كما ذكر ذلك البلاغ الرسمي الذي اذاعته الحكومة) فسقطا على الأرض، ولاحظت ان اصابة أحدهما قاتلة أما أصابة الثاني فلم تكن كذلك. وفي المساء أعلن البلاغ الرسمي الهجوم وذكر ان الضابط المهندس الطيار وايت (L.A.C.C.C. White) قتل وان زميله الضابط الطيار أُصيب بجروح بليغة.

وكان للحادث وقع عظيم. فمن ناحية، كان حقد الناس على رجال الطيران الانكليز كبيرا لكثرة ما قتلت طائراتهم في عمليات حرب الجبال وعمليات تفتيش القرى. ومن الناحية الثانية جرى الحادث بعد استشهاد سامي بأربعين يوما تقريبا، وفي المكان نفسه، فاعتقد الناس ان الحادث هو ثأر لمقتل سامي الانصاري في ذكرى اربعينه.

عزيزي القارىء، ربما أكون أطلت عليك في وصف هذه الحوادث الثلاث ومعذرتي انها كانت حوادث هامة احتلت من ضميري مكانا عميقا، وان الأمانة التاريخية تقتضي التفصيل، وتعطي صورة عن أسلوبنا واسلحتنا وعملياتنا في تلك الأيام.

وأخيرا لا بد ان اشير الى انني كنت اكتم سر هذه العمليات وغيرها كتمانا شديدا حتى عن أقرب المقربين الي، ولم أصرح به لأحد الا بعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين سنة ١٩٤٨، وما زلت حتى اليوم أصر على الاحتفاظ ببعض الأسرار.

الخروج الى الجبال

في هذه الاثناء كان القائد فوزي القاوقجي دخل الى فلسطين ومعه نحو ٢٠٠ رجل عربي مسلح من العراق وسوريا وشرق الاردن. وقرأت منشورا موقعا باسمه يدعو الناس الى الالتحاق بالثورة. وكانت لدي الرغبة في ان ابتعد عن أعين السلطة في القدس ولو الى حين. فحصلت على توصية وعلى بطاقة هوية مزيفة باسم سعيد الرملاوي وسافرت الى طولكرم وقدمت نفسي وتوصيتي الى الصيدلي منير السختيان عندما قابلته في صيدليته في طولكرم. وكان أصبح معتمدا سريا للقاوقجي هناك. فرحب بـي وارسل معي توصية منه ودليلا رافقني الى قرية بلعا حيث كان القاوقجي مرابطا في تلك الفترة. وبعد ان وصلنا إلى قرية بلعا واصلنا السير الى شمالي القرية بنحو كيلومتر وهنا اعترضتنا حراسات مسلحة حاولت أن تثنيني عن وجهتي لكوني غريبا عن المنطقة ولا اعرف احدا فيها، وان ذلك يؤدي الى الشك في اخلاصي للثورة، ويعرض حياتي للخطر. فأصررت على الاستمرار في وجهتي وطمأنتهم الى انني احمل توصية مهمة، فسمحوا لي باجتياز حواجزهم، على مسؤوليتي (كما قالوا).

وصلت القاوقجي وقدمت له التوصية، فرحب بـي في تحفظ وسألني أين بندقيتك.

فقلت إنني لا أملك سوى مسدس، وانني أطمح في ان أحصل على بندقية من القيادة (أي منه). فابتسم وقال: لو كان هذا الوادي مملوءا بالبنادق لما كان كافيا للرجال الذين يرغبون في الالتحاق بالثورة. ولكن لا بأس. ورتب لي واجبا مع عارف عبد الرازق (أبو فيصل) وكان حتى ذلك الوقت غير مشهور، ولكن بسالته جعلته، فيما بعد، من اكبر واشهر قادة الثورة.

وعلى الرغم من قصر المدة التي قضيتها مع قوات القاوقجي إلا أنها تركت في نفسي اثرا عميقا وخبرة جيدة ألخصها بما يلي:

١ ــ كان منظر الشبان العرب العراقين والسوريين والاردنيين يبعث الأمل والثقة بالمستقبل. رأيت فيهم الرباط القومي الوحدوي مجسما، كما ان منظرهم المميز يثير الاعجاب؛ فالعراقيون مسلحون برشاشات شاهدتها لأول مرة مع الثوار، وكان لها الفضل في اسقاط عدد من طائرات الجيش البريطاني في معركة بلعا الثانية. ورجال حي الميدان وجبل العرب معظمهم خيالة، وألبستهم وسلاحهم وذخيرتهم وشواربهم تثير الاعجاب. وكان معظمهم من متوسطي العمر ممن خاضوا معارك الثورة السورية ضد الجيش الفرنسي، وكان بعضهم من كبار القادة المعروفين مثل الشيخ محمد الاشمر، شيخ المجاهدين في حي الميدان بدمشق، ومحمود ابو يحيى من مشاهير مجاهدي جبل العرب، استشهد رحمه الله في معركة بلعا وسمعت الكثير من قصص بطولاته وبلائه الحسن.

أما فوزي القاوقجي فقد كان مهيبا في ثيابه العسكرية، وفي ما يبدو عليه من رجولة وثقة بالنفس. وقد احتفظت في بيتي، فيما بعد، وحتى سنة ١٩٤٨ بصورة له معلقة كتب تحتها «القائد فوزي القاوقجي، رمز الوحدة العربية»، ولكنني لم أبقها في مكانها بعد سنة ١٩٤٨.

٢ ــ اطلعت عن كثب على التنظيم العسكري والتكتيك العسكري واسلوب حرب العصابات الذي اتبعه القاوقجي وكنت معجبا به. وسآتي على تفصيل ذلك فيما بعد تحت عنوان «المرحلة الثانية من الثورة». وتصادف وجودي مع قوات القاوقجي بعد خوضهم معركة بيت امرين الكبيرة والخطيرة، وسمعت كثيرا من الحديث عن تفاصيل المعركة وعن كفاءة القاوقجي في ادارتها وقيادتها.

٣ ــ لمست بنفسي دور الفلاح الفلسطيني في الثورة حيث كان معظم المقاتلين (الثوار) الفلسطينيين من أهالي القرى. ورأيت كيف كان سكان القرى يوفرون الإيواء والطعام والماء والاستطلاع والحراسات وغير ذلك من الخدمات وخاصة للجرحى.

٤ ــ رأيت القرويات الباسلات يساندن الثورة بكل بسالة. رأيتهن جماعات جماعات، يحملن على رؤوسهن الماء والطعام ويتبعن المقاتلين من مكان الى مكان. وحتى بعد منتصف الليل كنت أشاهد مجموعات منهن يتنقلن بين الثوار المنتشرين تحت أشجار الزيتون ويسألن «مين ما اتعشاش يا شباب». «مَيِّه يا شباب». واخيرا سمعت الكثير من الاحاديث عن مشاركة النساء العربيات والفتيان في مساندة العمليات العسكرية حيث كان جميع سكان

القرى يهرعون الى الطرق التي تدور قربها المعارك فيغلقونها في وجه الجيش البريطاني بالحجارة لعدة كيلومترات.

حقا كان المظهر البارز اللافت للنظر في ثورتنا سنة **١٩٣٦** هذه المشاركة الشعبية الواسعة. ففي المدينة تجد العمال والطلاب والموظفين والتجار، وحتى رجال الشرطة العرب يساهمون بشكل أو بآخر في الاضراب والعصيان المدني وفي العمليات العسكرية. وفي القرية تشاهد حرب العصابات، بكل ما تقتضيه هذه الحرب من مشاركة جماهيرية وبكل ما تتطلبه من اعباء. فهدم جسر من الجسور مثلا يحتاج الى عشرات العمال لعدة ايام لعدم توفر المتفجرات، ولم تكن القيادات تحتاج الى شيء من العناء في ذلك. فمجرد صدور اشارة عن قائد مسؤول لهدم جسر أو تخريب طريق، يتقدم العشرات بل احيانا المئات للعمل ليلا ونهارا بالفؤوس والازاميل والمجارف وحتى بالايدي، يعملون من دون كلل او ملل وينجزون مهمتهم في أقصر وقت.

تنقلت مع قوات القاوقجي في قرى المثلث (نابلس ــ طولكرم ــ جنين) وكان الانكليز سموه مثلث الرعب (Triangle of Terror) لكثرة الثوار فيه، ولكثرة المعارك التي وقعت فيه. وكان الانتقال المستمر ضروريا ويجري عادة في الليل لتفادي التعرض للطائرات التي كان الانكليز يستخدمونها على نطاق واسع للاستطلاع ولضرب تجمعات الثوار، ولقصف القرى التي ينتشر الثوار في جوارها.

في أثناء وجودي مع قوات القاوقجي لم نشتبك مع الجيش البريطاني في معركة كبيرة، ولكنه ألحقني بمجموعة شبان من ابناء يافا كانت مختصة بنسف القطارات. وكان هدفنا باستمرار الخط الحديدي الرئيسي بين حيفا واللد والمار من طولكرم. وقمت معهم بعدة عمليات لتعطيل هذا الخط الحيوي. كنا أحيانا نفك براغي القضبان الحديد لمسافة طويلة، واحيانا نضع المتفجرات تحت القضبان ونمد الاسلاك المربوطة بالالغام الى مسافة كبيرة بعيدا عن الخط، ونكمن في مكان مناسب ومعنا بطارية، الى ان يمر القطار على الالغام حيث نفجرها كهربائيا. وكان حرس القطار في بعض الحالات يشاهدون الاسلاك الممتدة التي لم نكن اخفيناها جيدا، فيوقفون القطار، لكي يزيلوا الالغام فنشتبك معهم، ونعطل سير القطار بالقدر الممكن ثم ننسحب. وكنا احيانا نمد الاسلاك الكهربائية من دون ربطها بالالغام وبحيث تسهل رؤيتها، فيضطر سائق القطار الى ايقافه برغم عدم وجود الالغام.

كان فوزي القاوقجي يتخذ من قرية بلعا وقرية دير الغصون القريبة منها قاعدة رئيسة، يبتعد عنها لفترة ثم يعود ليستقر فيها. وكان الرمز السري الذي اتخذ لبلعا عبارة (مكان المولد). وفي احدى الليالي كنت جالسا مع مجموعة «أبو فيصل» (عارف عبد الرازق) قرب بلعا وكان معهم رجل رأيته لأول مرة ولم يكن مسلحا، وهو من برامكة منطقة طولكرم، ادعى انه فرّ من السجن وانه يرغب في الالتحاق بالثورة. أجرى ابو فيصل معه تحقيقا

بحضوري واكتشف ان الانكليز دسوه على الثورة. وارسل ابو فيصل في طلب القاوقجي فحضر واستكمل التحقيق، وحكم عليه بالاعدام. وفي تلك الليلة نفسها تحرك الجميع الى دير الغصون فوصلناها صباحا وبعد وصولنا بساعة أعدم البرمكي. وكانت اجراءات التحقيق والمحاكمة السريعة وتنفيذ حكم الاعدام بسرعة راعبة لي. ولذلك استأذنت القاوقجي ان أغادر الى القدس فأذن لي وحملني رسالة الى طولكرم.

عدت الى القدس، معتزما الخروج الى جبال الخليل لانضم الى مجموعتنا هناك التي يقودها الشيخ عبد الحفيظ بركات، ولكنه لم يلبث ان استشهد رحمه الله في اوائل تشرين الأول / أكتوبر سنة ١٩٣٦، فبقيت في القدس.

المرحلة الثانية

من ثورة سنة ١٩٣٦

تبدأ هذه المرحلة اعتبارا من أواخر آب / أغسطس ١٩٣٦، وتنتهي في ١٢ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٦.

توسع عمليات الثوار

في هذه المرحلة توسعت عمليات الثوار بشكل ملحوظ، فجرت معارك كبيرة مشهورة نذكر منها:

١ ــ معركة بلعا الأولى في ١٠ آب / اغسطس ١٩٣٦.
٢ ــ معركة عصيرة الشمالية في ١٧ آب / اغسطس ١٩٣٦.
٣ ــ معركة وادي عرعرة في ٢٠ آب / اغسطس ١٩٣٦.
٤ ــ معركة عين دور في ٢٩ آب / اغسطس ١٩٣٦.
٥ ــ عمليات متعددة لنسف انابيب شركة بترول العراق (I.P.C.) التي اتسعت بشكل كاد يوقف ضخ البترول الى ميناء حيفا.

ومما لا شك فيه ان دخول القاوقجي ومن معه الى فلسطين أحْدَث تطورا كبيرا في مجرى العمليات الحربية، وتمثل في ما يلي:

١ ــ كان مع القاوقجي عدد من الضباط والجنود العراقيين كمتطوعين وكان سلاحهم حديثا مقارنة بأسلحة الثوار الفلسطينيين، وظهرت معهم لأول مرة الرشاشات الحربية التي كانت فعالة لكثافة نيرانها، وظهر أثرها واضحا في مقاومة الطيران البريطاني الذي كان يستعمل حتى ذلك الوقت طائرات غلاديتر (Gladiator) الخفيفة التي يسهل اسقاطها

بالرشاشات، وأسقطت بالفعل عدة طائرات بنيران هذه الرشاشات.

٢ ــ مع ان القاوقجي لم يكن معروفا للفلسطينيين، لذلك كان موضع شك في اول الأمر. الا انه لم يلبث ان حاز ثقة الثوار مما ساعد على توحيد القيادة الفلسطينية تحت إمرته، وصار يصدر منشورات عسكرية بعنوان: قيادة الثورة العربية العامة في سورية الجنوبية (فلسطين)، وبتوقيع: قائد الثورة العربية العام في سورية الجنوبية ــ فوز الدين القاوقجي.

وصدر المنشور الأول بهذا الشكل بتاريخ ٢٨ آب / اغسطس ١٩٣٦. وتعاون معه بعض القادة الفلسطينيين في ذلك الوقت أبرزهم في منطقة المثلث: عبد الرحيم الحاج محمد (ابو كمال) وعارف عبد الرازق (ابو فيصل) وفخري عبد الهادي، وأصبح كل قائد فصيل من الثوار يعينه رسميا القائد العام.

٣ ــ عمل القاوقجي على تنظيم الثوار الفلسطينيين وتحريكهم بشكل ناجح وفعال، بحيث اصبح في كل قرية فصيل من الثوار يتناسب عددهم مع عدد سكان القرية. وتقوم القرية بتسليحهم ويعين القاوقجي قائدا للفصيل. وكونت هذه القوات احتياطا كبيرا للثورة يعد بالآلاف، أطلق عليه نظام (الطلّات) وهو نظام ابتكره القاوقجي، وكان يقضي باستدعاء بعض الفصائل فقط بحيث لا يزيد مجموع اعدادها على ٢٠٠ مقاتل في الدفعة الواحدة للانضمام الى قوات القاوقجي النظامية. وترافق القاوقجي لمدة ثلاثة أسابيع او اربعة فقط، ثم تعود الى قراها. وتستدعى مجموعة غيرها وهكذا. ومن ميزات هذا النظام انه يتيح الفرصة للثوار الفلسطينيين كي يعملوا في اراضيهم وينتجوا مؤنهم ولا يحمّلون القيادة أعباء مالية.

وعندما يخطط القاوقجي لشنّ هجوم واسع يحشد العدد اللازم للمعركة ويكلف جميع الفصائل الأخرى بمهمات معينة. ولذلك اصبح من المعتاد عند نشوب معارك بين قوات القاوقجي والجيش البريطاني ان تخف نجدات الفصائل بأعداد كبيرة لتطوق قوات الجيش البريطاني وتحاصرها وتقطع مواصلاتها وتهاجمها. وكان البريطانيون يهاجمونا بالطائرات لفك الحصار عن الجيش البريطاني. وفي بعض المعارك الرئيسية كانت أوامر القاوقجي بالحركة تبلغ الى جميع الثوار في جميع انحاء فلسطين من صفد الى بئر السبع، فتشتعل نيران المعارك في جميع انحاء فلسطين في آن.

٤ ــ بهذه الاجراءات ارتفعت معنويات الشعب وازداد الاندفاع لحمل السلاح وبرز الشعور القومي، واصبحت البلاد في حالة حرب حقيقية لفتت انظار العالم أجمع واثارت الاهتمام بالقضية الفلسطينية.

سعيد العاص
وعبد القادر الحسيني

عرفت المجاهد الشهيد سعيد العاص (ابو سعاد) قبل ثورة ١٩٣٦ بين من لاذوا بشرق الأردن وفلسطين بعد توقف ثورة سوريا الكبرى، وكان من أبطالها وقادتها الميامين وهو من ابناء مدينة حماة الباسلة. قرأت كتابه (صفحة من الأيام الحمراء) الذي ضمنه مذكراته عن ثورة سوريا الكبرى. وكان زارنا في المدرسة الابراهيمية بالقدس أكثر من مرة وساعدناه في بيع كتابه المذكور.

أما المجاهد الشهيد عبد القادر الحسيني ابن المجاهد الكبير موسى كاظم باشا الحسيني، فلم يحصل لي شرف التعرف عليه شخصيا قبل ثورة سنة ١٩٣٦. ولكنني كنت أسمع عنه وعن مواقفه الوطنية، وسمعت عن الخطاب التاريخي الذي ألقاه في حفل التخرج في الجامعة الاميركية بالقاهرة والذي قال فيه ان الجامعة المذكورة وكر للتبشير والتجسس الاستعماري، مما أدى الى القبض عليه واخراجه من مصر الى فلسطين مخفورا. كما سمعت انه قبل ثورة ١٩٣٦ كان يطوف قرى القدس يحض الناس على التمسك بالارض ومقاومة الانتداب البريطاني، وساعدته على ذلك وظيفته في دائرة تسوية الأراضي. فكان يتجول في القرى تحت غطاء الوظيفة مما أتاح له التعرف على كثيرين من شبانها، كما تعرف على جبالها وشعابها.

وعندما اشتعلت ثورة ١٩٣٦ تعاون سعيد العاص وعبد القادر الحسيني على تشكيل قوة ثورية مسلحة للعمل في جبال القدس وبيت لحم وما جاورها تركزت عملياتها على ضرب قطارات القدس ـ يافا والهجوم على دوريات الجيش البريطاني. ففزعت السلطات البريطانية لذلك أشد الفزع. فهي تعرف من هو سعيد العاص ومن هو عبد القادر الحسيني، وتعلم انهما عدوان لدودان للاستعمار وانهما سيكونان اخطر من يقاتلها، وبصفة خاصة في منطقة القدس الحساسة. لذلك ركزت هجوما ساحقا على عصابتهم المجاهدة قبل ان يشتدّ عودها ويكتمل تنظيمها. ففي يوم ٤ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٣٦ قامت قوات بريطانية تقدر بـ ٣٠٠٠ جندي بعملية تطويق واسعة في جبال الخضر وحوسان قرب مدينة بيت لحم واشتبكت مع الثوار. وفي صباح ٦ تشرين الأول / اكتوبر دارت معركة فاصلة بين الجيش البريطاني والثوار استشهد فيها القائد سعيد العاص وجرح وأسر القائد عبد القادر الحسيني. وفيما بعد تمكن من الهرب الى خارج فلسطين وكانت ثورة سنة ١٩٣٦ قد توقفت.

مضاعفة الاستعدادات
وأعمال القمع البريطانية

١ ـ بعد تفاقم الاوضاع الخطيرة واتساع المعارك الحربية، ضاعفت بريطانيا عدد

جيشها فأرسلت مزيدا من القوات والاعتدة العسكرية. ووصلت الى فلسطين حملة عسكرية جديدة زاد عددها على عشرة آلاف جندي وضابط. وكانت أكبر حملة تغادر بريطانيا منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى. وألغيت مناورات الجيش البريطاني في (الورشوت) قرب لندن في تلك السنة وهي لم تلغ الا مرة واحدة في بدء الحرب العالمية الأولى. وكانت بريطانيا عينت الجنرال ديل قائدا عاما للجيش في فلسطين وكان قبل ذلك مديرا للعمليات والاستخبارات العسكرية في وزارة الحرب البريطانية. وبوصول الحملة الجديدة اصبح تحت امرة الجنرال ديل ثلاث فرق عسكرية من الجيش البريطاني، واصبح عدد الجيش البريطاني في فلسطين ٣٥ الف جندي وضابط، وكان يقود الفرقة الأولى الميجر جنرال (ارميتاج) وبأمرته اللواء (مورن) واللواء (كار) واللواء (ماس) وكلّ واحد يقود لواء من الجيش. ويقود الفرقة الخامسة الميجر جنرال (هوارد) وبامرته اللواء (بريتمان) واللواء (بومان) واللواء (ايفانسس) وكل منهم يقود لواء من الجيش، ويقود فرقة (الهوسار) الحادية عشرة الشهيرة اللفتنانت كولونيل (اترسون). هذا فضلا عن قوات الطيران بقيادة كومودور الطيران (هيل) وغيرها من القوات المساندة. وبذلك أصبحت فلسطين ساحة حرب حقيقية.

٢ ــ أصدرت الحكومة البريطانية في ٣٠ ايلول / سبتمبر ١٩٣٦ مرسوما بالاحكام العرفية صادرا عن مجلس الملك الخاص، عرف بمرسوم الدفاع عن فلسطين لسنوات ١٩٣١ ــ ١٩٣٦، يعطي المندوب السامي وبالتالي الجيش صلاحيات غير محدودة تشمل جميع شؤون الدولة.

٣ ــ زادت سلطة الانتداب عدد السجون والمعتقلات وازداد عدد المعتقلين حتى اصبحت فلسطين كأنها معتقل كبير، وصار من المألوف ان يعتقل جميع رجال القرية او الحي دفعة واحدة ممن تزيد اعمارهم على ١٤ سنة. وكان من أشهر المعتقلات معتقل المزرعة قرب عكا ومعتقل صرفند قرب الرملة ومعتقل دير الشعار قرب الخليل ومعتقل عوجا الحفير في صحراء النقب قرب الحدود المصرية. هذا فضلاً عن السجون واشهرها سجن عكا، وسجن عتليت، وسجن نور شمس، وسجن نابلس، وسجن المسكوبية في القدس.

المعارك الكبرى في المرحلة الختامية

بعد دخول قوات القاوقجي العربية الى فلسطين وبعد وصول النجدات البريطانية التي أشرنا اليها، دارت رحى معارك حربية واسعة بين الثوار وبين الجيش البريطاني. وكان بعضها بمبادرة من الثوار وبعضها بمبادرة من الجيش البريطاني. وقد حاول الجيش البريطاني ان يحسم الحرب لمصلحته بضرب الثوار ضربات قاضية، لكنه لم يتمكن على الرغم من انه جلب أسلحة ومعدات حربية كثيرة مثل الدبابات والمدفعية الجبلية والمزيد من الطائرات. ومن أهم المعارك التي نشبت في هذه المرحلة:

معركة بلعا الثانية (٣ أيلول / سبتمبر ١٩٣٦)

تعتبر معركة بلعا الثانية من أعظم المعارك التي دارت بين الثوار والجيش البريطاني في هذه المرحلة. ورأى القاوقجي ان يغير الثوار تكتيكهم القتالي الذي كان يعتمد الضرب ثم الانسحاب السريع. وكان معظم هجمات الثوار تشنّ ليلا بأعداد صغيرة، لكن القاوقجي راح يهاجم في النهار وبقوات كبيرة لا تنسحب من ميدان القتال الا بعد هبوط الظلام.

وعلى هذا الاساس حشد القاوقجي قواته لمعركة بلعا الثانية فاتخذ من جبال بلعا مقرا للقيادة يشرف على طريق طولكرم ـ نابلس الرئيسية. فركز قواته على جانبي الطريق، وليس على جانب واحد كما كانت العادة، وكانت مجموعة الشيخ محمد الاشمر أقرب مجموعة الى الطريق العام من الناحية الشمالية (يسار الطريق)، وتمركز القائد عبد الرحيم الحاج محمد ورجاله على يمين الطريق، وتمركزت مجموعة ثالثة في الجبال القريبة من بلعا نفسها، وكان الجميع بانتظار قافلة عسكرية بريطانية ترافق سيارات ركاب يهودية تتحرك يوميا من تل أبيب الى طبريا وحيفا، مارة بطولكرم. وفي ساعة مبكرة من صباح ٣ أيلول / سبتمبر خرجت قوة عسكرية بريطانية من طولكرم تحملها عشرات السيارات والمصفحات والدبابات ومزودة بالمدفعية، وما كادت تصل الى شرق سجن نور شمس حتى تفجرت الالغام تحت السيارات فتوقفت القافلة وترجل الجنود وتمركزوا على اطراف الجبال انتظارا لمرور قافلة السيارات اليهودية. ولما وصلت القافلة مع القوات البريطانية التي تحرسها فتح الثوار النار من جانبي الطريق. وتحركت نجدات بريطانية من نابلس وطولكرم فبلغ عدد القوات البريطانية خمسة آلاف جندي تساندهم ١٥ طائرة واعداد من المدفعية الجبلية. واستمرت المعركة حامية الوطيس حتى غروب الشمس. وامتد خط القتال اكثر من خمسة كيلومترات. وشاركت المرأة العربية في هذه المعركة بإمداد المقاتلين بالماء والطعام ونقل الجرحى طيلة النهار. وكانت خسائر الانكليز كبيرة، واعترفت قيادة الجيش بسقوط ٤ طائرات ومقتل ضابط طيران (هنتر) وطيار (لنكولن) وانباشي (ولكس) وجرح ضابطين وجنديين جروحا خطرة.

وأصدرت قيادة الثورة البلاغ رقم ٣٦/٣ يصف المعركة واعلن استشهاد البطل الدرزي المعروف محمود ابو يحيى واستشهاد عراقيين ودرزي آخر واثنين من دمشق وثلاثة من شرق الأردن فضلا عن الشهداء الفلسطينيين من دون ان يشير الى عددهم الذي جاوز الاربعين شهيدا عدا الجرحى.

معركة ترشيحا

(٩ أيلول / سبتمبر ١٩٣٦)

وقعت هذه المعركة على طريق ترشيحا ـ نهاريا قرب عكا، واستمرت طوال النهار.

واستخدم الجيش فيها الطائرات والمدفعية. وكانت خسائر الانكليز وخسائر الثوار فيها كبيرة، فاستشهد من الثوار نحو ٣٠ شهيدا.

معركة الجاعونة

(٩ أيلول / سبتمبر ١٩٣٦)

وقعت عصر اليوم نفسه بالقرب من صفد، واعترفت الحكومة بسقوط اربعة قتلى من البوليس البريطاني. وغنم الثوار فيها رشاشا وعددا من البنادق والمسدسات وكمية من الذخيرة.

معركة جبع

(٢٤ أيلول / سبتمبر ١٩٣٦)

بدأت بمبادرة من الجيش البريطاني عندما قامت قوة من الجيش بتطويق الثوار المرابطين قرب قرية جبع في قضاء جنين، وكانت قوات الجيش كبيرة فتمكنت من محاصرة الثوار من جميع الجهات وكادت تقضي عليهم. غير ان نجدات الثوار التي اندفعت من كل صوب طوقت قوات الجيش البريطاني واستمر القتال حتى منتصف الليل ووقعت معظم خسائر الثوار بين رجال النجدات التي كانت الطائرات تهاجمها لتمنعها من الوصول الى مكان المعركة. وقدرت اصابات الثوار بـ ٥٤ اصابة واعترفت الحكومة بسقوط طائرة ومقتل ضابط واربعة جنود بريطانيين.

معركة حلحول

(٢٤ أيلول / سبتمبر ١٩٣٦)

تمركزت قوة الثوار بعد ظهر يوم ٢٤ ايلول / سبتمبر على طريق الخليل ـ القدس على بعد خمسة كيلومترات من مدينة الخليل، فنشبت المعركة عند مرور قافلة عسكرية بريطانية، وامتدت ساحة المعركة ١٥ كيلومترا على جانبي الطريق واشترك فيها نحو ١٥٠٠ جندي بريطاني ونحو ٤٥٠ من الثوار. واستمرت حتى صباح اليوم التالي، وغنم الثوار بعض الاسلحة والذخائر.

معركة بيت أمرين

(٢٩ أيلول / سبتمبر ١٩٣٦)

لم تشهد جبال نابلس وضواحيها منذ نشوب الثورة معركة كمعركة بيت امرين. كان

الجيش البريطاني هو المبادر الى المعركة، حيث كان القاوقجي وجيشه معسكرين في منطقة بيت امرين، فطوقهم الجيش بـ ١٥٠٠ جندي مزودين بالمصفحات والدبابات والمدفعية والطيران. وشمل الطوق جبال برقة وبيت امرين وسبسطية والسيلة. وتمكن الجيش من إحكام الطوق على قوات القاوقجي. غير ان صمود الثوار بشجاعة فائقة، وتحرك نجدات كبيرة من الثوار الى ساحة المعركة حوّل القتال لمصلحتهم، وصار الجيش البريطاني هو المطوَّق وحاول الانسحاب فلم يتمكن الا بعد حلول الظلام. واعترف الجيش بخسارة طائرتين ومقتل ضابط وجنديين، وغنم الثوار بعض الاسلحة والذخائر شاهدتها بنفسي عندما التحقت بقوات القاوقجي في تلك الفترة كما ذكرت.

ومن المعارك المشهورة في هذه الفترة: معركة الخضر، وسبق ذكرها، ومعركة صور باهر. كما كانت تجري في هذه الفترة هجمات عنيفة على أنابيب البترول والسكك الحديد ومراكز الجيش والشرطة الانكليز في جميع انحاء فلسطين.

١٣ توقف الاضراب والثورة

اللجنة الملكية والوساطة

بعد اشتداد الاضراب والثورة وفشل الوسائل العسكرية في اخمادها لجأت الحكومة البريطانية الى الوسائل السياسية التي هي أحيانا أخطر من الوسائل العسكرية في اجهاض الثورات واخمادها.

ألقى وزير المستعمرات البريطاني أورمسبي غور بيانا في مجلس العموم البريطاني بتاريخ ١٩ حزيران / يونيو ١٩٣٦ أعلن فيه «عزم الحكومة البريطانية على ايفاد لجنة ملكية خاصة، رفيعة المستوى برئاسة اللورد ايرل بيل الى فلسطين **للتحقيق في أسباب الاضطراب وفي ظلامات العرب واليهود المزعومة، بدون التعرض لنصوص الانتداب الأساسية، على أن تكون الخطوة الأولى في هذا السبيل، اعادة توطيد القانون والنظام**».

وكان هذا الشرط يعني بوضوح وقف الاضراب والثورة.

رفض الشعب وقف الاضراب والثورة رفضا باتا، لتأكده من سوء نوايا بريطانيا نحو العرب، بناء على تجربتهم وخبرتهم الطويلة بلجان التحقيق البريطانية المتعددة السابقة، التي كانت وسيلة معروفة للتخدير وتفريق الكلمة. اضف الى ذلك ان اعلان الوزير البريطاني يتضمن، بوضوح، ان اللجنة «لن تتعرض لنصوص الانتداب الاساسية».

في أثر ذلك قام الأمير عبد الله امير شرق الأردن بعدة اتصالات مع اللجنة العربية العليا لفلسطين وقال في احد الاتصالات: «... مهمتي تنحصر في التمهيد بينكم وبين الحكومة البريطانية لتتقابلوا واياها عند نقطة يسهل عليكما فيها البدء في المفاوضات، والحكومة على استعداد لتتقدم خطوة الى الامام اذا قبل العرب التقدم خطوة من جهتهم»*. وطلب من المدعوين العمل على عدم اللجوء الى العنف بعد الآن ليتسنى للحكومة البريطانية، بعد ان ترى الحالة هادئة، ان تعلن وقف الهجرة. وكان جواب الحاضرين انه اذا استطاع سمو الأمير الحصول من المندوب السامي على وعد كتابي بنيل المطالب الثلاثة التي اعلنتها الأمة فلا بأس من التفاوض معها**.

---

* عيسى السفري، «فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية» (الجزء الثاني)، (يافا: مطبعة مكتبة فلسطين الجديدة، ١٩٣٧)، ص ١٣٤.

** المصدر نفسه.

وكانت سبقت وساطة الأمير عبد الله وساطة اخرى قام بها المستر دانيال اوليفر وهو رجل انكليزي من طائفة الفرندز جاء الى فلسطين وقابل الامير عبد الله في عمان، وقابل اللجنة العربية العليا في القدس، وكانت مهمته اقناع العرب بانهاء الاضراب والثورة تمهيدا لمجيء اللجنة الملكية، ولكنه لم ينجح في مهمته.

وبذل الملك عبد العزيز بن سعود جهدا آخر في هذا السبيل، وارسل والملك غازي ملك العراق والامام يحيى ملك اليمن مذكرة مشتركة الى ملك الانكليز، ابدوا فيها رأيهم في القضية الفلسطينية واعربوا عن رغبتهم في: «ان تجد الحكومة البريطانية حلا سريعا لهذه القضية». وعقد اجتماع في بغداد ترأسه الملك غازي وحضره ياسين باشا الهاشمي رئيس الوزارة العراقية والسير ارشيبلد كلارك سفير بريطانيا في العراق، وتناول البحث القضية الفلسطينية. وفي اثر هذا الاجتماع قدم الى القدس نوري باشا السعيد وزير خارجية العراق، وقابل المندوب السامي البريطاني واجتمع برئيس اللجنة العربية العليا وأعضائها. واستمرت المفاوضات بين اللجنة العربية العليا ونوري السعيد بضعة أيام.

وفي اجتماع عقدته اللجنة العربية العليا في ٢٦ آب / اغسطس ١٩٣٦ بحضور عدد من زعماء فلسطين وافق المجتمعون على قبول وساطة نوري السعيد بصفته يمثل ملوك العرب وامراءهم. واصدرت اللجنة العربية العليا بيانا بهذا الخصوص في ٣١ آب / اغسطس ١٩٣٦ جاء فيه: «ان اللجنة العربية العليا ستعرض الأمر على الامة بواسطة لجانها القومية في مؤتمر عام لأخذ رأيها والحصول على موافقتها، وستستمر الأمة في اضرابها الشامل بنفس الثبات واليقين اللذين عرفت بهما، رافعة الرأس راسخة الايمان، رزينة، الى أن تصل هذه المفاوضات الى النتيجة المرغوبة التي تحفظ لهذه الأمة الباسلة كيانها وتنيلها حقوقها، وتوصلها الى أمانيها ان شاء الله»*.

وتبلورت اسس الوساطة على الشكل التالي:

أولا: تصدر اللجنة العربية العليا بيانا للشعب بوقف الاضراب واعمال العنف.

ثانيا: توقف الحكومة الهجرة اليهودية موقتا حتى تأتي اللجنة الملكية وتضع تقريرها.

ثالثا: تقوم حكومة العراق بالسعي لدى بريطانيا لانجاز مطالب شعب فلسطين المشروعة، سواء ما تعلق منها بأساس القضية أو ما كان ناشئا عن الاضطرابات.

رابعا: تصفية الثورة على أساس:

أ ــ الغاء الغرامات.

ب ــ وقف عمليات التفتيش.

ج ــ اطلاق سراح المعتقلين.

---

* المصدر نفسه، ص ١٣٦.

د ــ العفو العام عن المتهمين بحوادث الثورة.

وفي إثر إعلان هذه الأسس، أرسل وزير المستعمرات كتابا للدكتور وايزمن تضمن ما يلي: «ان المندوب السامي لم يوافق على اية شروط مثل هذه، كما أن الحكومة لا تعرف شيئا، وفوق ذلك فانه لا توجد اية معلومات عن أن المندوب السامي فوض نوري باشا السعيد أن يعد بالخطوات التي ستلي وقف الاضطرابات وعلى الاخص فيما يتعلق بتوقيف الهجرة. ان الحكومة والمندوب السامي لم يفوضا نوري السعيد لأن يتوسط في حل مشكلة فلسطين... الخ».

وكان لهذا الكتاب آثار مهمة جدا. فهو، من الناحية الاولى، انهى هذه المرحلة من الوساطة. ومن الناحية الثانية، رجح كفة الرافضين لوقف الثورة وأكد صحة موقفهم. كما اخمد الى حين بوادر الانشقاق في الموقف الوطني الفلسطيني. ولكن مما لا شك فيه ان الدخول في هذه المفاوضات زعزع الثقة الشعبية بالقيادة الفلسطينية. واذكر في هذا المجال اننا علمنا في حينه من مصادر موثوقة أن الحاج أمين الحسيني رئيس اللجنة العربية العليا كان يتلقى يوميا اكثر من مئتي رسالة تهديد اذا وافق على وقف الثورة والاضراب لمجرد مجيء لجنة تحقيق بريطانية.

ومع ذلك استمر نشاط الحكومة والجيش لاقناع العرب بوقف الثورة ووزعت لهذا الغرض سلسلة من النشرات المسمومة لتفريق الصفوف، وشق الشعب الى فلاح ومدني.

عودة الى الوساطة

على الرغم من اصرار بريطانيا على سياستها وعدم تقديم أية تنازلات للملوك والأمراء العرب، وعدم تلبية أي اقتراح لهم مهما كان بسيطا مثل وقف الهجرة اليهودية موقتا في أثناء وجود اللجنة الملكية في فلسطين، استأنف الملوك والأمراء العرب اتصالاتهم باللجنة العربية العليا لفلسطين لاقناعها بوقف الثورة والاضراب. وعلى الرغم من المعارضة الشعبية الواسعة لوقف الاضراب والثورة رضخت اللجنة العربية العليا للضغوط العربية ومهدت لذلك باتصالات وبيانات لاقناع الشعب والثوار بضرورة ايقاف الثورة والاضراب. وكانت أكثر الحجج تأثيرا في أوساط الشعب القول «إننا سنوقف الثورة مؤقتا، لأخذ فترة من الراحة والاستعداد، وإذا جاءت قرارات اللجنة الملكية على غير ما نريد نعود الى استئناف الثورة».

نداء الملوك والأمراء العرب

في أثر الوساطة الثانية صدر نداء موحد الصيغة وقعه الملك عبد العزيز في ٨ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٣٦ من السعودية، وآخر بتوقيع غازي صدر في بغداد في ٩ تشرين

الأول / اكتوبر ١٩٣٦ وبتوقيع عبد الله في عمان في التاريخ نفسه، وهذا نصه:

القدس ــ بواسطة رئيس اللجنة العربية العليا.

الى ابنائنا عرب فلسطين.

لقد تألمنا كثيرا للحالة السائدة في فلسطين فنحن بالاتفاق مع اخواننا ملوك العرب والامير عبد الله ندعوكم الى الاخلاد الى السكينة حقنا للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل، وثقوا بأننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم.*

بيان اللجنة العربية العليا

بعد صدور النداء اذاعت اللجنة العربية العليا البيان التالي:

قررت اللجنة العربية بالاجماع وبعد استشارة مندوبي اللجان القومية والحصول على موافقتهم باتفاق الآراء ان تلبي نداء أصحاب الجلالة ملوك العرب وسمو الأمير بالبيان المنشور اعلاه وان تدعو الأمة العربية الكريمة في فلسطين للاخلاد الى السكينة وانهاء الاضراب والاضطراب ابتداء من صباح يوم الاثنين المبارك الواقع في ٢٦ رجب ١٣٥٥ هـ وفق ١٢ تشرين الاول/اكتوبر سنة ١٩٣٦، وان يبكر افراد الأمة الكريمة في صباح ذلك اليوم الى معابدهم لاقامة الصلاة على ارواح الشهداء ورفع الشكر لله تعالى على ما الهمهم من صبر وجلد، ثم يخرجون من المعابد لفتح مخازنهم وحوانيتهم ومزاولة اعمالهم المعتادة، والله ولي التوفيق.

ما زلت أذكر ذلك اليوم وكأنه وقع بالأمس. كانت أبرز ظاهرة فيه الاستجابة الفورية الكاملة. فانتهت جميع مظاهر الاضراب وتوقفت الاعمال العسكرية فورا بشكل لفت انظار الجميع. ونزل الجيش البريطاني الى الشوارع من دون سلاح، يغني ويرقص ويسكر وكأنه في ايام عيد رأس السنة، وينادي على الناس ويسلم على من يراهم في الشوارع. كان هذا هو الموقف العام والمظهر العام. لكن كانت هناك تساؤلات كثيرة وشكوك كثيرة في صحة الموقف وما يسفر عنه هذا التصرف، ولم يلبث البعض ان استأنف الأعمال العسكرية. وبعد وقف الاضراب والثورة سارع القاوقجي ومن معه الى مغادرة فلسطين عن طريق شرق الأردن.

وصول اللجنة الملكية

في مساء ٢٩ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٣٦ اذاع المندوب السامي البريطاني رسالة جاء فيها:

١ ــ الإعراب عن سروره بوقف الاضراب والثورة.

٢ ــ ان اللجنة الملكية ستصل يوم ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٦.

---

* صالح مسعود أبويصير، «جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن» (بيروت: دار الفتح، ١٩٦٨)، ص ٢٠٨.

وفي ٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٦ القى وزير المستعمرات البريطاني اورمسبي غور بيانا في مجلس العموم البريطاني حول اللجنة الملكية، جاء فيه:

١ ــ ان حكومة جلالته لا يمكن أن تفكر في تغيير سياستها المتعلقة بفلسطين بأي وجه من الوجوه الا بعد استلامها تقرير اللجنة الملكية والنظر فيه.

٢ ــ نظرت حكومة جلالته بامعان فيما اذا كان من الملائم توقيف الهجرة موقتا او عدم توقيفها في اثناء قيام اللجنة الملكية بالتحقيق، فقررت ان ليس هناك أسباب اقتصادية أو اسباب اخرى تبرر هذا التوقف الموقت.

بعد صدور هذا البيان قررت اللجنة العربية العليا مقاطعة اللجنة الملكية واذاعت في ٦ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٦ بيانا استنكرت فيه بيان وزير المستعمرات واعتبرته تحديا شديدا لعواطف العرب وعدوانا على حقوقهم ودليلا على فقدان حسن النية في حل القضية العربية في فلسطين حلا صحيحا.

ووصلت اللجنة الملكية في ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٦ واقتصر استقبالها على الانكليز واليهود، واقيمت لها حفلة في قصر المندوب السامي قاطعها العرب ايضا.

وفي ١٢ تشرين الثاني / نوفمبر ارسلت اللجنة العربية كتابا الى رئيس اللجنة الملكية رحبت فيه بقدومه، وانها لا تشك في نزاهته واخلاصه، هو واعضاء اللجنة، الا ان بيان وزير المستعمرات كان حجر عثرة في سبيل تعاون العرب معها.

وفي ١٦ تشرين الثاني / نوفمبر بدأت اللجنة أعمالها بالاستماع الى شهادات اليهود ورؤساء الدوائر الحكومية الانكليز.

وكان رأي الملوك والامراء العرب ــ اياهم ــ مخالفا لرأي اللجنة العربية العليا بشأن مقاطعة اللجنة الملكية. وأصروا على وجوب الاتصال بها. ولذلك ارسلت اللجنة العربية العليا وفدا ليشرح وجهة نظرها الى ملكي السعودية والعراق، وعاد الوفد يحمل كتابا من كل منهما جاء فيه:

> . . . وبالنظر لما لنا من الثقة بحسن نية الحكومة البريطانية في انصاف العرب، فقد رأينا ان المصلحة تقضي بالاتصال باللجنة الملكية. . .

وعند عودة الوفد عقدت اللجنة العربية العليا اجتماعا في ٦ كانون الثاني / يناير ١٩٣٧ وبعد الاستماع الى كتابـي الملكين قررت قبول مبدأ الاتصال باللجنة الملكية. وفي ١٢ كانون الثاني / يناير ١٩٣٧ حضرت اللجنة العربية العليا بكامل هيئتها امام اللجنة الملكية، والقى الحاج امين الحسيني رئيس اللجنة بيانا عاما حول القضية الفلسطينية تضمن عرضا للقضية الفلسطينية وسياسة بريطانيا تجاهها. كما حدد أسباب الاضطراب بما يلي:

أ ــ حرمان العرب في فلسطين من التمتع بحقوقهم الطبيعية والسياسية.

ب ــ اصرار الحكومة البريطانية على اتباع سياسة ترمي الى انشاء وطن قومي يهودي في هذه البلاد العربية.

كما حدد المطالب العربية بما يلي:

أ ــ العدول عن تجربة الوطن القومي اليهودي الفاشلة التي نشأت عن وعد بلفور، واعادة النظر في جميع النتائج التي نتجت عنها، والتي ألحقت الاضرار والاخطار بكيان العرب وحقوقهم.

ب ــ ايقاف الهجرة اليهودية ايقافا تاما وفوريا.

جـ ــ منع انتقال الأراضي العربية الى اليهود منعا باتا وحالا.

د ــ حل قضية فلسطين على الأسس التي حلت بها قضايا العراق وسوريا ولبنان بانهاء عهد الانتداب وعقد معاهدة بين بريطانيا وفلسطين تقوم بموجبها حكومة مستقلة وطنية ذات حكم دستوري تتمثل فيه جميع العناصر الوطنية، ويضمن للجميع العدل والتقدم والرفاه.

أما شهادات اليهود فأهمها شهادات وايزمن وبن-غوريون وجابوتنسكي، وجاء في شهادة وايزمن:

المقصود من وعد بلفور اعادة ارض يهوذا لليهود وإعادة اليهود الى ارض يهوذا (. . .) عندما سئلت في مؤتمر الصلح من قبل المستر لانسنغ: ما هي الغاية من الوطن القومي اليهودي، قلت: هي بناء وطن في فلسطين يكون يهوديا كما أن انكلترا انكليزية.

وجاء في شهادة بن ــ غوريون:

ان اليهود [موجودون] في فلسطين ليس بفضل الوطن القومي انما بفضل حقهم الطبيعي. وان حق اليهود في فلسطين ليس مشتقا من صك الانتداب ولا من وعد بلفور، انه يسبقهما. ان التوراة هي صك الانتداب وحقنا قديم قدم الشعب اليهودي وما تصريح بلفور وصك الانتداب الا اعتراف بهذا الحق.

وجاء في شهادة جابوتنسكي:

انما اعني بفلسطين حين اذكرها جميع المساحة التي تقوم على ضفتي نهر الأردن الشرقية والغربية.. ان فلسطين تتسع الى ١٢ مليونا او١٨ مليونا.. اجل اننا نريد أن نقيم دولة.. أما شرق الأردن فليس في قرار عصبة الأمم حولها ما يمنع من ادخالها في منطقة الاستعمار اليهودي، بصرف النظر عما يجب أن تتخذ من تدابير موقتة لادارة غير مباشرة لوقت ما.

وطالب بفتح ابواب شرق الأردن للتغلغل اليهودي وتشكيل فرقة عسكرية يهودية.

استمعت اللجنة الملكية الى ٧١ شاهدا منهم ١٤ عربيا و٢٠ انكليزيا و٣٧ يهوديا. وجمعت من الاوراق والمستندات ما ملأ ١١ صندوقا. وعرض اعضاؤها في مناسبات شتى فكرة تقسيم فلسطين. ويقول وايزمن

ان عضوا من أعضاء اللجنة الملكية طلب لقاءه، واختار وايزمن ان يكون اجتماعهما في مستعمرة

نحلال بين الناصرة وحيفا، وان هذا العضو بسط له انه وزملاءه يقدرون الجهود التي يبذلها اليهود في فلسطين، وانهم يرون ان التوصية التي سيضعونها في تقريرهم لا تستوي بوجه من الوجوه مع المطالب الحقة والعادلة التي يطلبها الشعب اليهودي ولا مع الالتزامات التي في عنق بريطانيا لليهود، وان خطة التقسيم هي بمثابة نقطة تحول أو انتقال من دور الى دور وهي تتضمن من الوسائل ما يتمكن به اليهود من ان يتوسعوا توسعا عظيما في المستقبل في فلسطين.*

استمرت تحقيقات اللجنة الملكية ستة اشهر وانتشرت شائعات بأنها ستوصي بتقسيم فلسطين الى دولتين: دولة عربية ودولة يهودية على أن تضم الدولة العربية الى شرق الأردن. وكلما كانت هذه الشائعات تزداد انتشارا وقوة كان الحاج أمين الحسيني يزداد معارضة للسياسة البريطانية ويستعد لاستئناف الثورة.

أعلن حزب الدفاع في ٣ تموز / يوليو ١٩٣٧ قرارا بالانسحاب من اللجنة العربية العليا واستقال رئيسه راغب النشاشيبي والسيد يعقوب فراج من اللجنة العربية العليا. وبذلك تكرس الانقسام في الصف الفلسطيني ونجحت النشاطات السياسية البريطانية في اجهاض ثورة فلسطين.

وفي ٧ تموز / يوليو ١٩٣٧ أعلن تقرير اللجنة الملكية وتوصياتها، وذهبت اللجنة الى ان الاحتفاظ بالانتداب يعني استمرار التذمر والاضطراب الى اجل غير مسمى. ولذلك اوصت بانهاء الانتداب وتقسيم البلاد بشكل يقيم دولة يهودية في الشمال والغرب ودولة عربية في الأراض الباقية وابقاء القدس وبيت لحم والناصرة تحت الانتداب. وكان واضحا ان القسم العربي سيضم الى شرق الاردن تحت حكم الامير عبد الله وان عرب الجليل وعددهم ٢٢٥ ألفا يقترح ترحيلهم الى شرق الأردن تحت حكم الأمير عبد الله. واعلنت الحكومة البريطانية رسميا موافقتها، من حيث المبدأ، على تقرير اللجنة الملكية.

احتج الصهيونيون على الحدود التي رسمها المشروع واعتبروها غير مرضية، ولكن وايزمن وافق عليها. ووعد اورمسبي غور بأن يبذل كل ما في وسعه لحمل المؤتمر الصهيوني على الموافقة على التقسيم ومساعدة البريطانيين على اجلاء العرب عن منطقة الجليل ونقلهم الى شرق الأردن.

---

* المصدر نفسه، ص ٢٢١.

١٤ رفض التقسيم واستئناف الثورة

الثورة المسلحة لم تتوقف

على الرغم من اعلان انهاء الاضراب والثورة رسميا في ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٦ من أجل الافساح في المجال لحضور اللجنة الملكية، الا ان أعمال المقاومة المسلحة لم تتوقف تماما في اثناء وجود هذه اللجنة في فلسطين. فجرت عشرات الاصطدامات المسلحة بين العرب وبين الجيش واليهود. وجرى اغتيال عدد من عملاء الاستعمار وكبار المسؤولين البريطانيين. وبحسب ما جاء في بيان قدمته الحكومة البريطانية الى البرلمان عن عدد الاصابات في الاشهر الأولى من سنة ١٩٣٧ كان عدد القتلى من جميع الأطراف ٩٧ قتيلا بينهم ٢٩ عسكريا بريطانيا وواحد من موظفي الادارة العامة البريطانيين. أما الجرحى فبلغوا ١٤٩ جريحا بينهم ١٣ جريحا من الجيش والبوليس.

ومن الحوادث المهمة التي جرت في اثناء وجود اللجنة الملكية في فلسطين: اطلاق النار على المستر فرادي مساعد مدير بوليس الناصرة في ٦ نيسان/ابريل ١٩٣٧ واغتيال الضابط حليم بسطة نائب مدير بوليس اللواء الشمالي في ١٥ نيسان/ابريل ١٩٣٧ ومحاولة اغتيال المستر سبايسر مدير الامن العام لجميع فلسطين في ١٣ حزيران/يونيو ١٩٣٧ باطلاق النار على سيارته وسط مدينة القدس، مما أدى الى عزله عن منصبه. كما قتل موفات حاكم جنين رميا بالرصاص في مكتبه، ونجا المهاجمون.

رفض التقسيم

ذكرنا ان تقرير اللجنة الملكية وتوصياتها بتقسيم فلسطين أعلن في ٧ تموز/يوليو ١٩٣٧، وان الحكومة البريطانية واليهود وافقوا على ذلك. أما العرب فرفضوا بشدة اقامة دولة يهودية فوق ارض فلسطين العربية، وأعلنت اللجنة العربية العليا رفضا رسميا، وناشدت الحكام العرب والعالمين العربي والاسلامي التضامن مع الفلسطينيين، وأبلغت إلى عصبة الأمم رسميا رفضها ذلك. وأشارت الى ان اللجنة الملكية نفسها أكدت في تقريرها ما سبق للجنة العربية العليا أن أكدته مرارا من ان استمرار الانتداب غير قابل للتنفيذ. وطلبت من عصبة الأمم الغاء الانتداب البريطاني لتحل محله دولة فلسطينية مستقلة ترتبط مع بريطانيا بمعاهدة تضمن مصالحها المعقولة كما تضمن مصالح الاقلية اليهودية.

وفي ذلك اليوم الكئيب الذي أعلن فيه قرار التقسيم كنت وعدد من أعضاء النادي الاسلامي في القدس مجتمعين مساء حول المذياع ننتظر اذاعة تقرير اللجنة الملكية، وعندما اذيع التقرير أصبت بالذهول، وتراكضت الى مخيلتي الأفكار والصور والتساؤلات: هل حقا سيكون لليهود دولة في فلسطين؟ هل ستصر بريطانيا العظمى على مساندة اليهود واقامة دولة لهم في بلادنا؟ وماذا سيجري اذا تمكن اليهود فعلا من اقامة هذه الدولة؟ هل سيكتفون بها ام انهم سيتخذون منها نقطة انطلاق للاستيلاء على بقية فلسطين، ومن ثم يستمرون في تحقيق حلمهم التوراتي الصهيوني (من الفرات الى النيل ملكك يا اسرائيل)؟ ما الذي سيحل بعرب الجليل وغير الجليل؟ هل سيشردون؟ كيف يجوز ان تقام لليهود دولة في جزء من فلسطين يملك العرب معظم أراضيه (٨٠ ٪) ويشتمل على خير ما في فلسطين من ارض وأغلبية سكانه من العرب؟ وأخيرا ما العمل؟.. لم أجب عن هذا السؤال الأخير فعلا، ولكن بعد نحو الساعة من الذهول بدأت اصرخ: الثورة، الثورة!! ليس أمامنا سوى استئناف الثورة للحيلولة دون اقامة دولة لليهود في فلسطين.

وفي اليوم التالي اتضح ان جميع الأحزاب والجماهير الفلسطينية ترى ضرورة استئناف الثورة، ما عدا حزب الدفاع الذي كان فخري النشاشيبي انشط قادته وكان على خلاف مع الحزب العربي الفلسطيني بل مع باقي الأحزاب قبل اعلان قرار التقسيم. وهو يرى ضرورة الاستجابة لدعوة بريطانيا لايقاف الاضراب والثورة من أجل حضور اللجنة الملكية الى فلسطين. وعندما حضرت اللجنة عارض قرار مقاطعتها الذي أعلنته اللجنة العربية العليا، وأعلن قادة هذا الحزب انهم سيمثلون امام اللجنة الملكية خلافا لقرار اللجنة العربية العليا، مما أثر في موقفها وجعلها تقرر المثول أمام اللجنة الملكية استجابة لطلب الملوك والأمراء العرب وتفاديا للانقسام.

إلا ان الانقسام وقع أخيرا. فقبل اعلان القرار بأربعة ايام اي في ٣ تموز / يوليو ١٩٣٧ أعلن حزب الدفاع قراره الانسحاب من اللجنة العربية العليا واستقال رئيسه راغب بك النشاشيبي والسيد يعقوب فراج من اللجنة العربية العليا، وبذلك تكرس الانقسام في الصف الفلسطيني، ونجحت النشاطات السياسية البريطانية في إجهاض الثورة وضربها من داخلها. وعندما أعلن قراره اللجنة الملكية بالتقسيم في ٧ تموز / يوليو ١٩٣٧ عرف ان حزب الدفاع وافق على التقسيم ولكنه لم يجرؤ على اصدار بيان صريح بهذا الخصوص بسبب ردة الفعل الشعبية الشديدة ضد المشروع.

وهكذا وقع الانقسام الفلسطيني الخطير. واستأنفنا الثورة سنة ١٩٣٧ منقسمين على أنفسنا خلافا لما كان عليه الحال سنة ١٩٣٦. فبعد ان كان الجميع يقفون ضد الانكليز واليهود يدا واحدة، وبعد ان كان معتقل عوجا الحفير في صحراء النقب يضم فخري النشاشيبي وحسن صدقي الدجاني وغيرهما من اعضاء حزب الدفاع الى جانب الشيخ

صبري عابدين وصبحي الخضراء من الحزب العربي الفلسطيني وعوني عبد الهادي من حزب الاستقلال وغيرهم من قادة الاحزاب، استأنفنا الثورة منقسمين وصرنا عينا على العدو وعينا على بعضنا. وأود ان أشير الى ان الانقسام اتسع فيما بعد بشكل خطير وانه كان من الاسباب الرئيسية لاجهاض الثورة، وان النشاطات السياسية البريطانية كانت أخطر وأضر مما فعله الجيش البريطاني والقوات الصهيونية، وسأفصل ذلك فيما بعد.

استئناف الثورة

نشطت الاتصالات والاستعدادت لاستئناف الثورة المسلحة على أساس ألا يصاحب ذلك اضراب في المدن لشدة ما سببه الاضراب من ارهاق شعبي سنة ١٩٣٦. وتشكلت اللجان الشعبية من جديد وشعر الانكليز بهذا الغليان والاستعداد للثورة واعتبروا الحاج أمين الحسيني المسؤول الأول عما سيحدث، فحاولوا اعتقاله في ١٧ تموز/يوليو ١٩٣٧ للحيلولة دون اصدار المزيد من النداءات وتقديم المساندة والتشجيع للثوار. ولكن الحاج أمين تفادى القبض عليه في اللحظة الأخيرة واعتصم بالحرم القدسي الشريف حيث اخذ يتصل بزعماء الثوار والمناضلين السياسيين. ولما كان من الصعب على المندوب السامي ورجاله اقتحام الحرم الشريف والاهتداء الى مكان المفتي والقاء القبض عليه، لجأ الى اتخاذ قرارات بسيطرة الحكومة على ادارة المحاكم الشرعية واموال الاوقاف الاسلامية لشل سلطة المفتي وشل امكانياته.

وقامت اللجنة العربية العليا بنشاط سياسي على مستوى الوطن العربي لتأييد الموقف الفلسطيني، واشعار بريطانيا بخطورة ما هي مقدمة عليه. وعقد مؤتمر عربي في بلودان ضم ٤١١ مندوبا عربيا من مصر والعراق وسوريا ولبنان. وطالب المؤتمر بالغاء وعد بلفور والانتداب وايقاف الهجرة اليهودية واعلان استقلال فلسطين.

بدأت السلطات البريطانية، التي كانت متأكدة من ان الثورة ستنفجر قريبا، باتخاذ اجراءات عسكرية جديدة لسحق الثورة. وفي ١٢ ايلول/سبتمبر ١٩٣٧ عين اللفتنانت جنرال ويفل قائدا عاما للجيش البريطاني في فلسطين خلفا للجنرال ديل، وأعلنت الأحكام العرفية وشكلت محاكم عسكرية وضعت لها قوانين وتعليمات شديدة الصرامة وشديدة العقوبات تصل الى حد الأعدام. وصدرت فعلا احكام كثيرة جدا بالاعدام على الثوار العرب صادق الجنرال ويفل عليها جميعا، وجرى تنفيذها. ورافق ذلك حملة واسعة من أعمال التعذيب الفظيع للمعتقلين او المتهمين كانت تتولاها دائرة التحقيق الجنائية (C.I.D.) بقيادة سيّء الذكر ركس. وبهذا كان عهد الجنرال ويفل أشرس عهد للجيش البريطاني في فلسطين.

خلال شهري تموز/يوليو وآب/أغسطس ١٩٣٧، بدأت العمليات العسكرية الثورية تتسع وتنتشر في جميع أنحاء فلسطين، على الرغم من ان رجال المفتي كانوا يطلبون من الثوار التريث من أجل «القيام بهجوم عام في يوم محدد قادم». وفي هذه الأثناء وقعت عملية خطيرة

اعتبرها الانكليز من أخطر ما جرى من الأعمال الثورية حتى ذلك الـوقت. ففي ٢٦ ايلول / سبتمبر ١٩٣٧ هاجم الثوار في شوارع مدينة الناصرة المستر آندروز حاكم لواء الجليل والمستر غوردن مساعد حاكم اللواء الذي كان بصحبته، فقتلا وقتل حراسهما. وكان آندروز يعتبر من أهم الشخصيات البريطانية، وكان عضوا في المجلس التنفيذي لحكومة الانتداب فضلا عن وظيفته كحاكم للواء الجليل. وكان المجلس التنفيذي كالوزارة.

واتخذ الانكليز من مقتل اندروز مبررا لتدمير القيادة الفلسطينية، فاعتبروا الحاج أمين الحسيني رئيس اللجنة العربية العليا مسؤولا عن الحادث وأصدروا قرارا بحل اللجنة العربية العليا وجميـع اللجان القومية واعتبارها غير شرعية، وبتنحية الحاج أمين عن جميـع مناصبه، سواء كان ذلك في رئاسة المجلس الاسلامي الأعلى او في رئاسة الأوقاف او في مركز الافتاء. وعين موظف بريطاني رئيسا للجنة الأوقاف هو المستر كيركبرايد، وقامت السلطات البريطانية باعتقال جميـع اعضاء اللجنة العربية العليا ونفتهم الى جزر سيشل في المحيط الهندي، باستثناء من تمكن من الافلات مثل جمال الحسيني الذي تمكن من الخروج من فلسطين، والحاج أمين الحسيني الذي كان مختبئا في جوار الحرم الشريف. وفي الوقت نفسه اعتقلت السلطات المئات من اعضاء اللجان القومية وقضاة الشرع الاسلامي والوعاظ الدينيين.

وفي ١٤ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٣٧ تمكن المفتي من مغادرة فلسطين بالرغم من جميـع الاحتياطات البريطانية ووصل الى بيروت في ١٧ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٣٧.

وكانت ليلة ١٤/١٥ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٣٧ ساعة الصفر المحددة لما سمي بالهجوم العام. ففي هذه الليلة تحركت مجموعات ثورية مسلحة في جميـع أنحاء فلسطين (وكانت مجموعتنا من بينها) لشن هجمات عسكرية واسعة النطاق. فجرت في منطقة القدس عدة هجمات على دوريات البوليس والجيش واطلقت عليها النيران بغزارة بالقرب من الخليل، وهوجم قطار ينقل قوات بريطانية بنيران كثيفة جنوب غربـي القدس، واخرج احد قطارات الركاب عن الخط ودمرت خطوط السكك الحديد في عدة اماكن وقطعت خطوط الهاتف على نطاق واسع، ونسف خط انابيب بترول العراق قرب نهر الاردن واشتعلت النيران في النفط المتدفق. وجرت في ضواحي القدس عدة هجمات على سيارات الركاب اليهودية وتعرضت مستعمرات كثيرة لاطلاق النار. وفي اليوم التالي هاجم فريق كبير من الثوار مطار اللد ــ اكبر مطارات فلسطين ــ فاحتلوه واحرقوا مكاتبه ومكاتب جوازات السفر ومنشآت اللاسلكي احراقا تاما. وصارت قوات الحكومة التي تدخل القرى تتعرض لاطلاق النار. وهكذا انطلقت الثورة وانتشرت في كل مكان.

وكان تجدد الثورة لطمة قوية للتقسيم وللمعتدلين من الفلسطينيين الذين اصبح نفوذهم في فلسطين ضعيفا جدا خصوصا عندما قررت الوزارة البريطانية في ٨ كانـون الأول / ديسمبر ١٩٣٧ مبدئيا ان تنفيذ قرار التقسيم غير عملي.

نشاطات مضادة

أدرك اليهود انهم خسروا قرار التقسيم وان ذلك لا يشكل ضربة لخططهم فحسب بل ربما أدى تجدد الثورة الى انهيار المشروع الصهيوني لاقامة الدولة اليهودية. لذلك قرروا ان يقفوا الى جانب حكومة الانتداب وان يقاتلوا معها بفاعلية ضد العرب. وبالتعاون بين الوكالة اليهودية والهاغاناه من جهة والسلطات البريطانية من جهة أخرى أُنشئت قوة عسكرية يهودية سُميت «حرس المستعمرات» بلغ عدد أفرادها ١٤ ــ ٢٠ ألف جندي وضابط سلحها الانكليز ودربوا عناصرها. كما انشئت قوة عسكرية خاصة، بريطانية ــ يهودية، سميت «الفرق الليلية الخاصة» (SNS, Special Night Squads) دُربت للقيام بعمليات خاصة ضد القرى العربية، وقامت بهجمات متعددة على القرى العربية فقتلت ونسفت البيوت، وألقت القنابل وزرعت الالغام الكبيرة الموقوتة في الأسواق التجارية العربية المزدحمة. وبرز فيها ايضا دور منظمة الارغون الارهابية. اذكر من هذه العمليات انفجار ألغام موقوتة في القدس، أحدها في موقف للسيارات خارج باب الخليل والثاني في سوق البازار في البلدة القديمة، والثالث في سوق باب السلسلة. وهذا الأخير اكتشف وعطل قبل ان ينفجر. وذهب ضحية هذه الانفجارات عشرات من الشهداء والجرحى العرب. ونتيجة لهذه العمليات الصهيونية اضطر العرب الى مواجهة البريطانيين واليهود معا ومهاجمتهم.

قام الانكليز بعدة نشاطات أخرى مضادة للثورة اذكر منها:

١ ــ كان رجال البوليس العرب متعاطفين جدا مع الثورة واحيانا مشاركين فيها. ولذلك صارت السلطات الاستعمارية لا تعتمد عليهم، فجلبت من بريطانيا اعدادا كبيرة من الانكليز وجندتهم في سلك البوليس.

٢ ــ انشأت بريطانيا ما سمي بالبوليس الاضافي العربي. فجندت في هذه القوات الحثالات من اصحاب السوابق والحشاشين والسكيرين والساقطين من سكان المدن، وجعلت منهم عيونا لها، واطلقت لهم العنان للتعدي على افراد الشعب واذلالهم سواء في المدن او القرى. وأصبح الشعب يعتبرهم خونة اخطر واقذر من الانكليز.

٣ ــ اتسع الانقسام في صفوف الشعب بشكل خطير. وقام رجال حزب الدفاع بتشكيل قوات مسلحة في القرى سميت «فصائل السلام» زودت بأسلحة انكليزية لمقاومة الثوار، ومنعهم من الدخول الى القرى.

وبرغم ذلك كله اشتعلت الثورة وبلغت ذروتها سنة ١٩٣٨. ففي اواخر سنة ١٩٣٧ شُكلت في دمشق لجنة لدعم الثورة تولى ادارتها المرحوم الاستاذ عزت دروزة بتوجيه من الحاج امين الحسيني الذي كان ما يزال في لبنان. وبذلك اصبحت دمشق مركز تجمع وتسليح وانطلاق لعصابات الثوار المسلحة المتجهة الى فلسطين. وتولى القيادة في الداخل قادة بارزون

يرتبطون بأوثق الصلات بالفلاحين والقرى التي تقع ضمن مناطق عملياتهم. وكان أبرز قادة المرحلة الثانية من الثورة: عبد الرحيم الحاج محمد (القائد العام) وعارف عبد الرازق في منطقة المثلث، وعبد القادر الحسيني في منطقة القدس وعبد الحليم الجيلاني في منطقة الخليل والشيخ حسن سلامة في منطقة اللد، ويوسف ابو درة في منطقة جنين. أما الشيخ فرحان السعدي، الذي كان من أبرز قادة منطقة جنين ومن رفاق الشيخ عز الدين القسام فقد قبض عليه يوم ١٩٣٧/١١/٢٣ واعدم يوم ١٩٣٧/١٢/٢٨ بعد محاكمة قصيرة. وكان في الثمانين وجرى اعدامه في شهر رمضان وهو صائم. وكان اعدامه من العوامل التي أدت الى ازدياد اشتعال الثورة.

عبد القادر الحسيني في جبال القدس

في خريف سنة ١٩٣٧ عاد الى فلسطين القائد عبد القادر الحسيني ومعه مجموعة من الثوار قادمين من سوريا، واتخذ من جبال القدس ميدانا لنشاطه العسكري، متنقلا من قرية الى قرية لاعادة تنظيم فصائل الثوار في الجبال، كما نظم علاقاته مع الثوار السريين في مدينة القدس. ثم قام بعدة هجمات على قوافل الجيش والمستعمرات اليهودية. وخاض معارك عديدة ضد قوافل الجيش البريطاني التي كانت تستخدم خط سكة الحديد الممتد بين القدس واللد، الى أن اضطرت حكومة الانتداب الى ايقاف سير القطارات على هذا الخط. ومن أكبر المعارك التي خاضها في هذه الفترة معركة عرطوف.

وكان من قادة الفصائل الذين قاتلوا بامرته عبد الغني حيمور (ابو هاجر) قائد فصيل عرب العبيدية، ومحمود أبو ادهيم قائد فصيل عرب السواحرة، والشهيد الشيخ عيسى ابو قدوم قائد فصيل عرب التعامرة، وجاد الله الخطيب قائد فصيل صور باهر والشهيد احمد جابر (ابو الوليد) قائد منطقة العرقوب (قضاء بيت لحم) ومحمد عمر النوباني في منطقة رام الله وخليل منون وعيسى الحمزة في عين كارم.

وبلغ مجموع العمليات العسكرية التي قام بها الثوار سنة ١٩٣٧ في فلسطين ٥١١ عملية سقط فيها ٢٧٦ قتيلا عدا عن خسائر الثوار.

١٥ دورنا في المرحلة الثانية من الثورة (١٩٣٧ ــ ١٩٣٨)

في هذه المرحلة من الثورة برز دور جيل من فتيان مدينة القدس الابطال أعمارهم بين ١٧ و ٢٠ سنة، سبق ان أشرت إليهم، اذكر منهم أخي الشهيد صبحي ابوغربية (كان طالبا)، فوزي القطب (طالب)، داود العلمي (طالب)، حافظ بركات (عامل)، الشهيد عيسى فراج (عامل ــ اعدم شنقا هو وشقيقه في اليوم نفسه)، والفتياني، والنمري، والبكري وغيرهم ممن لا اتذكر اسماءهم. قاتلوا في البداية كمجموعة مستقلة ثم التحقوا مع جيلنا وقمنا بعمليات مشتركة.

وفيما بعد برز دور الشهيد مطيع اللبابيدي (اعدم شنقا) ومجموعته، وكذلك الحاج يوسف الشرفا ومجموعته، ومن ابرز اعضائها عبد عكة، ومجموعة الشيخ شكيب القطب، والشيخ فارس ادريس ومجموعته، وداود غيث ومجموعته.

قامت هذه المجموعات بعدد كبير من الهجمات على رجال البوليس والجيش البريطاني، وعلى الحي اليهودي في البلدة القديمة، وعلى الاحياء اليهودية في القدس الغربية، واوقعت بالعدو خسائر كبيرة. كما قامت بتنفيذ الاعدام في عدد من الخونة المتعاونين مع رجال المباحث والاستخبارات البريطانية.

ومن الهجمات التي قامت بها هذه المجموعات:

١ ــ اطلاق النار على رجال البوليس البريطاني داخل البلدة القديمة، وقتل اثنين منهم في عمليتين منفصلتين.

٢ ــ قتل عدد من اليهود في عمليات متفرقة في الحي اليهودي في البلدة القديمة، برز فيها دور حافظ بركات.

٣ ــ قتل اثنين من حرس الجامعة العبرية في اطراف حي الشيخ جراح.

٤ ــ إلقاء قنبلة على مطعم العمال في شارع الملك جورج. وكان لفوزي القطب الدور الرئيسي في ذلك.

٥ ــ إلقاء عدة قنابل على مقهى يهودي في شارع المستشفى الالماني.

٦ ــ اطلاق النار على جنديين من رجال الجيش البريطاني (الهايلاندرز) وقتلهما خارج باب الخليل، قرب جورة العناب.

٧ ــ اطلاق النار على العميل (هـ).

٨ ــ تحرير مدينة القدس القديمة لمدة اسبوع من ١٣ ــ ٢٠ ايلول / سبتمبر ١٩٣٨. وسأتحدث عن بعض هذه العمليات.

مهاجمة اثنين من حرس الجامعة العبرية

تحتل ابنية الجامعة العبرية ومستشفى هداسا في القدس موقعا استراتيجيا على قمة من قمم جبل الطور (جبل الزيتون) المشرف والمسيطر على مدينة القدس وعلى عدد من قراها من الجهة الشرقية. وقد استخدمت القوات الصهيونية المسلحة أبنية المؤسستين باستمرار لأغراض عسكرية، كصنع المتفجرات، وتخزين الاسلحة، والانطلاق منها للهجوم على القرى والاحياء العربية.

وكنا كمناضلين ناشطين نلاحظ ذلك في مناسبات كثيرة. ولذلك جرى العمل لتعطيل هذا النشاط العسكري الصهيوني عن طريق التعرض لمواصلات العدو الرئيسية التي كانت تمر عبر حي الشيخ جراح العربي.

ومن أبرز هذه العمليات، عملية قام بها الثائران الناشئان صبحي ابو غربية (١٧ سنة) وداود العلمي (١٧ سنة) تحت اشراف عبد القادر ادكيدك (ابو محمد). فبعد فترة مراقبة واستطلاع، كمن الثائران صبحي وداود في ارض السمار بعد غروب الشمس بالقرب من الطريق الترابي الذي كان الحرس الصهيوني يجتازه احيانا مشيا. وبعد فترة من الزمن كان اثنان من حرس الجامعة يسيران على هذا الطريق متجهين الى الاحياء اليهودية، ولدى وصولهما الى الزاوية الشمالية الشرقية لكرم المفتي فاجأهما صبحي وداود بإطلاق النار وأردياهما واستوليا على سلاحيهما.

الهجوم الفاشل
على مقهى يهودي قرب (.C.I.D)

سبق ان ذكرت ان رجال المفتي كانوا حددوا ليلة ١٥/١٤ تشرين الاول / اكتوبر سنة ١٩٣٧ موعدا لهجوم شامل يقوم به الثوار في كل مكان مستطاع. ووقع الهجوم بالفعل، كما سبق ان ذكرت.

وكنا وضعنا خطة للقيام بعملية مميزة في هذه الليلة يشترك فيها محمد سعيد بركات (ابو حمدي) وأنا وأخي صبحي وحافظ بركات. وكما يُلاحظ، جمعت هذه المجموعة بين الكبار والصغار، وقمنا باستطلاع متواصل لشارع يافا وسينما زيون ومداخل المنطقة ومخارجها، ثم تحولنا عن سينما زيون كهدف الى هدف آخر هومقهى يهودي يقع في اول شارع المستشفى

الالماني، قريب جدا من الباب الشمالي لمجمع المسكوبية حيث توجد دائرة التحقيق الجنائية (C.I.D.). وضعنا خطتنا على اساس القاء ثلاث قنابل يدوية في داخل المقهى، ووضع لغم كبير بالقرب من الباب الشمالي للمسكوبية بحيث يكون توقيته مناسبا ليتفجر وسط رجال (C.I.D.) عندما يهرعون إلى مكان الحادثة. كما راعينا ان يكون من السهل علينا الانسحاب بسرعة الى حي المصرارة العربي عبر طريق فرعية تمر خلف سجن القدس.

حصلنا على ثلاث قنابل يدوية من احد رجال المفتي الطيبين (ابو مجدي الجاعوني)، وكانت المانية الصنع من مخلفات الحرب العالمية الاولى، وقد اعاد (ابو مجدي) حشوها من جديد وقال انها اصبحت صالحة للاستعمال. وتعهد ابو حمدي بتجهيز اللغم الذي يتألف من قنبلة مدفع من مخلفات الحرب العالمية الاولى. واقترح الاخوان ألا نحمل معنا مسدساتنا حتى اذا ألقي القبض علينا بعد القاء القنابل لا تثبت علينا التهم وندعي اننا مدنيون مسالمون لا علاقة لنا بالانفجارات. ولكني رفضت هذا الاقتراح وأخبرت رفاقي انني لن اتنازل عن حمل مسدسي.

وكان الاتفاق ان نلتقي بعد الغروب في ساحة معدة لبيع الفخار خارج باب الخليل عند اول تلة النبي داود، وهنا نتسلم القنابل واللغم ونتحرك لضرب الهدف. وكان بائع الفخار رجلا طيبا متدينا يرتدي الألبسة السُّنية البيضاء مع العمة ذات العذبة الطويلة، ويعرفه أبو حمدي ويثق به ونسيت اسمه لبعد الزمن.

وصلت الى الفاخورة في الوقت المحدد، فوجدت أبا حمدي مع صاحب الفاخورة منشغلا في تجهيز اللغم، فابتعدت عن المكان ريثما ينجز أبو حمدي مهمته وريثما يأتي باقي الاخوان وبحيث اقوم بدور الحارس للمكان. وبينما انا كذلك رأيت سيارة خصوصية تقف أمام الفاخورة ويترجل منها ثلاثة رجال مدنيين أجانب ويصعدون الى الفاخورة فاعتقدت انهم من رجال (C.I.D.) الانكليز، فجهزت مسدسي واقتربت من المكان، وقبل ان يتأزم الموقف رأيتهم ينتقون بعض قوارير الزراعة، فعدت مبتعدا ببطء ووصلت الى قرب باب الخليل، وهنا لمحت خلفي شخصا يرتدي قبعة خضراء مثل التي يعتمرها رجال (C.I.D.) فأسرعت الخطا والتفت قليلا فإذا به يسير في أثري، فقطعت الشارع الى الرصيف الآخر وسرت بعكس الاتجاه السابق فلاحظت انه قطع الشارع وسار خلفي من جديد. فأيقنت انه يلاحقني، فأسرعت الخطى ودخلت في شارع فرعي (خلف ابنية العنبوسي) وكان المكان يستخدم كمقبرة للسيارات المشطوبة، وكمنت خلف احدى السيارات وقررت أن أقتله اذا اقترب من مكاني. وبعد قليل ظهر الرجل في اول الشارع الفرعي لكنه لم يدخله. وتوقف لانه لم يرني وقدر أني كمنت له. وفجأة ناداني باسمي (بهجت) ليتبين لي انه رفيقنا حافظ وقد تخفى لاول مرة في ملابس تشبه الانكليز، وكان ابيض واشقر. فضحكنا وقلنا دفع الله ما كان اعظم.

توجهنا الى الفاخورة وكان صبحي وصل فحمل أبو حمدي اللغم في قفة، وكان ثقيلا، وحمل كل من صبحي وحافظ وانا قنبلة يدوية، وسرنا وسط شارع يافا متجهين الى الهدف، وكنا معرضين في كل لحظة لخطر دوريات البوليس التي تكثر في هذا الشارع. واخيرا وصلنا. واختار ابو حمدي المكان المناسب لوضع اللغم ولدى اشعال الفتيل ألقينا القنابل الثلاث داخل المقهى المزدحم وركضنا منسحبين. ولسوء الحظ لم تنفجر أية قنبلة من القنابل الثلاث. وحاول بعض من كانوا في المقهى مطاردتنا فأطلقت عليهم طلقتين، ففروا هاربين. ولسوء الحظ الكبير لم ينفجر اللغم ايضا وفشلت خطتنا التي سهرنا اياما وليالي نخطط ونستعد لتنفيذها، وتعرضنا لما تعرضنا من الخطر عند تنفيذها.

سردت تفاصيل هذه العملية لأعطي القارىء صورة عن ظروف نضالنا وامكاناتنا في تلك الثورة، وكيف كان يحالفنا النجاح احيانا، والفشل احيانا اخرى.

قتل اثنين
من رجال الجيش البريطاني

كانت عملية الاستطلاع والمراقبة تساعدنا كثيرا في اصطياد الاعداء في الأماكن المناسبة. ولاحظنا ان بعض الجنود الانكليز يتسكعون في شارع يافا ثم يعودون مشيا الى معسكرهم (معسكر تلافيرا) الواقع على طريق الخليل، وكان موقع جورة العناب قرب بركة السلطان مناسبا جدا للاصطياد. وحالف الحظ احد أفراد مجموعتنا بعد ترصد طويل، في مهاجمة اثنين من جنود الجيش البريطاني الاسكتلنديين من فرقة (Black Watch) وقتلهما فورا. ولست متأكدا الآن من الذي قام بهذه العملية.

لما وصل خبر مقتلهما الى جنود فرقتهما هاجوا وماجوا ونادوا بالانتقام وركبوا سياراتهم العسكرية واندفعوا نحو المدينة القديمة. فدخل قسم منهم البلدة القديمة من باب الخليل وقسم آخر من باب العمود وكان غرضهم استباحة المدينة التي يخشونها والتي تعتبرها قيادتهم (Out of bounds) ممنوع دخولها الا في اثناء الوظيفة العسكرية.

دخلوا المدينة نحو الساعة العاشرة مساء بشكل فوضوي وضباطهم يلاحقونهم خوفا من عواقب هذا الارتجال. وكانت الشوارع خالية من المارة تقريبا، وتصدى لهم بعض الثوار باطلاق الرصاص من الشوارع الفرعية فعادوا ادراجهم بسرعة بعد ان اقنعهم ضباطهم بطريقة ما اتضحت في الصباح الباكر من اليوم التالي.

قبل بزوغ شمس اليوم التالي سمعت صوت اطلاق الرصاص بغزارة من اتجاه قرية سلوان، فقمت من فراشي حالا وحملت مسدسي واتجهت ركضا نحو الحرم. ومن سور الحرم بالقرب من المسجد الاقصى أشرفت على سلوان، فرأيت اربع مجموعات من الجيش البريطاني تتمركز على المرتفعات المحيطة بها. وتتألف كل مجموعة من نحو ٤٠ رجلا، يطلقون

نيران الرشاشات على اي شيء يتحرك وعلى اية نافذة مقابلة. وعلمنا فيما بعد ان الجيش والبوليس البريطاني ادعوا ان كلاب الاثر أُحضرت الى الموقع الذي قتل فيه الجنديان البريطانيان وانها اتجهت الى وادي الربابة ومنه الى سلوان، مع انني اعرف حق المعرفة ان هذا لم يكن صحيحا، وان الشاب الذي هاجم الجنديين انسحب الى حي النبي داود ومنه الى البلدة القديمة. في أية حال كان على الجيش البريطاني ان ينتقم بشكل منظم، وكانت تلك فرصة لي لأشاهد بأم عيني احدى عمليات التفتيش المشهورة التي كان يقوم بها الجيش البريطاني باستمرار لارهاب الثوار والمدنيين، وخصوصا في القرى كلما وقع هجوم.

بعد شروق الشمس تقدمت الى القرية مجموعتان كبيرتان من الجنود على محورين، بينما بقيت المجموعات الاربع المتمركزة على المرتفعات في اماكنها تطوق القرية بحيث لا يستطيع احد الخروج او الدخول اليها. وبدأ جنود المجموعتين يدخلون المنازل بيتا بيتا ويخرجون جميع من في البيت من رجال ونساء واطفال، ويسوقونهم الى ساحة في طرف القرية قرب بئر أيوب ويجمعونهم هناك تحت الحراسة المشددة. وشاهدت عدة بيوت تشتعل فيها النيران بعد خروج افراد الجيش منها. وكنت أتوقع، كما هي العادة، ان ينهب الجنود كل ما خف حمله وغلا ثمنه، وان يتلفوا المؤن ويحطموا الاثاث في البيوت التي لم تحرق. وحصل هذا بالفعل. واستمرت عملية التفتيش الى ان جُمع سكان القرية في ساحة بئر ايوب وعرض رجال المباحث أهل القرية واحدا واحدا واستاقوا عددا من الشبان للاعتقال. وبعد الظهر سُمح لأهالي القرية ان يعودوا الى منازلهم. ولكن كان عليهم ان يمروا بزقاق ضيق وقف إلى جانبيه اكثر من ثلاثين جنديا يحملون الهراوات وينهالون ضربا بها على رؤوس المارين. ولذلك لم يسلم منهم الا ما ندر، واحتاج اكثر من سبعين منهم الى العلاج في مستشفيات القدس. هذا فضلا عن استشهاد اثنين من اهالي القرية برصاص الجنود قبل البدء بالتفتيش وثلاثة في اثناء التفتيش، واحتراق نحو ثمانية منازل.

لا بد لي ان اشير الى ان ما شاهدته في قرية سلوان كان اقل بكثير مما كان يجري عادة في القرى البعيدة في اثناء عمليات التفتيش، حيث كان سكان القرية يُجمعون كلهم في ساحات تحوط بها الاسلاك الشائكة والجنود ويمكثون على هذه الحال عدة ايام بلا ماء او طعام او فراش. ويختار الجيش عدة بيوت فينسفها بكميات كبيرة من المتفجرات تؤدي الى تصدع العديد من البيوت المجاورة، ثم يضع شارة (X) على عدد من البيوت الاخرى. وكان يعني ذلك ان هذه البيوت مرشحة للنسف عند وقوع اية حادثة بالقرب من القرية في المستقبل. وكانت تفرض على القرية غرامات مالية وعسكرية فيطلب من اهاليها ان يسلموا للجيش كذا بندقية وكذا بقرة وكذا خروفا... الخ. كما حدث ان نسفت قرى بأكملها وشرد جميع سكانها مثل قرية عارة في منطقة جنين، كذلك اعتقل جميع سكان بعض القرى دفعة واحدة بحيث شمل الاعتقال كل من تجاوز الرابعة عشرة مثلما جرى في قرى بتير والولجة والمالحة.

الهجوم على العميل (هـ)

كان العميل (هـ) وقحا وقذرا في تصرفاته وخدمته لأسياده الانكليز متحديا شعبه وثواره علنا وبصفاقة، وكان معروفا لدى معظم سكان القدس. وفي اوائل سنة ١٩٣٨ قام هذا العميل بصحبة عدد من رجال البوليس الاضافي العرب وبعض رجال المباحث الانكليز بتفتيش بيت الثائر (ابو محمد) في مدينة القدس، وفي اثناء التفتيش اعتدى العميل (هـ) على النساء بالشتم والتحقير واساءة التصرف، ولما وصل خبر ذلك الى صديقَيْ أبو محمد الحميمين صبحي أبو غربية وداود العلمي تملكهما الهياج فحملا مسدسيهما وطافا شوارع القدس يفتشان عن العميل (هـ). وكان من المعروف انه يتردد كثيرا على احدى خمارات عقبة الخمارات وبالفعل وجداه هناك، فوقف داود بباب الخمارة للحماية، ودخل صبحي وأطلق على العميل عدة رصاصات من مسدسه. وكان (هـ) يعرف الاثنين حق المعرفة فهو يقطن الحي نفسه الذي يقطنان فيه في البلدة القديمة، فلما رآهما ألقى بنفسه ارضا خلف بعض الطاولات فلم يصب. وفوجىء الشابان بوجود العميل (ع) بباب الخمارة وكانا لا يعرفانه ولا يعرفان انه عميل، فحاول القبض على صبحي ولكن داود ضربه بمسدسه فطرحه ارضا، وانسحب الثائران صبحي وداود، ولكنهما تأكدا ان (هـ) عرفهما وانه سيقبض عليهما اذا بقيا في المدينة، فغادرا مدينة القدس مشيا متجهين الى موقع عرب السواحرة عن طريق وادي النار. وكانت منطقة عرب السواحرة ودير مار سابا معقلا من معاقل الثوار، استقر فيها من قادة ثوار القدس الشهيد عبد القادر الحسيني، وكذلك محمد سعيد بركات (أبو حمدي) ولفترة أخرى الحاج يوسف الشرفا.

كان هذا اليوم بداية فصل جديد في حياة الشابين صبحي وداود الثورية الطويلة حيث امتنع عليهما بعدها البقاء في القدس عدة سنوات، والتحقا بالقائد عبد القادر الحسيني ولازماه في حله وترحاله يتنقلان معه من جبل الى جبل ومن قرية الى قرية، ومن معركة الى معركة، ويذهبان معه الى دمشق اذا ذهب اليها لإعادة تنظيم قواته والاستعداد للقتال، ثم يعودان معه الى فلسطين عندما يعود. ووثق بهما عبد القادر الحسيني الى حد كبير واشتركا معه في معظم المعارك التي خاضها وأبديا بسالة فائقة. كما لازما القائد عبد الحليم الجيلاني قائد منطقة الخليل فترات من الزمن خلال ١٩٣٨ / ١٩٣٩.

ولما سمعت بحادث الهجوم على العميل (هـ) قدرت ان بيتنا سيفتش فغادرت القدس موقتا الى قرية العيساوية عند قائد الفصيل احمد العيساوي الذي كان زميلي في التدريس في المدرسة الابراهيمية. وبقيت معه الى ان انجلت الغيمة. وجاء رجال البوليس ومعهم العميل (هـ) والعميل (ع) الى بيتنا وفتشاه وسألا من في البيت عن صبحي، ثم غادروا البيت، ليعودوا بعد منتصف الليل مرة أخرى بحثا عن صبحي. ولما لم يجدوه استاقوا أخويّ رشاد ونهاد رهينتين، ساقوهما بلباس النوم حافيين وضربوهما في البيت وعلى طول الطريق الى سجن

القشلة ثم حكم عليهما بالاعتقال لمدة سنة ونقلا الى معتقل المزرعة الكبير قرب مدينة عكا.

تحرير مدينة القدس القديمة

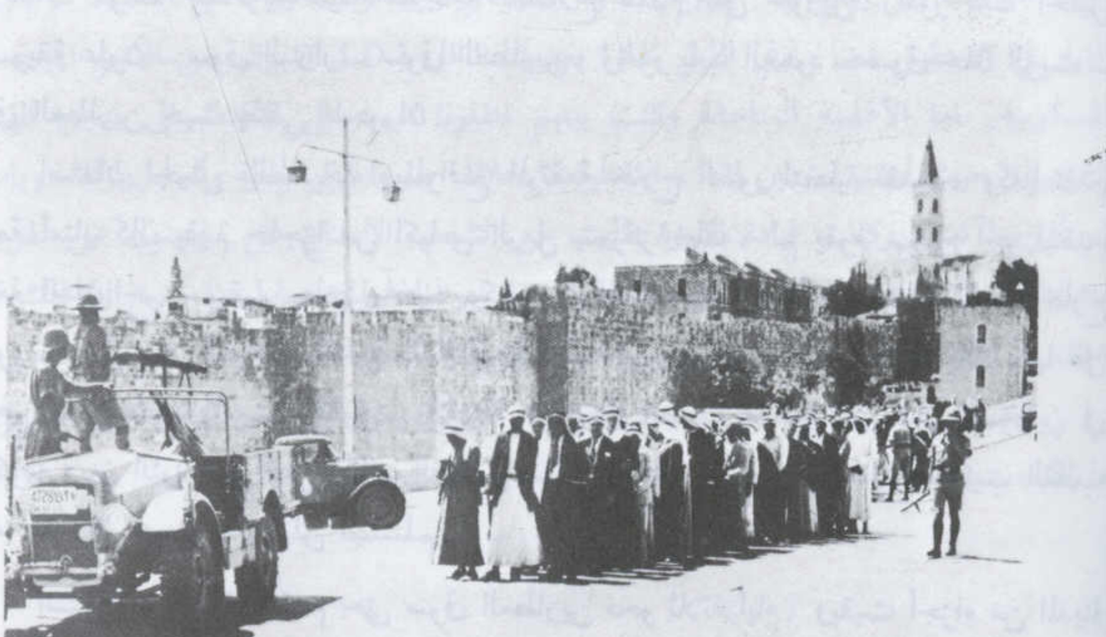
على الرغم من اننا خضنا الثورة سنة ١٩٣٨ منقسمين، الا ان ثوار شعبنا استماتوا في قتال العدو في هذه السنة التي اعتبرت ذروة اشتداد الثورة الفلسطينية، مواجهين الانكليز واليهود معا، غير عابئين بأحكام الاعدام العديدة التي كانت تنفذ في سجن عكا وسجن القدس وسجن نابلس، وغير متأثرين بنشاط القوات البريطانية وأعمال التفتيش والتطويق والتعذيب والقمع ونسف البيوت. وقد تقلصت سلطة الحكومة في هذه السنة الى حد كبير مما حملها على اخلاء عدد من المدن اخلاء كاملا لفترات قصيرة واحيانا طويلة. واقتصر وجود قوات الجيش والبوليس على دوريات مصفحة تجوب الشوارع الرئيسية. وبموجب اقتراح من خبير حرب العصابات البريطاني تيغارت بنيت نحو ٥٠ عمارة كبيرة في جميع انحاء فلسطين وزعت على مختلف المدن والاماكن الحساسة عرفت باسم (عمارات تيغارت). ففي مدينة الخليل مثلا بُنيت العمارة في اطراف المدينة على رأس جبل مشرف على المدينة، ونقلت اليها جميع دوائر الحكومة وجميع اماكن سكن البوليس البريطاني ومعظم عائلات الشرطة والموظفين العرب، وذلك ليسهل الدفاع عن دوائر الحكومة ولتكون قوات الحكومة متجمعة وجاهزة للعمل. ولا يفوتني ان أذكر ان كل عمارة جُهزت بسجن خاص فضلا عن السجون المركزية. ولا تزال هذه العمارات وسجونها قائمة في فلسطين يستعملها العدو المحتل. كما اقام الانكليز سورا عريضا من الاسلاك الشائكة على طول حدود فلسطين مع لبنان ومع سوريا سمي ايضا سور تيغارت.

في هذه السنة (١٩٣٨) ازداد عدد الثوار في مدينة القدس خاصة في البلدة القديمة. وسبق ان ذكرت اسماء عدد من قادتهم، مما جعل دوريات البوليس والجيش تتجنب دخول البلدة القديمة، وصارت السلطة تعتمد فقط على عدد من رجال المباحث والبوليس الاضافي العرب، وبعض المغامرين الانكليز مثل الجاويش كامبل الذي لقب نفسه (أبو علي) وادعى انه صديق للعرب. وبذلك تمكن، لفترة من الزمن، من التردد على احياء البلدة القديمة ومقاهيها. لكن الثوار العرب قاموا بهجمات عديدة على رجال المباحث وقتلوا عددا منهم فخلت البلدة القديمة تماما من مظاهر السلطة الحكومية. وكان عدد من الثوار موجودين بالقرب من أبواب سور القدس يطلقون النار على اية دورية تحاول دخول البلدة، فأصبحت البلدة القديمة منطقة محررة، خصوصا من ١٣ الى ٢٠ ايلول/ سبتمبر ١٩٣٨.

إلا ان السلطات البريطانية شعرت ان قيام هذه الحالة في مدينة القدس بالذات ينتقص من هيبة بريطانيا. لذلك وضع الجيش البريطاني خطة لاسترداد المدينة واعادة احتلالها. وابتدأت العمليات العسكرية باقامة مواقع كقلعة باب الخليل، وبناية مدرسة الفرير قرب



الجيش الانكليزي يستعيد القدس من الثوار سنة ١٩٣٨



الاعتقالات الجماعية عند باب الساهرة سنة ١٩٣٨

الباب الجديد، ومدرسة شميدت الالمانية قرب باب العمود وبرج المتحف الفلسطيني قرب باب الساهرة وباب الاسباط. وابتداء من ١٣ ايلول/سبتمبر صار الجيش يطلق من هذه المواقع المرتفعة نيران الرشاشات الثقيلة ليلا ونهارا على اي شيء يتحرك. واصبحت المدينة محاصرة تماما وأخلي الكثير من بيوتها وشوارعها المكشوفة. ولكن طبيعة المدينة كانت تساعد الثوار على التنقل واحباط اية محاولة لاقتحام أبوابها معتمدين على نيران المسدسات والقنابل اليدوية. وبعد يومين أمكن ادخال بعض البنادق الى المدينة القديمة ليلا من مكان منخفض من سور المدينة يقع بالقرب من باب الاسباط خلف حمام ستنا مريم.

في المرحلة الثانية من معركة اعادة احتلال القدس استخدمت الطائرات الحربية التي راحت تحلق فوق المدينة طول النهار مستخدمة القنابل ونيران الرشاشات، مما ساعد الجيش البريطاني على السيطرة على بعض شوارع المدينة وأوقع عددا من القتلى والجرحى وخاصة بين المدنيين الفقراء الذين كانوا يضطرون إلى مغادرة مساكنهم بحثا عن الطعام، كما قتل وجرح عدد من المدنيين في ساحات الحرم الشريف.

في المرحلة الثالثة وابتداء من ١٨ ايلول/سبتمبر ألقت الطائرات الحربية على القدس وضواحيها منشورات بتوقيع اللفتنانت جنرال اوكانور القائد العسكري لمنطقة القدس يدعو جميع السكان في البلدة القديمة الى إلقاء السلاح والتزام منازلهم داخل البلدة وخارجها، ويعلن ان الجيش البريطاني سيقتحم المدينة بالقوة العسكرية وسيقتل كل من يعترض طريقه. ثم بدأت قوات عسكرية كثيفة مدججة بالسلاح تتقدم على محورين: محور باب الخليل ـ سويقة علون ـ سوق البازار ـ سوق العطارين، ومحور باب العمود ـ سوق خان الزيت ـ سوق العطارين حيث يلتقي المحوران.

استعان الجيش بالطائرات وبالمواقع المرتفعة خارج السور لتغطية تقدمه، وكلما تقدم بضعة أمتار كان يقيم حاجزا من اكياس الرمل يتمركز خلفه، ثم يقوم بهجوم آخر ليتقدم بضعة امتار اخرى ويقيم حاجزا آخر. وكانت قيادة الهجوم تتمركز في فندق فاست خارج السور وتتصل مع القوات المتقدمة بأسلاك الهاتف الحربي التي كانت تمتد عشرات منها على الأرض بين فندق فاست والقوات المتقدمة. وجرى اتصال هاتفي بين كبار المسؤولين في الحكومة وبين الثوار من أجل ايقاف القتال وتسليم المدينة. وعرف ان الشيخ شكيب القطب رحمه الله كان يجيب بعبارة لن نستسلم.

استغرقت عملية التقدم حتى سوق العطارين نحو ثلاثة أيام، وبقيت أجزاء من المدينة غير محتلة مثل احياء باب حطة، والسعدية، والواد، وباب السلسلة، وحارة الشرف. وهنا اعلنت القيادة العسكرية كذبا ان الجيش اكمل احتلال المدينة وان ابوابها ستفتح للجمهور من السكان لدخول المدينة صباح يوم ٢٠ ايلول/سبتمبر الساعة الثامنة صباحا. وفي الوقت المحدد تدفق عدد من سكان البلدة القديمة وأقاربهم من باب العمود وباب الخليل الى داخل

المدينة لتفقد بيوتهم واقاربهم. وفي وسط الزحام تقدم الجيش ليدخل باقي احياء المدينة محميا بالناس المزدحمين في الشوارع.

أما الثوار فتفرقوا وأخفوا سلاحهم، وقام الناس بنقل الجرحى والشهداء الى المستشفيات. وقام الجيش باعتقالات واسعة في هذا اليوم وكنت واحدا من المعتقلين، اذ شاهدني ضابط بريطاني من الجيش في شارع باب السلسلة وأمر باعتقالي فأمسك بي جنديان وسارا بي الى ساحة صغيرة في درجة الطابونة حيث أقام الجيش معتقلا موقتا يشرف عليه رجال البوليس البريطاني، وكلما جمعوا نحو العشرين من الموقوفين ربطوهم بحبل واحد وساقوهم الى قلعة باب الخليل. وجاء دوري وربطت الى عدد من الموقوفين بحبل واحد وسرنا تحت الحراسة الى القلعة، مرورا بحارة اليهود فحارة الأرمن. وعلى طول الطريق اعتدى علينا رجال البوليس البريطاني بالضرب والاهانة حتى وصلنا إلى القلعة. وعند باب القلعة شاهدت الشيخ شكيب القطب، الذي اعتبر قائد البلدة في اثناء الحصار، تحمله سيارة جيب عسكرية وهو مربوط الى السيارة، وجلس فوقه بعض الجنود وسارت به السيارة الى مكان مجهول. وعلمنا فيما بعد انه امضى فترة تعذيب فظيعة في سجن عتليت قرب حيفا ثم نقل الى سجن عكا ثم الى معتقل المزرعة. ولما خرج من السجن بعد عدة سنوات كان مصابا بعدة عاهات دائمة.

وعندما دخلنا ساحة القلعة الداخلية وجدنا فيها مئات من المعتقلين قد سبقونا، وأمضى رجال المباحث مثل الضباط: اليهودي صوفر واليوناني روبنسون وغيرهما من الضباط الانكليز، النهار في التحقيق معنا. وفي الليل نقلوا بعضا منا الى (C.I.D.) والبعض الآخر الى سجن المسكوبية. اما الأغلبية الساحقة وكنت بينهم فنقلونا سيرا على الأقدام الى سجن القشلة القريب، حيث أمضينا يومين فقط، التقطوا لنا خلالها صورا فوتوغرافية وأصدروا لنا هويات، ثم أفرجوا عنا. وكانت قيادة الثورة طلبت من الشعب الامتناع عن الحصول على الهويات وحملها، ولذلك كان اعتقالنا فرصة للسلطة كي تصدر لنا هويات رغما عنا، مع ان ذلك كان عبثا، إذ أتلفنا معظم هذه الهويات بعد خروجنا من السجن.

لقد كنت سعيدا بمغادرة السجن لأعود إلى النضال، ولكوني شعرت ان أعين المخابرات ما زالت عمياء عني.

١٦ اشتغالي في الصحافة وذكرياتي عن المحاكم العسكرية البريطانية

بعد انتهاء الاضراب العام سنة ١٩٣٦ عدت الى العمل كمعلم في المدرسة الابراهيمية. إلا إنني استقلت في ربيع سنة ١٩٣٧ واشتغلت صحفيا ووكيلا ومراسلا في القدس لجريدة «الجامعة الاسلامية» التي كانت تصدر في يافا، وكان صاحبها ورئيس تحريرها سماحة الشيخ سليمان التاجي الفاروقي. وقد أتاح لي العمل في الصحافة فرصا كثيرة، فأصبح بامكاني، من دون أي حرج أو شبهة، أن أتجول في المدينة كيفما أشاء، وان ادخل بسهولة الى دوائر الأمن العام. كما تعرفت إلى عدد من الأجانب واليهود، مما أتاح لي فهما أعمق لظروفنا وللحركة الصهيونية وأهدافها الخطيرة وتنظيمها وفاعليتها. وعلى الرغم من صغر سني (٢١ سنة) في ذلك الوقت، كنت صحفيا نشيطا ناجحا، تمكنت من مجاراة، واحيانا منافسة زميلاي الصحفيين المخضرمين الشهيد شكري قطينة (ابو بدر) وكيل جريدة «الدفاع» ومراسلها، وفرح الصائغ (ابو ناظم) وكيل جريدة «فلسطين» ومراسلها في القدس. ومن أبرز ما حققته شن حملة صحفية اخبارية على كيركبرايد البريطاني الذي حل محل الحاج أمين الحسيني في ادارة الأوقاف الاسلامية، أدت الى ان يوجه مستر تويدي مدير قلم المطبوعات في ذلك الوقت عن طريق مساعده محمد كمال انذارا رسميا لي.

أما أبرز نجاح صحفي ووطني فكان ان كبير الاذنة (المراسلين) في دائرة السكرتير العام، وهو رجل شهم شجاع من أهالي قرية الطور، لا أتذكر اسمه، وكان متعاونا معي، تمكن من سرقة نسخة من خريطة يدرسها المجلس التنفيذي، تبين انها توضح خطة انكليزية ـ صهيونية لنقل ملتقى خطوط سكك حديد فلسطين من مدينة اللد العربية الى ضواحي تل ابيب اليهودية. ولما نشرت الخريطة أثارت ضجة كبيرة وعُدل عن المشروع.

وفي أوائل سنة ١٩٣٨ عدت للتدريس في المدرسة الابراهيمية، التي اصبح اسمها في هذه السنة الكلية الابراهيمية، وانتقلت من مبناها الصغير في حي المصرارة الى مبنى كبير في حي باب الساهرة كانت تشغله الكلية العربية التي انتقلت الى بناية جديدة كبيرة على جبل المكبر.

بعض مشاهداتي في المحاكم العسكرية

شكلت في سنة ١٩٣٧ وما بعدها محاكم عسكرية في عدة مدن من فلسطين. وفي مدينة

القدس كان مقر المحكمة العسكرية في شارع مأمن الله، خلف القنصلية الاميركية، في بناية صغيرة يحرسها الجيش البريطاني. وكانت قاعة المحكمة عبارة عن غرفة عادية صغيرة لا تزيد مساحتها على ٤ × ٤ م يجلس فيها ثلاثة ضباط حكام عسكريين، والمدعي العام العسكري والمحامون والحرس. وبذلك لم يكن هناك متسع للصحفيين سوى مقعدين واحد للصحفيين العرب وآخر للصحفيين اليهود. ولا أتذكر ان كان هناك مقعد للصحفيين الأجانب. وحرصت طيلة عملي في الصحافة أن أحضر المحاكمات العسكرية ممثلا للصحافة العربية، وكان ذلك يقتضي موافقة زميلاي شكري قطينة وفرح الصائغ وحصلت عليها بسهولة. وسأروي تفاصيل بعض القضايا لأعطي فكرة عن تلك المحاكم.

١ ـ عيسى البطاط وقضية الحلحولي

عيسى البطاط من رجال الثورة المعروفين في جبل الخليل وهو من أهالي قرية الظاهرية. وكانت السلطات البريطانية تطارده بعد أن هاجم مخفرا في الظاهرية وغنم منه عدة بنادق انكليزية جديدة. ثم حدثت حادثة أخرى جعلت السلطات البريطانية توليه اهتماما أكبر وتطارده بعنف. حدث ان أطلقت النار على سيارة بريطاني يدعى مستر ستاركي على طريق بيت جبرين ـ الخليل، وقتل ستاركي. وأثار الانكليز ضجة كبيرة حول مقتله لأنه مدني وعالم آثار ـ كما يدعون ـ وادعوا أن الذي أوقف السيارة وقتل ستاركي هو البطاط ورجاله. وجرت في أثر ذلك عمليات تفتيش عسكرية واسعة في عدة قرى صاحبتها اعمال البطش والتنكيل المعروفة ولم تعثر القوات البريطانية على أثر لعيسى البطاط.

بعد بضعة أسابيع وصلت اخبارية إلى مباحث القدس أن البطاط موجود في بيت معين في كروم العنب المحيطة بمدينة الخليل، وبالتحديد في موقع ايزون المجاور لكروم قرية حلحول. وخرجت قوة كبيرة من بوليس القدس على رأسها البريغادير برود هيرست وطوقت البيت ليلا، ولا بد ان كان معهم من يعرف المنطقة جيدا. وكان البطاط موجودا بالفعل في ذلك البيت مع أحد رجاله. والبيت مؤلف من غرفة واحدة لها باب واحد، ومن داخل الغرفة يمكن الصعود الى السطح بدرج داخلي. وكان البطاط ورفيقه نائمين على سطح البيت، أما صاحب البيت وعائلته ففي داخل البيت.

شعر البطاط بالتطويق وقدر أن الانكليز ينتظرون بزوغ الفجر أو شروق الشمس ليهاجموا البيت، فقرر ان يخرج من الطوق حالا. وطلب من رفيقه ان يرافقه في ذلك فجبن. فتركه ونزل الدرج وفتح الباب فجأة وكان بعض الانكليز في مواجهة الباب فألقى عليهم قنبلة واطلق عدة عيارات من مسدسه واخترق الطوق بعد أن أصيب بجروح بسيطة. وكان الليل شديد الظلام فلم ينجح الانكليز في مطاردته. فجن جنونهم. وبعد طلوع النهار ألقوا داخل البيت عدة قنابل غاز مما جعل صاحب البيت يخبىء اطفاله تحت الفراش وفي الخزانة

كي لا يختنقوا، ولكن من دون جدوى. فنادى على الانكليز طالبا التسليم خوفا من أن يموت جميع من في البيت اختناقا. ثم ظهر بباب البيت مسلما فأطلقوا عليه النار وقتلوه فورا ثم استولوا على البيت وأسروا رفيق البطاط ومعه بندقيته وسيق الى المحاكمة وادعى في المحكمة أنه لم يكن رفيقا للبطاط بل كان أسيرا، فلم ينفعه ذلك وحكم بالاعدام ثم أعدم. وقد حضرت محاكمته، وورد في شهادة برود هيرست في هذه القضية ان البطاط عندما خرج وأطلق النار صاح الجاويش فلان: انا اصبت، كما قتل البوليس فلانا. ويتضح مما ذكرت ان حملة برود هيرست للقبض على البطاط فشلت فشلا ذريعا، اذ افلت من بين ايديهم وقتل انكليزيا وجرح آخر.

ولكي يغطي الانكليز فشلهم حركوا فورا قوة كبيرة من الجيش جاءت من القدس لتقوم بعملية تفتيش نموذجية. وكان ذلك اليوم يوم الخميس. ووصلت قوة الجيش نحو العاشرة صباحا. ولما شاهد اهالي حلحول الموجودون في كرومهم القريبة من الطريق السيارات العسكرية تراكضوا مبتعدين الى بيوتهم، وبدأ الانكليز يطلقون النار. وكان الحلحولي بطل قصتنا ــ ولا أتذكر اسمه ــ في مكان قريب من الطريق العام، لم يتمكن من الهروب وألقى بنفسه أرضا. وبعد قليل انتشر الجيش في الكروم وقبض عليه ونقل إلى القدس، فوصلها مساء يوم الخميس. وصباح يوم الجمعة قدم الى المحكمة العسكرية بتهمة اطلاق النار على قوات جلالته وحيازة ذخيرة.

وحضرت المحاكمة وحضر محامون متطوعون للدفاع عنه. وجلس هذا الفلاح البسيط في المحكمة يواجه ثلاثة ضباط انكليز، يضع كل واحد منهم مسدسه أمامه على الطاولة، ويحوط بالمتهم جنود من الجيش ثبتوا حرابهم في بنادقهم. وجعل المسكين ينظر هنا وهناك كمن يتفرج على ما يجري وكأن الأمر لا يعنيه. ولم يكن يخطر على باله كيف ستكون النهاية. فهو يعرف أنه غير مذنب ولم يعمل شيئا، ولم يعتد على أحد، ولا يتصور أن الناس يكذبون عليه فيتهمونه كذبا. جلس كأنه في بيته، وشهد الشهود بالانكليزية من دون أن يفهم ما يقولون، أنه اطلق النار من بندقيته على سيارات الجيش البريطاني، ثم اختبأ ولما قبض عليه الجيش لم يتمكن من اكتشاف المكان الذي خبأ فيه بندقيته ولكن وجد خمس رصاصات نسيها في جيبه وأبرزوا الرصاصات واذا بها رصاصات انكليزية جديدة لامعة لم يحلم ثوارنا في ذلك الوقت بالحصول على مثلها.

استغرقت المحاكمة أقل من ساعة، وصدر الحكم فورا بالاعدام، ومساء اليوم نفسه (الجمعة) أجاز القائد العام للجيش الجنرال ويفل حكم الاعدام، وفي السابعة من صباح اليوم التالي (السبت) سيق الحلحولي البريء الى المشنقة وأعدم. ولم يستغرق اعتقاله ومحاكمته واعدامه ٤٨ ساعة. وهتفنا للعدل البريطاني!!

٢ ــ قضية عائلة شملَّخ

قدم للمحكمة العسكرية في القدس، في قضية واحدة عشرة متهمين من أسرة واحدة: أب وأولاده التسعة من عائلة شَمَلَّخْ من أهالي غزة، وكانت تهمتهم جميعا حيازة مسدس واحد.

تبين شهادات الشهود أن أخبارا وصلت إلى البوليس عن أن قاربا شراعيا سيصل الى مكان معين على شاطىء غزة يحمل مخدرات مهربة لمصلحة هذه العائلة. وحددت الاخبارية ليلة وصول المهربات ومكان الاستلام. فكمنت قوة من البوليس البريطاني بالقرب من مكان الاستلام، وحضر اولاد شَمَلَّخْ من دون أن يلاحظوا الكمين بسبب الظلام، وانتظروا وصول القارب. وبعد فترة ظهر القارب من بعيد، يشير الى من على الشاطىء بضوء يظهر ويختفي، ولما اقترب قليلا هجم رجال البوليس على أولاد شملخ، فطوقوهم وقبضوا عليهم. إلا إن الأب حين وجد ان عدد رجال البوليس قليل، وشاهد القارب يقترب صاح بأولاده ــ حسب شهادة الشهود ــ عليهم يا أولاد!! صيحوا يا أولاد. وبدأوا يصرخون بأعلى أصواتهم محذرين القارب الشراعي. وسمع من فيه الصراخ فأسرعوا مبتعدين الى عرض البحر ونجوا. أما أولاد شَمَلَّخْ فحاولوا التخلص من الاعتقال فلم يتمكنوا. وسيقوا جميعا الى السجن ثم الى المحكمة العسكرية في القدس. وأبرز في المحكمة مسدس صغير ادعى الشهود أن واحدا من الابناء كان يحمله، وألقاه بعيدا عند هجوم رجال البوليس. وبعد التفتيش في المكان وجد هذا المسدس على الأرض، وطلب المدعي العام العسكري انزال عقوبة الاعدام بالمتهمين العشرة.

ومما هو جدير بالذكر أن المحامي رشدي الشوا، جاء من غزة ليدافع عن المتهمين متبرعا، وكانت تلك المرة الأولى التي يرافع فيها أمام المحكمة العسكرية. وشاهدته في المحكمة بطلعته البهية مرتديا ملابس انيقة جدا وروب المحاماة المهيب متحمسا لما سيقوم به. وتحادثنا حول القضية وقلت له ان سير المحاكمة هنا يختلف تماما عن المحاكم التي يعرفها، وان المحكمة لن تمكنه من ممارسة عمله بشكل معقول. فاستغرب ذلك، ولكنه لم يلبث ان لمس صحة قولي عندما بدأت المحكمة تنظر في القضية. فبعد أن شهد الشاهد الأول وهو جاويش في البوليس البريطاني، وقف الاستاذ الشوا لمناقشته وسأله سؤالا فلم يسمح رئيس المحكمة للشاهد بأن يجيب. وقال للأستاذ: ماذا تريد ان تثبت من وراء هذا السؤال، فقال الشوا ليس من الحكمة أن أبين سلفا ما هي النقطة التي أريد ان تثبت من وراء هذا السؤال، فأنا اوجه الاسئلة الى الشاهد وفي ضوء اجابته أبين للمحكمة النقطة المراد اثباتها. فقال رئيس المحكمة بحزم: لا تضيع وقت المحكمة، أذكر النقطة التي تريد اثباتها. فاضطر المحامي إلى ان يقول: أريد أن أثبت (كذا). فقال الرئيس هذه نقطة لا أهمية لها، انتقل الى غيرها. فوجه المحامي سؤالا آخر للشاهد وقبل ان يجيب تكرر ما جرى مع السؤال السابق،

فحار المحامي ماذا يقول وانتهت المناقشة. وتكرر ذلك مع الشاهد الثاني وأصيب الاستاذ الشوا بالاحباط، وأخيرا تمكن بصعوبة ان يقول: ان ظروف هذه القضية لا تنطبق عليها أحكام القوانين العسكرية لأنها قضية مدنية عادية.

استغرقت المحاكمة أقل من ساعتين وصدر الحكم فيها فورا. وقبل النطق بالحكم أوقف جميع المتهمين في مواجهة القضاة وظهورهم الى الحائط وأمام كل واحد منهم جندي بريطاني يسدد حربة بندقية الى بطن المتهم ويكاد يغرسها فيه. وتلا رئيس المحكمة القرار واذا به يتضمن الحكم على الأب وستة من اولاده بالسجن مدى الحياة، وعلى ولدين عمراهما دون السن القانونية بالسجن سبع سنوات وعلى المتهم الرئيسي بالاعدام.

٣ ــ قضية بوليس يهودي

كانت شركة الباصات الوطنية كبرى شركات الباصات التي يملكها العرب في فلسطين. وكان خط القدس ــ يافا انشط خطوطها. وفي سنة ١٩٣٦ توقف سير الباصات بسبب الاضراب العام. وبعد انتهاء الاضراب استأنفت الشركة تسيير باصاتها على هذا الخط على الرغم من استمرار الثورة المسلحة، فتعرضت لهجمات متكررة لأنها كانت تمر بحي محانيه يهودا اليهودي، وحي روميما. وبعد ابتعادها قليلا تمر بجوار عدة مستعمرات يهودية. ثم تمر بقرية ابو غوش العربية متجهة الى يافا.

وابتداء من تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٣٧، أي بعد صدور قرار التقسيم واستئناف الثورة، بدأ اليهود يهاجمون الباصات باطلاق الرصاص عليها وبالقاء القنابل مما ادى الى مقتل عدد كبير من ركابها العرب. وعلى الرغم من تكرار الهجمات على سيارات هذه الشركة استمرت في تسيير سياراتها مخترقة الاحياء والمستعمرات اليهودية في الذهاب والاياب.

وبتاريخ ١٩٣٧/١١/١٤ وبينما كانت سيارة باص تابعة للشركة تمر بقرية أبو غوش والمستعمرة المجاورة لها اطلقت عليها النار وقتل ثلاثة من ركابها العرب. وكان قائد مخفر بوليس أبو غوش في ذلك الوقت الضابط الشاب اسعد كمال السعدي (المحامي فيما بعد) الذي تحرك بسرعة بعد وقوع الهجوم وألقى القبض في الموقع نفسه على احد أفراد البوليس الفلسطيني التابعين لمخفر أبو غوش، وكان يهوديا. واجرى معه تحقيقا فوريا ثبت بموجبه انه هو الذي اطلق النار من بندقيته ــ بندقية الحكومة ــ وكان يرتدي لباس البوليس الرسمي. فأصدر امرا بتوقيفه، ثم قدم للمحاكمة أمام محكمة القدس العسكرية.

اهتم الرأي العام بالقضية واهتمت بها الهيئات الصهيونية وأوكلت عددا من كبار المحامين اليهود للدفاع عن المتهم. وتميزت اجراءات المحكمة في هذه القضية عن الاجراءات التي نعرفها. وسمح للمحامين بمناقشة الشهود بكل حرية، وبالشكل الذي يريدونه. واشترك في المناقشات اكثر من محام. وكانت أدلة الاتهام دامغة فلجأ المحامون اليهود الى التركيز على

مناقشة الضابط أسعد كمال السعدي، حيث حاولوا ارهابه وان يحولوه الى متهم مدعين انه زيف الادلة ضد المتهم اليهودي بسبب عدائه لليهود. واستجوبوه طويلا حول قرابته للشيخ فرحان السعدي، أحد كبار قادة الثورة، فلم ينكر قرابته للشيخ فرحان وجابه المحامين اليهود بشجاعة. فركزوا مرافعتهم على أن الشيخ فرحان من كبار الارهابيين وان اسعد كمال ارهابي أيضا وتابع لعمه. وبذلك سمحت المحكمة بأن تتحول الجلسة الى اتهام اسعد كمال ومحاكمته ومحاولة ادانته. فلم يؤثر ذلك في شهادته بل زاد من اصراره وتأكيده على الأدلة التي تدين المتهم اليهودي وعلى بشاعة جريمته خصوصا وهو رجل بوليس نظامي يفترض انه يقوم بالمحافظة على الأمن، فاستغل وظيفته وسلاح الحكومة للقتل. ثم لجأ المحامون اليهود الى القول إن قوانين المحكمة العسكرية لم توضع لتطبق على اليهود بل وضعت لتطبق على العرب.

اثارت مجريات المحاكمة اعصابي الى حد كبير. اذ كان تصرف المحكمة لا يحتمل وصفاقة المحامين اليهود لا يمكن ان تطاق. ولكن شجاعة اسعد كمال وثباته كان يهدىء من ثورتي. واخيرا اصدرت المحكمة العسكرية حكمها باعدام المتهم. وانتظرنا من القائد العام للجيش البريطاني الجنرال ويفل ان يجيز الحكم مساء ذلك اليوم كما كان الأمر مع العرب، فلم يفعل. واستمر انتظارنا طويلا فلم تصدر الموافقة بل خفض الحكم الى السجن، برغم من قوة الأدلة وبشاعة الجريمة.

حول المحاكم العسكرية وأحكام الاعدام

لعل من الضروري أن أشير هنا الى شخصية عربية كان لها شأن وطني مرموق ومفيد في المحكمة العسكرية بالقدس، هو المحامي جورج صلاح انشط المحامين العرب الذين تطوعوا للدفاع عن المتهمين أمام المحاكم العسكرية وأكثرهم توفيقا. ومن الطريف أنه لم يعتمد كثيرا في هذا المجال الكفاءة القانونية بل الكفاءة المسلكية، فبذل جهده لكسب صداقة القضاة الضباط وأكثر من دعوتهم إلى العشاء واستطاع التأثير فيهم في حالات عدة. كنت اشاهده قبل انعقاد المحكمة يدخل غرفة القضاة وبعد ان يخرج من الغرفة أسأله ماذا جرى فيقول اتفقنا ان يكون الحكم كذا او كذا. وبعد المحاكمة يصدر القرار مصداقا لما قال. واذكر أن بعض القضاة كان يقبل الهدايا والرشوة واحيانا يطلبها من دون خجل.

ان الأحكام التي أصدرتها المحاكم العسكرية على العرب كانت في منتهى القسوة. ففي سنة ١٩٣٨ وحدها أصدرت المحاكم العسكرية نحو ٢٠٠٠ حكم بالسجن مددا طويلة و١٤٨ حكما بالاعدام نفذت جميعها، هذا فضلا عن اعتقال ٥٠ ألفا بموجب أحكام ادارية. لكن شعبنا البطل كان يواجه هذه الأحكام بشجاعة فائقة بما في ذلك أحكام الاعدام. واذكر ان أحكام الاعدام كانت تنفذ في عدد من السجون المركزية بما في ذلك سجن القدس المركزي

(سجن المسكوبية) المخصص لتنفيذ احكام الاعدام يومي السبت والثلاثاء من كل اسبوع. وكنت أبكر في الذهاب الى السجن في كل يوم من هذين اليومين لأشاهد على باب السجن لوحة يعلق عليها تقرير المسؤولين عن تنفيذ أحكام الاعدام، كما يذكر اسم المعدوم أو المعدومين. وكان أهالي المعدومين يبلغون بموعد تنفيذ الأحكام فيحضر عدد كبير من ذوي الشهيد واصدقائه لاستلام الجثة. يحضرون وقد ارتدوا البسة بيضاء والنساء خضبن ايديهن وشعورهن بالحناء وكأنهن في يوم عرس. وعندما يتسلمون جثة الشهيد تتعالى الزغاريد والاهازيج. وأود ان أؤكد في نهاية هذا الموضوع ان احكام الاعدام برغم من كثرتها وقسوتها لم تكن تؤثر سلبيا في معنويات الشعب بل كانت تحدث اثارة عنيفة تلهب المشاعر وتزيد التصميم على مواصلة النضال ضد الاستعمار والصهيونية.

بلغت ثورة فلسطين الكبرى أوجها صيف سنة ١٩٣٨ فازدادت اتساعا وعنفا وتنظيما، وسيطرت على مناطق واسعة من القرى والجبال، حتى ان بعض المدن أصبحت تحت سيطرة الثورة. وصار للثورة اجهزة تمارس الكثير من السلطات، كالمحاكم وأجهزة الأمن، وراحت تصدر اوامرها وتوجيهاتها للشعب. وعلى سبيل المثال، أصدرت قيادة الثورة اوامر بوقف سداد الديون، وانذار جباة الحكومة بعدم الذهاب الى القرى، ومنع الملتزمين من التعهد للحكومة بشق الطرقات العامة او تعبيدها أو بناء مراكز البوليس. كما أمرت قيادة الثورة بعدم الاستجابة لأوامر السلطة التي قضت بضرورة حصول كل شخص على بطاقة هوية شخصية وانذرت كل شخص يحصل على هوية بالعقاب. ولما كان سكان المدن يرتدون الطرابيش وسكان القرى يرتدون الكوفية والعقال، وكان ذلك يكشف تنقل الثوار بين المدينة والقرية امرت بأن يرتدي جميع افراد الشعب الكوفية والعقال، ونفذ هذا الأمر وكانت له فوائد جمة.

عبر الجنرال هايننغ القائد العام للجيش الذي حل محل الجنرال ويفل بتاريخ ٩ نيسان / ابريل ١٩٣٨، عن الحالة الثورية في تلك السنة بقوله: «ان ما يجري هو نتيجة لما أصبح الآن روحا ثورية عميقة الجذور اجتاحت السكان العرب قاطبة وحفزتهم اليها الدعوة الى حرب مقدسة. وبلغت سيطرة عصابات الثوار على جماهير الشعب حدا لم يعد معه مما يجانب الصواب ان يقال ان كل عربي في البلاد هو عدو كامن للحكومة مهما بلغت عواطفه الشخصية من الاعتدال».

احتلال المدن

بعد أن سيطرت عصابات الثوار على المناطق القروية راحت تشن الهجمات على دوائر الحكومة وقواتها في معظم مدن فلسطين، واحتلت عددا من المدن لفترات متفاوتة، مما اضطر الحكومة الى اخلاء بعض المدن والاكتفاء ببسط سلطتها على اجزاء محدودة من كل مدينة، والاعتصام بعمارات البوليس المسماة عمارات تيغارت.

ويذكر ان الثوار احتلوا مدينة الخليل في شباط / فبراير ١٩٣٨ واحتلوها مرة ثانية في ايار / مايو واحتلوا مدينة جنين في آذار / مارس وبيسان في نيسان / ابريل وبئر السبع في ٩ ايلول / سبتمبر والقدس القديمة في ١٣ ــ ٢٠ ايلول / سبتمبر وطبريا في تشرين الأول / اكتوبر

من السنة نفسها. وكان الثوار يتجولونَ في مدينة نابلس بأسلحتهم من دون أن يعترضهم أحد. كما جرت حرب شوارع في يافا وحيفا وهجمات على دوائر الحكومة في باقي المدن ساهم فيها أو سهل ذلك رجال البوليس الفلسطيني العرب.

سبق ان تحدثت عن احتلال مدينة القدس القديمة، وسأتحدث الآن عن احتلال مدينة بئر السبع لأهمية العملية وأهمية نتائجها.

كان عبد الحليم الجيلاني (منصور) قائد الثورة في منطقة الخليل في هذه الفترة، هو الذي نظم وقاد هذه الحملة العسكرية. وحدثني عن تفاصيل خطته قبل تنفيذها بنحو الشهر لدى زيارتي له في معقله الجبلي المعروف وشبه الدائم الكائن في موقع وادي البصاص وشعب الملح من جبال الخليل شبه المحررة. وكان اخي صبحي وصديقه داود العلمي ملتحقين، في ذلك الوقت، بقيادة عبد الحليم. وقضينا سوية بضعة أيام.

كانت سلطات الانكليز انحسرت عن مدينة بئر السبع وعن جنوب فلسطين عموما ولم يبق للسلطة الا وجود محدود يتمركز في دار الحكومة، حيث الادارة والبوليس الذي كان يحتفظ بمستودع اسلحة اعتبر هو الهدف الرئيسي للعملية. وكان من السهل على عبد الحليم الحصول على ما يلزمه من معلومات وتسهيلات لاحتلال بئر السبع والاستيلاء على مستودع الاسلحة. ولكن الخطورة تكمن في عملية نقل الاسلحة من بئر السبع السهلية الى جبال الخليل. ومع أن المنطقة تكاد تخلو من قوات الجيش البريطاني الا ان احتمال مهاجمة الثوار بالطائرات وهم عائدون، او باستحضار قوات عسكرية بشكل عاجل، أمور متوقعة ويجب التحوط لها. والأهم من ذلك أن لا تتسرب المعلومات عن الخطة الى اجهزة السلطة قبل تنفيذها. ولحسن الحظ سارت الأمور على ما يرام. ففي الصباح الباكر من يوم ٩ ايلول / سبتمبر ١٩٣٨ توجهت عدة شاحنات تحمل الثوار من جبال الخليل الى بئر السبع قاطعة ٤٠ كيلومترا، ودخلتها بعد أن مهدت قوات أخرى لهذا الهجوم بقطع أسلاك البرق والهاتف واغلاق مداخل المدينة ومنع الدخول اليها او الخروج منها. وتوجهت قوة الثوار الرئيسية الى دار الحكومة واستولت عليها بعد معركة قصيرة قتل فيها بعض رجال البوليس الانكليز واطلق الثوار سراح السجناء واحرقوا وثائق البوليس واستولوا على نحو ٦٠٠ قطعة سلاح وكميات كبيرة من الذخيرة والمهمات العسكرية والبوليسية مثل الخوذات الفولاذية والأصفاد. ثم تمكن الثوار من الانسحاب الى معاقلهم في جبال الخليل مع ما غنموه بسلام.

وكانت لهذه العملية نتائج مهمة منها:

١ ـ زيادة قوة الثوار زيادة كبيرة في منطقة الخليل بعد ان حصلوا على السلاح والذخيرة. وكان بين الاسلحة عدد من الرشاشات المتوسطة الحديثة من طراز لويس غن التي كان لها اثر ملحوظ في المعارك العسكرية التي دارت فيما بعد، وساعدت الثوار على اسقاط عدد من الطائرات البريطانية. ومما هو جدير بالذكر أن القائد عبد الحليم الجيلاني تمكن من

اسقاط طائرتين بريطانيتين بنفسه في معركة جورة بحلص باستخدام احد هذه الرشاشات، سقطت احداهما على الطريق العام في موقع المعركة وسقطت الاخرى فوق مدينة الخليل حيث قفز قائدها ومساعده بالمظلات فقتل المساعد وأسر القائد.

٢ ــ اصبحت بئر السبع، وجنوب فلسطين بشكل عام، خاضعة لسيطرة الثوار يدخلونها في أي وقت يشاؤون، واستمر ذلك عدة اشهر.

المعارك الرئيسية

كانت جبال فلسطين ومدنها سنة ١٩٣٨ ساحة حرب بكل معنى الكلمة. فالحوادث اليومية تعد بالمئات ويصعب التحدث عنها بالتفصيل. لذلك سأتحدث عن المعارك الرئيسية فقط، وهي إما معارك شنها الثوار أو معارك شنها الجيش البريطاني ضد الثوار، أو اعتداءات قامت بها القوات الصهيونية على العرب. وسبق ان تحدثت عن بعض معارك هذه السنة، ومن أشهر المعارك:

١ ــ تطويق ام الفحم ويعبد وعانين وعاره وعرعرة ويامون وسيلة الحارثية في منطقة جنين في ١٠ شباط / فبراير ١٩٣٨ حيث دارت معارك متصلة بين الجيش البريطاني والثوار استخدم فيها الجيش اقصى الاجراءات وهدم العديد من البيوت، مما أدى الى هجرة اكثر من ألفي شخص عن قراهم وهاموا على وجوههم، حتى ان بعضهم لجأ الى مدينة القدس واقاموا في ساحات المسجد الاقصى. وتكبد الانكليز فيها خسائر كبيرة واعترفوا رسميا بمقتل جنديين وجرح اثنين.

٢ ــ معركة اليامون في ١٣ آذار / مارس ١٩٣٨ التي قادها واستشهد أثناءها القائد الشيخ عطية مع عدد من رفاقه الثوار، وكانت خسائر الانكليز فيها كبيرة.

٣ ــ معركة بورين شرقي نابلس في تموز / يوليو ١٩٣٨ وامتد ميدانها ١٥ كيلومترا وشمل عددا من القرى واسقطت فيها طائرة بريطانية واستمرت ٢٤ ساعة.

٤ ــ معركة شعب ومجد الكروم قرب صفد في ١٩ آب / اغسطس ١٩٣٨.

٥ ــ معركة قلقيلية في ٢٠ آب / اغسطس ١٩٣٨.

٦ ــ معركة دير شرف غربي نابلس في آب / اغسطس ١٩٣٨.

٧ ــ معركة جورة بحلص قرب الخليل في ايلول / سبتمبر ١٩٣٨ وأسقطت فيها طائرتان.

٨ ــ معركة رام الله الكبرى في تشرين الأول / اكتوبر ١٩٣٨ واستخدم فيها الجيش البريطاني نحو ٤٠ طائرة.

٩ ــ سلسلة معارك جبال القدس الغربية في شهري آب / أغسطس وايلول / سبتمبر ١٩٣٨ بقيادة عبد القادر الحسيني.

١٠ ــ معركة بني نعيم شرقي الخليل في تشرين الأول / اكتوبر ١٩٣٨ وسأتحدث عنها بشيء من التفصيل.

معركة بني نعيم

في آب / اغسطس ١٩٣٨ وصلتني رسالة من دمشق من اخي صبحي يذكر لي انه وعددا من الثوار سيتوجهون الى فلسطين قريبا بقيادة عبد القادر الحسيني ليستأنفوا قتالهم ضد الانكليز. فأرسلت له برسالة مطولة وطلبت منه ان يطلع عبد القادر عليها، خلاصتها أن هناك متغيرات ومصاعب كثيرة قامت في وجه الثورة أهمها ان العدو البريطاني افلح في شق الصف الوطني، وان (فصائل السلام) وهي قوات سلحها الانكليز لمقاومة الثورة تحاول منع الثوار من الدخول الى بعض القرى بما في ذلك بعض قرى منطقة القدس ومنطقة الخليل. وان الجيش البريطاني يستعد لخوض معارك فاصلة لانهاء الثورة، خاصة بعد تأزم الوضع الدولي واحتمال نشوب حرب عالمية بين المانيا وحلفائها من جهة وبريطانيا وحلفائها من جهة اخرى.

وبعد فترة قصيرة وصل عبد القادر الحسيني الى منطقة القدس ومعه أخي صبحي وعدد من الثوار، وانضم اليه عدد من الثوار المقيمين. واجتمعت بعبد القادر وأبو الوليد واخي صبحي وغيرهم في قرية المالحة في بيت الشيخ سعيد درويش، وكان معروفا بوطنيته وليس كأخيه الشيخ عبد الفتاح درويش رئيس فصائل السلام في المنطقة. وتعتبر قرية المالحة وقرية الولجة مركز فصائل السلام في منطقة القدس. ومع ذلك تمركز فيها الثوار واتخذ منها عبد القادر قاعدة لشن هجمات على مواصلات الجيش وعلى المستعمرات اليهودية المجاورة تحت سمع الجيش وبصره. وكان عبد القادر رحمه الله كعادته يلتهب حماسة وثقة بالنفس ولا يتوقف عن شن الهجمات المتلاحقة ولا يستريح هو ورجاله، وابتسامته الحلوة لا تفارق ثغره.

لم يصبر الجيش البريطاني على ذلك طويلا، واغتنم فرصة حلول العيد وانصراف عدد كبير من رجال عبد القادر الى قراهم ومنازلهم، فقام بعملية تطويق واسعة النطاق تستهدف القضاء على عبد القادر ورفاقه، اشترك فيها عدة آلاف من الجيش معززين بالطائرات. وشمل التطويق قرى المالحة والولجة وبتير وعين كارم والجورة وغيرها. ودخلت قوات الجيش الى جميع هذه القرى وفتشتها. ولا ابالغ اذا قلت انها اعتقلت جميع الذكور فيها فوق الرابعة عشرة وساقتهم الى القدس على أمل ان يكون بينهم عدد من الثوار وبخاصة عبد القادر الحسيني، ثم وزعتهم على المعتقلات. ولا شك ان عبد القادر والعدد القليل من الثوار الذين بقوا معه تعرضوا، خلال هذه الحملة، الى خطر الوقوع في يد الجيش البريطاني، وكان بينهم اخي صبحي الذي اخبرني انهم اختفوا في أحد أديرة قرية عين كارم. وفتش الجيش ذلك

الدير بالذات ضمن عملية التفتيش الواسعة، ولو انه وصل الى مخبئهم لانتهت حياتهم جميعا لانهم تعاهدوا على الموت مفضلين ذلك على الأسر الذي سيتلوه الاعدام.

وبعد هذه الحملة بفترة قصيرة عاد عبد القادر الى حشد قواته من جديد واستأنف نشاطه العسكري. إلا أن القدر كان ينتظره في مكان آخر، في قرية بني نعيم الواقعة على بعد ثمانية كيلو مترات الى الشرق من مدينة الخليل، على حافة سلسلة الجبال التي تنحدر شرقا الى البحر الميت. ومع ان هذه القرية قائمة على انقاض قلعة رومانية وموقعها حصين الا ان المنحدرات الى الشرق منها قاحلة وخالية من الأشجار.

وفي يوم ٤ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٣٨ كان عبد القادر ورجاله على موعد للقاء عبد الحليم الجيلاني ورجاله في قرية بني نعيم التي كانت في تلك الفترة وقرية يطا وعدة قرى مجاورة تحت سيطرة فصائل السلام. وهذا لا يعني أن جميع سكان هذه القرى يؤيدون موقف فصائل السلام. وفي اليوم نفسه وجّه مختار قرية يطا المجاورة دعوة الى القائد العام للجيش البريطاني لتناول طعام الغداء عنده بصحبة فخري النشاشيبي، متحدين مشاعر الاهلين، ومحاولين التأثير في معنويات الثوار وفضّ الناس من حولهم. ولما كان الجيش البريطاني يعرف خطورة الوصول الى يطا، حيث سبق أن وقع في عدة كمائن من الثوار في طريق الخليل ـ يطا خسر فيها خسائر كبيرة، لذلك ولحراسة الضيوف المميزين وصلت صباح ذلك اليوم قوة كبيرة من الجيش البريطاني تقدر بثلاثة آلاف جندي الى يطا مارة بمدينة الخليل معززة بالطائرات.

اكتشف الجيش البريطاني، بعد الظهر، وجود الثوار المحتشدين في بني نعيم. وهناك أقوال أن أحد أهالي بني نعيم أبلغ إلى الجيش وجود الثوار، والأرجح أن الطيران البريطاني هو الذي اكتشفهم. وفي أية حال فقد بدأت المعركة بعد الظهر بهجوم جوي وبري، استخدم فيه الجيش ٢٧ طائرة حربية قاذفة مقاتلة من طراز ولنغتن تعتبر من أحدث الطائرات في ذلك الوقت، وتختلف كثيرا عن طراز غلاديتر الذي كان الجيش يستعمله عادة قبل هذه المعركة والذي اعتاد الثوار مقاومته واسقاط عدد منه برصاص البنادق وخاصة الرشاشات. اما طراز ولنغتن ففضلا عن أنها تحمل عددا كبيرا من القنابل شديدة الانفجار كانت لا تؤثر فيها نيران البنادق والرشاشات.

هاجمت الطائرات القرية باسقاط اعداد كبيرة من القنابل، وفي الوقت نفسه كانت آليات ومشاة الجيش البريطاني وصلت إلى اطراف القرية من جهة الغرب. وأمر عبد القادر بمغادرة القرية حرصا عليها من الدمار. وانتشر رجاله الى الشرق والشمال من القرية، يقاتلون وينسحبون. وانسحب عبد الحليم ورجاله الى الجنوب. ودارت معركة مشوشة وغير متكافئة في ارض عراء خالية من الاشجار لعب فيها عنصر المفاجأة وسلاح الجو دورا رئيسيا، حيث ظل يطارد الثوار الى آخر النهار. وسقط العديد من الشهداء والجرحى، واصيب القائد عبد القادر الحسيني برصاصة في خاصرته كادت تخترق رئته. وكان الى جانبه ابن عمه المهندس علي

الحسيني واخي صبحي ابو غربية، فساعداه على المشي والابتعاد عن الخطر، وطلب منهما عبد القادر ان يتركاه في ارض المعركة وان ينسحبا الى مكان آمن شعورا منه انه ميت لا محالة. فرفضا ذلك واستمرا في مساعدته على السير حينا والتوقف للرد على رصاص مشاة الجيش الذين يلاحقونهم حينا آخر. ولم يلبث علي الحسيني ان اصيب برصاصة قاتلة خرَّ في أثرها شهيدا. وبعد فترة قصيرة اكتسحت احدى الطائرات برشاشاتها عبد القادر وصبحي وفي الوقت نفسه ألقت عليهما قنبلة لفهما دخانها وشظاياها، فأصيب صبحي أبو غربية في ذراعه وكتفه بالرصاص وبعدة شظايا في رأسه، وسقط أرضا كما سقط عبد القادر وغاب عن الوعي، واعتقد صبحي أن عبد القادر استشهد.

وبعد أن توقفت المعركة، قام بعض الثوار بنقل القتلى والجرحى. وعند الصباح وجدوا عبد القادر جريحا، فنقلوه سرا الى مستشفى في مدينة الخليل وسألوه عن صبحي فقال: قتل. وانتشرت اخبار المعركة المفجعة وجاءنا الى القدس من يقول ان عبد القادر استشهد وكذلك اخي صبحي وعدد من الثوار المعروفين كالمهندس علي الحسيني وعيسى ابو قدوم وابراهيم خليف وعبد الله ابو ريا ويوسف سمرين وغيرهم، وان عدد الاصابات بين الثوار أربعون اصابة بين شهيد وجريح فضلا عن عدد من أهالي القرية.

وسافرت الى الخليل مع عدد من أفراد عائلتنا لحضور جنازة اخي صبحي. ولما وصلنا إلى الخليل قيل لنا ان موت صبحي مشكوك فيه لأن بين الشهداء من يشبهه تماما، في حين ان عبد القادر الذي وجد حيا يقول ان صبحي قتل. ولذلك توجهت صباح اليوم التالي الى قرية بني نعيم مع اثنين من خيرة رجال العائلة هما شاكر عبد الحميد ابو غربية ورشيد ابو غربية. ولم نكد نصل إلى القرية حتى وصل عدد كبير من رجال الجيش البريطاني وطوقوا القرية وقاموا بعملية تفتيش واسعة. وقدم لنا اهل القرية كل مساعدة لكي لا نقع في أيدي الجيش. وتبين ان معظم أهل القرية يؤيدون الثوار ولا يؤيدون ما يسمى بفصائل السلام من أبناء قريتهم. وبعد الظهر اضطررنا الى فتح القبر الجماعي الذي دفن فيه عدد من الشهداء لكي أتأكد من استشهاد صبحي. ودخلت القبر وكان رومانيا كبيرا منحوتا في الصخر على شكل مغارة لها باب صغير تحت مستوى الأرض. ومكثت اكثر من نصف ساعة ومعي مصباح خافت الضوء، وشاهدت جثث ١٤ شهيدا دفنوا بألبسة الميدان عرفت بعضهم مثل علي الحسيني وعيسى ابو قدوم، وكان بينهم فتى يشبه اخي صبحي الى حد كبير وفي مثل سنه (١٨ سنة). ولما خرجت من القبر كانت ملامحي تدل على الم وحزن شديدين وظن من معي أنني وجدت صبحي بين الشهداء. وبعد فترة سألني شاكر فقلت: «صبحي ليس بينهم». فقال: «ولم أنت حزين بهذا الشكل؟» فقلت: «صبحي واحد وهؤلاء اربعة عشر».

وظل صبحي في عداد المفقودين اسبوعين تقريبا. واخيرا علمنا انه تحامل على جراحه وسار حتى وصل بعد منتصف الليل الى مضارب جماعة من البدو قاموا باسعافه وكي جراحه

بالسمن المغلي ثم ساعدوه على السفر الى دمشق حيث أُدخل المستشفى. وكان عبد القادر أيضا وصل الى دمشق وادخل المستشفى.

أما خسائر الانكليز فلم تعرف وقيل انها كبيرة.

حصيلة معارك سنة ١٩٣٨

كانت سنة ١٩٣٨ كما أشرنا ذروة ثورة فلسطين الكبرى، وتؤكد ذلك الأرقام الاحصائية التالية المأخوذة من مصادر حكومة الانتداب وهي في العادة لا تلتزم الصدق والدقة. بلغ مجموع العمليات التي قام بها الثوار في تلك السنة ٤٩٦٩ عملية. وأصدرت المحاكم العسكرية نحو ٢٠٠٠ حكم بالسجن مددا طويلة و١٤٨ حكما بالاعدام نفذت جميعها واعتقل اداريا خمسون الف شخص.

ويذكر تقرير حكومة فلسطين ايضا مقتل ٦٣ جنديا بريطانيا وجرح ٢٠٠ وقتل ٢٢ شرطيا وجرح ١٥ وقتل ٢٥٥ صهيونيا وجرح ٣٩٠ واستشهد ٥٠٣ من العرب وجرح ٥٩٨.

ويفصل التقرير عدد العمليات كما يلي:

٩٨٦ هجوما وعملية قنص ضد الجيش والشرطة الانكليز.

٣٣٥ هجوما على وسائل المواصلات.

٦٥١ اطلاق نار على المستعمرات والاحياء اليهودية.

١٧٦ هجوما وعملية قنص ضد صهيونيين.

٣٣١ عملية القاء قنابل.

٢١٥ عملية خطف.

٤١٠ عمليات اتلاف املاك يهود.

٧٢٠ عملية قطع اسلاك هاتف.

٣٤١ عملية تخريب سكك حديد.

٢١٠ عمليات تخريب املاك حكومية.

١٠٤ عمليات نسف انابيب شركة نفط العراق.

٤٩٠ عملية اغتيال ومحاولة اغتيال.

١٨ انحسار الثورة سنة ١٩٣٩

على الرغم من الكفاح المرير الذي خاضه شعب فلسطين ضد هجمات الجيش البريطاني والارهاب الصهيوني، وبالرغم من المعارك العسكرية الضارية التي جرت سنة ١٩٣٩، بدأت الثورة بالانحسار في هذا العام، وهبط معدل العمليات فبلغ مجموعها ٩٥٢ عملية، بينما كان ٤٩٦٩ عملية في سنة ١٩٣٨ كما سبق ان ذكرنا. وأفلت زمام المبادرة من يد الثوار وانتقل الى أيدي القوات البريطانية بالتعاون مع الجهات الصهيونية والعناصر العربية المعادية للثورة، وكان ذلك نتيجة لتفاعل أسباب عديدة نذكر منها:

تدهور الأوضاع
في أوروبا نحو الحرب العالمية

كان لوصول الحركة النازية الى الحكم في المانيا بقيادة هتلر في الثلاثينات آثار متعددة على قضية فلسطين. فازدادت الهجرة اليهودية اتساعا، واصبحت الحركة الصهيونية أكثر نشاطا وتصميما على تنفيذ برنامجها. ثم رأت بريطانيا ان احتمال نشوب حرب عالمية يحتم القضاء على ثورة شعب فلسطين بأي ثمن نظرا لأهمية المشرق العربي البترولية والعسكرية. وعندما اندلعت الحرب في أيلول / سبتمبر ١٩٣٩، ساد الشعور بأن نتائج الحرب سيكون لها الأثر الحاسم في مستقبل فلسطين، الأمر الذي أدى الى نوع من النزوع الى موقف الترقب وتعليق الأنظار والآمال على نتائج الحرب.

الاجراءات العسكرية البريطانية

منذ أواخر سنة ١٩٣٨ بدت بريطانيا مصممة على انهاء الثورة. ففي تشرين الأول / اكتوبر ١٩٣٨ في اثناء وجود المندوب السامي هارولد مكمايكل في بريطانيا وضعت في لندن خطط ترمي الى انهاء الثورة وحمل العرب على التزام الهدوء خلال الحرب المتوقع نشوبها مع المانيا. وبناء على ذلك نقلت على عجل فرقة ثانية من الجيش البريطاني الى فلسطين واستدعي الاحتياطي البريطاني للخدمة واذيعت من لندن برقية تفيد ان أعظم عمليات عسكرية سوف تشهدها فلسطين حين يبدأ الجنرال هايننغ الهجوم العام الذي يرمي الى كسر

شوكة العرب مستخدما فرقتين عسكريتين بريطانيتين وعددا من أسراب الطائرات والدبابات والمدرعات ورجال البوليس البريطاني، وقوة حدود شرق الأردن فضلا عن القوات اليهودية. وكان من رأي المندوب السامي مكمايكل ان احتمالات نشوب الحرب سوف تجبر بريطانيا على تحويل وجهة التعزيزات العسكرية المطلوبة الى أماكن أخرى. ولذلك دعا الى الاسراع بتنظيم قوات يهودية بالاضافة الى القوات القائمة. ووصف بعض البريطانيين الخطة ـ بحق ـ بأنها «احتلال فلسطين عسكريا من جديد واعادة الحكم البريطاني اليها».

بدأت الاجراءات العسكرية في أواخر تشرين الأول / اكتوبر ١٩٣٨ بانتقال ادارة جميع البلاد من السلطات المدنية الى السلطات العسكرية. ثم قامت القوات العسكرية بسلسلة من الهجمات وعمليات التطويق والتفتيش الواسعة مستخدمة سلاح الجو والقوات المدرعة والمدفعية على نطاق واسع. وشيئا فشيئا اعاد الجيش بالفعل احتلال عدد من القرى وأقام فيها حاميات عسكرية دائمة ليحرم الثوار من قواعدهم ومن العودة اليها. كما أعاد سيطرته على المدن، وصاحب ذلك عمليات الاعتقال الواسعة وفرض منع التجول لفترات طويلة، ونسف البيوت واتلاف المؤن واعدام العشرات.

النشاط العسكري الصهيوني

قامت القوات الصهيونية بالتنسيق والتعاون مع الجيش البريطاني بعدة عمليات عسكرية ارهابية ضد العرب. وزيدت القوات الصهيونية زيادة كبيرة بحيث أصبح عددها الرسمي نحو ٢٠ الف رجل، تولت حراسة المستعمرات والقوافل الصهيونية. كما شنت هجمات واسعة على المدنيين العرب. وسبق أن أشرت إلى الهجمات التي شنتها فرق الهجوم الليلية التي شكلها وقادها الخبير العسكري البريطاني وينغيت على القرى والضواحي العربية. وفي الوقت نفسه قامت العصابات الصهيونية وبخاصة منظمة الإرغون تحت سمع السلطات البريطانية وبمساعدتها، بزرع قنابل كبيرة موقوتة في الأسواق ومواقف السيارات والساحات العربية المكتظة، ليلا وفي اثناء منع التجول، وأحيانا بالقرب من مراكز البوليس، مما حمل على الاعتقاد ان السلطات البريطانية كانت تتعاون مع زارعيها اليهود وتغض الطرف عن ذلك على الأقل. فمنذ تموز / يوليو ١٩٣٨ وحتى تموز / يوليو ١٩٣٩ جرت في القدس ٧ حوادث معظمها انفجار قنابل موقوتة أدت الى قتل ٣٥ عربيا وجرح ١٣٠. وفي حيفا ٦ حوادث أدت الى قتل ١٢٠ عربيا وجرح ١٧٦. وفي واحد من أخطر هذه الانفجارات التي جرت في حيفا قتل ٤٥ عربيا وجرح اكثر من ٥٠. كما جرت عدة حوادث في يافا قتل فيها ١٤ عربيا وجرح كثيرون.

عزل الثورة عن محيطها العربي

سبق ان تحدثت عن النشاط البريطاني لعزل الثورة الفلسطينية عن محيطها العربي. وفي سنة ١٩٣٩ ازداد هذا النشاط زيادة ملموسة، بتشديد الحراسات على الحدود مع لبنان وسوريا وشرق الأردن وبعدة اجراءات داخل شرق الأردن كاعتقال اقارب الاردنيين الذين يشاركون في ثورة فلسطين، ومقاومة بيع الأسلحة والذخائر للفلسطينيين. كما أحبطت جميع الجهود التي بذلت للحصول على السلاح والعتاد من الحكومات العربية.

إنهاك شعب فلسطين

ادى الاضراب العام الذي استمر ستة أشهر وحرب العصابات التي استمرت أربع سنوات ضد القوات البريطانية والقوات الصهيونية وما صاحبها من بطش وتنكيل الى انهاك العرب. وسجلت سنة ١٩٣٩ زيادة كبيرة في أعمال البطش والقتل والاعدام والتنكيل ادت الى تدهور الاوضاع الاقتصادية والنفسية. وتقدر الجهات الفلسطينية عدد العرب الذين استشهدوا وجرحوا خلال ثورة فلسطين بنحو ٨٠٠٠ شخص. يضاف الى ذلك تأثير الانقسام في صفوف عرب فلسطين وانحياز البعض الى جانب السلطات البريطانية ضد الثورة.

ضرب القيادة الفلسطينية

سبق ان تحدثت عن قيام السلطات البريطانية بضرب القيادات السياسية الفلسطينية كاللجنة العربية العليا واللجان القومية. وفضلا عن ذلك تلقت القيادات العسكرية العربية ضربات كثيرة أدت إلى فقدان القيادة المركزية خصوصا بعد استشهاد عدد من القادة الكبار واضطرار عدد آخر الى مغادرة البلاد. فاستشهد في أواخر الثورة الشيخ فرحان السعدي (أعدم) والشيخ محمد العطية، وعبد الله الأصبح، والقائد العام للثورة عبد الرحيم الحاج محمد الذي استشهد في آذار/مارس ١٩٣٩، وكان لاستشهاده أثر كبير في انحسار الثورة وامساك الانكليز بزمام المبادرة. كما غادر البلاد عبد القادر الحسيني وعارف عبد الرازق، ويوسف ابو درة، والأخير لجأ الى الاردن ثم سلم الى الانكليز في فلسطين فأعدموه.

النشاط السياسي البريطاني

رافق النشاط العسكري البريطاني في فلسطين نشاط سياسي واسع بهدف التأثير في نفسية الشعب سعيا لإخماد الثورة. فبدت بريطانيا من خلال نشاطها السياسي وكأنها عازمة على إرضاء العرب باجراء حل للقضية الفلسطينية يميل الى تحقيق المطالب العربية، الأمر الذي

كانت تؤمل بريطانيا من خلاله تهدئة العرب وتوسيع خلافاتهم وانقسامهم وانضمامهم الى معسكرها في الحرب المتوقعة.

مؤتمر لندن

في التاسع من تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٨ نشر تقرير لجنة التقسيم (لجنة وودهيد) مع بيان لسياسة الحكومة البريطانية ألغت به مشروع لجنة بيل لتقسيم فلسطين، على أساس عدم قابليته للتطبيق. ودعا البيان الى القيام بمحاولة جديدة لحل المشكلة الفلسطينية عن طريق عقد مؤتمر للزعماء العرب واليهود يشترك فيه ممثلون عن الدول العربية المستقلة.

ورحب العرب الفلسطينيون بتخلي بريطانيا عن مشروع التقسيم الذي كان يتضمن اقامة دولة يهودية في فلسطين، كما رحبوا بدعوة ممثلين عن الدول العربية المستقلة الى مؤتمر لندن. وفي الوقت نفسه ساءهم اصرار بريطانيا في اعلانها عن استبعاد موضوعي الهجرة اليهودية وانتقال الاراضي لليهود من أبحاث المؤتمر.

أما اليهود فاستاؤوا بشكل عام وطالبوا بسحق الثورة قبل البدء بالمفاوضات، واحتجوا على اشتراك الدول العربية وطالبوا باشتراك الولايات المتحدة في المؤتمر.

بذلت حكومات العراق والمملكة العربية السعودية وشرق الأردن جهدا ملموسا لوضع حد للثورة الفلسطينية بدعوى «تهيئة اسباب النجاح لمؤتمر لندن».

وفي السابع من كانون الأول / ديسمبر ١٩٣٨ أعلن انه سيطلق سراح الزعماء العرب المنفيين في جزر سيشل من دون قيد أو شرط لكي يشاركوا في الوفد الفلسطيني إلى مؤتمر لندن. ووصل الزعماء الى القاهرة وعلى رأسهم جمال الحسيني ومنها سافروا الى بيروت للتشاور مع الحاج أمين الحسيني الذي كان البريطانيون يعترضون على اشتراكه في مؤتمر لندن. واتفق الزعماء الفلسطينيون على: ١ ــ التمسك بالميثاق الوطني لعرب فلسطين بما في ذلك المطالبة بدولة عربية فلسطينية مستقلة ذات أكثرية عربية. ٢ ــ ان لا يجلس العرب مع الصهيونيين على مائدة المؤتمر. ٣ ــ ان لا يبرم أي اتفاق في لندن إلا بعد ان يقترن بموافقة الحاج أمين الحسيني.

وتألف الوفد من جمال الحسيني رئيسا بوصفه ممثل الحاج أمين الحسيني، وعضوية حسين فخري الخالدي وألفرد روك وموسى العلمي وعوني عبد الهادي وأمين التميمي ويعقوب الغصين. وتولى سكرتيريته جورج انطونيوس وفؤاد سابا. كما دعت اللجنة العربية العليا راغب بك النشاشيبي الى الاشتراك في الوفد، وبعد تردد انضم هو ويعقوب فراج.

اتفق الزعماء العرب الفلسطينيون على توسيع نطاق الثورة في اثناء عقد المؤتمر، وفي الوقت نفسه شدد البريطانيون هجماتهم واجراءاتهم العسكرية والقمعية ضد الثوار اكثر من أي وقت مضى.

في هذا الجو افتتح المؤتمر في لندن في السابع من شباط / فبراير ١٩٣٩ وشاركت فيه مصر والعراق والسعودية وشرق الأردن واليمن، وسط الشعور بأن بريطانيا توشك على التخلي عن سياسة الوطن القومي اليهودي بالنظر الى الضرورة الاستراتيجية لتحالف بريطانيا مع العرب ومصادقتها إياهم، مما جعل اليهود يحولون انظارهم الى الولايات المتحدة. كما بدأ العرب يعتبرون الولايات المتحدة عدوا لهم.

طرحت بريطانيا على المؤتمر اقتراحات تنطوي على «انهاء الانتداب، وعقد مؤتمر مائدة مستديرة في خريف سنة ١٩٣٩ يوضع خلاله دستور دولة فلسطين المستقلة تحت الحماية البريطانية» و«على ان تتمتع الأقلية اليهودية فيها بحماية وعدة ضمانات» و«ان ليس في نية بريطانيا ان تقيم دولة عربية ولا دولة يهودية».

وطالب العرب ان يبدأ تنفيذ هذه المقترحات فورا وان لا تؤجل الى الخريف. أما اليهود فرفضوا المقترحات. وعندما نشرت اخبار هذه المقترحات في صحف مصر قام بعض العرب في فلسطين بمظاهرات ابتهاج عفوية واعتبروا صدورها انتصارا للثورة، وأمر بعض قادة الثورة في لواء الجليل «بوقف العمليات العسكرية موقتا». وفي الوقت ذاته شن الصهيونيون هجمات بالقنابل الموقوتة في عدة انحاء في البلاد قتلت وجرحت المئات.

وفي النهاية قالت الحكومة البريطانية: «بما ان المؤتمر لم يتمكن من الوصول الى حل يوافق عليه العرب واليهود فان بريطانيا ستعلن من جانبها حلا منفردا يفرض على العرب واليهود».

الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩

بعد فشل مؤتمر لندن في الوصول الى حل «يتفق عليه العرب واليهود» أعلنت بريطانيا الحل الذي تراه من جانبها. فأصدرت في ١٧ أيار / مايو ١٩٣٩ بيانا بشأن سياستها في فلسطين عرف بالكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩، تضمن النقاط الأساسية التالية:

١ ــ فيما يتعلق بموضوع الاستقلال وهو مطلب العرب الرئيسي:

أ ــ «ليس من سياسة بريطانيا ان تصبح فلسطين دولة يهودية، ولا ان تتحول فلسطين الى دولة عربية».

ب ــ «ان الهدف الذي ترمي اليه حكومة جلالته هو أن تقيم في غضون عشرة أعوام حكومة فلسطينية مستقلة ترتبط ببريطانيا بمعاهدة تصون على نحو مرض جميع المصالح التجارية والحربية لكلا البلدين».

ج ــ «يجب ان تكون الدولة المستقلة دولة يساهم العرب واليهود في حكومتها على وجه يضمن صيانة المصالح الأساسية لكلا الفريقين».

د ــ «يكون تشكيل الدولة المستقلة مسبوقا بفترة انتقال تحتفظ حكومة جلالته

خلالها بمسؤولية حكم البلاد. وفي اثناء فترة الانتقال يعطى أهل فلسطين نصيبا متزايدا في حكومة بلادهم، وسيتاح لكلا فريقي السكان فرصة للاشتراك في ادارة الحكومة، وسيتم السير في هذه العملية سواء اغتنم كلا الفريقين هذه الفرصة أم لا».

٢ ــ فيما يتعلق بموضوع الهجرة اليهودية:

أ ــ «ان ادارة فلسطين مكلفة بمقتضى المادة السادسة من صك الانتداب بتسهيل هجرة اليهود في أحوال ملائمة، مع ضمان عدم الحاق الضرر بحقوق ووضع جميع فئات السكان الأخرى.. لذلك قررت حكومة جلالته بعد انعام النظر والتدقيق، وبعد اعتبار المدى الذي سُهِّل فيه نمو الوطن القومي خلال السنوات العشرين الماضية، انه قد حان الوقت للأخذ من حيث المبدأ بسياسة: ان تسمح بزيادة توسع الوطن القومي عن طريق الهجرة اذا كان العرب على استعداد للقبول بتلك الهجرة، ولكن ليس بدون ذلك».

ب ــ «ان حكومة جلالته لا تقبل باقتراح وقف كل هجرة أخرى الى فلسطين في الحال لأن ذلك من شأنه ان يلحق الضرر بمصالح العرب واليهود على السواء. ثم انه ليس من الانصاف للوطن القومي اليهودي وقف كل هجرة اخرى وقفا فجائيا. وفضلا عن ذلك فان حكومة جلالته تُلمُّ بالمحنة القاسية التي يعانيها الآن عدد كبير من اليهود».

ج ــ «يسمح في كل سنة من السنوات الخمس التالية بدخول حصة من المهاجرين اليهود لا تتجاوز عشرة آلاف شخص. وكل نقص في أية سنة يمكن ان يضاف الى حصص السنوات التالية».

د ــ «بالاضافة الى ذلك ومن قبيل المساهمة في حل مشكلة اللاجئين اليهود، يسمح بدخول خمسة وعشرين ألف لاجىء الى البلاد».

هـ ــ «لدى انقضاء السنوات الخمس المشار اليها لا يسمح بهجرة يهودية اخرى الا اذا كان عرب فلسطين على استعداد للقبول بها».

٣ ــ فيما يتعلق بموضوع الأراضي:

أ ــ «ان المادة السادسة من صك الانتداب تقضي بأن على ادارة فلسطين تسهيل حشد اليهود في الاراضي مع ضمان عدم الحاق الضرر بحقوق ووضع جميع الفئات الأخرى. ولم يفرض حتى الآن أي قيد على انتقال الأراضي من العرب الى اليهود. وقد دلت التقارير التي وضعتها مختلف لجان الخبراء، على انه بالنظر لنمو عدد السكان العرب الطبيعي

واستمرار بيع الأراضي من العرب الى اليهود في السنوات الأخيرة، **لا يوجد الان في بعض المناطق اي مجال لانتقال الاراضي من العرب الى اليهود. في حين انه لا بد من وضع القيود على انتقال الاراضي من العرب الى اليهود في بعض المناطق الأخرى**».

ب ــ «ستنصرف سياسة الحكومة الى اعمار الاراضي، وتحسين الأساليب الزراعية حيثما يكون ذلك ممكنا. وفي ضوء هذا العمران **سيباح للمندوب السامي بأن يعيد النظر** في أية أوامر أصدرها بمنع انتقال الأراضي أو تقييده وتعديل تلك الأوامر».

رفض الكتاب الأبيض

اعلن اليهود استياءهم وعداءهم لسياسة الكتاب الأبيض. كما أعلنوا عزمهم على محاربة هذه السياسة ومقاومتها حتى النهاية. وبدأوا يتجهون الى الولايات المتحدة الاميركية لتولي دور بريطانيا كحامية للمخططات الصهيونية الرامية الى اقامة دولة يهودية في فلسطين.

أما العرب فوجدوا ان الكتاب الأبيض لا يقر لهم بحقهم في الاستقلال ووقف الهجرة اليهودية ومنع انتقال الاراضي لليهود، وان نصوص الكتاب الأبيض غير حاسمة، وهي على شكل وعود بعيدة الأجل يمكن الرجوع عنها بعد انتهاء الحرب المتوقعة.

وعلى الرغم من الخلافات أصدرت اللجنة العربية العليا بيانا رحبت فيه باعتراف بريطانيا بحقوق العرب من حيث المبدأ، ولكنها أعربت عن أسفها «لتخلف بريطانيا عن منح الفلسطينيين استقلالهم الذي هو أقدس حقوق الشعوب وأثمن مطامحها». وحتى هذا الاستقلال المؤجل خاضع لحق اليهود في نقضه، حيث يتوقف تنفيذه على تعاونهم. وأشارت اللجنة الى ان العرب فضلا عن ذلك لا يثقون بنيات الحكومة البريطانية «فما دامت السلطة ليست في أيدي أهل البلاد، فليس هناك ما يحول دون استخدام الوسائل التي درج الاستعمار على انتهاجها». واختتمت اللجنة بيانها برفض الكتاب الأبيض بوصفه لا يحقق مطالب العرب التي تتلخص في «ان تظفر فلسطين باستقلالها ضمن اتحاد فيدرالي عربي وتبقى عربية الى الأبد».

أثر صدور الكتاب الأبيض

أثار صدور الكتاب الأبيض خلافات عربية وفلسطينية. فالأمير عبد الله وحزب الدفاع وافقا على السياسة البريطانية الجديدة*. ووقعت خلافات داخل اللجنة العربية العليا، الأمر الذي كانت له آثار سلبية على الثورة. وكانت أكثرية عرب فلسطين لا تثق بنيات الحكومة

* الدكتور عبد الوهاب الكيالي، «تاريخ فلسطين الحديث» (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥)، ص ٣٥٧. ورسالة مكمايكل الى مكدونالد ١٩٣٩/٥/٣١.

البريطانية، لذلك تعذر عليهم قبول سياستها. وعلى الرغم من الضيق الذي كانوا يعانونه، نادوا باستمرار الثورة وبعثها من جديد. ومما لا شك فيه ان اعلان سياسة الكتاب الأبيض أضاف عاملا جديدا الى العوامل التي سبق ذكرها في إضعاف الثورة. وما ان أعلنت الحرب العالمية الثانية في ١٩٣٩/٩/١ حتى أصبحت الثورة تسير نحو الاضمحلال.

تعليق وملاحظات

١ ـ كان رأيي وموقفي ورأي قادة الثورة وفي مقدمتهم الحاج أمين الحسيني سنة ١٩٣٩ رفض الكتاب الأبيض. وقد مضى على ذلك الآن نحو نصف قرن راجعت فيه هذا الموقف مرارا. ولا ازال اعتقد ان موقف الرفض كان صحيحا ومحقا على الرغم من قناعة ومجادلة البعض في ذلك، والقول انه كان علينا ان نقبل سياسة الكتاب الأبيض مع العمل على تطويرها. سقت بعضا من فقرات الكتاب الأبيض التي كانت تعترف لنا بالحق ظاهرا وتنكره علينا تنفيذا. وكان هذا هو الأسلوب السياسي المخادع الذي جربناه وعرفناه من بريطانيا وصرنا لا نثق بما تعلن وتقول لأن أفعالها كانت تناقض أقوالها. مع الاشارة الى أن عرب فلسطين لم يقوموا بأي عمل يعرقل تنفيذ الكتاب الابيض، ومع ذلك فإن بريطانيا التي أعلنت تصميمها على تنفيذ هذه السياسة بغض النظر عن قبول العرب واليهود بها او رفضهم لها تراجعت عن تنفيذ الكتاب الأبيض وكأنه لم يكن وهذا ما كنا نتوقعه.

٢ ـ هناك سؤال عرضه علي كثيرون بصيغ مختلفة، فالبعض يسأل: هل فشلت ثورة فلسطين الكبرى؟ والبعض الآخر يقول: لماذا فشلت ثورة فلسطين؟.

وجوابي ان ثورة فلسطين حققت نجاحا كبيرا من حيث اعتبارها اعلانا واسعا وتعبيرا دمويا عن رفضنا للتنازل عن حقوقنا في وطننا ورفضنا لسياسة وعد بلفور واقامة الدولة اليهودية. وبرزت هذه الحقيقة المهمة على جميع المستويات. أما أننا لم نستطع ارغام بريطانيا على تغيير سياستها ومخططها الاستعماري الصهيوني، فحسبنا اننا حاولنا ذلك بكل ما نستطيع من قوة ضد قوة كبيرة عاتية، مما يحفظ لنا حقوقنا في وطننا ويكون حافزا للاجيال المقبلة للنضال من أجل الوصول الى هذه الحقوق.

٣ ـ كثيرا ما نوجه اللوم الى أنفسنا على اساس ان اخطاءنا وتقصيرنا أدت الى فشل الثورة. وأكرر القول ان ثورتنا لم تفشل مع انها لم تتمكن من تحقيق أهدافها الرئيسية. قدمنا آلاف الشهداء والضحايا واجبرنا بريطانيا على استخدام اكبر قادتها العسكريين وأحدث أسلحتها وجيوشها البرية والجوية وعلى استدعاء الاحتياطي العام سنة ١٩٣٨، وأجبرناها على محاولة استرضاء العرب سنة ١٩٣٩. وأقر بأنه كانت لنا ولقيادتنا اخطاء، وأن شعبنا كان متخلفا قياسا بحضارة الأعداء. ولكنني أسجل أنه لم يكن هنالك تكافؤ في القوى وان قدرة العدو الكبيرة، وقدرة الاستعمار والصهيونية، كان لها أكبر الأثر فيما جرى. كما ان الأوضاع العربية

والظروف الدولية لم تكن في مصلحتنا.

٤ ـ يقول البعض ان قيادتنا ـ ويعنون الحاج أمين الحسيني ـ راهنت في الحرب على الحصان الخاسر بالوقوف الى جانب الألمان. وأرى انه كان من المحال على شعب فلسطين الذي قاتل ضد بريطانيا أربع سنوات ان يحمل السلاح الى جانبها في الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك فان معظم الدول العربية وقفت الى جانب بريطانيا وحلفائها واعلنت الحرب على دول المحور فماذا جنينا من ذلك؟ ربما كان خطأ المفتي ان يقف الى جانب المانيا النازية، وربما كان عليه ان يقف على الحياد. ولكن بريطانيا حاربته بشراسة فرفضت اشتراكه في مؤتمر لندن ولاحقته في كل مكان، وخصوصا بعد نشوب الحرب مما اضطره وكل ثوار فلسطين الى مغادرة لبنان ودمشق الى العراق ومنها الى ايران فالمانيا.

٥ ـ كانت الثورة الفلسطينية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) احدى معاركنا من أجل الحرية والاستقلال، ولم تكن الأخيرة وليس من السهل ان يحسم شعبنا الصراع ضد أعدائنا بسرعة. وقَدَرُنا ان نخوض المعارك الطويلة جيلا بعد جيل الى ان نصل الى حقوقنا كاملة.

* * *

وفي ختام هذه الحلقة اشير الى محاولة جرت بعد نشوب الحرب العالمية لاشعال الثورة من جديد، دعا اليها الحاج أمين الحسيني من بغداد. ثم حاول الألمان المساهمة في هذه المحاولة. لكن الظروف الموضوعية لم تساعد في ذلك ففشلت المحاولة.

١٩ فلسطين في أثناء الحرب العالمية الثانية

العرب في أثناء الحرب

فور نشوب الحرب العالمية الثانية في ١ ايلول / سبتمبر ١٩٣٩، وبعد دخول ايطاليا الحرب الى جانب المانيا، بدأنا في فلسطين نعيش اجواء الحرب. فالجيوش تحتشد من جميع انحاء الامبراطورية البريطانية: من انكلترا واستراليا وجنوب افريقيا ونيوزيلندا والهند. والمعسكرات والمستودعات الحربية تقام بسرعة وعلى نطاق واسع، وفرض نظام اطفاء الانوار (التعتيم)، كما جرت غارات جوية على ميناء حيفا وفتحت بريطانيا باب التطوع للفلسطينيين العرب في الجيش البريطاني، فتطوع نحو ثمانية آلاف رجل رغما عن انتقاد مواطنيهم الشديد، وسيق معظمهم الى الحرب في شمال افريقيا، وعهد للجيش العربي الاردني بحراسة المعسكرات في فلسطين وفي مصر.

ظهر الغلاء ونقصت الحاجات وأُقيمت دوائر التموين الذي اصبح يوزع بالبطاقات. وأُقيمت دوائر الصناعات الخفيفة، واتسعت فرص العمل والربح لكثير من الحرف مثل السواقين وصانعي الأحذية ومربي الخنازير وتجار السوق السوداء ومهربي البضائع من شرق الاردن التي سمح لها بحصة كبيرة من الاستيراد (كوتا).

اضافت اجواء الحرب هذه سببا جديدا مؤثرا الى اسباب توقف الثورة، وجعلت سنوات الحرب فترة هدوء. ولم نتمكن من جني اي كسب سياسي في اثنائها ولا سيما ان بريطانيا ظلت تعتبر جميع الهيئات القيادية العربية في فلسطين بما فيها اللجنة العربية العليا غير شرعية. وظل معظم قادة فلسطين منفيين او معتقلين. وظل الانكليز يحتفظون بآلاف الفلسطينيين في المعتقلات والسجون، كما استمروا في تجريد الفلسطينيين من السلاح.

حركة رشيد عالي الكيلاني

من ابرز أحداث الحرب في البلاد العربية حركة رشيد عالي الكيلاني واحتلال الانكليز العراق من جديد. كان الامير عبد الاله الوصي على العرش العراقي ونوري السعيد واعوانهما يعملون على تسخير العراق لمصالح بريطانيا وحلفائها الذين خرقوا المعاهدة العراقية ــ البريطانية

وانزلوا الجيوش في البصرة ومعسكر الحبانية وسن الدبان غربي بغداد، وجعلوا يتهيأون لاحتلال العراق والدخول الى ايران. فقام رشيد عالي الكيلاني وهو من اكبر قادة العراق الوطنيين بالاستيلاء على الحكم في ايار/مايو ١٩٤١، وفر الامير عبد الاله ونوري السعيد ومعهما الملك فيصل الثاني الى خارج البلاد. ونصب الشريف شرف وصيا على العرش. وحشد رشيد عالي الجيش العراقي بالقرب من ميناء البصرة وقاعدة الحبانية لمنع الجيش البريطاني من التقدم الى بغداد وسائر بلاد العراق. ولكن الجيش البريطاني صمم على تنفيذ خططه فعزز قاعدة الحبانية وسن الدبان الى الغرب من بغداد جوا، وساق قوات بريطانية من معسكراته قرب قناة السويس عبر فلسطين وشرق الاردن وزحفت نحو الحدود العراقية واستولت على بلدة الرطبة ثم تقدمت الى الحبانية.

ومما هو جدير بالذكر ان الانكليز حاولوا اشراك قوة حدود شرق الاردن وقوات البادية الاردنية معهم في الزحف على العراق. ولكن رجال هذه القوات رفضوا ذلك على الرغم من محاولات غلوب باشا الحثيثة لاقناعهم، مما أدى فيما بعد الى اعتقال عدد من ضباطهم.

ويجدر بالذكر ايضا ان الثوار الفلسطينيين الذين كانوا لاجئين في العراق حملوا السلاح وقاتلوا بقيادة عبد القادر الحسيني الى جانب الجيش العراقي، وكان من بينهم اخي صبحي وجميل بركات وخليل الجدع وعيسى الحمزة وجاد الله محمود الخطيب واحمد نسيبه والشاعر عبد الرحيم محمود وفؤاد نصار وعبد اللطيف القدومي وابو محمود الصفوري ومصطفى العصيري، وأبدوا بسالة فائقة في القتال فأوقفوا تقدم الجيش البريطاني بضعة أيام. وعندما انهارت المقاومة العراقية انسحبوا الى ايران. لكن السلطات الايرانية اعادتهم الى الحدود العراقية، فرجعوا الى بغداد وتجمعوا في بيت عبد القادر الحسيني. وكان الانكليز قضوا على حركة رشيد عالي واحتلوا بغداد واعادوا الملك فيصل الثاني والامير عبد الاله ونوري السعيد. وحاولت السلطات العراقية اعتقال الثوار الفلسطينيين، لكنها تراجعت عن ذلك بسبب تصميم الثوار على مقاومة الاعتقال بالسلاح. ثم جرت وساطات كانت نتيجتها نفي عبد القادر الحسيني ومعظم رجاله الى بلدة زاخو على الحدود التركية في اقصى شمال العراق. وبينما كانوا في زاخو جرى حادث اغتيال فخري النشاشيبي في بغداد، ففر ثمانية منهم بينهم اخي صبحي الى الحدود السورية مشيا ووصلوا الى دمشق بعد ان تعرضوا لمشقات وأهوال جسيمة، بل كادوا يتعرضون للهلاك.

أما من بقي من المنفيين في زاخو فقبض عليهم ونقلوا الى السجن في بغداد بمن فيهم القائد عبد القادر الحسيني. اما الذين وصلوا الى دمشق فسافر معظمهم الى حلب حيث التقوا عددا آخر من الثوار الفلسطينيين وتهيأوا للسفر الى المانيا عبر تركيا. لكن القوات الفرنسية ألقت القبض عليهم ثم سلمتهم الى السلطات البريطانية التي أحضرتهم الى فلسطين وأودعتهم معتقل المزرعة قرب عكا بعد ان حققت معهم في دائرة التحقيقات الجنائية

(C.I.D) بالقدس، الا انها لم تقدمهم إلى المحاكمة العسكرية لأن عفوا عاما عن ثوار فلسطين صدر في أوائل الحرب وشملهم.

إنشاء جامعة الدول العربية

من الأحداث المهمة التي جرت في اثناء الحرب قيام جامعة الدول العربية بموافقة بريطانيا وتشجيعها. وعقد المؤتمر التحضيري لقيامها في الاسكندرية في تشرين الأول / اكتوبر ١٩٤٤ وفي آذار / مارس ١٩٤٥ ولدت جامعة الدول العربية باشتراك مصر والعراق ولبنان والعربية السعودية وسوريا وشرق الاردن واليمن. ونصبت الجامعة العربية نفسها حامية للقضية الفلسطينية، وعلق كثير من الفلسطينيين الآمال على مساعدة الجامعة لهم في المستقبل.

أنا والحرب

أمضيت فترة الحرب معلما في الكلية الابراهيمية بالقدس التي صارت ثانوية كاملة فيها قسم داخلي كنت مسؤولا عنه. وفضلا عن ذلك كنت اقوم بنشاط مدرسي متعدد كالكشافة والرحلات المدرسية وحفلات السمر والاشراف على المكتبة، كما عكفت على المطالعة المكثفة فقرأت كل ما وقع في يدي من كتب الصوفية والتاريخ والأدب العربي. ونشأت بيني وبين عدد من طلابي علاقات مودة متينة وتطلعات وطنية. وتبوأ طلاب الكلية الابراهيمية، في هذه المرحلة، بمساعدتي مركز القيادة في الحركة الطالبية في القدس، حيث كانت الاجتماعات الطالبية تعقد في الابراهيمية ويحضرها مندوبون عن معظم مدارس القدس الثانوية، خصوصا عندما تتخذ الترتيبات للقيام بمظاهرات طالبية.

تابعت اخبار الحرب بشغف واهتمام فكنت استمع الى جميع محطات الاذاعة وخاصة (هنا برلين) ومذيعها الشهير يونس بحري واذاعة لندن واذاعة باري الايطالية. وتابعت سير الحرب على خريطة اثبت عليها الجبهات ومواقع الجيوش بالخيوط والدبابيس التي تتغير تبعا لمجرى العمليات العسكرية.

كانت عواطفي مع الالمان وضد انكلترا وحلفائها على قاعدة (عدو عدوك صاحبك)، مع ان والدي رحمه الله كان يقول لنا انتم مخطئون، انتم لا تعرفون الألمان، إذا انتصر الألمان ستقاسون منهم الأمرين. نحن جربناهم وعرفناهم في الحرب العالمية الأولى، حيث كانوا حلفاءنا، حلفاء الدولة العثمانية، كانوا متغطرسين ومستبدين يظهرون لنا الاحتقار.

ومن ذكرياتي في الحرب انني تطوعت في تشكيلات الدفاع المدني في القدس، وتلقيت محاضرات رصينة في واجبات الدفاع المدني إزاء الغارات الجوية ومعلومات عن انواع القنابل الشديدة الانفجار التي تلقيها الطائرات وفاعلية هذه القنابل وكيفية الوقاية من اخطارها. كان

احد المحاضرين خبيرا بريطانيا ممن شهدوا الغارات الجوية الالمانية الشديدة على لندن. ومع ان القدس لم تتعرض لغارات جوية او عمليات عسكرية في اثناء الحرب فلم نمارس واجبات الدفاع المدني فعليا، الا انني شعرت بأنني اكتسبت معلومات جيدة وخبرة مفيدة.

منظمة الحرية في أثناء الحرب

سبق ان قلت ان سنوات الحرب العالمية الثانية كانت فترة هدوء وترقب بالنسبة إلى عرب فلسطين حيث اقتصر النشاط الوطني على مقاطعة التجار اليهود والبضائع اليهودية، ومقاومة السمسرة وبيع الاراضي والقيام بالمظاهرات في المناسبات المهمة مثل ذكرى وعد بلفور.

أما عن منظمتنا، فبعد صدور العفو العام عن احداث ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ والافراج عن بعض المعتقلين مثل رفيقنا ابو حمدي واخي صبحي وعودة البعض الآخر من العراق مثل رفيقنا حافظ بركات، وبالتعاون مع عدد من المناضلين الثوار مثل الشهيد صبحي بركات والمناضل عبد القادر ادكيدك وابراهيم جمجوم اعدنا تنظيم منظمة الحرية ونشاطها. مع العلم ان نشاطنا في اثناء سنوات الحرب وسنتي ١٩٤٦ و١٩٤٧ كان من نوع مختلف تركز على تدعيم مقاطعة العرب لليهود تجاريا ومقاومة السمسرة وبيع الاراضي لليهود. كما بذلنا جهدنا بالقدر المتواضع لشراء الأسلحة والعتاد من مالنا الخاص، وتخزينها على الرغم من القوانين الصارمة التي كانت تحكم بالاعدام على كل من يضبط لديه سلاح او عتاد. وفي كثير من الاحيان كنا نشتري السلاح والعتاد من البوليس البريطاني او من الجنود البريطانيين. وعلى سبيل المثال كان لنا صديق يقال له عبد لقاطة ودكانه قريب من مركز بوليس ميئه شعاريم وكان له زبائن كثيرون من رجال البوليس البريطاني يبيعونه مسدسات وذخائر وقنابل فيبيعها لنا. وحصلنا على مجموعة كراسات عن اسلحة الجيش البريطاني موضحة بالصور والرسوم، فكنا نعكف على دراستها بشغف فأفادتنا كثيرا حتى انني اصبحت اعرف كل شيء عن مدافع الهاون (المورتر) من عياري ٢ و٣ إنش، وعن استعمالها قبل ان نحصل على واحد منها. وتفاديا لأي وهم اكرر القول إن امكاناتنا المالية كانت محدودة لذلك كانت مشترياتنا محدودة.

وفيما يتعلق بالمقاطعة ومقاومة بيوع الاراضي، قمنا بجمع المعلومات الدقيقة عن الذين يتاجرون مع العدو او يسمسرون او يبيعون لـه فننذرهم بأسمائهم في نشرتنا التي سميناها (الحرية) والتي كنا نوزعها سرا وبطريقة لافتة للانظار في الوقت نفسه. فكنا نوزعها بواسطة عبوات متفجرة موقوتة خالية من اية شظايا فتنفجر العبوة في ساحة باب العمود مثلا او تكون مدلاة في سقف سوق العطارين او درج عمارة في شارع مأمن الله، ولدى انفجار العبوة تنثر عددا من المنشورات فيتزاحم المارة على التقاطها وقراءتها. وكل من يوجه له إنذار مرتين بواسطة النشرة ولا يرتدع كنا نعاقبه بوضع عبوة متفجرة في متجره او قرب منزله او ما شابه

ذلك، مع العلم اننا كنا ننذر صاحب الدكان قبل الانفجار ونخبره أننا وضعنا متفجرة في دكانه ونطلب منه ان يغادره، وبعد ان يغادره بدقائق قليلة تنفجر العبوة. ومن الطريف ان اشير الى ان الحزب العربي الفلسطيني ألّف في هذه الاثناء في القدس لجنة علنية للمقاطعة برئاسة المحامي سعد الدين العارف، كانت تعين مراقبين على مداخل الاسواق المؤدية الى اسواق اليهود يسوقون كل مخالف يقبضون عليه الى لجنة المقاطعة لتحاكمه. وكنا نحن نراقب هؤلاء المراقبين من دون ان يشعروا بذلك ونوجه الانذارات لكل من يسيء استعمال مركزه فيرتشي مثلا. وكانت سلطات الامن تصب جام غضبها على اللجنة العلنية كلما جرى انذار او تأديب، واللجنة لا تعرف بتاتا من الذي يقوم بالانذار او التأديب.

أما عن مقاومة السمسرة وبيوع الأراضي فكنا نقاوم ذلك بالسلاح، متعرضين في كثير من الاحيان الى مخاطر ومشقات جسيمة. ولا مجال للدخول في تفاصيل نشاطنا هذا ولكنني اشير الى اننا مارسنا بعض النشاط في مجال المقاطعة في مدينة يافا فضلا عن القدس، وان الشهيد ابراهيم ابو دية اتصل بنا بعد الحرب واستعار منا رشاش ستن وكان له نشاط مماثل لنشاطنا.

اشتهرت منظمة الحرية في مدينة القدس. وتصور البعض انها منظمة كبيرة تضاهي المنظمات الصهيونية التي كانت ناشطة في هذه الفترة نشاطا واسعا ضد البريطانيين وضد العرب في آن بشكل يثير المخاوف الكبيرة عند العرب. فكان نشاط منظمتنا المتواضع يحدث لدى شعبنا قليلا من الاطمئنان.

اليهود في اثناء الحرب

نشطت الحركة الصهيونية في اثناء الحرب في جميع المجالات للإفادة من ظروف الحرب على اوسع نطاق ممكن، واستطاعت ان تحقق نجاحات ومكاسب كبيرة منها:

النشاط العسكري

كانت علاقات اليهود مع بريطانيا في اثناء الحرب العالمية الثانية شبه مقطوعة. لكن ازدياد الخطر النازي وخصوصا زحف الالمان على شمالي افريقيا باتجاه مصر حسّن العلاقات بين الطرفين، باستثناء عصابة شتيرن. وجرى بين الفريقين تعاون عسكري واستخباري فتطوع نحو ٢٧ الف يهودي في الجيش البريطاني. وشن اليهود حملة عنيفة للمطالبة بانشاء فيلق يهودي يقاتل الى جانب الحلفاء كجيش يهودي قائم بذاته، الامر الذي عارضته بشدة ادارة الانتداب في فلسطين وبعض الجهات في بريطانيا، مما دعا اليهود الى اصدار حكم بالاعدام على المندوب السامي هارولد مكمايكل فعلقوا صوره في الشوارع وكتبوا عليها WANTED بخط بارز مع عبارات تدعو الى قتله. ثم قاموا بمحاولة جدية لاغتياله مع زوجته

بالقرب من القدس، فأطلقت النار على سيارته في ٨ آب / اغسطس ١٩٤٤ لكنه نجا بأعجوبة. ومما هو جدير بالذكر ان سلطات الانتداب لم تتخذ اي اجراء او عقوبات جماعية ضد مستعمرة غفعات شاؤول شبه العسكرية التي انطلق منها الكمين اليهودي ثم انسحب اليها تحت مرأى حرس موكب المندوب السامي. وفي الشهر التالي ايلول / سبتمبر ١٩٤٤ وافقت بريطانيا بزعامة تشرشل على انشاء الفيلق اليهودي الذي اشترك في معارك الحرب في ايطاليا، وعينت مندوبا ساميا جديدا في فلسطين.

من ناحية اخرى قام الخبير العسكري البريطاني وينغيت بتنظيم قوات يهودية في فلسطين وتدريبها على القيام بحرب عصابات سرية خلف خطوط الالمان، اذا ما سقطت فلسطين بأيديهم. وانشأ لهذه القوات مخازن اسلحة سرية في غاية الاتقان، كدس فيها كميات كبيرة من السلاح والعتاد. وكان تدريبها رفيع المستوى ومعظم رجالها من الهاغاناه.

نشاط الهجرة

كان نسف سياسة الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩ فيما يخص الهجرة هدفا اساسيا للحركة الصهيونية في اثناء الحرب وبعدها. ففي بداية الحرب حاول اليهود نسف هذه السياسة عن طريق الهجرة اليهودية الواسعة المهربة (غير الشرعية !) بحيث يتجاوز المهاجرون الأعداد التي حددها الكتاب الابيض. لكن ظروف الحرب لم تمكنهم من تهريب الاعداد المطلوبة فلجأوا الى عمليات مثيرة ابرزها وصول الباخرة باتريا سنة ١٩٤٠ وعلى متنها ٢٥٢ يهوديا مهربا الى ميناء حيفا، فاحتجزها الانكليز وبعد ان زودوها بما تحتاجه من مؤن وغيرها أمروا بعودتها الى قبرص ليستوعب ركابها في فلسطين فيما بعد. وبعد مغادرتها ميناء حيفا بقليل قام اليهود بعمل درامي اعلامي فنسفوا الباخرة وغرقت مع جميع ركابها. واستغلوا الحادث دعائيا ضد بريطانيا لكسب العطف العالمي. وفي شباط / فبراير ١٩٤٢ أقلعت الباخرة ستروما من ميناء في رومانيا وعلى متنها ٦٧٠ يهوديا مهربا فأغرقها رجال المنظمات الصهيونية في البحر الاسود وأحدث ذلك ضجة عالمية واتهمت بريطانيا بأنها تحول دون انقاذ اليهود من الاضطهاد النازي. وكان من نتائج هذه الحملة ان بريطانيا لم توقف الهجرة في الموعد الذي حدده الكتاب الابيض وهو نيسان / ابريل ١٩٤٤، بل سمحت باستمرارها. وفيما بعد شنت الولايات المتحدة حملة واسعة قادها الرئيس الاميركي نفسه لنقل ١٠٠ الف مهاجر يهودي الى فلسطين فورا.

النشاط الارهابي

على الرغم من ان الحكومة البريطانية وحكومة الانتداب على فلسطين والجيش البريطاني في فلسطين كانت تقدم للحركة الصهيونية في اثناء الحرب العالمية الثانية اقصى درجات الدعم العسكري، بموافقتها على تشكيل فيلق يهودي، وقيام الخبير العسكري وينغيت بانشاء مخازن سرية للسلاح وتدريب اليهود على حرب العصابات، فقد شنت الارغون، بعد انتهاء الحرب

العالمية الثانية في ٨ ايار/مايو ١٩٤٥، ومنظمة شتيرن حربا على القوات البريطانية في فلسطين. وثبت فيها بعد ان الهاغاناه كانت على اطلاع وتنسيق مع الارغون وشتيرن، وقامت معهما بعمليات عسكرية مشتركة، واحيانا انفردت الهاغاناه بعمليات عسكرية ضد البريطانيين في فلسطين وذلك من اجل الغاء ما جاء في الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩، ومن اجل انهاء الانتداب واقامة الدولة الصهيونية في فلسطين. وفيما يلي أبرز العمليات العسكرية الإرهابية الصهيونية:

١ـ في سنة ١٩٤٤ وقعت ٥ هجمات عسكرية قتل فيها ١٠ بريطانيين. وكانت أهم عمليتين في هذه السنة:

أ ـ محاولة اغتيال المندوب السامي البريطاني هارولد مكمايكل كما اشرت سابقا.

ب ـ اغتيال الوزير البريطاني للشرق الاوسط المقيم في القاهرة اللورد موين على يد عصابة شتيرن.

٢ ـ في سنة ١٩٤٥ وقعت ٤ هجمات قتل فيها ٧ بريطانيين و٦ يهود، وكانت اهم عملية هي قيام الهاغاناه بالتعاون مع الارغون وشتيرن يوم ٣١ تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٥، بنسف سكك حديد فلسطين وتخريبها في ٢٤٢ مكانا.

٣ ـ في سنة ١٩٤٦ وقع ١٣ هجوما قتل فيها ٢٨ بريطانيا من الجيش والبوليس وجرح ١٠ بريطانيين وخطف ٤ بريطانيين، ونسفت ٨ جسور رئيسية وقتل ٩١ مدنيا بريطانيا وعربيا. وكانت ابرز عمليات هذه السنة:

أ ـ قيام الهاغاناه ليلة ١٧ حزيران/يونيو ١٩٤٦ بنسف ٨ جسور رئيسية للسكك الحديد والطرق العامة بما فيها جميع الجسور على نهر الاردن التي تربط الاردن وسوريا بفلسطين.

ب ـ قيام الارغون ظهر ٢٢ تموز/يوليو ١٩٤٦ بنسف أحد أجنحة فندق الملك داود بالقدس الذي كانت تشغله السكرتارية العامة البريطانية وهي في منزلة حكومة فلسطين. وقتل في هذه الحادثة ٩١ مدنيا بريطانيا وعربيا.

٤ ـ في سنة ١٩٤٧ وقعت ١٠ هجمات قتل فيها ٣٠ بريطانيا و١٦ عربيا وجرح ١٠٠ شخص وخطف ٤ بريطانيين من رجال الاعمال ورئيس المحكمة المركزية البريطاني في تل أبيب، وكانت ابرز عمليات هذا العام:

أ ـ اختطاف رئيس المحكمة المركزية في تل ابيب يوم ٢٦ كانون الثاني/يناير ووضعه في صندوق واساءة معاملته، مما اعتبر اهانة بالغة للقضاء البريطاني وشرف بريطانيا.

ب ــ نسف رئاسة الادارة البريطانية للبوليس في حيفا بسيارة ملغومة يوم ١٢ كانون الثاني / يناير ومقتل ٢ من البوليس البريطاني و٢ من البوليس العرب وجرح أكثر من ١٠٠ شخص.

ج ــ إعدام جاويشين بريطانيين بتعليقهما على الشجر وشنقهما بالقرب من تل ابيب يوم ٣٠ تموز / يوليو ١٩٤٧ وتلغيم جثتيهما وانفجار الالغام في عدد من رجال البوليس البريطاني عند اكتشاف الجثتين.

النشاط السياسي

قام اليهود في اثناء الحرب بنشاط سياسي واسع للحصول على تأييد الولايات المتحدة للخطط الصهيونية وتبنيها إياها. وفي هذا النطاق سافر بن ــ غوريون الى الولايات المتحدة ممثلا للوكالة اليهودية حيث عقد في ايار / مايو ١٩٤٢ مؤتمر في فندق بلتيمور في نيويورك حضره قادة الصهيونيين في الولايات المتحدة وكانت اهم قرارات مؤتمر بلتيمور ما يلي:

١ ــ العمل على انشاء دولة يهودية في فلسطين بأكملها (كومنولث يهودي).

٢ ــ انشاء جيش يهودي.

٣ ــ اجلاء العرب عن فلسطين.

٤ ــ الهجوم على سياسة الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩، والعمل على الغائها، والهجوم ايضا على وعد بلفور نفسه لأنه لم يتضمن سوى وطن قومي لليهود في فلسطين.

وكان من نتائج النشاط السياسي الصهيوني ان الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة تنافسا في اثناء الانتخابات الاميركية صيف سنة ١٩٤٤ في المناداة بهجرة غير محدودة الى فلسطين وانشاء كومنولث يهودي في جميع فلسطين.

وفي كانون الثاني / يناير ١٩٤٥ قرر مجلس النواب الاميركي ان الولايات المتحدة «ستدعم هجرة غير محدودة الى فلسطين من اجل انشاء كومنولث يهودي».

ومن المعروف ان الرئيس روزفلت عندما قابل الملك عبد العزيز بن سعود في شباط / فبراير ١٩٤٥ بحث معه طلب اليهود اقامة مستعمرات يهودية في ضواحي المدينة المنورة لقاء مبلغ من الذهب فرفض الملك عبد العزيز ذلك*.

كذلك قرر حزب العمال البريطاني في أيار / مايو ١٩٤٤ «تشجيع العرب على الرحيل عن فلسطين ليفسحوا في المجال امام المهاجرين اليهود».

واستطاع اليهود في النهاية حمل بريطانيا على اتخاذ قرار بانهاء الانتداب على فلسطين واعادة القضية الى الامم المتحدة.

---

* وثائق الحرب العالمية الثانية التي نشرتها اميركا سنة ١٩٦٥.

مع نهاية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ تكاملت حلقات المؤامرة الاستعمارية ـ الصهيونية على فلسطين، واكملت بريطانيا ما تعهدت به للصهيونيين أو كادت، وحان موعد تنفيذ الفصل الأخير باقامة دولة صهيونية على أرض فلسطين.

احتل الانكليز فلسطين سنة ١٩١٨، وعدد اليهود فيها نحو ٥٠ الف نسمة وغادروها سنة ١٩٤٨ وعدد اليهود الرسمي يزيد على ٧٠٠ الف نسمة. احتلوها وليس لليهود فيها جندي واحد وغادروها ولليهود فيها نحو ٦٠ الف مسلح، وثلاثة مصانع للاسلحة ومخابىء سرية ومخازن كبيرة للاسلحة، ومئات بل آلاف السيارات المصفحة، وطائرات تجوب سماء فلسطين وتقصف المدن والقرى العربية قبل مغادرة الجيش البريطاني بأكثر من شهر.

دخل الانكليز فلسطين وليس لليهود فيها تنظيم شعبي او هيئة قيادية، وغادروها ولليهود فيها حكومة قائمة في ظل حكومة الانتداب. فالوكالة اليهودية التي أعدت منذ البداية لتكون حكومة المستقبل استكملت جميع مقومات الحكومة بدوائرها وجيشها، ولم يبق امام قيام الدولة سوى تسليمها الارض والسلطة. واليهود يطالبون بريطانيا بإنهاء الانتداب ويقاتلون الجيش البريطاني في فلسطين. والانكليز يستعدون لانهاء الانتداب، والولايات المتحدة تستحثهم الانجاز وتقدم جميع ما يتطلب الامر من دعم مالي وعسكري وسياسي.

وتتسارع النشاطات وتتكاثف خلال سنتي ١٩٤٦ و١٩٤٧.

أميركا تحتضن الحركة الصهيونية منذ البداية

تطلعات الولايات المتحدة الاستعمارية الى البلاد العربية قديمة. وحين أُعلن وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٧ استشارت بريطانيا الرئيس ولسون واطلع على نص التصريح ووافق عليه، وقال في بيان للشعب الاميركي: «أنا مقتنع ان دول الحلفاء بالاتفاق التام مع حكومتنا وشعبها اتفقت على إرساء كومنولث يهودي في فلسطين».

وذكر الكاتب اليهودي لندمان ان الولايات المتحدة لم توافق على دخول الحرب العالمية الا بعد صدور وعد بلفور.

كما وافقت الولايات المتحدة على صك الانتداب البريطاني على فلسطين الذي ينص على ضرورة اقامة «الوطن القومي اليهودي» في فلسطين.

وفي سنة ١٩٢٢ أعلن يهود أميركا انهم سوف يجمعون ١٨ مليون دولار لجمعيات الوطن القومي في فلسطين.

وفي ١١ ايار/مايو ١٩٤٢ عقد المؤتمر الصهيوني العالمي في فندق بلتيمور في نيويورك واتخذ قرارا بتحويل فلسطين الى دولة يهودية واجلاء العرب عنها. واسرع الرئيس الاميركي روزفلت واعلن تأييده لهذا القرار.

وفي سنة ١٩٤٤ تنافس المرشحان لرئاسة الجمهورية ديوي وروزفلت في تأييد القرار اليهودي لانشاء دولة يهودية في فلسطين.

انكلترا تشرك أميركا

في تنفيذ التهويد

اجرى حزب العمال الحاكم سنة ١٩٤٥ عدة اتصالات بالرئيس الاميركي ترومان لاشراك الولايات المتحدة رسميا في بحث قضية فلسطين، واتفق معه على ارسال لجنة مشتركة. واعلن المستر بيفن وزير الخارجية البريطانية انه تم التفاهم مع أميركا على تأليف هذه اللجنة وعلى صلاحياتها المتعلقة بالقضية الفلسطينية.

كما اعلن وزير الخارجية البريطانية هذا ان الهجرة الصهيونية الى فلسطين ستستمر خلافا لقرارات الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩ ونقضا لها.

وجاءت اللجنة الأنكلو ـ اميركية الى فلسطين والبلاد العربية، ثم أصدرت تقريرا يدعو إلى ادخال ١٠٠ ألف يهودي إلى فلسطين في الحال، وان يرجع الامر الى الامم المتحدة لعرض القضية الفلسطينية عليها. والى ان يتم ذلك توصي اللجنة بأن تتولى بريطانيا ادارة فلسطين.

وفي ١٤ آب/أغسطس ١٩٤٦ قدم الرئيس ترومان الى بريطانيا خطة لتقسيم فلسطين بموجب الحدود التي اقترحها اليهود في ٥ آب/أغسطس ١٩٤٦.

القضية الفلسطينية أمام الأمم المتحدة

في ٩ شباط/فبراير ١٩٤٧ عقد مؤتمر لندن بين المندوبين العرب واليهود والبريطانيين. ورفض كل من العرب واليهود مقترحات بيفن البريطانية. واستنادا الى ذلك وبتاريخ ١٨ شباط/فبراير ١٩٤٧ اعلن بيفن تسليم القضية الفلسطينية الى الامم المتحدة. وكان مجلس جامعة الدول العربية المنعقد في بلودان قرر ايضا انه اذا لم يتفق مع بريطانيا فسوف يرفع القضية الى الامم المتحدة. وكان ذلك متفقا مع توجيهات بريطانيا الى مجلس الجامعة بواسطة مندوبها كلايتون الذي كان يتمتع بنفوذ واسع على الدول العربية ومجلس الجامعة العربية.

وفي ٢٨ نيسان / إبريل ١٩٤٧ عقدت الامم المتحدة جلسة في مقرها في فيل ساكسيس بناء على طلب بريطانيا، وصاحب ذلك حملة صحفية أميركية تؤيد مطالب الصهيونية وتهاجم وفد عرب فلسطين.

واستمعت هيئة الامم المتحدة الى بن ـ غوريون رئيس الوكالة اليهودية والى وايتر ممثل يهود اميركا فطالب الاثنان باعلان قيام دولة يهودية في فلسطين. وانتهت مناقشات اللجنة السياسية الى قرار بتأليف لجنة للتحقيق في قضية فلسطين تشترك في عضويتها احدى عشرة دولة. وفيما بعد اقترحت اكثرية هذه اللجنة تقسيم فلسطين الى دولة يهودية ودولة عربية وتدويل القدس، بحيث تقوم الدولة اليهودية على ٥٦,٤٧ ٪ من مجموع اراضي فلسطين وتبلغ مساحتها ١٥,٢ مليون دونم يملك العرب منها ٣,٦ ملايين دونم ويملك اليهود ١,٣ مليون دونم، والباقي تملكه الحكومة وطوائف اخرى. وتشتمل هذه المنطقة المخصصة للدولة اليهودية على ٢٧٣ مدينة وقرية عربية يقيم فيها ٤٦٠ ألف عربي. اما الدولة العربية فتقوم على ٤٢,٨٨ ٪ من اراضي فلسطين وتكون منطقة القدس دولية تقوم على ٠,٦٥ ٪.

وفي ١٣ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٧ اعلنت بريطانيا انها قررت مغادرة فلسطين في ١٥ ايار / مايو ١٩٤٨. وفي ٢٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٧ جرى التصويت في الامم المتحدة ففاز الاقتراح بأغلبية ٣٣ صوتا ومعارضة ١٢ صوتا، وامتناع ١٠ أصوات. ومن المعروف للجميع ان الولايات المتحدة بذلت جهدا مكثفا في الضغوط على عدد من الدول التي تعارض القرار لحملها على التصويت الى جانب التقسيم، خصوصا مندوبي هاييتي وليبيريا وسيام. ولولا تهديد الولايات المتحدة لما تحولت هذه الدول من الرفض الى الموافقة وكان فشل اقتراح التقسيم الذي كان يتطلب موافقة ثلثي الاصوات.

رد الفعل العربي على قرار التقسيم

قوبل قرار التقسيم بالرفض الشامل من الجماهير الفلسطينية. واعلنت الهيئة العربية العليا رفض قرار التقسيم، ودعت الى اضراب شامل لمدة ثلاثة ايام من ٢ الى ٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩٤٧. وقامت في جميع فلسطين مظاهرات حاشدة غاضبة تنادي برفض اقامة دولة يهودية في فلسطين وتهتف بحياة فلسطين عربية حرة مستقلة، كما قامت مظاهرات مماثلة في مصر والشام والعراق وعمان ولبنان وفي عدن والبحرين والمغرب الاقصى.

وفي ٨ كانون الاول / ديسمبر ١٩٤٧ اجتمع مجلس الجامعة العربية في القاهرة بحضور رؤساء الحكومات العربية السبع، كما حضر الاجتماع مندوب عن الهيئة العربية العليا. وبعد مداولات استمرت نحو عشرة ايام قرر رؤساء الحكومات العربية وممثلوها ما يلي:

١ ـ انّ التقسيم باطل من أساسه.

٢ ــ اتخاذ التدابير الحازمة لاحباط مشروع التقسيم، ونصرة حق العرب.

٣ ــ الوقوف صفا واحدا بجانب شعوب الدول العربية في نضالها لدفع الظلم عن اخوانهم عرب فلسطين وتمكينهم من الدفاع عن انفسهم لتحقيق استقلال فلسطين ووحدتها.

وحضر الحاج امين الحسيني هذه الاجتماعات، واقترح الامين العام للجامعة عبد الرحمن عزام باشا تأليف ادارة محلية في فلسطين (حكومة) فوافقت مصر وسوريا والسعودية، واعترض العراق، ودعا الى ان يتولى الادارة القائد العسكري، وان المفتي لا يصلح لهذا العمل للاسباب التي ابداها العراق في مؤتمر عاليه.

واتخذت في هذه الاجتماعات قرارات سرية تتعلق بالإستعدادات العسكرية والاجراءات السياسية التي اقرت في مؤتمر بلودان وكان من بينها تأليف لجنة عسكرية برئاسة اللواء الركن اسماعيل صفوت باشا (عراقي) يساعده العقيد محمود الهندي (سوري) والمقدم شوكت شقير (لبناني) والرئيس وصفي التل (اردني) والعميد الركن طه باشا الهاشمي (عراقي) الذي انتدب مفتشا عاما للتدريب والتنظيم واصبح، فيما بعد، القائد الفعلي للجنة العسكرية. واتخذت اللجنة العسكرية دمشق مقرا لها. وكان اول عمل قامت به تشكيل جيش الانقاذ ودعت الشباب القادرين على حمل السلاح للتطوع في هذا الجيش، وعينت فوزي القاوقجي قائدا له.

وكان من القرارات السرية لجامعة الدول العربية رصد مبلغ مليون جنيه و ١٠٠٠٠ بندقية للجنة العسكرية وتجنيد ٣٠٠٠ متطوع بمن فيهم ٥٠٠ فلسطيني.

ويؤسفنا ان نقول ان الحكومات العربية التي كانت خاضعة للنفوذ البريطاني ولا تستطيع مخالفة خططها، لم تكن صادقة في رفضها قرار التقسيم، وانما اعلنت رفضها للاستهلاك المحلي. فهي غير قادرة على مواجهة الرأي العام الشعبي الرافض فعلا للتقسيم وقيام دولة يهودية صهيونية عنصرية توسعية على ارض فلسطين. وهناك الكثير من الادلة على ان معظم الحكومات العربية كانت موافقة على التقسيم بصورة غير رسمية ومتفاهمة على ذلك مع بريطانيا. لذلك لم تتحرك لمقاومة التقسيم بل للعمل على تنفيذه بالتنسيق مع بريطانيا، ومن هذه الادلة:

١ ــ عقدت جامعة الدول العربية اتفاقا سريا مع بريطانيا سمح بموجبه لجيش الانقاذ بالدخول الى فلسطين والتمركز في الاراضي المخصصة للعرب بموجب قرار التقسيم، على ان لا يقوم بأي نشاط عسكري في القسم المخصص للدولة اليهودية. والتزمت قيادة جيش الانقاذ بذلك حتى في الحالات التي كان يتعرض فيها سكان حيفا اويافا للذبح او الطرد على أيدي اليهود.

٢ ــ رفضت دول الجامعة واللجنة العسكرية الاقتراحات الفلسطينية بتسليح شعب

فلسطين وتزويده بالقادة والخبراء العسكريين ليتمكن من مواجهة اليهود. وجاء الرفض بناء على اعتراض بريطانيا.

٣ ــ كان تشكيل جيش الانقاذ في حد ذاته يرمي الى استيعاب الشباب العربي المتحمس للقتال وعسكرتهم والسيطرة عليهم بالضبط والربط العسكريين، وتحريكهم او تجميد حركتهم وفقا لمقتضيات تنفيذ التقسيم. حكمهم في ذلك كحكم الجيوش العربية النظامية التي برغم من شدة حماستها للقتال والموت ذودا عن عروبة فلسطين كانت مرغمة على التزام القرارات السياسية لحكوماتها. وادى ذلك في بعض الحالات ولو على نطاق ضيق، الى التسيب وفرار بعض ضباط جيش الانقاذ وجنوده ومحاولة الانضمام الى القوات الفلسطينية كجيش الجهاد المقدس. وكان تشكيل جيش الانقاذ مبررا لحجب السلاح عن شعب فلسطين ومقاتليه.

٤ ــ جرت مفاوضات بين رئيس وزراء شرق الاردن توفيق ابو الهدى وبريطانيا اتفق فيها على ضم القسم المخصص للعرب من فلسطين بموجب قرار التقسيم الى دولة شرق الاردن، وان لا يتعرض الجيش الاردني للاراضي المخصصة للدولة اليهودية. واشار الى هذا الاتفاق الجنرال غلوب في مذكراته، كما اشار الى ذلك البريغادير كلايتون في تقرير له الى السفير البريطاني في القاهرة بتاريخ ١٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩٤٧.

٥ ــ جرت مفاوضات بين مندوب الجنرال غلوب والهاغاناه في شهر شباط / فبراير ١٩٤٨ اتفق بموجبها ان لا يجري قتال بين الجيش العربي الاردني وبين الهاغاناه عندما يدخل الجيش العربي الاردني الى فلسطين بعد ١٥ ايار / مايو ١٩٤٨. واشترطت الهاغاناه لذلك ان لا يدخل الجيش العربي الاردني الى القدس. والتزم غلوب ذلك لخمسة ايام.

٦ ــ كان الجيش العراقي اقوى الجيوش العربية واكثرها قدرة وكفاءة ومؤلفا من فرقتين ومجموعتي ألوية أي نحو ٣٠ الف جندي. واستنادا الى عدة مراجع والى معرفتي الشخصية فان هذا الجيش بقي حتى العشرين من أيار / مايو ١٩٤٨، أي بعد انسحاب الجيش البريطاني من فلسطين بخمسة ايام، شرقي نهر الاردن ولم يعبر الى فلسطين. وكان يتحرك ببطء شديد، حتى أنه عندما توقف القتال في نهاية الشهر الأول والذي كان الشهر الحاسم الذي جرى فيه قتال عسكري، لم يكن عدد الجيش العراقي داخل فلسطين يزيد على لواء واحد انتشر على خط طويل. لذلك لحقت به هزائم واصيب بضربات قاسية في جنين وقاقون ورأس العين وغيرها. أما بقية الجيش العراقي فكانت معسكرة في الاتش فور والمفرق واربد والغور. أما تعليمات قادته فكانت تماما كتعليمات قادة الجيش الأردني.

٧ ــ كانت كمية الاسلحة والذخائر التي قدمتها جامعة الدول العربية للمقاتلين الفلسطينيين قليلة جدا وقديمة معظمها غير صالح للاستعمال. ونستطيع ان نقول بكل ألم

ان السلاح منع عن الشعب الفلسطيني وقوات الجهاد المقدس الفلسطينية خوفا من ان يعرقلوا تنفيذ قرار التقسيم.

بريطانيا والولايات المتحدة
تعدان العدة لاقامة الدولة اليهودية

سبق ان قلنا ان بريطانيا كانت تدرك في سنة ١٩٤٧، انها وفت بتعهداتها للصهيونية بموجب وعد بلفور، وان الدولة الصهيونية اصبحت قائمة بالفعل وقادرة على خدمة المصالح الاستعمارية الغربية وخططها في المشرق العربي. لذلك عملت على اشراك أميركا والامم المتحدة في مسؤولية قيام الدولة الصهيونية.

وفي ٨ كانون الاول / ديسمبر ١٩٤٧ اعلنت بريطانيا قرارها بانهاء الانتداب والانسحاب من فلسطين في يوم ١٥ أيار / مايو ١٩٤٨ لتحل فيها دولة يهودية ودولة فلسطينية. وفي ١٥ كانون الاول / ديسمبر سلم البريطانيون مهمات البوليس في تل ابيب وبيتح تكفا لليهود، وفي يافا للعرب. وفي كانون الثاني / يناير ١٩٤٨ باع الجيش البريطاني لليهود في فلسطين ٢٠ طائرة، وسرحت حكومة الانتداب قوة حدود شرق الاردن وعددها ٣٢٠٠ جندي مدرب معظمهم من العرب وجردتهم من اسلحتهم.

اما الولايات المتحدة فأعلنت في ٥ كانون الاول / ديسمبر ١٩٤٧ حظر شحن السلاح الى فلسطين والدول العربية. وفي ٣ كانون الثاني / يناير ١٩٤٨ شحن للهاغاناه من نيوجيرسي في الولايات المتحدة ٦٥ الف رطل من مادة ت.ن.ت. شديدة الانفجار. وفي اوائل شباط / فبراير ١٩٤٨ سمحت حكومة الولايات المتحدة للهاغاناه بافتتاح مكتب باسم (الارض والعمل) لتجنيد المتطوعين من العسكريين المحترفين. والخلاصة اصبح دور بريطانيا والولايات المتحدة بعد صدور قرار التقسيم، منع العرب من عرقلة التقسيم وضمان قيام الدولة اليهودية داخل فلسطين عن طريق مساعدة اليهود عسكريا بالسلاح والعتاد والتدخل العسكري والدفاع عن اية مستعمرة يمكن ان تسقط في أيدي العرب. وفي الوقت نفسه العمل على ترحيل العرب من المنطقة المخصصة للدولة اليهودية مثل طبريا وصفد وحيفا وعكا ويافا. اما دور أميركا فهو تزويد الدولة اليهودية بكل ما تحتاجه من السلاح والعتاد والمال والمتطوعين.

الصهيونيون يستعدون
لاقامة الدولة اليهودية

في اليوم التالي لصدور قرار التقسيم (٣٠ تشرين الثاني / نوفمبر) دعت الهاغاناه جميع اليهود في فلسطين من سن ١٧ ــ ٢٥ للتسجيل في الخدمة العسكرية. وخلال كانون الاول / ديسمبر ١٩٤٧ قام اليهود بما يلي:

١ ــ عقدت الهاغاناه مـع مصانـع سكودا في تشيكوسلوفاكيا اتفاقا لشراء مقادير كبيرة من السلاح والعتاد الحربـي.

٢ ــ اعتمدت الهاغاناه خطة (جيجل) أي السلسلة لشن عدة هجمات لزعزعة العرب وحملهم على الرحيل عن فلسطين، واحتلال المواقـع الاستراتيجية.

٣ ــ قررت الوكالة اليهودية جمـع ٢٥٠ مليون دولار من يهود أميركا للمجهود الحربـي الصهيوني في فلسطين.

٤ ــ أعلنت منظمة الارغون انها اجرت مباحثات مـع الهاغاناه من اجل اقامة جبهة موحدة.

٥ ــ في كانون الثاني / يناير ١٩٤٨ عقدت الهاغاناه مـع تشيكوسلوفاكيا صفقة لشراء اسلحة بمبلـغ ١٢,٢٨٠,٠٠٠ دولار تشتمل على ٢٤٥٠٠ بندقية و ٥٠٠٠ رشاش خفيف و ٢٠٠ رشاش متوسط و ٢٦ مدفعا، و ٢٥ طائرة و ٥٤ مليون طلقة. ووصل اكثر من نصف هذه الصفقة قبل انتهاء الانتداب.

٦ ــ في ١٤ شباط / فبراير ١٩٤٨ وصلت اول دفعة من المتطوعين الأجانب المحترفين وعددهم ٢٨٠ محترفا على ظهر الباخرة انديبندانس بصفة مهاجرين.

شاهد شعبنا العربي الفلسطيني بعينيه ولمس بيديه، وخاصة في الأربعينات، الاستعدادات العسكرية التي كان الصهيونيون يعدونها على مرأى من بريطانيا ومسمعها، بل وبمساعدتها الخطيرة. كما شاهد شعبنا، في الوقت نفسه، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية الفاعليات العسكرية والهجمات الارهابية الواسعة والخطيرة التي شنها الصهيونيون على الجيش البريطاني وعلى الاهالي العرب العزل. وتأكد لديه ان هذا النشاط العسكري الواسع سيتوجه قريبا بكليته الى صدور العرب بعد ان يسلم الانكليز البلاد للصهيونيين. ولذلك بدأنا نستعد لمواجهة المواقف على مستويات التنظيم والتسليح ضمن الامكانات المتاحة.

الاستعداد التنظيمي

سيطر علينا، منذ البداية، الاعتقاد بأن جيوش الدول العربية ستقف الى جانبنا. ولكن يجب ان نستعد لكي يكون لنا شأن في المعركة.

بدأ الشعب ينظم صفوفه فشكلت فرق النجادة شبه العسكرية بقيادة المحامي محمد نمر الهواري، وكان مركزها في يافا. وفيما بعد شُكلت فرق الفتوة. ولم يتح لهذه الفرق اكثر مما يتاح لفرق الكشافة المتجولين. إلا ان منتسبيها اعتبروا انفسهم مجندين وعلى استعداد لحمل السلاح عند نشوب القتال او بمجرد وصول السلاح الى ايديهم.

واشير هنا إلى انني التقيت قادة النجادة وكدت انتمي إلى حركتهم. لكن عندما وقع الخلاف بينهم وبين الحزب العربي الفلسطيني وشكل الحزب فرق الفتوة، شاركت في هذه الفرق وتسلمت فيها مركزا قياديا رئيسيا.

في هذا الوقت عاد الى فلسطين عدد من قادة الحزب اخص منهم بالذكر جمال الحسيني واميل الغوري، فعملوا على اعادة تنظيم الحزب وفتح مكاتبه خاصة مكتب القدس. ونشطوا في عقد الاجتماعات الشعبية واثارة الهمم استعدادا لمواجهة الخطر. فبادرت الى الانتساب إلى الحزب العربي الفلسطيني وشاركت في اجتماعاته الشعبية ودعوت الى الوحدة الوطنية والالتفاف حول الحزب لمواجهة الاخطار المحدقة بنا. وكنت اعتقد انه لا يمكن لشعب فلسطين ان يكوِّن تجمعا شعبيا كبيرا في هذه المرحلة الا بالانضمام للحزب العربي الفلسطيني والالتفاف حوله. فعلى الرغم من ان قادة هذا الحزب أُخرجوا من فلسطين سنة ١٩٣٧ بمن

فيهم الحاج امين الحسيني، واعتبرت حكومة الانتداب الحزب منحلا وغير شرعي، فقد ظل الحزب ورئيسه الحاج امين الحسيني يتمتعان بشعبية واسعة، وظلت الاغلبية الساحقة من شعبنا تعتبر الحزب والهيئة العربية العليا التي أعيد تشكيلها برئاسة الحاج امين الذي كان يقيم في هذه الفترة في القاهرة قيادته الوطنية. وفيما بعد عاد الى القدس عدد من اعضاء الهيئة العربية العليا وأخص بالذكر أحمد حلمي باشا وجمال الحسيني والدكتور حسين الخالدي.

من مآسي التسليح

حاول شعبنا في هذه المرحلة أن يتسلح بجهده الفردي. وهيهات ان يتمكن من ذلك تحت ظل الانتداب البريطاني والتقصير العربي. اذكر هنا شيئا من ذكرياتي الشخصية لأبين حقيقة المأساة. اذكر ان المناضل صبحي شاهين وهو من اهالي طبريا ويقيم عادة في حيفا، زارني في القدس واخبرني انه يخشى على طبريا وأهلها من خطر الصهيونيين الذين اصبحوا فيها اكثرية، وان الخطر يصل الى حد وقوع المذابح. لذلك قرر ان يسافر الى مصر وان يقابل الحاج أمين الحسيني ليحصل منه على مبلغ من المال لكي يسلح شباب طبريا. ولما عاد من مصر زارني ثانية واخبرني انه لم يحصل الا على ٢٠٠ جنيه. وقال ان هذا المبلغ لن يكفي لشيء مما هو مطلوب. فقلت: اذن ما العمل؟ قال: لدي خطة سأقوم بتنفيذها، فقد علمت ان لدى بعض اهالي قرية سلمة القريبة من يافا رشاش (سباندو) تشيكوسلوفاكي وهو متوسط وجيد جدا ومن الاسلحة التي اشتراها الصهيونيون حديثا ووصل الى ايدي اهل سلمة بعد وقوع اشتباك بين اليهود والانكليز قرب القرية، وتركه اليهود في ارض المعركة. سأذهب الى سلمة لاشتري هذا الرشاش وسأنقله الى حيفا في سيارة شحن أحملها بالبرتقال. وفي حيفا سأتعاون مع صديقي بشير طوقان في مهاجمة بنك يهودي. وبالأموال التي سنستولي عليها نسلح اهالي طبريا. وبعد فترة من الزمن وصلتني رسالة من صبحي وبشير من حيفا مرسلة في الاصل الى اخي صبحي ابو غربية، وكان صديقا لهما، يقولان فيها انهما في مأزق خطير ويطلبان من أخي صبحي القدوم الى حيفا والاتصال بشخص معين ليدله على مكان اختفائهما. وكان أخي صبحي مسافرا الى مصر. فذهبت الى حيفا وهناك عرفت انهما مختفيان في قرية إبطن القريبة من حيفا ويعملان في احدى ورش الابنية كعمال (طوبار). فذهبت الى إبطن واهتديت اليهما وقصا عليَّ قصة طويلة خلاصتها انهما قاما بمهاجمة بنك يهودي في حي هدار هكرمل. ولسوء حظهما صادف هجومهما وصول سيارات عسكرية بريطانية الى البنك، فتبادلوا اطلاق النار وفرا وفشلت المحاولة. ولكن البوليس استدل عليهما وأخذ يبحث عنهما. وان التعليمات صدرت للبوليس بالقبض عليهما حيَّين او ميتين. فاضطرا الى الهرب إلى لبنان وبعد أن اجتازا الحدود اكتشفهما الدرك اللبناني وطاردهما وتبادل معهما اطلاق النار فعادا الى

فلسطين. ولذلك طلبا مني ان اسهل هربهما الى مصر، فقمت بذلك بمساعدة بعض اعضاء تنظيمنا.

عبد القادر الحسيني يستعد

منذ أواخر سنة ١٩٤٦ كان القائد عبد القادر الحسيني في القاهرة. وكان وصل اليها بعد خروجه من سجون العراق. وهناك قام بنشاط دؤوب لشراء السلاح والذخائر والمتفجرات من البدو القاطنين في صحراء مصر الغربية وفي ليبيا وتخزينها سرا في القاهرة وضواحيها. وكانت هذه الأسلحة من مخلفات الحرب العالمية الثانية، ومن اصناف عديدة: انكليزي والماني وايطالي وأميركي، وكثير منها لا يصلح للاستعمال. ومع ذلك احتاجت إلى جهد مضنٍ بذله عبد القادر وعدد من مساعديه اذكر منهم عبد الرحمن علي شحدة اللفتاوي وهو مناضل مجرب لجعلها صالحة، كما ساعده بعض المصريين. ومهما يكن الأمر فان هذا السلاح القديم كان هو السلاح المتوفر.

اتصالي بعبد القادر الحسيني

سبق ان تحدثت عن توسيع منظمة الحرية وعن نشاطها في اثناء الحرب العالمية وبخاصة في سنتي ١٩٤٦ و١٩٤٧. وكنا نعتبر أو نشعر اننا المنظمة العسكرية الوحيدة في القدس المسؤولة عن مواجهة العدو عسكريا. لذلك اجرينا اتصالات سرية بالهيئة العربية العليا في القاهرة وبالقائد عبد القادر الحسيني والحاج امين الحسيني بالذات، قام بها في البداية اخي صبحي وحافظ بركات. ونسقنا خططنا معهما ونفذنا بعض القرارات أخص منها بالذكر تفجير عبوات ناسفة في ثلاث سفارات اجنبية من بينها سفارة الولايات المتحدة الأميركية التي ادخلنا اليها المتفجرات في وضح النهار، مع انها كانت محروسة جيدا. وكان للانفجار اثر مادي وأثر سياسي كبير.

وفي نيسان / ابريل ١٩٤٧ سافرت الى القاهرة واجتمعت إلى القائد الشهيد عبد القادر الحسيني، الذي كان يقوم بنشاط واسع فيتصل بالمناضلين المعروفين في مختلف انحاء فلسطين لاعادة تنظيم المقاتلين الثوريين في جيش الجهاد المقدس لمواجهة القوات الصهيونية عندما تتحول لقتالنا. ووضعت مع عبد القادر مخططا تنظيميا وتسليحيا لمدينة القدس. وحددنا بالارقام ما يحتاجه كل حي من احيائها من السلاح والعتاد. وسمينا قادة الاحياء التي ستتكفل منظمتنا بالدفاع عنها. وتعهد أبو موسى بأن يرسل الينا ما نحتاجه من السلاح على ان يتولى المناضل ابراهيم ابو دية الاشراف على نقله من مصر الى فلسطين. وتعهدت ان نوفر المخابىء اللازمة للسلاح وأن ننظم الرجال لحمله، على الرغم من ان قوانين الانكليز في فلسطين كانت تقضي باعدام كل من يضبط لديه سلاح أو ذخيرة.

لما عدت الى القدس بدأنا توسيع منظمتنا مستفيدين من النادي الاسلامي كحقل لاستقطاب الشباب. وتمكنت من تنظيم عدد من الشبان بمساعدة بعض اعضاء النادي الوطنيين المخلصين اذكر منهم حسين الكرد (ابو كاظم) وعلي الجعبري (ابو شمس) وادريس البكري. كما نظمت عددا من طلاب الصفوف الثانوية في الكلية الابراهيمية حيث كنت أُدَرِّس، اذكر منهم محسن الوظائفي ومحمد كامل الفقيه ووليد الاسدي وفوزي الطبري وابراهيم الطبجي وغيرهم. وجميع المذكورين حملوا السلاح فيما بعد وقاتلوا برجولة دفاعا عن تراب فلسطين، بعضهم في القدس وبعضهم في صفد وطبريا وغيرها. كما قام أخي صبحي وحافظ بركات ومحمد سعيد عارف بركات باستقطاب اعداد اخرى من الرجال فضلا عمن ذكرت. وقمنا بتدريب اعضاء التنظيم على استعمال السلاح خصوصا المسدس والبندقية والرشاش ستن والقنابل اليدوية، واعداد العبوات الناسفة وتفجيرها. كما تمكنا في هذه الفترة من شراء رشاش برن انكليزي وقمنا بالتدرب والتدريب على استعماله. وكان عدد من شبابنا يملكون اسلحة فردية اشتروها من مالهم الخاص. وكنا نعد الآخرين بأن امدادات السلاح ستصلنا وسنسلم كل واحد منهم قطعة أو أكثر من السلاح ليخفيها بمعرفته. كما أعددنا بعض المخابىء لاستقبال ما يزيد من السلاح عن حاجة الافراد. وذلك كله كان يجري بسرية تامة وبحذر شديد.

وفي تموز/ يوليو ١٩٤٧ نظمت رحلة مدرسية لا زال كثير من طلابي يذكرونها سموها (رحلة الوداع). كان الغرض منها تعميق حب الوطن في نفوس الشباب والاستعداد للتضحية في الدفاع عن ترابه. واستغرقت رحلتنا عدة ايام زرنا فيها على التوالي رام الله ونابلس وجنين والناصرة وطبريا وصفد وعكا وحيفا وطولكرم ويافا والرملة ومنها عدنا الى القدس. وشاركنا في هذه الرحلة عدد من اساتذة الكلية الابراهيمية اخص منهم بالذكر أخي المناضل الشهيد شفيق ابو غربية الذي كان داعية للعمل القومي، وله من بين طلاب المدرسة العامرية الثانوية بيافا مريدون آخرون نظمهم حين كان يدرس في العامرية قبل انتقاله إلى المدرسة الابراهيمية. وكنت واياه ننظم العديد من الرحلات للطلاب نجوب فيها القرى والجبال والسهول، ونزور مواقع المعارك التي اشتهرت في ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩. وكانت لنا رحلة سنوية الى قبر الشهيد سعيد العاص في قرية الخضر التي استشهد بالقرب منها. وكنا نستغل هذه الرحلات لبث الروح الوطنية الثورية عند الشباب ونهيئهم نفسيا لحمل السلاح الذي ينتظر وصوله. ولسوء حظنا انتشر مرض الكوليرا في مصر صيف عام ١٩٤٧ الأمر الذي عرقل خطط المجاهد ابراهيم ابو دية لنقل السلاح من مصر الى فلسطين. ومضى الصيف وتبعه الخريف، واعلن قرار تقسيم فلسطين قبل ان تصل الى ايدينا قطعة سلاح واحدة من خارج فلسطين.

بدء القتال في القدس

ذكرت سابقا ان الهيئة العربية العليا، بعد صدور قرار التقسيم، دعت الى اضراب عام لمدة ثلاثة ايام (٢ و٣ و٤ كانون الاول/ ديسمبر ١٩٤٧) احتجاجا على قرار التقسيم واعلانا عن رفض العرب له. واستجاب الشعب العربي في فلسطين استجابة كاملة وقام باضراب شامل. وفي اليوم الثاني من ايام الاضراب سارت في مدينة القدس مظاهرة كبيرة جدا طافت معظم احياء المدينة من دون ان يقع خلالها او بسببها اي اصطدام مع الانكليز أو اليهود.

وفي اليوم الثالث اصطحبت مجموعة من الرجال الى الاودية الواقعة شرقي جبل الطور وامضينا النهار في التدريب على استعمال السلاح وتحضير العبوات الناسفة. وعند المساء عُدنا متجهين الى القدس، ولما وصلنا الى قمة جبل الطور واشرفنا على القدس رأينا حرائق مشتعلة واصوات عيارات نارية هنا وهناك. فاستغربنا ذلك وانزعجنا جدا لأن خططنا كانت تقوم على اساس تجنب الاصطدام مع العدو او القيام بأعمال عسكرية الى ان تصلنا الاسلحة والعتاد المنتظر وصولها من مصر. ولدى وصولنا الى القدس علمنا ان اصطدامات جرت بين العرب واليهود في سوق الشماع التجاري حيث شجع الانكليز البسطاء من الناس على اقتحام دكاكين اليهود وحرقها. كما قام اليهود باحراق سينما ركس العربية واطلقوا النار في اتجاه الاحياء العربية. وظننا ان هذه الأحداث عرضية، ولكن ثبت لنا فيما بعد انها جرت وفق خطة مدبرة نعتقد انه كان متفقا عليها بين اليهود والانكليز لاشعال نار القتال حالا قبل ان يستعد العرب، في الوقت الذي كان فيه اليهود على اتم الاستعداد للقتال. وتطبيقا لهذا المخطط قام اليهود في اليومين التاليين باطلاق النار بغزارة والقاء القنابل اليدوية من قواعدهم ومواقعهم في الحي اليهودي بالمدينة القديمة على بيوت العرب العزل المجاورين للحي. وكان لليهود في هذا الحي عدد كبير من رجال الهاغاناه والارغون النظاميين المسلحين. وأدت هذه العمليات الى قتل وجرح عدد من العرب. والأخطر من ذلك انها أدت الى بداية رحيل سكان البيوت العربية المجاورة للحي اليهودي. وكاد الرحيل ان يتخذ شكل الرحيل الجماعي الخطير. ووقف الانكليز حيال هذه التعديات موقف المتفرج. وهنا ارسلنا من يتصل بقادة احدى السرايا من الجيش العربي الاردني كانت معسكرة على جبل الطور لتتدخل بشكل يطمئن الناس ويوقف الرحيل، فاعتذر قادة السرية وقالوا انهم لا يستطيعون التدخل.

وهنا اضطررنا الى كشف منظمتنا السرية، وطلبنا من جميع المنتسبين حمل أسلحتهم علنا والتوجه عند حلول الظلام الى الاحياء المجاورة للحي اليهودي لمواجهة اليهود وتطمين السكان ومنع الرحيل. وعلى الرغم من خطر هذا الاجراء على تنظيمنا بسبب وجود الانكليز واحتمال اصطدامنا بهم، كان المردود جيدا حيث اطمأن الناس الى ان هناك قوة عربية مسلحة تحميهم. فعادوا الى منازلهم خصوصا بعد ان أقمنا في اليومين التاليين مواقع ثابتة للحراسة المسلحة ليلا ونهارا على طول خط المواجهة مع الحي اليهودي. واستوعب ذلك كافة امكاناتنا

وعرّض أماكن اخرى للخطر. وكان اليهود مصممين على توسيع الاشتباكات والعمليات العسكرية بسرعة لإيقاع الذعر والرعب مما يؤدي الى رحيل شامل واخلاء للمدينة. لذلك قاموا بعدة هجمات هنا وهناك في ضواحي القدس والقرى المجاورة لها وقتلوا وجرحوا العديد من العرب، كما قاموا بالقاء القنابل في بعض شوارع المدينة.

مواجهة الموقف

كانت معنويات العرب عالية ولم يفكروا في الرحيل، وقمنا بعدة اجراءات لتعزيز الثقة بالنفس وتعزيز الصمود، واخص بالذكر ما يلي:

١ ــ أكثرنا من الدوريات المسلحة في الاسواق والاحياء العربية المجاورة لليهود.

٢ ــ اصدرنا نشرة تدعو جميع الرجال القادرين على حمل السلاح الى التطوع وتسجيل اسمائهم في مركز للقيادة أقمناه في البلدة القديمة قرب الحرم الشريف. وبالفعل تقدمت اعداد كبيرة من الناس للتطوع ولكننا للاسف لم نكن نملك أسلحة نوزعها عليهم. فوعدناهم بوصول السلاح قريبا.

٣ ــ قام سكان كل حي من احياء المدينة بعقد اجتماع عام لتنظيم الصفوف واتخاذ الاجراءات اللازمة للصمود والدفاع. وانتخب سكان كل حي لجنة قومية لتنظيم الرجال وقيادتهم وتوفير مستلزمات الصمود. ففي حي باب الساهرة مثلا، الذي كنت اقيم فيه، اجتمع نحو مئة شخص في قاعة الكلية الابراهيمية واختاروا لجنة اذكر من اعضائها المحامي أنور نسيبة رئيسا للجنة، ومفتش المعارف شريف صبوح والدكتور امين مجج والدكتور سليم معتوق والشيخ حافظ صندوقة، وأخي نهاد ابو غربية. كما اختارني المجتمعون عضوا ومسؤولا عن الدفاع عن الحي عسكريا. ثم نظمت اللجنة اعمالها وشكلت لجانا فرعية للتمويل والتسليح والتموين والشؤون الاجتماعية والدفاع.

اللجنة القومية لمدينة القدس

تم تأليف لجنة قومية لمدينة القدس من مندوبي لجان الاحياء وهم: المحامي أنور نسيبة رئيسا والدكتور فوتي فريج والشيخ أسعد الامام وحنا عطا الله وتوفيق وفا الدجاني والحاج طاهر بركات والمحامي تحسين كمال والاستاذ شريف صبوح وصالح عبده والحاج فوزي الخياط والحاج عيد عابدين وجميل وهبه ويوسف عبده ووديع صلاح. وكانت هذه اللجنة تتعاون مع أعضاء الهيئة العربية العليا المقيمين في القدس.

من خلال هذه الترتيبات عملنا على تنفيذ خططنا المتفق عليها مع القائد عبد القادر الحسيني فيما يتعلق بتسمية قادة الاحياء العسكريين. وبما أننا حملنا سلاحنا علنا قبل تأليف

هذه اللجان وتقدمنا للدفاع عن الاحياء اختارتنا اللجان لقيادتها عسكريا. وعلى ذلك سمي قادة الاحياء العسكريون على النحو التالي: محمود جميل الحسيني قائدا لحي الشيخ جراح وحي وادي الجوز، بهجت ابو غربية قائدا لحي باب الساهرة وجزء من حي الشيخ جراح، وصبحي ابو غربية قائدا لحي المصرارة وسعد وسعيد، ومحمد سعيد عارف بركات قائدا للبلدة القديمة (نقل فيها بعد إلى حي الثوري) وحافظ بركات قائدا لحي الثوري (نقل فيها بعد للبلدة القديمة) وصبحي بركات قائدا لحي النبي داود وأبو ابراهيم أبو ناب قائدا لمنطقة شارع مأمن الله وشفيق عويس قائدا لحي القطمون والبقعة. وفيها بعد استشهد محمود جميل الحسيني وحل محله محمد عادل النجار، وأصيب أخي صبحي بجروح خطرة فتوليت قيادة منطقة المصرارة وسعد وسعيد فضلا عن حي باب الساهرة وجاء ابراهيم ابو دية لقيادة حي القطمون.

وقد جرت ترتيبات مماثلة في جميع مدن فلسطين وبخاصة المدن المعرضة للخطر. كما جرت دراسات للخطة العامة التي يجب ان يقوم عليها الدفاع عن البلاد ضد اقامة الدولة اليهودية المقررة في قرار التقسيم وضد امكانات التوسع الصهيوني المتوقع. وكانت اغلب الآراء متفقة على ضرورة تنظيم شعب فلسطين وتسليحه على نطاق واسع وتزويده بالضباط والخبراء العسكريين ليكون الاعتماد عليه في مواجهة الاعداء، وليس على جيوش الدول العربية. ولكن الانكليز عارضوا ذلك وسايرتهم جامعة الدول العربية على أساس أن تدخل جيوش الدول العربية إلى فلسطين بعد انسحاب الانكليز منها.

بعد ان استقر الوضع نسبيا في جبهة الحي اليهودي داخل البلدة القديمة تفرغت جزئيا لتنظيم الدفاع عن منطقتي الخاصة شمالي القدس ــ حي باب الساهرة وما جاوره ــ متخذا موقف الدفاع المتحرك، لاننا كنا نعاني نقصا في الاسلحة والذخائر بعكس العدو المتحفز للاستيلاء على جميع القدس. وكنت استلمت ١٢ بندقية وكمية من الـ(T.N.T.) وصلتنا من مصر بالاضافة الى الاسلحة الخاصة بمنظمتي وأربع بنادق قدمتها لي دائرة الاوقاف لحراسة بناياتها الواقعة في منطقتي. ثم ألفت ثلاثة تشكيلات من المقاتلين:

أ ــ **قوة الحراسة**: وتألفت من نحو ٣٦ مقاتلا متفرغا يقومون بحراسات دائمة منتظمة في مواقع ثابتة على خط المواجهة.

ب ــ **القوة المتحركة**: وتألفت في البداية من ٨ مقاتلين وهي قوة متفرغة لا تقوم بأعمال الحراسات، بل تكون جاهزة دائما في مقر القيادة للقيام بأعمال النجدة أو المناوشة أو التعرض. وقد سلحتها فيما بعد برشاش براوننغ ورشاش برن، ومدفع هاون عيار ٢ انش.

ج ــ **القوة الاحتياطية**: تتألف من نحو ١٧٠ شابا من سكان الحي غير المتفرغين، مقسمة الى ١٤ مجموعة. تداوم كل مجموعتين منها (٢٤ رجلا) ليلة في الاسبوع حيث تتدرب وتشارك في اعمال الدورية داخل الحي وتعزز مواقع الحراسة الثابتة عند اللزوم. وفي البداية لم يكن لدي اسلحة لهذه القوة فكان الاعتماد على اسلحتهم الخاصة. ثم تمكنا من توفير بعض الاسلحة ليحملها الفريق المناوب، ولو انه توافرت لي اسلحة لجميع افراد هذه القوات لتحولت من موقف الدفاع الى موقف الهجوم.

كان علي منذ البداية ان اختار مواقع للحراسات على اطراف الحي أُقيمت فيها استحكامات ثابتة، وقد اخترت عن عمد مواقع متقدمة جدا لتجبر العدو على اخلاء منطقة حرام على حسابه. كما كان علي ان اكون حذرا من الدوريات البريطانية التي تمنعنا من حمل السلاح وتصادر ما يمكنها مصادرته وتعتقل من تستطيع اعتقاله. وكانت قوة الحراسة ايضا تتبادل حمل السلاح ثلاث مرات يوميا بسبب عدم كفايته، وكانت نوبة الحراسة ٨ ساعات متواصلة لانه لم يكن باستطاعتنا تنظيم الحراسات في نوبات اقصر بسبب نقص السلاح وبسبب وجود الانكليز وحرصنا على عدم الظهور امامهم والاصطدام بهم.

تحملت، في هذه الفترة، بعض المسؤوليات في حي وادي الجوز وحي الشيخ جراح

حتى حضر قائد هذا القطاع الشهيد محمود جميل الحسيني لاستلام مهامه. اما اخي صبحي فلم يكن تفرغ بعد لاستلام قيادة حي المصرارة وحي سعد وسعيد المجاورين لمنطقتي لانشغاله بالمناوشات الجارية في جبهة الحي اليهودي بالبلدة القديمة.

الهجوم اليهودي الأول
على باب العمود

سبق ان ذكرت ان الهاغاناه وضعت منذ بدء القتال خطة «السلسلة» الرامية الى شن سلسلة من الهجمات على العرب لزعزعتهم وحملهم على الرحيل عن فلسطين. وفي هذا الاطار هاجمت الهاغاناه ساحة باب العمود يوم ١٩٤٧/١٢/١٣ فمرت سيارة بيك أب مسرعة ودحرجت براميل من المتفجرات وسط العرب ثم فرت وهي تطلق النار بشوارع حي باب الساهرة الى ان وصلت حي ميئه شعاريم. وكان الانفجار مروعا ادى الى قتل ٦ وجرح نحو ٢٠ عربيا مدنيا. وقد ازعجني جدا هذا الهجوم لانه اخترق منطقتي في الدخول والخروج ونجح في قتل العديد من العرب وجرح آخرين وسبب شيئا من الرعب.

الهجوم على باص يهودي

نظمنا، على سبيل الانتقام وحفظا لمعنويات الاهلين، هجوما في الصباح الباكر يوم ١٩٤٧/١٢/١٤ اشتركت فيه شخصيا واشترك معي محمود جميل الحسيني وعدد من الرجال بلغ مجموعنا ثمانية. وقفنا متباعدين صفا واحدا على جانب الطريق الذي يمر به باص يهودي الى مستشفى هداسا والجامعة العبرية عند عمارة الاوقاف. ومر الباص مبكرا وبدأ يتعرض لنيراننا واحدا بعد آخر. وترنح الباص وكاد ينقلب ثم توقف بعيدا عنا حيث لحقت به نجدة من رجال البوليس البريطاني حالت بيننا وبين الاجهاز على من فيه. وقد اعترف اليهود بقتل اثنين وجرح ٩ من الركاب.

إصابة اخي صبحي الخطرة

بينما كنت استطلع المنطقة المجاورة لحي ميئه شعاريم قرب عمارة مندلبوم لاختيار مواقع حصينة مشرفة على العدو، انفجر تراشق واسع بالنار في جبهة الحي اليهودي في البلدة القديمة، حيث اخذ اليهود منذ صباح ١٩٤٧/١٢/١٧ يطلقون النار بغزارة من مواقعهم في الحي على ساحة الحرم الشريف وعلى قرية سلوان وحي راس العمود، وعلى المنازل العربية المجاورة للحيّ اليهودي في الاحياء العربية بالبلدة القديمة وهي حي المغاربة وحوش الغزلان

وحوش الشاي وباب السلسلة وحارة الشرف والباشورة ودير السريان، وأوقعوا عدة اصابات بين العرب قتلى وجرحى.

كان أخي صبحي مع بعض رجاله ومنهم ابراهيم جمجوم يساعدون قائد الموقع حافظ بركات ورجاله على مواجهة الموقف. ولما اشتدت الرماية واستعمل اليهود الرشاشات وتأزم الموقف وحصل شيء من الذعر بين المدنيين العزل اضطر اخي صبحي الى اخراج رشاش البرن الوحيد لدينا من مخبئه، وهو رشاش كنا اشتريناه قبل نشوب القتال وأخفيناه. وراح صبحي يرد بالرشاش على نيران العدو وينقله من موقع الى موقع ليتمكن من السيطرة على نيران العدو وليوهمه أن لدينا اكثر من رشاش. وبدأ استعمال الرشاش من موقع مشرف على كنيس حي المغاربة. ثم نقله الى حي الشرف، ثم الى حي دير السريان. وبينما كان يصعد سلما على سطح منزل مجاور لدير السريان اصيب اصابة خطرة جدا في رأسه من موقع ملاصق للدير تبين فيما بعد أنه كان مقر قيادة عسكرية سرية في الحي اليهودي. واخترقت الرصاصة قمة رأسه وأطارت جزءا من دماغه، فوقع أرضا وحمله ابراهيم جمجوم وزملاؤه الى المستشفى الفرنسي فاقد الوعي بين الموت والحياة. ورفض طبيب المستشفى في البداية ان يجري له عملية باعتبار انه شبه ميت، وان العملية لا يمكن ان تنجح. في هذه الاثناء وبعد ان اقلقتني اصوات الاشتباكات دخلت الى البلدة القديمة لاستطلع الامر، ولما وصلت الى خط التماس التقيت حافظ بركات واعلمني باصابة صبحي وطلب مني وبعض اقاربي ان اذهب الى المستشفى الفرنسي حالا، فرفضت وقلت: ما دام صبحي نقل الى المستشفى فلا ضرورة لذهابي فان عاش عاش وان استشهد فهو ما نذرنا أرواحنا له، وعلينا ان نأخذ بثأره فورا. ونظمت هجوما على باص يهودي بالقرب من دير الارمن متوجه الى الحي اليهودي وأوقعنا عددا من الاصابات. وفيما بعد هدأ القتال وزرت أخي في المستشفى وكان في حالة خطر شديد لمدة اسبوع ثم بدأ يتحسن، ولكنه اصيب بفقدان كامل للذاكرة وشلل جزئي في لسانه وعينه. فخسرناه كمقاتل وقائد حتى نهاية القتال مع اننا كنا في امس الحاجة اليه والى امثاله، وسببت اصابته هزة نفسية في مدينة القدس.

أود هنا ان اوضح امرا؛ فقد انتشرت يومها شائعة ان صبحي اصيب وهو يحاول ان يرفع علما عربيا على كنيس في الحي اليهودي، وترتب على هذه الشائعة شعور بالاعجاب يقابله شعور أوسع بالانتقاد لأن ليس من الحكمة ولا من العسكرية ان يستشهد قائد في عمل عاطفي كرفع علم على كنيس. والواقع ان شيئا من ذلك لم يحصل وما ذكرته عن الاشتباك الذي اصيب فيه صبحي هو الواقع.

نشاط عسكري في

قطاع شمال القدس

بعد تنظيم قواتي واقامة مواقع للحراسة والدفاع، تسلمت دفعة ثانية من السلاح الذي كان أرسله عبد القادر الحسيني والحاج امين الحسيني مؤلفة من نحو ١٥ قطعة نصفها غير صالح للاستعمال. ولكن كان بينها رشاش براوننغ بحالة جيدة جدا وهو رشاش أميركي متوسط يرمي لمسافة ٣٠٠٠ متر بسرعة ٢٥٠ طلقة في الدقيقة. بعد ذلك كان علي ان اقوم بأربع مهمات ملحة:

أ ــ طرد اليهود من سكنة يمن موشي التي يسميها العرب مستعمرة ام هارون لانها تشكل نتوءا ضمن خطوطي يهدد بقطع مواصلات القدس مع حي الشيخ جراح على طريق رام الله ــ نابلس.

ب ــ أن أطرد اليهود من بناية دار الحلاق العربية التي كان اليهود يستأجرونها وكانت تشكل جيبا عسكريا ضمن خطوطي.

ج ــ ان اوقف سير قافلة البوتاس اليهودية التي تمر يوميا مخترقة حي باب الساهرة ترافقها حراسة مشددة من الجيش البريطاني.

د ــ ان اوقف او أعرقل مرور سيارات اليهود المتجهة الى منطقة مستشفى هداسا والجامعة العبرية التي تقع خلف خطوطنا.

ولذلك وفيما يتعلق بسكنة يمن موشى أقمت موقعا قرب جامع الشيخ جراح يقوم برماية قنص شبه متواصلة على مواصلات السكنة يعرقل اتصالها بالاحياء اليهودية المجاورة (بيت يسرائيل، وميئه شعاريم وسان هدريا)، وقد نجح القنص في ذلك الى حد بعيد وبدأ اليهود بالرحيل عن السكنة ثم قمنا بهجمات ليلية ننسف فيها بالمتفجرات بعض البيوت اليهودية الخالية القريبة من خطوطنا، مما أدى إلى رحيل جميع سكان هذه السكنة بحيث أصبحت منطقة حرام على حساب العدو.

أما جيب دار الحلاق فكانت متغلغلة ضمن خطوطي وسط منازل عربية منها بيت السيد حازم نسيبة الملاصق لها مباشرة. وكان اليهود يموهون بأنهم يستعملونها كعيادة للامراض النفسية. ولكنها في الواقع قلعة عسكرية متقدمة تهدد حي باب الساهرة ونقطة حراسة جيدة لتأمين مواصلاتهم بين الاحياء اليهودية الرئيسة ومستشفى هداسا والجامعة العبرية. وكانت نقطة الضعف أن طريق اتصالها مع حي بيت يسرائيل وحي ميئه شعاريم مكشوفة وواقعة تحت نيران مواقعنا. ولخطورة هذا الموقع نظمت هجوما بدأت به بنفسي، حيث ألقيت وسط النهار قنبلة يدوية على مدخل البيت ثم دخلت الى بيت السيد حازم نسيبة واشرفت على الموقع من احد شبابيكه. واستنجد اليهود بالانكليز الذين وصلوا بسرعة وخرج ثلاثة من اليهود

خارج المبنى بصحبة الانكليز. ولما لم ير الانكليز احدا غادروا المكان. وفي هذه اللحظة كان اليهود تحت نظري فأطلقت رشقات من رشاشي الالماني الشمايزر ثم انسحبت. ولما عاد الانكليز لم يستطيعوا ان يفعلوا شيئا لان اليهود لم يعرفوا من اين أطلقت عليهم النار. وعند المساء اقمت كمينا غربي البيت ليقطع مواصلات العدو مع حي بيت يسرائيل المجاور، ولم تكد تغرب الشمس حتى جاءت دورية يهودية من ثلاثة أشخاص لتعزيز الموقع فأطلق الكمين عليهم النار فردوا بالمثل ثم انسحبوا عائدين. وبعد منتصف الليل ألقينا على البيت عدة قنابل يظهر انها أقنعت من في البيت انهم يتعرضون لهجوم مميت. فاغتنموا حلكة الليل وأخلوا البيت. ومما هو جدير بالذكر ان الجيش العربي الاردني فيما بعد اتخذ من البيت نفسه قلعة في مواجهة اليهود لأهمية موقعه.

يعرف أهل القدس الكثير عن قافلة البوتاس ولكن غيرهم يجهلها. فعلى شاطىء البحر الميت بالقرب من مدينة اريحا توجد منشآت لشركة البوتاس الانكليزية اليهودية التي تحتكر استغلال مياه البحر الميت لاستخراج البوتاس وغيره من الاملاح والكيماويات الثمينة. وكانت اعداد من الشاحنات الخاصة الكبيرة يقودها سائقون يهود تنقل منتجات الشركة الى موانىء فلسطين، وتمر طريق القافلة وسط احياء وقرى عربية. لذلك كان الجيش البريطاني يحرس قوافل الشركة كلما تأزمت الاوضاع في البلاد. وجرى ذلك في اثناء ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ كما استؤنفت الحراسة في اواخر سنة ١٩٤٧. وكانت طريق القافلة تخترق حي باب الساهرة وسط البيوت العربية. وبعد ان فجر اليهود قنبلة باب العمود الاولى في ١٩٤٧/١٢/١٣ التي اشرت اليها سابقا، كنا نخشى ان يسيِّر اليهود سيارة ملغومة في آخر القافلة ويتركونها بعد مرورهم لتنفجر وتدمر ما تدمر من الحي.

كان من المحال ان اتمكن من اعتراض القافلة المحروسة بالمدرعات البريطانية المسلحة بالمدافع والرشاشات الثقيلة، ولذا لجأت الى المناوشة والمناورة. فرتبنا كمينا للقافلة وهي عائدة من أريحا. ولدى وصولها إلى الحي أطلق الكمين بضع رصاصات على سيارات اليهود، فرد الجيش بنيران غزيرة من الرشاشات فتوتر الجو كثيرا. واتصلت هاتفيا بضابط مخفر شرطة ميئه شعاريم الواقع قرب منطقتي وكان هذا الضابط متعاطفا مع العرب واسمه جننكز واخبرته انني سأمنع القافلة غدا صباحا من المرور بالحي، لأنني علمت ان اليهود سيتركون سيارة ملغومة داخله. وبدأنا نغلق مدخل الحي بحاجز من الحجارة قرب كنيسة المطران بحيث تلاحظه الشرطة الانكليزية. وبعد قليل اتصل بي جننكز واخبرني انه اتصل بقيادة الجيش وان القيادة تصر على مرور القافلة، ولكن سيسمح لي بتفتيشها فوافقت مبدئيا. وفي صباح اليوم التالي وصلت القافلة فأوقفتها عند مدخل الحي وفتشتها، ثم فتحنا ثغرة في الحاجز واخرجنا منها ما يشبه اللغم وسمحنا بمرورها. وفي المساء عادت القافلة واجتازت الحي من دون ان اتمكن من تفتيشها، فعاودت الاتصال بمخفر ميئه شعاريم واخبرت الضابط جننكز

اني لن اسمح بعد اليوم بمرور القافلة واني لغمت الطريق. وبعدها توقف سير القافلة حتى نهاية القتال سنة ١٩٤٩.

وفيما يتعلق بمجمع الجامعة العبرية ومستشفى هداسا التي تقع على قمة جبل الطور المشرف والمسيطر على شرقي القدس، كان اليهود يستعملون هذه المنطقة الاستراتيجية كقاعدة عسكرية تنطلق منها الهجمات الليلية على ضواحي القدس وعلى حي وادي الجوز وقرى الطور والعيسوية وشعفاط المجاورة. وكانت تشكل خطرا كبيرا على مستقبل القتال في المدينة ولكنها كانت محصنة واقوى من ان نهاجمها، ولم يكن امامنا سوى العمل على قطع مواصلاتها مع الاحياء اليهودية التي كانت تمر بحي الشيخ جراح وحي باب الساهرة اي بمنطقتي ومنطقة محمود جميل الحسيني. لذلك قمنا بسلسلة هجمات على السيارات اليهودية التي تمر مخترقة شوارعنا. ومن ذلك الهجوم الذي اشرت اليه سابقا والذي قمنا به يوم ١٩٤٧/١٢/١٤ وكررنا الهجمات، فعمد اليهود الى تسيير شاحنات وباصات مصفحة. ولم تكن لدينا اسلحة ضد الدروع فلجأنا الى تلغيم الطريق وتفجير الالغام لدى مرور السيارات. وتكرر ذلك مرارا مما سيرد ذكره في حينه. لكن منطقة الجامعة وهداسا كانت حيوية جدا لليهود فأصروا على استمرار الاتصال بها متكبدين في سبيل ذلك خسائر مستمرة.

عبد القادر الحسيني
يعود الى فلسطين

بعد غياب نحو عشر سنوات عاد سرا القائد عبد القادر الحسيني الى فلسطين في ٢٢ كانون الاول / ديسمبر ١٩٤٧ قادما من مصر. وكانت اللجنة العسكرية لفلسطين التي شكلتها جامعة الدول العربية وبعض الدول العربية تعارض بشدة عودته الى فلسطين، كما سبق ان عارضت عودة الحاج امين الحسيني. لكن عبد القادر أصرَّ على العودة حتى لو أدى ذلك الى غضب اللجنة العسكرية والدول العربية المعنية. وبعد تدخل بعض الوسطاء وافقت اللجنة العسكرية على عودته بشروط فرضتها وهي كما علمت من عبد القادر نفسه:

أولا: ان يكون وجوده ونشاطه في فلسطين مرتبطا باللجنة العسكرية وخاضعا لاوامرها ومتقيدا بالضبط والربط العسكريين.

ثانيا: ان يكون مسؤولا عن منطقة القدس فقط وألا يمد نشاطه الى اي منطقة اخرى.

ثالثا: ألا يقوم هو او رجاله بجمع التبرعات من الاهلين.

ربما كانت هناك شروط اخرى لم أعلمها. مع العلم ان اللجنة العسكرية لم تزود عبد القادر وجيش الجهاد المقدس بالسلاح او المهمات او المال او الخبراء سوى اعداد قليلة من البنادق التي حصلت عليها من الدول العربية ومعظمها قديم جدا وغير صالح للاستعمال.

وكنا نعتمد على السلاح الذي اشتراه من بدو الصحراء الغربية وليبيا، كما سبق ان ذكرت.

بعد ظهر ١٩٤٧/١٢/٢٣ حضر إلى مقر قيادتي في القدس المجاهد ابراهيم ابو دية في سيارة جيب عسكرية واخبرني ان (ابو موسى) وصل البلاد وانه الآن في قرية صوريف ـ قرية ابراهيم ابو دية ـ وانه ارسله ليأخذني معه. فتوجهنا فورا الى القرية فوصلناها ليلا بعد ان اجتزنا عدة كمائن مسلحة تحرس مداخل القرية. وكانت فرحتي بلقاء عبد القادر على ارض فلسطين كبيرة ولا سيما انني كنت اتوقع ان تحل بوصوله مشكلة نقص السلاح.

بعد ان تداولنا شؤونا كثيرة ومنها شؤون التسلح تبين لي انه لم يكن لديه ما يعطيني، وانه ينتظر وصول كميات من السلاح والعتاد. ولدى تأكيدي على اهمية حصولي على رشاشات وضرورته عرض عليَّ ما لديه فكانت خمسة او ستة رشاشات برن بحيث آخذ منها اثنين او ثلاثة. ولما شاهدتها في المستودع رفضت ان اخذ واحدا منها. وعدت اليه وقلت ان الرشاشات قديمة وغير صالحة. فذهب معي الى المستودع وفحصها وقال: معك حق، هذه ليست اسلحتي، واعتقد ان المهربين بدلوها، وسأعطيك غيرها في المستقبل. وفي صباح اليوم التالي عدت الى القدس حزينا، امني نفسي بالمستقبل او بما يمكن ان تشتريه لجنة الحي بما تجمعه من تبرعات من اسلحة يمكن شراؤها من تجار السلاح الذين نشطوا للارتفاع الباهظ في اسعاره.

لم يمكث عبد القادر طويلا في صوريف وانتقل الى منطقة رام الله واستقر قليلا في قرية عين سينيا ثم اقام مقر قيادته في قرية بير زيت القريبة من عين سينيا. وكان اختياره في محله، فقضاء رام الله يتوسط فلسطين ويسهل الاتصال منه جنوبا الى القدس وشمالا الى نابلس وغربا الى يافا وشرقا الى الغور وشرق الاردن. ولا توجد فيه مستعمرات يهودية او معسكرات للجيش البريطاني، وجباله حصينة وعرة ومشجرة ورجاله أشداء.

٢٣ استمرار القتال

عمارة الأوقاف

كانت لدائرة الأوقاف الاسلامية بناية مميزة في منطقتي تقع امام كنيسة المطران من جهة الغرب. ومنذ البداية اتخذت منها موقعا عسكريا متقدما يشكل نتوءا في خطوطي متداخلا ضمن خطوط العدو، ويسيطر على منطقة واسعة من حي بيت يسرائيل وسان هدريا. وكان الى الجنوب من هذه العمارة وعلى بعد ٦ أمتار فقط بناية يملكها اليهود فيها غرفة يستعملونها كنيسا تشرف على الشارع، واتخذ منه اليهود حصنا في هذا الخط. وبعد مسافة قصيرة توجد عمارة مندلبوم التي اصبحت فيما بعد اقوى حصن لليهود في هذا الخط. والى الغرب من عمارة الاوقاف توجد بيوت بعضها مواقع حصينة لليهود. وذلك يعني ان هذه العمارة متغلغلة في خط دفاع العدو، مع انها تتمتع بميزات عسكرية ممتازة، الا ان الوصول اليها من خطوطي يقتضي اجتياز شارع مكشوف للعدو ونيرانه. لذلك كان رجالي يدخلونها متسللين بعد ان أوفر لهم حراسة تغطية كلما جرى تبديل الحرس. وكانت اوامرهم في البداية ان يحافظوا على العمارة وان يظل وجودهم فيها سريا الا اذا حاول العدو احتلالها. وحصنت البناية فسددت ابوابها وشبابيكها الارضية المواجهة للعدو بالحجارة والاسمنت. وكان المسؤول عن حراستها شاب شجاع اسمه موسى الزماميري. اما حراسها فكانوا اربعة في كل نوبة. وعززت هذا الموقع بموقع مساند يقع خلفه تماما ولا يبعد عنه سوى عرض الشارع وهو عمارة دار الشاكر التي عرفت في الخمسينات بنادي الشباب العربي.

ظل وجود رجالي المسلحين في العمارة سريا فترة قصيرة، وكانت الاشتباكات تقع خلفها وبالقرب منها من دون ان يشعر اليهود بوجود رجالي فيها. ولكنها اصبحت نقطة ساخنة جدا في خط القتال، وسأورد تفاصيل ذلك فيما بعد في اكثر من مناسبة. ومن الحوادث الهامة المتكررة التي جرت انني كنت ليلة ١٩٤٧/١٢/٢٥ مع بعض رجالي في دار الشاكر خلف عمارة الاوقاف، ونحو منتصف الليل قدمت سيارة صالون من طريق نابلس متجهة الى حي ميئه شعاريم وقدرت انها سيارة يهود، وعندما مرت امامي اطلقت عليها رشقا من رشاشي فأصابتها عدة رصاصات، وانفجر احد دواليبها، لكنها داومت على السير الى ان توقفت امام مركز بوليس ميئه شعاريم الذي يبعد ٢٠٠ متر فقط. وبعد نحو نصف الساعة كنت في مقر قيادتي فاتصل بـي الدكتور حسين الخالدي عضو الهيئة العربية العليا بالهاتف وقال لي: عليك

شكاية، اتصل بـي مستر شو مدير بوليس القدس واخبرني ان النار اطلقت على سيارته في اثناء مروره عند عمارة الاوقاف، وان سائقه جرح وسيارته (بنشرت)، لكنه نجا بأعجوبة. فقلت للدكتور: «اليهود هم الذين أطلقوا النار على سيارته». فقال: «لأ يا سيدي. احنا اللي اطلقنا النار. . يلعن. . . . خليهم يحسبوا حسابنا، سلم ايديكم».

وفي الليلة التالية وعند منتصف الليل أطلقت النار في الموقع نفسه على شرطي بريطاني كان يرتدي ألبسة مدنية، وكان قادما من خطوط العدو. وقدرت انه ربما كان يهوديا يستطلع مواقعنا. وأسرناه وحققنا معه ثم اطلقنا سراحه.

رشوة تنقذ الموقف

كنت خارجا مساء من الكلية الابراهيمية ــ شارع صلاح الدين ــ لتفقد المواقع الامامية حاملا رشاش شمايزر بكتفي يغطيه معطف ثقيل. وعند خروجي الى الشارع كانت سيارة مصفحة للبوليس الانكليزي مقبلة خلفي، فواصلت السير بهدوء. لكن المصفحة بعد ان تجاوزتني بأمتار توقفت. فعرفت أنهم لاحظوا انني مسلح. وأنهم ينوون شرا، فدخلت بسرعة إلى بيت تسكنه عائلة الشريف أمامه حديقة كنت أظن انني استطيع ان أنفذ منها الى ارض مجاورة. ولما وجدت سورها عاليا خبأت الشمايزر في الحديقة بسرعة، ودخلت بيتا كنت اعرف صاحبه فرحب بي. وصودف ان كان بعض رجالي قريبين من الموقع وشاهدوا ما جرى، فأطلقوا بضعة عيارات في الهواء كي تلحق بهم المصفحة واتمكن من الافلات. لكن المصفحة لم تتحرك وتبين فيما بعد انها استنجدت بمصفحة اخرى، ودخل اثنان من الانكليز الى بيت آل الشريف شاهرين اسلحتهم وسألوا عن شخص مسلح دخل البيت، فقلت لهم وكأني من أصحاب البيت: لم يدخل احد. ولكنهم شاهدوا مسدسا صغيرا لصاحب البيت على احدى الخزائن فأخذوه وحاولوا ان يعتقلوا صاحب البيت. وكان من عادة البوليس البريطاني في هذه الفترة ان يصادر ما امكن من السلاح ليبيعوه فيما بعد، فقلت لهم: بيعوني المسدس بخمسة دنانير. فقالوا: لا. قلت: عشرة. فقالوا: انتظر قليلا. وخرج احدهم يستشير زملاءه وعاد مسرعا وقال: هات العشرة دنانير. فدفعتها له وانصرفوا.

قنبلة باب العمود الثانية

ظهر يوم ١٩٤٧/١٢/٢٩ بينما كنت اتفقد حرس عمارة الأوقاف وبصحبتي المناضل ابراهيم جمجوم أخبرني شاب من عائلة البشيتي يسكن بجوار عمارة الاوقاف، ان سيارة تكسي مشبوهة جاءت من ناحية ميئه شعاريم واتجهت صوب باب العمود، واعطاني رقمها فسجلته. وكانت لدي قائمة طويلة بالسيارات المشبوهة. دخلت الى العمارة، ولم ألبث ان سمعت انفجارا شديدا جدا صادرا من اتجاه باب العمود. فقدرت ان اليهود فجروا لغما ثانيا

في ساحة باب العمود، وأنهم سيعودون من الشارع والموقع نفسيهما الذي نحن بجواره، فنزلت وابراهيم من العمارة ركضا. ولما وصلنا الشارع شاهدنا السيارة مقبلة من الاتجاه الذي توقعته متجهة نحونا مباشرة. فنزلنا عن الرصيف وركعنا في وسط الشارع مصوبين مسدساتنا نحو السيارة. ولما اصبحت على بعد امتار منا اطلقنا عليها النار فكسر زجاجها وتوقفت حالا، وجرح سائقها، وقفز منها ثلاثة او اربعة اشخاص وولوا الأدبار في اتجاه بيت يسرائيل فأطلق رجالي عليهم النار من سطح عمارة الأوقاف. وفي لمح البصر وصلت دورية من الانكليز فتوقفنا عن اطلاق النار وانقذتهم واخذت الجريح الذي كنا ننوي اسره. لكنهم تركوا لنا السيارة.

كان من نتيجة هذا الحادث ان عرف اليهود ان عمارة الاوقاف حصن من حصوننا. وأصبح متوقعا جدا ان يحاولوا مهاجمتها، فسلحت من فيها بعدد كبير من القنابل اليدوية صنعناها مما لدينا من الـ (.T.N.T) مضافا اليه شظايا الحديد لكي يصبح انفجارها قاتلا. وكنا نسميها (بقج). واستعملناها على نطاق واسع في جميع استحكاماتنا الاخرى. وكانت ترهب العدو وتمنعه من الاقتراب من استحكاماتنا وتساعدنا على توفير الذخيرة.

اما الانفجار الذي وقع بباب العمود فكان كارثة اخرى ادت الى مقتل ١٧ وجرح ٣٠ عربيا مدنيا مما اثر في معنويات العرب.

نسف عمارة الاوقاف

أصبح همي الشاغل حماية عمارة الاوقاف بعد ان كُشف امرها لليهود الذين لن يسكتوا طويلا على بقائها داخل خطوطهم. وفي ضوء خبرتي بأساليبهم الهجومية التي استخدموها ضد الانكليز قدرت انهم سيهاجمونها باحدى وسيلتين: إما ان يأتوا بقوة كبيرة محمولة على السيارات ويهاجمونها من الشارع الذي يمر أمام العمارة مغطين هجومهم بنيران كثيفة من تحصيناتهم في الكنيس المجاور للعمارة، أو أن يتسللوا ليلا من خلفها حيث لا يفصلها عنهم سوى ٨ أمتار ليحاولوا نسفها. وفي ضوء ذلك عززت الحراسة في عمارة الشاكر المقابلة والمساندة لها لمواجهة الهجوم إذا جاء من أمام العمارة، كما أمرت حراسها ان يلقوا خلفها بالقنابل اليدوية (البقج) بين الحين والحين كي لا يستطيع احد الاقتراب منها. واخليت العمارة من السكان. وفي يوم ١٩٤٨/١/١ بعد غروب الشمس بقليل كنت متوجها الى عمارة الاوقاف، ولما اصبحت قريبا منها سمعت اطلاق نيران الرشاشات بكثافة غير معتادة، فعرفت ان العمارة تتعرض للهجوم، فركضت باتجاهها، واذا بانفجار شديد جدا يهز الحي بأكمله. وقدرت ان اليهود نسفوا العمارة، فأسرعت راكضا ولما وصلت وجدتها قائمة شامخة، فعرفت ان اليهود لم يتمكنوا من وضع المتفجرات في داخلها بل فجروها من خارج العمارة. وبعد ثوان قليلة وقبل ان ادخل العمارة وصلت مصفحتان للشرطة البريطانية، ودخل عدد من رجالها الى العمارة وصادروا

من رجالي ـ الذين كانوا في ذهول ومصابين بجروح بسيطة ـ البنادق الأربع التي يحملونها وانطلقوا بمصفحاتهم، وكأنهم لم يأتوا الا لأخذ هذه الغنيمة. دخلت عمارة الاوقاف واخرجت رجالي منها ووجدت ان القواطع بين الغرف تهدمت وجميع الأبواب والشبابيك تحطمت. فأصابني غضب شديد لأن العدو افلح، ولو جزئيا، في هجومه، ولانني فقدت اربع بنادق. كما ان تحطم ابواب العمارة يغري العدو باعادة هجومه لنسف العمارة بالكامل. ولخشيتي من ان يأتي الانكليز مرة اخرى ويصادروا المزيد من اسلحتنا اذا احضرت مسلحين ليحرسوا العمارة، لم أنم تلك الليلة وبقيت بجوار عمارة الاوقاف مع رجالي. وطمأنت السكان المجاورين وارسلت في طلب سكان العمارة المنسوفة ليستعدوا لنقل أثاثهم في الصباح.

إصابتي الأولى وسجني

في الصباح الباكر احضر سكان العمارة سيارة شحن وبدأنا نقل الاثاث تحت الحراسة المشددة. وطلبت من رجالي الذين يقفون على سطح العمارة ويشاهدون اليهود على مقربة منهم ألا يطلقوا النار الى ان نفرغ من نقل الاثاث. واوعزت إلى بعض رجالي باعداد الغام كبيرة لنسف دار او اكثر من دور اليهود المجاورة، خصوصا حصن الكنيس الذي لم يكن فيه احد منهم في هذا الصباح. وبعد ان نقلنا قسما كبيرا من الاثاث نزلت خلف العمارة (اي في اتجاه العدو) لأتفقد وضعها وكيف تمكن العدو من الاقتراب منها، فتبين لي انهم هاجموا العمارة بنيران الرشاشات الكثيفة عن بعد ١٥٠ مترا ليغطوا تقدم حاملي الالغام لمسافة ٨ أمتار فقط تفصلهم عن العمارة، وان الالغام وضعت في الساحة الخلفية، ومع انها كانت الغاما كبيرة الا انها لم تهدم العمارة بل لم تصدعها الا قليلا. وبينما انا اتلفت يمنة ويسرة اذ بثلاثة يهود مسلحين قادمين نحوي ليتفقدوا الموقع ايضا، أو ليدخلوا الى حصن الكنيس. ولحسن حظي شاهدتهم قبل ان يشاهدوني، وكانوا على بعد نحو عشرين مترا، فأطلقت عليهم وابلا من رشاشي الشمايزر فأصيب بعضهم وفر البعض هاربين. وهنا اعتبر رجالي ان اطلاقي النار هو امر لهم باطلاق النار أيضا ففتحوا نيران بنادقهم على حشد من اليهود كانوا مكشوفين امامهم في حي بيت يسرائيل، وجاءت قوة من المسلحين اليهود وتبادلوا معنا اطلاق نيران الرشاشات. ولما شعرت ان الواقعة وقعت ولا مجال للانتظار حتى ننتهي من نقل الاثاث، أمرت بعض رجالي بالتقدم لنسف تحصين الكنيس وبيتين مجاورين من بيوت اليهود الخالية من السكان، فقاموا بذلك بسرعة. لكن صوت الانفجارات جلب لنا عدة سيارات مصفحة وسيارة صالون (همبر) من الشرطة الانكليز، فتوقفنا عن اطلاق النار وتوقفت السيارات امام عمارة الاوقاف، وكنت انا وستة رجال مسلحين بداخلها فأصبحنا محاصرين من اليهود في جهة ومن الانكليز في الجهة الاخرى. وخشيت ان يدخل الانكليز العمارة وان يحاولوا مصادرة أسلحتنا، وتلك الطامة الكبرى. ومن على شرفة العمارة امرت بعض رجالي

في عمارة الشاكر المقابلة ان يتوجهوا الى موقع قريب من جامع الشيخ جراح يبعد عنا نحو ٢٠٠ متر وان يفتحوا النار على خطوط العدو، وان يستعملوا في ذلك رشاش البراوننغ بنيرانه الكثيفة (٢٥٠ طلقة في الدقيقة) لكي تبتعد قوة البوليس البريطاني عنا لنخرج من الحصار. ونجحت المحاولة واتجهت المصفحات الى جامع الشيخ جراح مبتعدة عنا. ونزلنا من العمارة وكنت في المقدمة، وكنا نخفي اسلحتنا تحت معاطفنا وعباءاتنا ويحمل كل منا قطعة صغيرة من الاثاث كأننا من سكان العمارة. ولم اكد اتقدم قليلا اذ برجل بوليس بريطاني مسلح برشاش (تومي غن) يعترض طريقي ويطلب مني ان ارفع يدي (وما زلت اذكر رقمه وهو ١٧٤). فرفضت وقلت له بالانكليزية اني من سكان العمارة وانني انقل اثاثي ولا يجوزان يمنعني. فأطلق النار فوق رأسي محذرا فرفعت يدي متظاهرا بالتسليم وانكشف سلاحي المعلق على كتفي فتقدم ليأخذه، ولما مد يده هاجمته وحاولت خطف (التومي غن) من يده فلم أفلح وأمسكنا نحن الاثنين بالتومي غن بأربع قبضات، هو يحاول ان يوجه التومي غن الى بطني ويطلق النار بين حين وآخر وانا ابعد فوهة الرشاش عن صدري وبطني وأجره جرا في اتجاه رفاقي ليقبضوا عليه من الخلف. وفي اثناء ذلك صار جزء من كفي اليسرى على فوهة رشاش التومي غن فاخترقتها رصاصة، وسال دمي، ولكنني لم ارفع يدي المجروحة من مكانها، ولو فعلت لقتلتني الرصاصة التالية. وعلى صوت الرصاص جاء اثنان من رجال البوليس البريطاني شاهرين سلاحيهما، ولما رآهما صاح: اطلقوا عليه النار اقتلوه (Shoot him, Kill him). وهنا جعلته في مواجهتهم وصرخت: سأتركك الآن ولكن لا تطلقوا النار. وكررت ذلك ثم دفعته عني بكل قوتي وتركته، واقتربت من زميليه فأمسكاني، وجاءت مصفحة فأدخلوني فيها مع رشاشي الشمايزر ومعطفي الذي كانت جيوبه مملوءة بالذخيرة والقنابل اليدوية، وانطلقوا بـي الى مركز شرطة ميئه شعاريم، وتمكن رجالي من الخروج من الحصار، ولم يكن في مركز البوليس هذا سوى يهود وانكليز. وهنا ربطوا جرحي بشكل مرتجل ثم قال جاويش يهودي لزميله بالعبرية هذا الشخص قتل (فلانا) وذكر اسما يهوديا. وبعد تحقيق سريع اعطيت فيه اسما مستعارا وهو «سعيد حسن خليل» من قرية لفتا نقلت في سيارة شرطة الى مستشفى الحكومة في المسكوبية مخترقا شوارع يهودية متعرضا لخطر تدخل اليهود المسلحين لاختطافي. وفي المستشفى أجريت لي الاسعافات اللازمة وانطلقت بـي السيارة الى سجن (القشلة) بباب الخليل. وكان باب الخليل في هذه الاوقات يعج بالمسلحين العرب، فقلت للانكليز الخمسة المحيطين بـي: خمسة من شرطة الانكليز ضرب عشرة دنانير تساوي خمسين دينارا، وأقفز بباب الخليل من السيارة وتقولون هرب منا. وكنت احمل خمسين دينارا بالفعل، فضحكوا وقالوا: «خمسون دينارا مبلغ جيد ولكن فرارك يعني طردنا وحرماننا من جميع مكافاتنا». وألقوا بـي في قعر السيارة وجلسوا فوقي مسددين أسلحتهم الى جسمي، ودخلت السجن.

معظم شباب القدس يعرفون سجن (القشلة). وهو في الواقع مركز توقيف (Lock up) وليس سجنا مركزيا. كنت حشرت فيه مرارا عديدة من دون ان اكترث لذلك. ولكن في هذه المرة (مش وقته) فلدي مسؤوليات مهمة لا استطيع ان اغيب عنها. لذلك صممت منذ اللحظة الاولى لدخولي السجن على ان احاول الفرار.

وجدت في السجن نحو ٧٠ شابا عربيا موقوفين بتهم تتعلق بحمل السلاح او اطلاق النار وهم ينتظرون المحاكمة العسكرية. ووجدت فيه نحو ٢٥ يهوديا من الهاغاناه وغيرها من المنظمات الصهيونية العسكرية، أفردت لهم زنزانتان خاصتان، ولم نكن نلتقيهم في الساحة او في غيرها، ولكن عند خروجنا الى ساحة السجن نمر بالشبك الذي هم فيه فلا يفصل بيننا سوى القضبان.

وكان مدير السجن عربيا هو الجاويش احمد عارف الجيوسي (ابو عارف) وهو رجل طيب يعرفني جيدا ويعرف مسؤوليتي. الا ان الامر لا يصل به الى حد التعاون لتهريبي من السجن.

وفي اليوم التالي زارني في السجن المناضل محمود جميل الحسيني قائد منطقة وادي الجوز والشيخ جراح ومعه صديقي العزيز حسين الكرد (ابو كاظم)، فطلبت من محمود ان يحضر لي قنبلتين يدويتين لألقيهما على السجناء اليهود، فعارض الفكرة بشدة خوفا علي، ولم اتمكن من اقناعه. ونقل السجناء اليهود بعد بضعة أيام الى السجن المركزي (سجن المسكوبية). كما طلبت من صديقي ابو كاظم ان يحضر لي مخدرا لاستخدمه في تخدير الحراس عندما احاول الهرب، فوعد بذلك وفيما بعد احضر لي المخدر. وفي اليوم الثالث نظمت اضرابا عن الطعام مع جميع السجناء المناضلين من أجل تحسين أوضاع السجن والطعام وحصلنا فعلا على تحسينات.

قنبلة باب الخليل
واستشهاد صبحي بركات

في ٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٨ وقع انفجار شديد بالقرب من باب الخليل القريب جدا من سجن القشلة، ولم نلبث ان عرفنا انه نتج عن القاء اليهود للغم كبير من سيارة مصفحة عابرة وسط حشود من العرب على غرار ما فعلوا في باب العمود. وفي اليوم التالي بلغتنا التفاصيل: كانت السيارة المصفحة مسروقة من البوليس البريطاني، وادى الانفجار الى مقتل ١٩ وجرح ٣٦ عربيا، وكان بين الموجودين في الموقع الشهيد صبحي بركات زميلنا في منظمة الحرية وقائد حي النبي داود. وتمكن صبحي قبل وقوع الانفجار بثوان من اطلاق

النار على سيارة اليهود فردوا باطلاق النار فسقط جريحا. وتعقب المناضلون العرب السيارة وهي تعبر شارع مأمن الله واطلقوا عليها نيرانا كثيفة فقتل سائقها وحاول ثلاثة من ركابها الهرب بعد ان توقفت المصفحة فقتلوا ثم احرقت السيارة. اما رفيقنا صبحي بركات فتوفي في اليوم التالي في المستشفى الفرنسي، رحمه الله فهو كان مثال المقاتل الشجاع المتواضع الصامت.

استشهاد محمود الحسيني

بعد بضعة أيام جاءنا خبر سيىء آخر وهو استشهاد المناضل الشجاع محمود جميل الحسيني قائد منطقة وادي الجوز والشيخ جراح الذي أرعب سكان سان هدريا بهجماته إذ اصيب بعدة طلقات من رشاش ستن انطلقت عرضا من رجل بوليس عربي في اثناء وجودهما وآخرين داخل احد البيوت في حي وادي الجوز. وكانت هناك تساؤلات وعلامات استفهام. وفي اية حال وقع الخبر عليَّ وقوع الصاعقة، وتذكرت انه خلال شهر وبضعة ايام جرح أخي صبحي ابو غربية قائد منطقة المصرارة جرحا شديد الخطورة اعجزه عن تحمل مسؤولياته القيادية واقعده. وجرحت انا وسجنت، واستشهد صبحي بركات قائد منطقة النبي داود واستشهد محمود الحسيني قائد منطقة وادي الجوز والشيخ جراح. ومن المعروف ان منظماتنا شبه العسكرية، أعني جيش الجهاد المقدس تعتمد على القادة الذين يصعب تعويضهم، والذين يؤثر استشهادهم في رجالهم وفي معنويات أهل المدينة.

استشهاد أخي شفيق

خبر سيىء آخر أخفاه عني رفاق السجن ومدير السجن، لكنني اكتشفته بعد يومين في الجريدة، وهو خبر استشهاد اخي شفيق ابو غربية في حادث انفجار في قرية دورا بقضاء الخليل. وسبق ان ذكرت ان اخي شفيق كان له نشاط تنظيمي وتوجيهي كبير بين طلاب الكلية الابراهيمية وطلاب المدرسة العامرية الثانوية في يافا. وكنت دربته على استعمال السلاح وتحضير الالغام والعبوات الناسفة. وعندما اشتد القتال في القدس سافر الى الخليل بترتيب عائلي ليكون الى جانب والدنا الشيخ. وفي الخليل لم يتوقف عن النشاط والكفاح وراح يزور القرى ويقوم بعمليات تدريب كانت آخرها رحلته الى قرية دورا حيث انفجر بين يديه نصف اصبع ديناميت. وأصيب بجروح بالغة في يديه وبطنه وعينيه، نقل في اثرها الى المستشفى الفرنسي في بيت لحم ليفارق الحياة في اليوم التالي رحمه الله.

لا بد من الهرب

كان لا بد لي من الهرب، فالساحة بحاجة اليَّ مع انه جرى ملء المراكز القيادية

الشاغرة، فحل المناضل محمد عادل النجار محل محمود الحسيني، وتولى مسؤولياتي ابراهيم جمجوم بمساعدة سامي موسى كاظم الحسيني ورؤوف درويش، وتولى المحامي تحسين كمال قيادة حي المصرارة موقتا بدلا من شقيقي صبحي، وتولى احد شباب عائلة الدجاني (لا اتذكر اسمه) قيادة مناضلي حي النبي داود مكان صبحي بركات، وكان وجود القائد عبد القادر الحسيني في منطقة القدس ورام الله عاملا في تطمين الناس ورفع معنوياتهم. ومع ذلك كان لا بد لي من الخروج من السجن سريعا.

كانت المحكمة العسكرية تنظر في قضايا الموقوفين امثالي ببطء شديد، وكانت احكامها رمزية. فمع ان القانون يسمح لها ان تحكم بالاعدام على من تثبت عليه تهمة حيازة السلاح او تهمة اطلاق النار، صارت احكامها في هذه القضايا تقتصر على غرامة عشرة دنانير او ما شابه ذلك. لهذا نظمنا اضرابا عن الطعام مطالبين بتحديد مواعيد سريعة لمحاكمتنا. واستمر الاضراب بضعة ايام واستجيبت مطالبنا جزئيا. ولم يكن باستطاعتي الانتظار فحاولت الهرب انا والموقوفان رجب مرار وعيسى الناتان اللذان كانا متهمين بقتل يهود، وساعدنا في المحاولة احد مناضلي منطقتي واسمه عيسى مجج وكذلك صديقي حسين الكرد الذي احضر لي المخدر. وقمنا بالمحاولة، لكننا فشلنا لان الجاويش الذي يحمل المفاتيح والذي حاولنا تخديره لم يتأثر بالمخدر الذي وضعته على انفه وفمه بكمادة كبيرة إما لأن المخدر كان فاسدا او لأن الجاويش ــ كما علمنا ــ كان سكيرا لا يؤثر فيه المخدر كما يؤثر في الآخرين. لذلك قاومنا واستطاع ان يصرخ مستنجدا، فخف لنجدته عدد من رجال البوليس البريطاني، وفشلت المحاولة، ونقلت مع رجب مرار وعيسى الناتان الى السجن المركزي في المسكوبية مكبلين بالحديد. وفي السجن المركزي وجدت اثنين من اشقاء صديقي حسين الكرد، فطلبت منهما ان يطلبا من اخيهما حسين ان يحضر لي ٢٠ كيلو غراما من الـ (T.N.T.) لنسف احد جدران السجن في محاولة جديدة للهرب. ولا بد ان مدير السجن البريطاني علم بذلك فأعادني ورفيقي الى القشلة. وهنا أبلغ إلي محامي الاستاذ انور نسيبة انه دبر خطة للهرب حيث سيأتي ضابط من الجيش البريطاني ليأخذني بأوراق مزورة من قيادة الجيش. وانتظرت لكن هذا الضابط لم يأت. واخيرا قدمت لمحكمة عسكرية برئاسة ضابط برتبة بريغادير (عميد) في حي الطالبية الذي يسيطر عليه اليهود، وتعرف الصحافيون اليهود على شخصي في اثناء المحاكمة وحاول اليهود التأثير في أعضاء المحكمة فاستمرت محاكمتي يومين طويلين مع أن مثلها من القضايا كانت تبت خلال نصف ساعة. وخشي المحامي الاستاذ انور نسيبة من العاقبة، ورتبنا محاولة لهربي اثناء نقلي من السجن الى المحكمة او بالعكس على الرغم من الحراسة المشددة. ولكن الفرج جاء وحكمت المحكمة ببراءتي من جميع التهم وهي: حيازة الاسلحة والذخيرة والمتفجرات واطلاق النار على قوات جلالته. وانطلقت عائدا الى الميدان.

٢٤ معارك أول شهرين

لا بد من التوقف قليلا عن سرد تفاصيل مشاركتي النضالية الخاصة في القدس لعرض اهم الاحداث والمعارك التي وقعت في الشهرين الأولين من القتال، وخاصة ما جرى منها في منطقة القدس وجوارها.

منطقة القدس

في ظل الانتداب البريطاني على فلسطين ولأهمية مدينة القدس، أقام اليهود حولها عدة مستعمرات تطوقها من جميع الجهات.

فمن الشمال، أُنشئت ثلاث مستعمرات تفصلها عن رام الله ونابلس هي نفي يعقوب وعطروت او قلندية فضلا عن نحلات شمعون وبيت يسرائيل المتصلة بمدينة القدس ذاتها الى الغرب من حي الشيخ جراح.

ومن الجنوب: مستعمرة كفار عتسيون وثلاث مستعمرات اخرى مجاورة لها تقع في منتصف الطريق بين القدس والخليل، ومستعمرات رامات راحيل وتالبيوت وميكور حاييم المتصلة بمدينة القدس مباشرة من جهة الجنوب.

ومن الشرق: مجمع مستشفى هداسا والجامعة العبرية على جبل الطور الحصين.

أما من الغرب (طريق القدس ــ يافا) فكانت هناك أحياء يهودية واسعة تقطنها أعداد كبيرة من اليهود صار عددهم في نهاية الانتداب يساوي عدد أهالي القدس العرب او يزيد. وكانت هذه الاحياء تغلق على العرب طريق القدس ــ يافا اغلاقا كاملا. ولكن العرب كانوا يستطيعون الوصول الى يافا من طريق رام الله ــ اللطرون. وفضلا عن الاحياء اليهودية المشار اليها تندرج عدة مستعمرات على مسافات قريبة من القدس هي غفعات شاؤول بين قريتي لفتا ودير ياسين، وموتسا قرب قرية قالونية والياشار قرب قرية القسطل، وكريات عنافيم قرب قرية ابو غوش ومستعمرة الخمسة (معاليه هاحمشاه) بين قريتي قطنة وبيت سوريك.

وهناك الاحياء والمستعمرات اليهودية القديمة داخل القدس العربية مثل حارة اليهود والمونتفيوري وميئه شعاريم.

يتضح مما تقدم، ان الوضع العسكري في مدينة القدس كان صعبا ومعقدا. فالمستعمرات تطوقها والاحياء اليهودية داخل القدس تجزئها. ولو توافرت للعرب امكانيات حسنة مثل الاسلحة المقاومة للدروع لاعتراض السيارات المصفحة التي يستعملها اليهود بكثرة، لأمكن عزل جميع هذه المستعمرات والاحياء بعضها عن بعض والسيطرة عليها. وهذا ما حاوله المناضلون العرب منذ البداية.

سبق ان تحدثت كيف حاولت قطع الطريق على مواصلات اليهود نحو الشرق والشمال (قافلة البحر الميت ومجمع هداسا والجامعة العبرية). ومن المهم جدا ان نذكر أن المناضلين العرب نجحوا في عزل يهود القدس عن منطقة يافا ــ تل ابيب، حيث أغلقوا الطريق عند الممر الجبلي الضيق المسمى بباب الواد على بعد ٣٠ كيلومترا الى الغرب من القدس، كما أغلقوا طريق السكة الحديد المتجهة غربا. وبذلك اصبح جميع سكان مدينة القدس والمستعمرات المحيطة بها محاصرين بكل معنى الكلمة، يفتقرون الى الغذاء والماء والامداد العسكري خصوصا بعد ان نُسفت انابيب المياه التي تغذي جميع الاحياء اليهودية في ١٥ كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٧. ومع ان اليهود كانوا يحتفظون باحتياطي كبير من المياه في خزانات المدينة الرئيسية الا انهم عانوا كثيرا نقص المياه.

معارك متصلة

فضلا عن المعارك التي سبق ان تحدثت عنها في حلقات سابقة وقعت اشتباكات متعددة في مدينة القدس وما جاورها، كان طابعها العام محاولة كل من الطرفين وصل خطوطه ومواقعه وعزل مواقع الطرف الآخر ومحاصرتها.

بيت صفافا

في ٢٥ كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٧ شن اليهود هجوما على قرية بيت صفافا من مستعمرة ميكور حاييم ومستعمرة رامات راحيل شرقا في محاولة لاحتلال القرية واقامة اتصال بين المستعمرتين والسيطرة على الطريق المؤدية الى جنوب مدينة القدس. لكن بيت صفافا صمدت بقيادة الشهيد محمود العمري قريب عبد الله العمري زعيم القرية وفشل الهجوم. وفيما بعد تعرضت هذه القرية لهجمات متواصلة لكنها ظلت صامدة الى ان وصلتها قوات من المتطوعين السودانيين في الجيش المصري بعد انتهاء الانتداب.

لفتا وحي روميما

في ٢٧ كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٧ وقعت عدة اشتباكات اهمها قرب قرية لفتا التي كانت مطوقة من جميع جهاتها تقريبا بالاحياء والمستعمرات اليهودية. وكانت تعرقل مواصلات اليهود نحو الغرب في الوقت نفسه. واخطر هذه الحوادث الهجوم على قافلة يهودية قرب قرية القسطل قتل فيه اربعة من اليهود احدهم هانس برايت من رجال الوكالة اليهودية،

وجرح خمسة بينهم غولدا مايرسون (غولدا مئير) رئيسة الشعبة السياسية في الوكالة اليهودية. ولعبت قرية قالونيا دورا رئيسيا في هذا الهجوم. وفي هذه المنطقة هوجمت قافلة يهودية متجهة الى عرطوف وألقيت قنبلة على سيارة في طريقها الى مستعمرة غفعات شاؤول فقتل وجرح اكثر من عشرة من اليهود.

وفي الوقت نفسه نسف اليهود بيتا ومعملا للكازوز يملكهما العرب في لفتا وألقوا على مقهى صالح عيسى اللفتاوي قنبلة. وفي اليوم التالي ٢٨ كانون الاول/ديسمبر هاجموا المقهى بالرشاشات فقتلوا اثنين وجرحوا سبعة من العرب، وقتل في هذا الاشتباك أربعة من اليهود. ثم قام اليهود بالهجوم على المنازل الواقعة شرقي قرية لفتا ونسفوا معظمها. فأحدثت هذه الحوادث ذعرا في القرية، خصوصا لدى السكان الذين تختلط بيوتهم ببيوت اليهود في روميما وميكور باروخ، مما أدى الى رحيل سكان القرية بالتدريج في الاتجاه الوحيد الممكن وهو اتجاه الشمال الى بيت اكسا فرام الله. وبذلك كانت قرية لفتا اول قرية اخلاها العرب في منطقة القدس.

حصار الحي اليهودي في البلدة القديمة

كان الحي اليهودي في البلدة القديمة على اتصال بالاحياء اليهودية الغربية حتى أواخر كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٧ بواسطة سيارات مصفحة تدخل من باب الخليل او من باب النبي داود يحرسها الانكليز واليهود. وفي ٢ كانون الثاني/يناير ١٩٤٨ أقام العرب على المعبرين كمينين مزودين بالرشاشات مما حمل الانكليز على التخلي عن المشاركة في حراسة الباصات اليهودية فتوقف سيرها، واصبح الحي اليهودي (حارة اليهود) محاصرا ومقطوع الصلة تماما بالاحياء اليهودية الأخرى.

حي القطمون

هو حي عربي حديث جميل المباني يتصل شمالا بالاحياء اليهودية الغربية وجنوبا بمستعمرة ميكور حاييم. فهو بذلك يفصل مستعمرات جنوب القدس عن الاحياء اليهودية الرئيسية. وعمل اليهود منذ البداية على شن هجمات متواصلة على هذا الحي لاحتلاله وربط مواقعهم بعضها ببعض. وكانت اكبر عملية قاموا بها في هذه المرحلة نسف فندق سميراميس الواقع في الحي ليلة ٥ كانون الثاني/يناير ١٩٤٨ وقتل في الحادث ١٨ وجرح ٢٠ من العرب، مما ادى الى رحيل معظم سكان الحي. لكن حاميته من رجال الجهاد المقدس بقيادة رفيق عويس صمدت طويلا كما سيرد ذكره. وفيما بعد انتقل رفيق عويس ومقاتلوه الى حي البقعة الفوقا وحل محله القائد ابراهيم أبو دية مع سريته من رجال الجهاد المقدس.

معركة كفار عتسيون الأولى

كان المسلحون اليهود في مستعمرة كفار عتسيون المحاصرة يحاولون باستمرار قطع

طريق القدس ـ الخليل باطلاق النار على السيارات العربية المارة. وفي ١٤ كانون الثاني / يناير أطلق اليهود النار على عدة سيارات عربية كانت بينها سيارة القنصل العراقي في القدس. ولما شاع خبر هذا الاعتداء هاج سكان مدينة الخليل وشنوا هجوما واسعا على المستعمرة محاولين اقتحامها، الا ان المستعمرة كانت محصنة جيدا فتكسر الهجوم على اسلاك تحصيناتها وخسر العرب ١٤ شهيدا سقط معظمهم على اسلاك التحصينات، كما جرح ٢٤ مقاتلا. وكان بين الشهداء ناجي القواسمة (ابو نعيم) احد قادة ثوار الخليل المشهورين في ثورة ١٩٣٦ وكان تجاوز السبعين. وكان بين الشهداء ايضا المناضل المعروف حسين عمرو، ولم يعرف عدد اصابات اليهود. وتعذر نقل جثث الشهداء العرب، فقام الانكليز بذلك.

معركة بيت نبالا

في اليوم نفسه الذي وقعت فيه معركة كفار عتسيون الاولى ١٩٤٨/١/١٤ جنوب القدس هاجم المناضلون العرب قافلة يهودية كبيرة على طريق القدس ـ يافا قرب قرية بيت نبالا وسيطر العرب على ميدان المعركة فقتل ١٢ وجرح ٦٠ يهوديا واحرقت جميع سيارات القافلة.

معركة صوريف

مع ان الهجوم الاول على مستعمرة كفار عتسيون فشل كما ذكرنا، الا ان اليهود شعروا بضرورة تعزيز دفاع المستعمرة ورفع معنويات المحاصرين فيها. ولما كان من الخطر بمكان ارسال النجدات عن الطريق الرئيسي (القدس ـ الخليل) عمدوا الى ارسال نجدة يوم ١٧ كانون الثاني / ينـايـر ١٩٤٨ انطلقت ليلا من مستعمرة عرطوف بالسيارات حتى وصلت وادي الصنع قرب قرية بيت نتيف ثم حاولت مواصلة تقدمها على الاقدام ومعها عدد من البغال وجهاز لاسلكي، وكان عليها ان تسير في واد بين قريتي صوريف والجبعة لتصل الى مجموعة مستعمرات كفار عتسيون. لكنها ضلت الطريق، واكتشفها بعض أهالي صوريف في الصباح الباكر، فهب القائد ابراهيم ابو دية ورجاله وحاصروا القافلة واشتبكوا معها عند موقع ظهر الحجة بين صوريف وبيت نتيف. واستمر القتال طيلة النهار. ومع ان القوة اليهودية كانت مدججة بالاسلحة الاوتوماتيكية وبكميات كبيرة من الذخيرة، الا ان المقاتلين العرب تغلبوا عليها وابادوها عن بكرة ابيها. وكان افرادها ٤٠ مقاتلا من خيرة رجال الهاغاناه المشهورين. واعترف اليهود بمقتل ٣٥ رجلا نشروا اسماءهم في الصحف ورثوهم في الصحافة والاذاعة (اذاعة الهاغاناه) واستشهد في هذه المعركة ٤ من العرب. وبعد هذه المعركة ارتفعت شهرة القائد ابراهيم ابو دية الذي أدار المعركة بكل كفاءة مستفيدا من خبرته التامة بأرض المعركة ومسالكها التي هي ارض قريته صوريف.

وفي اليوم التالي جاءت قوة عسكرية يهودية من الطريق نفسه لنقل جثث القتلى، فدارت

معركة ثانية قرب بيت نتيف دامت ٧ ساعات قتل فيها ١٣ من اليهود وثلاثة من العرب، ثم تدخل الجيش البريطاني وتولى نقل الجثث. وبعد هذه المعركة نادى بعض اليهود بإخلاء المستعمرات اليهودية في جبل الخليل، وعارض البعض الآخر مفضلين تحمل اية خسائر في سبيل عزل الخليل والحيلولة دون اشتراك اهلها في القتال.

ابراهيم ابو دية يشكل سرية ضاربة

سبق ان ذكرت ان القائد عبد القادر الحسيني كلف ابراهيم أبو دية بنقل السلاح من مصر الى فلسطين، ونفذ ابو دية المهمة واتخذ من قرية صوريف مقرا للتكديس. ومع ان معظم السلاح الذي كدسه كان من البنادق الايطالية القديمة، الا ان بينها بعض البنادق والرشاشات الجيدة.

وبعد معركة ظهر الحجة وافق القائد عبد القادر الحسيني على تأليف سرية يقودها ابراهيم. وابتداء من ٢٥ كانون الثاني / يناير ١٩٤٨ شرع ابراهيم في تأليف هذه السرية واتخذ من أبنية محطة الرادار في قرية حلحول مقرا لها. وكانت هذه المحطة معسكرا من مخلفات الجيش البريطاني.

وجند ابراهيم في سريته مجموعة منتقاة من رجال قرى جبل الخليل الاشداء (الرجال المعدودة) وزودها بأسلحة جيدة نسبيا. وكان من المفروض ان تكون سرية ضاربة متحركة تتولى القيام بهجمات مركزة على مواقع العدو في الاماكن والاوقات المناسبة. وبسبب ضرورة المحافظة على حي القطمون الاستراتيجي في القدس جرى نقلها الى هذا الحي ودافعت عنه بكل بسالة. غير ان حركتها تجمدت في هذا الحي الى حد كبير. وفيما بعد استشهد ٩٠٪ من رجالها في قتال باسل في حي القطمون كما سيرد تفصيله في حينه.

معركة بيت سوريك

تقع قرية بيت سوريك شمال غربي القدس الى الشرق من قرية القسطل المجاورة لها. وعلى بعد قليل من طريق القدس ــ يافا. وفي ١٥ كانون الثاني / يناير ١٩٤٨ وقعت بالقرب منها معركة حامية، حيث كمن العرب لقافلة يهودية مقبلة من تل ابيب قيل ان حاييم وايزمن الزعيم الصهيوني سيكون بين ركابها، واقاموا الحواجز الملغومة على الطريق العام. ولما وصلت القافلة بدأ القتال وترجل اليهود من السيارات وساروا منسحبين الى مستعمرة الخمسة (معاليه هاحمشاه) الحصينة وتعقبهم العرب. وجاءت من خلف المقاتلين العرب نجدة لليهود من قوات نظامية هجومية (بلماح) معها مصفحتان بريطانيتان، فهاجمت قرية بيت سوريك وأوقعت قسما من المناضلين العرب في مأزق خطير، وكان بينهم القائد عبد القادر الحسيني الذي أظهر في هذه المعركة هو وحارسه الشخصي (عوض) بسالة فائقة، وتعرضا لخطر شديد. وحميت المعركة واستمرت مدة طويلة وصلت خلالها نجدات للعرب من قرى القدس

المجاورة: بدو والقبيبة وبيت عنان وقطنة وبيت دقو وغيرها. ثم وصلت نجدات من رام الله وقراها، وبات اليهود محاصرين. وعند الغروب انسحب اليهود مستفيدين من ظلام الليل وتوقف القتال. وترك اليهود في ارض المعركة ٣٤ قتيلا كما جرح منهم ٢٩ ونقل العرب جثث القتلى إلى رام الله حيث عرضت كدليل على النصر ثم سلمت الى الانكليز. ولم تعرف خسائر العرب وقيل انها كانت قليلة لا تتعدى الخمسة بين قتيل وجريح.

المعارك في مدن فلسطين الأخرى

منذ بداية القتال ألّف العرب في جميع مدن فلسطين لجانا قومية ومجموعات مناضلين مرتجلة للدفاع عن انفسهم في وجه الهجمات التي بدأ بها اليهود، في وقت كانت فيه جميع المدن العربية لا تملك الا القليل النادر من السلاح.

ففي خلال شهرين (كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٧ وكانون الثاني / يناير ١٩٤٨) قام اليهود بهجمات عديدة على المدن والقرى الفلسطينية التي فيها او بجوارها كثافة سكانية يهودية خصوصا يافا وحيفا وطبريا وصفد، وذلك في اطار خطة (غيمل Gimmel) التي وضعتها الهاغاناه بهدف ارهاب العرب وحملهم على الرحيل وتحقيق بعض الميزات العسكرية قبل ان يستعد العرب.

يافا

تقع مدينة تل ابيب بسكانها المئتي الف (٢٠٠٠٠٠) إلى الشمال من يافا. وهناك عدد من المستعمرات الكبيرة القريبة مثل بيتح تكفا ونيتر وغيرهما. وحقق اليهود منذ بداية القتال كسبا عسكريا حين هاجموا القرى العربية الواقعة الى الشمال من تل ابيب وأجلوا أهلها عنها وهي الشيخ مونس والجماسين الشرقية والجماسين الغربية وجريشة وفجة والمزيرعة والحرم والجليل وام خالد والطنطورة ومضارب عرب الحوارث. وبذلك ضمنوا الاتصال بين مستعمراتهم الواقعة بين حيفا وتل ابيب واصبح هذا الطريق آمنا.

لكنهم فشلوا في اقامة اتصال آمن بين تل ابيب والقدس كما فشلوا في هجماتهم المبكرة المتوالية على القرى والضواحي المحيطة بيافا مثل ابو كبير وتل الريش وسلمة والعباسية. وهاجموا حي ابو كبير في ٢ كانون الاول / ديسمبر ١٩٤٧ أي بعد إعلان قرار التقسيم بأربعة أيام، وكرروا الهجوم على هذا الحي بعد أربعة أيام، كما هاجموا العباسية في ١٣ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٧، وكرروا الهجوم في ١٨ كانون الثاني / يناير ١٩٤٨ فصمد العرب وصدوا الهجمات المتتالية وقاموا بهجمات معاكسة. ففي الهجوم الذي وقع على قرية سلمة مثلا من الشمال والغرب في ٢٨ كانون الاول / ديسمبر ١٩٤٧ صدَّ رجال سلمة الهجوم وتعقبوا المهاجمين من الناحية الغربية حتى مستعمرة هاتكفا وأحرقوا منازلها. كما شنوا هجوما معاكسا في اتجاه الشمال بعد ان وصلتهم نجدات من العرب

ووصلوا الى مشارف تل ابيب حيث تدخل الجيش البريطاني واوقف الهجوم. وقتل في هذا الهجوم ١٦ عربيا وقتل وجرح من اليهود نحو المئة.

وفي مدينة يافا نفسها وقعت عدة اشتباكات اخطرها تفجير سيارة ملغومة بالقرب من دار الحكومة (السرايا القديمة) في ٤ كانون الثاني / يناير ١٩٤٨ حيث قتل ١٠ من العرب وجرح كثيرون.

حيفا

كان اليهود في حيفا عند نهاية الانتداب أكثر من نصف سكانها. وكانت حيفا محاطة بالمستعمرات اليهودية خصوصا في سهل عكا التي تفصلها عن مدينة عكا. وكان العرب في حيفا يقطنون المناطق المنخفضة واليهود المناطق المرتفعة، ولذلك كانت مواقع اليهود تساعدهم على السيطرة. وكثيرا ما قاموا بدحرجة براميل ملغومة الى الاحياء العربية حيث تتفجر وتدمر وتقتل. وكان العرب في حيفا في بداية القتال لا يملكون سلاحا، بينما كان فيها اكثر من ٥٠٠٠ مقاتل من الهاغاناه وغيرها.

وكما في سائر المدن بادر اليهود إلى مهاجمة القرى والضواحي المحيطة بحيفا قبل ان تستعد وتتسلح. ففي ١٩٤٧/١٢/١٣ هاجموا قرية الطيرة وفي ١٩٤٧/١٢/١٩ هاجموا قرية شفا عمرو وفي ١٩٤٧/١٢/٣٠ قامت منظمة الارغون بهجوم بالقنابل على العمال العرب في مصفاة البترول قرب حيفا فقتل ٦ وجرح ٤٢ من العرب. وفي هجوم معاكس قام به العمال العرب على العمال اليهود بالمصفاة بالسكاكين والعصي وغيرها فتلوا ٤١ شخصا، ثم قامت قوات الهاغاناه بهجوم على قرية بلد الشيخ اخذاً بالثأر فقتلت ١٧ وجرحت ٣٣ عربيا. وفي ١٩٤٨/١/١ هاجم اليهود قرية شفا عمرو فقاومهم المناضلون بشدة وبرجولة، وفي ١٩٤٨/١/١٤ فجر العرب قنبلة في دائرة بريد حيفا فقتل ٦ من اليهود، كما فجروا سيارة يهودية كانت تحمل ألغاما في اثناء اجتيازها شارع هاشومير فتهدمت عمارة مجاورة للانفجار وتصدعت عدة عمارات يهودية وعربية. وفي ١٩٤٨/١/١٦ نسف اليهود عمارة بشير المغربي في شارع صلاح الدين فتهدمت على من فيها وكانت تتألف من ثلاث طبقات. وفي ١٩٤٨/١/١٩ هاجم اليهود قرية شفا عمرو ثانية، وفي ١٩٤٨/١/٢٩ دحرج اليهود من حي هدار هكرمل على حي العباسية العربي برميلا من المتفجرات فانفجر وهدم عددا من المنازل وأدى الى قتل عدد كبير من العرب وهجرة عدد كبير من السكان.

وعلى الرغم من تفوق اليهود بالسلاح والعتاد صمد المناضلون في حيفا صمودا بطوليا. لكن اليهود صمموا على الاستيلاء على المدينة من ناحية استراتيجية باعتبارها احسن موانىء فلسطين.

طبريا

كان عدد اليهود في طبريا أكثر من عدد العرب، وكانت بالقرب منها عدة مستعمرات كبيرة. ومع ذلك كانت كفة المناضلين العرب في اول شهرين من القتال هي الراجحة، على الرغم من قلة أسلحتهم. وركز العرب هجماتهم على طرق المواصلات التي تربط طبريا بالمستعمرات. وساعد مناضلو الناصرة والقرى القريبة مناضلي طبريا.

صفد

كان اليهود في صفد ربع سكان المدينة فتفوق العرب عليهم فترة من الزمن، وحاولوا الاستيلاء على الحي اليهودي، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك بسبب الاستعداد العسكري والتفوق بالسلاح.

الخسائر

هذا موجز عن القتال الذي جرى في فلسطين في أول شهرين من القتال. وفي تقرير بريطاني الى الامم المتحدة ورد ان عدد الاصابات التي وقعت في جميع أنحاء فلسطين خلال المدة من ١٩٤٧/١١/٣٠ حتى ١٩٤٨/١/١٠ بلغ ١٩٠٣ إصابات بين قتيل وجريح منهم ١٠٥٠ من العرب و ٧٥٠ من اليهود و١٠٣ من الانكليز.

كان يوم خروجي من السجن يوما سعيدا فرحت به كما فرح سكان القدس وخاصة سكان قطاعي. ورفضت أي احتفال بذلك، سوى القيام بدوريات وشن هجمات على طول خطوطي.

واول ما قمت به في اليوم التالي ان توجهت لمقابلة القائد عبد القادر الحسيني، وكان يومها في قرية عين سينيا الواقعة في قضاء رام الله قرب قرية بير زيت. وكان غرضي الأول الحصول على المزيد من السلاح والذخيرة، لأنني فجعت يوم خروجي من السجن بأن مشكلة نقص السلاح ما زالت كما هي، بينما كنت اتوقع حلها. وفي عين سينيا كانت المئات من الناس ترغب في مقابلة عبد القادر الحسيني، وكان كامل عريقات يتولى ترتيبات الدخول على القائد. فلما وصلت قدمني على الجميع وأدخلني فورا. واستقبلني عبد القادر بحرارة وهنأني وقال: جئت في وقتك فلجنة حي المصرارة شكت لي تحسين كمال ورجاله، وعليك ان تكف يدهم وان تشرف على قيادة الحي مباشرة فهو من اخطر احياء المدينة، اذ إن أي تقدم لليهود في هذا الحي ربما يوصلهم الى ابواب البلدة القديمة: الباب الجديد، وباب العمود وباب الساهرة، وبذلك يهددون مدينة القدس القديمة بالسقوط. فقلت: سأنفذ ذلك فورا. ولم يمهلني للكلام على مشكلة نقص السلاح، وقال: اما الموضوع المهم الآخر فهو وضع خطة لنسف بناية مندلبوم بادخال سيارة ملغومة كما فعلنا في عملية شارع هاسوليل ـ وسأتحدث عن هذه العملية فيما بعد ـ. وكانت بناية مندلبوم اصبحت اقوى مواقع اليهود في مواجهة خطوطي. وكان عبد القادر بسبب غيابه عن مدينة القدس نحو العشر سنوات بحاجة ماسة الى معرفتي التفصيلية بمداخل المنطقة وشوارعها. ولذلك رحنا نتدارس الخطة بالتفصيل الأمر الذي استغرق وقتا طويلا. وانتهت مقابلتي من دون ان اتمكن من بحث موضوع السلاح.

تنظيم دفاع حي المصرارة وسعد وسعيد

حي المصرارة وسعد وسعيد وحي باب الساهرة وأجزاء من حي الشيخ جراح كانت تشكل واجهة خطوطي الأمامية، مقابل الاحياء اليهودية المجاورة، وبخاصة حي ميئه شعاريم وبيت يسرائيل، ويبلغ طول هذا الخط نحو الكيلومترين. وكانت الخطوط والمواقع اليهودية تتكون في معظمها، من ابنية متينة على شكل حصن ممتد ليس له الا القليل جدا من

المداخل، بعكس قطاعي الذي تؤدي اليه خمسة شوارع. وكانت المواقع اليهودية تتدرج صعودا خصوصا في الوسط ما بين المستشفى الايطالي ودار الاذاعة، بحيث يمكن لنقاط مراقبة العدو ومواقعه المرتفعة ان تكشف قطاعي بأكمله خصوصا في حي المصرارة وسعد وسعيد حتى باب العمود. وكان جرى تنظيم قواتي في حي باب الساهرة واطراف الشيخ جراح قبل دخولي السجن.

أما حي المصرارة فتولى قيادته العسكرية المحامي تحسين كمال ومساعده ابو فواز ـ ولا اتذكر اسمه ـ وذلك بسبب اصابة قائده المعين صبحي ابوغربية بجراح خطرة كما سبق ان ذكرت وبسبب دخولي السجن. ولسوء حظ هذا الحي فان تحسين كمال لم يحسن تنظيمه وقيادته، وفي الوقت نفسه اعتبره اليهود افضل مكان في القدس للقيام بعملياتهم الانتقامية كلما تعرضوا لضربة في مدينة القدس وما جاورها.

ولما عدت إلى القدس بعد مقابلة عبد القادر الحسيني اجتمعت فورا بلجنة حي المصرارة القومية وكانت تتألف من شخصيات وطنية محترمة، اذكر منها: الدكتور شاغورية (سكرتير اللجنة) والصيدلي خليل طليل (امين الصندوق) ومحمد سبيتاني (المسؤول عن النواحي العسكرية ـ اشبه بضابط ارتباط) والدكتور ابراهيم طليل والمهندس نقولا الحلبي، وخليل البشيتي مختار الحي. فرحبوا بي وتحدثوا عن شكواهم من تحسين كمال. ولم افسح لهم في المجال على اساس ان الأمر انتهى. ثم اجتمعت بتحسين كمال فتقبل الوضع بتفهم وسلمني جميع ما لديه من السلاح الذي كان استلم معظمه مني بالذات. ولما كان حي سعد وسعيد يشكل امتدادا لحي المصرارة وكانت فيه لجنة قومية، اجتمعت إلى هذه اللجنة ايضا وكانت تتكون من اسحق الدزدار (ابو عمر) ويوسف البديري وعيسى شاكر وعبد العزيز الشخشير وكلهم اصدقائي، فرحبوا بي ايضا وابدوا كل استعداد لمساعدتي، وبعد ذلك قمت بما يلي:

١ ـ وحدت قوات الحيين في قيادة واحدة وعينت لها رجلين للمسؤوليات العسكرية من خيرة رجالي وهما يحيى الزواوي من ابناء حي المغاربة في القدس القديمة ومحمود علي عريقات مساعدا، وهو من اهالي قرية ابو ديس ومن سكان القدس.

٢ ـ اتخذت من مدرسة الحي مقرا للقيادة وكانت تسمى دار سعد الدين الخليلي وهي مجاورة للمدرسة الاسوجية التي تقع مباشرة على واجهة الجبهة مع اليهود.

٣ ـ استغنيت عن بعض المقاتلين، وفي مقدمتهم (أبو فواز) وعينت عناصر جديدة.

٤ ـ عززت الحي ببعض الاسلحة وشكلت قوة متحركة من ثمانية اشخاص مسلحين برشاشين ومدفع مورتر ٢ انش وبعض البنادق ورشاشات ستن، وذلك على غرار القوة المتحركة التي كنت شكلتها في حي باب الساهرة.

٥ ـ لما كانت مواقع المصرارة وحي سعد وسعيد تواجه اليهود على خط اطول من حي باب الساهرة الذي كان يشكل عمقا لها، جعلت الدوريات التابعة لحي باب الساهرة

تقوم بمعظم دورياتها في المصرارة وسعد وسعيد، وان تشارك قوات باب الساهرة في معارك المصرارة وسعد وسعيد.

٦ ــ نقلت المواقع الدفاعية (الاستحكامات) الى اماكن متقدمة قريبة جدا من مواقع اليهود لكي لا تصبح بيننا وبين اليهود منطقة حرام على حسابنا. واصبحت جميع المنازل العربية خلف تحصيناتنا الجديدة. وادى ذلك الى هرب عدد من العائلات اليهودية التي كانت تسكن حي سعد وسعيد في ابنية يملكها العرب، فتركوا مساكنهم وجميع اثاثهم لأن تحركنا الى الامام جاء مفاجئا لهم، وقتل بعضهم بسبب ذلك.

٧ ــ قمنا بنسف بناية يملكها اليهود فيها مصنع للاحذية كانت تحجب الرؤية أمامنا وتحجب عنا، بشكل خاص، مدخل حي ميئه شعاريم الرئيسي، وبذلك صارت نيراننا تسيطر على هذا المدخل. فتوقف اليهود عن استعماله نهائيا.

٨ ــ قمنا بتحصين مواقعنا جيدا وزودنا كل (استحكام) بخط تلفون ميداني يتصل بقيادة الحي حيث توجد القوة المتحركة جاهزة لنجدة اي (استحكام) يتعرض للهجوم، وتولى المهندس نقولا الحلبي ــ كبير مهندسي دائرة الاشغال العامة في القدس ــ تحصين الابنية و (الاستحكامات) الارضية كمواقع دفاع ثابتة مستخدما آلاف اكياس الرمل، كما قام بحفر خنادق اتصال تؤمن سلامة تحركات المقاتلين في هذا الحي المكشوف للعدو. ولا بد لي ان انوه بالجهود الجبارة والنشاط المتواصل ليلا ونهارا الذي قام به المهندس الحلبي والذي أثار الحماسة لدى سكان الحي للمشاركة الجادة في اقامة التحصينات وحفر الخنادق حتى اصبح الحي قلعة يصعب اختراقها. وفي احد المواقع الامامية حيث كان بيت الدكتور حسين الخالدي المؤجر لفندق رغدان جرى استخدام خمسة آلاف كيس من الرمل في تحصين هذا البناء المتين بطبيعته. وأدون هنا للحقيقة والتاريخ وبكل اكبار واجلال ان الدكتور شاغورية، سكرتير لجنة الحي، وكان في العقد السادس يشكو من مرض القلب، قد ساهم في نقل اكياس الرمل لاقامة (استحكام) على سطح احدى البنايات في اواخر نيسان / ابريل ١٩٤٨ مما أدى الى وفاته في اليوم التالي.

٩ ــ قامت لجان باب الساهرة والمصرارة وسعد وسعيد بجمع التبرعات لشراء بعض الأسلحة والذخيرة من تجار الأسلحة، وصادفنا سخاء من الفقراء ومتوسطي الحال وبخلا من الاغنياء خصوصا اثنين منهم يملكان العديد من ابنية الحي.

ومما هو جدير بالذكر حول شراء السلاح، ان البوليس البريطاني كان يصادر بعض اسلحتنا ويبيعها لليهود، واحيانا يصادر بعض الاسلحة من اليهود ويبيعها للعرب، وهكذا اشترينا رشاشا وذخيرة من عيار ٩ مليمتر له من صنع اليهود وعليها نجمة اسرائيل، مما اكد لنا انه كان لدى اليهود مصانع اسلحة أُنشئت في ظل حكومة الانتداب البريطاني.

١٠ ــ في مراحل متأخرة اقمت نقاط حراسة وتفتيش مسلحة على جميع مداخل الحي

ومخارجه لمنع الرحيل ومقاومة اللصوص، ومنعت حتى دوريات البوليس البريطاني من الدخول الى جميع القطاع.

ولا بد لي وانا اتحدث عن التحصين والتسليح ان اشير هنا الى ان القنصلية السعودية التي كانت دارها في حي باب الساهرة احضرت بتاريخ ١٩٤٨/١/٢٩ فئة من الجنود السعوديين لحراستها استفدنا قليلا من خبرتهم. لكن القنصلية وحراسها انتقلوا الى داخل سور المدينة القديمة بعد فترة قصيرة، مع ان بناية القنصلية كانت تعتبر في مؤخرة الجبهة. وظل قطاعي صامدا حتى دخول الجيوش العربية وحتى نهاية الحرب.

جبهة موحدة

يوجد حيّان يقعان شمالي أسوار القدس القديمة فضلا عن احياء قطاعي هما: حي وادي الجوز وحي الشيخ جراح. وكان من الضروري ان تكون لشمالي القدس قيادة موحدة، ولذلك تعاونت جيدا مع محمد عادل النجار الذي تولى قيادة حي وادي الجوز بعد استشهاد قائده محمود جميل الحسيني. ومنذ بداية القتال كانت مخابىء السلاح والمتفجرات في وادي الجوز، وكان عدد من شباب هذا الحي أعضاء في منظمة (الحرية) قبل القتال. وعندما شكلت القوة المتحركة التابعة لقيادة حي باب الساهرة كان مقرها في حي وادي الجوز، وشاركت هذه القوة في الدفاع عن الحي في مواجهة الهجمات التي شنت من الجامعة العبرية وهداسا على حي وادي الجوز.

واجهتنا مشكلة في حي الشيخ جراح اذ كان من الصعب اقامة تعاون فاعل مع قيادته، مع ان موقعه، على ميمنتي، كان موقعا استراتيجيا كبير الأهمية، وذلك لتعدد من تولى قيادته بعد استشهاد قائده الأول محمود جميل الحسيني وهم: كمال جميل الحسيني وعادل عبد اللطيف وموسى الموسوس، وبذلك فقدت القيادة تقريبا في هذا الحي المهم جدا. هذا من جهة ومن جهة اخرى كان معظم سكان الحي من الاغنياء الذين غادروه، ولم يبق من ابناء العائلات في اوائل آذار / مارس سوى القاضي نهاد جار الله الذي حاول ان يعمل شيئا ضمن امكاناته المحدودة جدا. واعتبر استمرار صموده في الحي امرا مفيدا.

كنا نعير حي الشيخ جراح اهتماما كبيرا واليهود يعيرونه الاهتمام نفسه، لأنه الحاجز الرئيسي بين المواقع اليهودية الرئيسية في الأحياء الغربية وبين حصونهم على جبل الطور في مجمع الجامعة العبرية ومستشفى هداسا التي تقع خلف خطوطنا. لذلك كان احتلال الحي هدفا رئيسيا لليهود، لأن احتلالهم إياه يعزل القدس عن رام الله ونابلس في الشمال ويطوق جميع المنطقة العربية شمالي سور القدس بشكل نصف دائرة. وفي اية حال كانت جميع الأمور تفرض ان تكون الأحياء العربية الشمالية المشار اليها قطاعا واحدا وجبهة واحدة. وهذا ما عملت له، ولو انه لم يتحقق بشكل فاعل فيما يتعلق بحي الشيخ جراح.

كان من اهم مظاهر الوحدة في هذا القطاع المعارك المتواصلة التي جرت على طريق ميئه شعاريم ـ الشيخ جراح ـ مجمع هداسا والجامعة العبرية، والتي شاركت فيها باستمرار قوات المصرارة وسعد وسعيد وباب الساهرة ووادي الجوز والشيخ جراح، حيث حفرت اكثر من حفرة في الطريق لتوضع فيها الالغام لتتفجر بالسيارات اليهودية المصفحة التي حاولت باستمرار وباصرار ان تحافظ على المرور على هذا الطريق، بعد ان اكتشفت اننا لا نملك اسلحة مقاومة للدروع، ولأن استمرار قيام جيب هداسا والجامعة العبرية خلف خطوطنا واستمرار اتصاله بالمستعمرات الواقعة شمالي القدس خصوصا مستعمرة نفي يعقوب يؤثر تأثيرا كبيرا في استراتيجية القتال في شمالي القدس بل وفي مدينة القدس ككل. وكانت الالغام سلاحنا الرئيس الذي شكل خطرا كبيرا على سيارات اليهود المصفحة، فكنا ننسفها بألغام معدة في الطريق فتتعطل عن السير فيزحف المناضلون لحرقها بالكاز والبنزين. وقاد العديد من عمليات اعتراض السيارات اليهودية ونسفها وحرقها في حي الشيخ جراح المناضل الشجاع ادريس البكري الذي كان من الأعضاء السريين في منظمة الحرية منذ سنة ١٩٤٧.

اما اليهود فركزوا عملياتهم، في هذه المرحلة، على هجمات يشنونها في الليل على حي الشيخ جراح ويقومون خلالها بنسف بعض المنازل العربية مما يؤدي الى هجرة السكان. وكان اليهود يهدفون الى احتلال الحي. لكنهم فشلوا في ذلك وظل الحي صامدا حتى ١٥ حزيران / يونيو عندما احتلوه خمسة ايام فقط. وكان الفضل في صمود الحي لتعاون قواتنا في احياء شمالي القدس.

من اهم هجمات اليهود على حي الشيخ جراح تلك التي جرت في ١٣ و ١٥ كانون الثاني / يناير ثم في ٢٦ نيسان / ابريل ١٩٤٨. وسأتحدث مطولا فيما بعد عن الهجوم الأخير كما سأتحدث عن الهجوم العربي الكبير على قافلة يهودية كبيرة جرى يوم ١٣ نيسان / ابريل ١٩٤٨. اما الآن فسأروي تفاصيل معركة جرت بيننا وبين اليهود في حي الشيخ جراح إلى جانب ما رويته عن معارك في هذه المنطقة. ففي مساء ١٢ شباط / فبراير ١٩٤٨ وصلتنا معلومات عن ان ثلاث شاحنات عربية محملة بالطحين آتية من حيفا الى مدينة بيت لحم مرورا بحي الشيخ جراح في القدس، وان علينا الاحتياط كي لا يستولي اليهود عليها، فبادرنا إلى إقامة الحراسات والكمائن اللازمة. وجاءت الشاحنات. ويظهر ان اليهود المرابطين في مستعمرة نفي يعقوب شمالي القدس لاحظوا مرور هذه السيارات المحملة بالطحين الضروري ليهود القدس المحاصرين، فاتصلوا بقواتهم في القدس فخرجت في الوقت المناسب سيارات يهودية مصفحة لاعتراض الشاحنات العربية واسرها. ولكن ما كادت المصفحة الأولى تجتاز دكان سعد غوشه حتى انهمر رصاص كمائننا وقنابلنا اليدوية من كل مكان على المصفحات اليهودية، وألقيت قنبلة من مكان مرتفع على المصفحة الأولى فسقطت داخلها (ولم يكن

للمصفحة سقف) وفجرت ما فيها من قنابل وذخائر فقتل جميع ركابها من رجال الهاغاناه وعددهم ثمانية، واشتعلت فيها النيران، وفرّت باقي المصفحات عائدة الى ميئه شعاريم. واستطاعت شاحنتان عربيتان المرور الى حي باب الساهرة اما الثالثة فتركها سائقها واتجه الى حي باب الساهرة مشيا. واستنجد اليهود بالانكليز فجاء الجيش البريطاني بمصفحاته المجنزرة فورا الى مكان الاشتباك. ولم يكن بإمكانه ان يعمل شيئا اذ وجد المصفحة اليهودية تحترق وليس فيها او بجوارها يهود احياء ليحميهم. وخشيت ان يأتي اليهود في حماية الانكليز فيستولوا على الشاحنة العربية المتروكة، فصرخت من مخبأي بالانكليزية: انا صاحب الشاحنة هل اخرج لأخذها. فرد علي ضابط (O.K.). فنزلت الى الشارع ومعي المناضل علي ابو غنام وكان سائقا ماهرا وتركنا اسلحتنا مع رفاق لنا، ودخلنا السيارة بسرعة وأدارها ابو غنام مع ان مفاتيحها لم تكن معنا. وسرنا بها مجتازين الانكليز والمصفحة اليهودية التي كانت ما تزال تحترق.

إجراءات بريطانية

بعد اشتداد القتال في جميع انحاء القدس اتخذت السلطات البريطانية إجراءين مهمين، الأول: خفض مسؤولية البوليس البريطاني، وذلك بتعيين ضابط بوليس عربي هو خالد شريف الحسيني وبامرته ٢٠٠ من رجال البوليس العرب المسلحين بالبنادق فقط ليكونوا مسؤولين عن الأمن والحراسة في الاحياء العربية، وتعيين ضابط بوليس يهودي وتحت امرته ٢٠٠ من اليهود. والثاني: اقامة مواقع عسكرية للجيش البريطاني على طول خطوط المواجهة بين العرب واليهود. وكان من نصيب قطاعي ثلاثة من هذه المواقع، اقيم الأول في دار المفتي وهي دار كبيرة يملكها الحاج امين الحسيني في اعالي حي الشيخ جراح تشرف مباشرة على الطريق المؤدي شرقا الى هداسا والجامعة العبرية. الثاني في بيت حازم نسيبة القائم ضمن خطوطي قرب مسجد الشيخ جراح ويشرف على حي بيت يسرائيل من الجهة الأخرى. اما الثالث فكان لرجال الطيران البريطاني ويحتل جناحا من المستشفى الايطالي الواقع ضمن خطوط اليهود المواجهة لحي المصرارة.

لكن هذه الاجراءات لم تحد من تصاعد الاشتباكات بيننا وبين اليهود. فحصلت عدة حوادث في هذه الفترة أهمها:

١ ــ نسف شارع هاسوليل.

٢ ــ الهجوم على حي المونتفيوري.

نسف شارع هاسوليل

سبق ان ذكرت ان اليهود قاموا في القدس بعدة هجمات على المدنيين مستخدمين كميات كبيرة من المتفجرات ابرزها قنبلة باب العمود الأولى في ١٩٤٧/١٢/١٣ وقنبلة باب العمود الثانية في ١٩٤٧/١٢/٢٩ ونسف فندق سميراميس في ١٩٤٨/١/٥ وقنبلة باب الخليل في ١٩٤٨/١/٧. وقد ادت هذه الهجمات الى مقتل ٥٥ عربيا وجرح ١٢٢. كما احبطنا اكثر من ثلاث محاولات مشابهة فاستولينا على سيارات ملغومة يقودها يهود حاولوا الدخول الى الاحياء العربية.

وسبق ان ذكرت ان كميات كبيرة من .T.N.T كانت لدى جيش الجهاد المقدس، وكان القائد عبد القادر الحسيني خبيرا بالمتفجرات وتركيب الالغام والعبوات الناسفة. وكان المناضل فوزي القطب رئيس فرقة التدمير التي شكلت في ١٩٤٨/٣/١٨ خبيرا كبيرا بالمتفجرات والالغام وكيفية استخدامها، واكتسب خبرته في اثناء وجوده في المانيا كلاجىء سياسي خلال الحرب العالمية الثانية، حيث تلقى تدريبات مكثفة في هذا الحقل.

وبناء على ما تقدم وحفاظا على معنويات شعبنا وأرواح ابنائه كان لا بد من الرد على هجمات اليهود المشار اليها بالمثل. وكانت لدينا الامكانيات اللازمة كلها. ونظم القائد عبد القادر الحسيني عدة عمليات نسف اشهرها نسف شارع هاسوليل، ونسف شارع بن يهودا، ونسف دار الوكالة اليهودية، ونسف حي المونتفيوري، وسأتحدث هنا عن العملية الأولى.

استخدمت في هذه العملية سيارتان واحدة تحمل اللغم والأخرى ينتقل اليها ركاب الأولى بعد ان يشعلوا الفتيل ويغادروا سيارتهم. وكانت السيارة الملغومة التي اشرف على تجهيزها عبد القادر الحسيني وفوزي القطب مسروقة من البوليس وعليها لوحات تشير الى ذلك (.P.P). وشارك في العملية بعض رجال البوليس البريطاني الذين تطوعوا للقتال مع العرب بقيادة عبد القادر الحسيني.

تحركت السيارتان ليل ١ شباط / فبراير ١٩٤٨ من بير زيت متوجهة الى القدس، وساعد اشتراك الانكليز في العملية على اجتياز حواجز الطرق عند مداخل المنطقة اليهودية. وكان شارع هاسوليل هو الهدف المختار. ولما وصلت السيارة الملغومة غادرها من فيها بعد ان اشعلوا الفتيل وتوجهوا الى مكان قريب تنتظرهم فيه السيارة الثانية فركبوا فيها وهربوا، وعندها انفجرت السيارة الملغومة. كان الانفجار شديدا وأدى الى ايقاع اضرار كبيرة وحرائق بالعمارات المجاورة ومنها مطبعة جريدة البالستاين بوست لسان حال الوكالة اليهودية التي تصدر بالانكليزية. وقتل في الحادث ٢٠ شخصا وجرح نحو ٥٠ ونزح عدد من اليهود عن منازلهم وظلت الحرائق مشتعلة ثلاثة أيام.

الهجوم على المونتفيوري

المونتفيوري حي يهودي من احياء القدس خارج السور يعتبر حيا قديما نسبيا. أُنشىء سنة ١٨٦٢. وبعد توسيع مدينة القدس صار يقع في وسط أحياء عربية. فكان موقعه يساعد اليهود على شل مواصلات العرب مع أحياء جنوبي القدس. واستخدمه اليهود لهذه الغاية فكانوا يطلقون النار على كل سيارة تتجه الى جنوب القدس، وقتلوا وجرحوا العديد من العرب، مما اضطرهم الى تصفيح بعض باصاتهم (باص رقم ٦). لذلك حاول العرب احتلال هذا الحي يوم ١١ شباط/فبراير ١٩٤٨ فشنوا هجوما كبيرا وتمكنوا من اقتحام الحي ونسف بعض منازله على الرغم من المقاومة الشديدة ومن وصول النجدات اليهودية من الاحياء الغربية. وكاد الحي ان يسقط لولا تدخل الانكليز الذين كانوا دوما يقفون موقف المتفرج عندما يهاجم اليهود حيا او قرية عربية او يحتلونها، ويتدخلون فورا لنجدة اي حي او مستعمرة يهودية تتعرض للسقوط في يد العرب. وهكذا اضطر العرب الى الانسحاب بعد ان خسروا ستة قتلى وعددا من الجرحى، ولم تعرف خسائر اليهود والانكليز، وقيل انه لم يقتل سوى يهودي واحد وانكليزي واحد.

وسأتحدث فيها بعد عن هجوم آخر على هذا الحي في ٢٣ نيسان / إبريل ١٩٤٨ شاركت فيه شخصيا.

٢٦ اشتداد المعارك في القدس

يوما بعد يوم يزداد اشتعال المعارك في القدس وتعم الاشتباكات جميع احياء المدينة وتتصاعد بشكل سريع في شهري شباط / فبراير وآذار / مارس في شمال القدس: في المصرارة وسعد وسعيد والشيخ جراح ووادي الجوز، وفي المونتفيوري، وشارع مأمن الله.. ويزداد الجو تكهربا. اعمال الحكومة تصاب بالشلل، فُقِد الأمن، وعم الخوف، واغلقت معظم الحوانيت، ونصبت الأسلاك الشائكة، واقيمت عوائق الدبابات والحواجز في كل مكان حتى اصبح منظر المدينة كميدان الحرب، ورحل كثيرون، ونقصت المؤن والوقود.

اليهود الذين أصيبوا بصدمة لنسف شارع هاسوليل، والذين يزداد ضغط الحصار عليهم في حارة اليهود وفي الأحياء الغربية، فقدوا أعصابهم وراحوا يطلقون النار بغزارة هنا وهناك، كأنهم يتأهبون لشن هجوم شامل، او انهم يهدفون إلى استنزاف ذخيرتنا المحدودة، او كأنهم يريدون رفع معنوياتهم والتأثير في معنوياتنا.

عودة الى ازمة السلاح

هذه الاجواء الخطيرة التي تفترض شتى الاحتمالات جعلتني اعود الى التعرض لموضوع نقص السلاح والعتاد.. فنحن اشترينا القليل من السلاح، وحصّنا خطوطنا، واتبعنا التقتير والحرص الشديد في استعمال الذخيرة، ونظمنا تحركاتنا العسكرية بشكل يوهم العدو أن لدينا الكثير من السلاح. حتى ان اذاعة الهاغاناه التي أُنشئت في القدس وبدأت بث البرامج العربية اذاعت ان الحاج امين الحسيني يتحيز لحي باب الساهرة لأن عائلة الحسيني تسكن فيه، فيخصه ويميزه بكثرة السلاح. غير ان الحقيقة ان بعض احياء القدس مثل القطمون والبلدة القديمة كان حظها اوفر من حظي، ولذلك كنت حريصا على استعمال الذخيرة اكثر من غيري الى ابعد الحدود. غير ان اساليب قتالنا فرضت هيبتنا على العدو. ولكن ماذا لو قام العدو بهجوم مركز على قطاعي، والمعلومات تؤكد ان لديه اضعاف ما لدي من سلاح واضعاف ما لدي من ذخائر.

تشاورت مع صديقي اسحق الدزدار سكرتير لجنة حي سعد وسعيد، واتفقنا على ان نقوم بزيارة القائد عبد القادر الحسيني. وفي يوم الاربعاء ١٩٤٨/٢/١٤ توجهنا الى بير زيت، واجتمعنا مع عبد القادر الحسيني، وتحدثنا طويلا، وذكرته بما سبق ان اتفقنا عليه في القاهرة

في نيسان / ابريل ١٩٤٧ حينما درسنا احتياجات كل حي من احياء القدس وبينت له بالأرقام ان ليس لدي ربع ما كنا قررناه لقطاعي. وقارنت قواتي بقوات العدو التي تواجهني ومعظمها من قوات عصابة الإرغون الشرسة المدججة بالسلاح. وبعد ان تحجج بالأوضاع العامة المحيطة به وبجيش الجهاد المقدس وبالفلسطينيين عموما وبتقصير او تآمر اللجنة العسكرية لفلسطين وعدم دعمها له، قال: اذهبا الى مستودع القيادة في بير زيت واحملا منه ما شئتما. ولما دخلنا المستودع لم نجد فيه اي سلاح صالح او ذخيرة صالحة. وعدنا الى القدس من دون ان نأخذ طلقة واحدة.

استقالتي

وصلت القدس في حالة نفسية سيئة جدا، وشطحت بـي السوداوية لأتصور ان اليهود سيحتلون قطاعي، وان المواطنين سيحمّلونني مسؤولية ذلك، وان التاريـخ سيسجل علي التقصير، مع انني، يعلم الله، ابذل كل جهد ممكن، ولا أبالي بالخطر، وأكاد لا أنام الليل وانا أناوش العدو بنسف بناية هنا والقاء قنبلة هناك. في تلك الليلة كتبت استقالتي ووجهتها الى القائد عبد القادر الحسيني، ذكّرته فيها بالأرقام ما أحتاجه من سلاح، وان لدي ما هو اقل من القليل، وانني يئست من الحصول على ما احتاج. وطلبت قبول استقالتي وتعيين من سيخلفني في المسؤولية لكي اسلمه ما في عهدتي من السلاح والعتاد. وانهيت كتابي بالعبارات التالية التي ما ازال اذكرها حرفيا: «أرجو ان لا تعتبر استقالتي فرارا من الميدان، بل ربما عجلت في اجلي فسأبقى في القدس اقاتل بسلاحي الفردي دون ان اتحمل مسؤولية ضياع قطاع منها». وسلمت الكتاب لأخيه سامي الحسيني ورجوته ايصاله في اليوم نفسه وكان يوم خميس.

إصابتي الثانية

في صباح اليوم التالي الجمعة ١٦ شباط / فبراير ١٩٤٨ ارتديت أفضل ما لدي من ثياب وعزمت على تأدية صلاة الجمعة في المسجد الأقصى، وكأني أمارس استقالتي. ونحو الساعة العاشرة فتح اليهود النار كعادتهم على الأشخاص والسيارات التي تجتاز طريق القدس ـ نابلس عند جامع الشيخ جراح، حيث هناك مسافة من الطريق مكشوفة لنيرانهم، واشتبكت قواتي معهم لتحاول اسكات نيرانهم. ولم أملك إلّا ان اتوجه إلى مكان الاشتباك. وقابلني في الطريق أخ مناضل من خيرة اصدقائي، هو ادريس البكري، جاء يستحثني ويقول: هناك جريحان أصيبا في بناية ابو مصطفى المغربـي المقابلة تماما لجامع الشيـخ جراح على الجانب الآخر من الطريق. وكانت هذه البناية اقرب بناية عربية إلى اليهود في هذا الموقع على بعد نحو ٥٠ مترا غربـي الطريق العام. ولاحظ اليهود سقوط الجريحين ودخولها للبناية.

كان لا بد من نقل الجريحين. وكان ذلك يعني التقدم وقطع نحو ٧٠ مترا مكشوفة لنيران العدو القريبة. كنت دوما أفضل في الظروف الخطرة ان ابدأ بنفسي. وفي ذلك اليوم كنت اكثر استعدادا لأن اخاطر بنفسي ولا أخاطر برجالي. وهذا هو سر احترام القيادة في حروب العصابات. ومع ذلك طلبت من رجال الجيش البريطاني المرابطين في بيت حازم نسيبة، القريب جدا والمشرف على الموقع، ان يقوموا بنقل الجريحين، فرفضوا. فطلبت منهم نقالة لحمل الجرحى فرفضوا أيضا. فقلت لهم سنتقدم لنقل الجرحى فحاذروا ان تطلقوا علينا النار. واخترت اثنين من رجالي، وامرت ان نقطع المنطقة المكشوفة الى البناية ركضا سريعا واحدا وراء واحد. وهكذا وصلنا الى الجريحين سالمين برغم من ان النار أطلقت على كل واحد منا. ووجدت احد الجريحين مصابا في كتفه اصابة غير خطرة. فقلت له: لماذا انت هنا اذن؟ فقال: لأكون الى جانب رفيقي فساقه مكسورة عند الفخذ ولا يستطيع ان يمشي، ولا استطيع ان احمله. فقلت: حسنا اخرج الآن واقطع المسافة المكشوفة ركضا سريعا. وبالفعل ركض ونجا. اما الجريح الثاني فوضعناه على طاولة بعد كسر ارجلها وحمل الطاولة اثنان من الأمام ووحدي من الخلف، وكان رأس الجريح قرب صدري، وخرجنا من البناية التي كانت لنا ساترا عن نيران العدو لمسافة قصيرة. وكان يحوط بالدار سور يعلو عن الأرض نحو المتر، فلما وصلنا إليه، وكنت اعتقد اننا ما زلنا مستورين بالعمارة عن رماية العدو، وقبل ان نبدأ الركض أطلقت علينا النار من الجهة اليسرى فأصبت برصاصة في خاصرتي اليسرى كسرت أضلاعي واخترقت صدري وخرجت من تحت ثديي الأيسر فأصابت الجريح في رأسه وقتلته. اما انا فأظلمت عيناي للحظة وانحنيت الى الامام وكدت اسقط على الأرض، لكنني تمالكت نفسي فورا. وكردة فعل شهرت مسدسي واطلقت النار في اتجاه العدو، ثم ركضت والدم يتدفق من صدري، فأمسكت الجرح بقبضتي واغلقته بثيابي واجتزت منطقة الخطر ركضا، وكانت هناك سيارة توقفت وركبت فيها. واذا بسائقها احد تلامیذي واسمه ان لم تخني الذاكرة، اسعد القصاص. وقلت له اسرع بي الى المستشفى الفرنسي، وأدخلت فورا الى غرفة العمليات. وكان الجراح الفرنسي يعرفني فهو الذي اجرى العملية الجراحية الخطرة لأخي صبحي وهو المشرف في حينه على علاج والدتي التي كانت طريحة المستشفى بسبب تشمع الكبد الذي اصيبت به بعد اصابة اخي صبحي. واجرى لي هذا الطبيب عملية جراحية فورا. شق بطني وصدري وخاصرتي. و[illegible]فقت من التخدير قال لي: انت محظوظ فالرصاصة اخترقت غشاء الرئة ولم تصبها ومرت على بعد سنتمتر واحد من القلب! وهنا تملكني شعور بالضيق الشديد لأسباب متباينة: هل وصلت الأمور الى هذا الحد؟ اليهود الحقيرون يجرحونني؟ ألا يكفي انهم جرحوا اخي صبحي، وقتلوا رفيقي صبحي بركات؟ هذا من جانب ومن جانب آخر، قلت في نفسي: رباه! ما دمت اصبت، والرصاصة تكاد تخترق الرئة والقلب، فلماذا لم تكن في القلب، فأستريح واحظى بالشهادة. وبعد قليل دخل

الجراح الفرنسي وشاهد على باب غرفتي حارسا مسلحا فاحتج، فقلت له: لا تقلق، نحن مضطرون الى ذلك لأن كل قادتنا مستهدفون، وانا لن اقيم هنا طويلا، فقال: ستبقى هنا اسبوعين او ثلاثة. فقلت: لا يمكنني ذلك بتاتا فالساحة بحاجة اليّ.

ووصل كتاب استقالتي الى عبد القادر في يوم الجمعة وبعد ساعة وصله خبر اصابتي الخطرة فقال: «لَهْ... انتحر الملعون!».

ونسف عبد القادر شارع بن يهودا في ٢٢ شباط / فبراير ١٩٤٨، أي بعد أسبوع وكانت اكبر عملية نسف جرت في القدس. وصب اليهود جام غضبهم على حي المصرارة. عندها أصررت على مغادرة المستشفى رغم ممانعة الطبيب، وكانت الاربطة والاحزمة مشدودة إلى صدري وبطني. وزرت والدتي في غرفتها في المستشفى ومعي بعض الحلوى فرحبت بي على اساس انني عائد من دمشق كما قالوا لها. ثم غادرت المستشفى الى مقر قيادتي في المصرارة متحاملا على نفسي وكنت أقود رجالي وأنا في السرير.

بعد ثلاثة ايام توجهت الى بير زيت، حيث قابلت القائد عبد القادر الحسيني، وبعد ان هنأني بالسلامة قال مازحا: «هيك يا بهجت؟ اليهود يرموك في المستشفى؟..» ثم عبس وقال: يا اخي بهجت، دول العالم الكبرى وافقت على التقسيم الذي هو في حقيقته قرار باقامة دولة يهودية صهيونية توسعية على ارض فلسطين. والحكومات العربية وافقت على ذلك سرا، لكنها تكذب علينا وعلى شعوبها، وستعمل على تنفيذ ذلك. واذا دخلت جيوشها الى فلسطين فستقف عند حدود التقسيم وستفرض السيطرة على جيوشها بالضبط والربط العسكريين، مع ان الضباط والجنود والعرب على استعداد للموت فداء فلسطين. اما نحن فهم لا يستطيعون السيطرة علينا، ولذلك يمنعون عنا السلاح والعتاد. اسمع يا بهجت ويا اخوان، التقسيم سيمر، فَلْيَمُر على اجسادنا. القضية ليست قضية تقسيم، القضية قضية اقامة قاعدة صهيونية لدولة عنصرية استيطانية توسعية من الفرات الى النيل. انهم يعلنون انهم سيرحلون ٢٤٠ ألف فلسطيني من الجليل وحده. لن نستسلم لهذا المخطط الاستعماري الصهيوني، سأقاتل دفاعا عن بلادنا حتى الموت مهما قل السلاح والعتاد. نحمي اهلنا وبيوتنا بصدورنا، ونحمي مَنْ خلفنا من البلاد العربية وننبههم الى خطورة الهجمة الصهيونية الأميركية عليهم. تأكدوا يا اخوان اننا اذا قبلنا اقامة دولة اليهود الصهيونية ولم نقاومها فان ذلك يشجع اليهود على الهجرة ويساعدهم على احتلال بقية فلسطين والامتداد منها الى البلاد العربية. قدرنا ان نقاتل مهما كانت ظروفنا صعبة، فمن اراد ان يقاتل معي في هذه الظروف القاسية فأهلا به، ومن استنكف فهو معذور. فقلت: «انت تشير الى استقالتي، وانا انما جئت اليوم لأقول انني سحبت استقالتي اذ وجدت الحل الأفضل: لن يدخل اليهود قطاعي وانا حي، سأقتل قبل ان يستولوا على شبر منه. وعندها لن يستطيع احد ان يقول انني قصّرت». وتعانقنا. وانصرفت وصدري منشرح وفي نفسي وخاطري الاستشهاد.

نسف شارع بن يهودا

كانت ردات الفعل على نسف شارع هاسوليل ايجابية فرفعت معنويات العرب وألقت بالرعب في قلوب اليهود الذين سبق ان صفقوا للتفجيرات في باب العمود وباب الخليل. علّمنا اليهود ان استعمال المتفجرات ضد المدنيين سلاح ذو حدين والبادىء أظلم. ولكن كان علينا اقناع من لم يقتنع بذلك بعد.

على هذا الأساس عمل القائد عبد القادر الحسيني على المزيد من الهجمات، وكانت عملية نسف شارع بن يهودا أكبر عملية متفجرات جرت في القدس، بل في حرب فلسطين كلها.

استخدمت في هذه العملية ثلاث شاحنات كبيرة محملة بأطنان من المتفجرات ومعها سيارة مصفحة مسروقة من البوليس في يافا. وقام عبد القادر الحسيني وفوزي القطب بتجهيز المتفجرات. ونفذ العملية اثنان من العرب احدهما عزمي الجاعوني من شباب القدس وأربعة من رجال البوليس البريطاني الذين تطوعوا مع العرب. وكان الجميـع يرتدون ملابس البوليس البريطاني.

في فجر الخميس ٢٢ شباط / فبراير ١٩٤٨ تحركت القافلة، والمصفحة في مقدمها، من بير زيت الى رام الله، الى بيت عور، الى اللطرون وباب الواد، ووصلت إلى القدس وكأنها قادمة من يافا، وتوقفت عند حاجز يهودي قرب قرية لفتا. لم يشك اليهود في ان المصفحة وسائقها من رجال البوليس البريطاني، فسمحوا للقافلة باجتياز الحاجز من دون تفتيش، فواصلت السير في الأحياء اليهودية على طول شارع يافا حتى وصلت الى الهدف المرسوم وهو شارع بن يهودا الواقع في مركز المنطقة اليهودية، وفيه عدد من الفنادق الضخمة والمراكز التجارية الكبيرة ومقر الهستدروت الذي كان في الوقت نفسه مقر قيادة الهاغاناه. توقفت المصفحة وتوقفت كل شاحنة امام عمارة كبيرة ونزل سائقوها بعد ان اشعلوا الالغام وركبوا المصفحة فانطلقت بهم الى شارع الملك جورج متجهة الى المنطقة العربية.

وانفجرت الالغام بعد دقائق قليلة من تحرك المصفحة، في الساعة السادسة والنصف صباحا. وكان الانفجار شديدا للغاية فتهدم عدد من العمارات الضخمة وتشعثت بقية مباني الشارع وبعض العمارات الكائنة في شارع يافا وشارع الملك جورج، ومن اكبرها فندق الاتلانتك وفندق اودروسكي ودار الهستدروت وبناية فلنشك وبنك التسليف. وقتل وجرح من جراء الانفجار عدد كبير من اليهود والسياح الاميركيين، ولم يعلن عن العدد الحقيقي لضخامته، فادعت الحكومة ان عدد القتلى ٤٩ والجرحى ١٣٢. واعلن اليهود ان عدد القتلى ٧٤ والجرحى ٢٠٠. وقدر العرب عدد القتلى بـ ٢٠٠ والجرحى بـ ١٠٠٠. وكانت للحادثة ردة فعل شديدة لدى اليهود، فتظاهر عدد كبير منهم ضد اعمال النسف، وطلبوا من منظماتهم ايقافها. كما غضب اليهود من الانكليز واعتدوا على بعضهم كما حاولوا اغتيال

الجنرال ماكميلان قائد الجيش البريطاني في فلسطين فنسفوا سيارته لكنه لم يكن فيها.

لا بد لي من الحديث قليلا عن الانكليز الذين تطوعوا مع العرب أمثال: Stephan, Tomy, Peter, Edie واشتركوا في نسف شارع بن يهودا وغيرهم من الانكليز. ادعى هؤلاء وأمثالهم انهم يحاربون مع العرب كرها باليهود لاسباب كذا وكذا. وحاول اكثر من واحد من الانكليز ان يتطوع معي فرفضت رفضا باتا اعتقادا مني ان الاستخبارات البريطانية دستهم في صفوفنا. وصارحت عبد القادر الحسيني برأيي، فأكد لي انه يشك فيهم لذلك افرد لهم مسكنا خاصا في بير زيت وكأنه معتقل. وقال انه يستخدمهم لتنفيذ خططه ولا يفسح لهم في المجال للتجسس علينا. ولكن بعض قادة المناضلين في القطمون والبلدة القديمة ووادي الجوز قبلوا بعض المتطوعين الانكليز من دون ان يكون في إمكانهم اتخاذ الاحتياطات اللازمة. وثبت فيما بعد ان Edie كان من رجال المخابرات البريطانية. كما تأكد لي ان عددا من الانكليز من رجال البوليس والجيش تطوعوا في صفوف اليهود بالقدس.

اليهود ينتقمون

من المصرارة ووادي الجوز

كان لا بد لليهود من الرد على نسف شارع بن يهودا، لكنهم تهيبوا القيام بعمليات هجومية بالمشاة بعد ان فرض المناضلون العرب هيبتهم في القدس، فلجأ اليهود الى استخدام مدافع المورتر. ففي اليوم نفسه الذي نسف فيه العرب شارع بن يهودا قصف اليهود حي المصرارة بقنابل المورتر من عيار ٢ انش و٣ انش. ووصل بعضها الى ساحة باب العمود فقتل جراء ذلك سبعة اشخاص بينهم عائلة الياس عبود بأكملها: الأب والأم والابن، وجرح كثيرون. فأثار ذلك غضبي ودعاني الى الاسراع في مغادرة المستشفى، وقررت تنفيذ عملية نسف عمارة مندلبوم التي سبق ان وضعنا خطة نسفها مع القائد عبد القادر الحسيني. ولكن اليهود فوّتوا علينا ذلك، إذ نقلوا في اليوم التالي كميات هائلة من التراب والحجارة من البيوت المهدومة في شارع بن يهودا واقاموا بها سواتر وحواجز ترابية عند مدخل عمارة مندلبوم، مما حال دون اقتراب اية سيارة من البناية. لذلك بدأت استعد للرد على أي هجوم مقبل من اليهود على حي المصرارة. وتمكنت من شراء ١٠٠ قنبلة مورتر من عيار ٢ انش، وأقسمت ان ألقنهم درسا قاسيا. وكنت اتمنى ان يحاولوا اقتحام الحي ودخوله بالمشاة.

لكن اليهود حاولوا ذلك بصورة اخرى وهي الهجوم على المؤخرة. فشنوا يوم ٢٦ شباط / فبراير ١٩٤٨ هجوما على حي وادي الجوز الذي يكوّن مؤخرة القطاع التابع لي. هاجموه من قواعدهم في مستشفى هداسا والجامعة العبرية على جبل الطور المسيطرة على حي وادي الجوز المنخفض، وقُدِّر عدد المهاجمين بمئة مقاتل.

بدأ الهجوم عند الفجر فتقدم المشاة تحت غطاء كثيف من نيران الرشاشات، متسترين

بالظلام وساعدهم وجود ضباب كثيف في الوادي وأشجار هنا وهناك. فوصلوا طرف الوادي حيث يقوم منزلان منفردان للعرب فنسفوهما على من فيهما. لكنهم لم يتمكنوا من التقدم اكثر من ذلك، اذ قمنا بهجوم معاكس. فإلى جانب سرية وادي الجوز اشتركت سرية باب الساهرة وخصوصا القوة المتحركة التابعة لقيادتي في باب الساهرة والتي تتمركز بصورة دائمة في حي وادي الجوز. وكان لنيران رشاش البراوننغ الذي نحمله دور كبير في نجاح الهجوم المعاكس لكثافة نيرانه. فتراجع اليهود، ولولا الضباب لما عاد احد منهم سالما. وسميت المعركة بيوم الغطيطة واصبحت من مفاخر معارك وادي الجوز. وقدرت خسائر اليهود فيها بـ١٢ قتيلا و١٨ جريحا، وقتل من العرب ثلاثة.

وما دمت في الحديث عن وادي الجوز الذي تعرض لهجمات كثيرة قبل هذا الهجوم وبعده، أسرد هنا قصة طريفة عن دخول دورية يهودية ليلية الى هذا الحي، قتلت مناضلا من عائلة الحلواني وجرحت رفيقه تيسير حسين الكرد. ففي ليلة شديدة الظلام كان الفتيان الصغيران تيسير ورفيقه الحلواني ورجل من أسرة علي عيد اللفتاوي يحرسون بجوار بيت علي عيد على بيادر الحي. وبعد منتصف الليل سمعوا اصواتا خافتة في الوادي. فنادى احدهم: (مين هناك) فلم يسمع جوابا، فقرر تيسير الكرد ان يتقدم ليتأكد من عدم وجود احد. فلما وصل الى مصدر الصوت فاجأه اليهود وسددوا السلاح الى ظهره واستولوا على سلاحه فناداه رفيقه الحلواني، فرد احد اليهود قائلا (تعال) فتقدم، ولما وصل إلى المكان فاجأه اليهود ايضا وسيطروا عليه. ثم قالوا لهما نحن لا نريد قتلكما ولكننا نريد توزيع نشرات من الهاغاناه على بيوت الحي، لذلك سنرسل احد رجالنا مع واحد منكما لتوزيع المنشورات ويبقى الآخر رهينة هنا، وعندما يعود رفيقنا سالما نطلق سراحكما. وفي هذه الاثناء استغرب رفيقهما اللفتاوي غيابهما وسكوتهما فناداهما، فسمع صوتا يقول له: (تعال) فاستغرب الصوت واطلق رصاصة في الهواء. عندها حاول الفتيان الأسيران الهرب فأفرغ اليهود مسدساتهم فيهما وانسحبوا. فأصيب كل واحد منهما بنحو عشر رصاصات ونقلا الى المستشفى، فتوفي الحلواني وعاش تيسير. وكنت مع بعض رجالي على مقربة من الموقع، فلما سمعنا صوت الرصاص تقدمنا بسرعة وتتبعنا اليهود وهم منسحبون وأعتقد اننا أوقعنا فيهم بعض الخسائر.

عبد القادر يعقد مؤتمرا صحافيا

في اثر نسف شارع بن يهودا وبعد الهجوم على حي وادي الجوز الذي انطلق من مستشفى هداسا والجامعة العبرية، عقد القائد عبد القادر الحسيني مؤتمرا صحافيا في حي باب الساهرة، توليت ترتيبات الأمن والحماية له. ودعي الصحافيون العرب والأجانب الى بيت الشيخ اسحق يونس الحسيني. وكان عدد الصحافيين كبيرا، وتحدث اليهم عبد القادر بأن اليهود يتخذون من مستشفى هداسا والجامعة العبرية قواعد عسكرية ينطلقون منها للهجوم

على الاحياء العربية، على الرغم من انها مراكز انسانية وعلمية، ووجه لليهود إنذارا عن طريق الصحافة بأن يكفوا عن استخدام هذه المؤسسات للاغراض العسكرية، والا فانه سيضطر الى نسفها بالمتفجرات. وأثار هذا المؤتمر اهتماما كبيرا محليا وعالميا، وصدرت في اثره تحذيرات يهودية واجنبية تشير الى ان عبد القادر يعني ما يقول، وان لديه القدرة على تنفيذ تهديده. كما كان لهذا المؤتمر اثر معنوي كبير لأنه عقد في قلب مدينة القدس وليس في بير زيت مثلا. كما توقف اليهود نسبيا والى حين عن استخدام هداسا والجامعة لشن هجماتهم.

تصاعدت جذوة المعارك واتسع نطاقها في آذار/ مارس ١٩٤٨ في القدس وفي جميع انحاء فلسطين. فالعرب شنوا حملات متوالية وناجحة على القوافل اليهودية من دون ان يحتلوا مستعمرة واحدة، وحيثما كان ذلك ممكنا تدخلت قوات الجيش البريطاني لصد العرب وحماية المستعمرات وانقاذ القوافل اليهودية المحاصرة. اما اليهود فبدأوا يحتلون القرى والضواحي العربية واحدة تلو الأخرى ويطردون سكانها من دون ان يتدخل الجيش البريطاني لمنع ذلك ولو مرة واحدة. واعلنت الهاغاناه في ٦ آذار/ مارس ١٩٤٨ التجنيد العام لكل يهودي في سن الخدمة العسكرية بمن في ذلك ذوو الجنسية الأميركية. كما اعلنت في ١٠ آذار/ مارس البدء بتنفيذ الخطة دالت الرامية الى احتلال قرى ومواقع معينة. ومع ذلك يمكن القول إن يد العرب كانت العليا في هذا الشهر خصوصا في القدس، ومن اهم معارك هذا الشهر في منطقة القدس ما يلي:

معركة جبل الماصيون (١٩٤٨/٣/١)

دأبت مستعمرة عطروت التي كان العرب يسمونها مستعمرة قلندية، وتقع شمالي القدس بالقرب من رام الله، على مهاجمة مواصلات العرب، واطلاق النار على الباصات المتجهة من رام الله الى يافا عن طريق اللطرون. وسقط نتيجة لذلك عدد من القتلى والجرحى العرب.

وفي صباح ١ آذار/ مارس هاجم ٢٠ مسلحا انطلقوا من مستعمرة عطروت سيارة باص متجهة من رام الله الى يافا، فأطلقوا عليها الرصاص وألقوا عليها عدة قنابل، لكن الباص وركابه نجوا بأعجوبة. وعند انسحاب اليهود الى عطروت كمن عدد من المناضلين العرب من ابناء رام الله والبيرة لهم ثم اشتبكوا معهم عند جبل الماصيون في معركة شارك فيها مناضلون من قرى بيتونيا ورافات وجديرة والجيب، كما حضر المعركة القائد عبد القادر الحسيني وأشرف عليها.

قتل في هذه المعركة ١٧ يهوديا وغنم المناضلون اسلحتهم، وسلمت جثث القتلى للجيش البريطاني.

نسف دار الوكالة اليهودية (١١/٣/١٩٤٨)

كان السيد أنطون داود ـ وهو من أهالي بيت لحم ـ مستخدما في القنصلية الأميركية في القدس كسائق خاص للقنصل الأميركي العام. وكثيرا ما قاد سيارته وفيها القنصل الى الوكالة اليهودية في شارع الملك جورج القريب من القنصلية، حتى صار الحراس اليهود يعرفونه شخصيا ويميزون سيارته الخاصة ويقدمون إليه كل التسهيلات. وشعر انطون ان بامكانه ان يخرج بسيارته من دون علم القنصل وان يلغمها ويدخل بها الى مبنى الوكالة اليهودية لنسفها بشرط ان لا يكون غيابه عن القنصلية طويلا. وعرض ذلك على المناضلين في القدس فوافقوا وأعدوا له لغما في مكان محدد يمكن ان يصله بسرعة وان يحمله في اي وقت يناسبه.

وفي صباح **١١** آذار/مارس **١٩٤٨** خرج بسيارة القنصل من دار القنصلية الى المكان المعين قرب باب العمود وحمل المتفجرات التي اعدت بمعرفة فوزي القطب قائد فرقة التدمير، ودخل بها الى دار الوكالة بلا صعوبة، وأوقفها في مكان مناسب جدا ثم اشعل فتيلها وخرج ماشيا ولم ينتبه اليه الحرس الا بعد ان ابتعد عنهم. فطلبوا منه الوقوف واطلقوا عليه النار لكنه تمكن من الانسحاب سالما ولم يلبث اللغم ان انفجر وكان يحتوي **٢٥٠** كلغ من (T.N.T.) وذلك في الساعة التاسعة والدقيقة **٤٥** حين كانت دار الوكالة غاصة بكبار المسؤولين. وكان الانفجار هائلا دمر الجناح الشمالي تدميرا كاملا وتصدعت باقي اقسام البناء وشب حريق كبير وقتل **٣٦** شخصا وجرح الكثيرون.

كان لهذه الحادثة اثر كبير في رفع معنويات العرب وهبوط معنويات اليهود، لأن الضربة كانت ناجحة جدا وفي الصميم. فدار الوكالة في منزلة دار الوزارة اليهودية أي حكومة المستقبل. وكان القتلى والجرحى من اكبر الشخصيات الصهيونية.

وفي اثر نسف دار الوكالة اليهودية واتساع المعارك في القدس اصدر البريغادير جونز الحاكم العسكري البريطاني في قطاع القدس انذارا قال فيه أنه يعتزم استعمال منتهى الشدة والصرامة، وانه «سيطلق النار على الفريقين المتقاتلين من غير تمييز اذا لم يلتزما السكينة ووضع حد لاعمالهما المتكررة». كما أصدر اوامره الى العرب واليهود بأن يمتنعوا عن اي وجود مسلح بالقرب من الطرق الرئيسية التي سينسحب عليها الجيش البريطاني عند انتهاء الانتداب وهي طريق القدس ـ حيفا، وطريق القدس ـ يافا.

الهجوم على ميكور حاييم (١٣/٣/١٩٤٨)

سبق ان تحدثت عن اشتباكات جرت في منطقة مستعمرة ميكور حاييم وبيت صفافا وعن اهمية موقع مستعمرات ميكور حاييم وتالبيوت ورامات راحيل جنوبي القدس. وبتاريخ **١٣/٣/١٩٤٨** نظم القائد عبد القادر الحسيني هجوما على ميكور حاييم بهدف احتلالها لخطورة موقعها. وقاد الهجوم بنفسه، لكنه للأسف لم يتمكن من احتلالها لسببين:

الأول: عدم توافر الأسلحة الثقيلة لـديه كي يتمكن رجاله من اقتحـام المنازل والتحصينات، فلم تكن لديه مدفعية من اي نوع.

الثاني: تدخل الجيش البريطاني الموجود في معسكر العلمين بالقرب من المستعمرة لمصلحة اليهود واجبار العرب على الانسحاب.

لم أشارك في هذه المعركة لبعدها عن مواقعي، ولكنني طلبت بعدها من عبد القادر ان ننظم هجوما لاحتلال مستعمرة نفي يعقوب التي تقطع طريقنا الى رام الله ونابلس، والتي قتل حراسها عددا من المارة العرب. فرفض الفكرة على الرغم من اتفاقه معي على خطر هذه المستعمرة على تحركاتنا العسكرية. فهي تعرقل اتصالنا بالقيادة في بيرزيت وتعرقل وصول النجدات الى القدس من الشمال. رفض الفكرة لأنه ــ كما قال لي ــ ليس لديه الامكانيات لاحتلالها. وضرب لي مثلا على ذلك تجربته المؤلمة في محاولة احتلال ميكور حاييم، وقال لا بد لنا من الاسلحة الثقيلة ولا بد من المدفعية، ولو مدفع واحد او إثنين من مثل ما لـدى القاوقجي. وشرح لي بألم كيف فشل احتلال ميكور حاييم.

معركة شعفاط (١٩٤٨/٣/٢٤)

أدى اصرار اليهود على المحافظة على مستعمرتيهما في شمالي القدس: مستعمرة نفي يعقوب وعطروت وعلى استمرار الاتصال بهما بالسيارات المصفحة عبر حي الشيخ جراح وقرية شعفاط الى معارك متواصلة على هذا الطريق. وكان توافر المصفحات الكثيرة لدى اليهود يشجعهم على ذلك.

وفي ١٩٤٨/٣/٢١ مرت بشعفاط قافلة يهودية، وراح رجالها يطلقون النار بغزارة على سكان القرية فقتلوا عشرة منهم وجرحوا كثيرين. وفي اثر ذلك أعد كمين لهذه القوافل يوم ١٩٤٨/٣/٢٤ بترتيب من القائد عبد القادر الحسيني. ولدى مرور سيارتـين مصفحتين يهوديتين اشتبك معهما الكمين وقتل من اليهود ١٤ رجلا وأُحرقت المصفحتان. وكالعادة تدخل الجيش البريطاني وأوقف القتال، وأنقذ من بقي من اليهود في قيد الحياة وكانوا ستة عشر بينهم عشرة جرحى.

وتجدر الملاحظة ان بعض مصفحات اليهود كانت سيارات باص كبيرة تتسع للعديد من المقاتلين والركاب.

وفي اليوم نفسه الذي جرت فيه معركة شعفاط هوجمت قافلة يهودية على طريق يافا ــ القدس قرب باب الواد مؤلفة من ١٣ سيارة دمرت جميعها. كما هوجمت قافلة كبيرة اخرى في اليوم التالي على الطريق نفسها كانت مؤلفة من ٦٠ سيارة. وجرت معركة مع الكمائن على طول الطريق استمرت اكثر من عشرين ساعة متواصلة تمكنت بعدها من الوصول الى القدس بعد ان خسرت حوالي ١٥ من رجالها بين قتيل وجريـح.

عبد القادر الحسيني

يغادر القدس الى دمشق (١٩٤٨/٣/٢٦)

أمضى القائد عبد القادر الحسيني في أواخر آذار/مارس بضعة أيام في حي باب الساهرة كنت ألازمه خلالها. وأعلمني انه تلقى أخبارا سارة من اللجنة العسكرية لفلسطين ــ وهي اللجنة التي ألفتها جامعة الدول العربية برئاسة اسماعيل صفوت وطه باشا الهاشمي لتقود حرب فلسطين ــ فهي ستلبي طلباته من الاسلحة التي يحتاجها، وانها استدعته رسميا للسفر الى دمشق للنظر في احتياجاته. وكان متفائلا جدا وسألني عن احتياجاتي من السلاح والعتاد ودوّن العدد مضاعفا من كل صنف طلبته. وعلمت انه سجل لديه ايضا احتياجات القادة الآخرين في منطقة القدس. وفي يوم آخر أطلعني على تقرير مفصل أعده ليقدمه الى اللجنة العسكرية في دمشق. وقرأت التقرير باهتمام واعجبت بما جاء فيه من دقة وصدق وموضوعية حول اوضاع منطقة القدس العسكرية واهم ما ورد فيه:

١ ــ ان قوات العدو تقدر بأربعة اضعاف قواتنا سواء في الرجال او العتاد، مع تفوق كبير لدى العدو في العربات المصفحة التي لا نملك منها شيئا. ولا نملك أسلحة مضادة للدروع لمقاومتها سوى بندقية طويلة تطلق طلقة واحدة من طراز استخدم في الحرب العالمية الاولى تسمى TANK RIFLE.

٢ ــ اننا فرضنا هيبتنا على العدو في منطقة القدس، لكن لا يمكننا الاستمرار في الحفاظ على هذه الهيبة اذا استمر تسلحنا في وضعه السيء.

٣ ــ عندما ينسحب الانكليز من القدس سيتسع المجال للعدو للاستفادة من تفوقه العسكري. فالانكليز اقاموا مناطق عازلة ZONES بين العرب واليهود في القدس قصرت خطوط التماس، وستصبح خطوط القتال اطول بكثير مما هي عليه الآن بعد انسحاب الانكليز.

٤ ــ اذا تمكن العدو من فك الحصار العربي المضروب على يهود القدس عند باب الواد فان ذلك سيزيد من خطورة الوضع العسكري بسبب الامدادات العسكرية التي ستصل الى القدس.

٥ ــ ضرورة الاستيلاء على مصانع شركة البوتاس الموجودة على شاطىء البحر الميت قرب اريحا. ولأنها معزولة خلف خطوطنا فبالامكان الاستيلاء عليها سالمة.

في أحد الأيام حضرت جانبا من اجتماع عقده عبد القادر مع اعضاء الغرفة التجارية وبعض تجار القدس، شرح لهم فيه خطورة وضعنا العسكري على الرغم من مظاهر تفوقنا، وطلب منهم جمع ٥٠٠ جنيه فلسطيني ليقيم بها ابراجا اسمنتية في اماكن استراتيجية للدفاع عن الاحياء العربية. وكان موقف التجار غير ايجابي. ولما انصرفوا ابديت له استغرابي من

ضآلة المبلغ وتصرفه المتساهل مع التجار، فحدثني مجددا عن القيود التي فرضتها عليه اللجنة العسكرية ومن جملتها ان لا يسمح له ولرجاله بجمع التبرعات من الشعب ولو كان ذلك لاغراض عسكرية. وقال ان اللجنة العسكرية وجهت له لوما بسبب قيام اللجان القومية في أحياء القدس بجمع تبرعات لشراء الاسلحة عند بدء القتال، مع ان ذلك جرى قبل عودته الى القدس ومن غير علمه.

وفي ٢٦ آذار/مارس ١٩٤٨ غادر عبد القادر القدس قاصدا دمشق مع دعواتنا له بالتوفيق. وكانت آخر تعليماته لي: «حافظ على قطاعك ولا تحرك أية قوة منه للنجدة او لغيرها لخطورة موقعك».

معركة الدهيشة (١٩٤٨/٣/٢٧)

في الصباح الباكر من يوم ١٩٤٨/٣/٢٧، والناس نيام، انطلقت من القدس قافلة يهودية كبيرة مسلحة تتألف من ٥٨ سيارة مصفحة، سواء منها المصفحات المقاتلة او الباصات او الشاحنات، متجهة الى مستعمرة كفار عتسيون لتعزيز وضعها العسكري والتمويني، وتمكنت من الوصول اليها من دون ان يعترضها احد. ولاحظ العرب مرور القافلة المفاجىء وقدروا انها ستعود من الطريق نفسه، فهرعوا الى موقع الدهيشة القريب من بيت لحم ونصبوا لها كمينا وأغلقوا الطريق بالحواجز والالغام. ولم تلبث القافلة ان عادت بسرعة عند شروق الشمس، فهاجمها العرب واشتبكوا معها فتوقفت عند الحواجز لا تستطيع اجتيازها. وتكاثر العرب المهاجمون وحاصروا القافلة من كل جانب، ولجأ معظم اليهود الى بناء قديم مهجور مجاور للطريق وأحاطوه بسياراتهم المصفحة. واستمرت المعركة طوال النهار من دون ان يتمكن اليهود من اختراق الحصار. وكثرت فيهم الاصابات، واستمر الحصار طوال الليل، ولم تتمكن اي نجدة من الوصول اليهم. وفي صباح ٢٨ آذار/مارس حلقت في سماء المعركة طائرة يهودية ثم تبعتها ثلاث طائرات ألقت لليهود المؤن والعتاد فوقع معظمه في أيدي العرب. ثم أُسقطت احدى الطائرات وقتل من فيها فانحطت معنويات اليهود المحاصرين.

ولما يئس اليهود من الخلاص استنجدت الوكالة اليهودية بالانكليز فتقدم الجيش البريطاني لنجدتهم وطلب من العرب ايقاف القتال وفك الحصار. وجرت مفاوضات اتفق في نهايتها على وقف القتال وانقاذ جميع اليهود الأحياء بشرط ان يسلموا جميع اسلحتهم وسياراتهم للعرب. وتوقف القتال بعد ٣٦ ساعة، وسلم اليهود اسلحتهم بعد ان عطلوا معظمها ونقلهم الجيش البريطاني الى القدس، واشرف على عملية الاستلام المرحوم كامل عريقات نيابة عن قيادة جيش الجهاد المقدس. وغنم العرب ثلاث مصفحات قتالية وثمانية باصات كبيرة مصفحة تصلح للقتال، وثلاثين شاحنة جميعها جيدة. كما غنموا نحو ١٧٠ قطعة سلاح وكميات من المتفجرات والعتاد. وبكل اسف لم تتمكن القيادة من حيازة هذه

المغانم العسكرية لأن المقاتلين المدنيين تقاسموها. وقتل من اليهود في المعركة عدد كبير وجرح الكثيرون وانقذ الجيش البريطاني ١٥٩ شخصا بينهم الجرحى و٨٦ امرأة. وخسر العرب إثني عشر شهيدا وعددا من الجرحى.

معركة كبيرة في حي المصرارة (١٩٤٨/٣/٢٧)

للتخفيف من وطأة القتال عن اليهود في معركة الدهيشة، ولتحويل انظار المقاتلين العرب الى جهة اخرى خـطيرة، وربما رغبة في الانتقام ايضا، صب اليهود وابلا من قنابل المورتر من عيار ٢ و٣ انش على حي المصرارة بعد ظهر السبت الواقع فيه ٢٧ آذار/مارس اثناء اشتعال معركة الدهيشة. وامتد القصف الى ساحة باب العمود حيث سقط عدد من القتلى والجرحى. وكانت قواتي جاهزة للرد على هذا الهجوم بسرعة، وحركت فورا نجدة من أفراد قواتي في حي باب الساهرة، واطلقنا على حي ميئه شعاريم اكثر من مئة قنبلة مورتر من عيار ٢ انش وفتحنا نيران رشاشاتنا بكثافة، ثم وصلتنا نجدات من داخل البلدة القديمة كانت احداها مجموعة حرس الحرم الشريف بقيادة الحاج عبد المجيد المدني مسلحة بمورتر ٢ انش. فطلبت منه ان يركز المدفع في مكان ملائم واطلقنا جميـع ما كان يحمله من قنابل وعددها عشرون.

وكنت اتمنى لو ان اليهود حاولوا التقدم الى الحي بالمشاة حيث كانت اعداد كبيرة من قنابلنا اليدوية (البقج) تنتظرهم. وتحمس عدد من الشباب فاندفعوا يريدون اقتحام حي ميئه شعاريم خلافا لأوامري، الا ان رجال الطيران الانكليز المرابطين في المستشفى الايطالي المشرف على مدخل الحي، ورجال البوليس البريطاني الموجودين في ثكنة بين حي سعد وسعيد وميئه شعاريم اطلقوا عليهم النار وردوهم بعد ان أصابوا بعضهم. وكان بين الجرحى عبد العزيز الشخشير عضو لجنة حي سعد وسعيد.

أبلى رجالي في هذه المعركة بلاء حسنا وأظهروا بسالة فائقة أخص منهم بالذكر المناضل الشهيد مروح سعادة الذي استشهد في ١٩٤٨/٥/١٩، وهو من اهالي قرية ترمسعيا ومن سكان القدس. وكان يرمي على مدفع المورتر، وكان تدرب على استخدامه اثناء خدمته المسلحة في قوات حدود شرق الأردن، فصعد الى سطح أعلى واقرب عمارة وهي بناية المدرسة الاسوجية، مما جعل قنابله تصل الى مسافات بعيدة غير متوقعة، وكنت اوجه قذائفه الى سوق ميئه شعاريم المزدحم عادة بالناس والذي اعرفه جيدا وبدقة، مما اوقع خسائر كبيرة بين اليهود وادى الى اشتعال حريقين كبيرين، احدهما شب في مطحنة كانت تعتبر اهم تحصينات اليهود في الحي. كما اخص بالذكر الشهيد اسماعيل الشرباتي ــ استشهد فيما بعد ــ وهو من اهالي الخليل ومن سكان القدس، وكان يرمي على رشاش براوننغ من فوق سطح بناية عالية ومسيطرة وهي دار الدكتور صليبا سعيد المعروفة، وكان هو ومروح مكشوفين تماما لنيران

العدو، لكن سيطرتنا على المعركة حمتها. وكان مروح واسماعيل من أفراد القوة المتحركة في حي باب الساهرة التي أبلت بلاء حسنا في هذه المعركة وفي معارك وادي الجوز والشيخ جراح.

لم اخسر في هذه المعركة اي مقاتل. لكن قنابل المورتر أوقعت اضرارا في بعض البنايات وخسائر بين المدنيين، فقتل عربيان في وسط حي المصرارة وخمسة في باب العمود عند طرف هذا الحي، وجرح عدد كبير. اما خسائر اليهود فكانت اكبر بكثير. وروت بعض صحفهم ان عدد قتلى اليهود بلغ ١٨٥ والجرحى كثيرون وان آلاف السكان هجروا الحي.

وفي اليوم التالي لهذه المعركة وصل احد ضباط الطيران الانكليز الى نقطة الحراسة القريبة من المستشفى الايطالي وطلب من رجالي ان يجتمع مع المسؤول عن الحي. فسمحت له بمقابلتي، فقدم لي نفسه على انه موفد من قائد قوة الطيران البريطاني المتمركزة في المستشفى الايطالي، وأن قائده طلب منه ان يخبرني بأنه في حالة وقوع اي اشتباك آخر في المستقبل كالذي حصل فان قواته ستضرب مصادر النيران بالمدافع.

فسألته: هل كان موجودا في المستشفى ساعة وقوع الاشتباك، فقال: نعم. فقلت: هل لاحظتم من الذي بدأ بإطلاق النار وقذائف المورتر. فقال: اليهود بدأوا لكنكم عندما رددتم على النار لم تضربوا مصادر النيران بل وجهتم قنابلكم الى المدنيين في منطقة مزدحمة مما اوقع فيهم خسائر كبيرة وجعل اكثر من خمسة آلاف يهودي مشردين بلا مأوى. فقلت: عندما بدأ اليهود رماية المورتر هل وجهوا قذائفهم نحو اهداف عسكرية ام نحو المدنيين في ساحة باب العمود؟ فقال: هذا صحيح، فقلت: اخبر قائدك ان يقول لليهود ان المصرارة ليست (حيطة واطيه) وانني سأرد على نيرانهم بأشد منها اذا عادوا للاعتداء على المصرارة. وفي اثر ذلك توقفت هجمات اليهود على هذه المنطقة حتى يوم ١٩٤٨/٤/٢٦.

وسأتحدث عن ذلك فيما بعد.

احصاء الخسائر

اصدرت حكومة فلسطين احصاء بالخسائر التي وقعت في فلسطين منذ ١٩٤٧/١١/٢٩ حتى نهاية آذار/مارس ١٩٤٨ تضمن ما يلي:

١ ــ مجموع القتلى: ٢٦٣٥ منهم ١٧٠٠ من العرب و٩٣٥ من اليهود.

٢ ــ مجموع الجرحى: ٣٥٥٢ من العرب واليهود.

٣ ــ خسائر البريطانيين: ١٠٠ قتيل و٣٣٠ جريحا.

الموقف السياسي

من اهم الاحداث السياسية في هذه الفترة ان مجلس العموم البريطاني أصدر بتاريخ ١٠/٣/١٩٤٨ قرارا بانهاء الانتداب وانسحاب القوات البريطانية من فلسطين يوم ١٥/٥/١٩٤٨.

لكن موقف الحكومة الاميركية في هذه الاثناء كان قلقا وغير مستقر بسبب رجحان كفة المقاتلين العرب في معظم الاشتباكات، وبالتالي خشيت أميركا على مستقبل اليهود في فلسطين وانهم ربما لا يستطيعون مواجهة العرب في نهاية الانتداب. فأعلنت حكومة الولايات المتحدة بتاريخ ١٩/٣/١٩٤٨ بلسان السناتور اوستن مندوبها في هيئة الامم المتحدة ان حكومة الولايات المتحدة سحبت تأييدها لمشروع تقسيم فلسطين واصبحت تميل الى فرض مشروع الوصاية على فلسطين. ويبدو ان ذلك كان يمثل رأي وزارة الخارجية الأميركية. وأيدت موقف أميركا كل من فرنسا والصين وبريطانيا ومعظم دول مجلس الأمن.

وكان الرئيس ترومان استقبل وايزمن سرا في البيت الأبيض يوم ١٨/٣/١٩٤٨ وأعلن له انه يؤيد اعلان قيام الدولة اليهودية في ١٥/٥/١٩٤٨.

وعارض الرئيس ترومان سياسة وزارة الخارجية الاميركية، كما ان تريغفي لي الامين العام للامم المتحدة كان يعارض ذلك ويصر على تنفيذ قرار التقسيم.

اما اليهود فأعلن بن ــ غوريون يوم ١٩ /٣ /١٩٤٨ ان الدولة اليهودية لن تقوم على اساس قرار التقسيم الصادر عن الامم المتحدة بل على القوة العسكرية. كما صرح وايزمن انه يصر على قرار التقسيم وان قوة الدول العربية خرافة.

الا ان اتساع المعارك في فلسطين حمل حكومة الولايات المتحدة على تقديم اقتراحين وافق عليهما مجلس الامن.

الاول: يدعو المسلحين العرب واليهود الى التوقف عن القتال حالا ويطلب من الوكالة اليهودية والهيئة العربية العليا ارسال ممثلين الى مجلس الامن في الحال لبحث شؤون الهدنة.

الثاني: يطلب من السكرتير العام للامم المتحدة القيام بتوجيه الدعوة الى الدول الاعضاء لعقد جلسة خاصة للجمعية العامة يبحث فيها بتوسع مستقبل الحكم في فلسطين.

واستنادا الى ذلك أذاع المندوب السامي لفلسطين بيانا يوم ٣/٤/١٩٤٨ ناشد فيه العرب واليهود الاستجابة لقرار مجلس الامن ووقف القتال فورا.

واعلنت جامعة الدول العربية انها توافق على وقف القتال وعقد هدنة، كما توافق على وصاية دولية على فلسطين لمدة محدودة.

اما الوكالة اليهودية فأعلنت رفضها الوصاية. واستمر القتال في فلسطين. وبدأ اليهود مرحلة جديدة من النشاط العسكري لاثبات قدرتهم على مواجهة العرب واقامة الدولة اليهودية على ارض فلسطين.

في نيسان / إبريل ١٩٤٨ بدأت آثار تفوق اليهود في السلاح والعتاد وعدد المسلحين تظهر للعيان. وعزز ذلك دعم الانكليز لهم بشتى الوسائل، وبدأ زمام المبادرة ينتقل الى أيديهم. ففي منطقة القدس كانت البداية ان وضع اليهود خطة نحشون التي هدفت إلى السيطرة على طريق تل ابيب ـ القدس، خصوصا في منطقة باب الواد ليتمكنوا من فك الحصار عن يهود القدس وتموينهم بعد ان كادوا يموتون جوعا. وكانت هذه الخطة تقوم على اساس احتلال القرى العربية التي تقع على المرتفعات التي تتحكم في الطريق عند مدخل وادي علي من ناحية الغرب، وهي التي يرابط فيها المناضلون الذين دأبوا على اغلاق الطريق ومهاجمة القوافل اليهودية، وهي قرى بيت محسير وساريس ودير محيسن وخلدة من جهة الغرب، والقسطل ودير ياسين من جهة الشرق.

موقع القسطل

تقع القسطل على بعد عشرة كيلومترات الى الغرب من القدس على قمة مرتفع استراتيجي يسيطر على طريق القدس ـ يافا وعلى المنطقة المحيطة به. وترتفع ٧٥٠ مترا عن سطح البحر بينما يكون ارتفاع الطريق العام قرب القسطل ٥٠٠ متر فقط. وتلتف الطريق حول القسطل على شكل نصف دائرة. وكلمة القسطل محرفة عن كلمة (Kastle) الفرنسية و (Castellum) اللاتينية أي القلعة. وكانت على مدى التاريخ حصنا عسكريا لا يضاهيه في اهميته العسكرية في شمالي القدس سوى قمة النبي صموئيل.

وتقوم في اعلى قمة القسطل دار المختار ومسجد صغير ومقبرة وبقايا قلعة، وتنحدر الارض (الحبلات) حول القمة نحو الشمال والجنوب والشرق على شكل مدرج، وفي الجهة الغربية يمتد حرج كثيف. وعلى مسافة قصيرة في اتجاه الجنوب الغربي يقوم على ارض القرية مرتفع آخر اقل ارتفاعا خال من المباني. وعلى بعد كيلومتر الى الشرق من القسطل من جهة القدس تقع مستعمرة موتسا اليهودية ومصح ارزا. وعلى بعد كيلومتر الى الغرب تقع مستعمرة العنب (الدلب) وبعدها بقليل مستعمرة الخمسة والى الجنوب على مسافة كيلومتر ونصف يقع محجر الياشار اليهودي الكبير.

في سنة ١٩٤٨ كانت القسطل قرية صغيرة لا يزيد عدد سكانها على ٣٠٠ نسمة،

ولم تكن فيها حامية عسكرية عربية سوى عدد قليل من ابنائها المسلحين ببعض البنادق الخاصة.

اليهود يحتلون القسطل

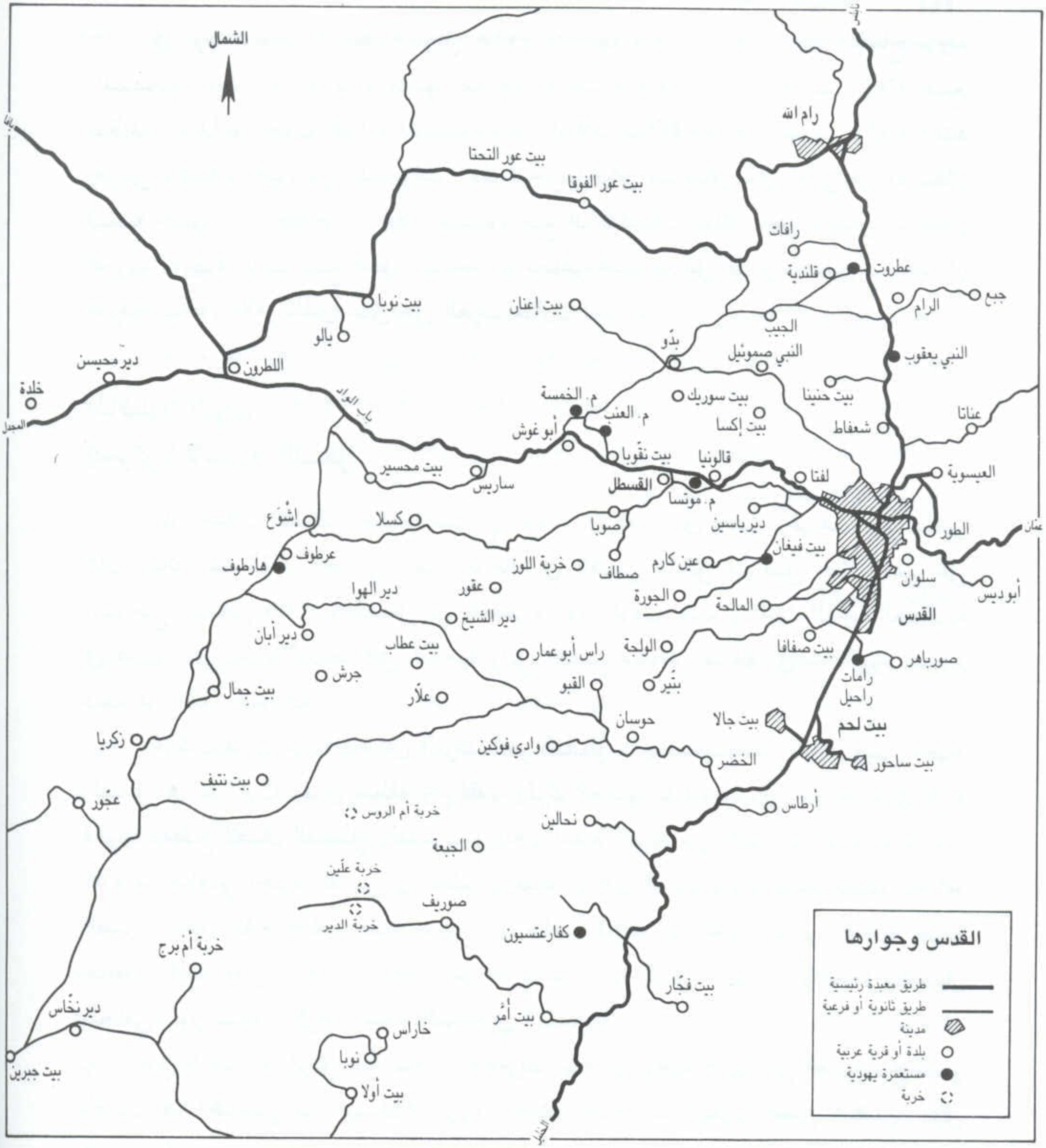
في يوم السبت ٣ نيسان / إبريل ١٩٤٨ هاجمتها قوة كبيرة من رجال البلماح مزودة بالمصفحات ومدافع المورتر واحتلتها بعد معركة قصيرة مع سكانها. وقامت باجلاء جميع سكانها، وبدأت بجلب اللوازم لتحصينها، من اسلاك شائكة وحديد واسمنت والغام وعتاد حربي وكميات كبيرة من المتفجرات. ولم يتدخل الجيش البريطاني بأي شكل من الاشكال ليمنع اليهود من احتلالها او اجلاء سكانها، مع ان تعليمات القائد العام للجيش البريطاني للعرب واليهود كانت تمنع وجود مسلحين او مظاهر عسكرية على طريق القدس ـ يافا، كما اشرت سابقا، الأمر الذي طُبق على العرب مرارا.

المناضلون العرب
يتحركون لاسترداد القسطل

اثار احتلال القسطل اهتماما كبيرا في القدس وقراها، وفي دمشق وغيرها. ومن دمشق كان القائد عبد القادر الحسيني يتصل برجاله في القدس بشكل متواصل حاثا اياهم على استرجاع القسطل قائلا: «القسطل هي القدس». وفي الوقت نفسه يستحث اللجنة العسكرية في دمشق لتزويده بالاسلحة التي يحتاجها والتي اصبح سقوط القسطل في يد اليهود يستلزم ذلك من اجل استردادها.

تحركت قوات من المناضلين العرب نحو القسطل، جاء بعضها من قيادة جيش الجهاد المقدس في بير زيت وقرى منطقة رام الله، وتمركز بعضها بقيادة صبحي ابو جبارة في قرية قالونيا ليقطع اتصال القسطل بالقدس، وجاءت اعداد اخرى من الجنود عن طريق قرية عين كارم من مناضلي الجهاد المقدس في القطمون بقيادة ابراهيم ابو دية وبيت صفافا بقيادة عبد الله العمري وعين كارم بقيادة خليل منون. كما جاءت قوات من مدينة القدس القديمة بقيادة حافظ بركات ومن ابو ديس بقيادة كامل عريقات. وشارك في الاشراف والمتابعة والتنسيق المحامي انور نسيبة سكرتير اللجنة القومية في القدس.

وفي ٤ نيسان / ابريل بدأ المناضلون العرب يهاجمون مواقع اليهود من الجنوب، واستمر القتال في الخامس من نيسان / ابريل حيث احرز المناضلون بعض التقدم. وفي ٦ نيسان / ابريل قام العرب بهجوم فاحتلوا محاجر الياشار اليهودية ونسفوا ابراجها العسكرية ومنشآتها. غير ان اليهود جلبوا نجدات كبيرة وقاموا بهجوم معاكس، وتحركت قواتهم من المستعمرات المجاورة والمحيطة بالقدس لمنع وصول نجدات الى العرب، واستخدموا طائرة


الشمال
القدس وجوارها
طريق معبدة رئيسية
طريق ثانوية أو فرعية
مدينة
بلدة أو قرية عربية
مستعمرة يهودية
خربة
رام الله
بيت عور التحتا
بيت عور الفوقا
رافات
عطروت
قلندية
جبع
الرام
الجيب
بيت إعنان
بيت نوبا
يالو
بدّو
النبي صموئيل
النبي يعقوب
دير محيسن
اللطرون
خلدة
م. الخمسة
م. العنب
بيت سوريك
بيت حنينا
أبو غوش
بيت إكسا
شعفاط
عناتا
بيت نقّوبا
قالونيا
لفتا
العيسوية
بيت محسير
ساريس
القسطل
م. موتسا
دير ياسين
الطور
إشوَع
كسلا
صوبا
بيت فيغان
عرطوف
هارطوف
خربة اللوز
عين كارم
صطاف
سلوان
أبو ديس
عقور
الجورة
المالحة
القدس
دير الهوا
دير الشيخ
دير أبان
بيت عطاب
راس أبو عمار
الولجة
بيت صفافا
صورباهر
جرش
رامات راحيل
بيت جمال
علّار
القبو
بتّير
بيت جالا
حوسان
بيت لحم
زكريا
وادي فوكين
الخضر
بيت ساحور
بيت نتيف
عجّور
خربة أم الروس
أرطاس
نحالين
الجبعة
خربة علّين
خربة الدير
صوريف
كفارعتسيون
خربة أم برج
بيت فجّار
دير نخّاس
بيت أمّر
خاراس
نوبا
بيت جبرين
بيت أولا

هاجمت مواقع المناضلين قرب القسطل. ومن ناحية ثانية تمكن اليهود في ٦ نيسان / ابريل من احتلال قريتي دير محيسن وخلدة القريبتين من باب الواد وتمكنوا من شق طريق وايصال قافلة من المؤن والامدادات الى القدس مؤلفة من ٤٠ شاحنة كبيرة. وتحرج الموقف واصيب كامل عريقات بجراح بسيطة اضطرته الى العودة الى بيته في قرية ابو ديس شرقي القدس. وكادت ذخائر المناضلين العرب تنفد، وحاول كثيرون الاستنجاد بقوات من جيش الانقاذ والجيش العربي الاردني لكنهم لم يفلحوا بذلك.

عبد القادر في دمشق

في هذه الاثناء كان القائد عبد القادر الحسيني في دمشق يتميز غيظا ويتحرق شوقا للعودة الى القدس. ولكنه لم يحصل حتى ذلك الوقت من اللجنة العسكرية على أي سلاح. واستمر في الضغط على قائد اللجنة العسكرية اسماعيل صفوت باشا وعلى عضويها الحاضرين: طه باشا الهاشمي ومحمود الهندي. وحاول ان يستعين بقادة الدول العربية الموجودين في دمشق مثل رياض الصلح رئيس وزراء لبنان وعبد الرحمن عزام الامين العام لجامعة الدول العربية وأحمد الشرباتي الوزير السوري، واشترك الحاج امين الحسيني ورجال الهيئة العربية العليا في هذا الضغط. واستمرت اللجنة العسكرية على عنادها وموقفها السلبي مدعية ان ليس لديها سلاح، اي سلاح، لتعطيه لعبد القادر. وعندما كان يقول لهم انه رأى السلاح مكدسا في معسكر قريب من دمشق كانت اللجنة العسكرية تدعي ان ذلك السلاح خاص بجيش الانقاذ، ولا يمكنهم ان يعطوه منه شيئا. وعندما يطلب اعطاءه بعض المدافع التي لدى القاوقجي في فلسطين واعدا بأن يصفي المستعمرات المحيطة بالقدس قبل ١٥ أيار / مايو اذا حصل على السلاح اللازم، تكرر اللجنة العسكرية رفضها. فيطلب ان تتحرك مدفعية القاوقجي الى القسطل للمساندة فيرفض ذلك. ويتأزم الموقف جدا مساء ٦ نيسان / ابريل ويتبادل الطرفان الكلمات اللاذعة، ويصيح عبد القادر في وجوه اعضاء اللجنة العسكرية: «انتم خونة، انتم مجرمون، سيسجل التاريخ انكم أضعتم فلسطين». ويخرج من مكان الاجتماع في غاية الغضب والانفعال ليعود الى القدس.

عبد القادر يعود الى القدس

الساعة الخامسة من صباح الاربعاء الواقع فيه ٧ نيسان / ابريل ١٩٤٨ أيقظني اخي صبحي الذي كان مقيما في دمشق لمواصلة العلاج، وكان ما يزال ضعيف الذاكرة ضعيف النطق بسبب اصابته في حارة اليهود التي سبق ذكرها. وفهمت منه انه وصل لتوه من دمشق برفقة عبد القادر الحسيني وعدد من المناضلين. فسألته فورا هل احضرتم معكم سلاحا فقال:

لا ادري. وفهمت ان عبد القادر نزل في بيت اخيه فريد بك الحسيني المجاور لمسكني في حي باب الساهرة، فتوجهت فورا الى بيت فريد بك ووجدت على الباب الحارس الشخصي لعبد القادر عوض الترمسعاوي، وسألته عن كميات السلاح وانواع السلاح التي احضروها معهم، لانني ــ كما سبق ان ذكرت ــ كنت انتظر استلام ما وعدني به القائد عبد القادر عند سفره الى دمشق، ولم اكن على علم بما كان يدور في دمشق بين عبد القادر واللجنة العسكرية. وقال لي عوض: تقريبا لم نحضر شيئا. لم نحضر سوى اسلحتنا الفردية التي نحملها فضلا عن نصف كيس «فشك مكبسن» انكليزي، ونصف كيس «فشك مكبسن» الماني ومعنا بعض القطع امانة تخص بعض الاشخاص. صعقت لسماعي اقواله ولم اصدقها مع انه شاب صادق بريء وشجاع. قلت: «أين ابو موسى؟» قال: «جوا نايم يستريح. إلْنا طول الليل بنمشي، خرجنا من الشام متأخرين. وبدو ينام ساعتين».

وقعت عليَّ هذه الأخبار وقع الصاعقة، وغمرني الغم والأسى. كنت حسب وعود عبد القادر قبل سفره أتوقع استلام عدد من الرشاشات وبعض الاسلحة المقاومة للدروع وبعض مدافع المورتر وكمية جيدة من الذخيرة لأسلحتنا المتنوعة الانكليزية والالمانية والفرنسية والايطالية، وذخيرة أميركية لرشاشات براوننغ، وقنابل مورتر.

أمر عسكري

عدت بعد ساعتين فقال لي عوض ان عبد القادر الحسيني ينتظرني. فدخلت وسلمت عليه ولاحظت انه في اشد حالات الغضب، قال لي فورا: «مطلوب منك مأمورية لا يستطيع ان يقوم بها غيرك؟ اريدك ان تذهب حالا الى كامل عريقات فقد علمت ان حصته من الغنائم العسكرية من معركة الدهيشة كانت مصفحة وعدة رشاشات، وأنا اعتبرها ملكا للقيادة وليست ملكا شخصيا. احضرها لي». لم يقل لماذا يريدها حالا. لم يقل لي انه سيتوجه الى القسطل. لم يحدثني عما جرى معه في دمشق مع اللجنة العسكرية، ولم يكن الجو ليسمح لي بالحديث ولم تستغرق مقابلتي سوى دقائق. قلت: سأحضر لك بالتأكيد ما طلبته من كامل عريقات، وسأتوجه اليه حالا. وخرجت وانا اقدر انه اختصر المقابلة لئلا احرجه بالسؤال عن وعوده لي بتزويدي بالسلاح. ولم تكن حالته النفسية تسمح بالحديث عن هذا الموضوع، خصوصا وانا اعرف انه عاد من دمشق خالي الوفاض.

ذهبت فورا الى بيت كامل عريقات في قرية ابو ديس، فوجدته في السرير بسبب جرحه الذي أصيب به في محاجر الباشار في اليوم السابق. وكانت جراحه بسيطة لا تستدعي دخوله الى المستشفى، ولكنه كان مرهقا. وكانت تربطني به مودة ــ رغم ما بيننا من تباين ــ نشأت حديثا من خلال علاقتنا بالحزب العربي الفلسطيني ومنظمة الفتوة التابعة له. لم يكن كامل عريقات يعلم حتى تلك الساعة عن وصول عبد القادر من دمشق، واستغرق أدائي مهمتي

معه وقتا طويلا بما في ذلك تناول طعام الغداء على مائدته. والمهم انني نجحت، وأخذت المصفحة اليهودية وكانت بحالة جيدة جدا، وستة رشاشات من نوعيات مختلفة بعضها لم يكن لدينا مثلها، وكانت جميعها غير صالحة للاستعمال اذ اعطبها اليهود قبل ان يستسلموا ويسلموها للعرب. غير ان من الممكن اصلاحها.

توجهت مع المصفحة الى القدس، الى حي باب الساهرة حيث بيت فريد بك، وحيث قيل لي ان عبد القادر غادر البيت الى القطمون. فاتصلت تلفونيا بقيادة ابراهيم ابو دية في القطمون وسألت عن ابراهيم وعبد القادر فقيل لي انهما غادرا القطمون الى القسطل عن طريق عين كارم. لم يكن لي مرجع آخر لاسأله كيف اتصرف ولم اقدر ان عبد القادر سيشن هجوما مركزا على القسطل في تلك الليلة ٧ ـ ٨ نيسان / ابريل ١٩٤٨، كما ان اليهود قاموا بمناوشات لافتة للنظر في قطاعي. وكما سبق ان ذكرت كانت تعليمات عبد القادر الثابتة لي ان لا أغادر قطاعي وأن لا أشارك في النجدات و«الفزعات» لخطورة مواقعي فقلت في نفسي: «الصباح رباح. علي ان اراقب تحركات العدو في قطاعي وفي الصباح اقرر ما يجب عمله».

عبد القادر يحاول استرداد القسطل

في تلك الليلة المشؤومة وصل عبد القادر بعد رحلة شاقة الى محاجر الباشار المدمرة التي احتلها العرب، وجمع رجاله. وروى لي المناضل ابراهيم ابو دية بعد ثلاثة ايام، حين كان جريحا مقيما في عيادة حديثة اقيمت بارتجال عندي في حي باب الساهرة (بيت اسماعيل بك الحسيني الذي اصبح فيما بعد فندق اورينت هاوس) ما يلي: وضعنا خطة لاحتلال القسطل ونظمنا صفوفنا للهجوم على ثلاثة محاور، فبعد القصف بالمورتر، تتقدم الميمنة من الجنوب الشرقي ويقودها حافظ بركات والميسرة تتقدم من الجنوب الغربي قوامها مجموعة المناضل هارون بن جازية والقلب يقوده ابراهيم ابو دية. اما القائد عبد القادر الحسيني فاتخذ من محاجر الباشار مقر قيادة على بُعد نحو كيلومتر ونصف من قمة القسطل، ولم يُبْقِ لديه الا بعض الاداريين من كبار السن، حتى ان حارسه الخاص عوض محمود الترمسعاوي ألحقه بابرهيم ابو دية لانه كان مسلحا برشاش برن جيد.

عند منتصف الليل ـ وكان شديد الظلام ـ بدأ المناضلون قصف القسطل بأربعة مدافع مورتر: مدفعان منها من عيار ٢ إنش ومدفعان من عيار ٣ انش. وكان عليها المعول لطول مدى رمايتها، مع ان احدهما كان من صنع محلي، ولا يرمي الا بعد شد زناده بحبل من بعيد. وكانت قنابل المورتر قليلة. وبعد ان اطلقت جميع قنابل المورتر تقدم المشاة وعددهم نحو ٢٠٠ تحت غطاء نيران الرشاشات لاحتلال موقع محصن، وهم غير مدربين على القتال الليلي. وكان القصف الممهد للهجوم غير كثيف وغير فاعل. الا ان اليهود وقد افزعهم الهجوم وشعروا بجديته وخطره، وكانوا مدربين على القتال الليلي، عمدوا الى تنفيذ

خطة دفاعية معروفة لديهم يسمونها (الجوزة التي لا تكسر). وبمقتضاها أخلوا جميع مراكزهم الامامية وتجمعوا في قمة القسطل حيث يقوم بيت المختار، وهو بناء متين سميك الجدران وبالقرب منه مسجد صغير ومقبرة، وتحصنوا في البنايتين الحصينتين المسيطرتين على منحدرات الجبل. هذا التكتيك مكن المهاجمين العرب من الدخول الى القرية والاقتراب الشديد من القمة باستثناء الميمنة التي بقيت بعيدة عنها. ثم قامت الميسرة بهجمة جريئة محاولة اقتحام المسجد الا انها ردت بعد ان خسرت عددا من الشهداء والجرحى، واصبحت مشاركتها في المعركة محدودة. اما القلب بقيادة ابراهيم ابو دية فاقترب جدا من المقبرة وبيت المختار لكنه لم يستطع ان يقتحم هذه المواقع. وبعد حين تجمدت حركته، فأعد هجوما بلغمين في كل منهما ٤٠ كيلوغراما من مادة .T.N.T تقدم بهما اربعة رجال لينسفوا جانبا من دار المختار لكنهم ما كادوا يصعدون الجدار (الحَبَلة) ويتقدمون في اتجاه دار المختار حتى سقطوا شهداء وفشلت المحاولة. وبذلك تجمد الهجوم وضعفت نيران العرب حرصا على ما بقي لديهم من ذخيرة. وتحول الهجوم الى تراشق متقطع بالنيران في ليل دامس. وصار هناك خطر ان يتحول الموقف عند الفجر الى كارثة حين تنكشف مواقع العرب لمواقع العدو المرتفعة والمسيطرة على المنحدرات، بالاضافة الى ان اتصال اليهود المتحصنين في القمة بالمستعمرات الغربية كان لا يزال مؤمنا من خلال حرج كثيف. هنا ارسل ابراهيم ابو دية رسولا يخبر القائد عبد القادر الحسيني بحراجة الموقف ويطلب منه اصدار الامر الى حافظ بركات قائد الميمنة للتقدم نحو القمة لتشديد الضغط على العدو واجباره على الانسحاب واخلاء مواقعه. ولم يعرف ابو دية بعد ذلك ما جرى، ولكن روايات كثيرة تؤكد ان عبد القادر غادر مقر قيادته ودخل القسطل وفي نيته ان يصل الى مجموعة الميمنة ليدفع بها الى الأمام. وقيل ان من معه حذره من دخول القرية في هذه الظروف فنهره ودخل القرية وحيدا.

وعند اقتراب الفجر وصلت لليهود امدادات عن طريق الحرج الذي اشرت اليه، واصبح موقف ابراهيم ابو دية ورجاله حرجا، وكان خسر عددا من رجاله بين شهيد وجريح، وسقط هو نفسه جريحا، وعندما لم تتحرك الميمنة قرر الانسحاب. ولما وصل الى مقر القيادة في محاجر الياشار سأل عن عبد القادر فقيل له انه دخل القرية متوجها إليك. فقال ابراهيم انه لم يصلني ولم أره.

عبد القادر محاصر في القسطل

اصبح عبد القادر في حكم المفقود او المحاصر داخل القرية. فأصيب المقاتلون بالاحباط فَهُم لا يستطيعون اعادة الكرَّة في النهار والهجوم على القرية من جديد، وذخائرهم قليلة. واخيرا قرروا ان يرسلوا في طلب نجدات من كل مكان لانقاذ عبد القادر المحاصر داخل القسطل. فتوجهت الرسل على جناح السرعة الى القدس ورام الله والخليل والرملة

وجميع القرى القريبة، تستنهض همم المقاتلين. فسارعت النجدات في التوجه الى القسطل. فجاءت من القدس مجموعة من جيش الانقاذ بقيادة جمال رشيد، ومجموعة بقيادتي من قوات حي باب الساهرة ومجموعة بقيادة محمد عادل النجار من حي وادي الجوز، ومجموعة من قرى الوادية بقيادة رشيد عريقات، وفريق من حرس الحرم الشريف بقيادة الحاج عبد المجيد المدني. وجاءت من الخليل مجموعة بقيادة عبد الحليم الجيلاني، وجاءت من منطقة الرملة مجموعة من رجال الشيخ حسن سلامة واصبح مجموع المناضلين يزيد على خمسمئة رجل.

حركتي الى القسطل

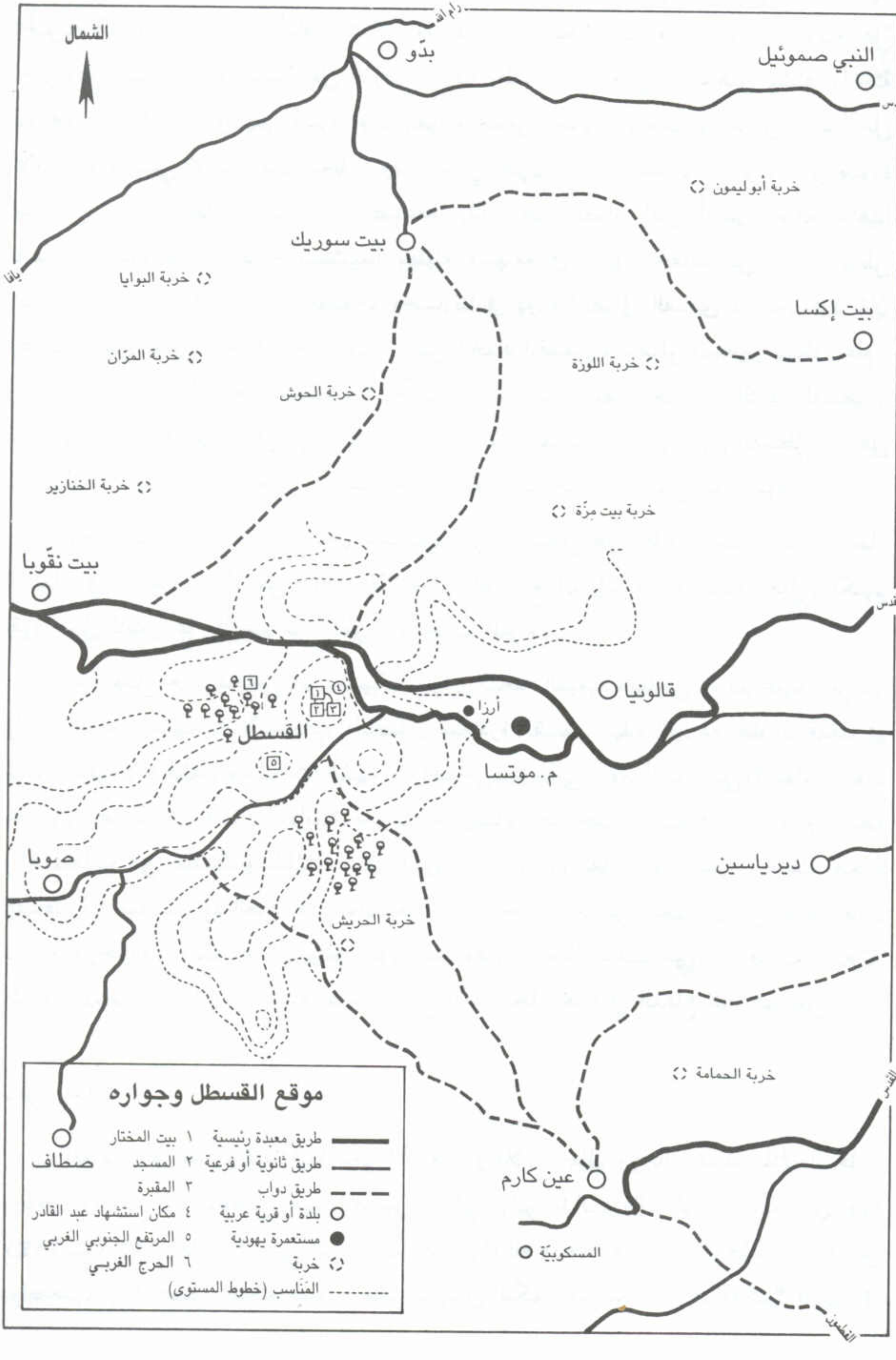
في صباح الخميس ٨ نيسان / ابريل **١٩٤٨** جاء من يستصرخني لنجدة القائد عبد القادر الحسيني «المحاصر في القسطل» فهالني الأمر وتحركت بسرعة. فأصدرت الى قواتي في المصرارة وسعد وسعيد امرا باتخاذ اعلى درجات الاستعداد وعدم مغادرة مواقعهم تحت اي ظرف. كما اصدرت أمرا الى قواتي في حي باب الساهرة بالتجمع وانتخبت منهم نحو **٣٠** رجلا من خيرة المقاتلين، وأعددت من السلاح رشاشين براوننغ واربعة رشاشات برن لتحملها القوات المتحركة من مجموعة باب الساهرة ومجموعة المصرارة. وقبل ان نتحرك حضر إليّ الدكتور مهدي الحسيني وزوجته وممرض يعمل في عيادته وثلاثتهم بالالبسة البيضاء يحملون ادوات الاسعاف وشارات الهلال الاحمر، وطلبوا مني ان يرافقوننا الى القسطل. فأكبرت ذلك ووافقت بكل سرور.

ركبت وقواتي في المصفحة اليهودية التي اخذتها من كامل عريقات وفي سيارة شحن كبيرة. ورسمت خطتي مستفيدا من خبرتي الكبيرة بأرض المعركة التي تجولت فيها مرارا وتكرارا في رحلاتي الكشفية والمدرسية، محاولا ان احقق عنصر المفاجأة بالاعتماد على السرعة والتجديد. ولذلك قررت ان لا اسلك الطريق الجنوبي التقليدي الذي يسلكه المناضلون من القدس الى القسطل عن طريق القطمون فعين كارم، والذي لا تسلكه الا سيارات الجيب بكل صعوبة. وفضلت ان آتي الى القسطل من الشمال عن طريق القدس ــ بدّو ــ بيت سوريك ــ القسطل وجميعها سالكة بسهولة للسيارات. وبذلك اصل بسرعة واهاجم اليهود في القسطل من ظهرهم وأضعهم بين نارين، وأضرب طرق امدادهم من مستعمرات موتسا وارزا والدلب والخمسة. وانطلقنا من القدس نحو الساعة العاشرة صباحا. واذكر ممن كان معي من المقاتلين الملازم شفيق النشاشيبي آمر مجموعة حي باب الساهرة والمناضل الشهيد اسماعيل الشرباتي الرامي الماهر على رشاش البراوننغ، والمناضل الشهيد مروح سعادة والملازم المناضل يحيى الزواوي، وادريس البكري وعزت ابو غربية والحاج حسن الزيهاني، والمناضل الشهيد سعيد ابو طير وسائق المصفحة علي ابو غنام وغيرهم.

وعندما وصلنا الى قرية بدّو وهي مفترق طرق مهم توقفت قليلا لأدرس مع بعض

رجالي فكرة أوحتها لي حيازتي مصفحة يهودية يمكن ان أتغلغل بها بين صفوف اليهود. فمن بدّو تتجه طريق مباشرة الى مستعمرة الخمسة القريبة جدا، واقترحت ان نسير فيها مخترقين المستعمرة الى طريق القدس ـ يافا ثم نتجه الى القسطل، فندخلها من الشمال الغربي، معتمدين في كل ذلك على تضليل اليهود بأن من في المصفحة هم من قواتهم. لكن رجالي اعتبروا ذلك مغامرة خطيرة، فعدلت عن ذلك وواصلنا السير الى بيت سوريك القريبة جدا من قرية القسطل. ولكن الطريق منها الى القسطل وطولها كيلومتر ونصف الكيلومتر تقريبا لا تصلح للسيارات. ترجلنا من السيارات واجتمع حولنا عدد من سكان القرية، وما كادوا يعرفون اننا ننوي التقدم الى القسطل حتى جاء رجل يصيح ويستصرخ الرجال لنجدة قرية النبي صموئيل التي قال ان اليهود هاجموها بعد ان هاجموا قرية بيت اكسا. وتقع قرية النبي صموئيل على اعلى مرتفع استراتيجي في شمالي القدس يعتبر اهم موقع عسكري في المنطقة. وتزيد اهميته العسكرية على اهمية القسطل، وتستطيع القوة التي تحتله السيطرة على منطقة واسعة وعلى عدة قرى شمالي القدس، ويعزز وجود اليهود في القسطل. وقرية النبي صموئيل لا تبعد اكثر من ٣ كيلومترات عن بيت سوريك. فتحركت بالسيارات بسرعة وبدون تردد الى النبي صموئيل لحمايتها. ووصلنا بسرعة فلم نجد فيها قتالا أو يهودا، كما لم يكن فيها مقاتلون. ولكننا وجدنا بعض اهالي بيت اكسا منسحبين من قريتهم التي احتل اليهود جزءا منها صباح ذلك اليوم ونسفوا جميع المنازل ولم يتمكنوا من التقدم بسبب المقاومة الباسلة لأهل القرية التي ادت الى انسحاب اليهود. وفي ذلك عدت مسرعا الى بيت سوريك.

وترجلنا من السيارات وبدأنا بالتقدم الى القسطل بالرغم من تحذير اهالي بيت سوريك لنا بشدة خوفا علينا من المواقع اليهودية المسيطرة على طريق تقدمنا والتي تحمي مؤخرة اليهود في القسطل، فلم أعبأ بذلك. وتقدمنا بانتظام معتمدين على كثافة نيراننا. ونجحت الخطة، فقد كان قدومنا من شمال القسطل بهذه النيران الكثيفة مفاجأة للعدو، حيث مئات المناضلين في الوقت نفسه كانوا يهاجمون القسطل في الجنوب، ونحن من الشمال ونضرب مستعمرة موتسا ومستعمرة الدلب، ونقطع امدادات اليهود من الشرق والغرب. فتملكهم الرعب وتركوا مواقعهم في القمة منسحبين الى الغرب من خلال حرج مكشوف لنيراننا، فأصليناهم نارا حامية وسقط منهم العديد من القتلى، ودخلنا القسطل من الشمال الغربي اي من ناحية الحرج، وشاهدنا عددا كبيرا من القتلى. وفي احد المواقع كانت هناك ١١ جثة متقاربة وجريح واحد اسرع الدكتور مهدي والممرض لاسعافه، لكنه لم يلبث ان فارق الحياة. ووصلنا الى القمة حيث التقينا المناضلين القادمين من الجنوب والتقيت صديقي محمد عادل النجار ورجاله من مناضلي حي وادي الجوز، وتملكتنا فرحة عارمة، فالقسطل عادت لنا وخسائرنا قليلة وجثث الاعداء متناثرة هنا وهناك.


الشمال
بدّو
النبي صموئيل
القدس
خربة أبو ليمون
بيت سوريك
يافا
خربة البوايا
بيت إكسا
خربة المزّان
خربة اللوزة
خربة الحوش
خربة الخنازير
خربة بيت مزّة
بيت نقّوبا
القدس
قالونيا
أرزا
القسطل
م. موتسا
صوبا
دير ياسين
خربة الحريش
خربة الحمامة
القدس
عين كارم
صطاف
المسكوبيّة
القدس
موقع القسطل وجواره
طريق معبدة رئيسية
طريق ثانوية أو فرعية
طريق دواب
بلدة أو قرية عربية
مستعمرة يهودية
خربة
المَنَاسب (خطوط المستوى)
١ بيت المختار
٢ المسجد
٣ المقبرة
٤ مكان استشهاد عبد القادر
٥ المرتفع الجنوبي الغربي
٦ الحرج الغربي

عبد القادر الحسيني شهيدا

لكن فرحتنا لم تدم طويلا، اذ جاء من يخبرنا ان عبد القادر وجد شهيدا في الجهة الجنوبية الشرقية من القرية أمام بيت لا يبعد عن بيت المختار اكثر من ١٠٠ متر. وقع عليَّ الخبر وقع الصاعقة، فجلست على الارض حزينا وطلبت من رجالي ألا يذهبوا ليشاهدوا جثة قائدهم حرصا على روحهم المعنوية وان يبقوا متجمعين حولي. وبقيت في مكاني جالسا على الارض وبجانبي محمد عادل النجار، وقد غمرني الحزن والأسى الشديدان وتراءت لي صورة المستقبل شديدة الظلام. فخسارتنا مضاعفة بهذا البطل المغوار الذي أمضى حياته مجاهدا باسلا مطاردا، وختم حياته مستشهدا ببطولة وشهامة في سبيل الحفاظ على ارض الوطن المقدس. خسارتنا في شخصه عظيمة، وخسارتنا في دوره النضالي القيادي فادحة، فقد كان القطب الذي يلتقي عند قيادته مناضلو جيش الجهاد المقدس ومناضلو فلسطين بشكل عام. رحمك الله ايها البطل فخسارتنا فيك لا تعوَّض، لقد بكينا فلسطين حين بكيناك في القسطل. قلتها لي يوما: «فليمروا على أجسادنا». وها أنت تفي بنذرك. فلم يمروا إلى القسطل الا على جسدك. وعدا لك ان نحرر كل شبر من فلسطين كما حررنا القسطل هذا اليوم.

وجاء من يقول ان المناضلين ينسحبون من القسطل على نطاق واسع بعد ان نقل الجثمان في طريقه الى القدس. وكاد الانسحاب السريع ان يؤثر في معنويات رجالي، لكنهم بقوا حولي ثابتين على الرغم من منظر الانسحاب المفزع.

بعد قليل جاء المحامي انور نسيبة سكرتير اللجنة القومية بالقدس وسلَّم علينا وعزَّانا، وأبدى أسفه واستهجانه لانسحاب المناضلين ومغادرة القسطل بهذه السرعة بعد ان قدمنا في سبيل استردادها قائدنا وعشرات الشهداء والجرحى. وسألني: «ما أنت فاعل»؟ فقلت: «انا باق في القسطل». فقال: «أنت ما زلت مريضا، جراحك لم تندمل بعد، والأربطة والضمادات على صدرك وبطنك، لذلك ارى ان تغادر الى القدس وان يبقى رجالك لحماية القسطل». فقلت: «لم أتعود ان اكون بعيدا عن رجالي. سأبقى معهم ومعي محمد عادل النجار ورجاله». وبعد جدال وافق على ذلك وقال: «ماذا تطلب مني؟»، فقلت: ثلاثة اشياء: طعاما وذخيرة وقوة بديلة تصلنا صباح الغد لتحل محلنا في الدفاع عن القسطل.

نحن وحدنا

اقفرت القسطل وبقينا فيها نحو الأربعين رجلا: رجالي ورجال محمد عادل النجار. وجاءني رسول من المناضل عبد الحليم الجيلاني (ابو زيدان) قائد ثوار الخليل في فترة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ وقال: ارسلني ابو زيدان لأقول لك انه ورجاله من شباب الخليل قريبون من مواقعكم، واذا حصل عليكم ضيق ارسلوا لنا لنأتي اليكم. وسألته: اين مواقعكم؟ فقال: في

قرية صوبا. فشكرته وعتبت في سري على صديقي ورفيقي القديم ابو زيدان لأن صوبا تبعد عنا نحو ٥ كيلومترات.

اذن فنحن وحدنا، وعلينا ان نعتمد على انفسنا. وبدأنا العمل، واصدرت أوامري التالية:

١ ــ تجهيز موقعين حصينين في كل موقع رشاش براوننغ ورشاشان برن. الموقع الأول يواجه الطريق العام لصد أي تقدم يأتي من الشرق أي من جهة القدس. والآخر يواجه الطريق العام باتجاه الغرب أي من جهة يافا.

٢ ــ تقوم مجموعة كبيرة بتفتيش البيوت وبخاصة المغاور الكبيرة للتأكد من عدم وجود يهود مختبئين فيها، على ان تتم هذه المهمة قبل حلول الظلام.

٣ ــ اغلاق الطريق الفرعي الى قرية صوبا بسد من الحجارة للحيلولة دون أي التفاف خلفنا قد تقوم به المصفحات.

٤ ــ اقامة خندق كمقر للقيادة وسط المقبرة الواقعة في اعلى القمة قرب بيت المختار والمسجد.

ثم تجولت مع محمد عادل النجار للاستطلاع والاشراف على تنفيذ الاوامر. فوجدنا مصفحة يهودية كبيرة متروكة داخل القرية وهي بحالة جيدة جدا لكن دواليبها غاصت في الوحل مما اضطر اليهود الى تركها. وكان بعض مقاتلي جيش الانقاذ يعملون بكل جد ومشقة على اخراجها من الوحل ليأخذوها إلى القدس. وكان بعضهم يعرفني جيدا ورجوني أن أسمح لهم بأخذها لانهم تلقوا اوامر صارمة من قائدهم بذلك، فسمحت لهم. وبعد ساعة او اكثر خرجوا بها متجهين الى قرية صوبا حيث صادرها منهم عبد الحليم الجيلاني. ووجدنا في القسطل عشرات الاطنان من الاسلاك الشائكة، كما وجدنا غرفة كبيرة من غرف القرية مملوءة بالمتفجرات على شكل مسحوق اصفر، هذا فضلا عن جثث العدو المتناثرة هنا وهناك والتي لم يكن لدينا الوقت لدفنها او حتى لعدها. وكانت مصفحة يهودية تقترب منا بين فترة واخرى وينزل منها بعض الرجال من باب في قعر المصفحة ليلتقطوا بعض الجثث التي يستطيعون الوصول اليها.

وخلال هذا الوقت كان مدفع المورتر من عيار ٣ انش يطلق قنابله علينا من مستعمرة موتسا، وكانت هناك طائرتان تلقيان علينا قنابلها المصنوعة محليا. ولم يكن القصف الارضي والجوي غير الكثيف مؤثرا لتوزعنا في القرية، لكنني ورجالي تأثرنا ــ بلا شك ــ معنويا لشعورنا بتفوق العدو المتمثل في استخدام الطائرات مع ان البلاد لا تزال تحت سيادة الانتداب البريطاني التي سوف لن تغادرها الا بعد ٥٠ يوما. وكان ذلك يعني ايضا تحيز الانكليز المكشوف لليهود ومساندتهم اياهم. ولم نكن ندري ان الانكليز باعوا اليهود ٢٢ طائرة

منها هاتان الطائرتان، الأمر الذي تأكدنا منه فيما بعد. ومع ان اليهود استخدموا الطائرات قبل معركة القسطل في قصف محطة سكة حديد غزة وفي معركة الدهيشة قرب بيت لحم الا اننا، لانشغالنا بواجباتنا، لم نكن نعرف ذلك.

ليلة ليلاء

وارخى الليل سدوله، وكانت ليلة حالكة الظلام، يقطع هدوءها بين حين وآخر قصف اليهود بقنابل المورتر وقنابل الطائرات، وبعض الصليات المتقطعة من رشاشاتنا على مستعمرة موتسا وعلى مستعمرة الدلب لنثبت وجودنا في القسطل. ونحو الساعة التاسعة ليلا وصلتنا كمية من الطعام والذخيرة محملة على حمارين ارسلها لنا انور نسيبة من عين كارم، فارتفعت معنوياتنا. وبعد ذلك بقليل وصل من الشمال ضابط مصري ومعه ثلاثة مقاتلين مزودين رشاش برن، كانوا جميعا هاربين من جيش الانقاذ لكي ينجدوا المقاتلين في القسطل. ولولا معرفتي الشخصية بأحدهم لكانوا موضع شك. كما ان دخولهم القسطل في تلك الليلة المظلمة كان عملا شديد الخطر، ولولا شجاعة رجالنا وحكمتهم لقتلوهم. ومع ذلك كان قدومهم موضع ترحيب ولا سيما ان ضابطهم المصري يتمتع بروح مرحة مما خفف احزاننا.

نحو منتصف الليل، وبينما كنت ومحمد عادل النجار في خندق القيادة، قطع سكون الليل صوت رماية كثيفة من رشاشاتنا من الموقعين الشرقي والغربي، فأرسلت فورا رسولا لكل موقع ليعرف ما يجري، وعاد الرسولان بسرعة، وقال الأول: ثلاث مصفحات قادمة من مستعمرة موتسا. وقال الثاني: ثلاث مصفحات قادمة من مستعمرة الدلب. فتوجهت فورا إلى الموقع الأول ورأيت بالفعل ثلاث مصفحات أنوارها مضاءة تقترب منا ولا تبالي بنيراننا ولا ترد عليها. فأمرت بقطع الرماية وان يتقدم الى الأمام كمين مزود بالقنابل ليوقف تقدمها. وبعد ايقاف رمايتنا اطفأت المصفحات انوارها وصرنا لا نرى شيئا. وتوجهت الى الموقع الغربي فرأيت ايضا ثلاث مصفحات تتقدم وحصل ما حصل في الموقع الشرقي.

كان عليَّ ان اقدر الموقف. فقدرت ان المصفحات تستطلع مواقعنا، لتقدر قوتنا، وقد يكون غرضها الالتفاف علينا من الطريق المؤدي الى صوبا. وفي أية حال قدرت ان العدو سيهاجمنا عند اول ضوء لاحتلال القسطل من جديد، او على الاقل لينقل جثث قتلاه. وأرسلت فورا دورية الى طريق صوبا لتحدد موقع المصفحات، او على الأقل لنتأكد ما إذا كانت المصفحات تحاول دخول هذه الطريق لتصبح خلفنا. وعادت الدورية من دون ان تتمكن من تحديد موقع المصفحات. ورجح لديَّ انها عادت من حيث اتت. وأرسلت رسولا من ابناء قرية صوبا الى عبد الحليم الجيلاني الموجود في صوبا ليقول له: «بهجت ومن معه مطوقون في القسطل، وهو يستدعيك لنجدته». ولم يعد الرسول ولم يحضر عبد الحليم ورجاله.

فجأة يتفجر الجحيم على مرتفع استراتيجي مجاور يبعد عنا الى الشرق ثلاثة كيلومترات، ولا يفصلنا عنه سوى واد واسع عميق اعرفه جيدا، انها قرية دير ياسين الاستراتيجية. فهي تتعرض لهجوم مركز يستمر حتى الصباح على ثلاث موجات، والى الغرب البعيد تقصف الطائرات طوال الليل قريتي ساريس وبيت محسير وغيرهما كما كانت تقصفنا. لقد بدأ فصل جديد كان سقوط القسطل واستشهاد عبد القادر ومذبحة دير ياسين ايذانا به.

القسطل تسقط ثانية

عند الفجر انشدت أبصارنا نحو القدس، نحو الطريق الذي ينحدر من القدس عند قرية لفتا الى قرية قالونيا متجها الى القسطل. عشرات السيارات، أنوارها مضاءة قادمة نحونا. وبدأنا نعد: واحدة، اثنين، ثلاثة. ووصلنا في العد الى ١٣٠. نعم مئة وثلاثون سيارة او اكثر. كان عدد السيارات يزيد على ثلاثة اضعاف عددنا، ونحن ما زلنا وحدنا، لم تصلنا تعزيزات او بديل، فالجميع يستعدون للاشتراك في جنازة عبد القادر في القدس. هل هي قافلة تموين عائدة من القدس الى تل ابيب ام هي قوة قادمة نحونا لاحتلال القسطل من جديد؟ ولم تلبث السيارات ان وصلتنا وتوقفت بعد ان انتشرت على الطريق العام حول القسطل على شكل نصف دائرة. واطلقنا عليها نيران جميع رشاشاتنا دفعة واحدة، فانفتحت علينا نيران الجحيم. قصف مركز كثيف بقنابل المورتر ٣ انش ينطلق مما لا يقل عن ١٠ مدافع. واتخذنا قرارنا الصعب وتراجعنا الى المرتفع الذي يقع الى الجنوب الغربي على بعد ٤٠٠ متر من قمة القسطل حيث اصبحنا خارج نطاق القصف المدفعي، وتحصنا في خنادق محفورة في قمة هذا المرتفع. واستمر القصف على قمة القسطل، ثم توقف مع تدفق أعداد كبيرة من المشاة جاءت عن طريق الحرج الغربي نحو دار المختار والجامع الذي كان تهدم من القصف. كان تقدمهم فرصة ذهبية لنا، اذ كانوا مكشوفين لنيراننا الكثيفة المؤثرة. وسقط عدد منهم على مرأى منا، فتجنبوا نيراننا، ولم يردوا لفترة، اذ كان همهم في هذه المرحلة احتلال القمة وتطهيرها. وبعد فترة قصيرة تقدمت مجموعة كبيرة من المشاة من شرق القرية متجهة الى الجنوب الغربي، انها تحاول تطويقنا وقطع طريق انسحابنا الى عين كارم. ومرة اخرى نتخذ قرارا صعبا فننسحب من مواقعنا متجهين الى الجنوب، الى عين كارم. وتحاول الطائرات اعاقة انسحابنا ونحتمي من قصفها بحرج على طريقنا، ويفشل التطويق ونسير الى عين كارم. وتسقط القسطل ثانية في يد الاعداء ويبدأون فورا في نسف منازلها، بينما المئات من المسلحين في القدس، جاؤوا من اماكن عديدة ليشاركوا في تشييع عبد القادر الحسيني. ويصل الخبر الى المشاركين في الجنازة: (بهجت ورجاله مطوقون في القسطل). فيزداد الاسى والاحباط دون ان تفكر اية مجموعة ــ حتى ممن أحبهم من رفاق الدرب ــ بالتوجه الى القسطل. وبعد انتهاء الجنازة عند العصر وصلنا الى القدس حيث اختلطت الأخبار السيئة:

اخبار القسطل واخبار دير ياسين ورحيل اهالي قالونيا بالأسى على استشهاد عبد القادر وتطويق بهجت ورجاله. وأجد عددا من أُسَر رجالي ورجال محمد عادل النجار والقلق أخذ منهم كل مأخذ. وعندما شاهدونا تنفسوا الصعداء. لكن المعنويات في القدس منخفضة جدا ولا بد من القيام بما يعمل على ارتفاعها من جديد.

هل انتحر عبد القادر؟

كلا لم ينتحر، بل حاول ان يسترد القسطل بسرعة واستماتة مهما كلف الأمر، لأهمية الحدث أي لأهمية سقوط القسطل من الناحيتين العسكرية والمعنوية، ولتحدي اللجنة العسكرية التي هزئت به في دمشق وكأنها تشمت به عند احتلال اليهود القسطل، وتتحداه ان كان يستطيع استردادها.

ان الذين يعرفون عبد القادر الحسيني جيدا يعرفون الكثير من مواقفه الشجاعة، ولامبالاته بالخطر مهما كان جسيما. ويقدرون الفرق بين تصرف القائد الضابط في الجيش النظامي، وتصرف القائد في حرب العصابات وحروب التحرير الشعبية الذي يقود رجاله وهو في مقدمتهم. لقد شاهدته في اكثر من مناسبة يقف منتصب القامة في وجه نيران كثيفة متحديا الخطر ناشرا بذلك روح الشجاعة والبسالة بين رجاله.

كلا لم ينتحر، لكنه استشهد بكل بسالة في معركة صمم على كسبها ولو كانت روحه ثمنا لذلك. وأثبت بالفعل أن كسبها كان ممكنا. ولا شك ان استشهاده ادى الى تحرير القسطل واستعادتها من ايدي الاعداء. ولا يغير من هذه الحقيقة ان اليهود عادوا فاحتلوها. وخلاصة ما أقول: الانتحار شيء والاستماتة في الدفاع عن ارض الوطن والاستشهاد في سبيل ذلك شيء آخر.

هل قتله الانكليز؟

كلا لم يقتله الانكليز الذين اشتركوا مع ابراهيم ابو دية في الهجوم على القسطل ــ كما أشاع البعض ــ لقد اكد لي ابراهيم ابو دية أنْ لا هو ولا الانكليز الثلاثة الذين كانوا بجانبه وتحت بصره في المعركة رأوا عبد القادر عندما دخل القسطل، ولم يعلموا انه دخلها، لأن ابراهيم ومعه الانكليز كانوا مستغرقين في المعركة وفي وضع حرج. وكان ابراهيم قد جرح، وأحد الانكليز فقد بصره موقتا لاصابته بشظايا قنبلة. لا اقول هذا دفاعا عن الانكليز الذين أمقتهم وألعنهم ولكنها الحقيقة التي اعرفها.

كلا! وان ادعى بعض اليهود انه شاهد جثمان عبد القادر بعد استشهاده. فالحقيقة تكذِّب ذلك. فعندما وجد جثمانه كان سلاحه بيده ـ ستن انكليزي بكاتم صوت ـ ودفتر ملاحظاته واوراقه الخاصة في جيبه الامامي لم يمس أي شيء منها.

اشترك في جنازته يوم الجمعة الواقع فيه ٩ نيسان / ابريل ألوف من اهالي القدس وغيرها تكريما له، وكانت جنازة مهيبة. لكن انشغال مئات المسلحين فيها كان موضع انتقاد واستهجان محق.

صُلّي على جثمانه في المسجد الاقصى بعد صلاة فريضة الجمعة ودفن بجوار المسجد الاقصى ولم يكن لي شرف الاشتراك في وداعه الاخير، رحمه الله.

٢٩ اشتداد المعارك
في نيسان / إبريل ١٩٤٨

مذبحة دير ياسين (١٩٤٨/٤/٩)

كانت مذبحة دير ياسين ضربة شديدة لمعنويات أهالي منطقة القدس ولا سيما انها جاءت في اليوم التالي لاستشهاد القائد عبد القادر الحسيني، وسقوط قرية القسطل.

ودير ياسين قرية صغيرة تقع على بعد كيلومتر واحد غربي مدينة القدس، وتقوم على مرتفع استراتيجي مجاور لمرتفع القسطل وهو من المواقع العسكرية المهمة في غربي القدس. كان عدد سكانها سنة ١٩٤٨ لا يزيد على ٨٠٠ نسمة. وكنت اعرف هذه القرية وأهلها جيدا، فقد اشتهروا بوطنيتهم وشجاعتهم، وكانوا من خيرة الثوار اثناء ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩. كما اشتهروا بأنهم حافظوا على اراضيهم ولم يبيعوا منها شيئا لليهود على الرغم من انها محاطة بالمستعمرات الصهيونية، ورغم جميع الضغوط والمغريات. وكانت تربطني بها روابط متينة، فقد زرتها مرارا بشكل فردي، وفي رحلات مدرسية وكشفية، وتعرفت على عدد من ابنائها كان معظمهم طلابا في الكلية الابراهيمية، اذكر منهم موسى سمور وفؤاد سمور وجمعه وداود.

كانت تجاورها وتعزلها عن القدس مستعمرة غفعات شاؤول التي كانت في حقيقتها معسكرا لمنظمة الارغون العسكرية. وكان اهل دير ياسين يعرفون ذلك جيدا ويشعرون بالخطر الشديد على مستقبلهم. لذلك اخذوا للأمر عدته فجهزوا انفسهم بالسلاح من مالهم الخاص، فكان لديهم نحو ٦٠ بندقية ورشاشان من طراز برن واربعة رشاشات خفيفة من طراز ستن وكمية لا بأس بها من الذخيرة والقنابل اليدوية. وكان جميع المسلحين من أبناء القرية نفسها.

كان اليهود يتربصون بأهل هذه القرية وينتظرون الوقت المناسب للانقضاض عليها، ولكي نعرف خلفية ما جرى في دير ياسين، وكيف ولماذا أقدمت منظمة الارغون بقيادة مناحم بيغن على ذبح اهلها، علينا ان نعود الى تاريخ نشوء منظمة الارغون عندما كانت في العشرينات واوائل الثلاثينات حزبا سياسيا عسكريا باسم الحزب الاصلاحي (Revisionist) بقيادة مؤسسه جابوتنسكي. وكانت سياسته المعلنة تعتمد استخدام القوة والعنف ضد العرب لارهابهم واخراجهم من فلسطين، وشعاره صورة رجل يشهر بندقية وهو واقف على ارض

فلسطين وشرق الاردن ومكتوب على الصورة (هكذا فقط). وقد حافظت منظمة الارغون على هذا الشعار وعلى هذا النهج الارهابي فيما بعد بقيادة بيغن وشمير.

وفي نيسان / إبريل ١٩٤٨ جرت مصالحة بين منظمة الارغون ومنظمة شتيرن المنشقة عنها. واتفقت المنظمتان على ان تعلنا الوحدة من خلال معركة تخوضانها معا وأن تكون المعركة احتلال قرية دير ياسين. وتبين فيما بعد ان الارغون استأذنت الهاغاناه للقيام بهذه العملية فوافقت على ذلك. واشترطت ان يؤدي الهجوم الى احتلال القرية، وحذرت من ان يؤدي فشل الهجوم على دير ياسين الى تعزيزها بقوات من خارج القرية تجعل احتلالها اكثر صعوبة. فوعدت الارغون ان تحتل القرية مهما كلف الثمن.

سبق ان ذكرت انني في ليلة الهجوم على دير ياسين كنت في قرية القسطل، وراقبت عن كثب عملية الهجوم الذي بدأ بعد منتصف الليل. كما راقبت المقاومة الباسلة العنيفة التي قام بها رجال دير ياسين الشجعان. شن اليهود هجومهم العنيف مستخدمين مدافع المورتر والمصفحات وإحدى الطائرات. وتكسر هجومهم الاول على صخرة المقاومة العنيدة، ولم تستطع المصفحات اجتياز الحواجز المقامة على مداخل القرية، فانسحب اليهود واعادوا تنظيمهم وشنوا هجوما ثانيا تحول الى قتال شوارع، اذ تحصن اهل القرية في منازلهم واستخدموا القنابل اليدوية فأوقعوا باليهود خسائر كبيرة مما اضطرهم الى الانسحاب مرة ثانية لاعادة التنظيم مخلفين وراءهم عددا من جثث قتلاهم.

وفي هذه الاثناء وصل بعض اهالي دير ياسين الى قرية عين كارم القريبة طالبين النجدة فلم يتحرك احد لنجدتهم، خلافا للعادة التي كانت متبعة في فلسطين، وذلك على الرغم من وجود عدد كبير من المناضلين من جيش الانقاذ في عين كارم كانوا انسحبوا من القسطل وباتوا في عين كارم. وعلى الرغم من ان اهالي عين كارم مشهود لهم بالشجاعة والنخوة، إلا ان استشهاد عبد القادر الحسيني احدث احباطا شديدا في نفوس المناضلين. وفي تقديري ان الهجوم على دير ياسين كان محكوما عليه بالفشل الذريع لو تحركت هذه القوات من عين كارم لنجدة دير ياسين.

وفي أية حال، احتل اليهود القرية في الهجوم الثاني بيتا بيتا وذبحوا عددا كبيرا من اهلها ذبح النعاج، اطفالا ونساء وشيوخا، بدم بارد وبوحشية فظيعة.

ثبت فيما بعد ان قائد قوات الهاغاناه في القدس دافيد شالتئيل وقائد منظمة الارغون في القدس مردخاي توفمان كانا يشرفان على قيادة المعركة من مستعمرة غفعات شاؤول المجاورة وان قوات الهاغاناه شاركت في المعركة بالمدفعية، وتسلمت القرية بعد احتلالها. ووصل عدد من اهالي دير ياسين الذين نجوا من المعركة الى عين كارم فالقدس، والتقيت بعضهم فوصفوا لي قسوة المعركة وبشاعة الفظائع التي ارتكبها اليهود. واكدوا لي ان عدد القتلى اليهود كان كبيرا جدا، وقدروا عدد القتلى العرب بأربعمئة قتيل. كما قابل بعضهم الدكتور حسين

الخالدي ممثل الهيئة العربية العليا في القدس وذكروا له مثل هذه المعلومات. ونقل مندوب الصليب الاحمر الدولي الدكتور دي رينيه الذي زار القرية مثل هذه المعلومات. وبناء على ذلك أذاع الدكتور حسين الخالدي بيانا عن المذبحة تضمن هذه المعلومات والفظائع الهمجية التي ارتكبها اليهود، وكان غرضه التشهير باليهود وتحريك النخوة العربية. الا ان النتيجة العملية كانت سلبية فنشرت الرعب وساعدت على الترحيل.

نحو الساعة التاسعة من مساء اليوم الثالث للمذبحة وبينما كنت في مقر قيادتي في حي المصرارة اتصل بي الاستحكام رقم ٤ بهاتف الميدان واخبرني ان عددا كبيرا من النساء والاطفال يظهر انهم من العرب يتقدمون نحوه من مدخل حي ميئه شعاريم قرب المستشفى الايطالي. وسأل: ماذا نعمل؟ قلت: اصرخ فيهم طالبا عدم التقدم وثبتهم الى ان اصل. وركضت نحو هذا الاستحكام القريب من مقر قيادتي فوجدتهم واقفين على بعد قريب جدا وهم يصرخون: «نحن من دير ياسين». وكل شيء يشير الى ان ذلك هو الحقيقة، فطلبت منهم ان يدخلوا الحي، وكان عددهم نحو ٢٠٠ معظمهم من النساء والاطفال بحالة تقشعر لها الابدان. فأدخلتهم الى احدى المدارس ومنعت الاختلاط بهم الا لمن يقدم لهم الطعام والماء، وتفقدت أحوالهم وسألتهم عما جرى لهم فقالوا ان اليهود اخذوهم من منازلهم وقتلوا رجالهم امام اعينهم ثم طافوا بهم في الأحياء اليهودية في اوضاع مزرية يندى لها الجبين. واثارت اهتمامي احدى النساء، فقد كانت تولول وعلى وجهها مظاهر الرعب الفظيع، وتمسك يد طفل في العاشرة وكأنها تخشى ان تفقده، ولما استفسرت عن احوالها قالت: بعد انتهاء المعركة اخرجنا اليهود من بيتنا وقتلوا زوجي وابني الكبير امام عيني وتركوا لي ولدين هذا الذي تراه واسمه عزمي واخاه الذي يكبره بسنتين. وعندما وصلنا الى منطقتكم وقبل ان ندخل الى عندكم بدقائق جاء عسكري يهودي وأخذ ابني من يدي وقال: هذا كبير لماذا ابقيتموه، ثم اطلق النار وقتله امامي وامام الجميع. فواسيتها بقدر ما استطعت، ثم اتصلت باللجنة القومية لمدينة القدس لاتخاذ الترتيبات اللازمة لنقل اللاجئين الى مكان آمن والحيلولة دون اختلاطهم بأهل المدينة الى ان يهدأ روعهم. وفي اليوم التالي سلمتهم للجنة القومية، وتسربت اخبارهم فأساءت الى الروح المعنوية. وتبين ان اهل دير ياسين الذين نجوا من المعركة عن طريق عين كارم كانوا يعتبرون كل المفقودين قتلى بمن فيهم هؤلاء، لذلك انخفض تقدير عدد القتلى من ٤٠٠ الى ٢٠٠. واكد لي من اثق بهم من اهل القرية فيما بعد ان عدد القتلى العرب كان نحو ٩٠ وان عدد قتلى اليهود كان يقرب من ذلك. وأخيرا لا بد ان اشير الى ان الطفل عزمي المذكور رعته الكلية الابراهيمية في القدس حتى كبر، وان سيدات القدس برئاسة السيدة هند الحسيني، رعين جميع اطفال دير ياسين في مدرسة دار الطفل العربي.

رحلة خطرة طلبا للسلاح

بعد عودتي من القسطل بيوم واحد أُبلغت أن الدكتور داود الحسيني ـ المفتش الاداري في جيش الجهاد المقدس ـ الموجود في القاهرة لاستلام كمية من السلاح والعتاد اتصل بالقيادة في القدس ليبلغها انه سيصل إلى الحدود الفلسطينية عند عوجا الحفير ومعه شاحنة محملة بالسلاح ظهر يوم الاثنين ١٢/٤/١٩٤٨، وانه يطلب ان تستقبله قوة من المناضلين لتتسلم السلاح وتتولى حراسته وايصاله الى القدس. ونظرا لأهمية الموضوع وخطورة العملية قررت ان اتولى تنفيذها بنفسي. فاحضار كمية من السلاح والعتاد امر مهم جدا وخصوصا في هذه المرحلة لرفع المعنويات ومواجهة الاحتمالات الخطيرة المتوقعة، والطريق خطرة. فبين عوجا الحفير وبئر السبع مستعمرتان يهوديتان عسكريتان. وبين الخليل والقدس مجموعة مستعمرات كفار عتسيون وفي مداخل القدس عدة مستعمرات. حتى ان حي المونتفيوري داخل القدس يمكن ان يكوّن خطرا يجب ان يحسب حسابه. وكانت ما تزال في ذاكرتي حادثة اعتراض اليهود بين عكا وحيفا قافلة عربية تحمل السلاح من بيروت الى حيفا يوم ٧ آذار/مارس ١٩٤٨ يقودها البطل الشهيد محمد الحمد الحنيطي قائد حامية حيفا، وكيف هاجمها اليهود بكمين أعد لذلك حيث جرى ايقاف القافلة والاشتباك معها مما اضطر الحنيطي ورجاله الى نسف السلاح فأدى ذلك الى استشهاده ومعه ١٤ من خيرة رجاله وضياع جميع السلاح.

في الصباح الباكر من يوم الاثنين ١٢ نيسان/ابريل ١٩٤٨ تحركت من القدس ومعي نحو خمسة عشر مناضلا من خيرة رجالي بسيارة شاحنة وبالمصفحة اليهودية التي استلمتها من كامل عريقات، كما سبق ان ذكرت. وكان سائق المصفحة المناضل الشجاع علي ابو غنام، وسائق الشاحنة المناضل الشجاع جمال عرابي ابو غربية. ولم نصادف ما يستحق الذكر حتى وصلنا بالقرب من مستعمرة كفار عتسيون حيث وجدنا مسلحين من هذه المستعمرة قد اقتربوا من الطريق العام واخذوا يطلقون النار على السيارات العربية المارة. توقفنا قليلا قبل ان نجتاز خط الرماية، وتبين لي ان قوة العدو قليلة ولكن ليس لدي الوقت لمهاجمتها، فقررت المرور بسرعة تحت غطاء من نيران رشاشاتنا نطلقها من المصفحة بحيث تسير الشاحنة الى جانبها لتسترها عن نيران العدو وهكذا كان ومررنا بسلام.

واصلنا سيرنا السريع، ولم نتوقف في الخليل وكذلك في بئر السبع، وانطلقنا في صحراء النقب جنوبا واجتزنا المستعمرتين اليهوديتين قرب عسلوج حتى وصلنا إلى الحدود الفلسطينية المصرية حيث توقعنا ان نلتقي الدكتور داود الحسيني. ولما تأكدت انه لم يصل اجتزنا الحدود حتى وصلنا نقطة الحدود المصرية في عوجا الحفير، وسألنا عن الدكتور داود وسيارة السلاح، فأكد لنا حرس الحدود عدم وصوله. وبعد انتظار استأذنت ودخلت الاراضي المصرية حتى بلدة ابو عجيلة وحاولت ان اتصل بالقاهرة هاتفيا فلم اتمكن. فواصلت السير الى مدينة العريش ـ قاعدة سيناء ـ وهنا استقبلنا الحاكم العسكري لسيناء

استقبالا طيبا، وكان برتبة عميد، وقدم لنا كل مساعدة نطلبها. كما استقبلنا مختار البلدة الوقور الحاج حسين سلمي وأكرمنا فقدم لنا الطعام والمبيت في مضافته. وفي صباح اليوم التالي وبناء على رغبة العميد الحاكم العسكري لسيناء توجهنا الى معسكر للجيش المصري حيث استقبلنا عدد من ضباط المعسكر لمشاهدة المصفحة اليهودية والتعرف على طرازها وتصفيحها وما الى ذلك.

ثم عدنا الى العريش ومنها الى ابو عجيلة حيث انتظرنا الدكتور داود الحسيني حتى وصل ومعه سيارة شاحنة واحدة، فأفرغنا حمولتها في الشاحنة التي معنا وانطلقنا الى بئر السبع فالخليل فالقدس ووصلناها بسلام. وقد يسأل القارىء هل كانت كمية السلاح والعتاد تستحق عناء رحلة الالف كيلومتر هذه، وأجيب: لا بأس، فالوقت عصيب ونحن بحاجة الى كل بندقية وكل طلقة برغم قدم السلاح، فهو من مخلفات الحرب العالمية الثانية. ولكن شتان بين حمولة نصف شاحنة وبين ما سأورده من ارقام عن السلاح الذي وصل الى اليهود في هذه الفترة.

تدفق السلاح على اليهود

حصل اليهود في نيسان / ابريل ١٩٤٨ على كميات كبيرة من السلاح جاءت من مصدرين: الأول هو السلاح المستورد من الخارج، والثاني هو ما استلموه من الانكليز اما بعمليات بيع علنية وإما بصفقات هجوم صورية.

ففي الاول من نيسان / ابريل ١٩٤٨ وصلت الى ميناء حيفا السفينة نورا من يوغوسلافيا حاملة اسلحة تشيكوسلوفاكية تتألف من ٤٥٠٠ بندقية و ٢٠٠رشاش خفيف و ٥ ملايين طلقة. كما وصلت جوا في هذا اليوم ٢٠٠ بندقية و ٤٠ رشاشا وكمية من الذخيرة الى مطار سري للهاغاناه. وفي ٤ نيسان / ابريل قام مسلحون تابعون لمنظمة الارغون باقتحام المعسكر البريطاني رقم ٨٠ المجاور لمستعمرة بارديس حنا واستولوا على كميات من البنادق والرشاشات وقاذفات الصواريخ المضادة للدبابات من طراز بيوت وقنابلها التي تشبه قذائف الـ (R.B.J.). وبعد اسبوعين اعترض اليهود قطارا خاصا يجر عددا كبيرا من العربات ينقل السلاح والعتاد البريطاني من مستودعات الجيش البريطاني المركزية قرب عرطوف الى حيفا، فأوقفوا القطار واستولوا على جميع حمولته الكبيرة جدا وكان معظمها من قنابل المورتر ٣ انش التي وصل عددها إلى عشرات الآلاف، والتي كان لها اثر كبير فيما بعد على سقوط يافا والعديد من القرى العربية. ومما هو جدير بالذكر ان ٤٠ جنديا بريطانيا كانوا يحرسون القطار مزودين بكامل السلاح، فلم يكتفوا بأن استسلموا للكمين اليهودي بل ساعدوا في تحميل السلاح والعتاد في سيارات اليهود. واستغرق ذلك اكثر من ٤ ساعات. وقد جرت عمليات عديدة مشابهة لهذه العملية. وحاول العرب القيام بعمليات مشابهة كانت تفشل باستمرار ومنها

عملية حاولنا نحن القيام بها. كان أنور نسيبة سكرتير لجنة حي باب الساهرة واللجنة القومية لمدينة القدس من مدبريها، وكاد وبعض رجالي ان يقتلوا أو يؤسروا عند معسكر بريطاني قرب بئر السبع، لكنهم نجوا بأعجوبة واعتقل ضابط بريطاني كان يتعاون معهم وادخل السجن.

وفي ٢٥ نيسان / ابريل ١٩٤٨ وصلت الى تل ابيب السفينة روزيريكتيو حاملة ٢٥ مدفع ميدان مع ذخائرها. وفي اواخر نيسان / ابريل وصلت ثلاث طائرات محملة بالسلاح من فرنسا. وفي اوائل ايار / مايو وصلت من فرنسا كمية من المدافع كما وصلت من تشيكوسلوفاكيا ٥٠٠٠ بندقية، و١٢٠٠ رشاش و ٦ ملايين طلقة، وفي ١٣ أيار / مايو وصلت الى حيفا السفينة Boreo حاملة ٥٠ مدفع ميدان و ٢٤ مدفع مورتر ثقيلا.

وفي ١٥ أيار / مايو ١٩٤٨ وصلت عدة سفن حاملة كميات هائلة من السلاح من بينها اسلحة لواء مدرع كامل كانت مبحرة من اميركا لتصل في هذا اليوم المحدد، يوم انهاء الانتداب البريطاني على فلسطين اي يوم اعلان قيام دولة العدو.

ولا بد من الاشارة الى ان جميع هذه الاسلحة التي وصلت لليهود كانت جديدة خارجة من المصانع مباشرة. وأشير في الوقت نفسه إلى انني وجميع مقاتلي جيش الجهاد المقدس لم نستلم قطعة سلاح واحدة جديدة. وان بريطانيا بذلت كل جهدها لمنع الدول العربية من تسليح شعب فلسطين.

معركة قافلة هداسا والجامعة العبرية في ١٣/٤/١٩٤٨

لئن كانت رحلتي الى العريش اضاعت علي شخصيا فرصة الاشتراك في معركة القافلة، الا ان النصر الذي تحقق للمناضلين العرب في هذه المعركة واشتراك رجالي فيها من قوات حي باب الساهرة وقوات حي المصرارة الى جانب اخوانهم مقاتلي حي وادي الجوز بقيادة صديقي محمد عادل النجار، كان نصرا وانجازا كبيرا رفع من معنوياتنا ومن معنويات اهالي منطقة القدس بعد معركة القسطل واستشهاد عبد القادر الحسيني ومذبحة دير ياسين بثلاثة او اربعة ايام.

لم تكن هذه القافلة أول قافلة يهودية نضربها في حي الشيخ جراح وحي باب الساهرة، ولكنها كانت اكبر واخطر قافلة وأكثرها خسائر من اية قافلة سابقة.

في مساء الاثنين ١٢/٤/١٩٤٨ تسرب سر هام من ضابط استرالي في الجيش البريطاني من مرتب القوة البريطانية المتمركزة في اعالي حي الشيخ جراح في دار المفتي الى قائد حي وادي الجوز محمد عادل النجار يفيد ان قافلة يهودية كبيرة ستجتاز حي باب الساهرة وحي الشيخ جراح متجهة الى مجمع هداسا والجامعة العبرية، وان القافلة ستحمل اعدادا كبيرة من جنود الهاغاناه، وان هذه القوة ستقوم بمهاجمة القدس من الشرق ــ اي من الخلف ــ

لتحتل المطلع وقرية الطور ووادي الجوز فتعزل القدس عن مدينة اريحا. ومما يؤيد هذا الاحتمال ان اليهود نسفوا قبل يومين بعض الجسور على طريق القدس ـ اريحا، ليحولوا دون وصول اية نجدات عربية من الشرق.

في الصباح الباكر من يوم الثلاثاء ١٣ نيسان / ابريل ١٩٤٨ قام نحو العشرين من مناضلي حي وادي الجوز بزرع الالغام الكبيرة في الحفر الكثيرة التي حفرت في المعارك السابقة في طريق مرور القافلة، ورابطوا في المداخل الفرعية وفي البيوت القريبة جدا من الطريق، وكلهم تصميم على منع القافلة من المرور وتدميرها مهما كلفهم الثمن درءا لخطرها وانتقاما لشهداء القسطل ودير ياسين. ومع ان المنطقة ومواصلاتها كانت مكشوفة لنيران اليهود الموجودين في حي بيت يسرائيل وسان هدريا من الغرب، ونيران هداسا والجامعة من الشرق، الا ان ضيق عرض الطريق وملاصقة البيوت العربية لأرصفتها كانت تحجب موقع المعركة والمناضلين المرابطين فيها عن نيران العدو.

ونحو التاسعة والنصف صباحا وصلت القافلة الى موقع الكمين وكانت تتألف من سبع حافلات (باصات) مصفحة ومصفحتين عسكريتين، فتفجرت الالغام تحت المصفحتين المتقدمتين فاحترقتا وانفجرتا وقتل جميع من فيهما من جنود الهاغاناه وعددهم نحو الاربعين، وتمكنت خمس حافلات من العودة من حيث أتت، وحوصرت بقية السيارات ولم تستطع التقدم او العودة. ووصلت للمناضلين العرب نجدات سريعة من حي المصرارة وحي باب الساهرة واصبح عدد المقاتلين نحو المئتين. ودارت معركة طويلة بين ركاب المصفحات اليهودية والمقاتلين العرب. وكان في المصفحات الكثير من الجنود والسلاح والذخيرة، وساندتهم نيران كثيفة من شرق المنطقة وغربها. وكان العرب لا يملكون اسلحة مضادة للدروع، لكن مواقعهم القريبة جدا من السيارات المحاصرة ساعدتهم على وضع خرق مبللة بالكاز والقائها تحت السيارات، فاحترقت اطاراتها. وكالعادة تدخل الجيش البريطاني لانقاذ اليهود وهو الذي لم يتدخل ولو مرة واحدة لانقاذ اية قرية عربية او حي عربي. وصارت المعركة الحقيقية بين العرب والجيش البريطاني الذي تدخل في المعركة من الجنوب ومن الشمال محاولا ابعاد العرب عن السيارات اليهودية المحاصرة. وجرت مفاوضات لإنقاذ اليهود الاحياء، لكنها فشلت وأصر العرب على القتال فجلب الجيش البريطاني قوات كبيرة واشتبك مع العرب بعنف وأوقع في صفوفهم العديد من الخسائر مما اضطرهم الى ايقاف القتال والانسحاب نحو الرابعة بعد الظهر. واستشهد من العرب اثنا عشر مقاتلا معظمهم اصيب برصاص الانكليز من بينهم الصحافي المعروف شكري قطينه (ابو بدر) الذي كان ابنه قد قتله اليهود في لغم باب العمود. وقتل مناضلان نتيجة انفجار لغم كانا يحملانه ليضعاه تحت احد الباصات فأطلق الانكليز عليهما النار وفجروا اللغم بهما. كما جرح عدد من المناضلين كان بينهم قائد المعركة محمد عادل النجار. وكانت خسائر الانكليز مقتل جنديين وجرح ستة. اما اليهود

لم يعرف بالضبط عدد قتلاهم، لكن الصحف اليهودية قدرتهم بمئة واثنين وعشرين قتيلا وعشرين جريحا.

في اليوم نفسه

في يوم الثلاثاء ١٣ نيسان / ابريل شنت مجموعة من المناضلين هجوما جريئا على مستعمرة عرطوف الواقعة على بعد ٢٠ كيلومترا الى الغرب من قرية القسطل، ونجحت في احتلال معظم المستعمرة. لكن الجيش البريطاني تدخل فورا مستخدما الدبابات والمدفعية واخرج المناضلين من عرطوف وطاردهم حتى قرية صرعا التي تبعد ٥ كيلومترات عن عرطوف. وفي مساء ذلك اليوم بثت اذاعة القدس بلاغا رسميا للجيش البريطاني اورد تفاصيل ما ذكرت، واضاف بالحرف الواحد: «وانسحب المسلحون العرب الى قرية صرعا فأطلق عليهم الجيش ثلاثين قنبلة مدفع من وزن ٢٥ رطلا لكي لا يعودوا لمهاجمة المستعمرة». وقد وعينا رسالة الجيش البريطاني هذه الموجهة الينا وتعني ان الجيش لن يسمح للعرب باحتلال اية مستعمرة أو سكنة يهودية في الوقت الذي يسمح فيه لليهود باحتلال القسطل ودير ياسين وعشرات القرى العربية دون اي تدخل.

وفي هذا اليوم نفسه ايضا من نيسان/ابريل الملتهب تمكن اليهود من ايصال قافلة كبيرة من تل ابيب الى القدس تتألف من ١٦٥ شاحنة فضلا عن سيارات ومصفحات الحراسة، كان طولها نحو ١٠ كيلومترات، وتمكنت من الوصول بأمان.

تعيين خالد الحسيني
قائدا لجيش الجهاد المقدس

في هذه الفترة عينت الهيئة العربية العليا الضابط خالد شريف الحسيني قائدا لجيش الجهاد المقدس خلفا للقائد عبد القادر الحسيني، واستبعدت بذلك المرشحين الآخرين: ذو الكفل عبد اللطيف وابراهيم ابو دية.

وسبق ان ذكرت ان خالد الحسيني كان ضابط بوليس فلسطيني في عهد الانتداب، وان قيادة البوليس في القدس عينته عند بدء القتال قائدا لـ ٢٠٠ رجل من رجال البوليس الفلسطيني العرب المسلحين بالبنادق فقط ليتولوا مسؤولية الأمن في احياء القدس العربية. كما فعلت الشيء نفسه في الجانب اليهودي. ولذلك كان خالد الحسيني قبل تعيينه قائدا لجيش الجهاد المقدس على صلة بالمناضلين في القدس وبعبد القادر الحسيني بالذات. ولكن على الرغم من طيبة هذا الرجل الا انه بكل تأكيد لم يملأ الفراغ الذي خلفه القائد عبد القادر الحسيني. كما ان اللجنة العسكرية لفلسطين لم تتعامل معه كقائد لمنطقة القدس، بل عهدت

بذلك في البداية الى المقدم محمود الهندي الذي لم يمارس هذا المنصب عمليا. ثم عين المقدم عبد الحميد الراوي الذي جاء الى القدس واستلم المنصب لبضعة ايام فقط. ثم اعتبر الرئيس فاضل عبد الله رشيد قائد سرية جيش الانقاذ التي كانت موجودة في القدس آمرا لحامية القدس، وبذلك اصبح لنا في القدس قائدان. لكن الظروف الخطيرة فرضت التعاون علينا جميعا.

مع اقتراب انتهاء الانتداب البريطاني، انتشرت المعارك في جميع انحاء فلسطين وازدادت شدتها، ولم تعد معارك مواصلات أو غارات بل اصبحت، من ناحية اليهود، معارك احتلال احياء وقرى ومدن، ومن ناحية العرب معارك دفاع مستميت عن الارض والممتلكات والارواح.

معركة مستعمرة نفي يعقوب (١٨/٤/١٩٤٨)

سبق ان تكلمت على دور هذه المستعمرة في قطع مواصلات العرب بين القدس ورام الله. وفي ١٨ نيسان / ابريل ١٩٤٨ جرت اخطر فعاليات حرس هذه المستعمرة؛ فقد اطلقوا النار على عدد من السيارات العربية، وقتلوا وجرحوا عددا من ركابها. وكان بين الشهداء احد رجالي وهو المناضل ابو احمد العجّولي الذي كان عائدا الى القدس من اجازة قصيرة في قريته عجّول. وكان بين الجرحى المناضل المعروف صالح الريماوي الذي اصيب بشلل دائم. وبسبب هذه الهجمات توقف عدد من السيارات المدنية المتجهة من رام الله الى القدس عند أطراف رام الله. وصدف أن مرت مدرعتان تابعتان للجيش العربي الاردني متجهتان الى القدس، فتبعتها السيارات المدنية محتمية بها، وعندما وصلت هذه القافلة الى مستعمرة نفي يعقوب اطلق اليهود عليها النار، فرد جنود الجيش العربي عليهم بالمثل. وحاولت احدى المدرعتين دخول بوابة المستعمرة فضُربت وتعطلت، فتوجهت المدرعة الثانية الى قرية بيت حنينا القريبة جدا من الموقع وطلب جنودها من مسلحي القرية مرافقتهم للهجوم على المستعمرة.

جرى ذلك كله ونحن في القدس لا نعلم شيئا عمّا كان يجري. ونحو الساعة الرابعة بعد الظهر اطلقت النار في الهواء في عدة نواح من الاحياء العربية في القدس. ولما سألنا عن السبب قيل ان النار تطلق ابتهاجا باحتلال العرب مستعمرة نفي يعقوب، ولم ندر ما اذا كان الخبر صحيحا ام لا. وبعد فترة قصيرة اتصل بي الاستاذ انور نسيبة سكرتير اللجنة القومية لمدينة القدس وقال لي ان العرب احتلوا مستعمرة نفي يعقوب ونخشى ان يعود اليهود او ان يعيدهم الجيش البريطاني اليها. ولذلك أعتمد عليك في التوجه الى المستعمرة لنسف جميع أبنيتها. فوافقت وذهبت فورا الى مستودع فرقة التدمير في القدس القديمة وحمّلت سيارة شاحنة

بنحو مئة لغم زنة كل واحد ٤٠ كيلوغراما. وبعد الغروب توجهت مع عدد من رجالي بسيارة اخرى تتقدم الشاحنة متجهين الى المستعمرة.

كان علينا ان نسير سيرا بطيئا وحذرا خوفا من المفاجآت أو من حدوث انفجار في الالغام. ولم نكد نصل حي باب الساهرة مارين من منطقة مكشوفة لمستشفى هداسا حتى اطلقت نيران الرشاشات على السيارة المتقدمة، ولبعد المسافة مررنا بسلام. ولما اجتزنا حي الشيخ جراح، وكنا هنا اقرب بكثير الى مستشفى هداسا، اطلقت علينا نيران الرشاشات فقفزنا من السيارتين بعد اطفاء أنوارهما وابتعدنا وانتظرنا الى ان توقف اطلاق النار واستأنفنا سيرنا مطفئين الانوار الى ان وصلنا قرية شعفاط، وبذلك اصبحنا على بعد كيلومتر واحد من الهدف. توقفنا في شعفاط لكي نقوم بالاستطلاع، ولما سألنا بعض اهالي القرية عما جرى في نفي يعقوب لم يؤكدوا لنا خبر احتلالها، وتبين انهم لا يعلمون ما الذي جرى. فاصطحبت اربعة من رجالي وتقدمنا الى المستعمرة سيرا على الاقدام، ولما اصبحنا على بعد نحو ١٠٠ متر من بوابتها، شاهدنا وجود حراسات وانوار تتخاطب بالضوء مع احياء القدس اليهودية، فواصلنا سيرنا حتى وصلنا مصنعا للمسامير على طريق رام الله يبعد عن المستعمرة نحو الكيلومتر الى الشمال، وسألنا من في المصنع فلم يؤكدوا لنا خبر احتلال المستعمرة. فعدنا ادراجنا الى المستعمرة وتسللنا حتى اقتربنا جدا من مدخلها فشاهدت مدرعات للجيش البريطاني تحرس المدخل وبرج الحراسة الرئيسي فيه حرس من اليهود. فعدت الى شعفاط فالقدس وثبت لي ان الجيش البريطاني تدخل وابعد العرب عن المستعمرة التي لم تسقط كما اشيع وظل الجيش البريطاني يحرسها.

نسف حي المونتفيوري (١٩٤٨/٤/٢٣)

كانت هذه العملية اكبر هجوم عربي على هذا الحي المحصن الواقع في وسط القدس والذي كان يعتدي على مواصلات العرب داخل المدينة، ويكاد يفصل جنوب القدس عن باقي المدينة. ولهذا قررت قيادة جيش الجهاد المقدس ادخال سيارة شاحنة ملغومة لتدمير هذا الحي. وتعاونت على تنفيذ هذه العملية عدة جهات: صلاح الحاج مير من مرتب قيادة القدس منسقا للعملية، فوزي القطب قائد فرقة التدمير يعدّ السيارة الملغومة، بهجت ابو غربية يقود عملية التغطية النارية والحماية والتنفيذ المباشر، يساعده في ذلك حافظ بركات عند باب الخليل ومحمد سعيد بركات (ابو حمدي) عند حي الثوري.

في صبيحة اليوم المحدد ـ الجمعة ٢٣ نيسان / ابريل ١٩٤٨ ـ توجهت للاستطلاع مع صلاح الحاج مير ومعنا المناضلان عبد القادر التونسي الذي سيقود السيارة وناجي مصطفى الحارس والسائق الاحتياطي. ومن مرتفع حي النبي داود (تلة النبي داود) القريب جدا من الهدف اشرفنا على المونتفيوري ورسمنا خطتنا بالتفصيل. وقبيل الغروب بدأنا التنفيذ:

توجهت مع عدد من رجالي الى حي النبي داود وصعدنا إلى سطح بناية تابعة لدير صهيون حيث تمركزنا على بعد نحو ١٥٠ مترا من الهدف وسددنا رشاشاتنا الثمانية الى تحصينات العدو الرئيسية. وبعد الغروب جاءت السيارة الملغومة تسير ببطء، وكان عليها ان تسير نحو ٦٠ مترا مكشوفة لانظار العدو ونيرانه قبل ان تصل النقطة المحددة لها. وكان علي أنا ورجالي ان نمسك أعصابنا والسيارة تتقدم في هذه الفترة الخطرة فلا نطلق النار الا اذا انتبه العدو الى وصول السيارة وأطلق عليها النار، وعندها علينا أن نفتح النار بكثافة. أما إذا لم ينتبه العدو إلى وصول السيارة فلا نطلق النار الا بعد وقوع الانفجار بخمس دقائق حيث نتوقع ان يتجمع أفراد العدو فنوجه نيراننا الى تجمعهم. وكنت من موقعي أُشاهد بوضوح تحرك السيارة ومن فيها وأعصابي مشدودة. وتقدمت السيارة بثبات وجرأة، ولم ينتبه العدو لوصولها وتوقفها تحت تحصيناته، ملاصقة لأهم بناية في الحي. ونزل منها السائقان واشعلا فتيل الالغام. وهنا صرخت بأعلى صوتي على رجالي: ارموا بشدة!! ارموا!!، فتفجر الجحيم من رشاشاتنا وكان ذلك تغييرا في الخطة اقتضته الضرورة؛ فقد فوجئت بأن فوزي القطب عندما اعد السيارة الملغومة جهز نحو ١٥ فتيلا وربط اطرافها في حزمة واحدة، فلما اشعلت أحدثت ضوءا شديدا لا بد أن ينتبه اليه العدو مما يعرض حياة المناضلين السائقين الى الخطر الشديد.

واصلنا اطلاق النار بكثافة نحو الدقيقتين، وشاهدت المناضلين السائقين يصلان بسلام الى منعطف مستور عن نار العدو الذي لم يستطع اطلاق طلقة واحدة بسبب المفاجأة وغزارة نيراننا. وهنا امرت بقطع الرماية والاستلقاء على الارض ـ على سطح البناء ـ وبعد لحظات انفجرت السيارة وشعرنا ان البناء يكاد يسقط بنا وينهار. وتساقط علينا فتات الحجارة والقرميد المتطاير، ثم نهضنا وعدنا إلى مواقعنا من جديد، وانتظرنا نحو الثلاث دقائق حيث شاهدنا تجمعا داخل الحي ففتحنا النار بكثافة. وهنا تدخلت سيارة مصفحة تابعة للبوليس البريطاني، اكتشفت موقعنا واطلقت علينا نيران رشاشاتها بكثافة من مرتفع مقابل لنا ـ قرب مستشفى سانت جون للعيون ـ. ووفقا لخطتنا بدأ رجال حافظ بركات المتمركزون على يميننا عند باب الخليل باطلاق النار على المونتفيوري وعلى المصفحة البريطانية لاعطائنا الفرصة للانسحاب، فبدأنا الانسحاب الى داخل حي النبي داود ثم بدأ رجال ابو حمدي المتمركزون في حي الثوري على يسارنا اطلاق النار لاعطاء حافظ بركات ورجاله فرصة الانسحاب، وهكذا انسحب الجميع بنظام وبدون خسائر.

كان الانفجار شديدا جدا هز مدينة القدس هزا عنيفا ودمر معظم بنايات المونتفيوري واحالها الى خرائب، وقتل عددا كبيرا من اليهود وجرح آخرين لم نعرف عددهم، واصبح الحي غير صالح للسكن. ولم يكن من خطتنا ان نتقدم لاحتلال الحي لسببين:

الاول ـ لم يكن لدينا ما يحتاجه ذلك من الرجال والسلاح والعتاد.

الثاني ـ كنا متأكدين من تدخل الانكليز لمنعنا واخراجنا من الحي. وكما اشرت فقد

تدخلوا فورا أثناء تنفيذ العملية، وكانت حيطتنا لتأمين الانسحاب احتياطا من تدخل الانكليز وليس من ردة فعل اليهود. وعلى كل حال اصبح المونتفيوري بعد هذه العملية منطقة حرام، ولو ان اليهود استمروا بالتسلل اليه بين حين وآخر.

ومما هو جدير بالذكر ان اهالي حي النبي داود سرّوا جدا بتنفيذ العملية لان مسلحي المونتفيوري كانوا يعتدون عليهم باستمرار. وصدف انه في صباح اليوم الذي نفذنا فيه عملية النسف أطلق اليهود النار على المارة في حي النبي داود وجرحوا احدهم فتقدم طالب فتي كان متطوعا في فريق الاسعاف لاسعاف الجريح او نقله فأطلق اليهود عليه النار وقتلوه. وكان هذا الفتى احد تلاميذي المحبوبين في الكلية الابراهيمية ولاعبا مميزا في فريق كرة القدم اسمه محمد الدجاني رحمه الله.

محاولة فاشلة للحصول على السلاح

كان قريبي عبد الله عثمان ابو غربية يعمل في مقصف الجيش البريطاني (N.A.F.I.) في بناية شميدت قرب باب العمود، وكانت فيها وحدة من قوات الطيران البريطاني. وفي يوم ١٩٤٨/٤/٢٥ جاء عبد الله واخبرني ان جاويشا بريطانيا من قوة الطيران في عمارة شميدت، وهو المسؤول عن مستودع السلاح والذخيرة هناك، على استعداد للتعاون معنا في بيع هذا السلاح لنا اثناء نقله من عمارة شميدت الى عمارة المستشفى الايطالي مرورا بحي المصرارة. وانه يطلب مقابلة المسؤول عن حي المصرارة للاتفاق معه على الشروط وترتيب هجوم صوري. فرحت كثيرا للخبر وطلبت من عبد الله ترتيب اللقاء بأسرع ما يمكن. وفي اليوم التالي قابلت الجاويش وعبد الله في مقهى بسيط يقع مقابل عمارة شميدت، وكنت منشرحا ومتفائلا وأحاول ان اكون ايجابيا وبشوشا. سألته عن محتويات المستودع فقال إن فيه نحو خمسة اطنان من السلاح والعتاد ستنقل جميعها في سيارة شحن واحدة. سألته بلهفة هل بينها قاذف الصواريخ «بيوت» فأكد وجود اربعة مع قنابلها الصاروخية. فزاد اهتمامي لأن هذا السلاح كان من احدث الاسلحة المقاومة للدروع. وقال ان موجودات المستودع ستنقل الى المستودع الرئيسي لقوات الطيران في المستشفى الايطالي بعد اسبوع مرورا بحي المصرارة، وانه سيكون مسؤولا عن عملية النقل والحراسة، وانه يعرض علينا ان نهاجمه صوريا لدى مرور السيارة بالحي لنستولي على السلاح. فوافقت بكل سرور وسألته عن طلباته فقال: اولا ــ اريد ان اكون متأكدا جدا انكم لن تقتلوني. ثانيا ــ ان تدفعوا لي ٤٠٠ جنيه. ثالثا ــ انه واقع في حب فتاة مسيحية من سكان القدس وطلب الزواج منها لكن والدها رفض. ولهذا فهو يريد منا ان نجبر والد الفتاة على زواجه منها!!. فوافقت على جميع شروطه بكل سرور وايجابية ووعدته ان احضر المبلغ في اليوم التالي وان احضر والد حبيبته ليعلن موافقته، وودعته بحماسة وحرارة. ولكن في مساء اليوم نفسه عاد عبد الله واخبرني ان الجاويش عدل عن

عرضه لسبب هام جدا وهو ــ حسب قوله ــ ان هذا المسؤول الذي قابلته لا يمكن الا ان يقتلني. وقال عبد الله انه حاول بكل وسيلة ان يطمئنه بأنه يضمن سلامته فلم يقتنع واصر بشدة على الغاء العرض. فطلبت من عبد الله ان يستمر في محاولة اقناعه، وبدأت اتخذ استعداداتي للاستيلاء على السلاح بالقوة وترتيب الكمين اللازم في المكان والزمان اللذين حددهما الجاويش، وتنفيذ الخطة اذا لم يستطع عبد الله اقناعه. وفي اليوم المحدد كنا جاهزين لمهاجمة السيارة والاستيلاء على السلاح اذا كان ذلك ممكنا. وطلبت من رجالي ان يكونوا حذرين جدا وان لا يبدأوا باطلاق النار لتنفيذ الخطة الا وفقا لاوامري، وانني سأكون في موقع الكمين اقوم بنفسي بتنفيذ الخطة. وجاءت السيارة المنتظرة واذا هي قافلة وليست سيارة؛ دبابتان عسكريتان في المقدمة ودبابتان في المؤخرة. صحت في رجالي احذروا ان تطلقوا النار الا اذا امرت. وعندما وصلت اول دبابة تقدمت امامها متظاهرا انني عابر سبيل يقطع الشارع الضيق وحاولت ايقافها، وكنت بالطبع لا احمل سلاحا، فلم تخفض من سرعتها وكادت تدهسني. فاختفيت وطلبت من احد رجالي اطلاق طلقة رشاش في الهواء فانفجر الجحيم من رشاشات الدبابات. ولحسن الحظ انهم لم يطلقوا المدافع وازاحت الدبابات حاجز الحجارة الذي اقمناه ومروا وانتهت العملية بالفشل وبدون خسائر.

(وَلا البَلاش)

في هذا اليوم نفسه أو الذي تلاه نجح كمين اعددناه في طريق نابلس قرب كراج نابلس في الاستيلاء على مصفحة للبوليس البريطاني. ومع انها لم تكن من الطراز الحديث (G.M.C.) الذي زود به البوليس البريطاني مؤخرا، الا اننا كنا سعداء جدا بالاستيلاء عليها بدون خسائر وبدون دفع مال. وقد عاملنا سائقها ومرافقه الوحيد بعد ان استسلما لنا بكل لطف واوصلناهما الى المكان الذي طلباه. ولا بد ان اشير الى ان هذه المصفحة افادتنا كثيرا في الايام التي تلت ولا سيما ان كامل عريقات استعاد مني المصفحة اليهودية التي كنت قد استلمتها منه قبيل معركة القسطل.

خطة (Jevussi) لاحتلال جميع القدس

بتاريخ ١٩٤٨/٤/٢٣ قام اليهود، استكمالا لخطة نحشون (Nachshon) المار ذكرها بالهجوم على قرى شعفاط وبيت اكسا والنبي صموئيل دون ان ينجحوا في احتلالها. وكانوا قبل ذلك بثلاثة ايام هاجموا قرى بيت سوريك، وبدّو، وساريس، وصوبا، فدمروا بعضها واحتلوا بعضها الآخر.

وابتداء من ١٩٤٨/٤/٢٦ بدأوا بتنفيذ خطة يبوسي التي وضعت لاحتلال مدينة القدس بأكملها. وفي أطار هذه الخطة كانوا فشلوا في ايصال قافلة هداسا والجامعة العبرية

المار ذكرها. كما فشلوا في قطع طريق القدس ـ أريحا. ولكنهم قاموا بسلسلة هجمات مركزة على احياء شمالي القدس وجنوبها، ففشلوا في الشمال ونجحوا في الجنوب، وفيما يلي تفاصيل احدى معارك شمال القدس.

الهجوم على المصرارة والشيخ جراح (١٩٤٨/٤/٢٦)

كان يوما ٢٥ و٢٦ نيسان / ابريل ١٩٤٨ يومين مشهودين في تاريخ معارك شمالي القدس. فبعد ظهر يوم الاحد ٢٥ نيسان / ابريل بدأ اليهود اطلاق نيران الرشاشات على امتداد مواقعنا في حي المصرارة وسعد وسعيد بشكل مفاجىء وبغزارة شديدة تستلفت النظر. ومنذ البداية امرت بعدم الرد على النيران الى ان تتبين لنا نوايا العدو. واستمرت الرماية الكثيفة ساعة بعد ساعة مما خيل الينا ان لدى اليهود ينابيع لا تنضب من الذخيرة. ومع ذلك لم يقم العدو بأية محاولة للتقدم. وقدرت الموقف أنا والملازمان المسؤولان عن الحي: يحيى الزواوي ومحمود عريقات، فاقترحا تعزيز التحصينات بحيث ينضم حرس الدورة الليلية (شِفْت الليل) الى حرس النهار. فعارضت الاقتراح ووصلنا الى الاتفاق على ان غرض اليهود استنزاف رجالنا وجهودنا وذخائرنا تمهيدا لهجوم سيجري بعد منتصف الليل. ومع ذلك استدعينا تعزيزات من قواتنا في حي باب الساهرة. واجتمعت مع الرئيس فاضل رشيد قائد كتيبة جيش الانقاذ المعسكرة داخل البلدة القديمة وسأل ان كنت بحاجة الى تعزيزات فأجبته ان منطقتي محصنة ومنظمة وانني واثق من جبهتي، ولكنني أخشى على ميمنتي في حي الشيخ جراح. فقد تفقدت هذا الحي صباح ذلك اليوم فلم اجد فيه حراسات منظمة، وليس في هذا الحي الاستراتيجي سوى عشرين مقاتلا متجمعين في موقع حوش شهوان، وباقي الحي مكشوف ومفتوح لأي تقدم يهودي، ومن الضروري تعزيز الدفاع عن الشيخ جراح بأكبر قوة ممكنة. وبناء على ذلك أرسل فاضل رشيد الضابط موسى عبد الهادي ومعه نحو الثلاثين رجلا من جيش الانقاذ تبين فيما بعد انهم تمركزوا في موقع واحد في اعالي الحي ولم يتمركزوا على خط المواجهة.

وعند الغروب هدأت العاصفة تماما وقلت لرجالي انني اصبحت متأكدا أن هجوما سيقع بعد منتصف الليل، وهذا ما حصل بالفعل. فبعد منتصف الليل بقليل فتح اليهود النيران الشديدة على طول خطوط التماس من اقصى جنوب القدس الى اقصى شمالها مستخدمين الرشاشات المتوسطة والثقيلة ومدافع المورتر. وتركز قصف قنابل المورتر على حي المصرارة وسعد وسعيد أكثر من اي قطاع آخر في الجبهة، فقتل وجرح من جراء ذلك عدد من النساء والشيوخ والاطفال، كان من بينهم مختار الحي البطل الشهيد خليل البشيتي الذي كان يتنقل من مكان الى آخر مشجعا على الثبات ومركزا الاهتمام على موقع المدرسة الاسوجية التي كان يعتبرها مفتاح الحي فسقط شهيدا بقربها رحمه الله.

واتصل بي الرئيس فاضل رشيد مستفسرا فأكدت له سلامة مواقعي، وقلت انني لا اتوقع ان يتقدم اليهود بالمشاة الى المصرارة لانهم يعرفون مناعتها، واعتقد انهم ينوون احتلال حي الشيخ جراح على ميمنتي، وان قصفهم وإشغالهم يقصد به انهاكي واشغالي عن حي الشيخ جراح. ولم يمض وقت طويل حتى ثبتت صحة تقديري وتركز الهجوم على حي الشيخ جراح. وطلبت من فاضل رشيد ارسال تعزيزات عن طريق حي باب الساهرة. وتوجهت بنفسي الى اطراف حي باب الساهرة الملاصقة لحي الشيخ الجراح ـ حرج كولونية الاميركان وزاوية الشيخ جراح ـ واستنفرت رجالي هناك وتعاونًا مع نجدات جيش الانقاذ. ولكن قوات البلماح اليهودية كانت دخلت الحي من محور ميئه شعاريم وسان هدريا من الغرب، ومحور هداسا والجامعة العبرية من الشرق من مداخل مستورة عن نيراننا. وانسحبت قوة المناضلين العرب من حوش شهوان الى حي باب الساهرة مذعورة، مما حمل عددا من سكان حي باب الساهرة على الرحيل الى البلدة القديمة، وبقيت انا ورجالي حتى الصباح نشاغل العدو في الشيخ جراح لمنعهم من التمركز.

وهدأ الحال في حي المصرارة وسعد وسعيد بعد تلك الليلة العاصفة، وكانت آثار القصف ظاهرة؛ فجميع خطوط تلفون الميدان مقطوعة وآثار القنابل المتفجرة والقنابل العمياء هنا وهناك. ولكن اليهود لم يتقدموا شبرا واحدا، فاستدعيت بعض قواتي هناك الى الشيخ جراح.

وعند شروق الشمس تبين لنا ان اليهود لم يستطيعوا ان يتمركزوا في حي الشيخ جراح الا في بناية واحدة وهي قصر راغب بك النشاشيبي الذي كان تحت الانشاء (عظم). وعقدنا اجتماعا لتقدير الموقف بقيادة خالد الحسيني قائد جيش الجهاد المقدس، وكان رأيي ان نقوم بهجوم معاكس فوري لنطرد اليهود نهائيا من الحي. واننا ان لم نقم بذلك فورا فسيجلب اليهود المزيد من الامدادات ويثبتون في الحي بأكمله وبذلك تصبح القدس محاصرة من الشمال بالاضافة الى الغرب ويصبح قطاعي محاطا بقوس على شكل نصف دائرة. ولكن خالد الحسيني لم يوافق على ذلك واقترح ان نؤجل الهجوم ٢٤ ساعة بينما نجلب امدادات. فرفضت ذلك وقلت: بصفتي قائد هذا القطاع لا استطيع ان انتظر، وسأقوم بالهجوم على مسؤوليتي، وهذا لا يمنع جلب الامدادات لشن هجوم بعد ٢٤ ساعة اذا فشل هجومي.

وخرجت من مكان الاجتماع وجمعت رجالي، وبحضور عدد كبير من جنود جيش الانقاذ ومناضلي حي وادي الجوز شرحت الموقف وخطورته ودعوتهم جميعا الى التقدم على حي الشيخ جراح. وتعالت صيحات الحماسة. ولا أنسى ما كان يصرخ به احد رجالي المناضل خليل عبد ربه من قرية خاراس وهو ينحدر راكضا الى الوادي ـ وادي الجوز ـ وصاعدا الى مرتفع الشيخ جراح ورشاشه المتوسط بين يديه حيث كان يردد: الموت!! الموت!! الموت ولا الذلّية.. كنا اكثر من مئة مقاتل نتقدم صعدا الى حي الشيخ جراح لا نواجه نيرانا من

امامنا ولكننا مكشوفون عن بعد لنيران العدو من الشرق ــ مستشفى هداسا ــ ومن الغرب ــ ميئه شعاريم وسان هدريا ــ، وكان علينا في اكثر الاحيان ان نقطع المسافات زحفا على الارض متسترين بسنابل القمح الغضة. ووصلت قمة الشيخ جراح وتأكد لي ان اليهود غير موجودين إلا في قصر راغب بك النشاشيبي. بدأنا احتلال البنايات القريبة جدا من القصر وكدت انا والمناضل الشاب احمد زكي نسيبة نقتل ونحن نصعد على سطح اقرب بناية الى القصر. وكان علينا بعد الاقتراب ان نطلق نيرانا كثيفة لستر تقدمنا لدخول القصر حيث لم تكن لدينا سوى البنادق والرشاشات ولا نملك اي مدفع. وادهشنا ان اليهود المحاصرين في القصر كان لديهم من الذخيرة ما مكنهم من ان تكون نيرانهم اشد من نيراننا بكثير، الأمر الذي استحال معه اي اقتحام او تقدم. وسقط منا قتلى وجرحى وتناقصت ذخائرنا وتجمد هجومنا. ونحو العاشرة صباحا وصل الى الموقع الملازم جمال الصوفي وهو ضابط من الجيش السوري تطوع في جيش الانقاذ وشغل منصب مساعد القائد فاضل رشيد، المسمى «آمر حامية القدس». وكنت تعرفت على جمال الصوفي قبل هذا اليوم وتوطد بيننا احترام متبادل. فقد كان شهما مقداما نشيطا. كما كنت تعرفت في الفترة نفسها على الملازم السوري الشهم عبد الرحمن ملوحي. شكرت لجمال اشتراكه في هذا الهجوم وتعريض نفسه للخطر الشديد، وشرحت له الموقف العسكري وخطورته وضرورة تطهير الحي من اليهود بسرعة واننا بحاجة الى المزيد من الذخيرة والقنابل والرجال. فوافقني على تقدير الموقف وقال انه سيعود فورا لجلب الامداد المطلوب وانكفأ راجعا الى حي باب الساهرة تحت نيران العدو.

ومضت ساعة ثقيلة او اكثر كنا خلالها نتوقع هجوما يهوديا معاكسا، وننتظر الامداد على أحر من الجمر. واذا بالملازم جمال الصوفي يعود الي منفردا معرضا نفسه للخطر من جديد ليقول لي انه جهز باصا مصفحا (باص رقم ٦) من باصات حي البقعة وحمّل فيه كمية من الذخيرة وعددا من الجنود. ولكن عندما وصل الباص الى قرب جامع الشيخ جراح حيث يصبح مكشوفا لنيران العدو المباشرة من حي ميئه شعاريم، تمرد السائق ورفض التقدم، ثم تمرد الجنود، وحضر منفردا ليخبرني بالواقع لكي اتصرف على ضوئه. صحيح اننا فشلنا في تطهير الحي ولكننا حلنا دون تعزيزه.

وبعد الظهر تدخل الانكليز وطلبوا من العرب ومن اليهود وقف اطلاق النار والانسحاب من الحي، وان الجيش البريطاني سيحتل الحي لانه يقع على طريق انسحابهم الرئيسي من القدس الى حيفا عندما يحين موعد الانسحاب في ١٥ أيار / مايو. ووافق العرب على الانسحاب ورفض اليهود. وانسحبنا بالفعل تحت نيران العدو الشديدة. ووصلت الى موقع ارض السمار المشرف على قصر راغب بك من جهة الشرق مدرعات من الجيش البريطاني ومعها مدفع ثقيل محمول على الجنزير من عيار ٢٥ رطلا، وانذر الجيش اليهود طالبا اخلاء البناية ثم اطلق عليهم نيرانا كثيفة من الرشاشات لمدة ثلاث دقائق، وأطلق أيضا قذيفة

مدفع واحدة. فانسحب اليهود وأصبح الحي بكامله تحت احتلال الجيش البريطاني بعد ان كان له موقع واحد فقط وهو دار المفتي. ولا يفوتني ان انوه بالبطولة التي ابداها احد رجالي المناضل سعيد ابو طير من قرية سنجل، الذي لم يصل اليه امر انسحابنا وظل وحده يقاتل العدو برشاش البرن الذي يحمله والذي عثر له على كمية من الذخيرة متروكة في احد البيوت. ولم يغادر الحي الا بعد دخول الانكليز وانسحاب اليهود.

٣١ معركة حي القطمون

بدأ اليهود في أواخر شهر نيسان / ابريل ١٩٤٨ بتنفيذ خطة (Jevussi) لاحتلال جميع مدينة القدس قبل انتهاء الانتداب. وفي إطار هذه الخطة، وكما اشرت، قاموا بهجوم يهدف إلى احتلال مرتفع النبي صموئيل الاستراتيجي مرورا بقرية شعفاط وقرية بيت إكسا والاتصال بمستعمرة نفي يعقوب، وقد فشل هذا الهجوم. كما قاموا بهجوم ثان على حي المصرارة وحي الشيخ جراح، لاحتلال حي الشيخ جراح والاتصال بمجمع هداسا والجامعة العبرية والامتداد الى جبل الطور، وفشل هذا الهجوم ايضا.

وابتداءً من ٢٧ نيسان / ابريل ١٩٤٨ شرعوا بشن هجوم مركز على حي القطمون جنوبي القدس مصممين على احتلاله. وكان حي القطمون احدث وارقى احياء القدس العربية، ويقع على مرتفع يواجه من الشمال التجمع اليهودي الرئيسي في الاحياء الغربية ابتداء من حي رحافيا، ويحمي خلفه معظم الاحياء العربية الجديدة مثل البقعة الفوقا، والبقعة التحتا، ويعزل المستعمرات اليهودية في جنوبي القدس، وهي ميكور حاييم وتالبيوت ورامات راحيل.

وكان اليهود هاجموا حي القطمون عدة مرات خلال آذار / مارس ونيسان / ابريل وتمكنوا من احتلال عدة منازل ومرتفعات تتحكم بالمنطقة وتحصنوا في عمارة زلبرشتاين الكبيرة، كما تمكنوا من قطع خطوط الهاتف والكهرباء عن الحي، وشلوا مواصلاته ومواصلات الاحياء العربية المجاورة حتى اصبحت شبه مقطوعة عن القدس مما ادى الى رحيل معظم سكانها.

وكانت حامية الحي سرية من ابطال جيش الجهاد المقدس يبلغ عددها ١٣٠ رجلا يقودها المناضل الشجاع ابراهيم ابو دية، وقد صمدت هذه السرية أمام هجمات متلاحقة وقوات متفوقة طوال آذار / مارس ونيسان / ابريل وقدمت العديد من الشهداء. وفي ٢٧ نيسان / ابريل وحتى ٢٩ نيسان / ابريل هاجم اليهود الحي بموجات متلاحقة من قوات البلماح وسقط من المناضلين العديد من الشهداء والجرحى، وبلغ عدد الشهداء يوم ٢٩ نيسان / ابريل وحده ٣٥ شهيدا. وفي غمرة القتال انضم الى حامية القطمون نحو ٦٠ مقاتلا من كتيبة جيش الانقاذ المتمركزة في مدينة القدس القديمة بقيادة الرئيس فاضل عبد الله رشيد، ولكنهم كانوا يجهلون طبيعة الارض ولذلك لم يلبثوا ان انسحبوا بعد ليلة واحدة. كما ان

قنصليات مصر والعراق وسوريا ولبنان كانت تقع في هذا الحي ويحرسها بعض الجنود المصريين واللبنانيين، وكان نحو الثلاثين جنديا من الجيش الاردني مزودين بثلاث مصفحات يحرسون القنصلية العراقية، وحاولوا ان يساندوا المناضلين في المعركة لكنهم لم يلبثوا ان انسحبوا بناء على أوامر قيادة الجيش البريطاني.

وفي ليلة ٢٩ ـ ٣٠ نيسان / ابريل تحركت قوة كبيرة من جنود البلماح باتجاه دير سمعان الذي يقوم على مرتفع استراتيجي وسط حرج كثيف خلف خطوط المناضلين. وكان العرب يقدرون اهمية هذا الدير الاستراتيجية ولكنهم لم يحاولوا ان يحتلوه محافظة على حرمته وحرمة راهباته. وقد سلكت القوات اليهودية دربا وعرة والتفت على الدير تحت جنح الظلام وتمكنت من احتلال الحرج بعد معركة قصيرة. لكن المناضلين العرب طوقوا المنطقة ومنعوا اليهود من التقدم. وفي الصباح دخل اليهود الى بناية الدير وتحصنوا فيها. غير أن المناضلين شددوا ضغطهم على اليهود المتحصنين في الدير الذين اصبحوا شبه محاصرين، وسقط من اليهود عدد كبير من القتلى والجرحى لم يكن بالامكان نقلهم، ولذلك قرر قائدهم ان ينسحب من الدير بعد حلول الظلام. وبعد ظهر ٣٠ نيسان / ابريل شَنَّ العرب هجوما جديدا على الدير وشددوا ضغطهم ولكنهم لم يتمكنوا من اقتحامه. وفي المساء التقط اليهود المحاصرون مخاطبة لاسلكية بين العرب فهموا منها ان العرب اصبحوا يائسين من احتلال الدير، فعدل اليهود عن الانسحاب خصوصا بعد ان بدأت تصلهم قوات جديدة من البلماح شقت طريقها من بيت الى بيت حتى اتصلت بمن في الدير وحلت محلهم.

وفي صباح الأول من ايار / مايو ١٩٤٨ واصلت قوات البلماح تقدمها مستعينة بسبع مصفحات حتى وصلت الى مركز قيادة الحي العربية عند فندق جدع واتصلت بمستعمرة ميكور حاييم. وبذلك سيطرت على الحي بأكمله. وفي اليوم التالي أي في الثاني من أيار / مايو ١٩٤٨ أحضر القائد ابراهيم ابو دية نجدة للقيام بهجوم معاكس مع انه كان جريحا، لكنه غادر مستشفى بيت صفافا واخذ يقود رجاله. وقامت مدفعية جيش الانقاذ بقصف احياء القدس الغربية من مرتفعات النبي صموئيل وقرية بدو شمالي القدس. ولكن النجدة لم تتمكن من تغيير الوضع لان الانكليز المتمركزين في المنطقة المعروفة باسم منطقة الامن الأولى منعوا النجدة من التقدم وتخطي الحد القائم قرب القنصلية العراقية. ليس هذا فحسب، بل اعتقل الانكليز القائد ابراهيم ابو دية، وسجنوه عدة ساعات، وفي الوقت نفسه كانت الطريق مفتوحة أمام النجدات اليهودية من الناحية الشمالية والناحية الغربية. ومما هو جدير بالذكر ان قوة من الجيش العربي الاردني كانت مرابطة في معسكر العلمين المجاور لم تقم بأي مجهود لانقاذ موقف العرب.

وبعد ان احتل اليهود حي القطمون فرض الانكليز على الطرفين هدنة محلية استغلها اليهود وتحصنوا في المواقع التي احتلوها. وقبيل انتهاء الانتداب انطلقوا من هذه المواقع

واحتلوا حيي البقعة الفوقا والبقعة التحتا واجزاء من حي الثوري وأعملوا فيها النهب والسلب عسكريين ومدنيين. وعزلت القدس عن بيت لحم والخليل جنوبا، واتصلت المستعمرات اليهودية جنوبي القدس بتجمع اليهود الرئيسي غربي القدس.

كانت خسارتنا بسقوط القطمون وبقية احياء القدس الجنوبية كبيرة جدا كما ان خسارتنا في الارواح من رجال سرية الابطال، سرية ابراهيم ابو دية، كانت كبيرة جدا ايضا. فقد استشهد معظم رجال هذه السرية ولم يبق على قيد الحياة سوى خمسة عشر رجلا من اصل رجالها الـ ١٣٠. لقد دافعوا عن ارضهم دفاع الابطال ولم يسمحوا للعدو ان يمر الا على جثثهم. اما العدو فقد كانت خسائره اكبر وقدرت بالمئات وقدر عدد المهاجمين بثلاثة آلاف.

في هذه الفترة كنت منهمكا في تلافي آثار معارك ٢٥ و٢٦ نيسان / ابريل في قطاعي متوقعا ان يعيد اليهود الكرة على هذا القطاع. لذا كنت عاجزا عن تقديم أي دعم لحي القطمون بل حتى عن الاتصال بحاميته او الوصول اليه. واعود الآن للحديث عن قطاعي.

المناضل محسن محمد الوظائفي

طالب من تلاميذ القسم الداخلي في الكلية الابراهيمية، وسبق ان ذكرت انه كان احد افراد التنظيم السري المسلح الذي نظمته قبل نشوب حرب ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩. وما زال محسن يشغل حيزا كبيرا من ذاكرتي، فقد كان نموذجا مميزا للطلبة الذين نظمتهم ودربتهم، بل وأقول ربيتهم. وكانوا قبل انتهاء السنة الدراسية يقومون بواجب حراسة الكلية وما جاورها. وشارك معظمهم في القتال بعد انتهاء الدراسة.

اكمل محسن الصف الرابع الثانوي في الكلية الابراهيمية وتقدم لامتحان الدراسة الثانوية (المتريكوليشن) في نيسان / ابريل ١٩٤٨، لأن دائرة المعارف قدمت موعد هذا الامتحان في تلك السنة بسبب الحرب. وبعد انتهاء الامتحان سافر الى الكرك حيث يقيم والده الطبيب الدكتور محمد الوظائفي. وبعد فترة قصيرة استأذن والده في السفر الى عمان، ومن عمان ارسل رسالة الى والده يخبره انه تطوع في فرقة اسعاف وسافر الى القدس ليكون في خدمة اخوانه المناضلين.

وفي ٢٦ نيسان / ابريل الذي تحدثت عن معاركه القاسية، وبعد ان انسحبنا من حي الشيخ جراح بعد ظهر ذلك اليوم، وفي نفسي ألم شديد، وجسدي مرهق لم أذق طعم النوم لمدة ٣٦ ساعة او اكثر، وملابسي ممزقة بسبب كثرة الزحف، فوجئت بمحسن يقف امامي في ساحة الكلية الابراهيمية، فقلت له: أنت سافرت الى الكرك فلماذا عدت؟ فقال: كي اقوم بواجبي الوطني فأقاتل معكم. قلت: لماذا سافرت الى الكرك اذن؟ قال: كي اثبت وجودي عند والدي ولا أحمِّل الكُلية أية مسؤولية كما علمتنا. قلتُ: يا محسن! وضعنا صعب جدا

وظروفنا قاسية، وامكاناتنا محدودة، وانت شاب في مقتبل العمر، وفِّر نفسك وشبابك لظروف افضل. فانتفض وقال بلهجة حازمة: المناضل الحقيقي لا يتوقف عن النضال مهما كانت الظروف قاسية والامكانات محدودة. يناضل بما هو متوافر ولو في أقسى الظروف. وكانت هذه الجمل من بين ما سبق ان لقنته له ولرفاقه اثناء التدريب. فأفحمني، وصرخت منفعلا: اذهب عن وجهي. فقال: انا ذاهب. وفي مساء اليوم التالي وبينما كنت في جولة تفقدية على مواقعنا الأمامية، وجدته في واحد من اهم تحصيناتنا واسمه: دار المظفر، وكان قلعة من قلاعنا يحرس ملتقى استراتيجيا لأحياء باب الساهرة والشيخ جراح ووادي الجوز، ويقع على مدخل وادي الجوز الغربي. فقلت: ماذا تفعل هنا؟ قال: انضممت الى هذا الموقع المهم لان من افراده زميلي في الكلية وفي التنظيم ابراهيم الطبجي، وقد نقلت حتى الآن كذا وكذا من اكياس التراب الى سطح البناية لتعزيز التحصينات، وتدربت على رشاش البرن الانكليزي ورشاش البرن الألماني وغدا سأتدرب على رشاش البراوننغ. فقلت: هذا يعني انك مصر على ألا تعود الى الكرك؟ فقال: بكل تأكيد وتصميم. فاستسلمت واخذته الى قيادتي وسلمته رشاش ستن، وقاتل معنا في تلك الايام العصبية بكل اندفاع وشجاعة وتعرض للموت الاكيد اكثر من مرة. كما سيأتي ذكره في حينه.

زوار كبار

صباح ٢٧ نيسان / ابريل ١٩٤٨ زارني في مقر قيادتي في حي المصرارة الرئيس فاضل عبد الله رشيد آمر حامية القدس برفقته الشيخ مصطفى السباعي رئيس تنظيم الاخوان المسلمين في سوريا، وكان يقود مجموعة من الاخوان تحت قيادة جيش الانقاذ. وكان معهما شخص ثالث لم يتكلم طيلة الساعة التي استغرقتها الزيارة ولم اعرف عنه سوى اسمه: الاستاذ ميشيل عفلق. وعلمت فيما بعد انه الامين العام لحزب البعث الاشتراكي، وان عددا من قادة هذا الحزب انخرطوا في جيش الانقاذ وحضروا الى فلسطين، ابرزهم نائب حماة اكرم الحوراني والدكتور فيصل الركبي والاستاذ عبد الكريم زهور والاستاذ خليل الكلاس ومأمون البيطار وكان الاخير قائدا لمدفعية جيش الانقاذ واستشهد في معركة مشمار هاعيمك.

تجول الزوار في قطاعي وشاهدوا آثار معركة الليلة السابقة، وعلق الرئيس فاضل رشيد لدى زيارته أحد الاستحكامات قائلا: «هذه اكثر من حرب شوارع، مواقعكم قريبة جدا من مواقع العدو، وصمودكم فيها بطولة، واي تقدم للعدو في هذا القطاع يهدد المدينة بأكملها».

وفي اثر هذه الزيارة تقرر تعزيز دفاع حي المصرارة بمجموعتين من رجال جيش الانقاذ كل مجموعة تتألف من نحو ٣٥ رجلا. وقد افرزت المجموعتان وألحقتا بقيادتي، فركزت المجموعة الاولى على خط المواجهة، في بيت الدكتور حسين الخالدي (فندق رغدان) مقابل دار اذاعة القدس، وكان قائدها الملازم اللبناني حنا الحلو ومعظم افرادها من لبنان. اما

المجموعة الثانية فكانت مجموعة مغاوير سوريين، وتمركزت ايضا في خط المواجهة في بيت عائلة المؤقت مقابل السجن المركزي ومستشفى الحكومة في مجمع المسكوبية. وبعد بضعة ايام ألحقت بقيادتي مجموعة ثالثة من نحو ٣٥ رجلا من جماعة الاخوان المسلمين في سوريا وبعضهم من شرق الاردن، وتمركزت في حي سعد وسعيد في بناية انطون المسيحي.

احتلال بناية أنطون المسيحي

كانت هذه البناية الكبيرة من اهم بنايات حي سعد وسعيد المواجهة لخطوط العدو. واثناء القتال كان يسكنها عدد من رجال البوليس البريطاني (منامة Police Billet)، وكانت تشكل عازلا بيننا وبين اليهود، وقد حصنها الانكليز فأقاموا حولها اسلاكا شائكة وعوائق اسمنتية (Dragon Teeth)، وكانت اقرب الى خطوطنا منها الى خطوط اليهود. وكنا نتوقع ان يخليها الانكليز بين يوم وآخر. وكنا جاهزين لاحتلالها عند اخلائها. وبعد ظهر ٢٧ نيسان / ابريل ١٩٤٨ بدأ البوليس البريطاني باخلائها ولاحظنا نحن واليهود ذلك وتجهز الطرفان لاحتلالها. فجهزت مجموعة من المناضلين في مكان مستور عن نيران العدو لا يبعد عن البناية اكثر من ٢٠ مترا، وقدت العملية بنفسي. وبمجرد ان غادرها آخر انكليزي اقتحمنا البناية وكنت في المقدمة ومعي محمود عريقات وصبري السرياني. وفتح اليهود علينا نيران الرشاشات، وسقط صبري على الارض جريحا فاقد الوعي والدم ينزف من صدره عند القلب. وبعد ان دخلت مجموعتنا البناية وتثبتنا فيها اعدنا الجريح الى الخلف وكنا نظنه فارق الحياة، فلم يلبث ان استعاد وعيه بسرعة وتبين ان إصابته لم تكن مباشرة بل شظايا رصاص يرتد عن جدران البناية ولكن الصدمة العصبية سببت له الاغماء.

وفي الليل اقمنا ساترا يمكننا الاتصال بالبناية من دون ان يرانا العدو. وفي الايام التالية حصّناها بالعديد من اكياس الرمل (التراب) وأصبحت حصنا من حصوننا الامامية.

إصابتي الثالثة

يوم الجمعة ٣٠ نيسان / ابريل ١٩٤٨ سلمني الدكتور داود الحسيني، من قيادة جيش الجهاد المقدس، مدفع مورتر من عيار ٢ انش من صنع محلي (صنع ورشة حدادة). ولما تفحصته لم أطمئن اليه وقررت ان اجربه بنفسي قبل ان اسلمه لاية وحدة من رجالي. وفي المساء حملنا المدفع انا والمناضل الشجاع اسماعيل الشرباتي الى الخطوط الامامية عند استحكام قبور السلاطين، ووقف الدكتور داود الحسيني واثنان من المناضلين خلفنا يراقبون التجربة عن بعد. وكان المفروض ان اركع انا واسماعيل على الارض اثناء التجربة، ولكنني انبطحت على الارض وكذلك اسماعيل ليكون رأسانا تحت مستوى فوهة المدفع القصيرة وغطينا رأسينا بالخوذ الفولاذية.

لقّمت المدفع قنبلة ثم ضغطت على الزناد فانطلقت بشكل صحيح وقطعت مسافة طبيعية وانفجرت في خطوط العدو، ثم وضعت قنبلة ثانية في سبطانة المدفع، الا انها لم تدخل السبطانة بالانزلاق المعتاد، فأخرجتها من المدفع ووضعتها جانبا. واخذت قنبلة ثالثة فدخلت في السبطانة بانزلاق طبيعي، وضغطت على الزناد وعندها وقع انفجار هائل في جوف السبطانة وتطايرت شظايا الحديد وصعد لهب البارود من فوهة المدفع، اي ان القنبلة لم تنطلق بل انفجرت في داخل السبطانة. ومع انني كنت منبطحا تحت مستوى فوهة المدفع الا انني اصبت بجراح في ظاهر كفي اليسرى تبين انها ناتجة عن شظايا مرتدة عن حائط قريب منا. وهكذا نجوت انا واسماعيل من موت محقق، وكانت جراحي بسيطة احتاجت الى اسعاف تولاه الدكتور سليم معتوق احد اعضاء لجنة حي باب الساهرة. ولكن اثنين من رجالي كانا خلفنا اثناء التجربة سقطا جريحين لانهما اصيبا بشظايا مباشرة. اما الدكتور داود الحسيني فلم يصب بأذى لأنه كان يقف بعيدا. وكانت اشد الاصابات اصابة المناضل الحاج حسن الزيهاني المغربي فنقلناه الى المستشفى حيث امضى اكثر من شهر تحت العلاج.

تضييق الخناق على الحي اليهودي

سبق ان ذكرت أن الحي اليهودي في البلدة القديمة كان محاصرا منذ كانون الثاني / يناير ١٩٤٨، وشيئا فشيئا كان الحصار يشتد. وفي شباط / فبراير نصح الانكليز اليهود باخلاء الحي ولكنهم رفضوا ذلك. وفي الوقت نفسه كانوا يقومون بنشاط عسكري متواصل يهدد الاحياء العربية المجاورة للحي داخل البلدة القديمة وخارجها. وابتداء من نيسان / ابريل شدَّد المناضلون العرب هجماتهم على الحي اليهودي واصبح موقف اليهود دفاعيا. ولعبت فرقة التدمير بقيادة فوزي القطب دورا مميزا في هذه الهجمات حيث شرعت في نسف كل بناية يحتلها المناضلون العرب. وهكذا اصبح الحي يضيق على ساكنيه بالاضافة الى نقص المواد الغذائية.

شكل مجلس الامن الدولي في ٢٧ نيسان / ابريل ١٩٤٨ لجنة الهدنة بفلسطين من قناصل اميركا وفرنسا وبلجيكا في القدس، مهمتها تنفيذ امر مجلس الامن بوقف القتال في فلسطين. وقد فشلت هذه اللجنة في مهمتها حيث لم يتعاون معها المندوب السامي البريطاني معتبرا ان مثل هذه المهمة يجب ان تقوم بها حكومة الانتداب طالما ان الانتداب لم ينته. وهكذا استمر اليهود في شن هجماتهم في القدس وغيرها.

وفي ٦ أيار / مايو ١٩٤٨ عقد المندوب السامي البريطاني اجتماعا في القدس حضره ممثلون عن العرب واليهود واتفقوا على عقد هدنة في القدس. وفي ٧ أيار / مايو عقد اجتماع في مدينة اريحا حضره المندوب السامي وعبد الرحمن عزام باشا الامين العام لجامعة الدول العربية وعدد من الشخصيات واتفقوا على عقد هدنة في القدس. وتضاءل القتال على اثرها

وخيل للناس ان العرب واليهود يرغبون حقا في وقت القتال. الا ان اليهود استمروا في شن هجمات واسعة في جميع انحاء فلسطين. وفي ١٢ أيار/مايو جددت لجنة الهدنة القنصلية مساعيها بناء على تعليمات مجلس الأمن ووافق العرب واليهود على هدنة في القدس. الا ان اليهود خرقوا هذه الهدنة في ١٣ أيار/مايو. وفي ١٤ أيار/مايو عرضت هيئة الأمم المتحدة على الكونت فولك برنادوت ان يكون وسيطا دوليا بين العرب واليهود في الحرب القائمة. وفي ١٩ أيار/مايو أبلغ أمر تعيينه رسميا. واستقبل اليهود تعيينه بالرفض وعدم التعاون.

إحصاء القتلى

بلغ عدد القتلى في فلسطين حتى نهاية نيسان/ابريل ١٩٤٨ نحو ٥٠١٤ قتيلا بينهم ٣٥٦٩ عربيا و١٢٥٦ يهوديا و١٥٢ انكليزيا و٣٧ من جنسيات اخرى.

اری من الضروري، قبل الحديث عن مرحلة دخول الجيوش العربية الى فلسطين بعد ١٥ ايار / مايو ١٩٤٨ أن اقدم للقارىء ايجازا عن جيش الجهاد المقدس، الذي ورد ذكره كثيرا في معارك القدس، وكذلك عن جيش الانقاذ الذي لم اتحدث عنه كثيرا لأنه كان يتمركز في منطقة جنين وما جاورها من وسط فلسطين وشمالها.

جيش الجهاد المقدس

أ ـ شكل هذا الجيش القائد عبد القادر الحسيني، مستفيدا من تنظيمات الحزب العربـي الفلسطيني، ومن ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩. وكان إنشاؤه تحديا للخطط الاستعمارية البريطانية، ولموقف حكومة بريطانيا التي كانت تعارض بشدة تسليـح الفلسطينيين وتجنيدهم، خشية ان يعرقل ذلك خطط الغرب في انشاء دولة العدو الصهيوني وضم الأجزاء العربية التي حددها مشروع التقسيم الى حكومة شرق الأردن. وقد تجسد موقف بريطانيا في نشاطات البريغادير تشارلز كلايتن السياسي البريطاني الكبير الملحق بالسفارة البريطانية بالقاهرة، الذي كان متفرغا لشؤون جامعة الدول العربية، والذي اجمعت المصادر التاريخية على أنه كان يسيطر على مسيرة الجامعة بل ويصوغ قراراتها، كما كان يرافق رجال الحكم في الأردن اينما حلوا وحيثما سافروا. وحضر معظم المؤتمرات العربية الخاصة بفلسطين ولا سيما مؤتمرات أنشاص وبلودان وعاليه. وكان يعارض بشدة باسم حكومته اتخاذ أي قرار لجامعة الدول العربية يتعلق بتسليـح الفلسطينيين، ولا يملك ممثلو الحكومات العربية مخالفته.

ومن الناحية الأخرى كان انشاء جيش الجهاد المقدس تحديا للنشاط الإعلامي الواسـع الذي قامت به الحكومات العربية واجهزة المخابرات البريطانية لتثبيط همم الفلسطينيـين وصرفهم عن التسليـح والاستعداد للقتال، والقول إن جيوش الدول العربية ستكفيهم القتال. كما ان جامعة الدول العربية عارضت في البداية دخول عبد القادر الحسيني الى فلسطين، لكنها رضخت في النهاية لاصراره على الـدخول، ولاصـرار الشعب العربـي الفلسطيني على حمل السلاح والقيام بدوره وواجبه في الدفاع عن وطنه، ووافقت على ان يكون عبد القادر الحسيني قائدا لمنطقة القدس، والشيـخ حسن سلامة قائدا لمنطقة يافا، وان يكونا تابعين لقيادة اللجنة العسكرية التي شكلتها الجامعة العربية. لكنها في الوقت نفسه

حرصت على ألا تقدم لهذا الجيش سوى اعداد قليلة من البنادق القديمة البالية والذخائر القليلة الفاسدة. لذلك اعتمد هذا الجيش على الأسلحة التي اشتراها عبد القادر الحسيني والهيئة العربية العليا من بدو الصحراء الليبية من مخلفات الحرب العالمية الثانية، وعلى الأسلحة التي اشتراها افراد الشعب من تجار الأسلحة بمالهم الخاص. وبسبب قلة السلاح وقلة المال لم يكن جميع رجال هذا الجيش مسلحين، ولم يتمكن من تجنيد اعداد كبيرة من الرجال، وبالتالي لم يتمكن من الاستفادة من التفوق في القوى البشرية عند العرب، فلم يجند سوى قسم من الشبان في المناطق الخطرة التي توجد فيها قوات يهودية. اما مدن الخليل ونابلس وغيرها التي كان يمكن ان يشكل شبانها وشبان قراها احتياطا كبيرا فلم تشارك في القتال سوى اعداد قليلة من اهلها.

ب ـ نظرا لهذه الصعوبات وغيرها لم يكن جيش الجهاد المقدس جيشا نظاميا بالمعنى العسكري التقليدي بل مجرد مليشيا شعبية، وكان تنظيمه اقرب الى مجموعة من السرايا المستقلة الخفيفة المربوطة مباشرة بالقائد العام عبد القادر الحسيني في منطقة القدس، والشيخ حسن سلامة في منطقة يافا ـ اللد. أما شمال فلسطين، فلم يكن لهذا الجيش سوى تشكيلات صغيرة متناثرة هنا وهناك ترتبط ارتباطا واهيا بعبد القادر الحسيني والهيئة العربية العليا، او بالقيادة العسكرية التي شكلتها الهيئة العربية العليا في دمشق. واذكر من قادة الشمال: ابو ابراهيم الصغير في منطقة الناصرة وفوزي جرار في منطقة جنين وصبحي شاهين في منطقة طبريا.

ج ـ ومع ذلك لا بد ان قارىء هذه المذكرات لاحظ ان جيش الجهاد المقدس في منطقة القدس سيطر على الموقف العسكري فترة طويلة وخاض معارك بطولية ناجحة. ولم تكن في منطقة القدس، حتى دخول الجيوش العربية الى فلسطين قوات اخرى غير قوات الجهاد المقدس، ولم تنشأ صعوبات عندما وصلت كتيبة من جيش الانقاذ الى القدس بقيادة فاضل عبد الله رشيد، بل قام تعاون لابأس به بين الجهاد المقدس وجيش الانقاذ.

أما في منطقة يافا فقد شكلت قوات تابعة لبلدية يافا وقوات اخرى لم تكن خاضعة لقيادة الشيخ حسن سلامة. وكان بعض المشرفين عليها من معارضي الحزب العربي الفلسطيني. ولذلك نشأت في هذه المنطقة صعوبات لتعدد القيادات وعدم ربطها بقيادة مركزية فضلا عن صعوبات كثيرة اخرى.

د ـ اقام عبد القادر الحسيني قيادته العامة في بلدة بيرزيت وكان يساعده في مقر القيادة كامل عريقات وقاسم الريماوي، وبالاضافة الى سرية مقر القيادة، شُكلت بعض السرايا في قرى رام الله.

كانت لجيش الجهاد المقدس قيادة في مدينة القدس خصوصا بعد استشهاد القائد عبد القادر الحسيني، وتولي خالد الحسيني القيادة، وكان مقرها في مدرسة القادسية (المأمونية

القديمة) داخل البلدة القديمة، وكان لخالد الحسيني عدد من المساعدين منهم الدكتور داود الحسيني وصلاح الحاج مير. وفي مدينة القدس وقراها كانت توجد القوات الرئيسية لهذا الجيش وتتألف من السرايا التالية:

١ ــ سرية البلدة القديمة بقيادة حافظ بركات.

٢ ــ سرية حي باب الساهرة بقيادة بهجت ابو غربية، يساعده رؤوف درويش.

٣ ــ سرية حي المصرارة وسعد وسعيد بقيادة صبحي ابو غربية. وبعد اصابته بجروح خطرة تولى قيادتها بهجت ابو غربية بالاضافة الى قيادة سرية حي باب الساهرة.

٤ ــ سرية حي وادي الجوز بقيادة محمود الحسيني. وبعد استشهاده تولى قيادتها محمد عادل النجار ومن بعده داود العلمي.

٥ ــ سرية حي الشيخ جراح بقيادة محمود الحسيني، وكان يساعده عادل شرف وعبد القادر ادكيدك. وبعد استشهاد محمود الحسيني تولى قيادتها كمال الحسيني وعادل عبد اللطيف وموسى الموسوس.

٦ ــ سرية حي الثوري بقيادة محمد سعيد عارف بركات (ابو حمدي).

٧ ــ سرية النبي داود بقيادة صبحي بركات وبعد استشهاده تولى قيادتها احمد امين الدجاني.

٨ ــ سرية حي القطمون بقيادة شفيق عويس. ثم تولى قيادتها ابراهيم ابو دية.

٩ ــ فرقة التدمير ومقرها القدس القديمة بقيادة فوزي القطب.

١٠ ــ مجموعة حي مأمن الله، بقيادة محمد ابو ناب (أبو ابراهيم).

١١ ــ سرية قرية ابو ديس بقيادة فوزي عريقات.

١٢ ــ سرية قرية العيزرية بقيادة ابراهيم ابو الريش.

١٣ ــ سرية قرية صورباهر بقيادة جادالله محمود الخطيب.

١٤ ــ سرية قرية عين كارم بقيادة خليل منون.

١٥ ــ سرية قرية بيت صفافا بقيادة محمود العمري وعبد الله العمري.

وكان تعداد هذا الجيش في منطقة رام الله نحو ٥٠٠ رجل، وفي منطقة القدس ما لا يزيد على ١٠٠٠ رجل.

قيادة الشيخ حسن سلامة

كانت قوات الشيخ حسن سلامة في منطقة اللد تعتبر جزءا من جيش الجهاد المقدس، وتتألف من حامية يافا وحامية حي ابو كبير، وحامية يازور بالاضافة الى مقر القيادة الذي اقيم في بناية ملجأ الرجاء قرب الرملة.

خاضت هذه القوات معارك عديدة قاسية دفاعا عن مدينة يافا وضواحيها في وجه قوات

متفوقة عليها اضعافا مضاعفة، كما ساهمت في اغلاق طريق القدس ــ يافا في وجه القوات الصهيونية. وتفرقت قوات الشيخ حسن سلامة بعد سقوط يافا خصوصا بعد استشهاده في معركة رأس العين بعد دخول جيوش الدول العربية الى فلسطين بقليل، ولم يبق من هذه القوات الا القليل الذي انسحب الى منطقة رام الله بقيادة محمود ابو الخير وفخري مرقة.

اما قوات الجهاد المقدس فاستمرت في القتال بعد دخول جيوش الدول العربية الى فلسطين. وكان لها دور هام في منطقة بيت لحم والخليل، بالاضافة الى القدس، كما سيرد في حينه.

جيش الانقاذ

١ ــ سبق ان ذكرت ان الانكليز عارضوا بشدة تسليح شعب فلسطين، كما عارضوا دخول الجيوش العربية الى فلسطين قبل ١٥ ايار/مايو ١٩٤٨. لكنهم لم يمانعوا في تنفيذ قرار مجلس جامعة الدول العربية الذي اتخذ في مؤتمر عاليه والذي عقد ما بين ٧ و٩ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٤٧. فقد قرر مؤتمر عاليه، فيما قرر، تشكيل لجنة عسكرية لفلسطين من ممثلي العراق وسوريا ولبنان وفلسطين ولم تشارك مصر والأردن والسعودية واليمن. فتشكلت من اللواء الركن اسماعيل صفوت (عراقي) رئيسا والعميد الركن طه باشا الهاشمي (عراقي) مفتشا عاما والعقيد محمود الهندي (سوري) والمقدم شوكت شقير (لبناني) وعزت دروزة الذي حل محله فيما بعد صبحي الخضرا (فلسطيني).

حُددت مهمة اللجنة العسكرية بـ: «دراسة الموقف من الناحية العسكرية، ومعاونة أهل فلسطين في الدفاع عن انفسهم وكيانهم». وكان اهم قرارات اللجنة العسكرية: «تشكيل جيش الانقاذ من المتطوعين العرب وتعيين فوزي القاوقجي قائدا له».

٢ ــ مع ان اللجنة العسكرية اتخذت عدة قرارات اخرى اهمها تسليح عرب فلسطين وحشد جيوش الدول العربية على حدود فلسطين، ودخول قسم من هذه الجيوش الى فلسطين قبل ١٥ ايار/مايو ١٩٤٨ الا ان جامعة الدول العربية لم توافق الا على تشكيل جيش الانقاذ.

ومن المؤكد ان بريطانيا لم تمانع في تشكيل هذا الجيش لأنه كان سيمتص القسم الأكبر من المعونات ويحجبها عن مقاتلي شعب فلسطين، وأنه سيمتص كذلك عددا كبيرا من الشباب العربي المتحمس للقتال في فلسطين والسيطرة عليهم بالضبط والربط العسكريين ليصبح كوضع جيوش الدول العربية. وهذا ما جرى بالفعل.

وقد اخبرني الحاج امين الحسيني شخصيا في تموز/يوليو ١٩٤٨ «ان وثائق جامعة الدول العربية تضم اتفاقية بين بريطانيا والجامعة العربية تنص على السماح لهذا الجيش بالدخول الى فلسطين قبل انتهاء الانتداب وتحدد الأماكن التي يسمح له بالانتشار فيها ضمن الأراضي

المخصصة للعرب بموجب قرار تقسيم فلسطين. وهكذا تمركز في منطقة المثلث (نابلس ـ جنين ـ طولكرم) واقام القاوقجي مقر قيادته في قرية طوباس ثم نقلها الى قرية جبع في منطقة جنين.

وفي شباط / فبراير ١٩٤٨ اعتبرت قيادة الجيش البريطاني في فلسطين جيش الانقاذ مسؤولا رسميا عن الأمن وسط فلسطين وسحبت قواتها الى المناطق التي فيها المستعمرات اليهودية لحمايتها من أي هجوم عربي.

ويذكر ان المقدم اديب الشيشكلي قائد فوج اليرموك الثاني من جيش الانقاذ صرح بأن مهام قواته «تقوية معنويات الأهلين في فلسطين، ومعرفة مقدرة القوات الصهيونية المسلحة في فلسطين، واختبار موقف سلطات الانتداب البريطاني بالنسبة الى الأعمال العسكرية التي تحدث بين العرب واليهود».

وهذا يعني ان مهمة هذا الجيش لا تتعدى الاستطلاع واختبار قوة العدو كطليعة لجيوش الدول العربية.

٣ ـ أقبل عدد كبير من الشبان العرب على التطوع في جيش الانقاذ ومنهم عدد من الفلسطينيين لا يقل عن الف شاب، كما تطوع عدد من الضباط العرب من سوريا والعراق والأردن ولبنان. وأقيم في قطنة بالقرب من دمشق معسكر للتدريب تلقى فيه المتطوعون دورات مختصرة.

وتكونت تشكيلات الجيش في البداية من افواج (كتائب) هي:

أ ـ فوج اليرموك الأول بقيادة المقدم محمد صفا (سوري).
ب ـ فوج اليرموك الثاني بقيادة المقدم اديب الشيشكلي (سوري).
ج ـ فوج اليرموك الثالث بقيادة الرائد عبد الحميد الراوي (عراقي).
د ـ فوج القادسية بقيادة المقدم مهدي صالح العاني (عراقي).
هـ ـ فوج حطين بقيادة النقيب مدلول عباس (عراقي).
و ـ فوج اجنادين بقيادة النقيب ميشيل العيسى (فلسطيني).
ز ـ فوج العراق بقيادة المقدم عادل نجم الدين (عراقي).
ح ـ فوج جبل العرب بقيادة الرائد شكيب وهاب (سوري).

وأعيد تنظيم الجيش في آذار / مارس ١٩٤٨ على شكل الوية فأصبح مؤلفا من:

أ ـ لواء اليرموك الأول بقيادة المقدم محمد صفا.
ب ـ لواء اليرموك الثاني بقيادة المقدم أديب الشيشكلي
ج ـ لواء اليرموك الثالث بقيادة المقدم مهدي صالح العاني.

وكان قسم كبير من رجال جيش الانقاذ ضباطا وجنودا في الجيش السوري، اذ انخرط في

صفوفه نحو الخمسين ضابطا سوريا. وكان مجموع رجال هذا الجيش اربعة آلاف رجل.

واعتبرت اللجنة العسكرية، ولو من الناحية الشكلية، عبد القادر الحسيني قائدا لمنطقة القدس ورام الله، والشيخ حسن سلامة قائدا لمنطقة يافا وتابعين للجنة العسكرية.

٤ ــ كان تسليح جيش الانقاذ افضل من تسليح الجهاد المقدس، وكنا نحسد بعض جنود هذا الجيش على ما يحملونه من بنادق تشيكية حديثة الصنع. وكان لدى جيش الانقاذ مدافع ميدان ورشاشات متوسطة ورشاشات ثقيلة وهاونات من عيار ٨١ ملم. ومع ذلك كان تسليحه سيئا ايضا. فحتى ٨ شباط / فبراير ١٩٤٨ كان مجموع البنادق التي تسلمتها اللجنة العسكرية من الدول العربية نحو ٤٠٠٠ بندقية و ١,٨٠٠,٠٠٠ طلقة. ووصل المجموع في اواخر آذار / مارس الى نحو ٩٠٠٠ بندقية وثلاثة ملايين وثمانمائة الف طلقة. وكانت خليطا من البنادق الانكليزية والألمانية والفرنسية والبلجيكية والايطالية. والأهم ان اكثر من نصف هذه البنادق كان تالفا ولا يصلح للاستعمال وبخاصة البنادق التي ارسلتها الحكومة السعودية. وقد سلمت اللجنة العسكرية قسما من الأسلحة التي استلمتها الى المناضلين في فلسطين واستلمت شخصيا نحو اربعين بندقية لم يكن صالحا منها للاستعمال اكثر من عشر بنادق المانية من مخلفات الحرب العالمية الأولى.

ويذكر ان اللجنة العسكرية عقدت صفقة لشراء عشرة آلاف بندقية تشيكية حديثة و ١٠٠٠ رشيش و ٥٠٠ رشاش و ١٢ مليون طلقة، لكن الحكومة التشيكوسلوفاكية منعت تصدير هذه الصفقة. وزودت الحكومة العراقية اللجنة العسكرية بـ ٥٠٠ بندقية تشيكية حديثة.

أما من ناحية الشؤون الادارية لجيش الانقاذ فلم تكن جيدة، بل مضطربة ومشوشة. غير ان الدكتور امين رويحة الذي كلفته اللجنة العسكرية بالاشراف على الناحية الصحية قام بواجباته على خير وجه وأقام مستشفى في نابلس احتوى ٢٠٠ سرير وسلمه للجيش العراقي بعد انسحاب جيش الانقاذ من فلسطين. ثم اقام الدكتور امين مستشفى ميدان في شمال فلسطين في قرية الرامة ثم نقل الى ترشيحا بعد ان عاد جيش الانقاذ ودخل الى منطقة الجليل في شمال فلسطين.

٥ ــ خاض جيش الانقاذ قليلا من المعارك ضد اليهود قبل ١٥ ايار / مايو ١٩٤٨، لأنه تمركز في مناطق عربية ليس فيها جيش بريطاني. وكانت أولى معارك جيش الانقاذ معركة جدين في ٢٢ كانون الثاني / يناير ١٩٤٨ عند دخول فوج اليرموك الثاني الى فلسطين بقيادة المقدم اديب الشيشكلي، ومهاجمة مستعمرة صهيونية قرب ترشيحا في شمالي فلسطين. وقد تدخل الجيش البريطاني الى جانب اليهود واجبر العرب على التراجع.

والمعركة المهمة الثانية كانت معركة الزراعة وهي مستعمرة يهودية قرب مدينة بيسان هاجمها فوج اليرموك الأول بقيادة المقدم محمد صفا (سوري) فجر ١٦ شباط / فبراير ١٩٤٨.

واستمر القتال اكثر من خمس ساعات اضطر العرب بعدها الى الانسحاب، بعد ان اجتاز بعضهم سياج المستعمرة وبعض تحصيناتها الأمامية. ولكن الهجوم فشل لأسباب عدة منها ان تحصينات المستعمرة كانت قوية ولم يكن لدى العرب مدفعية لدك التحصينات، كما ان الأمطار الغزيرة التي انهمرت في اثناء الهجوم والمياه التي اطلقها اليهود حول المستعمرة غمرت الأرض وتحولت الى مستنقع كبير يصعب السير فيه. وخسر العرب في هذه المعركة ٣٨ شهيدا وعددا اكبر من الجرحى.

اما معركة مشمار هعيمك المشهورة التي قادها فوزي القاوقجي بنفسه فتعتبر اكبر معركة خاضها جيش الانقاذ في فلسطين قبل ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨.

اقام اليهود هذه المستعمرة في موقع استراتيجي مهم قرب المكان الذي وقعت فيه معركة مجدو التاريخية. ففي هذا المكان ممر استراتيجي بين الجبال يصل سهل مرج ابن عامر بالسهل الساحلي غربا كما يصل المرج بمدينة حيفا. وكانت تحصينات هذه المستعمرة من اقوى التحصينات.

بدأ القاوقجي هجومه في ٢٥ نيسان / ابريل ١٩٤٨ مستخدما جميع ما لديه من مدفعية الميدان، فقصف المستعمرة ساعة ونصف الساعة، ودمرت بسبب ذلك أبنية عديدة في المستعمرة، وطلب يهود المستعمرة من الجيش البريطاني ان يتدخل لعقد هدنة ليتمكنوا من اخلاء المستعمرة من النساء والأطفال والشيوخ. فتدخل الجيش البريطاني وفرض الهدنة لمدة ٢٤ ساعة وقبل القاوقجي ذلك، ثم وافق على تمديد الهدنة ٢٤ ساعة اخرى. وخلال هذه الفترة جلب اليهود نجدات كبيرة وشنوا هجوما معاكسا على قوات القاوقجي خصوصا على مؤخرة الجيش، وحاولوا أن يعزلوه عن مدينة جنين وان يطوقوه تطويقا كاملا، ولولا ان تحركت نجدات كبيرة من القرى العربية في منطقة جنين لنجح التطويق. في كل حال تخلص القاوقجي وقواته من التطويق بصعوبة وانسحب الى جنين بعد ان تكبد خسائر كبيرة لم يعرف عددها، وكان بين الشهداء مأمون البيطار قائد سلاح المدفعية.

بالاضافة الى ما ذكر، قام جيش الانقاذ بمحاولات متأخرة وغير ناجحة لمنع سقوط حيفا ويافا في يد اليهود.

وبعد دخول الجيوش العربية الى فلسطين، انعم الملك عبد الله على فوزي القاوقجي بلقب باشا وطلب اليه سحب جيش الانقاذ من فلسطين. فقام بذلك وانسحب الى سوريا خلال ثلاثة ايام ابتداء من ١٧ ايار / مايو ١٩٤٨ مسلما مواقعه للجيشين العراقي والأردني، ثم عاد واحتشد في جنوبي لبنان ودخل الى منطقة الجليل شمالي فلسطين، كما سيرد في حينه.

في أواخر نيسان / ابريل وأوائل ايار / مايو ١٩٤٨ انهار الموقف العربي العسكري في معظم مدن فلسطين، واحتل اليهود العديد من المدن العربية الرئيسية، ونزح نحو ٢٠٠ ألف عربي عن مدنهم وقراهم. حصل كل ذلك والانكليز يقدمون لليهود أفضل المساعدات، ولا يقدمون للعرب العزل أية حماية سوى حثهم على الرحيل، وجيوش الدول العربية خارج فلسطين تتفرج. فقد استغل اليهود تفوقهم الكبير في السلاح والعتاد والقوات العسكرية التي نظمت ودربت وسلحت منذ وقت بعيد تحت ظل الانتداب البريطاني ومساعدته الكبيرة. وانهارت المقاومة الفلسطينية ووجد المدنيون العرب انفسهم بلا حماية، وتعرضوا للقصف الكثيف بقنابل المورتر وراجمات الالغام، وسقط العديد من القتلى والجرحى وجرت المذابح وشاع السلب والنهب وانتشر الذعر، فلم يجدوا مناصا من الابتعاد عن مناطق القتال، وكلهم أمل ــ كما خدعتهم دعاية الحكومات العربية ــ بأن جيوش الدول العربية ستدخل الى فلسطين بعد ايام فتطرد اليهود وتعيدهم الى بيوتهم وأملاكهم، وما دروا أن الذي يجري بالفعل هو ان الانكليز يعملون على تسليم اليهود جميع المدن الواقعة في القسم الذي خصص لهم بموجب قرار التقسيم، بل وتسليم هذا القسم وما فيه من مدن وقرى خاليا من السكان قبل انتهاء الانتداب. وما دروا ان الحكومات العربية كانت موافقة سرا على التقسيم. لذلك لم يكن هناك مانع لدى رؤسائها من استلام اليهود للقسم الذي خصص لهم بموجب قرار التقسيم.

سقوط طبريا (١٩٤٨/٤/١٩)

تمكن اليهود اثناء الانتداب البريطاني من ان يصبحوا الاكثرية بين سكان مدينة طبريا، وأقاموا أحياءهم الجديدة في المرتفعات المشرفة عليها. وكانت لديهم قواتهم العسكرية ــ الهاغاناه وغيرها ــ ولم يكن للعرب قوات مسلحة ولا كانت لديهم اسلحة. وعندما بدأ القتال في فلسطين بدأ العرب يتسلحون وينتظمون بشكل سريع مرتجل، وكان السلاح الذي حصلوا عليه قليلا جدا. وجرت المناوشات في المدينة وقامت شبه هدنة. الا ان اليهود وابتداء من ليلة ١٥ ــ ١٦ نيسان / ابريل ١٩٤٨ شنوا هجوما واسعا على الاحياء العربية اشترك فيه ٤٠٠ مقاتل، ونسفوا بعض البيوت وقتلوا عددا من العرب على مرأى من القوات البريطانية

التي ترابط بالقرب من الاحياء العربية دون ان تحرك ساكنا لحماية العرب. وفي صباح ١٦ نيسان / ابريل تدخل الانكليز واعلنوا منع التجول وأمروا بقيام هدنة لثلاثة ايام. وفي اليوم الثالث من الهدنة قام اليهود بهجوم مركز على العرب واحتلوا عدة بنايات رئيسية. وتدخل الانكليز فنصحوا العرب بالرحيل، بل امروهم بذلك ووفروا لهم بعض السيارات لتنقلهم الى شرق الاردن، فخرج جميع سكان المدينة وعددهم خمسة آلاف نسمة. ومما ساعد على رحيل السكان وقوع مجزرة قرية ناصر الدين قبل الهجوم على طبريا بأيام حيث قام اليهود في هذه القرية بما يشبه مجزرة دير ياسين. وبسقوط طبريا سقطت بلدة سمخ القريبة منها.

سقوط حيفا (١٩٤٨/٤/٢٣)

كان عدد اليهود في حيفا عند انتهاء الانتداب قد أصبح اكثر من عدد العرب بقليل. وكان مجموع سكان المدينة يزيد على ١٤٠ ألف نسمة. وكانت الاحياء اليهودية كما في طبريا مقامة في المرتفعات المشرفة على المدينة والمسيطرة على الاحياء العربية. كما كانت المدينة محاطة بعشر مستعمرات يهودية يسكنها نحو ٢٠ ألف نسمة تسيطر على جميع الطرق المؤدية الى المدينة. وقُدرت قوة اليهود العسكرية في حيفا بخمسة آلاف مقاتل، مسلحين تسليحا جيدا، بما في ذلك عدد كبير من المصفحات ومدافع المورتر. ومما هو جدير بالذكر انه كان في حيفا مصنع لصنع المصفحات لتزويد الجيش البريطاني بها اثناء الحرب العالمية الثانية. وسيطر اليهود على هذا المصنع وزودهم الانكليز بآلاف الاطنان من صفائح الفولاذ التي كانت مكدسة في منطقة الميناء. ولذلك كان لدى اليهود قبل انتهاء الانتداب آلاف المصفحات وزعت على جميع القوات اليهودية.

كانت حيفا الميناء الاول لفلسطين بل كانت ميناء رئيسيا لسوريا والعراق، فاعتبرها العرب واليهود هدفا استراتيجيا، اذا سيطر عليه اليهود يمكنهم ان يجلبوا عن طريقه امدادات من الرجال والسلاح. وقد نشب القتال في حيفا كما في غيرها من مدن فلسطين منذ اعلان قرار التقسيم حين لم يكن لدى العرب اي سلاح او تنظيم عسكري. فسارع العرب الى تشكيل لجنة قومية برئاسة رشيد الحاج ابراهيم وألفوا لجانا فرعية في الأحياء، وعهدت اللجنة القومية الى ضابط سابق في الجيش الاردني بتنظيم الدفاع عن المدينة هو الملازم الاول محمد الحمد الحنيطي. وبعد استشهاده بتاريخ ١٧ آذار/ مارس ١٩٤٨ عينت اللجنة العسكرية الرئيس امين عز الدين قائدا لحامية حيفا. وكان في المدينة ايضا مناضلون نظمهم المجاهد محمد توفيق الملقب بأبو ابراهيم الصغير التابع للهيئة العربية العليا.

أما السلاح فلم يكن لدى العرب شيء منه في البداية، وبدأ يصل الى المناضلين من سوريا ولبنان على دفعات لم يزد مجموعها على ٧٠٠ قطعة، كان أكثر من نصفها غير صالح للاستعمال. ولذلك لم يكن عدد المناضلين العرب يزيد على ٤٠٠ مناضل.

وعلى الرغم من هذا التفاوت الكبير في السلاح والمسلحين، قاتل أبطال حيفا قتالا مشرفا مدة خمسة اشهر اظهروا فيه بطولات خارقة. ودامت آخر معركة ضد اليهود ٧٠ ساعة متواصلة من الحادي والعشرين حتى الثالث والعشرين من نيسان / ابريل ١٩٤٨، استخدم فيها اليهود مدافع المورتر ومدافع الميدان وقاذفات الالغام والمدافع الصاروخية. وكان للانكليز هنا ايضا دور رئيسي في هذه المعركة، حيث صدوا جميع النجدات التي جاءت للمدينة من القرى العربية المجاورة. وحاولوا يوم ٢٢ نيسان / ابريل في اجتماع حضره ممثلون عن العرب واليهود فرض شروط استسلام على العرب، فرفضها العرب لانها كانت شروطا مذلة تقضي بتسليم جميع أسلحة العرب لليهود وتسليم المقاتلين غير الفلسطينيين، وبالتالي تسليم المدينة لليهود بقيادة الهاغاناه. وفي ٢٣ نيسان / ابريل اي قبل انتهاء الانتداب بثلاثة اسابيع انسحب الانكليز من المدينة وتجمعوا في منطقة المرفأ المحاطة بالاسلاك الشائكة. وتم ذلك بشكل مفاجىء للعرب مما ساعد اليهود على احتلال المدينة، ولا سيما انه لم تصل للمناضلين العرب أثناء المعارك الاخيرة اية نجدة من جيش الانقاذ او اية امدادات بالذخيرة والسلاح. كما لم يتدخل رجال احدى كتائب الجيش الاردني في المعركة التي كانت معسكرة في ضواحي حيفا، بسبب سيطرة الضباط الانكليز عليهم. وهكذا دخل اليهود الاحياء العربية وامعنوا في العرب تقتيلا ونهبوا جميع ما في المنازل والمتاجر، ونسفوا عددا من المنازل وسقطت حيفا وغادرها سكانها في ظروف مأساوية عن طريق البحر. ووصف اليهود انسحاب الانكليز قبل انتهاء الانتداب بثلاثة أسابيع بأنه عمل رائع.

سقوط يافا (١٩٤٨/٤/٢٨)

كانت يافا عروس الساحل الفلسطيني، وعدد سكانها ٦٦ الف نسمة، وهي ملاصقة لمدينة تل ابيب بسكانها الـ ٢٠٠ ألف. وتحوط بها المستعمرات اليهودية الكبيرة من كل جانب. الا ان عددا من القرى العربية كانت تعزز اوضاع يافا العسكرية.

وعند بدء القتال لم يكن في يافا من السلاح الا ما ندر. ثم زودت الهيئة العربية العليا حاميتها بدفعات من السلاح بلغ مجموعها حتى اواسط كانون الثاني / يناير ١٩٤٨ نحو ٢٨٤ قطعة، كما اشترت اللجنة القومية بعض السلاح.

وبلغ عدد المناضلين نحو ٥٥٠. وكانت مدينة يافا من الناحية العسكرية تابعة لقيادة الشيخ حسن سلامة الذي انتدبه الحاج امين الحسيني ووافقت اللجنة العسكرية على تعيينه. وفي أواخر شباط / فبراير ١٩٤٨ عينت اللجنة العسكرية المقدم عادل نجم الدين (عراقي) قائدا لمدينة يافا، واصبح الدفاع عنها منوطا بقيادة جيش الانقاذ، ولا يتبع قيادة الشيخ حسن سلامة الا اسميا. وجاء مع عادل نجم الدين وقواته عدد من الضباط المتطوعين العراقيين والأتراك والألمان. ونشأت بين قوات عادل نجم الدين والمناضلين الفلسطينيين

خلافات اضرت بالموقف العسكري. كما ان القيادة المدنية للمدينة كانت منقسمة، وشكلت في المدينة لجنة قومية برئاسة محمد عبد الرحيم التاجر المعروف ضمت عددا كبيرا من شخصيات المدينة ومن القرى المجاورة. ولكن اللجنة اعتبرت تابعة للحاج امين الحسيني وظهرت لها معارضة من انصار الملك عبد الله على رأسهم الدكتور يوسف هيكل رئيس البلدية الذي شكل قوات مسلحة خاصة تابعة للبلدية. غير ان ظروف المعركة ضيقت الخلافات واتاحت للجنة القومية الفرصة للقيام بدورها، وخصوصا تشكيل لجان فرعية ومتخصصة في جميع انحاء المدينة وقراها.

وكما جرى في سائر مدن فلسطين، بدأت الاشتباكات المسلحة بين العرب واليهود فور اعلان قرار التقسيم. وكان القتال حتى اواسط كانون الثاني / يناير ١٩٤٨ في مصلحة العرب الذين ابدوا بسالة فائقة، واصبح ابطال قرية سلمة وغيرها مضرب المثل في الشجاعة والاقدام. وابتداء من أواسط آذار / مارس بدأ اليهود يشنون سلسلة من الهجمات المركزة على يافا وضواحيها خصوصا ابو كبير والبصة والمنشية وسكنة درويش والجبلية وتل الريش، مستخدمين مختلف الاسلحة وبخاصة مدافع المورتر وراجمات الالغام. وصمدت يافا وضواحيها صمودا بطوليا في وجه قوات متفوقة عددا وسلاحا. وأوقع العرب في المهاجمين اليهود خسائر فادحة في الارواح بلغت في هذه الفترة نحو الألف قتيل وجريح.

وفي ٢٣ نيسان / ابريل ١٩٤٨ بدأ اليهود شن هجماتهم الحاسمة، فهاجموا تل الريش وتوغلوا داخله. وفي مساء الخامس والعشرين من الشهر ذاته شنوا هجوما كبيرا اشترك فيه نحو الف مقاتل من الهاغاناه والارغون وشتيرن استمر حتى نهار اليوم التالي وكانوا يهدفون منه إلى احتلال يافا بأكملها. وتقدموا نحو المنشية ولكن حماة يافا تمكنوا من صد هذه الهجمات وكبدوا العدو خسائر كبيرة. واستمر هجوم اليهود في ٢٧ و٢٨ نيسان / ابريل في خمس موجات متلاحقة إلا أنهم لم يتمكنوا من اقتحام المدينة، فركزوا هجومهم معتمدين على قصف المدينة بمدافع المورتر بشكل كثيف ومتواصل وفعّال، فتفكك الدفاع وعمت الفوضى وانتشر الذعر، وزحف اليهود من جميع الجهات ووصلوا شاطىء البحر فعزلوا حي المنشية، ووصلوا الى مفترق الطريق بين شارع بطرس وتل أبيب فعزلت حامية حي حسن بك.

وفي هذا الوقت توجهت وفود من اهل المدينة الى عدة جهات طالبة النجدة فقابلت الملك عبد الله في عمان واللجنة العسكرية في دمشق. وتسلم القاوقجي مسؤولية الدفاع عن يافا. غير ان أحدا لم يتحرك لنجدة المدينة. واخيرا واثناء احتدام المعارك اقدم القاوقجي على تغيير آمر الحامية المقدم عادل نجم الدين، وعين الرئيس ميشيل العيسى ابن يافا بدلا منه وكان آمرا لفوج اجنادين وعدد افراده ٢٥٠ رجلا، وعززه بفصيل من المدفعية بقيادة مهدي صالح العاني. وتحركت هذه القوة من مدينة رام الله الى مدينة الرملة محاولة الدخول الى يافا. ودخل ميشيل العيسى وفوجه الى يافا بكل صعوبة. لكن عادل نجم الدين رفض تسليم

القيادة والقوات التي بإمرته للقائد الجديد وانسحب هو ورجاله من المعركة وعددهم ٣٠٠ بعضهم عن طريق البحر والبعض الآخر عن طريق البر، بعد ان حملوا ما استطاعوا حمله من المنهوبات، ولم يبق في المدينة سوى عدد قليل من المناضلين المحليين. ولم يتمكن ميشيل العيسى ورجاله من السيطرة على الموقف. وسقط حي المنشية الذي كان يعتبر اقوى قلاع يافا وذبح اليهود جميع من وجدوه في الحي من محاربين ومدنيين نساء ورجالا واطفالا ومثلوا بجثثهم. وسقطت ايضا القرى المجاورة ليافا، مثل الخيرية وساكية وكفر عانه وطوقت قرية سلمة التي كانت تعتبر اقوى قلاع المقاومة العربية في ضواحي يافا ثم سقطت في ٣٠ نيسان / ابريل وانسحب ميشيل العيسى ورجاله، وكان سبقهم رئيس البلدية. واقفرت المدينة من السكان، بعد أن هجروها بحرا وبرا وسط ظروف مأساوية جدا.

ومنع الانكليز اليهود من احتلال باقي المدينة الى ان ينتهي الانتداب في ١٥ أيار / مايو. ووافق العرب واليهود على اقتراح حاكم المدينة الانكليزي بجعل مدينة يافا مدينة مفتوحة. الا ان اليهود اصروا على التفاوض المباشر مع العرب. وعلى ذلك وقعت لجنة من العرب (لجنة الطوارىء) المؤلفة من احمد ابو لبن وامين اندراوس وصلاح الناظر واحمد عبد الرحيم مع قائد الهاغاناه في لواء تل ابيب بتاريخ ١٣ أيار / مايو ١٩٤٨ اتفاقا أملى اليهود شروطه وكانت شروط استسلام. وفي ١٤ أيار / مايو انسحب الانكليز ودخل اليهود المدينة خلافا لشروط الاتفاقية واعملوا فيها نهبا وسلبا وقتلوا عددا كبيرا من سكانها الذين لم يبق منهم في المدينة اكثر من ٤ آلاف. ولم تعرف خسائر اليهود في هذه المعارك بدقة وقدرت بالآلاف، اما خسائر العرب فقدرت بـ ٧٠٠ شهيد وسبعة آلاف جريح.

ومما هو جدير بالذكر ان مدينة يافا كانت تعتبر بموجب قرار التقسيم ضمن المنطقة الخاصة بالعرب، وهذا ما يفسر عدم سماح الانكليز لليهود بدخولها نهائيا الا بعد انتهاء الانتداب. وعلى كل حال كانت يافا اول مدينة يحتلها اليهود من القسم الخاص بالعرب بموجب قرار التقسيم.

سقوط صفد (١٢/٥/١٩٤٨)

كان عدد سكان صفد في اواخر ايام الانتداب ١٢ الف نسمة منهم ٢٤٠٠ من اليهود. لذلك ظلت قوات المناضلين من اهل المدينة مسيطرة على الموقف العسكري وتحتل القلعة والاماكن المرتفعة الاخرى. لكنها لم تتمكن من احتلال الحي اليهودي بسبب مقاومة اليهود وتدخل الانكليز كلما تأزم الموقف. وعندما وصلت المدينة قوات من جيش الانقاذ تابعة لقيادة اديب الشيشكلي، أُعفيت القوات المحلية تقريبا من القتال ونقل الضابط السوري احسان كم الماز الذي كان يقود المناضلين الصفديين بكل كفاءة الى سوريا. واصبحت المدينة تحت قيادة

الضابط الاردني ساري الفنيش ووكيله اميل جميعان اللذين يرتبطان بقائد الجيش الاردني غلوب باشا.

وبعد انسحاب الانكليز من المدينة في ١٦ نيسان / ابريل ١٩٤٨ اشتدت المعارك وبدأ الموقف يتغير خصوصا بعد سقوط مدينة حيفا في ٢٣ نيسان / ابريل وسقوط عدد من القرى العربية ومنها الجاعونة وبرعم والطباعة والمنارة والمنصورة والقديرية. واصبحت صفد مطوقة من الشرق والجنوب مما أثر في معنويات العرب. وفي الوقت نفسه بدأت تصل الى صفد نجدات من البلماح. وابتداء من ١ أيار / مايو ١٩٤٨ جرت المعارك الخطيرة الحاسمة حيث وصلت لليهود في يومي ٥ و٦ أيار / مايو نجدات كبيرة وراح جنود جيش الانقاذ ينسحبون. وسافر الشيشكلي الى دمشق وانسحب ساري الفنيش واميل جميعان وقواتهما في ٩ و ١٠ ايار / مايو وانهارت معنويات الاهلين فبدأوا بالرحيل عن المدينة في ليلة شديدة المطر، واستولى اليهود على القلعة. وفي ١٢ أيار / مايو سيطروا على جميع المدينة.

الحاج أمين الحسيني
يحاول العودة الى فلسطين

في هذه الفترة وقبيل انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين حاول الحاج امين الحسيني الدخول الى فلسطين ليشكل فيها حكومة عربية فلسطينية. وكان هذا الامر طرح في مشاورات مع جامعة الدول العربية، الا ان الاردن والعراق رفضا الفكرة. ومع ذلك تحرك الحاج امين الحسيني مع عدد من رجاله ووصلوا الى قرية المالكية داخل الحدود الفلسطينية، الا ان سقوط صفد وقراها حال دون تقدمهم فعادوا الى خارج الاراضي الفلسطينية.

سقوط عكا (١٩٤٨/٥/١٦)

ظلت مدينة عكا شوكة في جنب المستعمرات اليهودية المجاورة لها الى ان سقطت مدينة حيفا ولجأ عدد من سكانها الى عكا، فتفرغت لها قوات يهودية كبيرة. وكان المناضلون الفلسطينيون وحدهم يدافعون عن عكا ولم يكن معهم من جيش الانقاذ سوى فصيل من فوج اليرموك عدده ٣٠ رجلا. وحتى هؤلاء انسحبوا في ١١ أيار / مايو وبقي اهل عكا واللاجئون وحدهم يقاتلون اليهود محاولين وقف الزحف اليهودي. وارسلوا وفودا الى دمشق وعمان وبيروت لطلب النجدة دون جدوى، وظلوا صامدين حتى ١٥ أيار / مايو ينتظرون وصول جيوش الدول العربية، وارتفعت معنوياتهم لصمودهم حتى ذلك التاريخ. ثم جاءتهم نجدة من جيش الانقاذ فقاموا بهجوم معاكس على اليهود فاستردوا منهم محطة سكة الحديد ومواقع اخرى وسقط من اليهود عدد كبير من القتلى. واستمر القتال الليل بطوله تحت وابل من

القصف اليهودي بمدافع المورتر، وفي صباح ١٦ ايار/ مايو انهارت المعنويات لعدم وصول الجيوش العربية ولنفاد الذخيرة وسقطت مدينة عكا واعمل اليهود في أهلها ذبحا، وذكر اليهود انهم خسروا في احتلال عكا ٧٥٠ قتيلا.

لماذا غادروا منازلهم

يتساءل البعض بحسن نية والبعض بسوء نية، لماذا غادر الفلسطينيون منازلهم واصبحوا لاجئين. ويدعي اليهود انه لم تكن لهم يد في ذلك، وانما هذا كان خيار الفلسطينيين. وان اليهود لم يطردوا احدا من بيته أو مدينته أو قريته، وأن الحكومات العربية طلبت منهم ذلك. وكل ما يدعيه اليهود مما ذكرت اكاذيب تجافي الحقائق التي أثبتها التاريخ فيما بعد وكثير من الحقائق ذكرها بعض اليهود بأنفسهم، وفي هذا السياق اورد ما يلي:

١ ــ كانت مخططات اليهود والانكليز والأميركيين المتعلقة بتنفيذ وعد بلفور واقامة الوطن القومي اليهودي تتضمن مشاريع وخطط ترحيل للفلسطينيين. واثناء طرح مشروع تقسيم فلسطين سنة ١٩٣٧ (مشروع لجنة بيل) بُحث علنا امر ترحيل ٢٤٠ ألف عربي عن قراهم ومدنهم في منطقة الجليل. وفي سنة ١٩٤٧ صدرت نداءات من رئيس الولايات المتحدة وغيره من المسؤولين والهيئات الاميركية تدعو عرب فلسطين الى الرحيل والافساح في المجال امام المهاجرين اليهود الهاربين من ظلم النازية على حد قولهم.

٢ ــ اوضحت فيما سبق ان الانكليز ساعدوا اليهود على بناء قوة عسكرية كبيرة قدرت في نهاية الانتداب ما بين ٤٠ و٦٠ الف مقاتل، كما ساعدوهم على تهريب وشراء وصنع كميات كبيرة من السلاح.

٣ ــ سلم الانكليز بأنفسهم كميات كبيرة من السلاح الى اليهود بطريقة او بأخرى، وبخاصة ما سمي بمخلفات الحرب التي ادعى الانكليز انهم لم يستطيعوا نقلها فباعوها لليهود، ومن ضمنها كميات كبيرة من السلاح والمصفحات والسيارات والفولاذ والمدافع، سلمت لليهود في ميناء حيفا ومن مستودعات الجيش البريطاني الرئيسية في عرطوف وغيرها. وعندما بدأ القتال في فلسطين سنة ١٩٤٧ قدمت اميركا لليهود تسهيلات وامدادات عسكرية كبيرة من سلاح ومقاتلين.

وقد ذكرت احدى الصحف اليهودية (عال همشمار) ان اليهود اشتروا من مخلفات الجيش البريطاني الحربية ما قيمته ٥ ملايين جنيه بما في ذلك ٢٤ طائرة. كما ذكرت صحيفة يهودية أخرى (يديعوت أحرونوت) ان اليهود اشتروا من الجيش البريطاني الف سيارة نقل كبيرة. وكان الطيارون اليهود المتطوعون في سلاح الجو الملكي البريطاني وعددهم خمسون طيارا نواة لتدريب اعداد كبيرة من الطيارين اليهود.

٤ ــ مقابل ذلك حارب الانكليز طوال فترة الانتداب اية محاولة من عرب فلسطين للتسلح والتجنيد. وعندما صدر قرار التقسيم ضغطوا على الحكومات العربية بجميع الوسائل لحرمان عرب فلسطين من السلاح. وبذلك كان التوازن العسكري بين العرب واليهود غير متكافىء الى ابعد الحدود. واتضح عدم التكافؤ في الامكانات بشكل صارخ عندما تحول اليهود من الدفاع الى الهجوم منذ اواسط نيسان / ابريل ١٩٤٨.

٥ ــ اقترف اليهود مذابح عديدة مقصودة ضد المدنيين العرب اشهرها مذبحة دير ياسين قرب القدس، وعشرات المذابح المشابهة لها قبل انتهاء الانتداب وبعده. وكان الاسلوب المتبع هو قصف القرية بقنابل المورتر بكثافة ثم التقدم ونسف اكبر عدد من منازلها وقتل من وجد فيها من سكانها شيوخا ونساء واطفالا. ويمكن في هذا السياق ايراد اسماء العشرات او المئات من القرى نذكر منها على سبيل المثال:

- قرية بلد الشيخ قرب حيفا قتل فيها اكثر من ٦٠ شخصا من غير المقاتلين.
- قرية سعسع قرب صفد نسف فيها ٢٠ منزلا على رؤوس اصحابها من رجال واطفال ونساء وزاد عدد القتلى على ٦٠.
- مدينة اللد قتل فيها بعد سقوطها ٢٥٠ شخصا.
- قرية الحولة حيث وضع نحو ٥٠ شخصا من الرجال والنساء والاطفال في بيت واحد واطلقت عليهم النيران ثم نسف البيت واصبح قبرا لهم.
- قرية الدوايمة قرب الخليل حيث لجأ نحو المئتين من المسنين الى مسجد القرية، وعندما احتلها اليهود ووصلوا الى المسجد قتلوا جميع من فيه عن بكرة أبيهم.
- مجزرة قرية ناصر الدين قرب طبريا السابق ذكرها.

وقد وقعت بعد قيام دولة العدو وتوقف الحرب مذابح كثيرة اخرى منها مذابح كفر قاسم وقبية ونحالين وحوسان وغيرها.

٦ ــ استخدم اليهود مدافع المورتر من عيار ٣ انش ضد المدن والقرى. وكان القصف يستهدف المدنيين ويوقع فيهم اصابات كثيرة بالاضافة الى ما يحدثه القصف من رعب يحمل المدنيين على الابتعاد عن مدى نيران العدو.

٧ ــ دخلت قوات اليهود كثيرا من الاحياء والقرى حيث كان معظم سكانها لا يزالون فيها، فلم يسمح لهم اليهود بالبقاء في بيوتهم، وقتلوا البعض وطردوا البعض الآخر. وانا شخصيا اعرف عدة قرى دخلها الجيش اليهودي بعد ١٥ ايار / مايو ولم يكن سكانها غادروها فأجبر اليهود أهلها على الرحيل. اذكر منها على سبيل المثال قرية ابو شوشة قرب باب الواد وقرية زكريا في قضاء الخليل.

٨ ــ كانت دعايات الحكومات العربية مضللة بحيث أوهمت عرب فلسطين ان جيوش الدول العربية كفيلة بطرد اليهود من الاماكن التي يحتلونها واعادة العرب الفلسطينيين الى

منازلهم في مدنهم وقراهم. لكن الدعاية اليهودية كذبت حين قالت ان الاذاعات العربية طلبت من الفلسطينيين الرحيل.

٩ ــ يذكر التاريخ القديم والحديث ان اعدادا كبيرة جدا من المدنيين كانت في اثناء الحروب تنزح عن مساكنها لتبتعد عن مواقع القتال لتعود اليها بعد توقف القتال.

وما زلنا نذكر ما جرى في فرنسا وروسيا وغيرهما في اثناء الحرب العالمية الثانية وما جرى في ثورة الجزائر وثورة فيتنام وثورة أريتريا.

مما لا شك فيه انه لم يدر بخلد أي فلسطيني نزح عن بيته أو قريته أنه لن يتمكن من الرجوع اليه بعد انتهاء الحرب.

سبق ان أشرت الى ان مساعي بذلت لعقد هدنة في القدس قامت بها اللجنة القنصلية والمندوب السامي البريطاني، بدأت يوم ٢٧ نيسان / ابريل ١٩٤٨ واستؤنفت في ٦ و٧ و ١٢ أيار / مايو. وفي ١٣ أيار / مايو عينت الامم المتحدة الكونت برنادوت وسيطا دوليا في فلسطين. وكما ذكرت ان هدوءا نسبيا عمَّ القدس في اوائل ايار / مايو بعد ان فشل اليهود في احتلال حي الشيخ جراح وحي المصرارة ونجحوا في احتلال حي القطمون وحي البقعة. وشن اليهود في هذه الفترة هجمات واسعة احتلوا فيها عدة مدن رئيسية في فلسطين، ولم يبق أمامهم من المدن الرئيسية سوى القدس التي كانوا مصممين على احتلالها. وفي ١٣ أيار / مايو ١٩٤٨ وقع اتفاق بين قيادة الهاغاناه وقيادة الارغون على الاشتراك في هجوم موحد لاحتلال مدينة القدس كلها.

ومن أبرز احداث هذه الفترة ما يلي:

الجيوش العربية تتهيأ لدخول فلسطين

عُقد في ٣٠ نيسان / ابريل ١٩٤٨ مؤتمر عسكري في عمان برئاسة الملك عبد الله حضره رؤساء أركان جيوش العراق ومصر وسوريا ولبنان والاردن وجيش الانقاذ كما حضره الامين العام لجامعة الدول العربية عبد الرحمن عزام. وعرض المجتمعون للوضع العسكري في فلسطين وما يجب ان يقوموا به بعد انتهاء الانتداب، اي بعد اسبوعين. وقرروا انهم بحاجة الى ست فرق عسكرية وستة أسراب من الطائرات. ورفعوا قراراتهم الى اللجنة السياسية العامة لمجلس جامعة الدول العربية التي كانت مجتمعة في عمان في اليوم نفسه. وقد اعتبرت اللجنة السياسية ان مطالب رؤساء الاركان مبالغ فيها ورأوا ان تشرع الجيوش في عملها بالقوات المتيسرة.

وبعد انتهاء مؤتمر عمان عُقد مؤتمر عسكري آخر في دمشق رسمت فيه خطة دخول الجيوش العربية الى فلسطين. وعلى اثر ذلك اعلنت سوريا ولبنان انها سترسل قوات الى فلسطين في ١٥ أيار / مايو. وفي ٢ أيار / مايو تحركت قوات عراقية في طريقها الى شرق الاردن لتدخل فلسطين في ١٥ أيار / مايو.

الأوضاع في قطاعي

في القدس، بدأنا نستعد لمواجهة الاحتمالات المتوقعة بعد انتهاء الانتداب على فلسطين. فعزّزنا مواقعنا بالسلاح والعتاد بالقدر الممكن، وحفرنا المزيد من خنادق الاتصال، وأقمنا سدودا من الحجارة في الطرق، متوقعين هجمات واسعة ولا سيما ان معظم الاحياء العربية خارج اسوار القدس سقطت ولم يبق الا الأحياء الشمالية وهي المصرارة وسعد وسعيد وباب الساهرة ووادي الجوز والشيخ جراح. وفي جنوب القدس كان حي النبي داود واجزاء من حي الثوري وجبل المكبر لا زالت عربية.

وفي ١١ ايار / مايو رحل الجيش البريطاني عن المستشفى الايطالي الواقع امام خطوطي في حي المصرارة وسلم المبنى الكبير ذا الموقع الاستراتيجي المسيطر على حي المصرارة واقسام واسعة من المدينة، الى هيئة الصليب الاحمر الدولية التي رفعت راية الصليب الاحمر الدولي في أعلى البرج الرئيسي. كما جاء الى مقر قيادتي في حي المصرارة ضابط من هيئة الصليب الاحمر الدولي وأبلغني رسميا ان هيئة الصليب الاحمر الدولية تسلمت بناية المستشفى الايطالي قائلا: «لا تقلق على المستشفى الايطالي.. نحن هناك» Don't worry about the Italian Hospital we are there.

وقد سرني ذلك نسبيا لأن المستشفى يقع ضمن خطوط اليهود ويشكل خطرا كبيرا علينا، كما اننا لا نستطيع احتلاله لأن ذلك يحتاج الى امكانات كبيرة ليست متوافرة. ولذلك اكدت لمندوب الصليب الاحمر اننا سنحترم حياد المستشفى وحذرته من احتمال اعتداء اليهود عليه.

قيادة جيش الجهاد المقدس تعقد اجتماعا

في ١٣ ايار / مايو عقد في مقر قيادة جيش الجهاد المقدس في مدينة القدس اجتماع عسكري بقيادة خالد الحسيني، حضره جميع قادة السرايا في مدينة القدس وضواحيها لدراسة الوضع العسكري وما يترتب علينا من واجبات بعد انسحاب الانكليز في ١٥ أيار / مايو.

لفت نظري حضور منير أبو فاضل هذا الاجتماع وكان معروفا لدينا جميعا منذ ثورة سنة ١٩٣٦ وحتى سنة ١٩٤٨ كأحد كبار ضباط المباحث الجنائية (C.I.D.) في حكومة الانتداب. وهو لبناني الاصل ولم يكن قائدا لأي قطعة من جيش الجهاد المقدس. وقد عرفنا فيما بعد انه اعتمد من قبل جامعة الدول العربية ليكون ضابط اتصال بينها وبين جيش الجهاد المقدس!!. وكان دوره في هذا الاجتماع أبرز من دور القائد خالد الحسيني، وطرح على المجتمعين خطة طموحة تقضي بأن نبادر الى احتلال عدة بنايات استراتيجية تقع على خط التماس قبل ان يحتلها اليهود، اخلى الانكليز بعضها وكان من المتوقع ان يخلوا البعض الآخر، منها المستشفى الايطالي وبنك باركليس وكلية تراسانطا وعمارة داود والمدرسة العمرية ومحطة سكة الحديد.

وكان الاقتراح وجيها جدا إلا ان تنفيذه متعذر لعدم توافر الامكـانات اللازمة ولأنه لم يتضمن تقديم اية قوة اضافية الى قواتنا حتى ولا أسلحة او ذخائر مضافة. لذلك لم يؤخذ به وقرر قادة السرايا ان يحافظوا على مواقعهم الدفاعية القائمة.

وقد تساءلت في هذا الاجتماع عن الموقف العربـي وهل ان جيوش الدول العربية ستدخل الى فلسطين في ١٥ ايار/مايو أم لا. فكان الراجح لدى اغلبية الحضور انها ستدخل. وقال ابراهيم ابو دية ان لديه معلومات اكيدة بأن المتطوعين المصريين بدأوا الدخول الى فلسطين فعلا. وهنا تساءلت عما ستقوم به الجيوش العربية من عمليات عسكرية، وهل ستتقدم لتحرير المدن والمناطق التي احتلها اليهود، ام انها ستقف عند الحدود التي رسمها قرار التقسيم، وتدّعي انها لا تستطيع ان تفعل اكثر من ذلك.

كما اثير في هذا الاجتماع موضوع جلب نجدات للقدس من جيش الجهاد المقدس في منطقة رام الله ــ بيرزيت ومن مدن نابلس والخليل وعمان، وبحث كذلك ضرورة تزويد الحامية بمزيد من السلاح والعتاد.

الوفود تستعجل وصول الجيش الاردني إلى القدس

كان من المعلوم ان خطة دخول الجيوش العربية الى فلسطين تقضي بأن الجيش العربـي الاردني هو الجيش الذي سيصل الى القدس بعد منتصف ليل ١٤ أيار/مايو. وتقديرا لخطورة الموقف في القدس تقرر إرسال وفد من أهالي القدس الى عمان لاستعجال وصول الجيش العربـي الى القدس. ووصل هذا الوفد الى عمان يوم الاربعاء في ١٢ ايار/ مايو وكان مؤلفا من الدكتور داود الحسيني والدكتور عزت طنوس ومنير ابو فاضل وفاضل رشيد. وقابل الوفد الملك عبد الله وأوضـح له ان القدس في خطر ولا بد من امدادها بالسلاح والرجال، وان يصل الجيش العربـي اليها بأسرع ما يمكن. فأجابهم الملك «أنه لا يريد حصر جيشه في القدس، وانه ينوي ان يزحف رأسا الى تل ابيب ليهشم رأس الحية في وكرها»*. وقد توجهت في الايام التالية عدة وفود لهذا الغرض.

في هذه الاثناء جرت اتصالات مـع عدة جهات اخرى بما في ذلك الهيئة العربية العليا في القاهرة التي أرسلت بعض الاسلحة والذخائر جرى نقلها في طائرة صغيرة قدمها ولي عهد دولة اليمن. وقامت هذه الطائرة بعدة رحلات بين القاهرة واريحا بين ١٤ و ٢٠ أيار/مايو تسلمت شخصيا مما كانت تحمله ١٠٠٠ طلقة جديدة يوميا وبعض الاسلحة. كما ان طائرة مصرية صغيرة قامت ايضا بنقل اسلحة وذخائر الى اريحا في هذه الفترة. وحاول غلوب باشا منـع الطائرتين من النزول في اريحا، وطلب من القيادة المصرية ان تمنـع طائرة سيف الاسلام

* عارف العارف، «النكبة»، الجزء الأول (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٦١)، ص ٣٢٤.

عبد الله وطائرة شركة مصر للطيران من العودة الى اريحا. وهدد باطلاق النار عليهما.* ومما لا شك فيه ان ما وصلنا من ذخائر في هذه الاثناء كانت له فائدة كبيرة.

المايكروفون في المعركة

ابتداء من ١٢ أيار / مايو ١٩٤٨ أقام اليهود مكبرات الصوت تجاه خطوطنا في المصرارة بالقرب من المستشفى الايطالي وباشروا حربا نفسية علينا. وكان من الجمل والعبارات التي خاطبونا بها ما يلي:

«انتو يالّي في هاالاستحكامات، من فيكو إلو دار في هالحارة؟». و«اين.. (فلان) إلّي إلو نُصي سعد وسعيد؟.. أنا بألكوا! موجود في اوتيل ميناهاوس في القاهرة»، «انتو كان فيكو زلمة واحد، رجل، انقتل.. الله يرحمو عبد القادر الحسيني.. الله يرحمه»، «اسمعوا، كل الحارات خارج السور اصبحت في ايدينا ما عدا هذي الحارة. ارحلوا عنا احسن الكو، واللي بضلو ما بنوبهم الا تتيتم اطفالهم وتترمل نسوانهم..! روحو لبيوتكم».

لا شك ان هذا النوع من حرب الاعصاب مؤثر وخطير. ولكن معنوياتنا كانت عالية وكنا نرد عليهم باطلاق الرصاص في اتجاه مكبرات الصوت، واستطعنا ان نعطلها اكثر من مرة.

سقوط مجموعة مستعمرات كفار عتسيون

سبق ان تحدثت عن مستعمرة كفار عتسيون والمستعمرات الثلاث المجاورة لها، وانها كانت تقوم باستمرار بقطع طريق القدس ــ الخليل. وفي هذا المجال قام مسلحو كفار عتسيون بعد ظهر ٦ ايار / مايو ١٩٤٨ باطلاق النار على عدد من السيارات المدنية كانت ترافقها بعض سيارات الجيش العربي ومصفحاته، كما قصفوا القافلة بقنابل المورتر، فقتل جندي وجرح آخر وتعطلت احدى السيارات وتعذر سير القافلة. ثم وصلت للجيش العربي نجدة من المصفحات وتمكنت القافلة من استئناف سيرها الى مدينة الخليل. وفي اليوم التالي قامت قوة من الجيش العربي مزودة بمصفحات تحمل مدافع من عيار بوصتين، يرافقها نحو ٤٠٠ من مناضلي مدينة الخليل والقرى المجاورة بمهاجمة يهود كفار عتسيون عند موقع دير الشعار الذي احتله اليهود وتحصنوا فيه. وتمكن العرب من احتلال الدير كما قصفوا مستعمرة كفار عتسيون نفسها بالمدافع. وقد خسر اليهود في هذه المعركة نحو ٢٠ قتيلا تركوا جثثهم في ارض المعركة، بالاضافة الى عدد من القتلى والجرحى تمكنوا من نقلهم. كما خسر العرب ما يقارب هذا العدد من الشهداء والجرحى. وفي اليوم التالي انسحب الجيش العربي وعاد اليهود لاحتلال الدير واطلاق النار على السيارات العابرة.

---

* المصدر نفسه، ص ٣٢٤.

ولكن العرب عادوا فشنوا هجوما مركزا آخر يوم ١٢ ايار/مايو ١٩٤٨، اشتركت فيه سرية من الجيش الاردني بقيادة حكمت مهيار معززة بتسع مدرعات وثلاثة مدافع مورتر وعدد من المناضلين الفلسطينيين جاوز الخمسمئة مقاتل، وكانت مقاومة اليهود في هذا اليوم شديدة. وفي صباح اليوم التالي استأنف العرب هجومهم بعد ان وصلت نجدة من الجيش العربي بقيادة عبد الله التل، وكانت طائرة يهودية تساعد اليهود في المعركة. ونحو الساعة الواحدة بعد الظهر رفع اليهود علما أبيض على أحد المواقع، نتيجة لمفاوضات التسليم التي كانت تجري بواسطة ممثل الصليب الاحمر الدولي. وتوقف الهجوم وتقدم الجنود والمناضلون نحو المستعمرة الا ان اليهود غدروا بالعرب واستأنفوا اطلاق النار فقتلوا اثني عشر عربيا وجرحوا اكثر من ثلاثين، فاستأنف العرب الهجوم بشدة فعاد اليهود الى رفع الاعلام البيض وسقطت كفار عتسيون واستسلم من فيها باشراف الصليب الاحمر الدولي.

وفي اليوم التالي استسلمت المستعمرات الثلاث الباقية وبلغ عدد الاسرى اليهود ٣٣١ أسيرا. كما أطلق سراح ٨٧ من النساء والاطفال، وادعى اليهود انهم خسروا ٦٢ قتيلا و ٤٢ جريحا. اما العرب فكانت خسائرهم ٤٠ شهيدا مدنيا و ١٤ عسكريا من الجيش الاردني بينهم الضابط محمد المفلح. كما خسر العرب اكثر من مئة جريح اصيب عدد منهم بالالغام التي كانت محيطة بالمستعمرة، ونقل الاسرى اليهود الى شرق الاردن.

القوات العربية في القدس

قبيل انتهاء الانتداب وبتاريخ ١٣ أيار/مايو ١٩٤٨ كان عدد القوات العربية في القدس لا يتجاوز ٢٠٠٠ مقاتل موزعين في احياء القدس على النحو التالي:

١ ــ جيش الجهاد المقدس
بقيادة خالد الحسيني

٨٠ مقاتلا في البلدة القديمة بقيادة حافظ بركات
٣٠ مقاتلا في فرقة التدمير في البلدة القديمة بقيادة فوزي القطب
٦٠ مقاتلا في وادي الجوز بقيادة محمد عادل النجار
٦٠ مقاتلا في باب الساهرة بقيادة بهجت ابو غربية
٦٠ مقاتلا في المصرارة وسعد وسعيد بقيادة بهجت ابو غربية
٣٠ مقاتلا في باب الخليل وشارع مأمن الله بقيادة محمد ابو ناب
٣٠ مقاتلا في النبي داود بقيادة احمد امين الدجاني
٤٠ مقاتلا في حي الثوري بقيادة محمد سعيد بركات
٤٥ مقاتلا في البقعة الفوقا بقيادة شفيق عويس

١٠٠ مقاتل في البقعة التحتا والطالبية بقيادة ابراهيم ابو دية
٤٠ مقاتلا في بيت صفافا بقيادة عبد الله العمري
٥٠ مقاتلا في قرية ابو ديس بقيادة فوزي عريقات
٤٠ مقاتلا في قرية العيزرية بقيادة ابراهيم ابو الريش
٤٠ مقاتلا في قرية صور باهر بقيادة جاد الله محمود الخطيب
٣٥ مقاتلا في مقر قيادة جيش الجهاد المقدس في القدس
المجموع ٧٤٠ مقاتلا.

وكانت كل مجموعة من هذه المجموعات تقاتل مستقلة بدون تنسيق او تساند يذكر، وبمبادرات واجتهادات خاصة من قادتها. أما صلتها بالقيادة العامة وبجيش الجهاد المقدس وقائده خالد الحسيني فتقتصر على النواحي الادارية والتزود بالذخيرة اذا توافرت. ولم يكن جميع افراد هذه القوات مسلحين بأكثر من ٥٠٠ قطعة سلاح معظمها بنادق قديمة منوعة منها نحو ٦٠ رشاش برن وبضعة رشاشات براوننغ وقليل جدا من مدافع الهاون من عيار ٢ انش. كما كانت لدى هذا الجيش عدة اطنان من (T.N.T.). اما تدريب هذه القوات فكان متدنيا جدا ومعظم افرادها وقادتها اكتسبوا الخبرة والتدريب اثناء القتال. ولكن عزيمتهم ومعنوياتهم واستعدادهم للتضحية كانت كبيرة.

٢ ــ كتيبة جيش الانقاذ
بقيادة الرئيس فاضل عبد الله رشيد

كانت لجيش الانقاذ في القدس كتيبة واحدة عددها غير ثابت يتراوح بين ٢٠٠ ــ ٥٠٠ مقاتل، وملحق بها نحو ٧٠ مقاتلا من الاخوان المسلمين السوريين بقيادة الشيخ مصطفى السباعي. وكان مقر قيادة الكتيبة في البلدة القديمة في المدرسة العمرية (كلية الروضة سابقا). وفي ١٣ أيار/مايو ١٩٤٨ كان نحو مئة من افراد الكتيبة ملحقين بقيادتي في حي المصرارة وسعد وسعيد ونحو مئة آخرين متمركزين في باب الخليل والنبي داود وحي الثوري والباقي في مقر القيادة في البلدة القديمة. اما سلاح هذه الكتيبة فمعظمه بنادق تشيكوسلوفاكية حديثة الصنع ورشاشات (F.M.) فرنسية (تشبه البرن) وعدد قليل من رشاشات الهوشكيس الفرنسية المتوسطة والثقيلة ومدافع المورتر من عيار ٦١ ملم. ولم يكن الانضباط في هذه الكتيبة متوفرا، وكثيرا ما شكا لي ضباطها مثل جمال الصوفي وعبد الرحمن ملوحي من التسيُّب وعدم التجانس وضعف التدريب والانضباط.

٣ ـ البوليس الفلسطيني
بقيادة سليمان عازر

سبق ان ذكرت ان هذه القوة شكلت وأُفرزت من البوليس الفلسطيني في أواخر عهد الانتداب وكان عددها نحو ٢٠٠ رجل. وعهد بقيادتها في البداية الى خالد الحسيني. ولما اصبح هذا قائدا لجيش الجهاد المقدس تولى قيادتها ضابط البوليس سليمان عازر يساعده الملازم حمودة الباسطي. وأوكل الانكليز لهذه القوة حراسة الاحياء العربية كما أوكلوا لقوة يهودية مثلها حراسة الاحياء اليهودية. وقبيل انتهاء الانتداب تمركزت هذه القوة في باب الخليل في القشلاق والقلعة. اما سلاحها فكان بنادق انكليزية بحالة جيدة، ثم حصلت على بعض رشاشات البرن من مصادر عربية.

٤ ـ مجموعات أخرى وأفراد

بالاضافة الى ما ذكرت كانت هناك مجموعات اخرى منها مجموعة قرية الطور بقيادة الاستاذ عثمان بدران، كما كان عدد من أهل المدينة لا يقلون عن ٢٠٠ شخص اشتروا أسلحتهم من مالهم الخاص، وكانوا يهبون بشكل فردي لنجدة الاماكن التي تتعرض للهجوم.

القوات اليهودية في القدس

كانت قوات اليهود في القدس اضعاف قوات العرب وأفضل تدريبا وتسليحا، خصوصا بعد أن استطاعت بعض القوافل القادمة من تل ابيب الى القدس اجتياز باب الواد بعد معركة القسطل وكانت تضم عددا من المقاتلين وكميات كبيرة من السلاح والعتاد.

وكانت قوات اليهود في ١٣ أيار/ مايو ١٩٤٨ تقدر بـ ١٠ آلاف مقاتل منهم قوات من منظمة الارغون بقيادة ي. رعنان يتمركزون مقابل قطاعي ابتداءً من المستشفى الايطالي حتى مدرسة البوليس في حي الشيخ جراح. أما باقي القطاعات فكانت من مسؤولية الهاغاناه بقيادة يسرائيل غاليلي وقوات البلماح بقيادة يغآل آلون وهي قوات الهجوم المدربة تدريبا جيدا وتتبع الهاغاناه. وبالاضافة الى ما ذكر كانت في القدس تشكيلات قليلة العدد من منظمة شتيرن.

كانت القوات اليهودية شكلت ودربت وسلحت قبل سنوات عديدة في ظل الانتداب البريطاني ودعمه. وكان عدد كبير من افرادها وضباطها تدربوا اثناء الحرب العالمية الثانية. وكانت جميع القوات اليهودية في القدس تتبع قيادة موحدة. اما تسليحها فكان جيدا خصوصا تسليح الهاغاناه والبلماح. فبالاضافة الى عدد كبير من البنادق، كانت لديها اعداد كبيرة من رشاشات برن ورشاشات سبنداو التشيكوسلوفاكية الحديثة الصنع ومدافع المورتر

من عيار ٣ انشات، وقاذفات الصواريخ المضادة للدروع الانكليزية الصنع من طراز بيوت، وعدد من مدافع الميدان. كما تمكنوا من صنع راجمات تطلق الغاما كبيرة مصنوعة من اسطوانات الغاز وما شابهها، يضاف الى ذلك عدد كبير من المصفحات يزيد على ٢٠٠ مصفحة.

الحصار على يهود القدس

لا شك ان الحصار الذي كان مضروبا على يهود القدس أضعف موقفهم العسكري وساعد العرب على الصمود. فمنذ بداية نيسان / ابريل ١٩٤٨ توقف سير القطارات على خط سكة الحديد بين القدس واللد، كما ان طريق السيارات الوحيدة بين القدس الغربية وتل ابيب كانت تغلق عند ممر باب الواد بين حين وآخر، بالرغم مما قام به اليهود من محاولات لابقائها مفتوحة باحتلال القرى العربية المشرفة على الطريق. فقد دأب المناضلون العرب من جيش الجهاد المقدس واهالي القرى المجاورة على اغلاق الطريق ومهاجمة القوافل اليهودية. وفي اواخر نيسان / ابريل ساهم جيش الانقاذ في طرد اليهود من بعض القرى المذكورة ونسف بعض جسور الطريق، لكنه انسحب من مواقعه قبيل انتهاء الانتداب. واستنفرت الهيئة العربية العليا باشراف اميل الغوري رجال القرى المجاورة لباب الواد وخربوا الطريق تخريبا تاما وأغلقوها بالصخور الضخمة لمسافات طويلة حتى اصبح من المستحيل على اليهود فتحها. وبذلك اصبحت مواصلات يهود القدس مقطوعة من الجهات الاربع. هذا بالاضافة الى الحصار الخاص المضروب على الحي اليهودي في البلدة القديمة. وبذلك قامت مشاكل ادارية وتموينية كبيرة، فشحت المياه وفقدت المؤن.

لكن اليهود نظموا شؤونهم للتغلب على الحصار، كما دعت الهاغاناه جميع الناس الى التجنيد العام رجالا ونساءً. واستخدم المجندون في حفر الخنادق ونقل المياه من اماكن بعيدة، وأنشىء مطار صغير على اراضي قرية دير ياسين اصبح الوسيلة الوحيدة لاتصالهم بخارج القدس.

وبعد ١٨ أيار / مايو ١٩٤٨ اشترك الجيش العربي الاردني في اغلاق هذا الطريق الهام عند موقع اللطرون.

٣٥ القدس في الأيام الحمراء

أطلقنا في القدس على الايام الخمسة من يوم الجمعة ١٤ أيار/مايو ١٩٤٨ حتى الاربعاء ١٩ أيار/مايو اسم الايام الحمراء وذلك لشدة المعارك التي اشتعلت فيها مع انتهاء الانتداب البريطاني. فأضاءت النيران ليلها، وسالت الدماء فتضرجت ساحات المدينة وشوارعها وأسوارها، وسقط العديد من الشهداء وامتلأ المستشفى الوحيد في البلدة القديمة (مستشفى الهوسبيس) بالجرحى، حتى لم يعد هناك متسع لجريح، فاستلقى الجرحى في الممرات وفي ساحة المستشفى وعجز الاطباء عن اسعافهم. وفي الوقت نفسه الذي اشتد فيه خطر الموت، وخطر سقوط القدس ومقدساتها شعرنا باليتم!! أو لعله التآمر!!. كنا طيلة هذه الايام نقاتل وحدنا دون اية مشاركة من الجيوش العربية التي كنا ننتظر وصولها في منتصف ليل ١٤ ـ ١٥ أيار / مايو، مع ان قوات الجيش العربي الاردني وصلت الخان الاحمر على بعد ١٧ كيلومترا شرقي القدس مساء ١٥ أيار / مايو*. وفي الوقت نفسه اعتبر اليهود ان هذه الايام فرصة لا تعوض تتيح لهم احتلال القدس جميعها، بأحيائها الجديدة واحيائها القديمة ومقدساتها، ووضع العالم أجمع أمام أمر واقع**، يساعدهم على ذلك تفوقهم في السلاح والعتاد والمسلحين، فقواتهم خمسة اضعاف قوتنا. وكان بن ـ غوريون وضع جميع القوات

---

* «مذكرات العقيد محمود الموسى»، مجلة «الاردن الجديد»، العددان ١٥ ـ ١٦، ص ٦٣.

** جاء في كتاب (يا قدس O'Jerusalem) من تأليف دومنيك لابير ولاري كولينز في طبعة القدس بالانكليزية ص ٣١٢ تحت عنوان «رسالة من غلوب باشا» ما يلي:

بينما كان قادة الجيوش العربية يضعون الخطط في عمان (لغزو) فلسطين، بدأ ضابط في احد الجيوش العربية، يرتدي الالبسة المدنية محادثات سرية فوق العادة مع ممثل للهاغاناه في كيبوتس نهاريا على بعد خمسين ميلا في الجهة المقابلة من نهر الاردن.

فقد ارسل جون غلوب رسولا سريا الى الكيبوتس اليهودي، ليقترح طريقة تبقي الجيش العربي خارج المعركة القادمة.

استمع شلومو شمير مندهشا الى اقتراح الكولونيل ديسموند غولدي لعمل ترتيبات سلمية لتقسيم فلسطين بحيث يسيطر الجيش العربي على الاقسام العربية من البلاد والهاغاناه على القسم اليهودي، وبقاء الجانبين خارج القدس. وقال غولدي الضابط في الجيش العربي لشمير انه مستعد للتأخر يومين او ثلاثة على الاقل قبل اجتياز مناطق التقسيم ليتيح الوقت للهاغاناه لترتيب الامور على الجانب الآخر من الحدود. وبذلك يأمل ان يتجنب الحرب، مؤكدا حقيقة انه يتكلم باسم غلوب ويسأل عن نوايا الهاغاناه في فلسطين. ←

اليهودية في القدس بما في ذلك قوات الهاغاناه التي يقودها شالتيئيل تحت قيادة يتسحاق ساديه قائد البلماح الذي وعد رؤساءه بأن يستولي على المناطق الهامة التي تعتبر مفاتيح القدس يوم ١٤ أيار / مايو وقال: اذا نجحنا في ذلك فانني أعدكم ان مدينة القدس بأجمعها ستكون لنا خلال ٤٨ ساعة من خروج الانكليز منها. وكانت أوامر بن ـ غوريون لشالتيئيل: هاجم! وهاجم! وهاجم!

الا ان أهل القدس ـ وبكل فخر واعتزاز ـ قبلوا هذا التحدي. وكانوا أهلا للدفاع عن مدينتهم المقدسة العزيزة عليهم وعلى كل العرب والمسلمين. فقرروا ان يحموها بصدورهم ومهجهم وأرواحهم، فخاضوا معارك هذه الايام بشجاعة فائقة ومعنويات عالية وصمدوا لهجمات الأعداء. ومما عزز صمودهم وجود عدد من قادتهم السياسيين والمقاتلين الذين ربطوا مصيرهم بمصير القدس، فشاركوا اهلها صمودهم وما يتعرضون له من اخطار.

الجمعة، ١٩٤٨/٥/١٤

أشرقت شمس هذا اليوم وقواتي في ذروة الحماسة وكلنا استعداد للصمود حتى منتصف الليل!! حين تصلنا جيوش الدول العربية فترجح كفتنا وننقلب من الدفاع الى الهجوم.

ومضت ساعات الصباح هادئة نسبيا استمرارا للهدنة التي كانت سائدة منذ بضعة أيام، وأسلحتنا جاهزة وايدينا على الزناد استعدادا لكل مفاجأة.

في هذا الصباح انسحب الجيش البريطاني من القدس، قسم اتجه الى الشمال على طريق رام الله ـ حيفا، وقسم الى الجنوب على طريق الخليل ـ بئر السبع فمصر. وانزل العلم البريطاني عن قصر المندوب السامي في جبل المكبر وارتفع مكانه علم الصليب الاحمر الدولي، وارتفعت اعلام كبيرة عديدة على دور القنصليات والمؤسسات الاجنبية. وفي الساعة العاشرة غادر المندوب السامي السير ألن كننغهام مدينة القدس بسيارته إلى مطار قلندية حيث نقلته طائرة خاصة الى ميناء حيفا، ومنها بحرا الى بريطانيا دون ان يودعه احد من العرب او اليهود.

وما كادت سيارة المندوب السامي تغادر القدس حتى فتح اليهود النار بكل عنف على امتداد خطوط التماس وشنوا هجوما عاما لاحتلال المواقع الاستراتيجية التي اخلاها الانكليز،

← هل ينوون ان يبقوا ضمن الحدود المقررة للدولة اليهودية؟ ام انهم ينوون ان يتوسعوا خلفها؟.

اجاب شمير بنزق وبدون التزام: الحدود عمل السياسيين وليس الجنود، ولكن اذا اختاروا ان نقوم بذلك فالهاغاناه قادرة على غزو جميع فلسطين، واذا لم يهاجم الجيش العربي القدس فلن يكون هناك حاجة للقتال. ووعد ان يبلغ رسالة غولدي الى رؤسائه الكبار حالا.

وبعض المواقع الاخرى في المنطقة الحرام. ففي وسط المدينة المرتفع كان الانكليز يشغلون منطقة (Zone) استراتيجية هامة جدا يسيطرون منها على جانبي المدينة العربي واليهودي، محاطة بسور من الاسلاك الشائكة تضم دائرة البريد المركزي وفيها المقسم الرئيسي للهاتف، وتضم مجمع المسكوبية وفيه بناية القيادة العامة لقوات البوليس الفلسطيني، والمحاكم، والسجن المركزي ومستشفيان، كما تضم دار الاذاعة وبنك باركليس ودار بلدية القدس. وبقرب هذه المنطقة بنايات المستشفى الفرنسي وهوسبس النوتردام من جهة والمستشفى الايطالي من الجهة الاخرى.

ولدى انسحاب الانكليز من هذه المنطقة (Zone) انسحبوا من ناحية اليهود ــ من الغرب ــ الى الناحية العربية ــ الجنوب الشرقي ــ فخرجوا من ناحية الاحياء العربية. وبذلك أتاحوا لليهود استلامها جزءا جزءا. حتى ان بعض الانكليز سلموا مفاتيح الدوائر والابنية لليهود لقاء مبالغ من المال.

وأمام خطوطي في حي المصرارة دخلوا بناية المستشفى الايطالي وأنزلوا عنها علم الصليب الاحمر الدولي ورفعوا مكانه العلم الصهيوني. كما دخلوا مبنى الاذاعة القريب من المستشفى الايطالي، وبذلك انكشفت لهم مواقعنا ومواصلاتنا فراحوا يمطرونها بالرصاص. وفي حي الشيخ جراح استولوا على بناية مدرسة البوليس الواقعة على يمين خطوطي، بالاضافة الى مجمع المسكوبية الذي اشرت اليه والذي يواجه خطوطي على امتداد حي المصرارة. كل ذلك كنا نتوقعه كما سبق ان ذكرت، ولكن لم تكن لدينا القوات اللازمة لمنع اليهود من الاستيلاء على هذه الاماكن. وفي أية حال لم يحاول اليهود في هذا اليوم مهاجمة خطوطي على الرغم من كثافة نيرانهم ومخاطبتهم لنا بالميكروفونات للنيل من معنوياتنا. ويظهر انهم اكتفوا بالاستيلاء على هذه المواقع الاستراتيجية والتمركز فيها تمهيدا لهجوم قادم. ولا شك ان احتلالهم هذه المواقع اكسبهم وضعا مميزا من عدة نواح. ومما يذكر انهم باحتلال مقسم الهاتف المركزي جعلوا يتصلون بالمنازل العربية لبث الرعب في قلوب السكان ولمعرفة البيوت الخالية من البيوت المسكونة والتجسس على مكالمات العرب.

وعند الظهر سمعت اطلاق نيران من جهة مجمع هداسا والجامعة العبرية الذي يقع خلف خطوطنا شرقا، فانتقلت فورا من مقر قيادتي في المصرارة الى حي باب الساهرة ومن هناك شاهدت قوات من المشاة اليهود ينحدرون بسرعة الى حي وادي الجوز، وقد وصلوا الى قرب جامع عابدين وقدرت انهم كانوا يهدفون إلى احتلال المتحف الفلسطيني، الامر الذي لوحصل لكان يعني سقوط جميع الاحياء العربية شمالي القدس وانكشاف عدة احياء من المدينة القديمة وخصوصا ساحة الحرم الشريف لنيران العدو. وكانت حامية وادي الجوز تناوشهم، وكان معظم رجال الحي يؤدون صلاة الجمعة في المسجد الاقصى واليهود يتقدمون بسرعة. فتقدمت بسرعة مع قوات مختارة من حي باب الساهرة قدتها بنفسي ورافقني بعض

رجال الحي غير المسلحين، اذكر منهم السيد علائي النمري والدكتور مهدي الحسيني، واستخدمنا في هجومنا المعاكس رشاش براوننغ ورشاش هوشكيس فرنسيا ثقيلا من اسلحة جيش الانقاذ ومدفع مورتر ٨١ ملم كنت ارمي عليه بنفسي ويساعدني علائي النمري بحمل القذائف، كما استخدمنا عددا من رشاشات البرن والاسلحة الاخرى.

وما كادت نيران الرشاشات وقنابل المورتر تكتسحهم وهم مكشوفون لنا في سفح جبل الطور حتى أركنوا للفرار، وتوقفوا عن اطلاق النار. وقام عدد من رجال الاسعاف اليهود يرتدون الالبسة البيض بنقل بعض الجرحى والقتلى على مرأى منا. وأصر الدكتور مهدي الحسيني على ان نتوقف عن اطلاق النار بينما ينقلون قتلاهم وجرحاهم. وفي أية حال فانهم لم يستكملوا ذلك الا بعد نزول الظلام.

هذا ما وقع في قطاعي حتى مساء يوم الجمعة. اما ما حصل في انحاء اخرى في هذا الوقت، فقد قام اليهود ايضا باحتلال المواقع الاستراتيجية التي تعتبر امتدادا لوسط المدينة، فتقدموا من شارع الملك جورج فاحتلوا كلية تراسانطا وبناية داود وبناية جمعية الشبان المسيحية وفندق الملك داود ووصلوا الى القنصلية الفرنسية. جرى ذلك دون قتال مع العرب تقريبا لان هذه المناطق كانت تحت سيطرة الانكليز وتعتبر من الطرفين العرب واليهود مناطق حرام. وكان بإمكان العرب دخول قسم كبير منها قبل ان يصلها اليهود، لكنني اكرر القول انه لم تكن لدينا القوات اللازمة لذلك.

أما الاماكن التي تحرك المناضلون لاحتلالها في هذا اليوم فهي قلعة باب الخليل المهمة جدا ومدخلها من داخل سور البلدة القديمة، فدخلها رجال البوليس العرب الذين كانوا موجودين بجوارها، في القشلة، فلما اخلى الانكليز القلعة دخلها العرب بدون قتال. وفي الوقت نفسه بدأت قوات من جيش الجهاد المقدس بقيادة ابراهيم ابو دية وجاد الله محمود الخطيب، وقوات من جماعة الاخوان المسلمين التابعين لكتيبة جيش الانقاذ تهاجم مستعمرة رامات راحيل جنوبي القدس حيث دارت معارك متواصلة لعدة ايام اشتركت في آخرها قوات مصرية. ومن ناحية اخرى بدأ العرب داخل البلدة القديمة بالضغط على حارة اليهود المحاصرة.

ليلة ١٤ - ١٩٤٨/٥/١٥

لم يكد الليل يرخى سدوله، والرصاص يلعلع في كل مكان، حتى فوجئت بموقف خطير، فقد جاء الى قيادتي في حي المصرارة العريف جوهر ومعه أحد الجنود وقال لي: «حضرت لكي لا تقع في خطأ، فقد انسحب رجال مجموعتي ومعهم قائد المجموعة الملازم حنا الحلو الى داخل البلدة القديمة ولم يبق غيري انا وهذا النفر». وكانت هذه المجموعة وعددها نحو ٣٥ معظمهم من اللبنانيين في كتيبة جيش الانقاذ تتبع لقيادتي ومتمركزة في فندق رغدان

في منتصف جبهة المصرارة المقابل مباشرة لمبنى الاذاعة الذي احتله اليهود بعد ظهر اليوم، والذي لا يبعد عن فندق رغدان اكثر من ٨٠ مترا. وبالقرب من مبنى الاذاعة يقع المستشفى الايطالي الذي احتله اليهود ايضا. وكان اليهود طيلة بعد الظهر يتبادلون اطلاق النيران من دار الاذاعة مع مجموعة جيش الانقاذ دون ان يحاولوا التقدم نحوها ودون ان تقع اصابات بين رجال هذه المجموعة. وكنت اعتبر فندق رغدان قلعة من قلاع خطوطي حصناه بأكثر من ٥٠٠٠ كيس رمل وامامه حاجز من الاسلاك الشائكة عرضه متران كان الانكليز اقاموه للدفاع عن الاذاعة والسجن. وبانسحاب مجموعة فندق رغدان من قلب خطوطي، صار بإمكان اليهود أن ينتشروا في حي المصرارة خلف خطوطنا. لذلك اسرعت بارسال مجموعة من خمسة رجال فقط بقيادة العريف الشجاع مصطفى القطناوي ومعهم رشاش برن فتمركزوا في الفندق حتى الفجر ولم يسمحوا لليهود بالتقدم. وفي الوقت نفسه ارسلت الى مقر قيادة كتيبة جيش الانقاذ في البلدة القديمة في طلب القوة التي انسحبت، وعند الفجر عادت الى موقعها.

وأمر آخر شغلني هذا المساء، ففي الساعة التاسعة مساء اتصل بـي الرئيس فاضل عبد الله رشيد واخبرني ان هدنة عقدت بيننا وبين اليهود، وان علينا ان نتوقف عن اطلاق النار في الساعة العاشرة. كما طلب مني أن اعيره المصفحة التي كنا استولينا عليها من الانكليز قبل رحيلهم ليضع عليها مكبر صوت لاعلان الهدنة في اماكن الاشتباك التي لا يستطيع ايصال الاوامر اليها، فوافقت على ذلك. وحضر لاستلام المصفحة الشيخ مصطفى السباعي والملازم جمال الصوفي مساعدا فاضل رشيد. ولما عرفت انهما سيركبان في المصفحة وجدت من المناسب ان ارافقهما. وابتداء من ساحة باب العمود اعلن الشيخ مصطفى السباعي قيام الهدنة طالبا من المناضلين العرب التوقف عن اطلاق النار مكررا قوله: «حافظوا على مواقعكم، احذروا غدر العدو». وكرر النداء عند الباب الجديد وباب الساهرة، وفي رأس العمود وجه النداء الى حي الثوري الذي لم يكن بمقدرونا الوصول اليه. وفي كل موقع من هذه المواقع كان الناس يتجمهرون حول المصفحة ساخطين محتجين رافضين فكرة وقف اطلاق النار، لانهم كانوا ينتظرون وصول الجيوش العربية عند منتصف الليل حيث نتحول من الدفاع الى الهجوم، وعلى اساس ان وقف اطلاق النار خدعة من اليهود ليتجنبوا هجوم الجيوش العربية وحرمان العرب من تحرير جميع مدينة القدس. وكانت تقع مشادات عنيفة مع الشيخ السباعي وجمال الصوفي اللذين لم يكونا معروفين للجمهور، مما اضطرني اكثر من مرة الى الخروج من المصفحة لتهدئة الناس الذين يعرفونني جيدا ويثقون بـي فيقبلون الامر ولومكرهين. وفي أية حال توقف اطلاق النار فترة تقارب الساعتين وانفجر بعدها من جديد لان اليهود حاولوا الاستفادة من الهدنة للتقدم الى بعض المواقع في شارع يافا باتجاه باب الخليل والباب الجديد. فشنوا هجمات مركزة وتقدموا في وجه مقاومة عربية باسلة ابتداء من ساحة بنك باركليس فاحتلوا جانبا من فندق داروتي ونسفوا الجانب الآخر محاولين التقدم نحو باب الخليل. وفي الوقت

نفسه حاولوا احتلال المستشفى الفرنسي وعمارة نوتردام ولكنهم صدوا وتكبدوا خسائر فادحة.

في ضوء ما تقدم كسب اليهود الكثير من معارك النهار ولم يستفيدوا من معارك الليل إلا القليل، ليستأنفوا هجومهم المركز في اليوم التالي. وفي منتصف الليل احتفل اليهود بقيام دولة اسرائيل وبعد دقائق اعلنت الولايات المتحدة اعترافها بها، وبعد منتصف الليل بدأت الجماهير العربية التي تنتظر وصول الجيش الاردني تعرب عن قلقها، وفيما بعد، عن سخطها، كما كان لذلك أثر خطير في معنويات المقاتلين. وفي اعتقادي ان جميع اهل القدس، من عرب ويهود لم يعرفوا طعم النوم في هذه الليلة، وانا منهم، خصوصا عندما شرع اليهود بقصف مواقعنا بالمورتر والراجمات آخر الليل.

السبت، ١٩٤٨/٥/١٥

في الصباح الباكر تفقدت مواقعي الامامية في حي المصرارة وسعد وسعيد فكانت جميعها صامدة سالمة. ولكن معنويات الرجال كانت مهزوزة لأنهم ظلوا مستنفرين إلى اقصى درجة طوال ثلاثة ايام بلياليها، ولان جيوش الدول العربية لم تصل في منتصف الليل كما كان متوقعا. ولفت نظري وانظار المناضلين وجود قذائف ضخمة هنا وهناك غير متفجرة لم نكن شاهدنا مثلها من قبل، سميناها فيما بعد بالراجمات، وهي قذائف مصنوعة محليا من اسطوانات الغاز حشيت بالمتفجرات وركب لها ذيل طويل يشبه ذيل قنابل المورتر. وكان منظرها مثيرا وفسر لنا سر الانفجارات الشديدة التي لم نعرف كنهها في الليل، وظننا انها اصوات قنابل مدافع الميدان التي تطلق من بعيد. ولكن عيب هذه الراجمات أنها غير متقنة الصنع فكانت نسبة كبيرة منها لا تنفجر عند سقوطها، الا ان ما ينفجر منها يكون له اثر كبير مدمر. وكان المناضل فوزي القطب قائد فرقة التدمير حاول قبل هذه الفترة ان يصنع قاذفا على شكل مدفع من أسطوانة غاز، يحشى بالغام، الا ان هذا المدفع أهمل بعد أن اجريت له اكثر من تجربة غير ناجحة.

وما كادت شمس هذا النهار تشرق حتى ارتفعت اصوات الميكروفونات من خطوط العدو تخاطبنا في هذه المرة بنفس جديد، وتقول ان قواته ستقوم بالهجوم علينا، وتطلب منا، مسلحين ومدنيين، ان ننسحب الى داخل اسوار البلدة القديمة، وان مقاومتنا لن تكون مجدية، ولن ينتج عنها الا ترمل نسائنا وتيتم اطفالنا، مؤكدين لنا أننا الوحيدون الباقون خارج اسوار المدينة القديمة، وان الحي الفلاني والفلاني خارج السور سقطا في ايديهم مكررين عبارة: «انسحبوا وإلا ستقتلون».

سقوط بناية النوتردام

اشتد اطلاق النار وفوجئنا بنيران تنصب علينا من بناية النوتردام على طرف جبهتنا من ناحية اليسار. لقد دخلها اليهود اذن، وبذلك انكشفت معظم خطوط مواصلاتنا. وتكاد النيران الصادرة منها تغلق خلفنا باب العمود وباب الساهرة فتعزلنا عن البلدة القديمة. وقع ذلك عندما تقدم اليهود قبيل الظهر في هجوم مركز من ساحة بنك باركليس فاحتلوا دير القربان والمستشفى الفرنسي ومنه تسللوا الى بناية النوتردام التي كانت هدفهم الرئيسي. وكان بامكان المناضلين العرب دخول هذه البنايات واحتلالها قبل اليهود بكل سهولة، لكنهم لم يفعلوا ذلك احتراما لقدسيتها، وبناء على رجاء رهبانها وراهباتها بأن لا ندخلها، وبناء على تأكيد القنصل الفرنسي ان الوكالة اليهودية اكدت له ان اليهود لن يتعرضوا لهذه الاماكن التي كانت الاعلام الفرنسية ترفرف فوقها.

تقع بناية النوتردام خارج سور البلدة وهي تابعة لحي المصرارة، الا انها لا تبعد اكثر من ٢٠ مترا عن السور وعن الباب الجديد بالذات. ولذلك كانت مسؤولية الدفاع عنها واقعة على قوات البلدة القديمة وحامية الباب الجديد.

وبعد فترة قصيرة هاجم اليهود مدخل الباب الجديد محاولين اقتحامه والدخول الى البلدة القديمة الا انهم صدوا خصوصا بعد ان فتح رئيس مدرسة الفرير الفرنسية ابواب المدرسة أمام المناضلين فدخلوا وتحصنوا على سطحها المرتفع، كما انتشروا فوق سطح دير القربان وحول دير اللاتين ومنعوا اليهود من دخول الباب الجديد.

هجوم عام على المصرارة وسعد وسعيد

منذ الصباح الباكر وقبل الهجوم على بناية النوتردام شن اليهود هجوما واسعا على حي المصرارة وسعد وسعيد على طول خط المواجهة على امتداد كيلومتر ونصف الكيلومتر، ابتداء من قرب المستشفى الفرنسي وحتى بوابة مندلبوم محاولين التقدم بالمشاة. ولكن نيراننا حالت دون ذلك لفترة طويلة. الا انهم فيما بعد تمكنوا من دخول المدرسة الاسوجية كما تمكنوا من دخول مخفر بوليس ميئه شعاريم القريب جدا من بناية مندلبوم. ودخلوا كذلك بناية قطينة الكبيرة التي كانت تسمى بناية المتحف الفلسطيني الذي كان يشغلها بالفعل قبل اقامة بنائه الجديد في حي باب الساهرة. وكانت جميع هذه البنايات تقع في المنطقة الحرام بيننا وبين اليهود، ولذلك كنت اعتبر ان مواقعي سليمة وصامدة خصوصا بعد ان تقدمت مجموعة تقدر بثلاثين رجلا انطلقوا من قرب بناية مندلبوم في اتجاه جامع سعد وسعيد وطريق نابلس فاكتسحتهم نيران رشاش البراوننغ المتمركز في مقبرة الجامع والذي كانت نيرانه تغطي هذا المنفذ الخطر كما تغطي ساحة خالية في حي سعد وسعيد تتفرع منها ثلاثة شوارع. وقد قتل وجرح عدد من اليهود المهاجمين وردوا على اعقابهم حاملين قتلاهم وجرحاهم، ولولا استشهاد المناضل البطل (لا اتذكر

اسمه) رامي البراوننغ لقضي على جميع المجموعة، وبعد ان حل زميله محله كان اليهود قد ارتدوا.

تجمد الهجوم اليهودي ولم نخسر في هذه الفترة سوى اربعة شهداء بينهم مدني واحد وهو شيخ وقور شجاع كنا ندعوه ابو عيسى وهو والد السيد عيسى شاكر صاحب مصنع كازوز الصفا الذي كان في الحي. وكان عيسى شاكر عضوا نشيطا في لجنة حي سعد وسعيد ووالده يرعى المناضلين ليلا ونهاراً ويأبـى ان يغادر الحي مع انني سمحت قبيل ١٥ أيار/مايو لمن يشاء من المدنيين بمغادرة الحي. وكان الشهيد الثالث تلميذي الطالب احمد العجولي (١٧ سنة)، وقد اصيب بنيران اليهود المنطلقة من بناية النوتردام ونقل الى مستشفى الهوسبيس حيث توفي آخر الليل بعد زيارتي له بقليل. وكان والده صديقي ومن المناضلين الذين اشتركوا معي في ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩، وانضم الى قواتي في سنة ١٩٤٧ المرابطة في حي المصرارة واستشهد قبل استشهاد ولده احمد بأقل من شهر. وكان الشهيد الرابع جنديا من جيش الانقاذ من المجموعة المرابطة في فندق رغدان، استشهد داخل الفندق المحصن وهو يواجه نيران اليهود المنطلقة من بناية الاذاعة.

وعند الظهر ساء الوضع حين انسحبت مجموعة المغاوير التابعة لكتيبة جيش الانقاذ وعددها نحو ٣٥ رجلا كانت متمركزة في دار المؤقت المواجهة لمجمع المسكوبية تجاه بابها الشرقي. وبانسحابها وباحتلال اليهود بناية النوتردام انكشف جناحي الايسر تماما وصار من السهل على اليهود ان يلتفوا على فندق رغدان.

أمر خطي بالانسحاب

أما الصاعقة التي نزلت علي في هذا اليوم فكانت وصول امر خطي موجه إليَّ بالاسم موقع من الرئيس فاضل رشيد والشيخ مصطفى السباعي وجمال الصوفي، يطلب مني سحب جميع قواتي من المصرارة وسعد وسعيد وباب الساهرة الى داخل اسوار البلدة القديمة!!. كاد هذا الامر ان يطير صوابـي، فأنا في شدة وضيق وخطر، وجميع مواصلاتي مكشوفة لمواقع اليهود المسيطرة وخصوصا النوتردام والمستشفى الايطالي، ولكن مواقعي ما تزال سليمة ورجالي صامدون وخسائري قليلة. وبدون تردد قررت ألا انسحب وان أكتفي بتبليغ الاوامر الى القوات الملحقة بقيادتي من كتيبة جيش الانقاذ التي يقودها فاضل رشيد. وكان ذلك، وانسحبت مجموعة الاخوان المسلمين السوريين في الحال، اما مجموعة اللبنانيين في فندق رغدان فلم تتمكن من الانسحاب لان مواصلاتها مكشوفة لنيران العدو.

في ضوء هذا الموقف استدعيت يحيى الزواوي ومحمود عريقات وهما المسؤولان عن قيادة قواتي في المصرارة، وطلبت منهما ان يصمدا مهما كلف الامر حتى حلول الظلام. فان بقي الوضع على هذه الحال فانني قد اصدر أمرا بالتراجع صفا واحدا من الابنية. كما أخبرتهما انني

سأذهب الى فاضل رشيد لاستوضح أسباب اصدار أمر الانسحاب، وانني سأعمل على تعويض النقص من رجالي في حي باب الساهرة. وركبت السيارة المصفحة واتجهت حالا الى مدرسة الروضة مقر قيادة فاضل رشيد، وقابلته مستوضحا اسباب اصدار امر الانسحاب. وسألته: «هل السبب ان اليهود حصلوا على بنزين!؟» لأن معلوماتنا السرية كانت تفيد ان لدى اليهود في القدس نحو ٢٠٠ سيارة مصفحة ولكن ليس لديهم بنزين. وكنا نخشى انهم اذا حصلوا على البنزين فانهم قد يشنون هجوما بالمصفحات من ساحة بنك باركليس باتجاه باب العمود فباب الساهرة وحتى المتحف الفلسطيني، وبذلك تصبح جميع الاحياء شمالي السور ساقطة. فقال: كلا لم تصلنا اية معلومات عن حصولهم على البنزين ولكن محمد سبيتاني (وكان عضوا في لجنة حي المصرارة) حضر لعندي واخبرني ان وضعكم خطير جدا وان جميع مواصلاتكم مكشوفة. وبناء على ذلك اصدرنا هذا الامر. فقلت: ان ما قاله محمد سبيتاني صحيح ولكنني استطيع ان أقاتل ثلاثة أيام على الاقل وانا اتراجع من بيت الى بيت قبل ان ادخل الى البلدة القديمة. فقال: اذا كان بامكانك ذلك فلا مانع. فلمته اشد اللوم على اصدار هذا الامر قبل استشارتي وعلى سحب قوات كتيبته المفرزة لقيادتي، وقلت له صارخا: سترى كيف نصمد وكيف نتحدى. وخرجت من غرفته غاضبا وفي خاطري امر صممت عليه: هجوم معاكس!! واذا انا وجها لوجه مع الملازم حنا الحلو الذي بادرني بالقول: يا بهجت رجالي في فندق رغدان محاصرون لم يستطيعوا الانسحاب. فقلت: ولماذا انت هنا؟ لماذا ومتى تركتهم؟ تعال معي لنقوم بهجوم معاكس نطرد فيه اليهود من المواقع التي دخلوها ونفك الحصار عن رجالك. فلم يجب، فتركته وانصرفت.

هجوم معاكس

اتفقت مع قوات البلدة القديمة ان نشرع في شن هجوم من الباب الجديد على بناية النوتردام وان أهاجم بقواتي في حي المصرارة وسعد وسعيد في الوقت نفسه. ثلاثون رجلا فقط من قواتي في حي باب الساهرة قسمتهم الى مجموعتين: مجموعة يقودها مصطفى القطناوي امرتها ان تبدأ هجومها من حي المصرارة باتجاه فندق رغدان، والمجموعة الثانية قدتها بنفسي تبدأ هجومها من ملاعب مدرسة المطران في حي باب الساهرة على بناية قطينة ثم بناية المدرسة الاسوجية. واستخدمت في هذا الهجوم السيارة المصفحة ومدفع المورتر ٢ انش بحيث تغطينا نيران رشاش البراوننغ الذي ركزناه في أعلى التل الصناعي الواقع خلف دير الدومينيكان. تقدمنا نطلق النار ونصرخ، وقفزنا من بيت الى بيت حتى وصلنا إلى بناية قطينة بعد ١٠ دقائق. وأذكر بهذه المناسبة انني في مثل هذه الحالات الخطرة من قتال الشوارع كنت أصر على ان اكون اول المتقدمين، الا ان تلميذي محسن الوظائفي أبى هذه المرة الا ان يكون امامي على الرغم من انني هددته باطلاق النار عليه ان سار إمامي، فقال: اقتل! وانطلق امامي. التصقنا بجدران بناية قطينة واليهود ما زالوا فيها. واقتربت من الباب وضربته بأخمص رشاشي

الشمايزر فانفتحت فيه فتحة ألقيت منها قنبلة يدوية، وبعد انفجارها فتح الباب ودخلنا نطلق النار ونصرخ وخرج اليهود من الباب المقابل هاربين. وصعدنا درج الطبقة الثانية فلم نجد فيها احدا، ومن النوافذ الغربية اصبحنا نطل على اليهود الهاربين من علٍ فأصليناهم نارا حامية وشاهدنا سقوط بعضهم قتلى وجرحى. وفي هذه الاثناء اخلى اليهود مركز بوليس ميئه شعاريم ولم يبق لهم امامنا الا بناية مندلبوم الحصينة. ثبَّتُّ خمسة من رجالي مع رشاش برن في هذا الموقع وانطلقت مع الباقين نحو المدرسة الاسوجية، وفي غيابي تحمس اثنان من رجالي المغاربة الاشداء وحاولا دخول مركز بـوليس ميئه شعاريم متعرضين لنيران بناية مندلبوم، فاستشهد احدهما وجرح الآخر.

بعد قليل وصلتُ مع ثلاثة من رجالي الى قرب المدرسة الاسوجية، وكانت تتألف من بنايتين بينهما ملعب لكرة السلة وكـان اليهود مـا زالوا في المـدرسة والملعب. لم أدخـل المدرسة من الناحية الشرقية التي تواجهنا والتي كنا فتحنا في اسلاك سورها منفذا، بل تقدمت من طريق فرعي بين الابنية حتى وصلت إلى بابها الجنوبي، فسمعت في ملعب كرة السلة اصوات اليهود فيها ولم يكن يفصلني عنهم سوى باب السور الحديدي الكبير، ومن خلف الباب ألقيت قنبلة يدوية ودخلت بسرعة الى زقاق يسترني، وانفجرت القنبلة فألقى اليهود قنبلة من ناحيتهم وانفجرت قربنا وصاح احدهم: واحدة اخرى!! واحدة اخرى!! وركضت سريعا ودرت حول سور المدرسة حتى وصلت الباب الشمالي للملعب، ومن خلفه ألقيت قنبلة يدوية اخرى وركضت منسحبا، فألقى اليهود قنبلتين في اتجاهي. وفي هذه الاثناء دخل المناضل الشهيد اسماعيل الشرباتي وثلاثة مقاتلين من فتحة السور الشرقية وكان يحمل رشـاش براوننغ، وانسحب اليهود هاربين وسيطرنا على المدرسة واصبحنا على ابواب حي ميئه شعاريم، فانتقلنا نحو فندق رغدان فلم نجد فيه احدا من اليهود أو العرب حيث كانت مجموعة الملازم حنا الحلو انسحبت. فدخلنا الفندق، وكان بامكاننا التقدم والدخول الى بناية الاذاعة وبناية المستشفى الايطالي التي هرب منها اليهود، لكننا لم نكن نملك القوات اللازمة لذلك، خصوصا بعد ان انسحب جميع رجال كتيبة جيش الانقاذ.

وفي الوقت نفسه نجح الهجوم على بناية النوتردام وانسحب منها اليهود ومن المستشفى الفرنسي وفندق داروتي في شارع يافا. وبذلك عادت جميع المواقع في حي المصرارة وسعد وسعيد الى ايدينا، وتأكد لدينا فيما بعد ان اليهود أخلوا منطقة واسعة هاربين مذعورين ظنا منهم ان الجيوش العربية هي التي شنت هذا الهجوم.

سقوط حي الشيخ جراح

في الوقت نفسه من صباح السبت ١٥ ايار / مايو حين كان اليهود يهاجمون الباب الجديد والمصرارة وسعد وسعيد كانوا يهاجمون حي الشيخ جراح الذي كانت قوة العرب فيه ضعيفة.

وعلى الرغم من قيام مجموعة من مناضلي حي وادي الجوز بنجدة حي الشيخ جراح استولى اليهود على الحي واتصلوا بمجمع هداسا والجامعة العبرية. وبذلك اغلقت على القدس الطريق الشمالية، طريق القدس ــ رام الله واصبح قطاعي، بالاضافة الى حي وادي الجوز، محاطا بقوات اليهود على شكل نصف دائرة. وكان ذلك أخطر ما وقع في هذا النهار. وقد استشهد في الدفاع عن حي الشيخ جراح عدد من المناضلين بينهم الشهيد مصطفى الكرد من حامية وادي الجوز وهو شقيق صديقي المناضل حسين الكرد (ابو كاظم) وكان مصطفى هرب من سجن المسكوبية قبل استشهاده بمدة قصيرة.

جنوبي القدس

وفي هذا اليوم أيضا انطلق اليهود من حي القطمون الذي احتلوه في أول هذا الشهر وتقدموا الى حي البقعة التحتا وحي النمامرة والحي الالماني، وواجهوا مقاومة عربية ضعيفة. وتدفق على هذه الاحياء عدد كبير من اليهود المدنيين، واشترك الجميع في اعمال السلب والنهب وأسروا عددا من سكانها المدنيين واصبحت احياء الثوري والنبي داود وحتى باب الخليل في خطر.

والى الجنوب ايضا استمر القتال في مستعمرة رامات راحيل التي دخلها العرب ولكن اليهود عادوا لشن هجوم متواصل لاستعادتها.

سقوط مستعمرة عطاروت

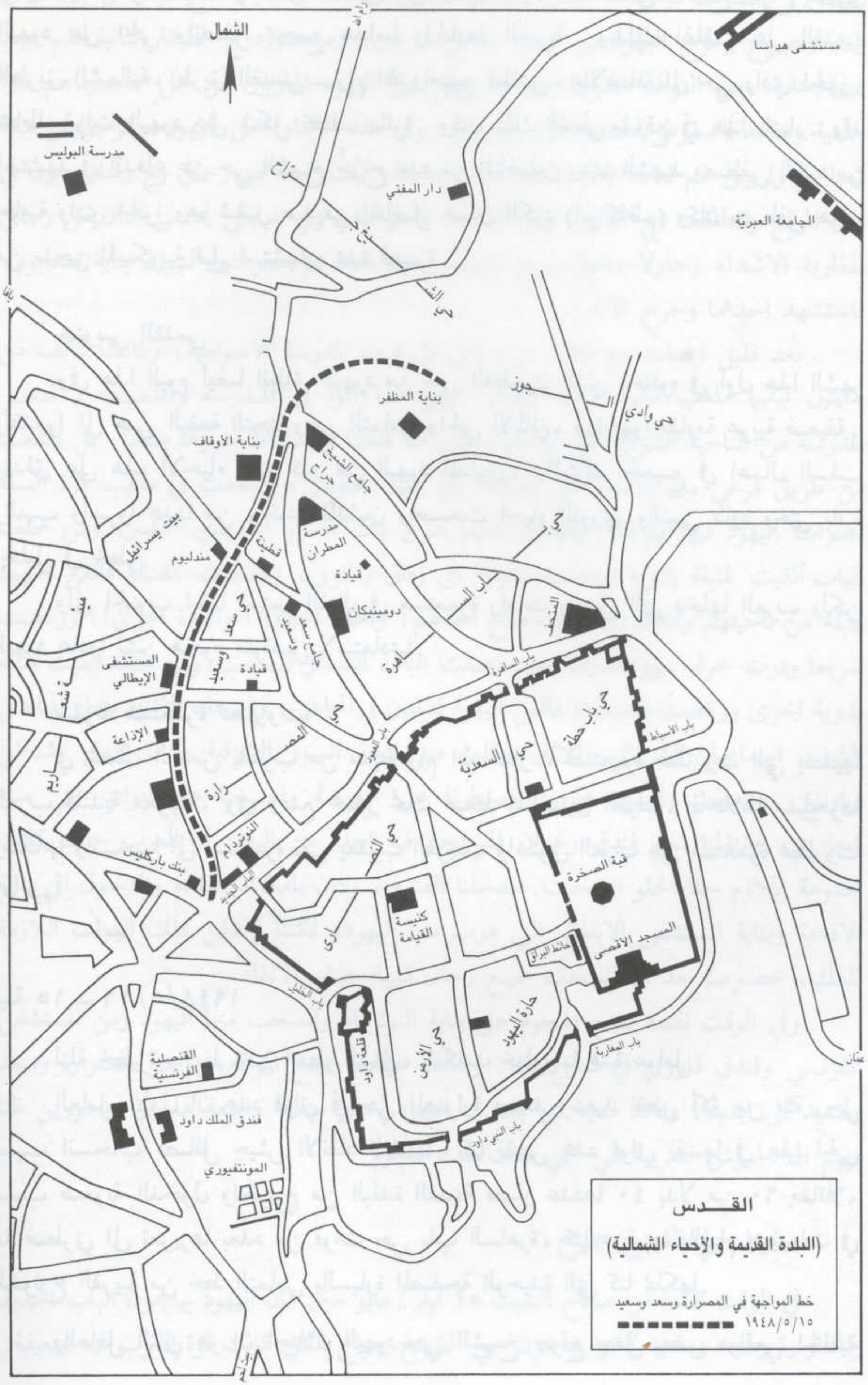
في شمال القدس بالقرب من مدينة رام الله صارت مستعمرة عطاروت التي يسميها العرب قلندية معزولة، وفي وضع خطير تحت ضغط المناضلين العرب، فأخلاها مسلحوها وسكانها وانسحبوا الى مستعمرة نفي يعقوب القريبة، واستولى العرب على مستعمرة عطاروت وما فيها.

ليلة ١٥ ــ ١٩٤٨/٥/١٦

ليلة خطيرة وان لم تكن اخطر الليالي، شكلت خطورتها عدة عوامل:

العامل الأول ان عدد قواتي في حي المصرارة وسعد وسعيد نقص أكثر من مئة رجل بسبب انسحاب فصائل جيش الانقاذ الثلاث. كما نقص عدد قواتي نفسها في هذا الحي بسبب صعوبة الدخول والخروج من البلدة القديمة فصار عددها ٤٠ بدلا من ٦٠ مقاتلا، مما اضطرني الى تعزيزها بعدد من قوات حي باب الساهرة، كما عوضتها بالقيام بدوريات في الشوارع القريبة من خط التماس بالسيارة المصفحة الوحيدة التي كنا نملكها.

والعامل الثاني هو ان احتلال اليهود حي الشيخ جراح جعل بعض مواقعي الخلفية



الشمال
مستشفى هداسا
مدرسة البوليس
دار المفتي
الجامعة العبرية
بناية المظفر
حي وادي الجوز
بناية الأوقاف
جامع الشيخ جراح
مدرسة المطران
بيت يسرائيل
مندلبوم
قطنية
قيادة
دومينيكان
حي سعد وسعيد
المستشفى الإيطالي
قيادة
الإذاعة
باب الساهرة
باب الأسباط
حي باب حطة
حي السعدية
النوتردام
بنك باركليس
قبة الصخرة
كنيسة القيامة
المسجد الأقصى
حائط البراق
باب الخليل
قلعة داود
حي الأرمن
حارة اليهود
باب المغاربة
القنصلية الفرنسية
فندق الملك داود
باب النبي داود
المونتفيوري
عمان
القدس
(البلدة القديمة والأحياء الشمالية)
خط المواجهة في المصرارة وسعد وسعيد
١٩٤٨/٥/١٥

امامية خصوصا موقع بناية المظفر الحصينة المواجهة مباشرة لحي الشيخ جراح ومواقع اليهود الجديدة فيه.

والعامل الثالث انني أُصبت في خدي الأيسر بشظية طائشة جاءت من انفجار نتيجة عمليات القصف المتواصل، الا انها لم تقعدني عن الحركة بعد اسعافي. وكانت هذه هي اصابتي الرابعة منذ بدء القتال سنة ١٩٤٧.

كان عليّ في هذه الليلة ان اراقب تحركات اليهود للتأكد من نواياهم ومواجهة اي هجوم قد يقع، مما فرض عليّ القيام بدوريات استطلاع وهجمات دفاعية وجسٍّ نبض. وكانت قواتي في بناية قطينة التي استولينا عليها بعد الظهر تشكل رأس حربة وتواجه اخطر تحصينات العدو. ومن بناية قطينة سمعنا اصوات تحركات مريبة، فتحركت منها بصحبة اثنين من المناضلين وتسللنا من خلال حرج تابع للسفارة السويدية، يقع خلفها غربا. ولما وصلنا الى سور الحرج، اصبح لا يفصلنا عن بناية مندلبوم سوى عرض الشارع. وتبين لنا ان الاصوات التي سمعناها ناتجة عن عملية حفر (بالكومبرسر) يقوم بها عدد من المقاتلين اليهود لإنشاء خندق اتصال يربط بناية مندلبوم ببناية مجاورة. ودفعة واحدة ألقينا عليهم ثلاث قنابل يدوية وركضنا مع امتداد السور ثم انبطحنا على الارض خلف السور. وانفتحت نيران الجحيم باتجاه المكان الذي ألقينا منه القنابل، وعلى جميع انحاء الحرج. فرد رفاقنا في بناية قطينة على النار، وبقينا فترة طويلة متسترين بالسور ننتظر توقف اليهود عن اطلاق النار، ثم انسحبنا. ولما وصلنا الى بناية قطينة وجدنا رفاقنا في أشد حالات القلق على مصيرنا.

مضى الليل في قطاعي من دون ان يستأنف اليهود الهجوم. وفي الساعة الخامسة صباحا استلقيت للنوم في مقر قيادتي بعد ٤٨ ساعة لم اذق فيها طعم النوم. وبهذه المناسبة اشير الى انني تعودت خلال هذه الاشهر ان أسهر طويلا وان لا أنام إلا في الساعة الخامسة صباحا، وانهض لاستئناف واجباتي نحو التاسعة. وحتى خلال هذه الساعات كان نومي غير عميق، وكنت أجيب عن كل مراجعة من رجالي.

الأحد، ١٩٤٨/٥/١٦

في هذا الصباح ارتفعت معنوياتنا بعد أن قامت مدفعية جيش الانقاذ المتمركزة في مرتفع النبي صموئيل الاستراتيجي شمالي القدس بقصف الاحياء اليهودية في القدس. وتساقطت القذائف على الاحياء المركزية ووسط المدينة مثل شارع الملك جورج وشارع بن يهودا وحي رحافيا، بما في ذلك محيط الوكالة اليهودية وهي شوارع واحياء بعيدة عن قطاعي وبعيدة عن خط التماس. ولكن قصفها كان له أثر في الروح المعنوية. ومع أن أبنية القدس متينة ولا تؤثر فيها المدفعية كثيرا، الا اننا شعرنا بأننا لسنا وحدنا وان المدد قادم.

وبعد ظهر هذا اليوم استلمت صندوقا من العتاد الانكليزي الجديد وهو ما كنت في

اشد الحاجة اليه. فمعظم رشاشاتي انكليزية من طراز برن، وكان أصبح لدى قواتي ثمانية رشاشات برن انكليزية وواحد الماني وواحد ايطالي. كما استلمت خمسة آلاف طلقة من صنع اميركي لرشاشات البراوننغ، وكان لدي اثنان منها. وقد ذكرت سابقا ان هذه الذخيرة حملتها الينا طائرة ولي عهد اليمن الصغيرة التي وضعها تحت تصرف الهيئة العربية العليا، وكانت تقلع من القاهرة وتهبط في اريحا. كما قامت بالمهمة نفسها طائرة مصرية صغيرة استأجرتها الهيئة العربية العليا من شركة مصر للطيران. وقامت كل من هاتين الطائرتين بثلاث رحلات خلال الايام الحمراء، ثم أمر غلوب باشا بمنعها.

في هذا اليوم بذلنا في قطاعي جهودا كبيرة في اغلاق الطرق بالحجارة كي نمنع اي تقدم محتمل بالمصفحات قد يحاول العدو الوصول به الى ابواب سور البلدة القديمة خصوصا باب العمود وباب الساهرة. كما وزعنا الذخيرة على مواقعنا.

لم يحاول العدو التقدم في قطاعي في هذا النهار رغم المناوشات والقصف، وتوقعت ان يقوم بعمليات في الليل. ولكنه في الوقت نفسه عزز مواقعه في حي الشيخ جراح فتقدم بدون مقاومة، واحتل بعض الابنية المشرفة على مواقعنا في حي باب الساهرة وخصوصا موقع دار المظفر الحصينة التي لم يعد بينه وبينها سوى مجرى وادي الجوز من هذه الناحية. وبذلك اصبحت اتصالاتنا بهذا الموقع المهم مكشوفة لنار العدو ولكنه ظل ثابتا كالطود وظلت نيرانه توقع في العدو اشد الرعب والاثر وتمنعه من التقدم خطوة واحدة في اتجاه حي باب الساهرة وحي وادي الجوز.

في جنوب القدس تقدم العدو في هذا اليوم واحتل معسكر الجيش البريطاني الرئيسي المسمى بمعسكر أللنبي. وبذلك حقق كسبا كبيرا، حيث اغلق الطريق الرئيسي المؤدي الى جنوبي القدس واتصل بمستعمرتي تالبيوت ورامات راحيل. وبذلك اقام حاجزا قويا امام اي احتمال لوصول قوات عربية من الجنوب لنجدة القدس وبخاصة القوات المصرية. واصبح القسم العربي المتبقي من القدس محاصرا من الشمال والجنوب والغرب ولم يبق لنا اتصال الا عن طريق الشرق، أي طريق اريحا.

وفي غضون ذلك كان تبادل نيران الرشاشات والقصف المتبادل بالمورتر مستمرا طوال النهار في جبهة الحي اليهودي، وجرت محاولة قام بها القاصد الرسولي من اجل عقد هدنة بين الطرفين تتعلق بالحي اليهودي بشكل خاص. وساد الاعتقاد أن اليهود عرضوا عقدها كخدعة.

وكان من اهم احداث هذا النهار استئناف القتال في مستعمرة رامات راحيل جنوبي القدس، ومحاولة اليهود استرداد الاجزاء التي احتلها العرب من هذه المستعمرة بعد ان تعذر اتصالها بالاحياء اليهودية في القدس.

ليلة ١٦ ـ ١٧/٥/١٩٤٨

اشتد القتال في هذه الليلة في معظم القطاعات. وابتداء من الساعة الثامنة مساء شن اليهود هجوما مركزا على قطاعي في حي المصرارة وسعد وسعيد محاولين العودة الى المواقع التي خسروها مساء يوم السبت. وكنت أخليت هذه المواقع منذ المساء واقمت دفاعي على بعد نحو ١٠٠ متر منها بسبب النقص في قواتي وبسبب كفاءة اليهود في الهجوم الليلي. ولم يشعر اليهود باخلاء هذه المواقع لوجودنا بالقرب منها. ولذلك كانت نيرانهم تنصب على هذه البنايات وما جاورها بغزارة شديدة ظنا منهم ان نيراننا تنطلق منها. وبعد مضي ثلاث ساعات او اكثر من اطلاق نيران الرشاشات وقذائف المورتر تقدموا بالمشاة ودخلوا بناية المدرسة الأسوجية وبناية انطون المسيحي وبناية قطينة وهي المواقع الرئيسية في هذا الخط، وتمركزوا فيها ولم يحاولوا التقدم الى ابعد من ذلك. وظللنا في مواقعنا ننتظر النهار لكي نقوم بهجوم معاكس.

وفي الوقت نفسه الذي كانت فيه الاشتباكات جارية في قطاعي، شن اليهود هجوما في اتجاه باب الخليل والباب الجديد، وسقطت بنايات فندق فاست وعمارة الأوقاف القريبة من مقبرة مأمن الله، وانسحبت جميع القوات في هذا القطاع الى داخل السور. وركز اليهود هجومهم على باب الخليل محاولين اقتحامه والاتصال بحارة اليهود في البلدة القديمة، واستخدموا في هذا الهجوم ست مصفحات ومئات من المشاة. الا ان المقاتلين العرب المتحصنين في ابراج السور وقلعة باب الخليل ـ وكان معظمهم من رجال البوليس الفلسطيني بقيادة الضابط سليمان عازر والوكيل حمودة الباسطي ـ صدوا الهجوم بعد ان انضمت اليهم نجدات من الجهاد المقدس واهالي المدينة. ودام القتال فترة طويلة حاول مقاتلو الحي اليهودي في اثنائها التقدم من ناحيتهم صوب باب الخليل وتمكنوا من الاستيلاء على بعض دور الارمن المجاورة للحي اليهودي، الا ان الهجوم فشل من الناحيتين: من خارج السور ومن داخله. وتكبد اليهود خسائر فادحة واستشهد وجرح من العرب نحو ٥٠ رجلا. ولا بد من الاشارة الى ان هذا الهجوم كان خطرا لأنه لم يكن متوقعا. ولولا ان رجال البوليس العرب كانوا أغلقوا الشارع المؤدي من باب الخليل الى البلدة القديمة بعدد من الشاحنات لتمكنت المصفحات من اقتحام باب الخليل، ولو حصل ذلك لكان عليها ان تحتل القلعة، اي قلعة باب الخليل الأمر الذي يعتبر صعب المنال.

ومن هنا يمكن القول إن خطة الهجوم لم تكن مدروسة ولم تأخذ بعين الاعتبار صلابة المقاومة العربية، وان الأمر الذي أوقع اليهود في الخطأ هو شدة اهتمامهم بفك الحصار عن يهود البلدة القديمة. وعلى كل حال فشل هذا الهجوم وتكبد اليهود خسائر كبيرة ووقعت بسبب ذلك خلافات هامة بين الهاغاناه والارغون، وكل منهما كانت تلقي اللوم على الطرف الآخر.

الاثنين، ١٩٤٨/٥/١٧

في الصباح الباكر وبينما كنت أنظم قواتي لشن هجوم معاكس لاستعادة المنطقة الحرام التي احتلها اليهود ليلة أمس وخصوصا المدرسة الاسوجية، وبناية انطون، وبناية قطينة، وبينما كنت في موقع زاوية مسجد الشيخ جراح انطلقت مدافع جيش الانقاذ من مرتفع النبي صموئيل شمالي القدس على الاحياء اليهودية المحاذية لقطاعي وخصوصا سان هدريا وبيت يسرائيل. وبينما كنت اراقب القصف مرت فوق رأسي قذيفة مدفع تصفر بصوت مرتفع، وسقطت على طرف بناية المطران اي في القطاع العربي. فتوجهت راكضا لأجري اتصالا لإبعاد النيران عن البنايات العربية. ولم اكد ابتعد، وبالقرب من موقع قبور السلاطين صفرت فوق رأسي قذيفة أخرى، فألقيت بنفسي في خندق إلى جانب الطريق وسقطت القنبلة قريبا جدا مني.

وتوقف القصف قبل أن أجري أي اتصال. ومع أنه ساءني أن تسقط بعض قنابلنا على رؤوسنا، إلا أنني اغتنمت فرصة هذا القصف وسارعت إلى شن الهجوم المعاكس. وتحت غطاء نيران مركزة من رشاشات البراوننغ والبرن تقدمنا نقفز من موقع الى موقع ومن بيت الى بيت. وذعر اليهود وولوا هاربين من جديد، وفي اقل من ساعة عدنا الى جميع البنايات التي سبق ذكرها.

وفي هذه الاثناء شن جيش الانقاذ المتقدم من مدينة رام الله صوب القدس بقيادة المقدم مهدي صالح العاني وبالاشتراك مع قوات من جيش الجهاد المقدس هجوما على مستعمرة نفي يعقوب الهامة، استمر طوال النهار. وفي الليل انسحب سكان المستعمرة ومقاتلوها الى مجمع هداسا والجامعة العبرية ومنها الى القدس الغربية عبر حي الشيخ جراح المحتل. ودخل العرب المستعمرة واستولوا عليها ودمروا ابنيتها. وكان من الممكن ان تسقط هذه المستعمرة المحاصرة بيد العرب قبل هذا الموعد بكثير لولا أن الانكليز قدموا لها الحماية بدباباتهم إلى أن رحلوا. وبسقوط مستعمرة نفي يعقوب ومن قبلها مستعمرة عطاروت المجاورة لها، اصبح اليهود المحتلون لحي الشيخ جراح مهددين من الشمال ومن الجنوب، مما يفرض عليهم موقفا دفاعيا.

وفي الحي اليهودي داخل اسوار القدس كان القتال محتدما والدائرة تضيق على اليهود المحاصرين. وتحركت لجنة الهدنة القنصلية والوسيط الدولي لانقاذ الموقف. فاتصل قنصل بلجيكا ومعه نائب الوسيط الدولي بقيادة الجيش الاردني في اريحا وبقيادة جيش الجهاد المقدس في القدس لاستطلاع شروط العرب لاستسلام يهود البلدة القديمة. فاشترط العرب الاستسلام الكامل وتسليم جميع السلاح. ورفضت الوكالة اليهودية شروط العرب وأمرت يهود البلدة القديمة بالصمود بل وبشن هجمات على العرب.

ليلة ١٧ ـ ١٩٤٨/٥/١٨

بعد حلول الظلام أخلينا البنايات الواقعة في الخط الامامي في حي المصرارة وسعد وسعيد كما جرى في الليلة السابقة، وتحصنا في الخط الثاني. ونحو التاسعة مساءً شرع اليهود في اطلاق نيران الرشاشات وقذائف المورتر والراجمات، واستمر ذلك اكثر من ساعتين ثم تقدموا واحتلوا تلك البنايات. وبعد فترة قصيرة سمعت صوت صفارة توقف اليهود بعدها عن اطلاق النار. ولم استطع تفسير ما يعنيه ذلك. ولم يلبث الجواب ان جاءني حين دوى صوت انفجار كبير تهدمت من جرائه بناية قطينة العربية المقابلة لبناية مندلبوم اليهودية. وبعد فترة قصيرة دوى صوت انفجار آخر نسف بناية انطون التي كنت لا ابعد عنها اكثر من ١٢٠ مترا. ومع ان نسف هاتين البنايتين الهامتين وغيرهما من الأبنية العربية ساءني كثيرا، الا أن المعنى العسكري لهذا العمل هو أن اليهود نسفوها خوفا من أن نعود لاستردادها نهارا. وذلك يعني ايضا أنهم سيقفون في قطاعي عاجزين عن التقدم.

وهدأت الجبهة في قطاعي ورحت اتفقد مواقعي المواجهة لحي الشيخ جراح المحتل وكان كل شيء هادئا. لكن نيران معركة حامية كانت تسمع عند باب الخليل والباب الجديد، وانتابني القلق على ما يجري هناك، ولم يكن بامكاني ارسال أية نجدة، كما لم يكن بامكاني ان أغادر قطاعي. وعند الفجر دخلت البلدة القديمة وتوجهت الى باب الخليل استطلع ما جرى. ومن على السور فوق بوابة باب الخليل شاهدت آثار المعركة التي كانت توقفت. ومما اثار اهتمامي انني شاهدت في أعلى السور فوق البوابة فتى لا يتجاوز الثالثة عشرة يحمل بندقية تكاد ان تكون أطول منه. انه (البازيان) وكنت تعرفت عليه من قبل حيث كنت أشاهده في كل موقع فيه اشتباك. كان البازيان قد اشترك تلك الليلة في معركة باب الخليل ولذلك تولى شرح تفاصيلها لي، وتبين لي ما يلي:

شن اليهود الهجوم على الباب الجديد وباب الخليل وكان اعنف من هجوم الليلة السابقة واكثر تركيزا، مستخدمين المصفحات مرة ثانية في الهجوم على باب الخليل مستميتين في محاولة اقتحام الباب والدخول الى البلدة القديمة والاتصال بالحي اليهودي المحاصر. ودارت معركة حامية عند البوابة وتحت جدران قلعة باب الخليل. وكان المقاتلون العرب استعدوا للمواجهة فاحتشد في القلعة وعلى السور عدد كبير من المناضلين من رجال البوليس وجيش الجهاد المقدس بمن فيهم رجال فرقة التدمير التي ابلت بلاء حسنا. كما احتشد عدد من رجال جيش الانقاذ وعدد كبير من اهالي المدينة المسلحين. واستخدم المقاتلون العرب (بقج) المتفجرات بكفاءة وبكثرة فكانوا يشعلونها ويلقون بها من فتحات السور والقلعة فتقع على المصفحات والافراد فتفتك بهم. ونتيجة لذلك دمرت ثلاث مصفحات تركها اليهود في ارض المعركة ووقعت في صفوفهم خسائر كبيرة جدا. وعند الفجر كفوا عن مهاجمة باب الخليل وانسحبوا.

وفي الوقت نفسه كانت قواتهم تحاول اقتحام الباب الجديد وتمكنت من احتلال المستشفى الفرنسي ودير القربان ووصلت الى باب السور وحاولت اقتحامه بعد ان فجرت لغما لنسفه ولغما آخر لفتح ثغرة في السور بالقرب من الباب الجديد. كما نسفوا جزءا من دير القربان وجزءا من بناية النوتردام مما ادى الى اغلاق الطريق على اي تقدم آلي في هذا الموقع سواء من ناحية العرب ام من ناحية اليهود. وتمركز العرب في مدرسة الفرير وعلى ظهر دير القربان يقابلهم اليهود في المستشفى الفرنسي ولا يفصل بين الطرفين سوى امتار. وفشلت محاولة اليهود لدخول البلدة القديمة من هذا الباب أيضا.

الا ان الكارثة الكبيرة التي وقعت في هذه الليلة ان اليهود تحولوا في آخر الليل الى الهجوم على حي النبي داود الذي يقع على تل حصين ملاصق لسور البلدة القديمة من جهة الجنوب، ويقع هنا أحد ابواب السور الهامة وهو باب النبي داود او كما يسميه الانكليز باب صهيون، وهو أقرب باب الى الحي اليهودي في البلدة القديمة.

عندما هاجم اليهود مرتفع النبي داود فجر اليوم كانت فصيلة من جيش الانقاذ تتمركز في موقع حصين فيه، وكانت انسحبت قبل ذلك من حي القطمون. وكانت معنويات افراد الفصيلة متدنية، لذلك لم يقوموا بمقاومة تذكر وانسحبوا بسرعة الى داخل البلدة القديمة. واستولى اليهود على هذا الموقع الحصين بسهولة وكادوا يتصلون باليهود المحاصرين داخل البلدة القديمة الذين صار لا يفصلهم عنهم اكثر من ٢٠٠ متر. ولولا ان بعض شباب حي النبي داود قاوموا اليهود عند مدخل السور الى ان جاءتهم النجدة من البلدة القديمة لحصل الاتصال. وبعد فترة قصيرة من احتلال اليهود حي النبي داود دخلوا جميع الكنائس والاديرة المسيحية التي تقع في هذا الحي وتحصنوا فيها خصوصا كنيسة الدورميثيون الهامة التي يسميها العرب كنيسة الالمان ولها برج مرتفع متين (جرسية) يسيطر على مناطق واسعة من المدينة. وفي الوقت نفسه انتهز اليهود المحاصرون في البلدة القديمة الفرصة واحتلوا بعض الدور المجاورة لدير الارمن. ومع ان المناضلين العرب سيطروا نسبيا على باب السور الا ان الوضع ظل حساسا وخطرا من حيث احتمال اتصال اليهود من خارج السور بالحي اليهودي، كما ان تمركز اليهود في اعلى حي النبي داود وفي اعلى حي الثوري المجاور جعل نيرانهم تطال حي رأس العمود، مما اخذ يعرقل مواصلات مدينة القدس من ناحية الشرق: طريق القدس ــ أريحا ــ عمان، وهي الطريق الوحيدة التي ظلت مفتوحة للمواصلات بعد ان اغلقت الطرق من الشمال والجنوب والغرب على عرب القدس.

اذن لم يبق خارج السور بيد العرب سوى الاحياء الشمالية: المصرارة وسعد وسعيد وباب الساهرة ووادي الجوز وهي تحمي باب العمود وباب الساهرة وباب الاسباط وتحول دون وصول اليهود اليها؛ هذه الأحياء اصبحنا نسميها (الحي الباقي) وكان رجالي فيها يعتبرون مجانين وكانت ابواب السور تغلق دونهم ليلا ولا تفتح لهم الا بكلمة السر.

لذلك توقعت ان يكون نهار ١٨ أيار / مايو وما يليه أخطر ما مر على قطاعي. لذلك كان علي ان استعد أقصى درجات الاستعداد.

الثلاثاء، ١٩٤٨/٥/١٨

عدت الى قطاعي الذي اصبح خاليا تقريبا من السكان ولم يبق فيه سوى اشداء المناضلين. وتدارست الوضع معهم وصممنا على ان نموت دون ان نسمح للعدو باحتلال مواقعنا. وقمنا بتقدير الموقف العسكري ومتطلباته وحددنا الاتجاه الذي نتوقع ان يأتي منه الهجوم. وقدرنا ان الهجوم سينطلق من حي ميئه شعاريم ومن موقع عمارة مندلبوم، متجها نحو باب العمود عبر طريق نابلس، ومحور آخر يتجه نحو ملاعب مدرسة المطران محاولا الوصول الى باب الساهرة. وركزنا في هذه الجبهة ١٢ رشاشا بالعمق وبترتيب متساند، وزودنا المواقع بكميات وافرة من الذخيرة. وقبيل المساء اشتريت عددا من الواح الشيكولاته وزعتها على من حضر من قادتي قائلا: «كلوا كي نموت حلوين». وتوجهت الى قيادة جيش الجهاد المقدس داخل البلدة القديمة في المدرسة المأمونية القديمة للحصول على ما يتوافر من الدعم. وفوجئت بوجود مدفع ميدان صغير من صنع ايطالي قيل ان الطائرة احضرته الى اريحا من مصر وان بامكاني ان استلمه وانصبه في قطاعي، وان ضابطا مدفعيا يوغوسلافيا يرافقه سيوضع تحت امرتي. ومن ناحية اخرى كانت هناك في مقر القيادة نجدة (فزعة) مؤلفة من نحو ٣٥ مسلحا من جبل نابلس. وقال لي خالد الحسيني انه يضعهم تحت امرتي ، وان آخذهم الى قطاعي خارج السور. ووافق قادتهم على ذلك وطلبوا تزويدهم بالمزيد من الذخيرة فسلمناهم كمية لا بأس بها. وباستثناء المناوشات المعتادة والقصف المحدود لم يقع في قطاعي في هذا النهار قتال يذكر، وقدرنا انه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

كان الموقع الثاني المعرض لخطر شديد هو باب النبي داود حيث يتوقع ان يقوم اليهود بهجوم من حي النبي داود خارج السور ومن الحي اليهودي المحاصر داخل السور لفك الحصار عن الحي. وشعر حافظ بركات قائد سرية البلدة القديمة بخطورة الموقف كما قدر أنه لا يستطيع الاعتماد على مقاتلي جيش الانقاذ، فاتصل بقيادة الجيش العربي الاردني الذي كان وصل الى مشارف القدس الشرقية وشرح لهم خطورة الموقف، وان اليهود يحيطون بالبلدة القديمة من ثلاث جهات وعلى وشك دخولها من باب النبي داود، واذا لم تتحرك نجدة من الجيش العربي الى موقع باب النبي داود، فان اليهود سيتصلون بالحي اليهودي مما سيهدد جميع البلدة القديمة بالسقوط.

وتجاوبت القيادة الاردنية. وفي المساء تحرك القائد الشجاع محمود الموسى مع سرية من الجيش نحو الموقع المذكور، مع ان تعليمات قيادة الجيش العربي كانت تقضي بأن يتحرك

الى القدس في صباح الاربعاء ١٩ أيار/مايو. والخلاصة اننا كنا نتوقع هجوما على شمال القدس وآخر على جنوبها. فالى الليل.

ولا بد لي ان اشير الى ان قيادة جيش الجهاد المقدس كانت طوال اليومين الماضيين ترسل على جهاز اللاسلكي برقيات الى عدة جهات تكررها كل ساعتين وتقول فيها: «ان لم تصلنا النجدة فستسقط القدس بعد ساعتين». وفي الوقت نفسه كانت الاخبار المضللة عن انتصاراتنا تذاع هنا وهناك تطمئن الناس على القدس، مضللة اياهم عن حقيقة الوضع الخطير الذي كنا فيه. ولا اعتقد ان ذلك كان من قبيل الخطأ بل من اجل تبرير عدم التحرك لنجدة القدس ان لم يكن من قبيل التآمر الذي كان ينفذه غلوب باشا. واضيف ان عدة وفود من وجهاء القدس سافرت في اليومين الاخيرين الى عمان ودمشق وغيرها طالبة النجدة.

ليلة ١٨ ـ ١٩/٥/١٩٤٨

عند الغروب اصطحبت عددا من الشبان لجر المدفع العتيد ونقل قنابله الى اعلى مرتفع في مقبرة باب الساهرة. وسألت الضابط اليوغوسلافي عن مقاييس الخندق اللازم لموقع المدفع. وبحسب رغبته أمرنا بحفر حفرة طولها ٤ أمتار وعرضها كذلك وبعمق متر واحد، وبدأ الشبان يحفرون بهمة عالية وحماسة شديدة. فها قد اصبح لدينا مدفع..!

عدت الى مقر القيادة واصطحبت مناضلي جبل نابلس الى خارج السور، الى حي باب الساهرة وتمركزوا جميعا في بناية واحدة كبيرة كانت اخلتها السفارة السعودية، موقعها حصين ومحاطة بسور عال واسلاك شائكة، وتقع خلف الخطوط الامامية لقطاعي. وطلبت من قادة المجموعة ان يرتبوا حراسة على موقعهم موضحا انني اعتبرهم احتياطيا للجبهة وانني سأطلب تحريك مجموعات منهم الى الخط الامامي اذا قام اليهود بمهاجمتنا. وتركتهم وعدت الى موقع المدفع، فوجدت الخندق قد حفر حسب الطلب. وفردنا امامنا خريطة للمدينة وطلبت ان توجه اول طلقة الى بناية الوكالة اليهودية. واطلقت القذيفة التي تزن ٢ باوند فقط. ولم نسمع صوتا لانفجارها. وقدر الضابط اليوغوسلافي انها سقطت بعيدا خلف الهدف ولذلك لم نسمع صوت انفجارها. فطلبت منه ان يسدد المدفع بشكل مباشر على هدف منظور وهو تحصين لليهود اعرفه جيدا يقع خلف دار الاذاعة كنا نسميه «استحكام مصنع الزجاج» ويقع على بعد اقل من ٦٠٠ متر من موقع المدفع. واطلقت الطلقة المباشرة ولكننا لم نعرف أين سقطت، كما اننا لم نسمع صوتا لانفجارها. ومع انني كنت اجهل كل شيء عن المدفعية استنتجت ان القذيفة خارقة وليست متفجرة، واستنتجت ان الضابط اليوغوسلافي المدفعي اجهل مني بسلاح المدفعية. وفتشت بين الذخيرة الموجودة فوجدت قنبلة متفجرة وطلبت اطلاقها، فأدخلها في المدفع واطلقها ولكنها لم تنطلق وعلقت في جوف المدفع العتيد..!

وتركت معالجة الامر لضابطنا المدفعي . . ! ورحت اتفقد مواقعي الامامية، ولم ينطلق المدفع طوال تلك الليلة.

توجهت في البداية الى مجموعة مناضلي نابلس ولم تسرني معنوياتهم فهم غرباء عن الحي الموحش لخلوه من السكان، وهم يتصورون انهم في موقع خطر جدا ويفضلون لو يكونون داخل اسوار البلدة القديمة. فاصطحبت ثلاثة من قادتهم وطفت بهم على مواقعنا الامامية لأبين لهم ان موقعهم آمن. مررنا بقلعتنا في دار المظفر ثم استحكام ملعب مدرسة دار الطفل ثم استحكام زاوية جامع الشيخ جراح ولدى وصولنا الى موقع قبور السلاطين قال لي احد المناضلين من مرتب هذا الموقع المحصن ان اليهود اقتربوا من الموقع وقذفوا قنبلة يدوية باتجاهه فانفجرت امامه دون ان تصيب احدا. فقلت: هذا لعب اطفال، فالمنطقة الحرام لنا ولهم وقذف القنبلة إما أن يكون بغرض التأثير في معنوياتكم او ان يكون لمعرفة هل في الموقع مدافعون ام لا. واصطحبت احد الرجال وتقدمنا بين العمارات: عمارة الشاكر فعمارة الاوقاف، وقذفت قنبلة يدوية وعدت الى الموقع لاطمئن الجميع الى انه لا يوجد حشد امام الموقع. وتحركنا الى موقع قصر نسيبة الواقع خلف ابنية كاتدرائية المطران الانكليزية فقال لي أحد أفراد الموقع ان بضع طلقات اطلقت على موقعهم من نافذة في بناية المطران. واشار الى نافذة امامنا. ومع ان علاقاتنا كانت جيدة مع مدير مدرسة المطران الارمني المستر بويجيان ومع رئيس الكنيسة الانكليزي ديكنز الا انني خشيت ان يكون اليهود تسللوا من الابواب المواجهة لهم مما يشكل خطرا كبيرا علينا. وبالرغم من عدم ملاحظتنا ما يشير الى ذلك توجهت الى الباب الخلفي المواجه لنا وطرقته وبعد قليل فتحت الباب سيدة انكليزية في أواسط العمر فقلت لها: أنا المسؤول العسكري عن هذا الحي ورجالي يقولون ان رصاصات أُطلقت عليهم من نافذة هذه البناية ــ واشرت الى النافذة ــ واخشى ان يكون اليهود دخلوا رغما عنكم، وطلبت ان تسمح لي بتفتيش النزل. فقالت: كسيدة انكليزية As an English Lady اقول لك انهم مخطئون، فهذا مسكن السيدات وليس فيه رجال، لا يهود ولا انكليز. فقلت: سأعتمد على صدقك. . بلغي تحيتي للرئيس ديكنز وقولي له ان يؤكد مرة ثانية على القنصل البريطاني أن يحذر اليهود من دخول بنايات الكاتدرائية لكي لا نضطر لاحتلالها او ان تصبح ساحة قتال. وارسلت دورية استطلاع في اتجاه ابواب مدرسة المطران المواجهة لليهود، وعدت مع قادة مجموعة مناضلي نابلس الى موقعهم، ثم توجهت الى الخط الامامي عند جامع سعد وسعيد حيث كنت أتوقع ان ينطلق الهجوم، وكان الوقت قبيل منتصف الليل بقليل.

ومع ان الجبهة كانت هادئة الا ان شعورا بالخطر انتابني فأرسلت رسولا الى مجموعة نابلس طالبا ارسال عشرة منهم لتعزيز موقع جامع سعد وسعيد. وبعد فترة عاد رسولي ليقول لي ان المجموعة أخلت موقعها ودخلت الى البلدة القديمة. فلم استغرب ذلك خصوصا أنهم غرباء عن الحي، وهذا هام جدا في قتال الشوارع بصفة خاصة.

اصطحبت معي تلميذي الشجاع محسن الوظائفي وحملنا مدفع مورتر ٢ انش، وتقدمنا الى آخر خندق اتصال في اتجاه بناية مندلبوم الحصينة وراقبنا الوضع فلم نلاحظ شيئا. وشرعت باطلاق قذائف المورتر في اتجاه بناية مندلبوم والخط الممتد قربها لأرى ردة الفعل، واذا بـي أُواجه بنيران حامية جدا، وبدأت المعركة. بدأ الهجوم الذي كنت اتوقع انطلاقه من هذه النقطة، انسحبت مع محسن الى أسوار حديقة دير الدومينيكان حيث كانت لي مواقع قوية، وأطلق اليهود قذائف المورتر على مواقعنا وخصوصا على هذا الموقع بكثافة شديدة لمدة تقرب من نصف ساعة، ثم تقدموا بالمشاة الى الابنية التي تفصل بعضنا عن بعض حتى وصلوا إلى أقرب بناية وهي المقابلة لجامع سعد وسعيد ــ التي شغلتها القنصلية الاميركية في الخمسينات ــ وبذلك اصبحوا على بعد ٢٠ مترا من اول مواقعنا. الحمد لله لقد جاؤوا من الاتجاه الذي توقعناه ولذلك لن يمروا..! واشتعلت المعركة بنيران الرشاشات والقنابل اليدوية، وكانت نيران رشاش البراوننغ المنطلقة من تل الكنت تصلي بناية القنصلية المذكورة وتمنع اي تقدم منها وتحمي موقعنا الامامي الذي ظل صامدا، ولم يتزحزح رجاله حتى الصباح. كما كانت نيران الرشاشات المنطلقة من موقع قصر نسيبة ومن استحكام على ارض الشارع امام مدرسة الاميركان تضرب بشدة البناية التي اصبحت تشغلها في الخمسينات جمعية الشبان المسيحية، والتي كان اليهود يحاولون الانطلاق منها الى ملاعب مدرسة المطران. كانت هذه المعركة اكبر معركة واجهتها قواتي في هذا القطاع، وواجه اليهود في هجومهم ١٢ رشاشا مركزا بشكل متساند وواجهوا ابطالا صامدين قائدهم بينهم صمموا على الموت، فتجمد الهجوم ولم يستطع اليهود التقدم خطوة واحدة. ومع ذلك يبدو انهم كانوا مصرين على التغلب علينا والوصول الى بوابة السور أي بوابة باب الساهرة لكي يدخلوا البلدة القديمة. لذلك ظلوا بين الفينة والفينة يصبون قذائف المورتر والراجمات ويتبعونها بنيران كثيفة من الرشاشات والقنابل اليدوية علّهم يستطيعون زحزحتنا. وساندتهم نيران الرشاشات الثقيلة التي اطلقت خلفنا من بنايات الجامعة العبرية والتي انصبت على موقعنا في اعلى تل الكنت حيث كنت ادير المعركة، واشارك فيها بنيران رشاش البرن. لكن نيران الجامعة العبرية لم تؤثر فينا لبعد المسافة ولكون خنادقنا في التل حصينة. وظلت نيراننا المنطلقة من هذا الموقع من رشاش البراوننغ ورشاشين من طراز برن تغطي الساحة مع نيران المواقع الاخرى.

بعد الفجر بقليل وبينما كنت في تل الكنت المذكور سمعنا صوت طلقة مدفع، فتوقفنا عن اطلاق النار، وتوقف اليهود ايضا. ورحنا نستجلي ما جرى. وجعلتنا طلقة مدفع ثانية وثالثة نزغرد. لقد شاهدنا مدرعة قادمة من الشمال في اعلى موقع في حي الشيخ جراح (التلة البيضاء) تطلق قذائفها على مواقع اليهود في حي الشيخ جراح المحتل. وظهرت في الافق مدرعة ثانية. اذن.. لقد جاءنا المدد، وقدرت ان الذي انجدنا هو جيش الانقاذ الذي احتل بالامس مستعمرة نفي يعقوب. وانسحب اليهود امامنا وتقدمنا على طول جبهة سعد

وسعيد والشيخ جراح نتصيد الهاربين منهم ونضغط على حي الشيخ جراح من الجنوب الذي يهاجمه القادمون من الشمال ونمنع وصول اية نجدة لمواقع اليهود في حي الشيخ جراح.

اقف هنا لأروي ما جرى في جبهة النبي داود والحي اليهودي في هذه الليلة الليلاء، وسأعود فيما بعد لذكر وقائع نهار الاربعاء ١٩ أيار/مايو ١٩٤٨.

ذكرت في ما سبق ان القائد الشجاع محمود الموسى قاد سرية من الجيش العربي ودخل معها الى مدينة القدس القديمة مساء الثلاثاء ١٩٤٨/٥/١٨. وكان دليله حافظ بركات قائد سرية البلدة القديمة التابعة لجيش الجهاد المقدس، وكانت سرية محمود الموسى تابعة لكتيبة يقودها وكيل القائد عبد الله التل.

اتجه حافظ بركات ومحمود الموسى ومعهما السرية نحو دير الارمن عن طريق قلعة باب الخليل. ولكنهم لم يستطيعوا دخول الدير من بابه الرئيسي لأن نيران اليهود المنطلقة من (جرسية) الالمان في حي النبي داود كانت تسيطر تماما على الطريق، فتوجهوا الى الجانب الشمالي من الدير واحضروا سلما ودخل عدد من الجنود مع حافظ بركات من نافذة احدى الغرف، ثم فتحوا بابا فرعيا دخلت منه السرية واستقبلهم بطريرك الارمن مرحبا ومشجعا، وتمركزت السرية في مدرسة الدير. كان موقع المدرسة هاما جدا يسيطر على مدخل بوابة السور من الداخل كما يسيطر على الحي اليهودي من هذه الناحية. شنَّ اليهود في هذه الليلة عدة هجمات من خارج السور ومن داخله لاقامة اتصال وثيق بالحي اليهودي وتزويده بالرجال والسلاح والمؤن، الا ان نيران سرية الجيش العربي ومناضلي جيش الجهاد المقدس حالت دون ذلك، مع ان عددا من المقاتلين اليهود يزيد على الخمسين تمكنوا في احدى الهجمات من الدخول الى الحي اليهودي. وظل اليهود طوال الليل يشنون الهجمات في هذا الموقع. وعند الصباح دارت معركة حامية للسيطرة على برج السور القائم فوق البوابة واستولى اليهود على البرج فترة قصيرة ثم طردهم الجيش العربي. وانتشر جنوده فوق السور واصبحوا يشرفون على حي النبي داود من جهة وعلى الحي اليهودي من جهة اخرى. وقد جرح في هذه المعارك خمسة من جنود الجيش العربي واستشهد اربعة، وكان محمود الموسى احد الجرحى حيث اصيب في رجله وذراعه وكتفه. وكان من الضباط الذين اشتركوا في المعركة الملازم اول نواف الجبر والملازم اول حسين مفلح الغرايبة والنائب عبد الحميد جويحان.

الأربعاء، ١٩٤٨/٥/١٩

لم يصمد اليهود للهجوم الذي شنه الجيش العربي على حي الشيخ جراح من الشمال ورجالي من الجنوب، فولوا هاربين الى الاحياء اليهودية المجاورة ــ سان هدريا وبيت يسرائيل ــ وظلت القوات القادمة من الشمال تطلق نيران مدافعها ورشاشاتها محاذرة التقدم

لاحتلال الحي الذي اصبح خاليا من العدو. لذلك ارسلت أحد رجالي الى قيادة جيش الجهاد المقدس ليرسل باللاسلكي رسالة الى جيش الانقاذ تقول: «انسحب اليهود من حي الشيخ جراح. اما ان تتقدموا، واما ان توقفوا النار لنتقدم نحن من الجنوب لتطهير الحي والاتصال بكم». ولما لم يصلني اي رد على البرقية قررت ان احاول الاتصال المباشر مع هذه القوات التي تبين انها من الجيش العربي الاردني، وان جيش الانقاذ كان في هذا اليوم يتهيأ بأكمله للانسحاب من فلسطين الى سوريا عن طريق شرق الاردن. وهذا ما تم في اليوم التالي بعد ان سلم مواقعه للجيش العراقي والجيش الاردني. ومنح الملك عبد الله قائد الجيش فوزي القاوقجي لقب باشا.

ركبت سيارتي المصفحة واصطحبت عددا من رجالي ورفعنا عليها علما عربيا وتقدمنا الى حي الشيخ جراح بسهولة حتى وصلنا الى المنعطف (الكوربة) الذي اقيم عنده فيما بعد فندق الامباسادور. ولم نكن انكشفنا بعد الى انظار الجيش العربي الذي كانت قنابله تتساقط هنا وهناك. وفي هذا الموقع سقطت قذيفة بالقرب من المصفحة اطارت جناحها، فتوقفت وقدرت ان الجيش سيضربنا بمجرد ان نظهر امامه بالمصفحة ولن يعير اهتماما لوجود العلم العربي عليها. ولذلك امرت بالعودة، فعدنا الى حي باب الساهرة سالمين. وامام مدرسة الاميركان كانت تقف الآنسة الفاضلة باسمة فارس مديرة المدرسة المأمونية وكانت تعتبرني وعددا من اصدقائي ابناءها، فدعتني لتناول طعام الافطار فقبلت الدعوة ونزلت من المصفحة وانا احمل رشاش البرن، والتقطت زهرة من حديقة المدرسة ووضعتها في فوهة الرشاش، وكلي شعور بالغبطة لكوني حافظت على قطاعي سالما ولم اسمح للعدو بدخوله ودخول البلدة القديمة من الابواب الشمالية، في الوقت الذي كان يهاجم فيه الباب الجنوبي ــ باب النبي داود ــ. فأحياء المصرارة وسعد وسعيد وباب الساهرة كلها ظلت بأيدينا ولم يكسب العدو منها شبرا واحدا. ولا ابالغ اذا قلت اننا في هذه اللحظة كنا نسيطر على اجزاء من الاحياء اليهودية المقابلة لقطاعي وخصوصا سكنة ام هارون.

وبعد الافطار ذهبت لكي انام قليلا بعد ان امضيت أكثر من ٢٤ ساعة متواصلة لم اذق فيها النوم. ونحو الساعة الواحدة بعد الظهر توجهت الى سيارتي المصفحة وفي ذهني تساؤل عن المعاملة التي سيعاملنا بها الجيش العربي، وكلي رغبة بأن تقوم بيننا علاقة تعاون ايجابية، فالعدو قوي، وأطماعه واسعة. ولما وصلت المصفحة رأيت مصفحة أخرى تقف الى جانبها من طراز حاملة برن GMC التي يستعملها الجيش العربي. فساورني الخوف، ثم تبين انها مصفحة حافظ بركات التي استولى عليها من الانكليز، قبل رحيلهم. وكان حافظ بركات قائد سرية البلدة القديمة رفيق نضالي ــ كما سبق ان ذكرت ــ وكانت ملامح الغبطة والسرور بادية على وجهه. فبادرني بالقول: «بالاضافة الى قوات الجيش العربي التي دخلت حي الشيخ جراح من الشمال صباح اليوم فقد دخل الجيش ايضا من الشرق ــ من طريق اريحا ــ وسمعنا

ان مدرعاته وصلت ساحة زيون في قلب الاحياء اليهودية، وقد أتيت اليك لنشترك معا بمصفحتينا في دخول الاحياء اليهودية لمساعدة الجيش في تطهيرها». واصطحبت نحو عشرة رجال في مصفحتي وتوجهنا نحو باب العمود. وتوقف حافظ بركات بمصفحته بالقرب من باب العمود حيث كانت تقف احدى مدرعات الجيش العربي مواجهة لبناية النوتردام ومدفعها مسدد نحوها. ونزلت من المصفحة وسرت نحو مدرعة الجيش وحييت من فيها فسألني عريف مشيرا الى بناية النوتردام: «لمين هالدار الكبيرة»؟ قلت: «انها للعرب وفيها جيش عربي»، ولم اكن ادري ان الجيش اضطر للانسحاب منها في ذلك اليوم. فقال: «يا زلمة حرقتنا حرق». وهنا صرخ عليَّ بعض الشبان من على سور المدينة: «استاذ بهجت! اليهود استرجعوا النوتردام! ادخل المصفحة». فقلت للعريف: اقصف الدار ففيها يهود، وعدت سريعا متسترا خلف مصفحتي. وبدأ المدفع يقصف النوتردام، وكان هذا يعني ان الجيش العربي لم يدخل الاحياء اليهودية وان الموقع الذي نحن فيه ــ ساحة باب العمود ــ هو أبعد نقطة وصلها الجيش حتى الآن.

تشاورت مع حافظ بركات واتفقنا على ان نتوجه الى حي الشيخ جراح الذي حرَّره الجيش العربي بأكمله وتوقف عنده، لكي نتعرف على قادته ونقدم لهم كل مساعدة ممكنة، ولنرى فيما اذا كان الجيش القادم من الشمال هو الذي دخل الأحياء اليهودية عن طريق ميئه شعاريم ــ المستشفى الايطالي ــ شارع يافا، كما اشيع. وسرت بمصفحتي في الامام وسار حافظ خلفي. وعندما وصلنا مفرق طرق عند عمارة الاوقاف يؤدي الى الأحياء اليهودية، وجدت الطريق مغلقا بعدة ألغام ضد الآليات لا بد ان اليهود وضعوها، وكانت ظاهرة للعيان ولم يحفروا لها في الارض ويمكن تفجيرها بسهولة بنيران الرشاشات. لكن وجود الالغام اكد لنا ان شائعة وصول الجيش الى قلب الاحياء اليهودية غير صحيحة. فاستأنفنا سيرنا نحو حي الشيخ جراح، ولما وصلنا الى قرب دار اسعاف النشاشيبي اطلق علينا الجيش المتستر خلف دار فخري النشاشيبي رشَقا من الرصاص، فتوقفنا في الحال ولم نجب على اطلاق النار. لكن حافظ بركات ورجاله ارتكبوا خطأ فاحشا حين اطلقوا صليات من نيران الرشاشات في الهواء واستداروا بالمصفحة وولوا هاربين. وواصل الجيش اطلاق الرصاص على مصفحتنا على الرغم من اننا كنا ثابتين على بعد ٣٠ مترا منهم واخذنا نصيح: نحن عرب! وأخذ عدد من رجالي الذين كانوا اتصلوا بالجيش يقفون الى جانب الجنود ويصيحون: «هؤلاء عرب! هذه مصفحة قائدنا! لا تطلقوا النار». وكان بينهم الجاويش المناضل مروَّح سعادة من مرتب قواتي في حي باب الساهرة وكان في تلك اللحظة يسقي الجنود ماء فأخذ يصرخ بانفعال: اوقفوا النار هذه مصفحة قائدنا!. ومن ناحيتنا حافظنا على عدم اطلاق النار مع ان رشاشاتنا كانت ظاهرة من فتحات المصفحة وصرخت على مروّح: «فهمهم يا مروّح انا بهجت في المصفحة»!! وفوجئت باطلاق قذيفة مدفع من مدرعة امامنا اصابت برج المصفحة وانزلقت فهزتها هزا عنيفا ولكنها

لم تدخل إلى داخلها والا هلكنا جميعا. وهنا اضطررت الى فتح باب المصفحة المواجه لليهود ونزلت رافعا منديلا ابيض وصرخت نحن عرب واذا لم تصدقونا اعتبرونا سلّمنا، فتوقف اطلاق النار وظهرت أمام الجنود، فصاح ضابط بالانكليزية (O.K.) تقدموا. وتقدمنا بالمصفحة وتحدثت مع الضابط وكان برتبة ميجر (رائد) عرفت فيما بعد أن اسمه سلايد وانه قائد الكتيبة الثانية من اللواء الثالث وكان هو المكلف بقيادة جميع القوة التي دخلت هذا اليوم الى حي الشيخ جراح. سألني: هل اصيب احد من رجالك؟ فقلت: لا. قال: نحن نتوقع هجوما يهوديا معاكسا، ورفع العلم العربي على مصفحتكم لا يكفي فقد يكون خدعة. وقلت: على كل حال كنا واقفين ثابتين ولم نطلق طلقة واحدة، وقد حاولت الاتصال بكم منذ الصباح فلم اتمكن وعدت الآن لأقول لكم انا قائد هذه الاحياء من شمالي القدس، وانا اعرض عليكم التعاون بالكامل في العمليات العسكرية. فقال: هل انت مستعد لاخذ موقع (post) لأربع وعشرين ساعة. قلت: نعم. فأشار الى دار المفتي ذات الموقع العسكري الهام والتي كان يشغلها الجيش البريطاني قبل رحيله عن القدس، وقال: اذهب الى تلك الدار واثبت فيها ٢٤ ساعة. وقبل ان اتحرك حدثني الجندي المسؤول عن مدفع المدرعة التي قصفتنا قائلا: اعطاني الميجر أمرا بتدمير المصفحة، لكنني تعمدت ان اصيب اعلى البرج فقط. فشكرته كثيرا لأنه كان صادقا. فمصفحتي لا تبعد عن مدفعه اكثر من ٣٠ مترا. واخذت رجالي الى دار المفتي واضفت اليهم من كان من رجالي في المكان قبل وصولي، ودخلنا دار المفتي التي هرب منها اليهود صباح اليوم بعد احتلال دام اربعة ايام. وكان علينا ان نتوخى اشد الحذر لأن الدار كانت مفخخة بعدد كبير من الالغام المتنوعة. فأبطلنا مفعولها وازلناها بحذر وكفاءة دون وقوع اي حادث.

رتبت حراساتي وارسلت في طلب المزيد من الرجال. فالموقع معرض للهجوم من ناحية الجامعة العبرية شرقا ومن الاحياء اليهودية غربا. وفي هذه الاثناء جاءني تلميذي المناضل محسن الوظائفي الذي كان يرافقني في المصفحة وقال لي انه تجول في الحي والتقى ضابطا من الكرك يعرفه جيدا واسمه محمد المعايطة وقال: «ما رأيك بأن أعرفك عليه»؟ ومحسن من مواليد الكرك مع أنه من عائلة نابلسية. فوافقت وذهبت وإياه الى الطريق العام بالقرب من ملعب كرة القدم (ملعب الشيخ جراح) حيث كان يقف محمد المعايطة بجانب مدرعته وامامه على الارض مدفع من عيار ٦ أرطال وهو مدفع مضاد للدروع. ومحمد المعايطة ضابط مدفعية كان المسؤول الثاني عن الحملة بعد سلايد. وبعد ان عرفت نفسي بأني قائد هذه الاحياء وخبير بها، وكان الجيش واليهود ما زالوا يتبادلون اطلاق النار وقنابل المورتر بشكل متقطع، قال لي: اذن دلني على موقع هذا الرشاش الذي ازعجنا اليهود بنيرانه لكي ندمره بالمدفع. فأشرت الى بيت معين فأطلق عليه طلقة مدفع اصابته، لكن الرشاش لم يدمر، فأشرت الى بيت آخر فضربه ولكن الرشاش ظل يطلق نيرانه على سيارات الجيش وهي تصعد المرتفع متجهة الى

رام الله او تهبط منه. ولكن الرشاش لا يطلق نيرانه على الموقع الذي نحن فيه. وكان ذلك يعني اننا من مكاننا لا يمكن ان نحدد موقعه المنخفض عن مستوى موقعنا ونظرنا. فقلت لمحمد المعايطة: لن نستطيع من موقعنا ان نشاهد مواقع اليهود جيدا أو أن نسيطر عليها، ولذلك علينا ان نحتل المرتفع الواقع الى الشرق منا (التلة الفرنسية) والبناية الكبيرة الواقعة الى الغرب منا (مدرسة البوليس) التي شغلتها وكالة الغوث فيما بعد فقال: لا استطيع احتلال التلة الفرنسية لأنها قريبة من مستشفى هداسا الذي منعتنا القيادة من التعرض له، بالرغم من انه اطلق النار علينا، ولما قذفناه ببعض القنابل جاءتنا تعليمات مشددة من قيادة الفرقة. فقلت: اذن علينا ان نحتل مدرسة البوليس فموقعها هام جدا يسيطر على الاحياء اليهودية المواجهة واعتقد انها خالية، فقد شاهدت اليهود يهربون منها في الصباح. فقال: ان عدد جنودي المشاة قليل واغلبهم من البدو واخشى ان تكون بناية مدرسة البوليس ملغومة وجنودي يجهلون التعامل مع الالغام. وهنا مرت سيارة اسعاف مسرعة باتجاه رام الله فسأل محمد سائقها: من معك. فقال: جُرح الميـجر سلايد، وكان ذلك يعني ان يتولى محمد المعايطة قيادة الحملة بصفته الأعلى رتبة بين الضباط الموجودين. وقال لي المعايطة: لماذا لا تحتل انت ورجالك مدرسة البوليس. فقلت: لقد وضعت رجالي في دار المفتي بناء على رغبة سلايد ولكنني مستعد ان استطلع مدرسة البوليس مع هذا العدد القليل وكلي اعتقاد انها خالية. وان كانت بها ألغام فيمكننا ازالتها لكي يتقدم الجيش ويدخلها. فقال: حسنا! اذهب وانا سأصعد بالمصفحة الى مكان مرتفع واراقبكم.

إصابتي الخامسة

لم يكن معي في تلك اللحظة سوى اربعة رجال وهم الجاويش الشجاع الشهيد مروّح سعادة، وكان عسكريا تدرب في قوة حدود شرق الاردن، والمناضل الشهيد اسماعيل الشرباتي وكان يحمل رشاش برن، وتلميذي المناضل محسن الوظائفي وكان يحمل رشاش ستن وشاب من عائلة البشيتي لا اتذكر اسمه يحمل بندقية. تقدمنا في ملعب الشيخ جراح متسترين بجدار الملعب. وعند نهايته خرجنا الى الطريق المؤدي الى مدخل البناية الرئيسي، وما كدنا نقترب من المدخل حتى اطلقت علينا، من أمامنا او من يسارنا، نيران رشاش سباندو بغزارة شديدة وكدنا نقتل جميعا لولا اننا كنا نتقدم زحفا. فعدنا الى الملعب نتستر بجداره ولم نعرف مصدر نيران الرشاش. ولكن على الأرجح انها لم تنطلق من بناية مدرسة البوليس. كان علي في هذه المرحلة ان احضر المصفحة ولكنني كنت متأكدا ان البناية خالية، ولذا رأيت ان نلتف عليها من جانبها الشمالي الغربي حيث يوجد حرج كثيف. فاتجهنا شمالا صاعدين المرتفع ووصلنا الى الحرج واعترضنا سور من الاسلاك الشائكة عرضه اكثر من متر. وكنت انا ومروّح في المقدمة. فوقفت اتمعن في الاسلاك أبحث عن مكان مناسب لاجتيازها، وفي هذه اللحظة اطلقت علينا نيران غزيرة من رشاش من اتجاه قريب من مدرسة

البوليس ربما كان الرشاش نفسه الذي صدنا عند الباب. الا انه في هذه المرة اصابنا. سقطت على الأرض بعد ان أصبت اصابتي الخامسة، بل قل السادسة والسابعة والثامنة، حيث انني اصبت بأربع رصاصات واحدة في ساقي اليمنى واخرى في ساقي اليسرى، وفي جنبي الايسر عند الحوض وفي ذراعي اليسرى التي كسرت فورا بعد ان اخترقتها الرصاصة. كما اصابت رصاصة خوذتي الفولاذية، وخرقتها دون ان تصيب رأسي. وسقط الى جانبي الشهيد مروّح سعادة الذي اصيب برصاصة واحدة قاتلة في رأسه. وصاح تلميذي محسن الذي كان بعيدا عني الى الخلف: ماذا جرى، ماذا جرى؟ وجاء راكضا فقلت: انبطح أرضا، لقد اصبت، قال: اين. قلت: كلي جراح، ولكنني بخير، فلطم رأسه، فقلت: اهدأ، اذهب حالا وأحضر سيارة اسعاف من عند الجيش. فرمى سلاحه بعصبية وذهب راكضا. فقلت لاسماعيل الشرباتي: خذ سلاح محسن وسلاح مروّح وانسحب، فحملهما بالاضافة الى رشاش البرن وانسحب. وبقيت وحدي والى جانبي الشهيد البطل الذي لم ينبس ببنت شفة وهو الذي خاض الى جانبي عدة معارك بشجاعة نادرة. ولذا عزَّ عليَّ استشهاده، ولكن هذه هي الحرب وعلي ان اعتني بنفسي. كانت آلامي شديدة ودمائي تتدفق بغزارة من جراحي الاربعة، ولكنني كنت في كامل وعيي وهدوء اعصابي، فأخذت اغلق جراحي بملابسي واربط عليها لأخفف من النزيف. والتقطت عن الارض بعض الاخشاب لاجبر بها يدي المكسورة. وتأخر وصول سيارة الاسعاف، وقدرت انها لن تخاطر في الوصول الى هذا المكان المكشوف لنيران العدو. فانبطحت على وجهي واخذت أزحف، وبعد ان قطعت نحو ٦٠ مترا وصلت ملعب الشيخ جراح. وهنا وصلت سيارة الاسعاف ومعها محسن، وحملت الى السيارة وتقدم رجال الاسعاف بحذر واحضروا جثمان الشهيد مروّح، وانطلقت بنا السيارة الى رام الله.

وفي رام الله ادخلت الى مركز اسعاف شعبي اقامته سيدات رام الله وفيه طبيب، كان يعمل في سجن القدس المركزي أظن ان اسمه سليمان سعيد وكان يعرفني. فخاط جروحي وضمدها، واستغرقه ذلك وقتا طويلا، حضر في اثنائه من القدس اخي نهاد، فوقف ينظر الي حزينا، ومستغربا لكوني اضحك وألقي النكات، فقال لي ثائرا: انت تضحك لانك لا ترى الجرح الخطير خلف ساقك اليمنى! وكان بالفعل جرحا بليغا جدا مزَّق فخذي الايمن فوق الركبة بقليل، وكل من رآه في ذلك اليوم قال انه سيؤثر علي بشكل خطير، وعلى الاقل، يجب بتر ساقي من فوق الركبة. ضحكت من تساؤل اخي نهاد وقلت: نحن في حرب وماذا لو قطعت ساقي. . يا سيدي يقطعوها.

مذبحة قرية ابو شوشة

في هذه الأثناء وفي مركز الاسعاف هذا الذي يتألف من قاعة واحدة، كانت بمثابة غرفة عمليات وعنبر للجرحى في الوقت نفسه، كان الجرحى يتوافدون بكثرة، بينهم طبيب انفجر

لغم في سيارته وبترت ساقه في هذا المركز المرتجل بجانب سريري، ولا ادري إن كان عاش ام مات اثناء العملية، كان يصرخ: «اسقوني! اسقوني! مورفين من فضلكم». وكان الطبيب سليمان سعيد يصيح «هاتوا المنشار استعجلوا».

وكان بين الجرحى ثلاث نساء من قرية ابو شوشة الواقعة في السهل على طريق يافا ــ القدس بالقرب من موقع باب الواد. كانت جراحهن منتنة متعفنة، وتصدر عنها روائح كريهة. ومعهن بعض اقاربهن الذين رووا لي كيف احتل اليهود قريتهم. ولانها رواية هامة ولها مغزى هام ادونها فيما يلي. قالوا: في ١٦ ايار/ مايو ١٩٤٨ اجتمع مختار القرية وكبار رجالها واستعرضوا وضعهم وتشاوروا فيما يجب عليهم ان يقوموا به. لم تكن وصلت الى قريتهم او الى جوارها قوة من الجيوش العربية لتدافع عنهم اذا هاجم اليهود قريتهم، ولم تكن لديهم اسلحة تمكنهم من الدفاع، فهل عليهم ان يرحلوا قبل ان يذبحهم اليهود كما فعلوا في دير ياسين! وبعد التشاور استقر رأيهم على ان يبقوا في القرية مهما كانت النتائج، وان يذهب المختار مع بعض الشيوخ الى المستعمرة اليهودية المجاورة لقريتهم، وان يجتمعوا بمختارها الذي يعرفهم ويعرفونه وان يقولوا له: نحن مسالمون!! واذا جاء جيش يهودي الى القرية فلن نقاومه، كل ما نريده ان لا يطردنا من قريتنا، وان لا يعتدي أحد علينا. وذهب المختار اليهودي الى مسؤولين عسكريين وعاد يقول: لقد وافق الجيش على جميع طلباتكم وعليكم الأمان.

ودخل جيش الهاغاناه قرية أبو شوشة بدون مقاومة، وظل جميع سكان القرية في بيوتهم. وبعد يومين وصلت قوة اضافية من الهاغاناه، وأمر قادتها جميع سكان القرية صغارا وكبارا، اطفالا ونساء، ان يتجمعوا في ساحة القرية، مهددين كل من يبقى في بيته بالقتل!! واحتشد جميع سكان القرية في الساحة المعينة، وكانت مطوقة بالجند وقد نصبت على الأسطح المحيطة بها رشاشات مسددة الى صدور سكان القرية العزَّل.

وقف قائد عالي الرتبة خطيبا وألقى فيهم خطبة جاء فيها: هذه الأرض ارض اسرائيل!! سرقها اجدادكم اللصوص من اجدادنا. واليوم عادت الارض الى أصحابها!! لن نطالبكم بتعويض عن فترة سرقتكم لها!! ولكن عليكم جميعا ان تخرجوا من هذه الارض والطريق من هنا. واشار الى جبال قضاء رام الله. وفي الوقت نفسه فتحت الرشاشات نيرانها، بعضها في الهواء وبعضها في اجساد اهل القرية، وفر الناس هاربين وظل الرصاص يلاحقهم الى مسافة تزيد على خمسة كيلو مترات، والشهداء والجرحى يتساقطون بشكل مأساوي تقشعر له الأبدان. وبعد ان جنَّ الليل وتوقف اطلاق النار عاد بعض من سلم من أهل القرية متسللين يتفقدون اقاربهم ليدفنوا من مات ان امكن، ولينقلوا الجرحى. . والجريحات الثلاث اللواتي احضرن الى العيادة كان مضى عليهن يومان قبل ان يجدهن اقاربهن وقد تعفنت جروحهن.

في مستشفى الميدان

في الليل نقلت الى مستشفى ميداني للجيش العربي الاردني بالقرب من مدينة رام الله. ولا ادري من الذي قام بترتيبات انتقالي. كان المستشفى عبارة عن خيام غير ان تجهيزاته جيدة، ففيه أطباء وممرضون بعدد كاف وفيه اسرة وتجهيزات حديثة منها مثلا جهاز تصوير كهربائي يعطي الصورة فورا. كانت جروحي تؤلمني جدا دون ان يبدر مني ما يشير الى ذلك. وعندما تفقدني طبيب عسكري وسألني عن حالتي قلت له: الحمد لله انا بخير، ولكن الجرح الذي في جنبي الايسر يؤلمني جدا واعتقد ان فيه شظايا كثيرة وان الطبيب اغلقه قبل ان يستخرج منه الشظايا، فقال: غدا نقوم بتصويره.

لم اذق طعم النوم في هذه الليلة لشدة الألم، ولأن بعض الجنود الجرحى يئنون ويصرخون من الألم. وفي الصباح التقطت لي صورة كهربائية تبين منها ان ذراعي اليسرى مكسورة وان اصابتي في جنبي اغلقت على شظايا عديدة. وعلى اساس ذلك جرى تجبير ذراعي، وفتح الجرح الذي في جنبي واستخرجت منه بعض الشظايا. لكن الصورة الكهربائية كانت تدل على وجود عدد كبير من الشظايا بعضها قريب من السطح وبعضها عميق. وسر هذا الجرح ان الرصاصة التي اصابتني في هذا الموضع اصطدمت، لحسن حظي، بمسدسي الكبير الذي كنت احمله (مسدس ماوزر ــ منشن) وتحطمت الرصاصة الى عشرات الاجزاء وانزلقت عن المسدس وانتشرت في فخذي، ولولا اصطدامها بالمسدس لحطمت عظام الحوض بشكل خطير جدا. وعلى كل حال ظل هذا الجرح مفتوحا اكثر من سنة قبل ان يندمل وخرج منه عدد من الشظايا وقطع صغيرة من الجلد والمخمل من جلد بيت المسدس وبطانته المخملية، وما زالت بعض الشظايا باقية الى اليوم.

في المستشفى الوطني بنابلس

بعد ظهر ٢٠ ايار/مايو ١٩٤٨ نقلت في سيارة إسعاف عسكرية مع بعض الجرحى الى المستشفى الوطني في نابلس، ورافقني تلميذي المناضل محسن الوظائفي، وادخلت الى غرفة خاصة. وعرفت ان في الغرفة المجاورة المحامي انور نسيبة سكرتير اللجنة القومية لمدينة القدس. ولم اكن أعلم انه جرح. ولما سألت قيل لي انه في ١٨ ايار/مايو ١٩٤٨ كان عائدا من عمان مع وفد مقدسي وكان أخي نهاد بين أعضائه، قابل الملك عبد الله ليستحثه على سرعة ارسال الجيش العربي الى القدس. ولما وصل الوفد الى رام الله، قيل لهم ان الجيش العربي دخل القدس، فتوجهوا فورا من رام الله الى القدس. وعندما وصلوا قرية شعفاط توقفوا لانهم لم يشاهدوا اية قوات عسكرية ولان تبادل اطلاق النار في احياء القدس الشمالية كان شديدا جدا فقرروا العودة الى رام الله. وفي هذه اللحظة اكتسحتهم صلية من الرصاص

منطلقة من حي سان هدريا اليهودي البعيد عنهم فأصيب انور نسيبة برصاصة في فخذه خلف الركبة، فنقل الى رام الله ومنها الى المستشفى الوطني بنابلس حيث استخرجت الرصاصة. ولكن لسوء الحظ، قطعت الرصاصة الشريان الرئيسي الذي يغذي الساق ولم يستطع الأطباء، طوال يومين، ايقاف النزيف مما اضطرهم فيما بعد الى بتر ساقه فوق الركبة.

عندما استقر بـي المقام في المستشفى، أمضيت تلك الليلة ساهرا وحدي، ليس بسبب آلامي بل بسبب الحالة النفسية التي انتابتني. فقد هاجمتني هواجس متناقضة، فمن ناحية شعرت بكل اسف أنني لم أعد اصلح للقتال بعد هذه الاصابات الاربـع. فيدي اليسرى مكسورة، وكما قال الاطباء تحتاج الى شهر حتى تجبر، وفخذي ممزقة والجرح مفتوح، وساقاي من خلف الركبة مذبوحتان كأنهما قطعتا بسكين. ولا استطيع الحراك في السرير، وبطبيعة الحال لا استطيـع الوقوف او المشي. اذن، وكما سميتها، هذه ضربة قاضية (Knock - out) اخرجتني من ساحة القتال في اللحظة التي كنت انتظرها لنتحول من الدفاع الى الهجوم. ومن الناحية الاخرى كان يعزيني انني صمدت مع رجالي حتى دخول الجيوش العربية ولم يستطع الاعداء الاستيلاء على شبر من قطاعي في شمالي القدس، بل العكس هو الصحيـح، كما سبق ان اشرت. ولكن ما فائدة ان يسلم قطاعي وتسقط جميـع احياء القدس خارج سور المدينة. يضاف الى ذلك ان ساحل فلسطين من يافا حتى حدود لبنان شمالا قد سقط، بل سقطت الناصرة وبيسان وطبريا وصفد في الداخل!! واتساءل: ماذا يمكن ان تعمل الجيوش العربية التي دخلت فلسطين وهل ستصمد الدولة اليهودية التي أعلنها الصهيونيون.

في اليوم التالي، ٢١ ايار / مايو، زارني في المستشفى بعض رجالي المناضلين في القدس، واخبروني أن الجيش العربـي الاردني دخل الى قطاعي في احياء باب الساهرة والمصرارة وسعد وسعيد، وانه عندما تمركز في المصرارة وسعد وسعيد ترك مسافة كبيرة بينه وبين اليهود كمنطقة حرام، لكن رجالي المناضلين أصروا على الاحتفاظ بمواقعهم الامامية والمرابطة فيها، الى ان قتل احدهم خطأ على يد الجيش الاردني وهو عائد من استحكامه الى المؤخرة. فساءني ذلك وقلت لرجالي انه لا يجوز ان يبقوا في استحكاماتهم الامامية لاحتمال تكرر الخطأ، واحتمال تعرضهم لقصف مدفعي من الجيش الاردني كلما احتدم تبادل اطلاق النار. وطلبت ان تدخل حامية المصرارة وسعد وسعيد الى داخل السور وان تساند من هناك حامية حي باب الساهرة التي اصبحت مواقعها خلف خطوط الجيش العربـي الاردني، كما اكدت عليهم ضرورة التعاون مع الجيش الاردني في القتال.

خبر آخر سيىء نقله لي رجالي اليوم وهو اصابة المناضل ابراهيم ابو دية بجرح خطير في العمود الفقري سبب له شللا نصفيا، وانه الآن طريـح الفراش في المستشفى الفرنسي في بيت لحم. وقد اصيب وهو يقود رجاله بالتعاون مع قوات تابعة للجيش المصري في هجوم مركز على مستعمرة رامات راحيل جنوبـي القدس يوم ٢٠ ايار / مايو. ومع ان الهجوم كان



أنقاض منزل في حي سعد وسعيد (أيار / مايو ١٩٤٨)



أنقاض حي المصرارة (أيار / مايو ١٩٤٨)

جريئا تمكن فيه العرب من احتلال المستعمرة، الا ان اليهود استردوها في الليل بعد ان شنوا هجوما مركزا. بل واكثر من ذلك احتل اليهود دير مار الياس الى الجنوب على طريق القدس ــ بيت لحم.

في اليوم التالي، ٢٢ ايار / مايو، اغارت طائرات يهودية على منطقة نابلس، وجاء من يحملني من غرفتي الى طبقة سفلية، فأبيت، مع ان غرفتي في اعلى طبقة وسقفها من القرميد، حتى الحجر يمكن ان يخترقها اذا سقط عليها. ونقل جميع المرضى والجرحى بمن فيهم جاري انور نسيبة الى الطبقات السفلية وبقيت وحدي اتابع من شباك قريب جدا من سريري غارات طائرتين تقصفان المدينة بقنابل ثقيلة سقطت احداها على مستشفى جيش الانقاذ القريب، الذي كان اقامه المجاهد الدكتور امين رويحة. ولم تلبث ان سقطت قنبلة على مطابخ المستشفى الوطني واشعلت حريقا. وسقطت قنبلة ثالثة على بعد امتار من نافذة غرفتي، ولكن الله سلم، وانتهت الغارة. وكان الملفت للنظر ان الطائرتين اليهوديتين لم تُواجَها بمقاومة ارضية من اي نوع وظلتا تحلقان فوق المدينة جيئة وذهابا اكثر من ربع ساعة. وبعد فترة قصيرة بدأ توارد الجرحى إلى المستشفى.

وكان الملفت ايضا ان الطائرتين وقنابلها ليست من النوع الذي شاهدته في معركة القسطل. فالطائرتان اكبر حجما بكثير وقنابلها حربية وليست من صنع محلي.

بعد ظهر هذا اليوم، فوجئت بسيدة تلبس السواد تقف بباب غرفتي المفتوح وتقول: انت القائد المغربي؟ استنتجت فورا انها زوجة الشهيد مروّح سعادة، فقلت: نعم. قالت: انا زوجة الشهيد مروح. قلت: عليه رحمة الله لقد كان بطلا مقداما. قالت: يا ريت مروًح زيًك، قلت: يا ريتني انا شهيد زيّه فهذا ما قدره الله، لقد اصيب بطلقة واحدة وانا اصبت بأربع ...ات من نفس صلية الرشاش، وقدر الله له ان يستشهد.

بدأت جيوش الدول العربية تدخل فلسطين في ١٥ أيار / مايو ١٩٤٨، ومع ان جنود هذه الجيوش وضباطها كانوا متحمسين لانقاذ فلسطين وشعبها من براثن الصهيونية، الا ان تصرف الجيوش كان خاضعا لعدة اعتبارات سياسية وعسكرية وواقعية تحكمت في حركاتها العسكرية على أرض فلسطين وحددت نتائج هذه الحركة التي كانت محصلتها:

١ ـ استيلاء اليهود على ٧٧٪ من ارض فلسطين مع ان الجزء المخصص للدولة اليهودية بموجب قرار التقسيم يساوي ٥٦٪.

٢ ـ تشريد ٩٠٠ الف فلسطيني وتجريدهم من ممتلكاتهم وتحويلهم الى لاجئين.

٣ ـ قيام الدولة اليهودية.

من الناحية السياسية

كان لكل طرف من الأطراف ذات العلاقة بحرب فلسطين أهداف خاصة:

فالولايات المتحدة الأميركية التي كانت تعمل منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية على ان ترث الاستعمار القديم الانكليزي والفرنسي وغيرهما في جميع العالم وبخاصة في منطقة المشرق العربي، كانت تؤيد الحركة الصهيونية بشكل سافر متحيز وفعال، وتقدم كل ما يلزم من مساعدات عسكرية ومادية وسياسية لضمان قيام دولة اسرائيل على اوسع رقعة من فلسطين بغض النظر عن الحدود التي رسمتها قرارات الأمم المتحدة، هادفة من وراء ذلك إلى ان تصبح هذه الدولة قاعدة تضمن لها الهيمنة والسيطرة على المشرق العربي ومقدراته. وكانت انكلترا تسعى للاحتفاظ بنفوذها في البلاد العربية، ولذلك فانها عملت على مساعدة اليهود بكل الوسائل للاستيلاء على المنطقة التي خصصت لهم بموجب قرار التقسيم وتسليمها لهم قبل مغادرة جيوشها أرض فلسطين، ومنعت أي تجاوز يمكن أن يقوم به العرب. حتى ان المستر بيفن وزير خارجية بريطانيا أعلن امام البرلمان البريطاني ان الجيش العربي الأردني لن يتعدى حدود التقسيم. وفي الوقت نفسه، كانت تتخذ جميع الترتيبات لضم القسم المخصص للعرب من فلسطين الى دولة شرق الأردن التي كانت خاضعة خضوعا تاما للنفوذ البريطاني ذاته، والتي يساندها العراق الخاضع أيضا للنفوذ البريطاني ذاته، والذي يمكن للجيش العراقي ان يساعد الجيش الأردني على تحقيق هذا الغرض. ومما يؤكد ذلك

ما سبق ان اشرنا اليه من اتصال غلوب باشا قائد الجيش الأردني بقيادة الهاغاناه للاتفاق على تنفيذ التقسيم. كما يؤكد ذلك الاتفاق السري الذي جرى في لندن في شباط / فبراير ١٩٤٨ بين توفيق ابو الهدى رئيس وزراء شرق الأردن وارنست بيفن وزير خارجية بريطانيا بحضور غلوب باشا، والذي نص على ان يدخل الجيش الأردني الى فلسطين في ١٥ أيار / مايو ويحتل القسم العربي ويضمه الى شرق الأردن من دون ان يشتبك مع اليهود ومن دون ان يحتل شبرا واحدا من القسم المخصص لليهود بموجب قرار التقسيم. كما تعهد توفيق ابو الهدى ان لا يقوم بأي خطوة في هذا السبيل الا بعد التشاور مع بريطانيا واخذ موافقتها.*

أما جامعة الدول العربية فقد ذكرنا سابقا ان دولها كانت، على وجه الاجمال، خاضعة للنفوذ البريطاني والأميركي. وكان السياسي البريطاني كلايتون يحضر المؤتمرات الخاصة بفلسطين ويشارك في صوغ قراراتها. وكان من الطبيعي ان ينعكس الصراع بين اميركا وانكلترا على العلاقات بين الحكومات العربية الدائرة في فلكهما. فبينما كانت حكومتا شرق الأردن والعراق خاضعتين للنفوذ البريطاني كانت حكومتا السعودية ومصر تابعتين للنفوذ الأميركي، ولهذا ساد التنافر هذه الدول. وكانت قرارات جامعة الدول العربية التي اتخذت في مؤتمرات أنشاص وبلودان وصوفر وغيرها، مضللة وذات وجهين: فمن ناحية ظاهرية كانت تنادي بعروبة فلسطين ورفض قرار التقسيم وتؤكد على الدفاع عن فلسطين عسكريا، وتنادي بتدريب الفلسطينيين وتسليحهم، وتتخذ القرارات السرية لتنفيذ ذلك مستجيبة لموقف الجماهير العربية. ومن الناحية الأخرى كان حكام الدول العربية وبخاصة الأردن والعراق موافقين على قرار التقسيم ويتشاورون مع الدول الاستعمارية ومع اليهود أنفسهم لتنفيذ ذلك القرار. كما كانوا لا يلتزمون تنفيذ القرارات العسكرية والمالية العربية فتظل حبرا على ورق، بل اكثر من ذلك عرقلوا تنظيم المقاتلين وتسليحهم.

ولتغطية ذلك اطلقوا التصريحات الطنّانة المضللة للجماهير. فهذا عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية يخطب في جموع طلبة الجامعة والمعاهد الأخرى بالقاهرة يوم ١٩٤٧/١٢/٢ قائلا: «أيها الشباب انكم تنادون بأنكم تريدون سلاحا، واني اقول لكم انكم ستجدون السلاح وستشكل فرق للمتطوعين لمن يريد التطوع وسنفتح المجال للتدريب والتسليح. نحن أمة اذا بدأنا الكفاح لا ننظر الى متى ينتهي. سنبدأه ولن ينتهي الا بالنصر الحاسم». وقنصل المملكة السعودية في القدس يخطب في جماهير المتظاهرين الغفيرة يوم ١٩٤٧/١١/٣٠ احتجاجا على قرار تقسيم فلسطين، قائلا: «لقد ابلغتني حكومتي رسميا ان جلالة الملك قرر وقف تصدير البترول الى الدول الاستعمارية**. والملك عبد الله يقول لوفد

* غلوب باشا، «جندي مع العرب» (الطبعة الانكليزية)، (لندن، ١٩٥٧)، ص ٦٣ — ٦٦.

** كنت حاضرا وسمعت ذلك بأذني وهو غير صحيح.

اللجنة القومية لمدينة القدس الذي جاء عمان يوم ٢٤ نيسان / ابريل ١٩٤٨ ليستحثه أن يرسل الجيش الأردني الى القدس: «اذا قبلت العراق وقبلت الدول العربية الأخرى خوض معركة فلسطين خضناها وانا بحول الله **لقادرون على طرد اليهود في مدة لا تزيد على عشرة ايام.** أما اذا اعتذرت هذه الدول بحجة الالتزامات التي تربطها بهيئة الأمم فاني مستعد لخوض المعركة وحدي مستعينا بالله عز وجل [. . . . .] أنا لا أريد حصر جيشي في اسوار القدس، انا أريد ان اقطع رأس الحية في تل ابيب».

أما القيادة الفلسطينية التي كانت تتمتع بتأييد جماهيري واسع ممثلة بالهيئة العربية العليا برئاسة الحاج أمين الحسيني وبحزب الدفاع برئاسة راغب النشاشيبي، فقد فقدت وزنها في مواجهة جامعة الدول العربية التي فرضت وصايتها على القضية الفلسطينية دون ان تقوم بما تستلزمه هذه الوصاية من جهد. ولم يكن في يد الهيئة العربية العليا ما يمكنها من التصرف خارج قرارات جامعة الدول العربية سوى جيش الجهاد المقدس الذي منع عنه السلاح والعتاد، والذي فقد الكثير من فاعليته بعد استشهاد قائده عبد القادر الحسيني. ولا بد من الاشارة هنا الى ان الهيئة العربية العليا كانت حلتها حكومة الانتداب منذ سنة ١٩٣٧ واعتقلت ونفت عددا من اعضائها وتشرد الباقون بمن فيهم الحاج امين الحسيني الذي ظل خارج فلسطين منذ سنة ١٩٣٧، ثم جاء إلى مصر في ١٩٤٦/٦/١٩ حيث بدأ يمارس نشاطه بصعوبة لمعارضة الانكليز في ذلك. كما أشير الى ان حزب الدفاع تعاون مع الملك عبد الله ووافق على قرار التقسيم دون ان يعلن ذلك، الأمر الذي أوجد انقساما في الصف الفلسطيني كانت له آثار ضارة على الناحية العسكرية. ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما وقع في يافا من خلافات بين المناضلين الذين كان يقودهم الشيخ حسن سلامة الموالي للحاج امين والمناضلين الذين نظمهم وسلحهم الدكتور يوسف هيكل رئيس بلدية يافا المتعاون مع الأردن.

وفي ضوء جميع ما تقدم نقول: ان الوضع السياسي العربي عند دخول الجيوش العربية الى فلسطين في ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨ كان سببا من أسباب شل الفاعلية العسكرية العربية في الحرب، مما ادى كما قلت الى استيلاء اليهود على ٧٧ ٪ من ارض فلسطين اثناء وجود الجيوش العربية فيها، مع انهم لم يكونوا يسيطرون الّا على ٢٢ ٪ من ارض فلسطين قبل دخول الجيوش العربية.

من الناحية العسكرية

كانت جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٨ تضم سبع دول. وكان المفروض لتنفيذ قرارات الجامعة ان تشارك جيوش هذه الدول في انقاذ فلسطين والحيلولة دون قيام دولة اسرائيل. وكان يمكن لهذه الجيوش من الناحية العسكرية المجردة ان تقوم بذلك لو أنها:

١ ــ وحدت قيادتها،
٢ ــ خاضت الحرب وفقا لخطة موحدة،
٣ ــ أدخلت عددا كافيا من جنودها منذ بداية الحرب اي نحو ٤٠ الف رجل،
٤ ــ لو أنها استخدمت اسلحتها المتفوقة على سلاح اليهود وبخاصة سلاح المدفعية وسلاح الجو،
٥ ــ لو أنها زودت جيوشها بكميات كافية من الذخائر.

إلا ان ما حصل كان خلاف ذلك، فقد كانت سياسة دخول الجيوش العربية حجما وتسليحا وكيفية مقيدة بما ارتأته بريطانيا واوضحته لدول الجامعة العربية.

دخلت القوات العربية الى فلسطين في ١٩٤٨/٥/١٥ بأجزاء صغيرة من جيوشها ثم تزايدت بعد اعلان الهدنة الثانية. ففي الفترة الأولى من القتال والتي جرت فيها معارك هامة، وحتى قيام الهدنة الأولى في ١٩٤٨/٦/١١ كانت قوات الجيوش العربية التي دخلت الى فلسطين كما يلي: ٥٠٠٠ مصري يضاف اليهم ١٠٠٠ متطوع من مصر والسودان وليبيا وتونس، كما ألحقت قوة صغيرة من الجيش السعودي بالقوات المصرية. ودخل من الجيش الأردني ٣٠٠٠ ومن الجيش العراقي ١٥٠٠ ومن الجيش السوري ١٥٠٠ يضاف الى ذلك جيش الانقاذ. وبذلك يكون مجموع هذه القوات اقل من ٢٠٠٠٠ وأصبح بعد الهدنة الثانية نحو ٤٧٠٠٠ رجل مع ان قوات هذه الدول مجتمعة كانت لا تقل عن ١٠٠٠٠٠ رجل.

أما قوات اليهود في هذه الفترة فقد تفاوتت أرقام تقديرها، فبينما يقول بن ــ غوريون ان قوات اليهود يوم ١٩٤٨/٥/١٥ بلغت ٢٩٩٠٠ جندي تقول عدة مراجع أنها بلغت ٦٧٠٠٠ بمن فيهم ٢٠٠٠ متطوع من الأجانب معظمهم أميركيون مؤهلون عسكريا وخصوصا من الطيارين. وفي رأيي ان الفارق بين الرقمين ناتج عن ان بن ــ غوريون لم يدخل في تقديره تشكيلات حرس المستعمرات والشبيبة وغيرها من القوات شبه النظامية. وعلى كل حال فان القائد اليهودي يغئيل يادين قال في ١٢ أيار/ مايو ١٩٤٨ «فلنكن صادقين في قولنا، ان العرب يتفوقون علينا كثيرا اذا دخلت قواتهم كلها الحرب ضدنا».

ولا بد لي هنا من ذكر بعض التفاصيل، فحكومة مصر وقادة جيشها لم يكونوا راغبين في الاشتراك في حرب فلسطين وكانوا يريدون ان يكتفوا بارسال المتطوعين والأسلحة. ولم تبلغ قيادة الجيش المصري بقرار الحكومة بالاشتراك في الحرب الا في ١٥ أيار/ مايو؛ هذا القرار الذي اتخذ تحت ضغط الرأي العام المصري والبرلماني والجامعة العربية والملك فاروق. ولذلك كان تحرك الجيش المصري الى فلسطين مفاجئا ومرتجلا ومرتبكا، وبأعداد صغيرة. وكان عليه ان يتقدم بسرعة ليغطي المنطقة العربية من جنوب فلسطين، وان يخلف خلفه، بعد ان وصل الى خط اسدود ــ عراق سويدان ــ الفالوجة ــ عراق المنشية ــ بيت جبرين، الذي توقف عنده، ٢٨ مستعمرة يهودية محصنة حاول احتلالها فاستعصى عليه ذلك بسبب قلة العدد، فتجاوزها،

الأمر الذي مكن هذه المستعمرات فيما بعد من طعن الجيش المصري في ظهره وشل مواصلاته وتقطيع أوصاله، مع ان عدد الجيش المصري في فلسطين ارتفع في أواخر سنة ١٩٤٨ الى ٢٠ الفا وكان عدده الاجمالي ٥٠ الفا.

ولا ننسى في هذا المجال امور النقص في السلاح والعتاد والأسلحة الفاسدة التي اشتهرت فيما بعد.

أما الجيش العراقي الذي كان يكبله نوري السعيد وعبد الاله وبالتالي الانكليز، وهو الجيش الذي عقدنا عليه الآمال لكبر حجمه وكفاءته وقوة سلاحه وخصوصا المدفعية والطيران، فقد كان المأساة الكبيرة في حرب فلسطين، سواء بالنسبة لأهل فلسطين او لشعب العراق او لجنود هذا الجيش ولضباطه الشجعان. فقد دخل ١٥٠٠ جندي الى فلسطين في ١٥ أيار/مايو ١٩٤٨ عن طريق جسر المجامع مرورا بمدينة اربد ووادي العرب، ولم تلبث ان عادت اغلبية هذه القوة الى شرق الأردن بسبب المقاومة العنيفة التي ابداها اليهود في مستعمرة غيشر المحصنة وبسبب تغيير الخطة والأوامر. ودخل الجيش العراقي الى فلسطين ثانية عن طريق جسر دامية في ٢١ أيار/مايو ١٩٤٨ واستقر قسم منه في نابلس وتوزعت البقية في جنين وطولكرم وقلقيلية حتى رأس العين قرب اللد على امتداد ١٠٠ كيلومتر، وبذلك تلاشت قوته وامكاناته. ويمكننا ان نتصور كيف اصبحت هذه القوة عاجزة عن الهجوم، بل لم تستطع الدفاع عن المواقع التي انتشرت فيها مما اوقعها في عدة مآزق بل ومآسي في معارك رأس العين وقاقون وجنين وغيرها، والتي سنتحدث عنها فيما بعد.

ولتضليل شعب العراق ــ الذي كان متحمسا جدا لنصرة شعب فلسطين ــ سيّر نوري السعيد قسما كبيرا من الجيش العراقي الى فلسطين، موهما الشعب ان الجيش العراقي يشارك في الحرب بكل قوة وحماسة، وهو لا يعلم ان الأغلبية الساحقة من هذا الجيش لم تدخل الى فلسطين اثناء اشتداد المعارك في الشهر الأول من القتال، بل حطت رحالها في إتش ثري، وإتش فور، والمفرق، واربد والغور الشرقي.

وفي ٢ حزيران/يونيو أي بعد ١٨ يوما من بدء الحرب، دخلت الى فلسطين قوة صغيرة اخرى مؤلفة من ١٥٠٠ رجل مع العلم ان القتال توقف يوم ١١ حزيران/يونيو بعد اعلان الهدنة الأولى. انتشرت هذه القوة في قطاع رأس العين اثر سقوط اللد في ١١ تموز/يوليو والرملة في ١٢ تموز/يوليو. واصبح امتداد الخطوط العراقية ١٦٠ كيلومترا من جنين الى قرية عابود شمال غربي مدينة رام الله.

ثم تتابع دخول القوات العراقية بعد اعلان الهدنة الثانية وتوقف القتال نهائيا على الخطوط العراقية والأردنية. وبلغ عدد الجيش العراقي في اواخر سنة ١٩٤٨ نحو ١٤ الفا.

أما الجيش الأردني فقد بدأ بدخول فلسطين يوم ١٥ أيار/مايو ١٩٤٨ عن طريق جسر اللنبي (جسر الملك حسين). وتوقفت الكتيبة السادسة منه في اريحا ولم تتقدم الى القدس الا

يوم ١٩ أيار/ مايو ١٩٤٨ كما سبق ان ذكرت. وتقدمت بقية الجيش من اريحا الى رام الله شمالي القدس ووصلت طلائعه الى باب الواد يوم ١٨ أيار/ مايو ثم تكامل حجم الجيش في هذه المنطقة الى كتيبة (الكتيبة الرابعة) وشاركت في اغلاق هذا الممر من أجل مواصلة محاصرة يهود القدس. وتقدمت قوات من نفس اللواء (اللواء الثالث) الى شمال مدينة القدس ودخلتها يوم ١٩ أيار/ مايو. ودخل بعض القوات عن طريق نابلس ثم انتقلت الى منطقة رام الله.

وهكذا فان الجيش الأردني تمركز في قضاء رام الله ومدينة القدس، ووصلت طلائعه الى مدينة الرملة. وكانت جميعها مناطق عربية. وتركزت معارك الجيش الأردني في مدينة القدس ومنطقة باب الواد. وبعد الهدنة الثانية تقدمت قوات صغيرة من الجيش الأردني الى مدينتي بيت لحم والخليل حيث كانت قوات المتطوعين التابعة للجيش المصري، وبذلك قام بين الطرفين خلاف على السلطة في هاتين المدينتين. اما الجيش السوري فدخلت قوة صغيرة منه الى فلسطين في ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨ واستولت على مستعمرتي مشمار هاغولان ومسادا المجاورتين ثم اصطدم بمقاومة عنيفة من مستعمرتي دغانيا أ ودغانيا ب اللتين كان حصنهما الجيش البريطاني اثناء الحرب العالمية الثانية، فتوقف تقدم الجيش السوري وبخاصة عندما تراجع الجيش العراقي امام مستعمرة غيشر جنوبي سمخ. وفي ٢١ أيار/ مايو اضطر الجيش السوري الى الانسحاب من مدينة سمخ وتجمدت عملياته العسكرية. اما الجيش اللبناني فتحرك باتجاه الحدود الفلسطينية في ١٥ أيار/ مايو ولكنه توقف على الحدود ولم يدخل الأراضي الفلسطينية حيث كان رأي الحكومة اللبنانية ان الجيش اللبناني لا يستطيع القتال. ولذلك فانه اخذ موقف الدفاع.

ولا بد لي ان أشير هنا الى قوات المتطوعين الملحقة بالجيش المصري وقوات جيش الانقاذ التي عادت فدخلت فلسطين، وجيش الجهاد المقدس الذي واصل نضاله بعد دخول الجيوش العربية والقوات المتطوعة الفلسطينية التي جندتها الجيوش العربية. فقد كان تعداد قوات المتطوعين الملحقة بالجيش المصري نحو ١٠٠٠ رجل ثم ارتفع العدد الى ١٥٠٠ وتألفت من الليبيين والسودانيين والمصريين بمن فيهم الاخوان المسلمون. وكان يقود هذه القوات ضباط من الجيش المصري النظامي ومن ابرزهم الشهيد أحمد عبد العزيز القائد العام لهذه القوات ومعروف الحضري الذي حل محله بعد استشهاده. دخلت هذه القوات الى فلسطين عن طريق: عوجا الحفير ـ عسلوج ـ بئر السبع ـ الخليل ـ بيت لحم ووصلت الى جنوبي القدس حيث تمركز بعضها في مدينة صور باهر وقرية بيت صفافا. اما المتطوعون الفلسطينيون الذين جندتهم الجيوش العربية بعد دخولها الى فلسطين وبخاصة الجيش العراقي والأردني فقد سلحت بأسلحة فردية خفيفة واستخدمت كقوات حجاب على الخطوط الأمامية خصوصا بعد الهدنة الأولى والهدنة الثانية، وذلك لابعاد هذين الجيشين عن الاشتباك مع

اليهود قدر الامكان. وفي ختام هذا الحديث عن دخول الجيوش العربية الى فلسطين ادون الملاحظات التالية:

١ ـ لم تدخل قوات الجيوش العربية الى أي جزء من الأراضي التي خصصت للدولة اليهودية بموجب قرار التقسيم.

٢ ـ كان موقف الجيوش العربية من البداية وحتى النهاية موقفا دفاعيا، فانتشرت على خطوط طويلة. بينما كنا نأمل مثلا ان يحتشد الجيش العراقي في طولكرم ويتقدم لاحتلال مستعمرة ناتانيا فيصل الى شاطىء البحر ويشطر المنطقة اليهودية الى شطرين أو ان يخوض معركة مشتركة فاصلة داخل مثلث اللطرون ـ الرملة ـ طولكرم يشترك فيها الجيش الأردني والجيش المصري.

٣ ـ في اثناء وجود الجيوش العربية في فلسطين استولى اليهود على ٢٢ ٪ من مساحة فلسطين من القسم الذي خصص للعرب بموجب قرار التقسيم فضلا عما خصص لهم.

٤ ـ كانت لجميع القوات اليهودية قيادة موحدة تحرك قطعاتها بمرونة وتساند وسيطرة، اما القوات العربية فلم تكن لها قيادة موحدة على الرغم من اعلان الملك عبد الله قائدا عاما. ولذلك كانت قيادة كل جيش تتحرك وفق ما تراه. وفي كثير من الأحيان يقف بعضها موقف المتفرج عندما يتعرض البعض الآخر للخطر. ولم يحدث ان اشترك جيشان في عملية واحدة او ان جيشا منها انجد الجيش الآخر.

٥ ـ حصل اليهود في اثناء الحرب ضد الجيوش العربية على امدادات هائلة من السلاح والعتاد للقوات البرية والجوية. كما جلبوا اعدادا كبيرة من المتطوعين الأجانب من اميركا واوروبا وجنوب افريقيا خصوصا لسلاح الجو. ولم تحصل الجيوش العربية على شيء من ذلك.

٦ ـ ليس من مهمتي في هذه المذكرات ان اتتبع تفاصيل العمليات العسكرية التي قامت بها الجيوش العربية في فلسطين، الا انني سأتحدث عن بعض هذه العمليات مما أرى له اهمية خاصة او دلالة معينة تؤيد ملاحظاتي العامة على حركة الجيوش العربية، مثل معارك رأس العين وجنين وقاقون على الجبهة العراقية، ومعركة الحي اليهودي داخل القدس القديمة وسقوط اللد والرملة على الجبهة الأردنية، ومعارك حصار الفالوجة على الجبهة المصرية. وقد وقعت المعارك الأربع الأولى في اثناء وجودي في المستشفى الوطني بنابلس.

معركة رأس العين (٢٩ ـ ١٩٤٨/٥/٣١)

تقع منابع رأس العين بالقرب من مدينة اللد. ومنذ اعلان قرار تقسيم فلسطين في ١٩٤٧/١١/٢٩ استولى المناضلون العرب على هذه المنابع الهامة التي تستقي منها مدينة

القدس وخصوصا الأحياء اليهودية فيها لمنع الماء من الوصول اليها. وفي ٢٩ ـ ٣١ أيار / مايو ١٩٤٨ هاجم اليهود حامية رأس العين بقوات كبيرة واستولوا عليها قبل ان تصل نجدات من الجيش العراقي اليها. الا ان فريقا من قوات جيش الجهاد المقدس بمساندة اهالي القرى المجاورة مثل دير طريف وبيت نبالا كرّوا عليهم بعد ليلة واحدة بقيادة الشهيد الشيخ حسن سلامة قائد المنطقة الوسطى من فلسطين واسترجعوها فجر ٣١ أيار / مايو. وقد جرح الشيخ حسن سلامة في هذه المعركة العنيفة وتوفي بعد يومين. وفي ١ حزيران / يونيو ١٩٤٨ وصلت سرية من الجيش العراقي بقيادة المقدم الركن غالب عزيز وتسلمت الدفاع عن رأس العين ولكنها لم تلبث ان انسحبت منها في ١١ تموز / يوليو ١٩٤٨ بسبب قلة عددها وبسبب سقوط مدينة اللد المجاورة لها وانكشاف جناح الجيش العراقي الأيسر الذي ارتد غربا الى شرق الطريق التي تربط رأس العين وكفر قاسم.

معركة جنين (٢ ـ ١٩٤٨/٦/٤)

وقعت هذه المعركة بعد دخولي المستشفى الوطني في نابلس بقليل. ولذلك كنت قريبا من مسرحها واطلعت على الكثير من تفاصيلها. وقبل وقوعها بيومين زارني في المستشفى ابراهيم باشا هاشم الذي عين حاكما عسكريا عاما وجعل مركزه في نابلس بتاريخ ١٩٤٨/٥/٢٤. وقد تفقد الجرحى في المستشفى وهو بلباسه العسكري وجاملنا كثيرا. عمل اليهود على استغلال تأخر الجيش العراقي في دخول فلسطين وقلة عدده وانتشار هذا العدد القليل على مسافات طويلة للقيام بعملية عسكرية كبيرة للاستيلاء على مدينة نابلس وقطع خط الرجعة على الجيش العراقي في طولكرم مبتدئين بالهجوم على مدينة جنين، وحشدوا لهذا الهجوم نحو ٤٥٠٠ جندي، وانطلق هجومهم من مستعمرة العفولة شمالي جنين يوم ٢ حزيران / يونيو ١٩٤٨ فاحتلوا في طريقهم عدة قرى عربية منها زرعين وصندلة والجلمة وقصفوا مدينة جنين من الجو وتقدموا على ثلاثة محاور: الميمنة تطوق المدينة من الغرب والميسرة تطوقها من الشرق مع محاولة قطع طريق جنين ـ نابلس والهجوم الرئيسي المباشر من الشمال. وكان جيش الانقاذ اخلى منطقة جنين قبل وصول الجيش العراقي. ولم يكن فيها وفي قراها اكثر من ١٥ مناضلا فلسطينيا وسرية اردنية يقودها الرئيس عصر المجالي انسحبت ايضا قبل ان تسلم مواقعها للجيش العراقي. فذعر سكان المدينة ورحل معظمهم ولجأ من بقي منهم الى القلعة (بناية تيغارت) وعددهم لا يزيد على الخمسين. وفي هذه الاثناء وصل الى المدينة فصيل عراقي مؤلف من ٣٧ رجلا يرافقه ٥٠ مناضلا فلسطينيا تمركزوا في تل يقع الى الشمال من جنين بثلاثة كيلومترات. ثم وصلت سرية عراقية تعدادها ٨٠ رجلا وتبعتها سرية اخرى، وبذلك بلغ عدد الجيش العراقي في جنين ٢٥٠ رجلا يرافقهم ٥٠ مناضلا فلسطينيا. ولقلة عدد هذه القوات بالنسبة لقوات اليهود المهاجمة اضطرت الى الانسحاب من

شمالي المدينة والتحصن في القلعة. واحتل اليهود جميع مدينة جنين والقرى والتلال المحيطة بها وحاصروا القلعة واشتبكوا مع من فيها حتى صباح ٣ حزيران / يونيو. وفي هذه الاثناء كانت القوات المحاصرة تطلب من القيادة في نابلس ارسال نجدات فتحرك فوج عراقي (كتيبة) يقوده المقدم عمر علي الذي اشيع انه تحرك لنجدة جنين وفك الحصار عن القوات العراقية المحاصرة مخالفا بذلك اوامر قيادته العليا التي طلبت منه التريث. واستعان هذا الفوج بأعداد كبيرة من مناضلي قرى نابلس وجنين مثل عرابة وبرقين ورمانة وسيلة الظهر وصانور وغيرها. ووصلت هذه النجدة صباح ٣ حزيران / يونيو، بعد ان تعرضت لقصف جوي في نابلس ودير شرف وتوقفت على بعد ٣ كيلومترات جنوبي جنين بسبب مقاومة اليهود وسيطرتهم على الطريق العام. واشتبك الطرفان في معركة حامية. فالجيش العراقي يزحف على الطريق العام والمناضلون الفلسطينيون يزحفون من الجبال المحيطة بالمدينة بأعداد كبيرة ومعهم عدد من النساء يشجعنهم بالزغاريد. وبالرغم من وصول نجدة جديدة لليهود بدأوا يتراجعون. وعند الظهر وصل فوج عراقي آخر (كتيبة). وفي ليل ٣ ـ٤ حزيران / يونيو شدد العرب هجومهم وانسحب اليهود عن المدينة وجبالها. وعند ظهر ٤ حزيران / يونيو كانت مدينة جنين بأجمعها قد طهرت من الأعداء وانقذ رجال الجيش العراقي المحاصرين في القلعة. ولكن اليهود ظلوا يحتلون عشر قرى مجاورة لجأ سكانها العرب الى مدينة جنين. وكانت خسائر اليهود في هذه المعركة كبيرة فقد تركوا خلفهم ٣٥٠ قتيلا. وذكرت مصادرهم ان خسائرهم زادت على الألف قتيل وجريح، وغنم العرب نحو ٣٥٠ قطعة سلاح وكميات كبيرة من العتاد والألغام واجهزة الاتصال. اما العرب فكان شهداؤهم ٢٠ من الجيش العراقي و ٢٠ من المناضلين الفلسطينيين و ٤٦ من المدنيين. وتعتبر معركة جنين اكبر معركة خاضها الجيش العراقي في فلسطين. وقد وصل الى نابلس فور انتهاء المعركة الأمير عبد الاله الوصي على عرش العراق ونوري السعيد رئيس الوزراء، وشاع انهما جاءا للتحقيق مع المقدم عمر علي ومحاسبته لأنه تحرك الى جنين قبل ان توافق قيادته على ذلك.

معركة قاقون (١٩٤٨/٦/٥)

هذه المعركة ايضا تؤكد ما أشرت اليه من الآثار السلبية لتأخر الجيش العراقي في دخول فلسطين ولقلة عدده. وقد روى لي احد جرحى مناضلي قرية قاقون (لا اتذكر اسمه، لكني اذكر انه من عائلة ابو هنطش فقد ادخل الى مستشفى نابلس الوطني وشاركني غرفتي) تفاصيل كثيرة عن سقوط هذه القرية العربية الهامة بيد اليهود. وتتفق روايته مع المراجع العراقية عن حرب فلسطين.

تقع قاقون على بعد نحو ١٥ كيلومترا الى الشمال الغربي من مدينة طولكرم وتشرف على سهل فلسطين الساحلي، وبعض اراضيها جزء من السهل الخصيب. وكانت بالقرب منها

مستعمرات يهودية عديدة. وكثيرا ما انطلقت من قاقون هجمات على هذه المستعمرات في ثورات فلسطين المتكررة خصوصا ثورة ١٩٢١ وثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩. وعندما بدأت حرب فلسطين سنة ١٩٤٧ تسلـح أهل قاقون استعدادا لمواجهة الهجمات المتوقعة من المستعمرات اليهودية. وبلـغ عدد مسلحي القرية نحو ستين رجلا كما وصل اليها فصيل من جيش الانقاذ بقيادة الضابط العراقي مدلول عباس. وجرت بين حاميتها واليهود عدة معارك كان النصر فيها لأهالي قاقون. وفي اليوم الأخير من شهر أيار/مايو وصل الى القرية فصيل من الجيش العراقي تعداده ٣٣ رجلا وانسحب منها جيش الانقاذ. وفي ٤ حزيران/ يونيو ١٩٤٨ اخذ اليهود بالاحتشاد في البيارات التي لا تبعد اكثر من ٤ كيلومترات عن القرية. وبعد ظهر ذلك اليوم بدأوا قصف القرية بمدافع المورتر فقتلوا عشرة وجرحوا اكثر من هذا العدد، مما حمل النساء والأطفال على الرحيل الى البيارات الواقعة شرقي القرية. واستمر قصف اليهود حتى منتصف ليل ٤ــ٥ حزيران/يونيو. وفي الساعة الثانية صباحا بدأوا يزحفون على القرية. وطوال الليل كان قائد الفصيل العراقي في قاقون يستنجد بقيادته في طولكرم فيأتيه الجواب: «ماكو أوامر وليس لدي قوات يمكن ارسالها لنجدتكم». وفي صباح ٥ حزيران/يونيو وصلت القرية متأخرة نجدات من القرى العربية المجاورة فقد سقطت قاقون في هذا اليوم في يد اليهود. وحاول الجيش العراقي استردادهـا يوم ٦ حزيران/يونيو ولكنه لم يدخلها واكتفى بقصفها بالمدفعية. وخسر العرب في هذه المعركة ٤٠ رجلا من أهل القرية و١٧ من الجيش العراقي. وفي رواية الجيش بلـغ عدد الشهداء ٤٧ عراقيا و١٤ فلسطينيا.

اثناء وجودي في المستشفى الوطني بنابلس كانت أخبار القتال في القدس تهمني جدا، ولذلك كنت أتتبع تفاصيلها آسفا وساخطا لعدم تمكني من المشاركة في القتال.

في اواخر ايار / مايو وبوجود الجيش العربي في القدس، كان القتال يدور في ميدانين رئيسيين داخل المدينة: الاول في الحي اليهودي بالبلدة القديمة، والثاني في احياء القدس الشمالية اي احياء الشيخ جراح والمصرارة وسعد وسعيد. كما كانت الاشتباكات قائمة في قرى شمالي القدس ومحتدمة في منطقة باب الواد.

سقوط الحي اليهودي

اما عن القتال في الحي اليهودي داخل البلدة القديمة وكما سبق ان ذكرت في هذه المذكرات، فقد كان محتدما منذ اعلان قرار التقسيم، وكان الحي محاصرا منذ مدة طويلة، والمناضلون من سرية البلدة القديمة بقيادة حافظ بركات التابعة لجيش الجهاد المقدس، ومن مقاتلي جيش الانقاذ وغيرهم من اهل المدينة المسلحين يشتبكون مع اليهود باستمرار.

وفي اواسط ايار / مايو ١٩٤٨ كان القتال يدور من بيت الى بيت. ولاحظ فوزي القطب قائد فرقة التدمير، التي أبلت بلاء حسنا في قتال الحي اليهودي، ان المقاتلين العرب عندما يطردون اليهود من بعض الأبنية لا يلبث هؤلاء ان يستردوها. ولذلك قرر انتهاج خطة جديدة تقوم على اساس نسف كل بيت يحرره العرب من أيدي اليهود لكي لا يعودوا لاسترداده، مع أن معظم بيوت الحي كانت ملكا لعائلات عربية ومؤجرة لليهود. ونجحت الخطة وبدأت منطقة الحصار تضيق شيئا فشيئا، وتحول اليهود داخل الحي من الهجوم الى الدفاع وكثرت فيهم الاصابات التي ضاق بها مستشفى الحي، ونقصت المؤن، وكانوا يرغبون في الاستسلام لولا ان قيادتهم خارج البلدة القديمة كانت تمنعهم من ذلك وتعدهم انها ستصل اليهم وتفك الحصار عنهم.

وكادت القيادة اليهودية مساء ١٨ـ١٩ أيار / مايو ان تفي بوعدها بعد ان احتل اليهود حي النبي داود الذي لا يفصله عن الحي اليهودي سوى سور البلدة القديمة. وفي هذه الليلة، وكما سبق ان ذكرت، بدأت سرية من الجيش العربي الاردني بقيادة الضابط الشجاع محمود الموسى تشارك في القتال. وتمركزت في مدرسة دير الارمن، ثم سيطرت على برج بوابة

السور (باب النبي داود) وعلى البرج المجاور له من جهة الشرق وأصبحت تهدد الحي من الجنوب. وفي مساء اليوم التالي ١٩ ايار / مايو وصلت سرية اخرى بقيادة الملازم ضرغام الفالح، وتمكن الجيش من الاستيلاء على عدة مراكز في حي الأرمن تشرف على الحي اليهودي من الجهة الغربية. كما كانت مدافع المدرعات تقصف الحي من الشرق من موقع رأس العمود، وفي الوقت نفسه كانت قوات المناضلين تشدد هجومها من الشمال وتتقدم داخل الحي من مداخله الشمالية: الشعارة ودير السريان والسوق الرئيسية ودرجة الطابونة وحوش الغزلان وحوش الشاي وحي المغاربة.

وفي ٢٦ ايار / مايو وصلت للجيش مدرعتان ثقيلتان تحمل كل منهما مدفعا ورشاش براوننغ وأدخلتا من شوارع القدس الضيقة حتى وصلتا الى باب النبي داود من داخل السور. وبذلك أشرفتا على الحي اليهودي من الجنوب. وفي صباح ٢٧ ايار / مايو قام الجيش العربي بهجوم من الجنوب مستخدما المدرعات فشعر اليهود ان الخطر الرئيسي يتهددهم فحولوا معظم قواتهم من شمالي الحي الى جنوبه الامر الذي مكن المناضلين بالاشتراك مع الجيش يوم ٢٨ ايار / مايو من شن هجوم عنيف على ظهر القوات اليهودية الذي أصبح مكشوفا وأصبحت جميع القوات والمدنيين عرضة للابادة. وبعد ساعة من بدء هذا الهجوم رفع اليهود عددا من الاعلام البيض طالبين التسليم.

وتقدم اثنان من الحاخامين وضابط نحو قيادة الجيش في دير الارمن وعرضوا على الضابط محمود الموسى قائد القطاع استعداد اليهود للتسليم بلا قيد ولا شرط. فاستدعى قائد الكتيبة السيد عبد الله التل وتبعه ممثل الصليب الاحمر وقادة المناضلين، وتوقف اطلاق النار وجرت مفاوضات التسليم. وكان الوفد اليهودي يتألف من الحاخام مازات، والحاخام منتزبرغ والضابط شاؤول الطويل، ومختار الحي. ووافق اليهود على شروط العرب وهي ان يؤخذ المحاربون اسرى، مع تسليم جميع اسلحتهم للعرب، وأن يسلم المدنيون الجرحى الى الصليب الاحمر الدولي ليتولى اطلاق سراحهم واخراجهم الى المنطقة اليهودية خارج السور. وكان عدد المحاربين الذين اخذوا اسرى نحو ٥٠٠ ثم افرج عن عدد منهم لكبر السن وغير ذلك، فتقلص العدد الى نحو ٣٠٠ أسير. وكان عدد الجرحى ١٣٥ والمدنيين رجالا ونساء نحو ١٥٠٠. اما الاسلحة فقد استولى المناضلون على معظمها. وقدر عدد القتلى من اليهود في اليومين الأخيرين (٢٧و٢٨ أيار / مايو) بمئة قتيل حسب تقدير اليهود. أما خسائر العرب في اليومين نفسيهما فكانت قليلة جدا وقدرت بثمانية شهداء وخمسة عشر جريحا من الجيش والمناضلين.

كان سقوط الحي اليهودي حدثا هاما. أثار حماسة العرب في القدس وفي سائر انحاء فلسطين وغيرها. وادى الى هبوط معنويات اليهود خصوصا يهود القدس المحاصرين الذي وصلوا الى حد اليأس والاستعداد للاستسلام، الا أن قيادتهم عملت على رفع معنوياتهم بشن هجمات عنيفة على القدس القديمة من باب الخليل والباب الجديد وفي اتجاه باب العمود. وتمكنوا مساء ٢٨ أيار / مايو في الوقت الذي كان يجري فيه استسلام الحي اليهودي من اقتحام الباب الجديد والتقدم لمسافة خمسة عشر مترا داخل السور. ولكن العرب تمكنوا من طردهم الى خارج السور. ورافق هذه الهجمات قصف مدفعي شديد للاحياء العربية في البلدة القديمة.

منذ أن دخل الجيش العربي حي الشيخ جراح صباح ١٩ أيار / مايو وهو مشتبك مع احياء سان هدريا وبيت يسرائيل وميئه شعاريم وفي منطقة بناية النوتردام. فبعد أن استولت الكتيبة الثانية على حي الشيخ جراح تقدمت جنوبا ووصلت باب العمود واتصلت بالكتيبة السادسة ولم تخسر سوى شهيد واحد وثلاثة عشر جريحا وعدد من الشهداء والجرحى من المناضلين. وكنت انا أحد الجرحى والمناضل مروح سعادة أحد الشهداء. وفي ٢٠ أيار / مايو ضلت ثلاث مدرعات طريقها من الشيخ جراح الى باب العمود وسلكت طريقا يؤدي الى حي ميئه شعاريم، فتصدى لها اليهود عند بناية مندلبوم وقذفوها بصواريخ بيوت فدمرت الاولى واستشهد فيها الملازم محمد نجيب النصيرات، كما استشهد قائد المدرعة ومأمور اللاسلكي وتعطلت المدرعة الثانية وهرب من فيها. واستطاعت الثالثة العودة. وفي الليل أمكن سحب الثانية وأخراج جثث الشهداء بمساعدة المناضلين الذين جرح عدد منهم، أما المدرعة الاولى فقد سحبها اليهود.

وفي ٢١ أيار / مايو حلت الكتيبة الثالثة من اللواء الرابع محل الكتيبة الثانية في منطقة الشيخ جراح وباب العمود، وقامت سرية منها بالتقدم من الشيخ جراح غربا في اتجاه حي سان هدريا ولكنها ارتدت بناء على اوامر قائدها الانكليزي بعد أن خسرت عشرة جنود وقائدها الملازم عيد أديم ونائبه.

وفي صباح ٢٢ أيار / مايو قاد الملازم الشجاع غازي الحربي سريته في هجوم جريء انطلق من باب العمود لاحتلال بناية النوتردام والوصول الى ساحة بنك باركليس بتغطية مركزة بالنار من سور القدس وبعض المدرعات. ورغم الخسائر الكبيرة دخل جنود السرية وعدد من مناضلي القدس الذين انطلقوا من الباب الجديد الى بناية النوتردام واستمر القتال حتى الليل، حيث أصدر قائد اللواء العقيد غولدي امرا مشددا لغازي الحربي بالانسحاب من النوتردام، ومنع امداده بالرجال والعتاد والتموين. فاضطر الى الانسحاب مكرها وغاضبا. وكانت خسائر السرية ١٩ شهيدا عدا الجرحى. وقد تمرد نائب السرية فياض

الدحيلان من عشيرة الحويطات ومعه ثمانية جنود احتجاجا على أوامر قائد اللواء والتحقوا بالمناضلين. وقد أحب أهل القدس غازي الحربي لشجاعته وتمرده أكثر من مرة على أوامر قادته الانكليز، الامر الذي أدى في النهاية الى اعادته الى عمان ومن ثم اخرج من الجيش.

وفي صباح ٢٦ أيار/مايو قامت السرية الرابعة من الكتيبة الاولى بقيادة الملازم سلامة اعتيق تعززها ٤ مصفحات بالهجوم على جبل الرادار الحصين، لأن هذا الموقع الهام المشرف على قرى بدو والقبيبة وقطنة والى حد ما على بير نبالا والنبي صموئيل من قرى شمالي القدس التي تمركزت فيها الكتيبة الاولى من اللواء الرابع، كان يهدد مواقع الكتيبة ويطلق عليها النار باستمرار.

تقدمت السرية عند الفجر تغطيها نيران ستة مدافع مورتر من عيار ٣ انش وستة رشاشات فيكرز وبعض مدافع الميدان، واقتحمت الموقع واحتلته وقتلت فيه ثلاثة عشر فردا وهرب الباقون. واستشهد من السرية خمسة جنود وجرح خمسة عشر بينهم قائد السرية سلامة اعتيق. وبعد ذلك وجهت المدفعية نيرانها الى وسط مستعمرة الخمسة واشتعلت فيها النيران وتقدمت نحوها المدرعات والمشاة، وبدأ اليهود بالهرب. وعندها تدخل قائد اللواء غولدي على جهاز اللاسلكي وأمر بوقف اطلاق النار وعودة القطعات المتقدمة الى ما وراء موقع جبل الرادار من الجهة الشرقية. وبذلك أوقف احتلال المستعمرة ذات الموقع العسكري الهام.

وفي ٢٦ ايار/مايو قصفت مدفعية الجيش العربي جميع الأحياء اليهودية في القدس الجديدة بكثافة شديدة، مما ادى الى تبديل قائد المدفعية المقدم محمد المعايطة وارساله الى عمان محجوزا لمحاكمته على تبذيره في العتاد. وعين بدلا منه ضابط انكليزي هو الميجر بولاك وأصبح اطلاق المدافع موقوفا بأمر قائد الفرقة شخصيا. وفي الوقت نفسه تعرضت البلدة القديمة الى قصف مدفعي لم يسبق له مثيل، وأصيبت عدة كنائس وأديرة ومساجد، مما أثار الطوائف المسيحية.

وفي ليلة ٢٩ ـ ٣٠ أيار/مايو قام اليهود بهجمات مستميتة لاسترداد الحي اليهودي من جهة وحي الشيخ جراح من جهة ثانية لكنهم صدوا وتكبدوا خسائر كبيرة قدرت بـ ٨٥ قتيلا، وخسر العرب احد عشر شهيدا.

معارك باب الواد

تقع منطقة باب الواد على بعد ٢٥ كيلومترا الى الغرب من القدس على الطريق المؤدي الى الرملة فيافا وتمر من الوادي المسمى وادي علي. وتتفرع منها عدة طرق تؤدي الى رام الله والى بيت جبرين والى عرطوف. وتحيط بباب الواد عدة قرى هامة وتاريخية اشهرها عمواس واللطرون وتل الجزر، ومنها قرى بيت نوبا ويالو ودير أيوب وابو شوشة وبير ماعين وبيت محسير وساريس، وكانت لهذه المنطقة اهمية حربية على مدى تاريخ فلسطين.

سبق ان تحدثت عن معارك القوافل التي دارت في هذه المنطقة قبل دخول الجيوش العربية الى فلسطين، مما ادى الى ضرب الحصار الشديد على يهود القدس. وذكرت ان طلائع الجيش العربي الاردني وصلت الى باب الواد عن طريق رام الله في ١٨ أيار / مايو ١٩٤٨ ثم تكامل حجم الجيش الى كتيبة (الكتيبة الرابعة) بقيادة حابس المجالي. وكان جيش الانقاذ انسحب من المنطقة في ١٥ أيار / مايو وبقي فيها المناضلون الفلسطينيون والاردنيون وعددهم نحو ٤٥٠. وفي ٢٤ أيار / مايو وصلت الكتيبة الثانية الى المنطقة وتمركز قسم منها على جبال قرية يالو المطلة على باب الواد، وكانت تضم سرية مدرعات ومدافع ضد الدبابات، وفضلا عن الكتيبتين المذكورتين تمركزت بطارية مدافع ميدان مؤلفة من ثمانية مدافع من عيار ٢٥ رطلا في سهول يالو وبيت نوبا.

اتخذت قوات الجيش العربي في هذا القطاع موقف الدفاع وضمان استمرار اغلاق ممر باب الواد. ولذلك اعتبر دورها استكمالا لمعارك القدس وحصارها. واتخذ اليهود موقف الهجوم مستخدمين قوات كبيرة قامت بهجمات ليلية متواصلة زاد عددها على ١٥ هجوما، كان غرضها الرئيسي فتح طريق يافا ـ القدس لفك الحصار.

جرت أكبر هذه الهجمات في ٢٥ أيار / مايو ١٩٤٨ وكانت بحجم لواء يهودي كامل مؤلف من ٣٠٠٠ رجل. وتركز الهجوم على مواقع الكتيبة الرابعة في منطقة اللطرون، وقاده ضباط انكليز متطوعون، وثبت ان عددا كبيرا من رجاله كانوا متطوعين أجانب وصلوا فلسطين حديثا. وقد تمكن اليهود من تدمير جانب من مخفر بوليس اللطرون لكنهم لم ينجحوا في احتلاله. وفتكت بهم مدفعية الجيش العربي، كما ضُربت مؤخرة قواتهم من قبل فصيل من الجيش العربي كان عائدا من عرطوف ومعه أكثر من خمسين مناضلا. فوقع اليهود بين نارين واضطربت صفوفهم ودامت المعركة من الساعة الثانية صباحا حتى الواحدة بعد الظهر، ومني فيها اليهود بهزيمة منكرة فانسحبوا بعد ان خسروا زهاء ٢٥٠ قتيلا واعدادا كبيرة من الجرحى وبعض الاسرى. وغنم العرب كميات كبيرة من السلاح والعتاد والمهمات، وخسروا تسعة شهداء وعددا من الجرحى من الجيش والمناضلين.

ومن أكبر الهجمات في هذا القطاع ايضا الهجوم الذي وقع في ٣٠ أيار / مايو ١٩٤٨، قام به أكثر من ١٥٠٠ مقاتل يهودي مزودين بالمصفحات وقاذفات اللهب ومدافع الميدان والهاون. انطلق الهجوم من الغرب ومن مقر القيادة اليهودية في مستعمرة خولده. فاستولى اليهود على قريتي بيت جيز وبيت سوسين ثم ركزوا هجومهم على مواقع الكتيبة الرابعة وبخاصة على مخفر اللطرون، وفي الوقت نفسه شنوا هجوما آخر على مواقع الكتيبة الثانية من الشرق باتجاه قرية يالو واحتلوا قرية دير أيوب. وكانت هناك قافلة يهودية تتقدم قاصدة القدس، الا ان مدفعية الجيش العربي ضربت القافلة وأوقفتها ومنعتها من التقدم. وبعد ان اشتدت المعركة تمكن اليهود من دخول حرج دير اللطرون. ثم وصلت ثماني مصفحات الى

بناية مخفر اللطرون وتمكنت اربع منها من الدخول الى وسط ساحة المخفر مستخدمة قاذفات اللهب، الا ان رجال الجيش العربي المرابطين في المخفر صمدوا وتمكنوا من التغلب على المهاجمين، وتعطلت اربع مصفحات وقتل من فيها واستولى عليها العرب. ومن جهة ثانية تمكن رجال الكتيبة الثانية من طرد اليهود من قرية يالو وانسحب اليهود على جميع المحاور تاركين وراءهم أكثر من ١٥٠ قتيلا.

وتكررت هجمات اليهود حتى اعلان الهدنة الاولى في ١١ حزيران / يونيو ١٩٤٨ دون ان يتمكنوا من تحقيق غايتهم في فك الحصار عن مدينة القدس، وباشروا منذ ٢٨ ايار / مايو العمل على شق طريق جبلية جديدة الى الجنوب من الطريق الرئيسي سموها طريق بورما تشبيها لها بطريق بورما التي شقها ثوار فيتنام اثناء الحرب.

جيش الانقاذ يعود الى الجليل

من الاحداث المثيرة الهامة التي وقعت اثناء وجودي في مستشفى نابلس وكنت قريبا من مسرحها، دخول جيش الانقاذ مجددا من لبنان الى منطقة الجليل ووصوله الى مدينة الناصرة.

كانت منطقة الجليل الغربي من صفد والناصرة شرقا حتى عكا والناقورة غربا قد اعتبرت تابعة للقسم العربي حسب قرار تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧، وكان جميع سكانها من العرب، وتندر فيها المستعمرات اليهودية. لكن اليهود تمكنوا من احتلال الشريط الساحلي من عكا الى الناقورة بعد ١٥ أيار / مايو ١٩٤٨ بقليل. وبقيت معظم المنطقة الجبلية مع العرب ولم يتمكن الجيش اللبناني من الدخول الى الجليل لضعفه بل لم يحاول ذلك. اما الجيش السوري فقد حاول مهاجمة الجليل الشرقي المحاذي للحدود السورية والذي يضم العديد من المستعمرات اليهودية، واجتاز نهر الاردن واحتل مستعمرة مشمار هايردن ولكنه لم يتمكن من التقدم أكثر من ذلك. كما تجمدت حركته عند سمخ ومستعمرة دغانيا جنوبي بحيرة طبريا. لذلك بقيت منطقة الجليل تعتمد على مناضليها في الدفاع عن نفسها.

ولما انسحب جيش الانقاذ من فلسطين الى سوريا بعد ١٥ ايار / مايو ١٩٤٨ أعيد تنظيمه ودخل الى منطقة الجليل العربية. وبعد ان خاض معركة المالكية يوم ٦ حزيران / يونيو ١٩٤٨ واحرز فيها نصرا مرموقا وحررها، انتشر بشكل سريع في اتجاه الجنوب ووصل الى مدينة الناصرة يوم ١٠ حزيران / يونيو ١٩٤٨ اي قبل اعلان الهدنة الاولى بيوم واحد. وكان انتشاره بهذا الشكل الذي شبه بتدلي قطف العنب مغامرة خطرة لصعوبة المحافظة على خطوط مواصلاته مع لبنان ولأنه لم يستطع ان يستعيد مدينة عكا من يد اليهود، ولم يحاول استعادة مدينة صفد. ومع ان وصول جيش الانقاذ الى مدينة الناصرة كان حدثا هاما ومثيرا وأصبح الناس يتمنون لو ان الجيش العراقي يتحرك للتقدم من جنين شمالا الى مدينة الناصرة التي لا تبعد عن جنين أكثر من ٣٠ كيلومترا ليتصل بجيش الانقاذ ويعززه، فيغير بذلك مجرى

الحرب في شمال فلسطين، الا ان شيئا من ذلك لم يحدث ولا سيما ان الهدنة الاولى اعلنت بعد يوم واحد في ١١ حزيران / يونيو. ولربما كان قادة جيش الانقاذ حينها وضعوا خطتهم للانتشار في الجليل قد اعتمدوا على قيام الهدنة التي تقيد بها العرب. ولكن اليهود لم يتقيدوا بها وشنوا على جيش الانقاذ هجمات عنيفة مستخدمين الطيران والمدفعية وغيرهما من الأسلحة المتفوقة التي كانت وصلت حديثا بكميات كبيرة، وكانت معركة الشجرة اهم المعارك في هذا القطاع.

والشجرة قرية عربية تابعة لقضاء طبريا تقوم الى جانبها مستعمرة يهودية صغيرة باسم سجره. ويعتبر موقع الشجرة موقعا استراتيجيا يسيطر على ما حولها، وفي جوارها جرت معركة حطين التاريخية. وكانت الاشتباكات بين الشجرة ومجموعة القرى العربية التي تجاورها من جهة وبين سجره ومستعمرات الجليل الشرقي من جهة اخرى متواصلة منذ اعلان قرار التقسيم. وكان ابرز قادة المناضلين في هذا القطاع المناضل توفيق ابو ابراهيم الصغير التابع لجيش الجهاد المقدس، وعبد اللطيف قاسم الفاهوم. وكان المناضلون وجيش الانقاذ يتعاونون في هذا القطاع. واشتدت المعارك في السادس من شهر ايار / مايو حين حاول اليهود لأول مرة احتلال الشجرة، ففشلوا. الا ان اهل القرية اضطروا الى اخلائها. وحاول العرب احتلال مستعمرة سجره، فلم يتمكنوا. واعلنت الهدنة الأولى واستفاد اليهود منها فزادوا تسليحهم كما سبق ان ذكرت. وعندما استؤنف القتال دارت في الشجرة وما حولها معارك طاحنة وتبادلت الأيدي احتلال مشارف الشجرة والتلال المحيطة بها أكثر من مرة. وفي ١٣ تموز / يوليو استشهد الشاعر الفلسطيني المشهور عبد الرحيم محمود (ابو الطيب) على مشارف قرية الشجرة وكان حينها ضابطا في جيش الانقاذ برتبة ملازم اول ومساعدا لآمر فوج الناصرة. وفي ١٥ تموز / يوليو سقطت الشجرة في أيدي اليهود بعد معارك دامية، وكان ذلك ايذانا بانهيار القطاع. فسقطت مدينة الناصرة بأيدي اليهود في ١٦ تموز / يوليو ١٩٤٨ بعد معركة قصيرة. وعلى اثر ذلك قام جيش الانقاذ بالانسحاب من الجليل انسحابا شاملا غير منظم خسر فيه خسائر فادحة. وقدرت خسائر العرب في معارك الشجرة وما جاورها بأكثر من ١٠٠٠ شهيد وجريح، كما خسر جيش الانقاذ اثناء انسحابه أكثر من ذلك. وتشردت اعداد كبيرة من سكان الجليل ولجأت الى لبنان وسوريا.

وظل جيش الانقاذ يحتفظ ببعض قرى الجليل بعد الهدنة الثانية مثل مجد الكروم وسخنين وعيلبون وفرادة وترشيحا حتى تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٨ حين هاجمه اليهود من جديد، فانسحب من فلسطين نهائيا، والتحق ما تبقى منه بالجيش السوري تحت اسم لواء اليرموك الذي لم يلبث ان حله حسني الزعيم نهائيا.

الهدنة الأولى (١٩٤٨/٦/١١)

من الاحداث الهامة التي وقعت وانا في المستشفى قيام الهدنة الاولى بين العرب واليهود في فلسطين.

ففي ٢٩ ايار/مايو ١٩٤٨ اصدر مجلس الامن قرارا بوجوب قيام هدنة في فلسطين مدتها اربعة اسابيع بين العرب واليهود من اجل ان يعمل الوسيط الدولي الكونت برنادوت على التوفيق بينهم.

ومن المؤكد ان الدول العربية تعرضت لتوجيه سياسي من الدول الكبرى بقصد حملها على قبول الهدنة. كما قامت الطائرات اليهودية في ١٩٤٨/٦/٢١ بالاغارة على مدينة عمان وقصفتها بعدد من القنابل سقط معظمها على مقربة من قصر الملك عبد الله في الوقت الذي كانت فيه اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية مجتمعة في عمان للبحث في موضوع الهدنة.

ومن المؤكد انه من الناحية العسكرية لم تكن هناك عند العرب ضرورة عسكرية تلجىء الحكومات العربية الى طلب الهدنة او قبولها.

أما اليهود فكانوا راغبين في قيام الهدنة. وكانت الهيئات الصهيونية تعمل «لارسال رسول سلام الى فلسطين وعقد هدنة موقتة». ووجه بن ــ غوريون نداء الى العالم يطلب فيه «مساعدة الدول الصديقة». فقد كان اليهود في القدس بحاجة ماسة لقيام الهدنة بسبب شدة الحصار وفشلهم في كسره، وكانوا في حالة يأس وضيق شديدين، فلا ماء ولا طعام، ولا وقود، ولا افران، حتى انهم شربوا من مياه بركة السلطان وبركة مأمن الله الآسنة. ولم تكن طريق بورما الجبلية التي بدأوا بشقها ذات اثر عملي على الحصار لوعورتها وعدم التمكن من تعبيدها. كما كان اليهود بحاجة ماسة لاستيعاب الأسلحة الجديدة التي وصلتهم من مدفعية ودبابات وطائرات، واستيعاب آلاف المتطوعين الأجانب والمهاجرين الجدد، وجلب المزيد من السلاح والرجال.

للأسباب المار ذكرها قبل العرب واليهود قيام الهدنة وأبلغوا الوسيط الدولي بذلك رسميا، فأعلن قيام الهدنة على أن يسري مفعولها في الساعة السادسة من صباح يوم الجمعة ١١ حزيران/يونيو ١٩٤٨.

وكان العرب اشترطوا لقبول الهدنة شروطا معينة وأبلغوا الوسيط الدولي بها، وكذلك فعل اليهود. الا ان الوسيط الدولي الكونت برنادوت لم يتقيد بهذه الشروط المتناقضة، وأعلن ان على الطرفين التقيد بما يلي:

١ ــ وقف أعمال العداء والعمليات الحربية في البر والبحر والجو، دون ان يؤثر ذلك في حقوق كلا الجانبين.

٢ ــ أن لا يحرز أي من الفريقين أي غنم خلال فترة الهدنة. فلا يجوز ادخال مقاتلين او مسلحين الى أية دولة عربية او الى أي جزء من فلسطين.

٣ ــ يمنع انتقال الجيوش ومعدات القتال خلال فترة الهدنة الى البلاد العربية المتاخمة لفلسطين والبلاد العربية ذات العلاقة والى جبهات القتال في فلسطين.

٤ ــ تبقى خطوط القتال في جميع الجبهات ثابتة ولا يزداد عدد المقاتلين ولا المعدات.

٥ ــ يجوز اغاثة السكان الذين ذاقوا الشدائد بسبب القتال كما هي الحال في القدس ويافا وتزويدهم بالمؤن بواسطة لجان الصليب الاحمر الدولي.

استغلال اليهود والعرب للهدنة

استفاد اليهود من الهدنة واستغلوها احسن استغلال ضاربين عرض الحائط بشروط الوسيط الدولي وملاحظات مراقبي الهدنة الدوليين. ففي قطاع الجيش المصري وحده قدمت القيادة المصرية للوسيط شكايات عن ١٥٠ مخالفة لشروط الهدنة قام بها اليهود. فقد طوروا قواتهم المسلحة تطويرا كبيرا جدا من حيث العدد والسلاح، كما حسنوا موقفهم العسكري على الارض باحتلال عدد من القرى والمواقع العربية، وادخلوا الى القدس والمستعمرات المحاصرة كميات كبيرة من المؤن بواسطة المراقبين الدوليين. وتمكنت غولدا مئير وحدها من جمع نحو سبعة ملايين دولار من التبرعات من الولايات المتحدة. وجلب اليهود الاسلحة والذخائر من تشيكوسلوفاكيا وفرنسا واميركا بالطائرات والبواخر من بينها الباخرة ألتالينا التي اشتهرت في حينه حيث نقل اليهود على ظهرها ٩٠٠ مقاتل وآلاف قطع الاسلحة وملايين طلقات الذخيرة والمدفعية. ووقعت خلافات بين الارغون والهاغاناه حول هذه الباخرة كانت على الارجح مصطنعة. وفي النهاية فان جميع ما حملته من رجال وسلاح وصل الى اليهود. وقد ورد في مذكرات برنادوت عن الباخرة ألتالينا قوله: «ان السلاح والعتاد والرجال الذين أتت بهم منظمة الارغون اثناء الهدنة على ظهر الباخرة ألتالينا قلب التوازن العسكري بين العرب واليهود في جميع ميادين القتال ولا سيما في مدينة القدس». وعرف من كميات الاسلحة التي جلبها اليهود اثناء الهدنة نحو ٩٠ طائرة مقاتلة وقاذفة و٦٥ مدفع ميدان و٤ بطاريات مدفعية مضادة للطائرات و٧٠ دبابة وآلاف البنادق والرشاشات وأعداد كبيرة من السيارات واجهزة اللاسلكي والرادار ومعدات لتطوير المصانع الحربية و١٥ مليون رصاصة و٦٠ الف قذيفة مدفع.

ومن الميزات التي حصل عليها اليهود اثناء الهدنة ايضا استلامهم ميناء حيفا من الجيش البريطاني. وأشير فيما يلي الى بعض التفاصيل.

فعلى الجبهة المصرية، ومنذ اليوم الاول للهدنة في ١١ حزيران / يونيو قام اليهود بهجمات عسكرية عديدة وتمكنوا من احتلال عدد من القرى والمواقع العربية وإجلاء العرب عنها ومنها قرى: عسلوج والمحاسير وعبديس وبيت داراس وجولس وسمسم وكوكبا وجير وياسور، كما شنوا هجمات على عدد كبير من القرى والمواقع الاخرى. وعلى الجبهة الاردنية:

اكمل اليهود شق طريق بورما الى القدس تحت أسماع رجال الهدنة ورجال الجيش الاردني وأبصارهم. وادخلوا للقدس عشرات الاطنان من المتفجرات وآلاف البنادق والرشاشات وملايين الطلقات والقنابل. وبلغ عدد الشاحنات التي ادخلت للقدس محملة بمواد تموينية ثمانية آلاف سيارة، يضاف الى ذلك عشرة آلاف رزمة هدايا.

ومن ناحية اخرى لم ينقطع اطلاق الرصاص في القدس طيلة فترة الهدنة. كما قام اليهود في منطقة باب الواد بهجوم على قطاع اللطرون لتحسين موقعهم العسكري.

وعلى الجبهة العراقية، قام اليهود قبيل الهدنة بشن عدة هجمات في قطاع جنين وقطاع رأس العين. كما صُفي جيب المقاومة العسكرية العربي في قرى جبع واجزم وعين غزال قرب حيفا. ولهذا الجيب قصة بطولية مشرفة انتهت نهاية مأساوية. فهذه القرى الثلاث وعدد من القرى الصغيرة الاخرى الواقعة على بعد ٣٠ كيلومترا جنوبي مدينة حيفا على طريق حيفا ــ تل ابيب صمدت للهجمات اليهودية المتكررة من البر والبحر والجو مكبدة العدو خسائر فادحة معتمدة في مقاومتها على سكانها فقط. ولم يتمكن اليهود من احتلالها حتى قيام الهدنة، مع العلم ان هذا الجيب كان محاصرا من جميع الجهات وأقرب جيش عربي له وهو الجيش العراقي يبعد عنه عشرات الكيلومترات. وخلال الهدنة جرت مفاوضات بين اليهود والجيش العراقي اتفق بموجبها على اخلاء هذه القرى من سكانها الابطال واستلمهم الجيش العراقي ونقلهم بسيارات الى العراق.

العرب والهدنة الاولى

لم يستفد العرب من الهدنة كما استفاد اليهود بل اصابهم أكبر الضرر. فلم يستطع اي جيش عربي احضار سلاح جديد للمعركة. ففقد العرب تفوقهم في الجو والبحر والمدفعية وأصبح تفوق اليهود كبيرا. وكل ما استطاع العرب عمله هو زيادة عدد جيوشهم على أرض فلسطين. فأصبح تعداد الجيش المصري ١٨٠٠٠ رجل والجيش العراقي ١٥٠٠٠ كما اعيد تنظيم الجيوش وتوزيعها بشكل افضل. ومع ذلك كانت تقارير قادة الجيوش العربية في نهاية الهدنة تشير الى ان العدو اصبح متفوقا، وان الجيوش العربية لا تستطيع ان تنجح في أي هجوم أو تقدم قد يطلب منها. مع العلم ان العرب حاولوا استغلال تفوقهم قبيل اعلان الهدنة الى حد ما. ففي ٨ و١٠ حزيران / يونيو قصف العرب الاحياء اليهودية في القدس بالمدفعية قصفا شديدا لم يسبق له مثيل دون ان يستغل ذلك في احراز تقدم على الارض. ورد اليهود على هذا القصف بقصف مماثل.

وتقدم الجيش السوري قبيل الهدنة وحرر بعض القرى.

واثناء المفاوضات لعقد الهدنة اتصل المناضلون الفلسطينيون في قطاع اللد والرملة بقائد الجيش الاردني، وكانّ انكليزيا، طالبين امدادهم بالعتاد ودعمهم بالمدرعات لاسترداد بعض

القرى العربية المحتلة شمالي اللد والرملة التي لا بد من استردادها لحماية المدينتين، مثل قرى العباسية وكفر عانة والسافرية وصرفند. وبعد ان وافق القائد الانكليزي على ذلك يوم ٩ حزيران / يونيو عدل عن ذلك واقترح تأجيله والهجوم على مستعمرة جيز الواقعة جنوبي الرملة. فهاجمها المناضلون واحتلوها وأسروا ٣٦ من رجال حاميتها، لكنهم عادوا فأخلوها بأمر القائد نفسه. وفي صباح ١٠ حزيران / يونيو اي قبل قيام الهدنة بيوم واحد تقدم المناضلون بهجوم ناجح فحرروا قرية العباسية، وتوغلوا في قرى كفر عانة والسافرية وكادوا يحتلونها لولا سريان الهدنة وتوقف القتال. وقد خسر العرب في هذا الهجوم ١٨ شهيدا و٦٣ جريحا.

الخروج من المستشفى

غادرت المستشفى الوطني في نابلس يوم ١٩٤٨/٦/١٧ قاصدا القدس، أي بعد نفاذ الهدنة بستة أيام، وكانت يدي المكسورة قد شفيت مع ان عظامها كانت معوجة قليلا. كما شفي الجرح خلف ركبتي اليمنى والآخر خلف ركبتي اليسرى، ولم يشف الجرح الرابع في اعلى فخذي اليسرى بل ظل مفتوحا لمدة طويلة كما سبق ان ذكرت. كما ان عددا كبيرا من الشظايا الكبيرة والصغيرة ظلت موجودة في فخذي. وكان الأهم من ذلك أنني أصبت بهزال شديد وهبوط عام في قواي. ولذلك ما أن زارني صديقي الدكتور أمين مجج حتى قرر أن انتقل الى مستشفى للناقهين أقامه في دير من اديرة قرية العيزرية لأكون تحت اشرافه ومراقبته. وانتقلت للمستشفى ومكثت فيه نحو عشرة أيام قررت بعدها أن أغادر فلسطين الى بيروت لاستخراج ما امكن من الشظايا مغتنما سريان الهدنة وهذا ما كان.

في أوائل تموز/يوليو ١٩٤٨ هيأت نفسي للسفر الى بيروت بقصد العلاج مغتنما استمرار الهدنة. وكانت احدى مشاكلي عدم حيازتي جواز سفر. فقد سبق ان أعطيته للمناضل صبحي شاهين ليهرب به من فلسطين الى مصر سنة ١٩٤٧ يوم كان مطلوبا لحكومة الانتداب، حيا او ميتا. يومها سافر بصورتي نفسها وعلى أساس انه يحمل اسمي. ولم يرجع لي صبحي ذلك الجواز. لذلك لم يكن امامي الا ان اعتمد على هوية جيش الجهاد المقدس، وعلى توصيات متعددة من أحمد حلمي باشا الحاكم العسكري للقدس، ومن خالد الحسيني قائد جيش الجهاد المقدس وغيرهما. واصطحبت معي الصور الشعاعية لاصابتي وتقارير الأطباء لعل ذلك يقنع موظفي الحدود السورية واللبنانية. والمشكلة الثانية انني كنت بحاجة الى نقود لنفقات الرحلة، وكان لي رصيد حساب في بنك الأمة الذي يديره احمد حلمي باشا يبلغ ٥٠٠ جنيه فلسطيني. وطلبت من اخي نهاد ان يسحب لي من حسابي هذا ٢٠٠ جنيه ففاجأني بالقول ان بنك الأمة أفلس بسبب الحرب ولا يستطيع ان يرد الى المودعين ودائعهم. ولم أكن قد سمعت بذلك لشدة استغراقي في واجباتي العسكرية، وتبين لي ان القاصي والداني كان يعرف ان البنك فقد معظم أرصدته في فروعه في يافا وحيفا وغيرها. وان عملاءه المدينين توقفوا عن سداد ديونهم فأصبح البنك بدون سيولة تقريبا. وبعد ان راجع اخي نهاد أحمد حلمي باشا اهتم لأمر علاجي وصرف لي من حسابي ١٠٠ جنيه.

وسافرت الى سوريا، فواجهتني المشكلة الأولى في مركز الحدود في درعا، اذ لم يقبلوا أية وثيقة مما أحمل وأصروا على ابراز جواز السفر. وبعد ان شرحت لهم ظروفي الخاصة ادخلوني على قائد المركز وكان ضابطا واسمه بهجت العادل. وهنا شرحت ظروفي الخاصة مرة ثانية فلم يقتنع وأصر على عدم السماح بدخولي الى سوريا وقال: نحن هنا حذرون جدا من الجواسيس. عندها لملمت الوثائق والصور وانا في اشد الانفعال وخرجت من غرفته دون ان اقول كلمة. وهذا شأني عندما أكون في اشد حالات الغضب، ووقفت بباب مركز الحدود لأعود في سيارة متجهة الى الأردن. وبعد فترة قصيرة أرسل بهجت العادل في طلبي فدخلت عليه وسألني بلطف: ماذا تنوي ان تفعل؟ فقلت: عدلت عن السفر والعلاج وأريد العودة الى القدس لأموت هناك لأنني افضل ذلك على سماع كلمة الجواسيس. وهذه القضية ايضا كنت أجهلها ولم اكن سمعت بها، وفيما بعد علمت ان الدوائر الاستعمارية ودوائر الخيانة

العربية ملأت البلاد شائعات تقول ان شعب فلسطين خائن، باع ارضه لليهود فخلق بذلك مشكلة فلسطين! كما ان الفلسطينيين يتجسسون على الجيوش العربية لمصلحة اليهود ويعملون كذا وكيت من الاعمال الضارة بالجيوش العربية التي جاءت لانقاذهم..!! وكان الغرض من ذلك تغطية خيانة الحكومات العربية وتقصير جيوشها وصرف الأنظار عن تآمر الدول الاستعمارية وبخاصة أميركا وإنكلترا، وقتل حماسة الجنود وصغار الضباط الذين كانوا يتمردون على قادتهم لأنهم يمنعونهم من قتال اليهود قتالا حقيقيا فعالا. فالاستعمار واعوانه لا يكتفون عادة بتدمير حياة المناضل لكي لا يترحم عليه الناس، بل يعمدون الى تشويه سمعته وطعنه في وطنيته وجعل الناس يشتمونه ايضا لكي يصرفوا الأنظار فلا يشتمون الذين خانوه والذين دمروه.

أرى من الضروري ان اشير هنا الى ان ما كان يملكه اليهود سنة ١٩١٨ هو ٢٪ من مجموع اراضي فلسطين وان هذا الرقم بلـغ عند نهاية الانتداب في ايار/مايو ١٩٤٨ نحو ٥,٦٧٪، أي ان اليهود استولوا على ٣,٦٧٪ فقط من اراضي فلسطين خلال ثلاثين سنة كان معظمها اما أراضي تملكها الدولة حولت ملكيتها للمؤسسات الصهيونية، واما أراضي باعتها عائلات اقطاعية لبنانية وسورية. وبات اليهود يملكون ٧٨٪ في نهاية حرب فلسطين التي شاركت فيها جيوش الدول العربية سنة ١٩٤٨*.

أعود الى حديثي مـع بهجت العادل الذي بعد ان استمـع الي سألني هل تعرف شخصا معينا في دمشق ليكفلك ويصرف عليك! فقلت سأصرف على نفسي وأبرزت ما أحمله من نقود. ومن المعارف اعرف الكثير ويمكن الاستفسار عني من مكتب الهيئة العربية في دمشق وحتى من الحاج امين الحسيني بالذات. وبالفعل أجرينا مخابرة هاتفية وأعطاني وثيقة مرور ونمت تلك الليلة في درعا. وفي اليوم التالي سافرت الى دمشق. وفي دمشق كان أخي صبحي يقيم منذ بضعة اشهر للعلاج من اصابته في رأسه التي حصلت في القتال في حارة اليهود بالقدس، وكان استعاد جزءا من ذاكرته وقليلا من النطق. وكان يقيم في بنسيون في حي عرنوس قرب البرلمان اسمه بنسيون أدْما نزلت عنده في غرفته وكان لقاء حارا وحزينا. وفي تلك الليلة زعقت صفارات الانذار تنذر بغارة جوية على دمشق، وطُلب من نزلاء البنسيون النزول الى الطبقة الأرضية فرفضنا. ولم تصل الطائرات المغيرة الى دمشق، ولكن ذلك كان يعني انتهاء الهدنة واستئناف الحرب. وتكرر ذلك في الليلة التالية. وفي هذه الاثناء فكرت في زيارة مكتب الهيئة العربية العليا والحاج امين الحسيني بالذات، الا انني قررت ان اسافر الى بيروت وان اقوم بالزيارة بعد عودتي.

وسافر معي أخي صبحي الى بيروت وادخلت المستشفى الاسلامي التابـع لجمعية المقاصد الخيرية الذي كان يشرف على ادارته الدكتور خالد وقد خصص في تلك الفترة لمعالجة

---

* وردت هذه الأرقام في عدة مراجـع رسمية منها «احصاءات القرى» وهي نشرة اصدرتها حكومة فلسطين، ومنها تقرير اللجنة الانكليزية الأميركية لفلسطين.

جرحى الحرب الفلسطينية. وبعد يومين او ثلاثة (١٩٤٨/٧/١٧) شنَّ اليهود على دمشق غارة جوية عنيفة قامت بها نهارا طائرة كبيرة ذات اربعة محركات، وألقت اعدادا كبيرة من القنابل وسط دمشق فأحدثت دمارا وخسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات وأدت إلى رحيل عدد كبير من سكان دمشق إلى القرى والمدن المجاورة. وبعد يوم أو يومين حضر اخي صبحي إلى المستشفى وقال لي: انا لا احب بيروت واود السفر الى دمشق فوافقت على ذلك.

وفي المستشفى اجريت لي جراحة في الإلية واستخرجت بعض الشظايا الكبيرة التي كانت تضايقني. اما الشظايا الصغيرة فكان من الصعب استخراجها. ومع ان العناية بي وبطعامي كانت جيدة الا انني لم اكن بصحة جيدة. وانخفضت شهيتي للطعام انخفاضا كبيرا مما أزعج الأطباء ولم يعرفوا لذلك سببا. ولم يكتشف الأطباء السر الذي كانت له علاقة باصابتي الا بعد ٢٢ سنة أي سنة ١٩٧٠. وكان معي في المستشفى عدد من جرحى جيش الانقاذ، حدثوني عن معارك الجليل وعن الخسائر الكبيرة التي مُني بها هذا الجيش اثناء معركة الشجرة واثناء الانسحاب من الجليل.

بعد ان مكثت في المستشفى الاسلامي نحو عشرة ايام غادرته عائدا الى دمشق. ولدى وصولي توجهت للبنسيون الذي يقيم فيه اخي صبحي، ولما وصلته صعقت لمنظره فقد تهدمت طبقاته الأربع وتحولت الى كومة من الانقاض بسبب الغارة الجوية التي وقعت وانا في بيروت. وقفت امام الانقاض مشدوها اتساءل هل كان اخي صبحي اثناء الغارة في بيروت؟ لم أكن متأكدا من الجواب فتوجهت مسرعا الى مكتب الهيئة العربية العليا لأسأل عنه، وعندما وصلت التقيته عند الباب وتعانقنا بحرارة. وقال: لقد أخذتني معك الى بيروت لتنقذني، فقد قتل في البنسيون اكثر من ١٤ شخصا وجرح آخرون. واما أنا فقد فقدت جميع ملابسي وحاجاتي وكل ما أملك وهي الآن تحت الانقاض.

في فندق الجامعة العربية

نزلت في دمشق في فندق الجامعة العربية وهو فندق شعبي متواضع جدا يقع في ساحة المرجة، يؤمه المناضلون الفلسطينيون في تلك الأيام. والتقيت فيه عددا من الفلسطينيين وتحدثنا مطولا عن اخبار فلسطين ومقترحات برنادوت واستئناف القتال. والتقيت الاستاذ المناضل نمر المصري، والمناضل قاسم الريماوي وبرفقته عدد من قادة جيش الجهاد المقدس من مرتب بير زيت. وفي اليوم التالي زرت جرحى النضال الفلسطيني في مستشفى الجامعة وكان بينهم تلميذي خالد الزماميري. ولكل ممن ذكرت قصة هامة، فالاستاذ نمر المصري قادم من مدينة اللد بعد ان شهد سقوطها في أيدي اليهود، وقاسم الريماوي جاء ليحصل على تعزيزات لقواته في بير زيت، وخالد الزماميري فقد احدى عينيه في هجوم جريء قام به العرب في

القدس. كما زرت اثناء وجودي في دمشق الحاج امين الحسيني واجتمعت به مطولا. وكانت مقترحات برنادوت واستئناف القتال تستحوذ على اهتمام الجميع.

مقترحات برنادوت

كان الوسيط الدولي الكونت برنادوت مكلفا بالتوفيق بين العرب واليهود. لذلك قام باتصالات عديدة بالطرفين اثناء الهدنة الأولى. ومن هذه الاتصالات أنه دعا عددا من العرب واليهود للتفاوض في جزيرة رودس «من أجل احلال السلام». وكان بين العرب فلسطينيان هما المحامي هنري كتن والمحامي احمد الشقيري. واجرى برنادوت اتصالاته بالفريقين كلا على حدة واستمع الى آرائهما. لكن المفاوضات انقطعت بسبب خرق اليهود المتكرر للهدنة خصوصا في جبهة الجيش المصري. وفيما يتعلق بالباخرة ألتالينا واستيراد اليهود السلاح، وفي ضوء المناقشات، قدم برنادوت مقترحاته للطرفين، وكانت كثيرة أهمها:

١ ــ ضم منطقة النقب كلها او بعضها الى القسم العربي.

٢ ــ ضم الجليل الغربي كله أو بعضه الى القسم اليهودي.

٣ ــ ضم مدينة القدس الى العرب.

٤ ــ ضم القسم العربي بأكمله الى المملكة الأردنية الهاشمية وقيام اتحاد بين دولة اسرائيل ودولة الأردن يتضمن تعاونا اقتصاديا واسعا.

رفض الطرفان مقترحات برنادوت رفضا باتا وحملا عليه ووجها له نقدا شديدا. فقد رأى فيها العرب اصرارا على مشروع التقسيم واقامة دولة يهودية واعتبار اراضي شرق الأردن جزءا من فلسطين، وبالتالي إعطاء اليهود اكثر مما أعطاهم قرار التقسيم. أما اليهود فقد رحبوا بعدد من المقترحات لكنهم رفضوا رفضا باتا اقتراح ضم اراضي النقب للقسم العربي وضم مدينة القدس إليه ايضا. ولا شك ان الاقتراحين الأخيرين كانا السبب الرئيسي في قيام اليهود في ١٧/٩/١٩٤٨ باغتيال برنادوت.

ثم عاد برنادوت واقترح تمديد الهدنة. وتردد العرب في قبول ذلك ثم قرروا رفض التمديد لأن اليهود كانوا يستغلون الهدنة استغلالا فاحشا. أما اليهود فوافقوا على تمديد الهدنة، لكن القتال استؤنف في ٩ تموز/ يوليو ١٩٤٨.

القدس بين الهدنتين

(٩/٧/١٩٤٨ ــ ١٨/٧/١٩٤٨)

وقع الكثير من القتال بين العرب واليهود في القدس وكان اليهود يحاولون العودة الى البلدة القديمة مستفيدين الى حد كبير مما حصلوا عليه من اسلحة جديدة بما فيها المدفعية اثناء الهدنة. وتبادل العرب واليهود القصف المدفعي الشديد. ويمكن القول ان القتال كان متواصلا طيلة هذه الفترة دون ان يحقق اي من الطرفين مكاسب على الأرض.

وفي هذا السياق حدثني تلميذي الجريح خالد الزماميري عن ظروف اصابته فقال:

قبل الهدنة الثانية بيوم واحد أي في ١٧ تموز/ يوليو ١٩٤٨ قام المناضلون من جيش الجهاد المقدس بالتعاون مع فصيل من الكتيبة الثالثة من الجيش العربي الاردني معزز بعدد من المدرعات بهجوم على الأحياء اليهودية المواجهة لاحياء القدس الشمالية. واشرف على ترتيبات الهجوم ضابط بريطاني. انطلق الهجوم من منطقة عمارة الأوقاف المجاورة لكنيسة المطران باتجاه حي ميئه شعاريم وحي بيت يسرائيل. وتقدم المناضلون تغطيهم مدافع المدرعات ورشاشاتها. وذعر اليهود فولوا الأدبار، واندفع العرب في عمق الأحياء اليهودية بعد ان اجتازوا المواقع المحصنة. وكان من الممكن تطوير الهجوم والاستيلاء على الأحياء اليهودية، الا ان القائد البريطاني اعطى امرا للمدرعات ولجنود الجيش بالانسحاب «لأن الغرض من الهجوم قد تحقق». وانسحب الجنود مكرهين غاضبين، وتأخر المناضلون في الانسحاب محاولين الاحتفاظ بمواقعهم التي استولوا عليها. إلا ان اليهود شنوا هجوما معاكسا بعد ان توقف قصف مدافع المدرعات. ولذلك وقعت عدة اصابات بين المناضلين، وبعضهم استحال عليه الانسحاب. واصيب المناضل خالد الزماميري بشظية في عينه ففقدها وكاد ان يسقط بيد اليهود لولا أن أخاه وعددا من المناضلين انجدوه وعادوا به.

خسر الجيش العربي والمناضلون عددا غير معروف من الشهداء قيل انه زاد على الثلاثين شهيدا سقط معظمهم بعد صدور أمر الانسحاب. وكان تعليقي على هذا الهجوم الذي قاده الميجر هنكن تورفن متفقا مع اهالي القدس وجنود الجيش، انه مكيدة دبرت للمناضلين وجنود الجيش العربي الذين كانوا يتذمرون من اوامر القيادة الانكليزية التي تحول بينهم وبين أي تقدم في اتجاه الأحياء اليهودية. وفي الوقت الذي كان العرب فيه يشعرون انهم قادرون على تحرير القدس بأكملها فقد اختار هذا الضابط البريطاني القيام بالهجوم على اماكن يصعب اختراقها لمناعتها الطبيعية، بالاضافة الى التحصينات التي اقيمت فيها مثل بناية مندلبوم. واشير الى ان هذه الأحياء وتحصيناتها كانت مواجهة تماما للقطاع الذي كنت اقوده، ولو كنت يومها موجودا في القدس لما وافقت على الهجوم من هذه المواقع. ولا شك ان هنكن تورفن كان يعرف ذلك ويريد للعرب ان يتكبدوا خسائر فادحة وان يفشلوا في التقدم. لكنه لما رأى أن اليهود ارتعبوا وفروا، وان الهجوم العربي نجح وكان يمكن له ان يصبح نجاحا كبيرا لو استمر الدعم، أصدر أوامره بالانسحاب الذي اوقع بالمناضلين والجيش خسائر فادحة. اما خسائر اليهود فلم تعرف.

سقوط اللد والرملة

لم أشاهد في حياتي شخصا شارد الذهن كما شاهدت الاستاذ المناضل نمر المصري في دمشق. كنا في شهر رمضان وكنت اراه جالسا من الصباح الباكر حتى آذان المغرب في ردهة الفندق الصغير على المقعد نفسه لا ينتقل منه الا لأداء الصلاة ثم يعود مطرقا صامتا. حاولت

مرارا أن أُهّون عليه ما هو فيه وهو صامت، وكأنه لا يسمع ما أقول. انفجر مرة في الكلام وقال: كيف استطيع ان أبعد عن مخيلتي هول ما جرى وهول ما هو قائم. شهدت المذبحة في اللد، شهدت نهر الدم امام الجامع وطردت مع من طردوا بعد ان جردونا من كل ما نملك، وكان علينا ان نسير في الطريق الوعر الى رام الله بلا ماء ولا طعام في يوم كريه من أيام تموز / يوليو اشتدت حرارته وسكن هواؤه وغدت سماؤه رمادية قاتمة وغدا استنشاق الهواء ثقيلا، والأطفال يصرخون ويموتون والنساء يولولن وقد تقرحت اقدامهن من المشي وكلت سواعدهن من حمل الأطفال، ورصاص اليهود يلاحقنا والعديد منا يسقطون إعياء او يموتون. كيف استطيع يا أخي بهجت ان أنسى ولو للحظة يوم وصولنا الى بيرزيت نفترش ترابها ونلتحف سماءها ومعي اكثر من عشرين من اهلي.. ينظر اليَّ اخي بعد الغروب نظرة معبرة ويقول: هل تسمح لي؟ فأفهم ما أراد واقول نعم... الأطفال لا يستطيعون ان يحتملوا. وذهب يطرق الابواب ليحصل على ما يسد رمقهم. كيف انسى انهم جميعا ومنذ اسبوع على حالهم ينتظرون عودتي، فقد حضرت الى دمشق لأقابل صديقي طلعت الغصين لأستدين منه بعض المال. ولسوء الحظ لم أجده في دمشق وما زلت انتظر قدومه.

سميت اللد سنة ١٩٤٨ بالدولة الثامنة على اعتبار ان الدول العربية المشتركة في الحرب سبعة واللد هي الثامنة، بسبب صمودها وكثرة سلاحها ومسلحيها النسبية، خصوصا بعد ان لجأ إليها الألوف من سكان يافا والقرى المجاورة، وبعد ان خاضت هي واختها الرملة معارك ناجحة ضد اليهود.

كانت اللد هدفا عسكريا هاما لكل من العرب واليهود. فكان على العرب ان يحتفظوا بها، وكان يفترض ان تلتقي فيها ثلاثة جيوش: العراقي والأردني والمصري، لتخوض معا معركة فاصلة ضد اليهود عند تل أبيب، وهي على الأقل جزء من القسم المخصص للعرب بموجب قرار التقسيم. وكان اليهود بكل تأكيد يخططون لاحتلالها. فبقربها يقع اكبر مطار عسكري في فلسطين واكبر مطار مدني في الشرق الأوسط. وفي محطتها تلتقي جميع سكك حديد فلسطين. وبالقرب من الرملة معسكر صرفند اكبر معسكرات الجيش البريطاني. وفي الرملة ايضا تلتقي شبكة الاتصالات الهاتفية لفلسطين وللشرق الأوسط.

كان عدد المقاتلين فيها قبيل انتهاء الانتداب نحو ١٣٠٠ رجل من جيش الجهاد المقدس والحرس البلدي والمتطوعين (الفزعات) ولديهم ١١ مصفحة و٣ مدافع مورتر و٧ مدافع ميدان و ٢٥ رشاش برن و ٤ رشاشات هوشكيس. وكانوا حتى قيام الهدنة الأولى قد استولوا على مطار اللد ومحطة سكة الحديد ومعسكر صرفند والمستودعات الرئيسية للبنزين.

وعند دخول الجيوش العربية وصلت سرية مشاة من الجيش الأردني بقيادة الرئيس اديب القاسم وزعت بين اللد والرملة، وعُيِّنَ وكيل القائد ادريس سلطان حاكما عسكريا على المدينتين. وبمجرد انتهاء الهدنة الأولى في ٨ تموز / يوليو ١٩٤٨ بدأ اليهود هجوما ساحقا على

اللد بقوة ٥٠٠٠ رجل يقودهم عسكريون محترفون اجانب مدججون بالأسلحة التي وصلتهم حديثا.

في ٩ تموز / يوليو تقدموا من الجنوب بمجموعة لواء. ومن الشمال بمجموعة لواء وبعد ان احتلوا عدة قرى التقت القوات شرقي اللد فأصبحت معزولة عن المنطقة العربية. وفي هذا اليوم وصلت ١٨ مصفحة من الجيش الأردني الى قرية بيت نبالا شرقي اللد ولكنها لم تخترق الطوق. وفي ١٠ تموز / يوليو استولى اليهود على مطار اللد فطوقوا البلدة من الشمال وقصفوها من الجو مستخدمين طائرات كبيرة ذات اربعة محركات. وقتل من جراء القصف اكثر من ٢٠ وجرح اكثر من ٦٠.

في ١١ تموز / يوليو صباحا اسقطت الطائرات نشرات تدعو اهالي اللد والرملة للاستسلام وإلى إرسال وفد إلى قيادة الهاغاناه في قرية البرية شرقي اللد. وعند الظهر شن اليهود على مدينة اللد هجوما مركزا من جهة الشرق فقصفوا المدينة بمدافع المورتر ومدافع الميدان والطائرات قصفا شديدا مركزا. ومع ذلك صمدت المدينة وظل مقاتلوها في مواقعهم يحولون دون تقدم المشاة. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر تقدمت اعداد كبيرة من المصفحات والدبابات وخلفها المشاة فاستولوا على المدينة بكاملها ولجأ السكان الى بيوتهم..

في ١٢ تموز / يوليو دخلت من شمالي المدينة ٣ مدرعات من الجيش الأردني جاءت لاخلاء الحاكم العسكري ادريس بك الذي انسحب مع من في اللد من الجنود الأردنيين. وعندما شاهد اهل اللد المدرعات الأردنية اعتقدوا ان نجدة كبيرة جاءت لانقاذهم، فانطلقوا يهاجمون اليهود وخصوصا في شمالي المدينة. وأصيب اليهود بالذعر وفروا هاربين بعد ان قتل عدد منهم. وبعد فترة قصيرة انسحبت المدرعات الأردنية فكرّ اليهود على العرب وتغلبوا عليهم واعملوا فيهم السلاح، فقتلوا اكثر من ٦٠٠ شخص منهم نحو ١٧٠ شخصا ابيدوا في المسجد، وجرت دماؤهم في الشارع المقابل. وبذلك بلغت خسائر اللد في القتال ١٣٠٠ شهيد.

وفي يوم الثلاثاء ١٣ تموز / يوليو طرد اليهود ٥٠ الف عربي من بيوتهم من اهل اللد ومن اللاجئين فرحلوا رجالا ونساء شيوخا واطفالا دون ان يسمح لأحد منهم ان يحمل شيئا من نقوده او متاعه، وأجبروا على الخروج من مخرج معين وأخضعوا للتفتيش وجردوا من كل ما يحملون. حتى النساء جردن من الحلي حتى أصغر الخواتم، وساقوا الجميع الى طريق وعرة بين قريتي جمزو ونعلين في اتجاه رام الله ومات على الطريق نحو ٣٥٠ شخصا.

أما مدينة الرملة فقد كان فيها اكثر من ٣٠٠ مقاتل وقسم من افراد سرية مشاة بقيادة الرئيس اديب القاسم.

وفي ١١تموز / يوليو وبعد دخول اليهود الى اللد بساعتين بدأت معركة الرملة حيث تقدم المشاة ومعهم المدرعات. وانسحب مساء ذلك اليوم جنود الجيش الأردني وتبعهم المناضلون.

وسلمت المدينة التي اصبحت ساقطة بسقوط اللد صباح يوم ١٢ تموز/ يوليو. واتفق عند التسليم ان يسمح لسكانها بالبقاء فيها الا ان اليهود رحلوهم ما عدا بعض الأفراد.

ولا بد لي ان اشير هنا الى ان المصادر التاريخية تؤكد، بمن في ذلك بعض ضباط الجيش الاردني الذين دونوا مذكراتهم عن حرب فلسطين وعن نكبة اللد*، أن غلوب باشا خطط للتخلي عن اللد والرملة دون ان يشعر حاميتها او اهلها بذلك. وانه اعلم المسؤولين الأردنيين بذلك. كما حاول سحب القوات الأردنية من اللطرون وباب الواد، لكنها تمردت ورفضت الانسحاب. ويؤكد ضباط الجيش الأردني انه كان بالأمكان صد الهجوم على اللد لو قامت قيادة الجيش الأردني بما يتطلبه الموقف، وان غلوب كان متواطئا مع الأهداف اليهودية وبدلا من تحريك الجيش بالشكل الصحيح اصدر في صباح اليوم الأول للهجوم اليهودي عدة اوامر بتحريك الكتائب الأردنية بشكل يلفت الأنظار. وكمثال على ذلك كان من المقرر ان تتجه الكتيبة الأولى من القدس يوم ٩ تموز/ يوليو الى منطقة الرملة لتهاجم مستعمرتي ريشون ورحوفوت صباح يوم ١١ تموز/ يوليو اي بمجرد انتهاء الهدنة، ثم تتمركز في معسكر صرفند. وبدلا من ذلك صدرت لها الأوامر بالحركة الى العدسية في شمال الغور الأردني.

استثمار اليهود
لاحتلال اللد والرملة

بعد سقوط اللد والرملة اخذت القوات اليهودية تنتشر شرقا وشمالا في مناطق خالية من الجيوش العربية إلا من أهل القرى، فاحتلت نحو ١٠ قرى عربية شرقي اللد وإلى الشمال منها مع انه كان بامكان الجيش الأردني إيقافها عند حدود المدينة. وفي ١٦ تموز/ يوليو ١٩٤٨ وصل اليهود الى قرية البرج وقرية بيرماعين فهددوا مواصلات الكتيبتين الثانية والرابعة المرابطتين في اللطرون وباب الواد، واصبحتا شبه مطوقتين وصار الطريق الى رام الله شبه مفتوح امام اليهود. وجاء قائد اللواء الثالث اشتون الى قيادة اللواء وطرح على ضباطها خطة تقضي بانسحاب الكتيبة الثانية والكتيبة الرابعة الى رام الله للدفاع عنها وان تدمرا قبل انسحابهما مدافع الهاون والمدافع المقاومة للدبابات وبطارية مدافع الميدان. فتمرد الجنود وشهروا عليه اسلحتهم فولّى هاربا بسيارته الى رام الله. كما تمردت الكتيبة الأولى وطردت قائدها الانكليزي. وبعد الظهر جاء غلوب باشا ومعه قائد الفرقة لاش وقائد اللواء اشتون وطرح غلوب خطة هجوم فوري بسريتين من المشاة وسرية مدرعات واسناد مدفعي على قريتي البرج وبير ماعين. وكان ذلك يعني التقدم والشمس في وجوه الجنود العرب. ورغم معارضة بعض الضباط العرب الذين طلبوا ان يجرى الهجوم صباح اليوم التالي وبقوات اكبر

---

* أخص بالذكر عبد الله التل وعلي أبو نوار.

لضمان نجاحه، ورغم شعورهم ان غلوب وضباطه الانكليز يريدون بهذا الهجوم ان يوقعوا بالجيش هزيمة تجعلهم يوافقون على خطة الانسحاب، أصر غلوب على الهجوم فورا. فتقدمت القوات العربية واستولت على القريتين متكبدة خسائر فادحة. وبدلا من استثمار هذا النصر أصدر قائد اللواء في الساعة العاشرة ليلا أمرا بالانسحاب من البرج وبير ماعين فعاد اليهود الى احتلالها بعد منتصف الليل، ولكن تقدُّم اليهود في هذا الاتجاه توقف.

وكان من النتائج الخطيرة لاحتلال اللد والرملة انسحاب الجيش العراقي من رأس العين لقلة عدده فاستولى اليهود عليها يوم ١١ تموز/ يوليو ١٩٤٨. وفي يوم ١٨ تموز/ يوليو ١٩٤٨ شنَّ اليهود هجوما كبيرا على باب الواد وبخاصة على دير اللطرون ومركز بوليس اللطرون استخدموا فيه الدبابات ومعظم القوات التي احتلت اللد والرملة. الا ان الجيش العربي تمكن من صد هذا الهجوم. كما صد الجيش العربي في اليوم نفسه قوات يهودية كانت تتقدم في اتجاه قرية صفا على الطريق الى رام الله. وفي ٢٢ تموز/ يوليو ١٩٤٨ أعلنت الهدنة الثانية وتوقف القتال.

اجتماعي بالحاج امين الحسيني

في أواخر تموز/ يوليو ١٩٤٨ وخلال رمضان زرت الحاج امين الحسيني في بيته بدمشق، وكان في ديوانه عدد من الزوار. كان الغرض الرئيسي من الزيارة مجرد تقديم الشكر له وللهيئة العربية العليا على رعايتهم أخي صبحي في دمشق. واشير هنا الى ان علاقتي الشخصية بالحاج امين منذ الثلاثينات شابها الكثير من التحفظ من جانبي، في الوقت الذي كان هو حريصا على كسبي كمؤيد. لم أكن أشك في وطنية الحاج امين ولكنني وكثيرين غيري من أنصاره لم نكن راضين عن بعض تصرفاته قبل سنة ١٩٣٧ حين كانت علاقاته بالانكليز حسنة.

عند انتهاء الزيارة دعاني الى الافطار على مائدته فوعدته بالحضور. وفي المساء حضرت وتناولت طعام الافطار مع عدد من الضيوف. واستبقاني الى ما بعد انصراف جميع الضيوف ودارت بيننا محادثات طويلة شملت عدة امور تتعلق بالنضال الفلسطيني، وجه خلالها نقدا عنيفا لجامعة الدول العربية، ومما قاله: ان في ملفات جامعة الدول العربية اتفاقية بينها وبين بريطانيا تتعلق بالشروط التي دخل على اساسها جيش الانقاذ الى فلسطين في اوائل سنة ١٩٤٨. وفي النهاية دخل الحاج امين في صلب الموضوع الذي كان يريد طرحه فعرض عليَّ ان يعينني قائدا عاما لجيش الجهاد المقدس في مدينة القدس دون ان يذكر لي ما هو الواجب الذي يفترض ان اقوم به بعد ان اتولى هذا المنصب. وبادرت الى الاعتذار عن عدم قبول هذا المنصب. ثم حاولت ان احدد الواجب بنفسي فقلت: اليهود يحتلون قسما من القدس والجيش الأردني يحتلّ الباقي فهل المقصود من تعييني في هذا المنصب تحرير القدس من اليهود

أم السيطرة على الجانب الذي فيه الجيش الأردني؟! فقال: كلا الأمرين. فتكلمت طويلا مؤكدا ما يلي:

١ ــ ان مثل هذا الواجب لا يستطيع تحقيقه سوى قوة عسكرية اكبر بكثير من قوة جيش الجهاد المقدس الحالية.

٢ ــ اصبح لدى القوات الصهيونية مدفعية ميدان ومدرعات ودبابات وطائرات، وسلاح جيش الجهاد المقدس مجرد بنادق ورشاشات خفيفة ومتوسطة واعداد قليلة من مدافع المورتر. كما اصبح بامكانهم نقل اعداد غير محدودة من المقاتلين والمعدات الى القدس.

٣ ــ يفترض فيمن يتولى هذا المنصب ان يكون عسكريا برتبة عالية، وذا كفاءة وتجربة عسكرية عاليتين، وما انا الا مجرد مناضل جاد استطيع قيادة سرية او اكثر بقليل من المناضلين، ولا استطيع ان اقود قوة عسكرية كبيرة.

٤ ــ تقوم الآن هدنة في القدس. وبالطبع يمكن تجاهلها وخرقها، ولكن اليهود لا زالوا ينوون احتلال القدس بأكملها مما يستدعي تعاون قواتنا مع الجيش الأردني للدفاع عن القسم العربي.

رد الحاج امين على هذه النقاط واحدة بعد اخرى مؤكدا امكانية توفير جميع المتطلبات، ومؤكدا ان الخبرة الميدانية التي اكتسبتها والكفاءة التي ابديتها اثناء القتال في القدس تفوق اي شهادة او رتبة عسكرية نظامية، وطلب مني اعداد قائمة بطلباتي من المال والسلاح بما في ذلك المدرعات التي سيوفر لي المال لشرائها. فكررت اعتذاري عن عدم قبول القيام بهذا الواجب، ولكنني نتيجة لإلحاحه وعدته ان افكر في الأمر وأن أعطيه الجواب في اليوم التالي.

ولما عدت الى الفندق في ساعة متأخرة وجدت قاسم الريماوي ورفاقه من قيادة بيرزيت بانتظاري، فقد عرفوا اجتماعي الخاص بالمفتي وكانوا حريصين على معرفة ما دار فيه ونتائجه. فشرحت لهم بصراحة وامانة ما جرى من حديث، فحثوني على قبول هذا المنصب، وقالوا لقد حصلنا من المفتي على تعزيزات ودعم لجيش الجهاد المقدس في بيرزيت واشترينا عباءات وطحينا وغيرها. فأثار حديثهم في ذهني شكوكا زادتني اصرارا على الاعتذار. فالمفتي يعرف بدون شك انني لا استطيع القيام بما يطلب، وأنا أعرف انه لا يستطيع توفير السلاح والعتاد والمال اللازم. فما هو المقصود اذن؟ وفي اليوم التالي قابلت المفتي وسلمته اعتذارا خطيا موجزا باصرار واضح ولم اضمنه أي مطلب من مال او سلاح وودعته وسافرت الى القدس.

٣٩ العودة ثالثة الى الميدان

سبق ان ذكرت أنني عندما أدخلت المستشفى الوطني بنابلس تصورت أنه لم يعد بامكاني أن أرجع الى الميدان لكثرة جراحي وخطورتها. ولكن ها أنا في أواخر تموز / يوليو ١٩٤٨ أعود الى القدس، وأعود الى الميدان، وأصادف المستر بوبجيان مدير مدرسة المطران، وهو ارمني، فيرفع لي قبعته محييا ويقول: I have to raise my hat for you، «فأنت لست جنديا أو ضابطا نظاميا، وباستطاعتك أن تبتعد عن الميدان، خصوصا بعد أن أصبت بجروح خطرة أكثر من مرة، ومع ذلك لا تلبث في كل مرة أن تعود سريعا الى الميدان بدافع من الشعور بالواجب الوطني».

كانت الهدنة الثانية معلنة منذ ١٨ تموز / يوليو ١٩٤٨. لكن اليهود لم يتقيدوا بها أبدا وحاولوا مرارا، قبيل الهدنة وفي أثنائها، أن يحتلوا البلدة القديمة بخاصة والقسم العربي من القدس بعامة، يشجعهم على ذلك ما حصلوا عليه من تعزيزات في السلاح والعتاد والرجال حيث بلغ عدد مقاتليهم في القدس ١٢ الف رجل، وأصبح لديهم عدد كبير من مدافع الميدان والطائرات وعشرات الآلاف من قذائف المدفعية، كما أن طريق بورما أصبحت أكثر صلاحية من السابق للسير ونقل الامدادات.

وعلى الرغم من قيام الهدنة الثانية كانت الحرب مستمرة في القدس عند عودتي اليها. وكان عليّ أن أشارك فيها، وكان طابع الحرب من جانبنا دفاعيا.

تفقدت قواتي في حي باب الساهرة فوجدت أن سرية هذا الحي ما زالت قائمة بقيادة المناضل شفيق النشاشيبي وادارة السيد رؤوف درويش. الا أن واجبها العسكري أصبح مقتصرا على موقع أمامي واحد هو استحكام قبور السلاطين، ويكاد أن يكون واجبها محصورا في أنها خط دفاع ثانٍ خلف الجيش العربي الأردني.

أما سرية حي المصرارة فقد تولى الجيش العربي الأردني الواجب العسكري مكانها، وتمركزت السرية في حارة السعدية داخل البلدة القديمة، كقوة احتياطية للجبهة. وانخفض عددها وخسرت بعضا من خيرة مناضليها. فالمناضل اسماعيل الشرباتي، الرامي الماهر الشجاع على رشاش البراوننغ، استشهد اثناء قصف مدفعي مركز. والمناضل الشجاع سعيد ابو طير التحق بالمناضلين الفلسطينيين الذين جندهم الجيش الاردني، وقد احزنني عندما تفقدت الخط الاماميّ في حي المصرارة أن أجد اليهود وقد أصبحوا يشغلون نحو نصف حي

المصرارة وسعد وسعيد حيث استغلوا اعلان الهدنة فدفعوا بأعداد كبيرة من المدنيين الى المنطقة الحرام وأسكنوهم فيها.

ارتفعت معنويات رجالي بعد عودتي، وقمت باعادة تنظيم سرية باب الساهرة وزيادة عدد سرية المصرارة فضممت اليها فئة كاملة (فصيل) بقيادة المناضل الشيخ فارس ادريس وهو أزهري ناضل في ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ودخل السجن وتعرض لتعذيب عنيف من قبل الانكليز، وكان حتى سنة ١٩٤٨ مدرسا مثلي في الكلية الابراهيمية بالقدس. وقد اسندت الى هذه السرية واجبا عسكريا في خط القتال الامامي في قلعة باب الخليل، واستخدمت قسما منها كقوة احتياطية.

صادفت بعد عودتي الى القدس مهمة جديدة، فالمناضل حافظ بركات، قائد سرية البلدة القديمة وزميل النضال منذ سنة ١٩٣٧ أصيب في غيبتي بالقرب من باب الخليل بشظية قنبلة مورتر دخلت في عينه فأتلفتها واستقرت في دماغه دون أن تقضي عليه، لكنها أقعدته عن النضال. وبسبب ذلك طلب مني خالد الحسيني قائد جيش الجهاد المقدس أن أتولى قيادة سرية البلدة القديمة بالاضافة الى قواتي الأخرى. فوافقت، وتسلمت قيادة هذه السرية. ولما تفقدتها وجدت أنها تضم عددا من المقاتلين الأشداء الذين تمرسوا في حرب الشوارع، ومعظمهم من أبناء مدينة الخليل وقراها. وكان المناضل عبد المهدي المحتسب يتولى اعلى منصب فيها، مساعدا لقائد السرية. ويقود كل من المناضلين رشدي غيث وعبد القادر ابو عريش فصيلا من السرية. أما عبد المهدي المحتسب وهو من أبناء الخليل فقد كان عسكريا نظاميا مدربا خدم في قوة حدود شرق الأردن (الزنار الاحمر). أما رشدي غيث، وهو من أبناء الخليل أيضا فكان قبل التحاقه بالمناضلين حجّارا متين البنية قوي العزيمة والاخلاق، اكتسب خبرة وكفاءة قتالية اثناء القتال الفعلي في القدس. أما عبد القادر ابو عريش (ابو بهجت) وهو من قرية حلحول فكان عسكريا خدم في الجيش البريطاني أثناء الحرب العالمية الثانية، وكان مقاتلا شجاعا واداريا ممتازا. كما وجدت أن سلاح هذه السرية جيد نسبيا بل يمكن أن أقول إن سلاحها كان أفضل من سلاح أية سرية في جيش الجهاد المقدس بعد سرية المناضل ابراهيم ابو دية.

كانت هذه السرية تضطلع بواجبين عسكريين، فنصفها بقيادة رشدي غيث ومقرها جانب من المدرسة العمرية (مدرسة الروضة سابقا) والتي كانت في تلك الفترة مقر قيادة الكتيبة السادسة من الجيش العربي الأردني بقيادة الرئيس عبد الله التل، تولى مسؤولية حراسة بيوت البلدة القديمة وحوانيتها من اللصوص الذين كثروا في تلك الأيام، كما استُخدمت كقوة احتياطية للخط الأمامي الذي يتمركز فيه الجيش العربي داخل البلدة القديمة. أما النصف الآخر من السرية ويقوده عبد القادر ابو عريش فكان مقر قيادته في فندق البتراء بباب الخليل وواجبه العسكري الدفاع عن أخطر موقع في الخط الامامي لقلعة باب

الخليل التي كان يشترك في الدفاع عنها الجيش الأردني والبوليس الفلسطيني وجيش الجهاد المقدس. وبذلك كانت تحت قيادتي في القلعة مجموعتان: مجموعة الشيخ فارس ادريس ومجموعة عبد القادر ابو عريش.

كان عليّ أن أقوم بعيادة المناضل حافظ بركات فسافرت الى مدينة الخليل حيث يقطن هو وأسرته كروم المدينة بالقرب من موقع الرامة. وفوجئت بوضع حافظ الصحي. فعندما سمعت أنه خارج المستشفى وأنه يسكن الكروم تصورت أنه يتماثل الى الشفاء لكن الأمر كان على العكس تماما، فقد وجدته في شبه غيبوبة وعينه المصابة ملتهبة، وكأنه اعتبر حالة ميئوسا منها. لذلك قمت فورا بنقله الى مستشفى الهوسبيس في القدس. ولما اخبرني أطباء المستشفى أن حالته خطرة وأنه بحاجة الى جراحة في الجمجمة يتولاها اخصائيون في الأعصاب والدماغ وأن علاجه لا يتيسر الا في مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت، طلبت من قائد جيش الجهاد المقدس خالد الحسيني ضرورة الاهتمام بهذا المناضل الشجاع. وبناء على ذلك تكفّلت القيادة بمعالجته في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت على نفقتها، وكذلك الانفاق على مرافق يشرف على أموره ويصاحبه من القدس الى بيروت ويظل معه هناك أثناء العلاج.

وفي مستشفى الجامعة قرر الأطباء أن هناك شظية مستقرة في الدماغ وأن فتح الجمجمة واستخراج الشظية يعتبر عملية خطرة بنسبة ٩٠ ٪. واذا لم تجر العملية فسيتوفى بعد فترة قصيرة. لذلك وافق اقاربه على اجراء العملية ونجا من الموت بأعجوبة. الا أنه ظل حتى آخر حياته في وضع صحي مقعد.

أهم أحداث القدس في غيبتي

سبق أن تحدثت عن تحرير العرب الحي اليهودي في القدس القديمة، وعن الهجوم الذي شنه العرب في غربـي القدس على احياء ميئه شعاريم وبيت يسرائيل وسان هدريا اليهودية، كما تحدثت عن سقوط اللد والرملة وقراهما بأيدي اليهود، وكذلك عن انجاز اليهود طريق بورما الجبلية، وعن وصول كميات هائلة من السلاح والعتاد والمقاتلين لليهود. كل ذلك جرى اثناء غيبتي، وأضيف الى هذه الأحداث ما يلي:

في السابع من تموز/يوليو تم الاتفاق بين العرب واليهود بوساطة دولية على أن تعتبر منطقة هداسا والجامعة العبرية، الواقعة خلف خطوط العرب في القدس، وكذلك قرية العيساوية المجاورة، منطقة مجردة من السلاح وأن يسمح بتزويدها بالماء وغير ذلك من الحاجات عبر المنطقة العربية. وكان من المفروض أن تسقط منطقة هداسا والجامعة في أيدي العرب، لأنها ساقطة عسكريا وتشكل خطرا يهدد المواقع العربية. وبكل تأكيد كان هذا الاتفاق نتيجة لضغط الانكليز على العرب استجابة لرغبات اليهود المقدسة!.

كان اليهود مصممين على الاستيلاء على القدس بأكملها، لذلك لم يتقيدوا بالهدنة

وشنوا هجمات متواصلة، وعينوا موشيه دايان قائدا جديدا للهاغاناه بدلا من شالتئيل. وفي ٩ و١٠ تموز/ يوليو شنوا هجوما عنيفا على القدس ونسفوا جانبا من السور قرب الباب الجديد لفتح ثغرة فيه، ولكن العرب صدوا الهجوم وسدوا الثغرة. وفي ١٥ تموز/ يوليو قصفت الطائرات اليهودية القسم العربي من القدس. وفي ١٦ و١٧ تموز/ يوليو الموافق ٩ و١٠ رمضان تعرضت القدس القديمة لقصف مدفعي لم يسبق له مثيل، وسقط عدد كبير من القنابل على الأماكن المقدسة فأصابت ٤ قنابل المسجد الأقصى وأصابت قنبلة قبة الصخرة وسقطت ٤٠ قنبلة في ساحات الحرم. كما أصابت القنابل كنيسة القيامة وعددا من الكنائس والأديرة الأخرى، ومستشفى الهوسبيس ودار الأيتام الاسلامية. وفي أثر ذلك وجه الحاكم العسكري للقدس، احمد حلمي باشا، نداء الى الدول العربية وغيرها يناشدها التحرك لحماية الأماكن المقدسة من الدمار.

وفي ٢٩ تموز/ يوليو قام اليهود بهجوم عام على مدينة القدس فهاجموا حي الشيخ جراح والمصرارة وسعد وسعيد، كما قصفوا مناطق باب الاسباط وباب الساهرة وباب العمود.

الحديث عن الهدنة

بعد عودتي الى القدس كان الحديث عن الضرر الجسيم الذي لحق بالعرب بسبب قبول الهدنة الاولى يدور في كل مجلس، سواء في اوساط المدنيين أو في أوساط العسكريين. وعلى سبيل المثال دار الحديث عن ذلك بيني وبين الملازم زعل رحيل قائد سرية مدرعات من الجيش العربي اتخذ من بناية الكلية الابراهيمية وملعبها مقرا له ولسريته. فقال إن الفارق كبير جدا بين امكانات اليهود قبل الهدنة وبعدها. فلم نكن قبل الهدنة نشعر بخطر المدفعية اليهودية ولم يكن لديهم سوى مدافع مورتر وقليل من قنابلها فضلا عن الراجمات. اما بعد الهدنة فقد حصلوا على مدفعية ميدان والآلاف من القذائف التي يصبونها علينا بشكل خطير يكاد يحرمنا امكان تحريك مدرعاتنا.

وكان حديث الناس العاديين والسياسيين ينصب على لوم حكومة الاردن التي كانت تتحمل أكبر قسط من المسؤولية عن قبول الهدنة الاولى والهدنة الثانية. وكان هذا، مثلا، رأي رياض الصلح رئيس وزراء لبنان الذي يعتبر من اكبر الساسة العرب كفاءة ونفوذا.

كما ان القائد عبد الله التل ومحمد المعايطة وقسيم محمد وغيرهم من كبار قادة الجيش الاردني كانوا يتحدثون عن ذلك بمرارة، اذ شعروا انه كان بامكان العرب قبل الهدنة تحرير القدس بأكملها، خصوصا اذا ما جرى تعاون فعلي بين الجيش الاردني والقوات المصرية أو العراقية، الامر الذي كان غلوب باشا يعارضه ويقاومه بشدة. فحرمهم من تلك الفرصة الذهبية التي كانت قائمة بالفعل. ولو أن العرب حرروا القدس بكاملها في حينه لاصبحت

خطوطهم أقصر ولأمكن توفير قوات كبيرة يمكن توجيهها إلى جبهة اللد والرملة حيث تلتقي القوات العراقية والأردنية والمصرية في مواجهة تل ابيب.

نشاط الكونت برنادوت

في اوائل آب / اغسطس ١٩٤٨ قام برنادوت باتصالات متعددة قدم خلالها عدة مقترحات محاولا حمل الحكومات العربية على الاعتراف بدولة اسرائيل وتعزيز الهدنة. ويقول برنادوت في مذكراته: «ان رئيس وزراء شرق الأردن ووزير خارجيتها اعربا عن موافقتهما على الاعتراف باسرائيل وكان جل اهتمامهما منصبا على مصير القسم العربي المتبقي من فلسطين».

وفي ٦ آب / اغسطس قدم غلوب لبرنادوت مشروعا من ١٢ بندا لتجريد القدس من السلاح. ووافق برنادوت على المقترحات بحرارة، لكن اليهود رفضوا ذلك. وعلق برنادوت على هذا الرفض في مذكراته قائلا: «ان اسرائيل لا تنطوي على حسن نية».

واجتمع برنادوت في القاهرة مع النقراشي باشا، رئيس وزراء مصر الذي رفض الاعتراف باسرائيل وأوضح عن أمله في اقامة دولة فلسطين في الجزء المتبقي من فلسطين وأن لا يضم هذا القسم الى الأردن.

واجتمع برنادوت بشرتوك وزير خارجية اسرائيل وبحث معه شؤون القدس وخرق الهدنة المتمثل في نقل المزيد من السلاح الى القدس، فأجاب شرتوك: «ان هذه مسألة داخلية، ولا تشكل خرقا للهدنة». كما رفض شرتوك وكذلك برنارد جوزيف حاكم القدس العسكري اقتراح اعادة العرب الى بيوتهم وغير ذلك من اقتراحات برنادوت. كما رفض العرب طلب برنادوت السماح بوصول مياه رأس العين الى اليهود.

وفي هذه الاثناء أثيرت مسألة هامة بحثها غلوب وعبد الله التل مع برنادوت خلاصتها أن العرب تلقوا معلومات عن أن اليهود ينوون نسف القدس القديمة بأكملها عن طريق المجاري التي تنحدر من أحيائهم متجهة نحو البلدة القديمة، الأمر الذي أثار العرب وخصوصا رجال الدين المسيحي وأدى الى اتصالات واحتجاجات من الطوائف المسيحية، كما أدى الى قيام بلدية القدس بسد المجاري بالاسمنت المسلح وقطع الطريق على اليهود. في أية حال أصبح واضحا أن اليهود صاروا يشعرون بأنهم أقوياء عسكريا ومدعومون من أميركا بقوة. ومما يذكر أن غولدا مئير عادت من اميركا في هذه الأثناء بعد أن جمعت ٥٠ مليون دولار من المساعدات.

المزيد من القتال في القدس

في آب / اغسطس ١٩٤٨ كان القتال مستمرا في القدس، وكان التعاون متينا بين الجيش العربي الأردني وجيش الجهاد المقدس في الدفاع عن المدينة بسبب شعور الطرفين بالخطر الصهيوني، وبسبب الكياسة التي كان يتحلى بها القائدان عبد الله التل وخالد الحسيني. وكما أشرت سابقا، كان لي مقر قيادة في المبنى نفسه لقيادة عبد الله التل، وكانت علاقاتي به ايجابية حرصت على أن تتسم بالطابع الرسمي، مع انه كان يتباسط في الحديث عن الامور السياسية بشكل غير حذر، فقد حدثني منتقدا اتصالات النظام الاردني باليهود وهي الاتصالات التي كان يقوم هو شخصيا على ترتيب بعضها. كما حدثني طويلا عن «التقصير، وما هو أكثر من التقصير» فيما يتعلق بسقوط اللد والرملة. وفي احدى المناسبات قال لي انه سيغادر الاردن يوما ما لفضح كل ما جرى، وكثيرا ما كان ينتقد المسؤولين الاردنيين على أعلى المستويات. ومن ناحية اخرى كان، في كثير من الاحيان، يؤكد لي انه عندما يقع هجوم يهودي على الباب الجديد او باب الخليل او غيرهما لا يطمئن باله الا عندما احرك فصيلا من قواتي لنجدة الموقع المهاجم. ويفسر ذلك بأن مناضلي الجهاد المقدس تمرسوا في قتال الشوارع وأنهم اخبر بالارض.

كانت علاقاتي جيدة ايضا مع الضابط محمود الموسى الذي كان يتخذ من دير الارمن مقرا له، ومع الضابط ضرغام الفالح ومقر قيادته في دير في السفح الشرقي لحي النبي داود. كما توطدت علاقاتي بالقائد محمد المعايطة الذي تولى قيادة الكتيبة السادسة بعد عبد الله التل.

في هذه الاثناء قام اليهود بخرق الهدنة في القدس في ٩ و١٠ و١١ آب / اغسطس. وفي ١٢ آب / اغسطس نسف العرب محطة ضخ المياه في اللطرون، في الوقت الذي كان فيه اليهود في القدس في أمس الحاجة الى الماء يحاولون استئناف الضخ من رأس العين. فاعتبر اليهود هذا العمل خرقا للهدنة واحتجوا عليه وقاموا في مساء اليوم نفسه بأعنف هجوم على حي النبي داود وحي الثوري منذ اعلان الهدنة. وقاموا في الوقت نفسه بقصف مدفعي شديد على جميع الاحياء ليمنعوا وصول النجدات. وبناء على طلب من الضابط ضرغام الفالح عن طريق خالد الحسيني قُدت فصيلا من المناضلين، انطلقت به من حي باب الساهرة مخترقا البلدة القديمة والحرم حتى حي النبي داود من ناحية قرية سلوان متعرضين خلال الطريق للقصف المدفعي المتواصل. وبمجرد وصولنا اتخذنا مواقع في الخط الامامي. واستمر الاشتباك بالرشاشات والمدفعية أكثر من ٤ ساعات. وصد الهجوم دون أن نتزحزح نحن والجيش العربي ومناضلو قرية سلوان من مواقعنا. وكذلك الحال في حي الثوري. ولا شك أن الاسناد المدفعي الذي وفره لنا الجيش العربي من مدفعيته المتمركزة خلفنا في وادي الحوض قرب قرية العيزرية شد أزرنا وفتك باليهود. وقدرت خسائر اليهود في هذه الليلة في حي النبي داود او حي الثوري بنحو ١٥٠ اصابة.

وفي ١٥ آب / اغسطس شن اليهود هجوما مركزا شمالي القدس على احياء الشيخ جراح والمصرارة وباب الساهرة، وتركز على حي الشيخ جراح ورأس المشارف وقرية شعفاط، وحاولوا نسف خزان المياه الذي يزود الاحياء العربية والمقام على قمة التلة الفرنسية قرب مستشفى هداسا. وقد شاركت فصيلة من قواتي في صد هذا الهجوم قدتها بنفسي، كما شارك مناضلو قرية شعفاط في صده، الى جانب الجيش العربي.

وفي ١٩ آب / اغسطس شن اليهود هجوما آخر على حي النبي داود شاركنا في صده.

وفي ٢٢ و٢٣ و٢٧ و٣٠ آب / اغسطس تبادل العرب واليهود القصف المدفعي والتراشق بالنيران وسقط عدد من القنابل على الاماكن المقدسة، خصوصا على الحرم الشريف، وأصيبت قبة الصخرة اصابة مباشرة.

عملية عمارة طنوس

يتضح مما ذكرته آنفا أن الاشتباكات كانت متواصلة في القدس خلال آب / اغسطس. واستمر الحال خلال النصف الأول من ايلول / سبتمبر حيث كانت الاشتباكات شبه يومية عند الباب الجديد وباب الخليل وباب النبي داود، دون حدوث أي تغيير في خطوط الهدنة. وكنت في هذه الفترة أمضي أكثر ساعات الليل في مواقعي الأمامية في قلعة باب الخليل. وكانت تواجهنا في أول سوق الشماعة بناية كبيرة يملكها العرب عرفت باسم عمارة طنوس اتخذ منها اليهود حصنا يواجه القلعة على بعد لا يزيد على ٧٠ مترا. وكثيرا ما كانت تصلى استحكاماتنا بنيران الرشاشات الحامية وبخاصة عندما تقصفنا مدفعية العدو بشدة مما يشعرنا بخطر احتمال تقدم يهودي نحو باب الخليل تحت ستار تلك النيران المنطلقة من عمارة طنوس. وكان رجال الجيش العربي والبوليس الفلسطيني المتمركزون معنا في باب الخليل والقلعة يشاركوننا الشعور بخطر عمارة طنوس. وبعد مشاورات بيننا تقرر ان نقوم بعملية مشتركة لتدمير هذه العمارة، فتعهد البوليس الفلسطيني ممثلا بالملازم حمودة الباسطي بإعداد ثلاثة الغام، وتعهدت بتقديم سبعة متطوعين من قواتي لحمل الالغام، وتعهد الجيش، من مرتب باب الخليل، بالاشتراك في التغطية بشكل غير رسمي أي دون علم قيادة الكتيبة.

طلبت لهذه العملية الخطرة سبعة متطوعين من فصيل فندق البتراء فتقدم لي بكل حماسة أكثر من عشرة بينهم قائد الفصيل عبد القادر ابو عريش. واخترت من بينهم سبعة ولم يكن ابو عريش ضمنهم، فتأثر جدا وألح بشدة وأصر على أن يشارك في العملية، ولما قلت له: «أنت بدين واذا جرحت فلن يستطيع احد حملك»، قال: «اذا سقطت جريحا أفوضك بأن تكمل علي فتقتلني، وأن تترك جثتي في مكانها فهذا أفضل بكثير من أن لا أشارك في هذه العملية». فنزلت عند رغبته وأضفته الى مجموعة حملة الألغام وعهدت له بقيادتها.

وفي الليلة المحددة في العاشر من أيلول / سبتمبر ١٩٤٨ كنّا جاهزين وكان علينا أن

ننتظر غياب القمر بعد منتصف الليل، وعلى مجموعة التدمير أن تنطلق متسللة من بوابة السور التي نعرف جيدا ان عددا كبيرا من رشاشات اليهود تواجهها لضرب أي محاولة منا للخروج الى خارج السور. وكان على المجموعة أن تتسلل الى الهدف بدون تغطية نارية، مسافة ١٥٠ متراً خارج السور. وفي الوقت المحدد أحضر حمودة الباسطي ثلاثة ألغام في كل واحد ٤٠ كيلوغراما من (T.N.T.) معبأة في صناديق حديدية من صناديق الذخيرة. ولما رأيت الألغام فوجئت بأن الباسطي جهزها على قاعدة التفجير الكهربائي. وذلك يعني ان تمدد الأسلاك لكل لغم مسافة ١٥٠ مترا في شارع امتلأت أرضه بالحجارة وشظايا القنابل والرصاص وغيرها. كان الوقت قد فات لتغيير ذلك. فرتبنا المجموعة حيث حمل جميع افرادها رشاشات ستن الخفيفة وسار في المقدمة مقاتل كطليعة وخلفه حملة الألغام يحمل كل لغم رجلان يقودهم جميعا عبد القادر ابو عريش. وانتقلت فورا الى مواقع رجالي الجاهزين للتغطية في الحديقة الواقعة اسفل سور القلعة من الخارج، وكان معهم أكثر من ١٠ رشاشات برن وبراوننغ مسددة نحو تحصينات العدو التي نعرفها جيدا وخصوصا استحكامات عمارة طنوس. وكان عليهم ألا يطلقوا النار الا عندما اصدر امري بذلك، مع العلم أني لن آمر باطلاق النار الا اذا تنبه اليهود وبدأوا اطلاق النار. وكان على رجال البوليس والجيش ايضا ألا يطلقوا نيرانهم للتغطية الا بعد أن يبدأ رجالي الرماية.

انطلق الرجال الثمانية وهم يحملون الالغام متسترين بالظلام خارجين من باب الخليل منحدرين في الشارع المحاذي لي ولرجالي على بعد امتار قليلة منا، محاذرين احداث أي صوت قد يثير انتباه اليهود. وكتمنا انفاسنا وهم يمرون امامنا والايدي على الزناد. وبعد ان قطعت المجموعة نحو العشرين مترا بدأت الاسلاك المجرورة وراءهم تحدث اصواتا مسموعة، واضطرت المجموعة إلى أن تستلقي على الأرض أكثر من مرة حتى تهدأ الأصوات. وازداد شعورنا بالخطر مع انه لم يبدر من العدو ما يشير الى انه يلاحظ ما يجري، ولكن كيف لنا ان نعرف انه ينتظر اقترابهم. وصل الرجال الى جوار جدران عمارة طنوس وعندها فتح أحد تحصينات العدو النار من رشاش ستن فصرخت فورا آمرا بالرماية الشديدة، وانفتحت نار جهنم من رشاشاتنا ورشاشات البوليس والجيش، ووزع الرجال الالغام في الاماكن المقررة وبدأوا الانسحاب. وكانت نيراننا الشديدة تمنع اليهود من الرد بأي طلقة من عمارة طنوس وما جاورها. لكن العديد من رشاشات العدو المتوسطة والثقيلة المنطلقة عن يميننا من شارع يافا وشارع مأمن الله وبناية البنك العربي والبنايات المجاورة أقامت ستارا ناريا يمنع أي شخص من الدخول من باب الخليل. واضطر رجال المجموعة الى الاستلقاء ارضا انتظارا لفرصة مواتية للدخول أفرادا الى داخل السور. ومضت فترة حرجة وخطرة جدا. وازداد التعقيد عندما انطلقت من مواقع الجيش الاردني المتمركزة في الباب الجديد بقيادة الملازم صبحي القطب الذي لم يكن يعلم شيئا عما يجري بباب الخليل، قذائف تنوير موجهة الى

منطقة باب الخليل، اضاءت المنطقة وأصبحنا كأننا في وضح النهار. وكانت نيران رشاشاتنا تزداد كثافة مع زيادة التنوير. وحاول الجيش اسكات نيران العدو الجانبية، وتمكن رجالنا، الواحد بعد الآخر، من الدخول الى داخل السور وكان آخر من دخل سالما عبد القادر ابو عريش.

وهنا قام الباسطي بتفجير الالغام كهربائيا، فلم ينفجر أي لغم منها، اذ تقطعت جميع اسلاكها. وأسقط في أيدينا وخشينا ان يستولى اليهود على الالغام فضلا عن فشل العملية. فقررنا الاستمرار في مناوشة عمارة طنوس حتى الفجر لمنعهم من الاستيلاء على الألغام، وعندما يبزغ الضوء نفجرها برصاص الرشاشات الحارق والمتفجر. ومضت فترة ثقيلة غير قصيرة حتى بزغ الفجر فشاهدنا الالغام ثم قمنا بتفجيرها بالرصاص الحارق والمتفجر، وكان تأثير الانفجارات كبيرا فدمر معظم واجهة عمارة طنوس ومعظم استحكامات العدو فيها. كما أن المعلومات التي وصلتنا فيما بعد أكدت أن اليهود كانوا أثناء الاشتباك قد جلبوا للعمارة امدادات عسكرية، وانه عندما وقع الانفجار قتل عدد كبير منهم قيل انه زاد على الثلاثين. وفي الوقت نفسه لم يعد هذا الموقع يشكل خطرا على مواقعنا.

اغتيال برنادوت (١٧/٩/١٩٤٨)

كان اغتيال اليهود للوسيط الدولي، الكونت برنادوت ورفيقه الكولونيل الفرنسي اندره بيرسيرو كبير المراقبين الدوليين في الجانب العربي من أهم احداث أيلول / سبتمبر ١٩٤٨. وقد سبق أن ذكرت أن برنادوت قدم في هذا الشهر تقريرا الى المستر تريغفي لي السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة عن الأعمال التي قام بها منذ توليه منصبه طالبا بحثه في هيئة الامم المتحدة. وكان التقرير يتضمن مقترحات اعتبرها اليهود في غير مصلحتهم خصوصا اقتراحه اعطاء النقب ومدينة القدس للعرب، كما كانوا يعتبرونه بشكل عام غير مطيع لرغباتهم.

وقع حادث الاغتيال في المنطقة التي يحتلها اليهود من القدس بين حي رحافيا وحي الطالبية حيث اوقف مسلحان يهوديان سيارته واطلقا النار عليه وعلى مساعده. وكانت للحادث آثار هامة خصوصا أن هيئة الامم لم تتخذ أي اجراء ضد اليهود على الرغم من أن الدكتور رالف بانش الذي حل محل برنادوت أكد في تقرير له الى مجلس الأمن أن اليهود هم المسؤولون عن مقتل برنادوت، واتهم حاكم القدس العسكري برنارد جوزيف بأنه يتزعم حملة ارهابية ضد هيئة الوساطة الدولية. وهكذا فرض حادث الاغتيال جوا من الارهاب على المراقبين الدوليين، وكشف حقيقة ان هيئة الامم المتحدة ـ كما جاء في مذكرات برنادوت ـ أداة مسخرة بيد الدول الكبرى.

٤٠ استقرار الهدنة في القطاع الأردني

في أواخر أيلول / سبتمبر ١٩٤٨ بدأ الاستقرار يسود الخطوط الأردنية مع اليهود، وعلمنا ان غلوب باشا أصدر تعليمات مشددة الى قادة الجيش الأردني بأن يتقيدوا بالهدنة. وبدا ان اليهود من ناحيتهم اصبحوا يرغبون في ذلك، ليتبين فيما بعد انهم كانوا يستعدون لشن هجوم واسع على جبهة الجيش المصري. ولوحظ ايضا ان جبهة الجيش العراقي ساكنة.

وبسبب ذلك صار مقاتلونا يعانون الفراغ فعملنا على اشغال اوقاتهم بارسال عدد منهم للاشتراك في دورات تدريب قادة جماعات وقادة فصائل كان يعقدها الجيش الأردني في فلسطين، كما قمنا بممارسة التمارين الرياضية وطوابير المشاة الأمر الذي زاد تذمرهم.

وكتنفيس عما نحن فيه من ضيق بدأنا نمارس عمليات القنص بكل الحذر والحرص لكي لا يكتشف ذلك مراقبو الهدنة من رجال الأمم المتحدة الذين ينشطون في مراقبتنا وتقديم التقارير ضدنا، في الوقت الذي كانوا فيه لا يعصون لليهود امرا خصوصا بعد مقتل الكونت برنادوت.

في هذه الفترة قمنا بعمليات قنص حذرة ناجحة من قلعة باب الخليل المرتفعة والمشرفة على بعض الشوارع التي أصبح يكثر فيها اليهود بدون حذر وخصوصا شارع الملك جورج وحي المونتفيوري ومنطقة جمعية الشبان المسيحية. وكان يرابط في القلعة فضلا عن مناضلينا من جيش الجهاد المقدس، رجال البوليس الفلسطيني مما يجعل تحديد المسؤولين عن عمليات القنص صعبا ولا سيما ان جنود الجيش الأردني، وهم الأكثر انضباطا، يتسترون علينا بل ويشجعوننا، وفي قليل من الأحيان يأتون الى مواقعنا ليقوموا بالقنص بأنفسهم، حتى وصل الأمر الى أن يقوم القائد محمود الموسى قائد قطاع دير الأرمن والنبي داود باعتلاء السور قرب دير الأرمن ليمارس القنص بنفسه بين حين وآخر.

اشتهر من مناضلينا في عمليات القنص هذه الملازم عبد المهدي المحتسب، وكان صيادا ماهرا لا يخطىء الهدف، ومع انه لا يقوم الا بعلمية قنص واحدة في اليوم الا ان مراقبي الهدنة اكتشفوا الموقع الذي تطلق منه النار واشتكوا الى القائد عبد الله التل وعينوا بالاتفاق معه مراقبا يرابط في المكان نفسه الذي كنا نطلق منه النار. وبعد فترة قصيرة عملنا على تدبير قنص للمراقب نفسه حيث اطلق عليه احد رجالنا النار من بناية بعيدة يصعب التمييز فيها اذا

كانت الطلقة منا اومن مواقع اليهود، واصيب المراقب بجروح بالغة، ولم يعين غيره في مكانه.

محاولة القيام بعملية عسكرية مميزة

في اواخر ايلول / سبتمبر ١٩٤٨ عقد خالد الحسيني قائد جيش الجهاد المقدس اجتماعا لقادة السرايا وكنت أحد الحاضرين. وعرض لأوضاع جيش الجهاد المقدس منوها بأن الجيش اصبح اكثر تنظيما وانه حصل على بعض المال الذي سيساعدنا على شراء بعض الأسلحة.

واغتنمت فرصة انعقاد هذا الاجتماع لأطرح افكارا كانت تجول في خاطري محاولا ان اكسب لها تأييد قادة السرايا. فقلت: قد نكون اليوم أكثر تسليحا وافضل تنظيما من أيام المرحوم عبد القادر الحسيني، لكن معنوياتنا هابطة ونحن نشغل انفسنا بالرياضة وطوابير المشاة، ولم نخض في عهدك اي معركة تذكر، بينما خضنا في ايام عبد القادر العديد من المعارك الهامة المشرفة. واقترحت على المجتمعين ان نقوم بعملية عسكرية ذات قيمة استراتيجية. وخيرتهم بين هدفين: تحرير القسم المحتل من حي النبي داود، او احتلال مجمع هداسا والجامعة العبرية، وكلاهما موقع استراتيجي هام يهدد مواقعنا بل وجودنا في القدس في حال قيام اليهود بعملية واسعة. وقلت: لا استبعد ان الجيش الأردني يتمنى ان يقع احد هذين الموقعين بأيدينا. ولكنه كجيش نظامي يقوده غلوب باشا لا يملك الا ان يتقيد بالهدنة، وربما يكون سعيدا لو اننا قمنا على عاتقنا بالعملية واستولينا على احد الموقعين.

ولقي اقتراحي تأييدا من الجميع بمن فيهم خالد الحسيني. وقررنا ان يكون هدفنا احتلال مجمع هداسا والجامعة العبرية، وان نقوم فورا بعمليات استطلاع وان نحشد قواتنا، وان نجلب بعض قواتنا الموجودة في بير زيت، وان نجهز عددا من الشاحنات بكميات كبيرة من المتفجرات لننسف بها بنايات المجمع اذا اجبرنا الجيش الأردني على الانسحاب منها بعد احتلالها. وقلت بالحرف الواحد: اذا نجح هجومنا واستولينا على المجمع ندخل في كل بناية سيارة ملغومة. واذا طلب منا الجيش العربي اخلاء الموقع نرفض ذلك، واذا اطلق علينا نيران البنادق والرشاشات نصر على الرفض. اما اذا اطلق علينا قذائف مدفعية الهاوزر عيار ٢٥ رطلا فنوافق على الانسحاب فورا ونشعل فتيل السيارات الملغومة عند خروجنا لتدمر ذلك الوكر الخطر.

في تلك الليلة المقمرة قدت بنفسي دورية استطلاع من حي وادي الجوز متسلقين الجبل في اتجاه مستشفى هداسا، محاذرين اشد الحذر التعرض لمصايد او الغام لا بد ان العدو احاط بها المكان، مصممين على ان نحاول اسر احد الجنود اليهود للحصول على ما يمكن من المعلومات. ولسوء الحظ وبعد ان قطعنا مسافة كبيرة في اتجاه هدفنا وكدنا ندخل الحرج المجاور للمستشفى، لاحظ حركتنا الجيش العربي الموجود في بناية دار المفتي في حي الشيخ

جراح بسبب ضوء القمر الساطع، ولا بد انه ظن اننا يهود، فأطلق في اتجاهنا بضع رصاصات استطلاعية رد عليها اليهود بنيران الرشاشات. واصبحنا بين نارين حاميتين واصبح العدو مستنفرا فاضطررنا للانسحاب مكتفين بالقدر المحدود من المعلومات التي وصلنا اليها. وفي الوقت نفسه كان من المقرر ان تتوجه دورية استطلاع اخرى من قرية العيزرية نحو الهدف نفسه بقيادة ابراهيم ابو الريش.

وفي الصباح ذهبت الى مقر قيادة جيش الجهاد المقدس لاطلع القائد خالد الحسيني على ما يجري. فبادرني بالقول: ارجوك ارجوك. لقد عدلنا عن تنفيذ الخطة. فقد استدعاني قائد اللواء وهو انكليزي في منتصف الليل وقال لي: لدي معلومات انكم حشدتم قواتكم في القدس لمهاجمة مجمع هداسا والجامعة العبرية، وانا امنعكم من ذلك، واذا تحركتم فلن اطلق عليكم رصاصات بل سآمر فورا باطلاق مدفعية الهاوزر من عيار ٢٥ رطلا.

حكومة عموم فلسطين

سبق ان بينت اننا رفضنا قرار تقسيم فلسطين رقم ١٨١ لسنة ١٩٤٧ الصادر عن مجلس الأمن، لأننا كنا نرى ان كلمة التقسيم كذب ودجل سياسي وتضليل لتغطية الحقيقة المرة. كنا نرى ان القرار في حقيقته هو قرار اقامة دولة يهودية على قسم يقتطع من ارض فلسطين العربية. فالتقسيم قد يقوم بين شعبين مستقرين يملكان ارضا على شيء من التساوي في وطن واحد يصعب التعايش بينهما. اما اليهود في فلسطين فقد كانوا منذ آلاف السنين اقلية ضئيلة. وعند صدور قرار التقسيم سنة ١٩٤٧ كانوا لا يملكون سوى ٥,٦ ٪ من أرض فلسطين. والقرار يخصص للدولة اليهودية ٥٦ ٪ من مساحة فلسطين. وكانت تصريحات الزعماء الصهيونيين وقادة انكلترا والولايات المتحدة المعلنة تقول ان هذا الجزء اقل مما يستحقه اليهود وانه مجرد موطىء قدم للغزو الصهيوني ليحشد فيه الرجال والسلاح للتوسع في المستقبل وطرد عرب فلسطين من ارضهم. وجرى الحديث علنا عن ترحيل عرب منطقة الجليل الى شرق الأردن. هذا من ناحية ومن ناحية اخرى كانت تصريحات الكونت برنادوت تدعو الى ضم القسم العربي من فلسطين الى امارة شرق الأردن. كما ان تصريحات العديد من قادة الغرب واتفاق توفيق ابو الهدى رئيس وزراء شرق الأردن مع ارنست بيفن رئيس وزراء بريطانيا تبين بوضوح ان باقي فلسطين سيضم الى امارة شرق الأردن.

وكانت الهيئة العربية العليا لفلسطين برئاسة الحاج امين الحسيني اعلنت يوم ١٩٤٨/١/٥ انها قررت ايجاد نظام سياسي في البلاد يمثل الشعب تمثيلا صحيحا وتكون له ادارة قومية، لها رئيس ومجلس وطني ومجلس تنفيذي. ولذلك كان الحاج امين الحسيني والهيئة العربية العليا يطلبان من جامعة الدول العربية منذ صدور قرار التقسيم ان تسمح للفلسطينيين بتشكيل حكومة فلسطينية لتواجه الموقف وتملأ الفراغ الذي يحدثه انهاء

الانتداب. كما حاول الحاج امين الحسيني ان يدخل الى فلسطين قبيل ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨، الا ان جامعة الدول العربية وبصفة خاصة الأردن والعراق كانت تعارض ذلك بشدة وتهدد بعدم مشاركة الجيش الأردني والجيش العراقي في حرب فلسطين.

وبعد اعلان قيام دولة العدو الصهيوني وعجز الجيوش العربية عن الدفاع حتى عن الجزء المخصص للعرب بموجب قرار التقسيم، واستيلاء اليهود على ٧٨٪ من ارض فلسطين، كان لا بد من اتخاذ اجراء سياسي فلسطيني. فدعت الهيئة العربية العليا الى عقد مؤتمر فلسطيني في مدينة غزة في اليوم الأول من تشرين الأول / اكتوبر ١٩٤٨.

وقد طلب منا ان نرسل الى مدينة غزة وحدات مختارة من قواتنا ــ قوات جيش الجهاد المقدس ــ للمشاركة في متطلبات المؤتمر. واذكر انني لم اكن متحمسا لهذا المؤتمر ولذلك لم اسافر الى غزة وارسلت فصيلا مختارا من قواتي.

حضر المؤتمر نحو ٨٥ شخصية فلسطينية على رأسها الحاج امين الحسيني واعضاء الهيئة العربية العليا. وأمت غزة جماهير شعبية غفيرة، وغلب على اعضاء المؤتمر طابع التمثيل الشعبي، فكان منهم اعضاء بلديات ومجالس محلية واعضاء لجان قومية وشيوخ العشائر البدوية، وشكل منهم مجلس وطني. واعلن هذا المجلس الوطني في بيان اصدره بتاريخ ١٩٤٨/١٠/١ استقلال فلسطين كلها واقامة دولة حرة ديمقراطية. وشكل حكومة سميت بحكومة عموم فلسطين. وألف المجلس هيئة حكومية برئاسة احمد حلمي باشا عبد الباقي، وتولى جمال الحسيني وزارة الخارجية وميشال ابكاريوس وزارة المالية، وعوني عبد الهادي وزارة الشؤون الاجتماعية، ورجائي الحسيني وزارة الدفاع، والدكتور حسين فخري الخالدي وزارة الصحة، وسليمان عبد الرزاق طوقان وزارة المواصلات، والدكتور فوتي فريج وزارة الاقتصاد، وعلي حسنا وزارة العدل، ويوسف صهيون وزارة الدعاية، وامين عقل وزارة الزراعة، وعين انور نسيبة سكرتيرا لمجلس الوزراء. ولم يلبث عوني عبد الهادي ان استقال من الوزارة. اما سليمان عبد الرزاق طوقان فلم يقبل الاشتراك في الوزارة اصلا.

لاقى تشكيل هذه الحكومة تأييدا شعبيا لا بأس به، واعترفت بها حكومات سوريا ولبنان والعربية السعودية، وأيد مجلس الجامعة العربية قيامها، ولم تعترف بها الحكومة الأردنية. وكتب الملك عبد الله الى محمود فهمي النقراشي، رئيس وزراء مصر كتابا يشرح فيه موقفه بعدم الاعتراف بها وانه سيحاربها. وانضم العراق الى موقف الأردن.

وفي يوم انعقاد المؤتمر عينت الحكومة الأردنية عمر مطر حاكما على فلسطين، وحاولت عقد مؤتمر فلسطيني في عمان للانتقاص من مؤتمر غزة. وفيما بعد وبتاريخ ١٩٤٨/١٢/١ عقد مؤتمر فلسطيني في اريحا برئاسة الشيخ محمد علي الجعبري للغرض نفسه دعا الى ضم الضفة الغربية الى الأردن.

أما الحكومة المصرية فلم تحدد موقفها بدقة الا انها نصحت الحاج امين الحسيني ألا

يذهب الى غزة. وكان ذلك بناء على رغبة انكلترا. وعلى ذلك فان الحاج امين الذي لم يستجب لرغبة مصر وبريطانيا لم يمكث في غزة اكثر من عشرة ايام أعيد بعدها الى مصر بالقوة في سيارة قائد سلاح الحدود المصري.

أما اليهود فقد شنوا بدورهم غارات جوية على منطقة غزة وفيها بعد شنوا هجوما عسكريا واسعا على الجيش المصري ابتداء من ١٤/١٠//١٩٤٨.

ومن المعروف ان اهمية حكومة عموم فلسطين تضاءلت شيئا فشيئا حتى اصبحت كأنها غير موجودة، مع انها ظلت ممثلة في مجلس جامعة الدول العربية حتى قيام منظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٦٤.

قليل من البنادق

بعد تشكيل حكومة عموم فلسطين وتعيين وزير دفاع فيها جرى قليل من النشاط العسكري، فشكلت قيادة عسكرية للمنطقة الجنوبية، وطلب احمد حلمي باشا رئيس الحكومة من قيادة الجيش المصري ان تضع تحت امرة القيادة الفلسطينية من الناحية الادارية فقط وحدات الجهاد المقدس التي كانت تعمل في منطقتي غزة والفالوجة ــ عراق سويدان.

أما قيادة جيش الجهاد المقدس في مدينة القدس فقد وصلها مبلغ متواضع من المال قرر القائد خالد الحسيني ان يشتري به سلاحا، وشكل لذلك لجنة خاصة من صلاح الحاج مير ومحمد عادل النجار وفوزي عريقات ومني، على ان اكون امينا لصندوق اللجنة. ولما درسنا الأمر وجدنا ان المبلغ المخصص لا يستحق ان نحاول شراء السلاح من خارج فلسطين لصعوبة ذلك ولقلة المبلغ (نحو ٤٠٠٠ دينار). وكان عدد كبير من المواطنين الفلسطينيين الذين سبق ان اقتنوا أسلحة شخصية فردية من مالهم الخاص يرغبون في بيعها بسبب توقف القتال النسبي او بسبب حاجتهم الى ثمنها. لذلك اصبح من المألوف وجود اسواق لبيع السلاح هنا وهناك في المدن البعيدة عن خطوط التماس.

ذهبنا في البداية الى سوق قرية عطارة في قضاء رام الله، فلم نوفق لأننا لم نصل في الوقت المناسب. وبعد يومين ذهبنا الى سوق مدينة الخليل واشترينا نحو ٦٠ بندقية في حالة جيدة بمعدل ٥٠ دينارا لكل بندقية. وفي القدس اشترينا نحو ١٢ بندقية اخرى من جماعة كانت تتعاون مع نوري السعيد حصلت من العراق على عدد من البنادق.

ولما وزعت القيادة البنادق التي اشتريناها على السرايا كان نصيب سريتي نحو ٢٠ بندقية.

محاولة في حي النبي داود

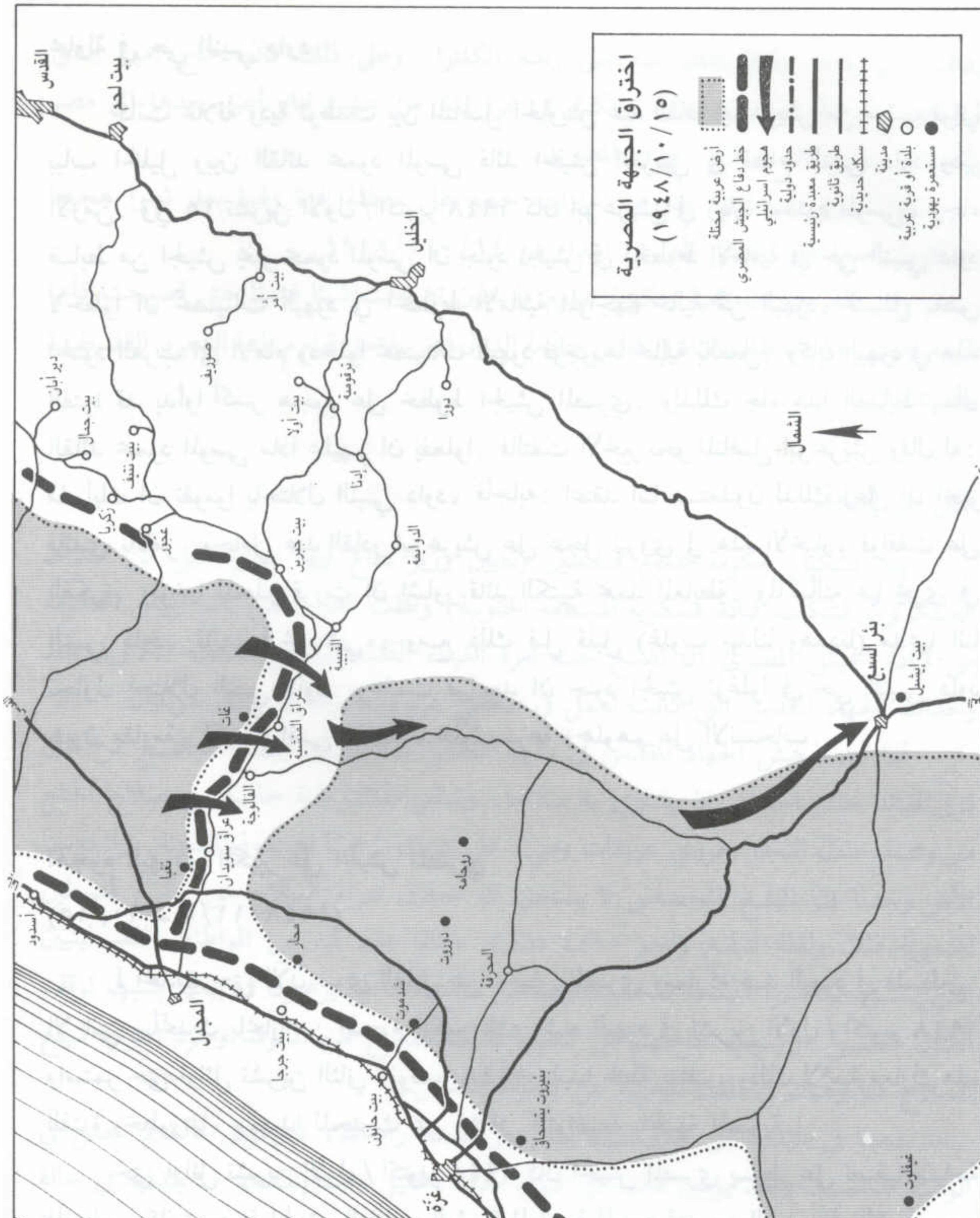
كانت علاقة ودية توطدت بين المناضل الجاويش عبد القادر ابو عريش من مرتب قواتي بباب الخليل وبين القائد محمود الموسى قائد الجيش العربي في قطاع النبي داود ودير الأرمن. وفي ١٥ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٤٨ كان ابو عريش في زيارة لمحمود الموسى، وجاء ضابط من الجيش يخبر محمود الموسى ان جنود الجيش في الخطوط الأمامية في حي النبي داود لاحظوا ان تحصينات اليهود في الخطوط الأمامية المواجهة خالية من اليهود، فتسلل بعض الجنود العرب الى الامام ودخلوا تحصينات اليهود فوجودها خالية بالفعل. وكان اليهود في هذه الفترة قد بدأوا أكبر هجوم على خطوط الجيش المصري. ولذلك جاء هذا الضابط يسأل القائد محمود الموسى ماذا عليهم ان يفعلوا. فالتفت الأخير نحو المناضل ابو عريش وقال له: ما رأيك ان تقوموا باحتلال النبي داود، فأجابه: اعتقد اننا مستعدون لذلك وعلي ان اخبر قائدي بالأمر. وجاءني عبد القادر ابو عريش على عجل ليروي لي هذه الأخبار، فوافقت على الفكرة. وتوخيا للحذر قررت ان اشاور قائد الكتيبة محمد المعايطة. ولما سألته عما يجري في النبي داود، قال: لم يجر شيء، ومع ذلك قبل قليل (غلوب بهدلنا وهددنا) مدعيا اننا نحاول احتلال النبي داود. وعلمت فيما بعد ان جنود الجيش توغلوا في حي النبي داود بدون مقاومة، لكن مراقبي الهدنة تدخلوا بسرعة وحملوهم على الانسحاب.

الهجوم اليهودي الكبير على الجيش المصري
(١٠/١٥ ـ ١٩٤٨/١١/٥)

لم اتحدث حتى الآن سوى القليل عن الجيش المصري ومعاركه ضد اليهود في فلسطين. الا انني سأتحدث بايجاز عن الهجوم الكبير الذي شنه اليهود في تشرين الأول / اكتوبر ١٩٤٨ واستمر حتى اوائل تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٨ تنفيذا لخطة يوآف، وذلك لاهمية معارك هذه الفترة وخطورتها، وتمهيدا للحديث عن علاقتي المتواضعة بالجبهة المصرية.

حتى اوائل تشرين الأول / اكتوبر ١٩٤٨ كان الجيش المصري يسيطر على نصف مساحة فلسطين وكانت جبهة الجيش النظامي الرئيسة المواجهة لليهود تمتد من الغرب الى الشرق، من شاطىء البحر عند بلدة اسدود ومدينة المجدل (مقر القيادة العامة) حتى جبال الخليل مرورا بعراق سويدان فالفالوجة فعراق المنشية فبيت جبرين (مقر قيادة القوات الخفيفة). وكان هذا الخط يشكل سدا منيعا يحتجز خلفه الى الجنوب عددا كبيرا من المستعمرات اليهودية شبه المحاصرة.

وكانت مستعمرات النقب هذه تشكل في الوقت نفسه خط مواجهة يمتد من الشمال الى الجنوب في مواجهة غزة يهدد الطريق الرئيسي وخط سكة الحديد الممتدين من المجدل الى


اختراق الجبهة المصرية
(١٥/١٠/١٩٤٨)
أرض عربية محتلة
خط دفاع الجيش المصري
هجوم اسرائيلي
حدود دولية
طريق معبدة رئيسية
طريق ثانوية
سكة حديدية
مدينة
بلدة أو قرية عربية
مستعمرة يهودية
الشمال
القدس
بيت لحم
الخليل
بئر السبع
غزة
خان يونس
المجدل
أسدود
الفالوجة
عراق سويدان
عراق المنشية
بيت جبرين
رفح

الحدود المصرية. اما القوات المصرية الخفيفة التي تتألف بمعظمها من المتطوعين العرب والمصريين، ويقودها ضباط نظاميون مصريون فكانت تستر الجناح الأيمن للجيش المصري من بئر السبع فالخليل فبيت لحم حتى جنوبي القدس، ومن بيت جبرين الى دير أبان وعرطوف قرب باب الواد على امتداد جبال القدس ـ الخليل.

في هذه الفترة كان اليهود قد عززوا قواتهم البرية والبحرية والجوية بشكل واسع خطير وتفوق طيرانهم على الطيران المصري. كما شكلوا فرقة كاملة من المتطوعين المحترفين الأجانب من اميركا واوروبا وجنوب افريقيا واستخدموا أعدادا من الطيارين المرتزقة الأجانب.

وكانت خطة يوآف التي بدأ التحضير لها منذ بداية ايلول/سبتمبر تهدف إلى فك الحصار عن المستعمرات اليهودية في جنوب فلسطين والاتصال بها، ثم تتطور الى هجوم شامل على الجيش المصري لضرب قواته الرئيسية وتنتهي باخراجه من فلسطين.

جرى التمهيد للخطة بهجمات عديدة برا وبحرا وجوا زادت على ٣٠٠ عملية كانت جميعها خرقا للهدنة الثانية، تلتها هجمات برية وبحرية وجوية على مدينة غزة.

وفي ١٥ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٤٨ قامت قوات كبيرة بمهاجمة الجبهة المصرية الرئيسية. وبعد معارك طاحنة استمرت أياما تمكنت من اختراق الجبهة وتدفقت الى الجنوب من عدة محاور: الأول بين عراق سويدان والفالوجة، والثاني عند عراق المنشية، والثالث بين عراق المنشية وبيت جبرين. وتغلغلت جنوبا فاتصلت بالمستعمرات اليهودية وهددت مواصلات القوات المصرية الممتدة على الساحل بشكل خطير. وفي ١٩٤٨/١٠/٢١ استولى اليهود على بئر السبع فقرر المصريون تقصير خطوطهم والانسحاب جنوبا والصمود في قطاع غزة للدفاع عن الأرض المصرية نفسها. وفي ١٩٤٨/١١/٥ انسحب الجيش المصري من المجدل واصبحت قوات الجيش المصري في قطاع عراق سويدان ـ الفالوجة ـ عراق المنشية محاصرة لأنها لم تتمكن من الانسحاب جنوبا. ثم سقطت عراق سويدان في ١٩٤٨/١١/١٠ واستمر حصار الفالوجة ـ عراق المنشية المشهور عندما رفضت القوات المصرية الاستسلام.

جرى ذلك كله من دون ان يحرك الجيش العراقي الموجود في فلسطين او الجيش الأردني ساكنا. وظلت خطوط النار ساكنة على الرغم من ان اليهود سحبوا من هذه الخطوط نسبة كبيرة من قواتهم.

ذكرت ان اليهود شنوا هجوما واسعا ومركزا على الجيش المصري ابتداء من ١٥/١٠/١٩٤٨. ولما انتشرت اخبار هذا الهجوم عندنا في القدس احدثت هياجا كبيرا في النفوس بسبب خطورته، ولأن جبهة الجيش الاردني في فلسطين وكذلك جبهة الجيش العراقي ظلتا ساكنتين، وكأن الامر لا يعنيهما، مما مكن اليهود من سحب قوات كبيرة من هاتين الجبهتين ودفعها الى جبهة الجيش المصري. ونحن كمناضلين كنا مكتوفي الايدي وامكانياتنا محدودة، ولذلك حاولنا عبثا خرق الهدنة في القدس لتسخين الجبهة الاردنية.

توالت اخبار التقدم اليهودي وارتفع التوتر الشعبي في القدس عندما صار الخطر يهدد بسقوط مدينتي بيت لحم والخليل. ولذلك لم نملك في صباح ٢٠/١٠/١٩٤٨ الا ان نتخذ قرارا بالانتقال فورا للقتال مع القوات المصرية. اتخذت القرار مع قادة قواتي قبل الرجوع الى قيادة جيش الجهاد المقدس، وانتقيت فورا نحو ٥٠ مناضلا، وارتدينا كامل الالبسة العسكرية واعتمرنا الخوذ الفولاذية، وحملنا افضل ما لدينا من سلاح بينها نحو سبعة رشاشات برن وبراوننغ ومدفع مورتر (٢ انش) وكميات كبيرة من الذخيرة والقنابل اليدوية. وعندما غادرنا ثكنتنا في مبنى كلية الروضة (المدرسة العمرية فيما بعد) وقف جنود الجيش الاردني يحيوننا ويصفقون لنا بحماسة بالغة ولسان حالهم يقول: ليت قيادتنا تسمح لنا بالسير معكم.

كان علينا ان نتوجه فورا الى بيت لحم. وكانت طريق القدس ــ بيت لحم الرئيسية القصيرة ــ وطولها ٨ كيلومترات فقط ــ مغلقة، لان اليهود يحتلون قسما منها. وبسبب ذلك كان العرب يسلكون بالسيارات طريقا طويلة وعرة غير معبدة طولها نحو ٥٠ كيلومترا، اطلقوا عليها اسم طريق السبع ملوك!! ولم نكن نملك سيارات، لذلك قررت ان نذهب الى بيت لحم سيرا على الاقدام سالكين طريقا (رجلية) طولها نحو ١٥ كيلومترا مرورا بقرى سلوان وعرب السواحرة وصور باهر فبلدة بيت ساحور فبيت لحم. ومراعاة لشيء من الضبط والربط العسكريين، سرنا في طابور الى مقر قيادة جيش الجهاد المقدس في المدرسة المأمونية القديمة واجتمعت بالقائد خالد الحسيني وأخبرته عما عزمنا عليه. فتولته الدهشة لفترة قصيرة ثم قال: معكم حق، ولكن من أين لكم سيارات؟ قلت: سنذهب سيرا على الاقدام. قال: دعوني أدبر لكم سيارات. فقلت: لا لزوم لذلك فيمكننا ان نصل أسرع من السيارات. قال: والذخيرة؟ قلت: حملنا من مستودعنا ما يكفينا وارجو ان ترسلوا بدلا منها الى مستودعنا.

ودعنا خالد الحسيني متمنيا لنا التوفيق، وانطلقنا في طريقنا الى بيت لحم بكل حماسة رغم ثقل ما نحمله. لم نصادف متاعب في طريقنا الا بالقرب من مستعمرة رامات راحيل التي كانت طريقنا تمر في واد يقع الى الشرق منها. ولدى مرورنا اطلقت علينا النار من بعيد، لكننا تابعنا سيرنا دون ان نرد على النار بالمثل.

قبيل الغروب وصلنا الى بيت لحم من الشرق ومشينا مخترقين وسط المدينة الى الغرب مرورا بساحة كنيسة المهد، وطريق المدبسة حتى وصلنا قيادة جيش الجهاد المقدس في بيت لحم بالقرب من دار جاسر المعروفة والتي كانت مقرا لقوات المناضل ابراهيم ابو دية. وعلى طول الطريق كان الشعب يحيينا وعليه علائم الاضطراب ويسألنا عمن نحن وهل هناك نجدات أخرى آتية. . كان اليهود قد اقتربوا من بيت جالا الملاصقة لبيت لحم وكانت سقطت يومها في بيت جالا بعض قنابل المورتر قبل وصولنا، ولا ابالغ اذا قلت ان حضورنا رفع من معنوياتهم.

ولدى وصولنا الى مقر القيادة استقبلنا القائدان منير ابو فاضل وكامل عريقات ثم حضر معروف الحضري. وكانت مفاجأة لي ان أعرف أن منير ابو فاضل هو قائد قوات الجهاد المقدس في بيت لحم، وكنا ـ كما سبق أن ذكرت ـ نعرفه جيدا منذ سنة **١٩٣٦** كضابط من كبار ضباط التحقيقات الجنائية (C.I.D.) وهو لبناني الاصل. وعلى الرغم من لطفه وكياسته، كنا في عهد الانتداب نعتبره من معسكر الاعداء الانكليز. والآن علي ان اضع نفسي وقواتي تحت امرته!!. أما كامل عريقات الذي كان يعتبر نائبا للقائد عبد القادر الحسيني وكان مقر عمله في بلدة بير زيت فقد انتقل الى بيت لحم بعد استشهاد عبد القادر الحسيني. وتعرفت لاول مرة على القائد معروف الحضري الذي كان عند دخوله الى فلسطين ضابطا نظاميا برتبة يوزباشي (نقيب) يقود احدى سرايا المتطوعين. ولما استشهد القائد العام لقوات المتطوعين التابعة للجيش المصري القائمقام (العقيد) احمد عبد العزيز يوم **٢٢** آب / اغسطس **١٩٤٨**، تولى معروف الحضري مسؤولية القيادة المباشرة لقوات المتطوعين في بيت لحم، بينما كان البكباشي (المقدم) عبد الجواد طبالة قائدا عاما للمتطوعين وحاكما عسكريا على بيت لحم. وكان الاميرالاي (العميد) سعد صبور منسقا لقوات المتطوعين مع الجيش الاردني ومقره عمان.

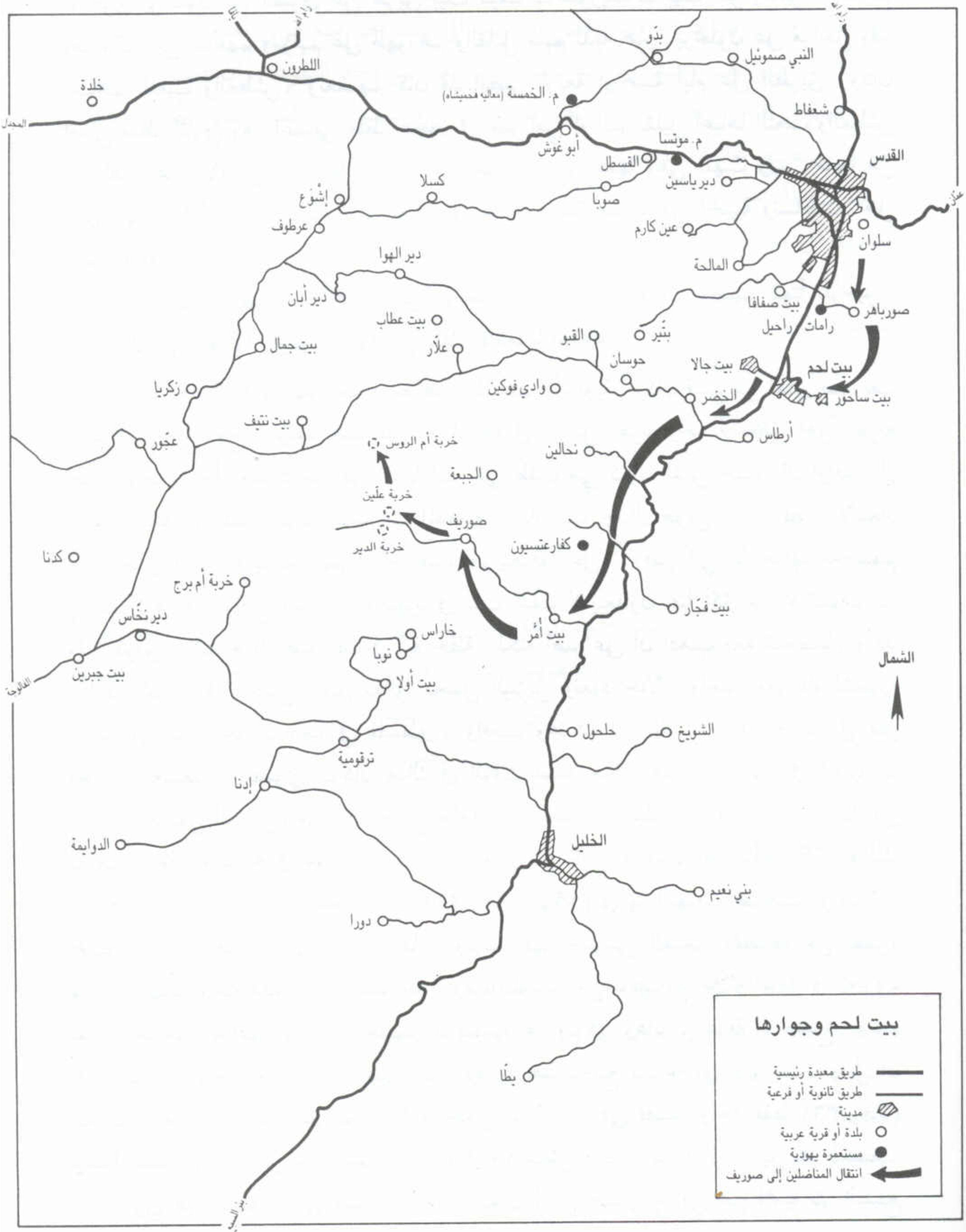
عقدنا أنا ومنير أبو فاضل وكامل عريقات ومعروف الحضري اجتماعا اطلعت فيه على الموقف، وتوزيع قوات المتطوعين في منطقة بيت لحم التي اصبحت قواتي جزءا منها. وتبين أن موقف الجيش المصري بشكل عام بما فيه موقف المتطوعين ومن معهم من جيش الجهاد المقدس اصبح خطيرا بسبب اختراق اليهود خط الدفاع المصري الرئيسي الممتد من المجدل الى بيت جبرين وتغلغلهم جنوبا مسافة طويلة بحيث اصبحوا يهددون مدينة غزة نفسها. وقد رحب الجميع بمبادرتي وتمنوا لو أن قوات اخرى من جيش الجهاد المقدس تنتقل من القدس وبير زيت الى منطقة بيت لحم. وأثناء اجتماعنا وردنا خبر سقوط قرية بيت نتيف

(٢٠/١٠/١٩٤٨) في يد اليهود، وكان ذلك يعني تهديدا كبيرا لمنطقة بيت لحم، لأن اليهود اذا واصلوا تقدمهم الى قرية صوريف المجاورة شرقا يصبح بامكانهم العودة الى مستعمرة كفار عتسيون وبالتالي عزل منطقة بيت لحم عن الخليل. وبذلك ينقطع اتصال القوات المصرية في بيت لحم مع خط امدادها الممتد جنوبا الى الخليل فبئر السبع فمصر. وفي ضوء هذه المعلومات تقرر أن أتحرك مع مجموعتي، ومعنا قوة مدفعية مصرية في الصباح الباكر الى قرية صوريف لنوقف التقدم اليهودي. وبما انه ليس من الحكمة ان نتحرك فورا اثناء الليل، فقد قضينا ليلتنا في بيت لحم.

التحرك الى قرية صوريف

في الصباح الباكر من يوم ٢١ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٤٨ ركبنا سيارات الشحن متوجهين الى قرية صوريف ــ قرية المناضل ابراهيم ابو دية ــ وبعد مسافة قصيرة توقفنا قرب قرية الخضر حيث انضمت الينا قوة نظامية مصرية تتألف من نحو ٢٠ جنديا مصريا من سلاح المدفعية يركبون شاحنتين ضخمتين تحمل كل منهما مدفعا كبيرا من عيار ١٢ رطلا. وكان يقود هذه القوة اليوزباشي (النقيب) كمال الدين حسين الذي اصبح فيما بعد أحد كبار قادة ثورة تموز / يوليو ١٩٥٢ في مصر. كنت اعرف قرية الخضر ومحيطها معرفة جيدة. ففيها دفن الشهيد سعيد العاص سنة ١٩٣٦، واليها كنت اقود رحلة من طلاب الكلية الابراهيمية سنويا في ذكرى استشهاد سعيد العاص حيث نحج الى قبره ونحيي فيه رمزا من رموز وحدة النضال العربي، نحيي مناضلا مقاتلا من حماة وبطلا من ابطال الثورة السورية الكبرى استشهد وهو يقاتل الانكليز في ثورة فلسطين. وفي قرية الخضر بدأنا نلمس مأساة النزوح من جديد، فقد تجمع في هذه القرية مئات النازحين عن قرى منطقة غربي بيت لحم (منطقة العرقوب) الذين اضطروا للنزوح بعد تقدم اليهود ووصولهم الى قراهم.

كانت هذه هي المرة الاولى التي اتعرف فيها على كمال الدين حسين، فتحدثنا قليلا ثم أقلني الى جانبه في سيارة الجيب التي كان يقودها بنفسه وسرنا في المقدمة. وفي الطريق تحدثنا عن المعركة الدائرة رحاها وعن استشهاد البكباشي (المقدم) احمد عبد العزيز وعن النزوح واللاجئين وقال: أرأيت كيف يستغل سائقو الشاحنات ــ المجرمون ــ وضع النازحين فيطلبون خمسين دينارا اجرة الشاحنة من الخضر الى أريحا؟ قلت: لكن المسؤولية الاساسية علينا نحن العسكريين، فلو أمنّا لهؤلاء القرويين حماية فعالة او سلاحا يدافعون به عن قراهم لما نزحوا. وكان كمال الدين حسين يسألني عند كل مفترق طرق الى أين يؤدي هذا الطريق؟ لانه كان لا يعرف الارض معرفة جيدة. ولما وصلنا قرية بيت أُمر التي تبعد ١٧ كيلومترا جنوبي القدس استدرنا الى الغرب في طريق غير معبدة تنحدر بشكل حاد الى قرية صوريف مما يشكل خطرا كبيرا على الشاحنات بخاصة شاحنات المدفعية. وهنا كانت مأساة النزوح


بيت لحم وجوارها
طريق معبدة رئيسية
طريق ثانوية أو فرعية
مدينة
بلدة أو قرية عربية
مستعمرة يهودية
انتقال المناضلين إلى صوريف
الشمال
القدس
بدّو
النبي صموئيل
شعفاط
اللطرون
خلدة
م. الخمسة (معاليه فحميشاه)
أبو غوش
م. موتسا
القسطل
دير ياسين
كسلا
صوبا
إشْوَع
عرطوف
عين كارم
سلوان
المالحة
دير الهوا
دير أبان
بيت صفافا
رامات راحيل
صورباهر
بيت عطاب
بتّير
القبو
علّار
بيت جمال
حوسان
بيت جالا
بيت لحم
بيت ساحور
زكريا
وادي فوكين
الخضر
بيت نتيف
أرطاس
عجّور
خربة أم الروس
نحالين
الجبعة
خربة علّين
صوريف
خربة الدير
كفارعتسيون
كدنا
خربة أم برج
بيت فجّار
دير نخّاس
بيت أُمّر
خاراس
نوبا
بيت جبرين
بيت أولا
حلحول
الشيوخ
ترقومية
إدنا
الدوايمة
الخليل
بني نعيم
دورا
بطّا

ادهى وأمر: مئات بل الوف من أهالي قرى العرقوب وما جاورها من دير ابان وبيت عطاب وبيت جمال والقرى الكبيرة: زكريا وبيت نتيف وعجور وعشرات القرى الصغيرة والخرب الاخرى يزحفون الى الشرق عن طريق بيت نتيف ـ صوريف ـ بيت أُمر يحملون اطفالهم وما أمكن من متاعهم ومؤنهم على ظهورهم والقليل منهم لديه حمير. يرتحلون على مراحل وقد اعياهم التعب والعطش، وبعضهم كان قد امضى اربعة او خمسة أيام على الطريق. وكان اقسى منظر أثارني وهز اعماقي منظر عجوز في عمر امي او أكبر بقليل أعياها التعب والعطش فاستلقت على الارض مكبة على وجهها ولسانها يتدلى من فمها وهي تلهث وليس معها من يعتني بها. ولا أدري لماذا قفزت الى مخيلتي في هذه اللحظة صورة امي الحبيبة وتساءلت: هل ستواجه نفس المصير؟

في بيت أُمر صفق لنا اهالي القرية ونحن نجتاز ازقتها. وكان بعضهم يتهيأ للرحيل. ولا أشك انهم غيروا رأيهم وعدلوا عن ذلك عندما شاهدونا.

اخيرا وصلنا قرية صوريف وسط هذه المشاهد المأساوية. وكان قسم من أهالي صوريف أيضا قد بدأ النزوح. توقفنا عند المدرسة الواقعة في مدخل القرية وتجمع بعض اهل القرية حولنا فرحين. ولم نكد نترجل من السيارات حتى طلب مني كمال الدين حسين ان ارافقه الى مدينة الخليل لاحضار بنزين لسيارات المدفعية. ودار بيننا جدال طويل: انا ارفض الابتعاد عن رجالي الذين لم يستقر بهم المقام بعد، ولم يتعرفوا على الارض التي لا يعرفها معظمهم ولم يتمركزوا في مواقع مناسبة، واليهود في بيت نتيف لا يبعدون عنا أكثر من ٧ كيلومترات وقد يقومون بالتقدم الى صوريف في أية لحظة. لكنه أصر علي ان اذهب معه شخصيا. وأكد اننا لن نمكث في الخليل سوى دقائق نحمل البنزين ونعود حالا. واخيرا ومراعاة لشعوره كمصري جاء ليحارب معنا في فلسطين، وافقت وتحركنا الى الخليل. ولما وصلنا الى مقر الحاكم العسكري المصري ـ كان هناك في الوقت نفسه حاكم عسكري اردني في الخليل ـ وقبل ان نحمل البنزين دعي الى اجتماع هام!!.. وبعد ان مكث في غرفة الاجتماع أكثر من نصف ساعة، وانا احترق على الجمر، خرج ليعتذر عن تأخره وليقول انه سيتأخر أكثر، وذلك لان مدينة بئر السبع قد سقطت اليوم (١٩٤٨/١٠/٢١) في يد اليهود واصبحت مواصلات جميع الجيش المصري في منطقتي الخليل وبيت لحم وجنوبي القدس مقطوعة عن مصر، وبذلك اصبح وضع هذه القوات خطرا جدا. ولهذا فانه سيدرس الموقف مع زملائه القادة، وسيجرون تقديرا عسكريا لموقفهم وما يجب عليهم ان يقوموا به. وتركني وعاد الى غرفة الاجتماع. وبعد ان مكث في الاجتماع نحو الساعتين خرج وقال: هيا نرجع بسرعة الى صوريف. وقبل ان نتحرك شاهدت بضع سيارات عسكرية تحمل ما لا يزيد على فصيل واحد فقط (٣٦ رجلا) وتحمل سيارة واحدة من سياراتهم رشاش ماكينة (رشاش فيكرز) تتجه الى طريق بئر السبع.

وفي طريق العودة الى صَوريف جعل كمال الدين حسين يحدثني عن أهمية بئر السبع

وخطورة موقف الجيش المصري بعد سقوطها. وعندما اقتربنا من صوريف كشف لي ما كان يمهد له وهو ان لديه اوامر بأن يغادر صوريف مع رجاله حالا الى بيت لحم. وعندما وصلنا صوريف أضاف ان علي انا ورجالي ان نرافقه لحراسة المدفعية حتى وصولنا الى بيت لحم. ودار بيننا جدال صاخب، فانا ارفض ان اعود الى بيت لحم مع قواتي لعدة أسباب خصوصا لأن اهالي صوريف وبيت أُمر سيعتقدون اننا نفر من وجه اليهود، وان ذلك سيؤدي الى اسراعهم في الرحيل بعد ان شجعناهم على البقاء في قريتيهم. أما كمال الدين حسين فيؤكد لي انه لا يستطيع مخالفة تعليمات قيادته وانه لا يجوز اطلاقا ان تتحرك المدفعية بدون حراستنا. وبعد مرحلة اخرى من الجدال قال لي سأكشف لك سرا عسكريا: ان القوة التي شاهدتها متجهة الى بئر السبع ستهاجم بئر السبع من الشرق وستقوم قوات مصرية اخرى بمهاجمتها من الجنوب ومن الغرب، واذا تمكن الجيش المصري من السيطرة على بئر السبع ولو لبضع ساعات فان جميع القوات المصرية في منطقتي الخليل وبيت لحم ستنسحب الى مصر مرورا ببئر السبع. ولذلك فقد صدرت الاوامر بأن تركب جميع قواتنا السيارات وان نحمل كل ما نستطيع من مهماتنا لنكون جاهزين للانسحاب فور عودة بئر السبع الى أيدينا. لقد ذهلت وهالني الخبر. اننا اذن امام انهيار كبير جديد. وبعد محاولة اخيرة فشلت في اقناعه، وشعرت ان واجبي يقضي بأن اكون الى جانبه في هذا الظرف العسكري والنفسي العصيب. ووافقت على العودة الى بيت لحم مصمما على ان لا اتوقف في بيت لحم وأن لا ينزل رجالي من السيارات لنعود فورا الى صوريف ولا سيما أن المسافة لا تزيد على ١٥ كيلومترا.

وهكذا تحركنا الى بيت لحم، واهل صوريف وبيت أُمر والنازحون على طول الطريق ينظرون الينا مشدوهين وجلين وبعضهم يشتمنا على الرغم من أن رجالي كانوا يكررون قولهم: سنعود!!. وكم شعرت ان طريق العودة الى بيت لحم طويلة، وما ان وصلنا وودعت كمال الدين حسين حتى استدرنا فورا عائدين الى صوريف.

ليلة الوصول الى صوريف

وصلنا ثانية الى صوريف بعد ان جن الليل. وهرع عدد من أهل صوريف الينا وفي مقدمتهم المختار ابو بهجت ولا اتذكر اسمه الكامل. وكان رجلا شجاعا صلبا. قلت له: ان مهمتنا ان نمنع وصول اليهود الى صوريف ونريد ان ترشدنا الى أفضل موقع يساعد على ذلك. فقال: ابشروا. حركوا السيارات على طريق بيت نتيف لادلكم على خربة علين. وسرنا وهو معنا في طريق ترابي شبه معبد وابتعدنا عن صوريف نحو ٣ كيلومترات غربا حتى وصلنا الى خربة علين التي تبين لي فيما بعد انها اهم موقع عسكري استراتيجي في تلك المنطقة، وهي خربة صغيرة فيها بضعة بيوت صغيرة جدا كانت خالية من السكان، وهي تقوم على هذا المرتفع الحصين الذي يتحكم في المنطقة حوله من الجهات الاربع، كما يسيطر على

الطريق الترابي المؤدي الى بيت نتيف التي تبعد نحو ٤ كيلومترات الى الشمال الغربي.

وجدنا في علين مجموعة من مناضلي سرية ابراهيم ابو دية عددهم نحو العشرين يقودهم الملازم خلف من قرية سنجل في قضاء رام الله، وبعد ان تعرفنا عليهم وتعرفنا على مواقع العدو بشكل تقريبي جلس رجالي يستريحون تحت اشجار الزيتون. وطلبت من جميع ضباط الصف ان يرافقوني في دورية حول الموقع لنتعرف على الارض وشعابها. واستغرقت الدورية أكثر من ساعتين عدنا بعدها لنستقر في علين حيث رتبنا الحراسات اللازمة ونمنا حتى الصباح.

نهار اليوم التالي (١٩٤٨/١٠/٢٢)

نهضنا من النوم مبكرين واستطلعنا المنطقة حولنا. مرتفع علين الذي نتمركز فيه معقل حصين ينحدر الى الشمال والى الشرق انحدارا شديدا، والى الجنوب انحدارا معتدلا. اما في اتجاه الغرب فينحدر بالتدريج ويمتد ويتشعب في واديين. ان اي هجوم متوقع على علين من اليهود اما ان يأتي راجلا من الغرب حيث لا توجد طريق للسيارات، واما من الطريق الترابية شبه المعبدة التي تمر من الجهة الجنوبية. ولكن هذه الطريق التي يمكن ان تأتي منها مصفحات، تتحكم فيها خربة حصينة اخرى تقابل علين من الجنوب اسمها خربة الدير، اي ان الطريق تمر بين مرتفعين حصينين يسيطران على الوادي الضيق، ولذلك يجب ان تكون بعض عناصرنا في خربة الدير ويجب ان نغلق الطريق الترابي الذي يصل بيت نتيف المحتلة بقرية صوريف خلفنا، كما يجب ان يكون لنا باستمرار وخصوصا في الليل كمين كبير متقدم الى الغرب من علين. وعلى بعد نحو ٣ كيلومترات الى الشمال من علين توجد خربة اسمها ام الروس او خربة خميس، قيل لنا انه لا يزال فيها مناضلون عرب، وهي اقرب موقع عربي الى بيت نتيف.

لفت نظري وجود عدد كبير من المسلحين العرب غير النظاميين (فزعات) من ابناء قرى الخليل وخصوصا من اهالي حلحول، لا يقل عددهم عن الخمسين يتجولون في المنطقة أفرادا وبدون غرض محدد. وأوحى لي وجودهم فكرة شن هجوم معاكس لاسترداد قرية بيت نتيف التي تنتصب امامنا على مرتفع حصين. ومع ذلك، اذا حشدنا هذا العدد من المسلحين ولا سيما ان المناضل عبد القادر ابو عريش الذي هو من ابناء قرية حلحول موجود معي ويمكنه المساعدة على حشد ابناء قريته، واذا تحركنا بهم مع رجالي ورجال سرية ابو دية قبل ان يستقر اليهود وقبل ان يتحصنوا في بيت نتيف التي احتلوها منذ ليلتين فقط، فان هناك امكانية معقولة لاستردادها. وسيطرت علي الفكرة وبدأت اخطط لما يجب وارتب الاولويات. فالاولوية الاولى هي التقرب والاستطلاع والثانية حشد المناضلين الحلاحلة وغيرهم، اما اغلاق الطريق والثبات في خربة الدير فيمكن تأجيلها.

اتخذت قراري بالتوجه الى خربة ام الروس، واخبرت الملازم خلف بذلك، واصطحبت معي نحو خمسة عشر مناضلا بينهم عدد من ضباط الصف، وتوجهنا الى أم

الروس. لم نسلك الطريق المعبدة فهي طويلة ويمكن ان يقابلنا فيها اليهود بالمصفحات، واتجهنا مباشرة الى الشمال في ارض منبسطة تسمى مرحان صوريف او مرحان ام الروس. ولكن ثلاثة اودية ذات جوانب شديدة الانحدار شقتها وكونتها سيول المطر، ويسمي اهل المنطقة الواحد منها شلالا ولا يسمونه بالوادي، كانت تعترض طريقنا وتجعل الوصول الى ام الروس شاقا جدا. وفي أية حال وصلنا الى ام الروس واصبحنا على بعد كيلومتر واحد او اقل من بيت نتيف. وجدنا الخربة مهجورة من سكانها تماما وفيها نحو ٢٥ مناضلا من أهالي مدينة الخليل يقودهم شاب من عائلة الجعبري لا اتذكر اسمه، عرفني بسرعة وفرح ورفاقه بقدومنا، وقالوا انهم سيغادرون الخربة ويتركونها لنا ليعودوا الى الخليل لانهم (فزعة)، وانهم باتوا في الخربة ليلتين وليس هناك ما يأكلون سوى ما تركه الفلاحون من دجاج كثير ومن عسل كثير ايضا، ولكن بدون خبز. عرضت عليهم فكرة الهجوم لاسترداد بيت نتيف فلم يوافقوا بسبب وجود اليهود في مواقع حصينة، مثل مدرسة القرية التي تقف في اعلى القمة، ولوجود دوريات مصفحة كثيرة تجوب باستمرار، ولان مجموعتهم مرهقة ومصممة على العودة الى الخليل حتى لو أننا لم نأت. وبعد فترة قصيرة غادرونا بالفعل عائدين الى بيوتهم.

استطلعنا المنطقة جيدا ووجدنا ان حظنا من النجاح في استرداد القرية ضئيل، وان خسائرنا ستكون كبيرة، وتمنينا لو ان المدفعية المصرية بقيت معنا. وحتى لو تمكنا من استرداد القرية فلن نستطيع الثبات فيها، لوجود قوات يهودية كبيرة على مقربة منها ولان اليهود لن يتنازلوا عن موقعها الحصين الذي يعتبر عقدة مواصلات. لذلك قررنا ان نقف موقف الدفاع متحصنين في خربتي علين والدير. وعدنا بعد الظهر الى علين تاركين خربة ام الروس خالية. وقد اعتبرتها ساقطة عسكريا بسبب سيطرة اليهود عليها من الغرب والشمال وصعوبة مواصلاتنا معها.

ولما وصلنا الى علين شرحت الموقف للملازم خلف قائد مجموعة مناضلي ابراهيم ابو دية، فاحتج على اخلاء ام الروس. فأكدت له انها ارض ميتة لا يمكن الدفاع عنها. فلم يقتنع بذلك واقترح ان يرسل عددا من رجاله اليها وان نقوم بدلا منهم بالحراسة ليلا في موقع باب البويب، وهو مضيق قريب من بيت نتيف يتحكم بالطريق المعبدة. فقلت له انه يخطىء بارسال رجاله الى موقع ام الروس الذي لا يمكن الدفاع عنه، ولا سيما أن رجاله الشجعان منهكون ومعنوياتهم منخفضة بسبب انسحابهم خلال بضعة ايام عدة مرات وهم يقاتلون من دير أبان الى بيت جمال الى بيت نتيف الى خربة علين، ولأن عددهم قليل وبعضهم مصاب بالملاريا. فأصر على رأيه وأرسل مجموعة الى ام الروس مع انني حملته مسبقا مسؤولية ابادتهم او هربهم عند اول هجوم. وتوجهت مع نحو العشرين من رجالي الى موقع باب البويب على بعد كيلومترين الى الغرب من موقعنا في علين حيث امضينا الليل منتشرين على شكل كمين متقدم.

٤٢ أيام وليال في خِرَب صوريف ووادي الصور

صوريف قرية صغيرة مناضلة، كان معظم مقاتليها مجندين في سرية ابراهيم ابو دية. تعتمد في حياتها على شيء من الزراعة وتربية الابقار، التي رحلت في تلك الفترة وتركت لنا جيوش الذباب المعروف بـ «دبان الفرس». والى الغرب من صوريف توجد بئر ارتوازية (بيارة) غزيرة المياه تسمى بيارة وادي الصور يرد إليها سكان القرى والخرب المجاورة وتهب الحياة للناس وأبقارهم.

يوم تحركت مع رجالي الى بيت لحم، لم اسأل نفسي اين سنستقر وكم سنمكث. كل ما كنا نفكر فيه هو ان نشارك في القتال ضد اليهود الى جانب الجيش المصري وندافع عن الاماكن المعرضة لهجوم اليهود خصوصا الخليل وبيت لحم. ولم يدر في خاطري اننا سنمضي في خرب صوريف بضعة أشهر نواجه فيها أوضاعا ونمارس عملا عسكريا ميدانيا يختلف تماما عن قتال المدن وحرب الشوارع الذي تعودناه. ونحن هنا بعيدون عن اهلنا وعن بيوتنا، نعسكر في خرب صغيرة خالية من السكان، ونواجه اليهود في ميدان فسيح مكشوف. فعن يميننا شمالا وعلى بعد نحو الخمسة كيلومترات توجد أقرب قوة عربية الينا وهي مجموعة صغيرة من سرية ابراهيم ابو دية في قرية الجبعة، وأقرب قوة إلى يسارنا جنوبا مجموعة من الجيش العربي الاردني والمناضلين في موقع وادي القُفْ على بعد نحو ١٥ كيلومترا، ولا توجد تحت تصرفنا ولو سيارة واحدة، وكان التموين يصلنا من بيت لحم يوميا في سيارة لا تلبث ان تعود ادراجها. وضع اشبه بوضع حرب العصابات منه بحرب الميدان. ومع ذلك كان علينا ان نقوم بواجب ميداني، ونمنع اليهود من التقدم الى صوريف.

كان أول أمر اصدرته صباح ١٩٤٨/١٠/٢٣ اغلاق الطريق الترابي المعبد الذي يمكن ان يتقدم منه اليهود بمصفحاتهم من بيت نتيف الى صوريف. ولم يكن لدينا من الوسائل سوى اقامة عوائق وسدود من الحجارة في الأماكن الضيقة من الوادي الذي تقع على جانبيه خربتا علِّين والدير. كما أمرت بحفر خندق او اكثر حيثما أمكن كعوائق. وبدأ المناضلون العمل بهمة فائقة، ثم اعتراهم التعب والاعياء، فطلبت منهم ان يستعينوا بسيل اللاجئين المتدفق فيطلبوا من كل رجل منهم ان يضع ثلاثة احجار فقط على السدود. وفي هذه الاثناء وقع حادث طريف ذو مغزى، اذ بينما كنت أراقب عملية اغلاق الطريق عن كثب لاحظت قيام جدال حاد

ومشادة بين رجالي وبين أحد شبان اللاجئين. ولما تدخلت في الامر تبين لي ان ذلك الشاب يرفض بشدة واصرار ان يضع على السدود ولو حجرا واحدا كما طلب منه. ولما سألته لماذا يمتنع عن ذلك، أبدى استغرابه لأن سؤالي لا يستحق الاجابة. ولما ألححت عليه طالبا تفسير موقفه قال بانفعال: «هو حجارك هادول بدهم يردوا اليهود؟». فشعرت انه يعاني اشد حالات الاحباط فقلت له: «مع السلامة، وان شاء الله سنردهم». وكلي قناعة انه اذا كانت هناك بنادق ورشاشات تقف الى جانب الحجارة فان اليهود لا يستطيعون ان ينزلوا من مصفحاتهم لرفع الحجارة من الطريق.

نسف بيت نتيف

في الضحى لفتت انظارنا سلسلة من الانفجارات في قرية بيت نتيف، وتبين لنا ان اليهود باشروا نسف منازلها لا على التعيين. وقد استمرت عملية النسف بضعة ايام، ولم يبقوا في القرية الكبيرة حجرا على حجر سوى بناية المدرسة في قمة المرتفع التي اتخذوا منها حصنا عسكريا. ومع ان نسف القرى العربية في تلك الفترة وازالة معالمها كان مقصودا لذاته، إلا اننا قدرنا انهم يعبرون بذلك عن غضبهم على قرية بيت نتيف انتقاما لقتلاهم الاربعين الذين أبيدوا بين بيت نتيف وصوريف يوم ١٧ كانون الثاني / يناير ١٩٤٨ على يد ابراهيم ابو دية ورجاله. ولا شك ان المصير نفسه أو أشد كان ينتظر قرية صوريف لو وصلوا اليها.

فزعة

بعد ظهر هذا اليوم وصلتنا (فزعة) من أهالي قرية الشيوخ تضم نحو ٢٥ رجلا يقودهم شيخ مجاهد معروف من اهل القرية كان فقد ذراعه في معركة كفار عتسيون. وبعد ان استراحوا تشاورت مع الملازم خلف بشأنهم وقررنا ان نسيرهم الى خربة ام الروس لتعزيز الدفاع عنها. وقبيل الغروب توجهوا اليها بعد ان زودناهم بكمية من التموين والذخيرة. واتفقت مع شيخهم ان يشعلوا نارا عالية اذا حاصرهم اليهود، كي نخف لنجدتهم. وكلفت شابا من خيرة رجالي اسمه فوزي الاسدي ان يتولى مراقبة الوضع في ام الروس ويخبرني بما يلاحظه أولا بأول. وفوزي الأسدي عسكري من أهالي صفد خدم في الجيش السوري، وهو شقيق تلميذي المناضل وليد الأسدي الذي سبق ذكره في هذه المذكرات.

لم ننم طيلة تلك الليلة. فبعد الغروب بنحو الثلاث ساعات اشعلت نار عالية في خربة ام الروس، وقدرنا انها حوصرت، فتوجهت اليها مع دورية كبيرة عاجلة. ولما وصلت طلائع الدورية بعد جهد كبير تبين ان الرجال اوقدوا النار لمجرد التدفئة. فعدنا ادراجنا وقد أنهكنا التعب. ولم نكد نصل الى خربة علّين بعد منتصف الليل، حتى بدأ اليهود قبيل الفجر اطلاق

النار بغزارة شديدة من مرتفعات بيت نتيف على خربة ام الروس، وكان تقدم مواقع اطلاق النار يعني انهم يتقدمون نحو هذه الخربة. ولفت نظرنا ان المناضلين في ام الروس لا يردون على النار، وقدرنا انهم كمنوا للعدو ينتظرون وصوله ليفاجئوه بالنار. ولما اشتدت الرماية قدت نحو العشرين مناضلا من رجالي واتجهنا الى موقع يقطع الطريق بين ام الروس وبيت نتيف لنعرقل تقدم اليهود. وعند طلوع النهار تبين لنا ان اليهود احتلوا الخربة بدون مقاومة. وكنا اصبحنا قريبين جدا من مواقعهم فحاولوا ان يقطعوا طريق عودتنا، ودار بيننا قتال استمر نحو الساعة، عدنا بعدها الى مواقعنا في علّين، وسقطت ام الروس دون ان يتمكن من فيها من الدفاع عنها كما كنت توقعت، وانسحبوا الى قرية الجبعة.

إخبارية ومدفع

امضينا يومين آخرين ونحن نزيد من كثافة سدود الحجارة وامتدادها ونراقب عمليات نسف بيوت بيت نتيف نهارا ونرابط في باب البويب ليلا. ومساء أحد الأيام وصلتني اخبارية من بيت لحم ان مدرعات من الجيش الاردني تقدمت من قرية الخضر الى وادي الصنع للقيام بهجوم على بيت نتيف وان عليَّ أن أقابلها وأن أتعاون معها. وعند منتصف الليل وجهت دورية كاشفة الى وادي الصنع بقيادة المناضل الشجاع سلامة عودة للتحقق من وصول الجيش العربي والاتصال معه ان امكن. وبعد ان سارت الدورية وصلتني اخبارية اخرى تحذرني من تقدم يهودي منتظر وتقول ان الاخبارية عن تقدم الجيش العربي كاذبة، ولم يكن باستطاعتي تحذير الدورية التي ارسلتها. وبعد ساعتين عادت الدورية بقيادة سلامة عودة الذي اخبرني أنهم وصلوا إلى الطريق العام قرب بيت نتيف ووجدوا عددا من المصفحات هناك تبين لهم أنها مصفحات يهودية. وشعرت نتيجة لكل ما تقدم انني اتعرض لعمليات جاسوسية ويجب ان اكون حذرا منها.

كان لدى مجموعة ابراهيم ابو دية في خربة علين مدفع ميدان ايطالي من عيار ٢ رطل يشرف عليه شاب مدفعي يوغوسلافي ذكرني بالمدفع الذي تسلمته في القدس عشية ١٨ أيار / مايو ١٩٤٨ ولم يكن سوى مضيعة لوقتنا الثمين وخيبة امل. لذا أحببت ان أتأكد من كفاءة المدفع والمدفعي. وبعد ظهر احد الأيام طلبت منه ان يسدد إلى شجرة امامنا في سفح بيت نتيف على الطريق الرئيسي المؤدي اليها وان يطلق قذيفة او اكثر، فأطاعني واطلق ثلاث قذائف دون ان تصيب اية واحدة منها الهدف ولم نعرف أين سقطت، وهل انفجرت ام لا. وكان لانطلاق القذائف صوت غريب لم أعرف كنهه الا بعد ايام. ومهما يكن الأمر فهذا المدفع ينطلق فهو اذن أفضل من مدفعنا في القدس. وفي النهاية أخبرني المدفعي انه بحاجة الى المزيد من القذائف فوعدته ان ابحث الأمر لدى قيادته في بيت لحم.

تعزيزنا بفصيل سوداني

في هذه الاثناء زارنا في علّين القائد معروف الحضري وثبت موقعنا على الخريطة مؤكدا ان موقعنا مهم جدا وان علينا ان نصمد فيه. وكان بصحبته ضابط سوداني اسمه احمد علق بقوله: ان سقطت التبة دي تسقط صوريف. وعرفت ان أحمد سيتمركز بعد فترة مع فصيل سوداني في موقع خلفنا على بعد كيلومترين في خربة اسمها الساقعة فقلت له: لماذا اذن لا تقدم فصيلك وتشاركنا في هذا الموقع المهم. فقال: «الساقعة كمان مهمة». وبهذه المناسبة اشير الى ان وضع الجيش المصري في منطقة الخليل وبيت لحم اصبح صعبا جدا بعد سقوط بئر السبع وحصار الفالوجة وانقطاع مواصلاته كلية مع مصر، بحيث اصبح تحت رحمة الجيش والسلطات الأردنية. ولولا وجود قوات مصرية محاصرة في الفالوجة وحاجتها الى الاتصال والدعم من منطقة الخليل لانسحب الجيش المصري (قوات المتطوعين) من الخليل وبيت لحم الى مصر.

وفي أية حال سرّنا خبر تعزيزنا بفصيل سوداني الذي تحقق بعد اكثر من ثلاثة اسابيع. ومن ناحيتي أقمت موقعا جديدا لنا في خربة الدير أفرزت له في البداية عشرة رجال فقط بقيادة الملازم الشجاع عبد المهدي المحتسب.

سقوط بيت جبرين (١٩٤٨/١٠/٢٧)

لم تكن بيت جبرين تبعد عنا كثيرا. لذلك كنا نسمع اصوات النيران فيها وحولها. وفي ٢٦ تشرين الأول/اكتوبر اشتد هجوم اليهود على القوة المصرية المرابطة فيها واستنجد المصريون بالجيش الاردني. وفي صباح ١٩٤٨/١٠/٢٧ تقدمت بضع مصفحات من الجيش الاردني بقيادة الضابط الانكليزي، سيىء الصيت، الميجر لوكتْ. ولم تكد تقترب من بيت جبرين حتى قفلت راجعة الى جوار قرية ترقومية بعد ان تعرضت لقصف بالمورتر، فسرّع ذلك في انسحاب القوات المصرية الى الخليل، وسقطت بيت جبرين.

ومما يذكر أن الميجر لوكت ارسل باللاسلكي عند انسحابه رسالة مكشوفة (بدون شيفرة) يقول فيها: «نحن نتراجع من بيت جبرين الى ترقومية». وقد التقط هذه الاشارة جهاز اللاسلكي الخاص بجيش الجهاد المقدس في بيت لحم. ولما قام منير ابو فاضل بانتقاد ذلك احتجزه لوكت لفترة قصيرة وهاجم مقر الحاكم العسكري المصري في عمارة تيغارت واستولى على جهاز اللاسلكي الخاص بالجهاد المقدس.

استمر تقدم اليهود جنوبا ووصلوا الى قرية الدوايمة، فاقتربوا جدا من مدينة الخليل. وفي الدوايمة قاموا بمذبحة بشعة تشبه مذبحة دير ياسين. ذلك لأن عددا كبيرا من أهل القرية بقوا فيها واحتموا بجامع القرية مسالمين، إلاّ ان اليهود قتلوهم عن بكرة أبيهم. ولا أشك في أنهم قاموا بذلك لارهاب اهل مدينة الخليل لكي يرحلوا عنها. وعلى هذا الأساس اتفقت الآراء على ان نتكتم على اخبار هذه المذبحة لئلا تحدث الرعب الذي أراده اليهود.

هجوم ليلي

بعد ظهر ١٩٤٨/١٠/٢٩ تطور الموقف بشكل خطير، فقد شرع اليهود بقصف موقعنا في خربة علّين بشكل متواصل بمدفعين: مدفع ميدان ومدفع مورتر من عيار ٣ إنشات. ورحت اراقب عملية القصف. ففي البداية كانت القذائف تقصر عن الوصول الى موقعنا، وشيئا فشيئا بدأت تتساقط حولنا بكثافة، ولم يكن لدينا ما نرد به على القصف. لذلك حرصنا على الانتشار والتحصن بالارض وعدم الانسحاب. واستمر القصف بعد حلول الظلام فسقطت قذيفة بالقرب مني ونثرت علي الكثير من التراب دون ان تصيبني شظاياها. وبعد الغروب بنحو ساعة وبينما كان الملازم خلف قائد مجموعة ابراهيم ابو دية ينتقل من موقع الى آخر سقطت بالقرب منه قذيفة فأصيب بجروح بليغة وأُصيب مرافقه بجروح متوسطة، ومع ذلك تمكنا من الوصول الى المواقع الخلفية وصادفنا صعوبة في نقلهما الى بيت لحم.

وتزعزع وضع رجال الملازم خلف فعملت على تثبيتهم وتوليت قيادتهم. وبعد ان توقف القصف الذي استمر خمس ساعات عقدت اجتماعا لتقدير الموقف وكان استنتاجنا، في ضوء معرفتنا بالاسلوب القتالي الذي دأب عليه اليهود في مهاجمتهم القرى العربية، انهم يقدرون أننا سنرحل عن موقعنا نتيجة للقصف. ولذلك قدرنا انهم لا بد ان يرسلوا دورية استطلاع ليتأكدوا من رحيلنا فاذا ما ثبت لهم ذلك تقدموا عند الفجر ليحتلوا الموقع. والاحتمال الثاني ان يقوموا بهجوم ليلي، حيث كانت قواتهم تتقنه على مستوى فصيل أو فصيلين.

وعلى هذا الأساس جمعت جميع رجالي ورجال الملازم خلف، واتخذنا مواقع لنا على شكل دائرة لا يزيد قطرها على الستين مترا وهو ما كنا نسميه (الجوزة التي لا تكسر). وكنت في وسط الدائرة استطيع ان أرى كل واحد منهم كما ان هذا الوضع لا يسمح للعدو بالتغلغل في صفوفنا كما لا يدع مجالا لأن نخطىء فنوجه نيراننا نحو بعضنا. ثم ارسلت الجاويش الشجاع عبد القادر ابو عريش ليقيم كمينا متقدما قدرنا ان دورية العدو ستأتي من اتجاهه، وزودته بمدفع مورتر من عيار ٢ انش مع طلقات تنوير وطلقات اشارة.

وبعد منتصف الليل شعر ابو عريش ومن معه بدورية تتقدم نحوهم واستعدوا للقائها. الا انها لم تتقدم، فاضطر لاطلاق قذائف تنوير ولم يتمكن من الاشتباك مع الدورية. ويظهر

انها غيرت طريقها واتجهت الى خربة الدير، أو ان دورية ثانية كانت متجهة الى خربة الدير حيث تمكنت عند الفجر من قتل احد رجالي هناك. وطلع النهار دون ان يقوم العدو بالهجوم المنتظر. وفي تقديري انه تخوف من تصرفاتنا ومن وعورة مواقعنا وحصانتها.

الى بيت لحم طلبا للتعزيز

بعد يومين قررت السفر الى بيت لحم للحصول على تعزيزات لمواقعنا، وعهدت للشيخ فارس ادريس بالقيادة اثناء غيابي. وفي بيت لحم قابلت قائد مدفعية جيش الجهاد المقدس، وكان يوغوسلافيا، وطلبت منه تسليمي قذائف للمدفع الموجود معنا في علّين، فقال لي: كل ما عندي من القذائف ليس لها (رنجات). ولما سألته ماذا يقصد بالرنجات عرفت انها حلقات من نحاس تحيط بجسم القذيفة لتجعل انطلاقها من المدفع شديدا، ومرورها قاسيا مما يجعلها تنطلق بقوة الى مسافات بعيدة وبتسديد جيد. ويظهر ان البدو الذين كانوا يجمعون هذه القنابل من صحارى ليبيا كانوا ينزعون هذه الحلقات النحاسية ويبيعونها بسعر مغر. والخلاصة ان هذا يعني ان جميع القنابل الموجودة هنا في بيت لحم وهناك في علّين غير صالحة للاستعمال، وعلى هذا الاساس طلبت منه ان يسحب المدفع من علّين ويعيده الى بيت لحم.

وبعد اتصالات ومساعٍ كثيرة حصلت على مدفع مورتر عيار ٨١ ملم في حالة حسنة جدا سلمنا اياه الحاكم العسكري عبد الجواد طبالة، وأرفقه بعريف من الجيش المصري اسمه اسماعيل. ولما جاءني اسماعيل بالمدفع وجدت معه ثلاث قذائف فقط، ولما أبديت دهشتي قال: «مش بس كده، سيادته ألِّي (قال لي) اسمع يا اسماعين!! ان جيت لي آخر الشهر وقلت خلصم حَجَازيك، وان أولت (قلت) أهم الثلاثة موجودين حاكافيك». لذلك اضطررت إلى ان اسافر الى القدس لأبحث عن قذائف في مستودع جيش الجهاد المقدس هناك. وبالفعل وجدت المئات من القذائف الصالحة إلاَّ ان الخراطيش والعبوات تنقصها. وبعد مجهودات متواصلة تمكنت من تجهيز اكثر من مئة قذيفة بما يلزمها وأرسلتها الى صوريف. وبالاضافة الى ما تقدم حصلت من القيادة على سيارة بيك اب بحالة جيدة جدا، وحركت عددا من رجالي من القدس الى صوريف ونقلت مدفعا ضد الدروع ورشاش براوننغ ثقيلا ضد الدروع ايضا كنا نحتفظ بهما في قلعة باب الخليل الى صوريف.

هذا وقد شجع وجودي ورجالي في منطقة بيت لحم قائد جيش الجهاد المقدس خالد الحسيني على ارسال عدة سرايا من القدس وبير زيت الى منطقة بيت لحم، وتمركزوا في قريتي نحالين والقبو وغيرهما من القرى المجاورة. وبعد فترة قصيرة انتقل معظم رجال فرقة التدمير من القدس وانضموا الى رجالي في خربة الدير بمن فيهم قائد فرقة التدمير المشهور فوزي القطب ومعهم سيارة جيب عسكرية.

عدت الى علّين والدير، ولدى مروري بقرية بيت أمَّر وجدت مجموعة من الدرك (الفرسان) الاردني تمركزت فيها وان معظم اهلها عادوا اليها. وفيما بعد تمركزت فيها ايضا قوة من الجيش الاردني. اما قرية صوريف فلم تصلها قوات اردنية حتى ذلك الوقت.

وبعد فترة قصيرة جاءني مختار صوريف الشهم، ابو بهجت، وطلب مني ان ارسل معه الى صوريف بضعة رجال لكي يمنعوا رحيل اهل القرية بالقوة، فلم اوافق على ذلك. وقلت له: ان اهل القرية لن يرحلوا عنها كما ان الذين رحلوا سيعودون اليها عندما نثبت لهم اننا صامدون في مواقعنا. وهذا ما حصل بالفعل بعد نحو الشهر من ثباتنا في خربتي الدير وعلّين.

وقد عملت بعد عودتي على اقامة تحصينات دفاعية قوية وأقمت مواقع مناسبة لمدفع المورتر وللمدافع المقاومة للدروع في خربة الدير وأقمت مقر قيادتي ايضا في هذه الخربة.

وبعد وصول رفيق نضالي فوزي القطب ورجاله الشجعان وتمركزهم في خربة الدير قاموا بنشاط واسع في زرع الألغام في الطريق الرئيسي والطرق الفرعية المؤدية الى مواقعنا، وبذلك اصبح وضعنا جيدا من حيث التحصين والتسليح وعدد الرجال.

سبق ان تكلمت بإيجاز على الهجوم الواسع الذي شنه اليهود على الجيش المصري ابتداء من ١٩٤٨/١٠/١٥ والذي أدّى الى اختراق الخطوط المصرية في ١٩٤٨/١٠/٢٠ وتدفق قواتهم جنوبا وسقوط بيت نتيف في ١٩٤٨/١٠/٢٠ وبئر السبع في ١٩٤٨/١٠/٢١ وبيت جبرين في ١٩٤٨/١٠/٢٧ والدوايمة في ١٩٤٨/١٠/٢٨ وغيرها. وشن هجمات متواصلة جوا وبرا على مدن غزة وخان يونس ورفح لقطع الطريق على انسحاب الجيش المصري واجباره على الاستسلام.

حصار الفالوجة

(١٩٤٨/١٠/٢٠ ـ ١٩٤٩/٢/٢٦)

الفالوجة قرية كبيرة كان عدد سكانها سنة ١٩٤٨ اكثر من عشرة آلاف نسمة. وهي ذات اهمية اقتصادية وعسكرية لوقوعها على مفترق طرق رئيسية تصل شمال فلسطين بجنوبها وجبالها شرقا بساحل البحر غربا.

حاول اليهود احتلال الفالوجة منذ مطلع سنة ١٩٤٨ ولكن حماتها من المناضلين الذين بلغ عددهم ٢٥٠ رجلا صدوا جميع الهجمات الى ان وصلت قوات الجيش المصري من المتطوعين بقيادة احمد عبد العزيز، ثم وصلت قوات الجيش النظامي في ٢٢ أيار/مايو ١٩٤٨ بقيادة الاميرالاي (العميد) سيد طه الذي اتخذها مقرا لقيادته. وكانت قواته تتألف من ثلاث كتائب تعتبر زهرة الجيش المصري.

خلال الهجوم العام الذي أتحدث عنه تعرض قطاع الفالوجة الى هجمات ثقيلة متواصلة صدها جميعا مكبدا اليهود خسائر فادحة. الا ان قواته وقعت في الحصار. وكان هذا القطاع يشمل عراق سويدان والفالوجة وعراق المنشية. واكتمل الحصار عندما سقطت بيت جبرين في ١٩٤٨/١٠/٢٧ وبذلك قطعت الطريق شرقا الى الخليل، وانسحاب الجيش المصري من اسدود والمجدل يوم ١٩٤٨/١١/٥ وبذلك قطعت الطريق غربا وجنوبا الى غزة وبئر السبع. ثم سقطت عراق سويدان يوم ١٩٤٨/١١/١٠ وبذلك ضاق نطاق المنطقة المحاصرة واشتد الضغط على من فيها. واثناء ذلك وبعد هجوم عنيف استمر يومين متواصلين عرض اليهود على سَيد طه الاستسلام للعميد آلون فرفض وقرر الصمود حتى آخر طلقة.

وفي ١٩٤٨/١٢/٢٧ شن اليهود هجوما واسعا تركز على عراق المنشية، واستطاعوا ان يدخلوها ليلا. وقبل ان يوطدوا اقدامهم شن المصريون هجوما معاكسا منطلقا من الفالوجة فاستعادوا عراق المنشية وأبادوا جميع القوة اليهودية التي قدرت بمئتين وخمسين رجلا لم يسلم منهم سوى خمسة وقعوا في الأسر.

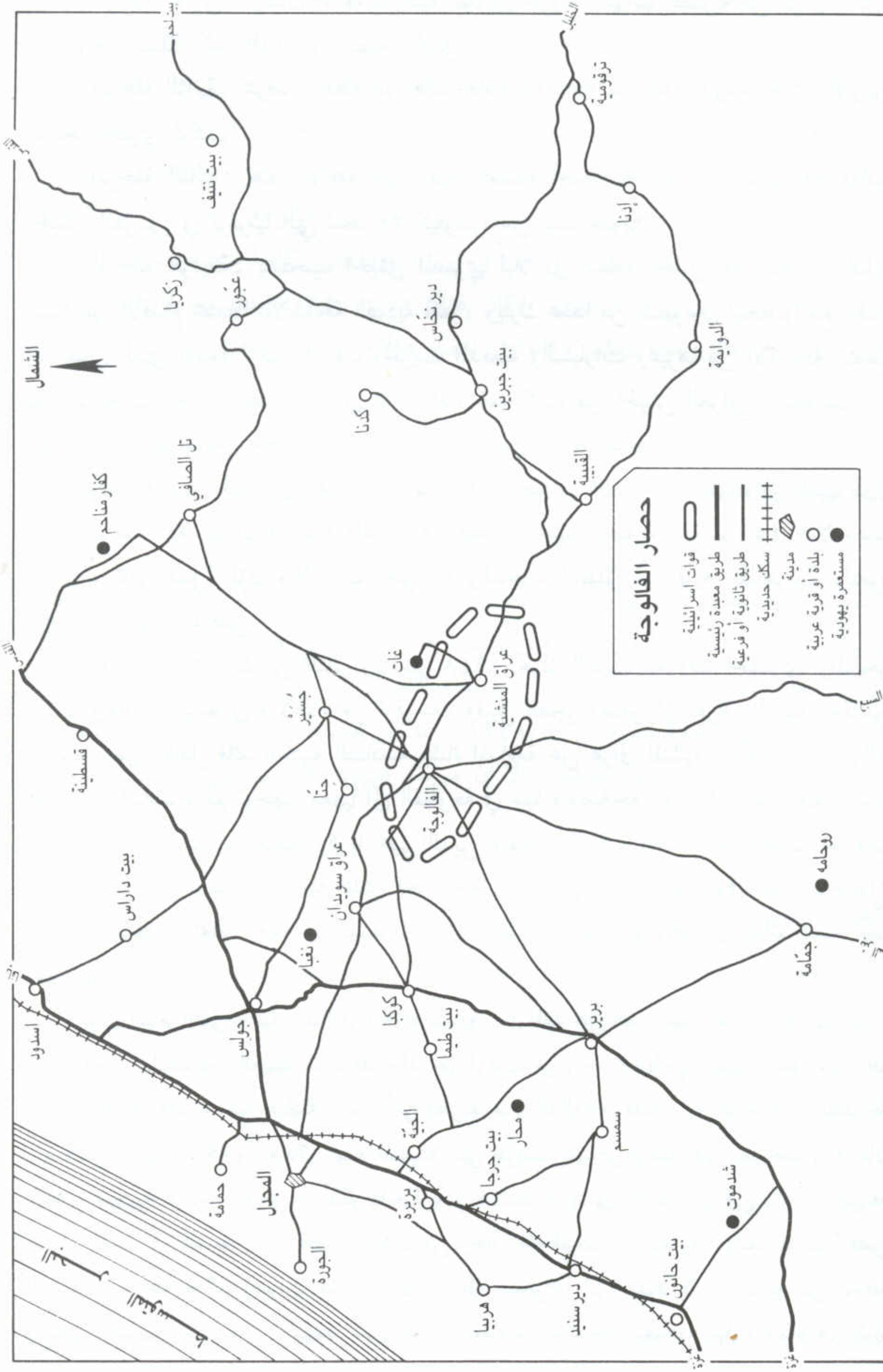
سبق أن اشرت الى ان مواقعنا في منطقة صوريف كانت قريبة من قطاع الفالوجة المحاصر بحيث كان بامكاننا رؤية قنابل الطائرات اليهودية وهي تتساقط بالعشرات من طائرات ضخمة ذات اربعة محركات (Sky Master)، كما كنا نسمع بوضوح دوي المدفعية المتواصل ليلا ونهارا. ويذكر ان اليهود كانوا في هذه الفترة قد حصلوا على اعداد كبيرة من الطائرات والطيارين المرتزقة، واصبحت سيطرتهم على الجو واضحة. وتحت هذه الظروف الصعبة جدا صمد ابطال الفالوجة من رجال الجيش المصري ورجال الفالوجة نفسها بقيادة رئيس بلديتها الشيخ محمد عواد، صمودا بطوليا اكثر من ١٢٨ يوما.

تابعنا مراقبة الهجمات الجوية والبرية بأعصاب مشدودة، واستمرت الهجمات على المنطقة المحاصرة. وكان بعض الهجمات يستمر اسبوعا كاملا ليلا ونهارا، والمحاصرون صامدون يوقعون بالعدو هزائم وخسائر كبيرة، مصممين على مواصلة القتال حتى آخر طلقة، رافضين عروض الاستسلام المتكررة متحدّين كل أسلحة العدو من طيران ومدفعية ودروع بما في ذلك تكرار استخدام الغازات المسيلة للدموع والمهيجة للانف. ومن الجدير بالذكر ان مناضلي منطقة الخليل ساهموا في صمود المحاصرين بإيصال المؤن والادوية اليهم ونقل الجرحى عبر طرق جبلية وعرة. كما كان للملاجىء التي حفرها اهل الفالوجة تحت الارض والقمح والمؤن التي يختزنها أهالي القرية التي قدموها للجيش اثر كبير في الصمود. ومن الطريف ان المحاصرين أصدروا مجلة سموها «الفالوجة»، أفادتهم في توجيه القتال ورفع المعنويات واستمرار الصمود.

لقد اعجبت ورجالي وكل من كان قريبا من منطقة الفالوجة بهذا الصمود البطولي الذي رفع معنوياتنا وشجعنا على الصمود والتحدي على الرغم من الاخبار السيئة جدا التي كانت تبلغنا عن تقدم اليهود في اتجاه الحدود المصرية وشن هجمات متوالية على الجيش المصري، كي لا تفكر القوات المصرية في تخطيط وتنفيذ عملية ناجحة لفك الحصار عن الفالوجة.

محاولات فك الحصار عن الفالوجة

جرت اكثر من محاولة لفك الحصار عن الفالوجة، الا ان اهم محاولة كانت تلك التي حملت رمز (خطة دمشق) وهي الخطة التي اقترحها الجنرال غلوب باشا، وكانت بنودها كما يلي:



حصار الفالوجة
قوات اسرائيلية
طريق معبدة رئيسية
طريق ثانوية أو فرعية
سكك حديدية
مدينة
بلدة أو قرية عربية
مستعمرة يهودية
الشمال
بيت نتيف
زكريا
عجور
ترقومية
إدنا
دير نخاس
الدوايمة
بيت جبرين
كدنا
القبيبة
تل الصافي
كفار مناحم
قسطينة
جسير
حتا
غات
عراق المنشية
الفالوجة
عراق سويدان
بيت داراس
نغبا
روحامه
جمامة
برير
كوكبا
بيت طيما
اسدود
جولس
المجدل
حمامة
الجية
محار
سمسم
بيت جرجا
بربرة
الجورة
شدموت
بيت حانون
دير سنيد
هربيا
بير السبع
غزة

المرحلة الاولى: ارسال جماعة لدراسة الطريق لخروج القوات المصرية من عراق المنشية والفالوجة متسللة أثناء الليل الى منطقة الخليل.

المرحلة الثانية: عرض الخطة على قائد حامية الفالوجة بواسطة مندوب الجيش الاردني الميـجر جفري لوكت.

المرحلة الثالثة: عند الموافقة على تنفيذ العملية تحدد ليلة الخروج وتنسق مع قوات الجيش العربي في ترقوميا التي تبعد ٢٠ كيلومترا عن بيت جبرين.

المرحلة الرابعة: ينسحب الجيش المصري ليلا الى منطقة الخليل عبر الطرق الجبلية مشيا على الأقدام محتفظا بالاسلحة الفردية فقط، ويترك عددا من المتطوعين ليتعاونوا مع الخبير البريطاني الذي يقدمه لوكت لنسف وتخريب المدفعية والسيارات وغيرها من الاسلحة الثقيلة بعد انسحاب الجيش المصري. وفي اثناء ذلك تقوم كتيبة من الجيش العراقي استقدمت الى منطقة بيت لحم بتأمين خط مواصلات القوات المصرية اثناء انسحابها.

وتنفيذا لهذه الخطة التي يقال ان وزير الدفاع المصري محمد حيدر باشا وافق عليها دون ان يعلم بها قادة الميدان في غزة والفالوجة، فقد تم تجهيز قافلة مكونة من ٤٥ جملا وعدة خيول وبغال تحمل المؤن والادوات الجراحية والذخيرة لتنطلق من قرية الظاهرية، ولتعود حاملة الجرحى والمرضى.

وفي مساء ١٦ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٨ تحرك النقيب معروف الحضري والميـجر لوكت وجاويش بريطاني والادلاء من ترقومية، وقبيل الفجر وصلوا الى عراق المنشية، وقابلوا العقيد حسين كامل قائد الكتيبة السادسة مشاة المدافعة عن عراق المنشية وأركان حربه الرائد جمال عبد الناصر، ثم توجهوا معهما الى الفالوجة في سيارة مصفحة، وهناك قابلوا العميد سيد طه وقادة الكتائب بمن فيهم زكريا محيي الدين وصلاح سالم. وهنا سلم النقيب معروف الحضري الخطة للعميد سيد طه الذي اختلى مع اركان حربه لدراستها. وفي نهاية الاجتماع أعلن انه يرفض تنفيذ الخطة والانسحاب، وانه ينتظر رد اللواء فؤاد صادق القائد العام بهذا الخصوص.

وفي اليوم التالي وصل رد اللواء فؤاد صادق بالموافقة على عدم تنفيذ عملية الانسحاب. وهنا وقعت مشادة بين العميد سيد طه والميـجر لوكت حين حاول الأخير الضغط على سيد طه لتنفيذ الخطة فطرده من قيادته، ثم أمر بطرده من الفالوجة قائلا: «اخرج من الفالوجة والا قتلتك ايها السكير». واذكر بهذه المناسبة انني عرفت الميـجر لوكت في بيت لحم وانه كان بالفعل سكيرا عربيدا. وعلى ما أذكر فانه لم يكن ضابطا قديما في الجيش الاردني وانما التحق به خلال القتال في فلسطين. ويظهر انه كان من رجال المخابرات البريطانية. وكان سبب رفض العميد سيد طه وقائد القوات فؤاد صادق الخطة تقديرهما ان اليهود لا بد ان يعلموا بخطة وضعها غلوب باشا، وان اليهود سيتربصون بقوات الفالوجة ليفتكوا بها ويذبحوها اثناء

انسحابها. وقد سمعت في حينه ــ وليس لدي مصدر يؤكد ذلك ــ ان العميد سيد طه اقترح في حينه خطة بديلة مفادها: أن تقوم الكتيبة العراقية التي استحضرت الى منطقة بيت لحم مع ما يمكن حشده من القوات الاردنية بهجوم من ترقومية في اتجاه بيت جبرين (٢٠ كيلومترا) وفي الوقت نفسه تقوم قوات الفالوجة بهجوم في اتجاه بيت جبرين ايضا (٢٠ كيلومترا) حيث تلتقي القوتان وتفتح الطريق لانسحاب الجيش المصري من الفالوجة بكامل اسلحته.

وفي أية حال فان معروف الحضري الذي عاد من الفالوجة ومعه عدد من الجرحى والمرضى من الطريق نفسه وقع ومن معه في اسر اليهود الذين كانوا ينتظرونهم على الطريق. ويقول الاخوان كيمحي (Kimche) «كان هناك ما يبرر مخاوف المصريين لأن الاسرائيليين كانوا يعلمون دقائق خطة دمشق وكانوا في انتظار هؤلاء الجنود المنسحبين».

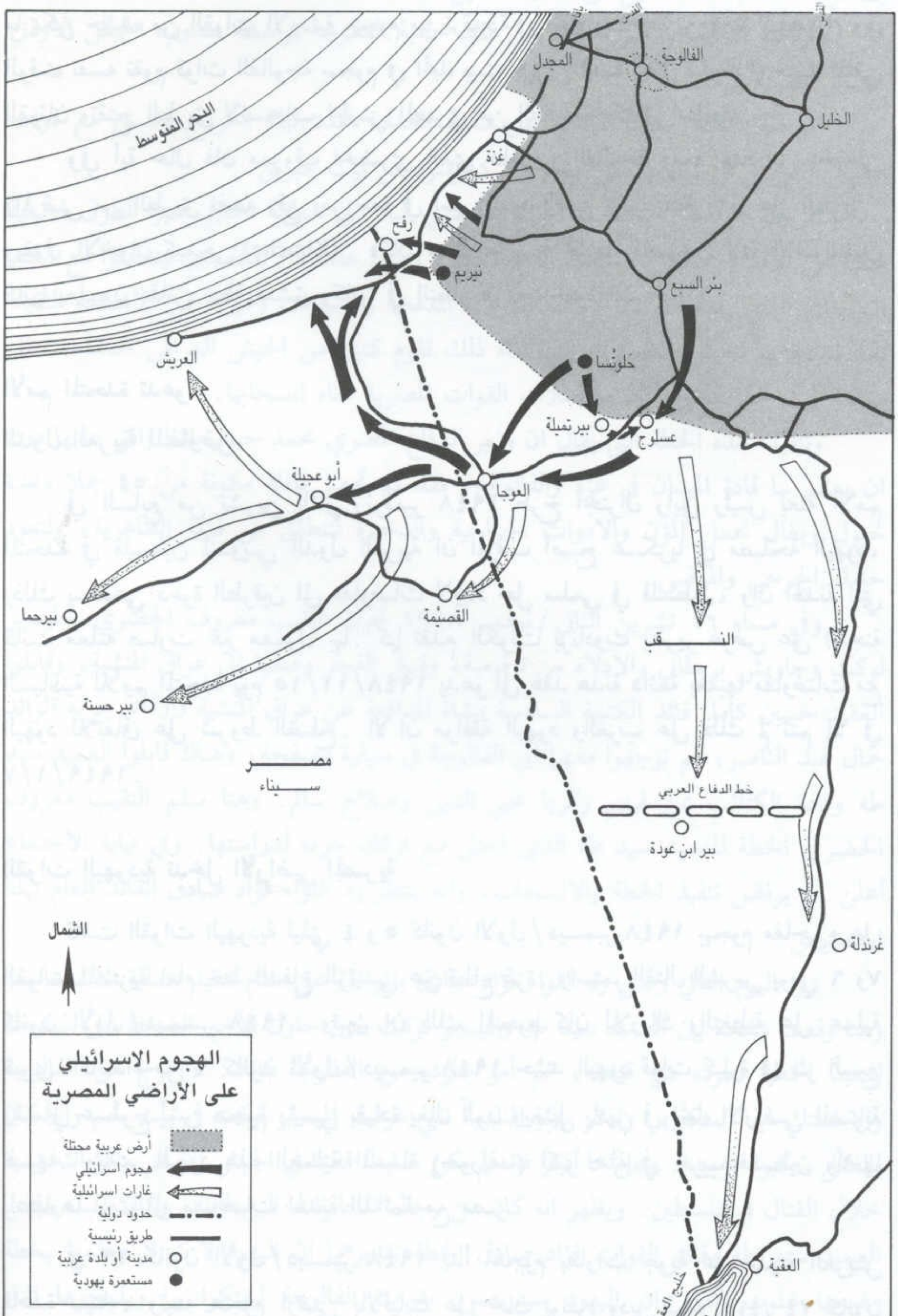
الأمم المتحدة تدعو الدول العربية للتفاوض

في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر **١٩٤٨** طرح الجنرال رايلي رئيس بعثة الامم المتحدة في فلسطين لمندوبـي الدول العربية ان الموقف أصبح عسكريا في مصلحة اليهود، وذلك يستدعي دعوة الطرفين الى مفاوضات **لايجاد حل سلمي في فلسطين**، وان الهدنة التي كانت معلنة صارت غير معمول بها. كما تقدم الكونت برنادوت بتقرير عرض على اللجنة السياسية للأمم المتحدة يوم **١٩٤٨/١١/١٥** يدعو الى عقد هدنة دائمة يعقبها مفاوضات مع اليهود للاتفاق على شروط الصلح. الا ان موافقة اليهود والعرب على ذلك لم تتم إلا في **١٩٤٩/١/٧**.

القوات اليهودية تدخل الأراضي المصرية

قامت القوات اليهودية ليلتي **٤** و **٥** كانون الاول/ديسمبر **١٩٤٨** بهجوم مفاجىء على القوات المصرية امام خط الدفاع الرئيسي عن قطاع غزة. واستمر القتال الشرس يومي **٦** و**٧** كانون الأول/ديسمبر **١٩٤٨**. وتبين ان ذلك الهجوم كان للارباك والتغطية على عملية كبرى. فابتداءً من **٩** كانون الأول/ديسمبر **١٩٤٨** حشد اليهود قوات كبيرة في بئر السبع وشمالي عسلوج لشن هجوم رئيسي بقيادة يغآل آلون ويغئيل يادين في اتجاه الاراضي المصرية نفسها. ويعتبر اليهود هذه العملية المسماة (حوريف) اكبر حملة في حرب فلسطين وأهمها باعتبارها ادت الى مفاوضات الهدنة الدائمة مع مصر.

في **٢٢** كانون الأول/ديسمبر **١٩٤٨** بدأ الهجوم بغارات جوية على مدينة العريش قاعدة سيناء، وتبعه هجوم ارضي بالآليات على خان يونس ودير البلح. وفي **٢٤** كانون


البحر المتوسط
المجدل
الفالوجة
الخليل
غزة
رفح
نيريم
بئر السبع
العريش
حلوتسا
بير تمبلة
عسلوج
أبو عجيلة
العوجا
القصيمة
بيرحما
النقب
بير حسنة
مصر
سيناء
خط الدفاع العربي
بير ابن عودة
الشمال
غرندلة
العقبة
خليج العقبة
الهجوم الاسرائيلي
على الأراضي المصرية
أرض عربية محتلة
هجوم اسرائيلي
غارات اسرائيلية
حدود دولية
طريق رئيسية
مدينة أو بلدة عربية
مستعمرة يهودية

الأول / ديسمبر ١٩٤٨ هاجم اليهود غزة ورفح وخان يونس ودير البلح بحرا وجوا، كما هاجموا مواقع عديدة في منطقة الخليل وبيت لحم. وفي ليلتي ٢٥ و ٢٦ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٨ تقدمت القوات اليهودية من بئر السبع وعسلوج في اتجاه الاراضي المصرية في عملية تطويق واسعة لقطع مواصلات الجيش المصري الى قناة السويس. وبعد ان احتلت العوجة في ٢٨ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٨ تدفقت جنوبا داخل سيناء على شكل مروحة، فاتجه رتل غربا الى جنوب رفح كاد أن يصل الى ساحل البحر واتجهت ثلاثة ارتال الى اعماق سيناء في اتجاه القصيمة وبير حسنة وبير الحمة، اما الرتل الرئيسي الذي كان يقوده آلون وأركان حربه يادين والمؤلف من اللواء الثامن المدرع ولواء النقب فقد اندفع من ابو عجيلة غربا في اتجاه مدينة العريش نفسها. وفي ٣٠ كانون الاول / ديسمبر ١٩٤٨ استولى على مطار العريش الواقع على بعد خمسة كيلومترات فقط جنوبي العريش. وكان آلون يعتزم دخول مدينة العريش نفسها فجر اليوم التالي لولا أن اوامر سياسية صدرت له وهو في مطار العريش باخلاء شبه جزيرة سيناء وسحب جميع قواته فورا. وكان ذلك نتيجة طلب المصريين المعونة من بريطانيا بموجب معاهدة سنة ١٩٣٦ وارسال البريطانيين انذارا الى اليهود يطلبون منهم الانسحاب من الاراضي المصرية فورا. وقام اليهود بالانسحاب؛ لكن آلون استمات في الهجوم على رفح داخل فلسطين عله يقطع الطريق على القوات المصرية في فلسطين، ولكن جميع هجماته باءت بالفشل.

وفي ٧ كانون الثاني / يناير ١٩٤٩ قبل اليهود قرار مجلس الأمن بوقف اطلاق النار وانهاء القتال. وفي ١٣ كانون الثاني / يناير ١٩٤٩ بدأت في جزيرة رودس مفاوضات بين الوفدين المصري واليهودي للوصول الى هدنة عسكرية دائمة. ووقعت اتفاقية الهدنة في ٢٤ شباط / فبراير ١٩٤٩.

وفي ٢٦ شباط / فبراير ١٩٤٩ خرجت قوات الفالوجة من الحصار الى غزة بكامل معداتها.

ماذا عنا في خرب صوريف؟

سبق ان ذكرت ان واجبنا في خرب صوريف كان منع تقدم اليهود المحتمل الى صوريف ومنها الى طريق القدس ــ الخليل. لذلك كنا في اثناء هذه الفترة العصيبة الخطرة جدا على الجبهة المصرية نخشى أن يشن اليهود على مواقعنا هجوما رئيسيا، وبصفة خاصة عندما كنا نشاهد زيادة حجم القوات اليهودية في قرية بيت نتيف المحتلة. وقد رافق ذلك انخفاض معنويات رجالنا بسبب الاخبار السيئة. وكمثال على انخفاض المعنويات اذكر انه في احد الأيام وصلت الى بيت نتيف عشرات السيارات العسكرية، وبينما كنا نراقبها من خربة الدير قال احدُ المناضلين: «يظهر انهم سيهاجموننا غدا». فعلّق على قوله المناضل الشجاع

الملازم يحيى الزواوي قائلا: «يا أخي تنْقَصْ خربة الدير»، بما قد يعني اننا سننسحب اذا وقع علينا هجوم، أو ما هي اهمية خربة الدير بعد ان احتلت معظم البلاد؟ مع أن يحيى الزواوي كان من اشجع رجالي، وكان ونحن في القدس يعرض حياته لأشد الاخطار لكي لا يسمح لليهود بالتقدم شبرا واحدا.

وإزاء ذلك عملت على زيادة تحصين مواقعنا وزيادة العوائق. وانشأنا وحدة لتدريب كلاب الحراسة، بعد ان شاهدنا اليهود يستخدمون الكلاب بكثرة للحراسة، فكنا نربط الكلاب ليلا امام مواقعنا. وقد نجحت التجربة نجاحا كبيرا.

لكن العمل الرئيسي الذي مارسته لرفع المعنويات وزرع الهيبة في قلوب الاعداء والتمويه عليهم هو انني جعلت اقوم بنفسي ليليا بقيادة دورية لا يقل عدد افرادها عن ٣٠ رجلا وأتقدم في المنطقة الحرام حتى نصل الى اطراف قرية بيت نتيف، بعد ان أكون قد تركت خلفنا من افراد الدورية عدة كمائن لضمان خط تراجعنا. وعندما كنا نقترب من مواقع العدو في بيت نتيف نطلق صليات من رشاش برن مستخدمين عن قصد الرصاص المنير الذي يدل على مكاننا. واحيانا نطلق من مدفع مورتر عيار ٢ إنش قذائف اشارة او قذائف انارة ثم نعود ادراجنا الى مواقعنا، قاصدا بذلك اشعار العدو اننا لا نهابه واننا قوة يحسب حسابها تقف بالقرب منه، واشعار رجالي بأن الأرض الحرام تحت سيطرتنا وان العدو بعيد عنهم. وقد ثبت لي ان هذه الدوريات ترفع من معنويات رجالي الى حد كبير كما انها تكسبهم خبرة في الارض التي قد يخوضون فيها القتال.

ثم تطور أمر الدوريات، فشعرت ان بامكاننا القيام بعمليات تخفف ولو جزئيا من الضغط الواقع على الجيش المصري وعلى المحاصرين في الفالوجة. فرتبت بالتعاون مع المناضل فوزي القطب قائد فرقة التدمير المقدسية ـ التي ذكرت انها انضمت الينا في خربة الدير ـ دوريات مقاتلة نهارية وليلية تعترض طرق مواصلات العدو الرئيسية بين بيت نتيف وبيت جبرين مرورا بقرية عجور، حيث جعلنا نتوغل في الارض المحتلة ونطلق النار على السيارات المارة على الطريق ونزرع الالغام في طريقها.

وقوعنا في كمين

في نطاق الدوريات النهارية المقاتلة، وفي أحد أيام تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٨ ركبت مع فوزي القطب سيارة جيب عسكرية ومعنا ستة من خيرة المناضلين، اذكر منهم المناضل الشجاع كاظم صالح المغربـي من ابناء القدس الذي لم يكن يتجاوز السابعة عشرة من العمر، والمناضل محمد كرست اللبناني الاصل، وكل منهما يحمل رشاشا، وسلامة عودة من قرية اذنة، ورابعا من عائلة غيث. وبعد ان اجتزنا المنطقة الحرام وتجاوزنا بيت نتيف غربا في ارض منبسطة غادرنا السيارة وتسلقنا سلسلة جبلية متجهين غربا عدة كيلومترات، ثم تحصنا

في موقع قريب من الطريق الرئيسي بين بيت نتيف وبيت جبرين، وأخذنا نطلق النار على السيارات العابرة، وكانت كلها سيارات عسكرية معظمها مصفحة. وبعد نحو النصف ساعة عدنا ادراجنا ثم انحدرنا من الجبل الى السهل حيث كانت سيارتنا تنتظرنا. ولم نكد نجلس في السيارة حتى أطلقت علينا النيران من رشاشات ثقيلة من أعالي قرية بيت نتيف من مسافة تزيد على كيلومترين، لذلك لم تكن نيرانها مؤثرة. واستغربت اقدام اليهود على اطلاق النار علينا من هذه المسافة البعيدة. وتبين فيما بعد أنهم قاموا بذلك لمجرد تأخير انسحابنا ليرتبوا لنا كمينا. ومع ذلك كان لا بد لنا أن ننزل من السيارة وأن نعود الى الجبل وطلبنا من سائق السيارة ان يبتعد بسرعة على طريق العودة وان ينتظرنا في مكان قرب باب البويب. وبعد ان سرنا في الجبل حتى حاذينا السيارة انحدرنا ثانية لتقلنا، وما كدنا نصل السيارة التي في السهل حتى اطلقت علينا نيران كثيفة من كمين خلف ربوة الى الغرب من باب البويب ومن مسافة لا تزيد على ٢٠٠ متر. وقدرت أنها النهاية الابدية لنا جميعا وعلينا ان نواجهها برجولة. وأمرت بالانتشار على الارض والانسحاب الى الجبل زحفا. وهربت السيارة، وأخذنا نرد على النار ونحن مكشوفون للعدو تماما في ارض مستوية ليس فيها اي ساتر، والرصاص ينهمر علينا كالمطر، ورشاشاتنا تنطلق بجنون. واستمر هذا المأزق اكثر من عشرين دقيقة حتى وصلنا جميعا الى الجبل وتحصنا بين صخوره. وتفقدت الرجال، ولدهشتي لم أجد احدا منهم مصابا. ويرجع الفضل في ذلك الى أمرين: الأول ان الكمين اليهودي الذي كان لا يقل عن عشرين رجلا كان على ما يظهر من قوات غير مدربة. والثاني هو انني كنت قبل انطلاقنا في الدورية قد اقمت كمينا من نحو عشرة رجال الى الشرق من باب البويب، وكان موقع الكمين اليهودي لا يبعد عنهم اكثر من ٢٠٠ متر، وبمجرد ان بدأ اليهود اطلاق النار علينا فتح عليهم كميننا النار بشدة وتقدم في اتجاههم واشتبك معهم. وفي الوقت نفسه كان احد افراد دوريتنا ما يزال خلفنا في الجبل عند بدء اطلاق النار علينا، واذكر انه كان من اهالي الخليل من عائلة غيث غاب عني اسمه الاول. تحصن هذا في الجبل واخذ يطلق النار على العدو بشدة، كما ان رجالنا ابدوا شجاعة فائقة وخصوصا حاملي الرشاشين كاظم المغربي ومحمد كرست. وهكذا نجونا بأعجوبة.

شؤوننا الادارية

كانت قوات جيش الجهاد المقدس في بيت لحم في هذه الفترة مرتبطة من الناحية الادارية بالجيش المصري الذي كان يقدم لنا الطعام. وكانت رواتبنا تأتي من جامعة الدول العربية عن طريق الحاكم العسكري المصري في بيت لحم الذي يسلمها الى منير ابو فاضل. لم يكن الطعام كما يجب ولكننا كنا نتقبله لأنه كان من طعام الجيش المصري نفسه. وكان مرتب كل فرد منا اربعة جنيهات فلسطينية شهريا للأعزب والمتزوج على السواء، ولا تقدم لنا

ألبسة أو أحذية أو أغطية. والأمرّ من ذلك ان الرواتب لم تكن تصل في مواعيدها، وان وصلت تأتي ناقصة بحيث كان يدفع للفرد كل شهر او شهر ونصف الشهر جنيهان فقط، مما كان له اسوأ الاثر على الاوضاع الشخصية والعائلية والمعنوية.

ولم تكن لنا ثقة بقائد منطقة بيت لحم منير أبو فاضل ــ كما أشرت الى ذلك سابقا ــ مما دعانا الى عقد اجتماع لقادة السرايا ووقعنا على رسالة الى الحاج امين الحسيني (الوالد) نطلب منه تغيير منير أبو فاضل. وقد حملها اليه الدكتور داود الحسيني الذي كان مسافرا الى القاهرة ليحاول عمل شيء لتحسين الاوضاع.

وعندما عاد من القاهرة حمل الينا رسالة شفوية من (الوالد) الحاج امين الحسيني يقول فيها «يـا اولادي برضائي عليكم لا تثيروا قضية منير أبو فاضل بل تعاونوا معه لأن المسؤولين في جامعة الدول العربية يصرون على ان لا يقدم لكم شيء الا من خلاله!..».

كما اخبرنا الدكتور داود أن كمية كبيرة من الالبسة والاحذية والبطانيات والسيارات واجهزة اللاسلكي وغير ذلك من اللوازم والمهمات المخصصة لجيش الجهاد المقدس موجودة في مدينة غزة ولا يوجد من يوصلها الى القدس، خصوصا بعد ان سقطت بئر السبع وانقطعت طريق غزة ــ القدس. كما قال انه سيعمل على احضارها عبر صحراء سيناء عن طريق غزة ــ العريش ــ العقبة ــ عمان. وبعد فترة قصيرة جهز بعض السيارات وعددا من السائقين وجهز سيارته بجهاز لاسلكي، وحصل على إذن من غلوب باشا بواسطة عبد القادر باشا الجندي للسماح له بادخال هذه المهمات مرورا بالاردن. وغادر القدس تنفيذا لهذه المغامرة مصحوبا بدعائنا، وجعلنا نتابع رحلته بقلق بالاتصال اللاسلكي المتواصل.

وقد لاقى في رحلته ومن معه في ذهابه وإيابه المصاعب والأهوال. وعندما وصلت القافلة التي يقودها الى عمان، كانت الشرطة العسكرية للجيش العربي في استقبالها وأمروا القافلة بأن تتجه الى معسكر المحطة في عمان حيث ادخلت جميع السيارات والمهمات الى مستودعات الجيش بدون استثناء.

ولما علمنا بذلك، ثارت ثائرتنا وقابلنا عبد الله التل في القدس محتجين بشدة، وبعد مساع حثيثة حصلنا على قسم صغير من هذه المهمات.

ما أقسى شتاء سنة ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩. عواصف وأمطار غزيرة وثلوج ثقيلة. حتى في مدينة أريحا سقطت الثلوج على مخيمات اللاجئين، ربما لأول مرة في التاريخ، وذلك بعد ان عصفت الرياح بالخيام وأصبح الجميع في العراء. وكأن الطبيعة أبت الا ان تساهم في المأساة فتصب جام غضبها لكي يكتمل المشهد الدرامي وتكتمل النكبة.

ما أقسى ذلك الشتاء وما أمرّ الأخبار السيئة التي صاحبته! الجبهة المصرية تنهار انهيارا كاملا وتحاصر زهرة قوات الجيش المصري في الفالوجة، والقوات اليهودية تدخل سيناء وتصل الى العريش. لقد قامت الدولة الصهيونية بالفعل وسيطر اليهود على القسم المخصص لهم بموجب قرار التقسيم، واحتلوا أجزاء من القسم العربي، وما زالوا يتوسعون في احتلال أرضنا الحبيبة. مدننا وقرانا يستولي عليها الأعداء ومئات الألوف من شعبنا مشردون بلا مأوى وبلا نصير.

ما أقسى هذا الشتاء! أمنا فلسطين تتلاشى شيئا فشيئا. وأمي أنا، والدتي الحبيبة، يشتد عليها المرض، واراقبها وهي أيضا تتلاشى. في أوائل سنة ١٩٤٨ أصيبت بتشمع الكبد ودخلت المستشفى بعد اصابة أخي صبحي بجرح خطر في رأسه ففقد ذاكرته. وقيل ان حزن والدتي على أخي صبحي كان السبب في مرضها. والآن تزداد حالة التشمع في الكبد وتنعكس على القلب. ما أقساه من شتاء! فلسطين تتلاشى، وأمي كذلك. مأساة وطنية ومأساة انسانية، وشتاء قارس ومرير.

عندنا في خرب صوريف لم يسقط الثلج، ولكنه اغلق الطريق الى بيت لحم وخصوصا عند برك سليمان ووادي البيار. وأصبح احضار التموين يتطلب حملة اقودها بنفسي، مسلحة بالمجارف و«الكريكات» وسيارة الجيب ذات الجنازير. أما برد الليل فقد قاومناه بحرق كميات من الحطب الكثير الذي كان أهالي خربة الدير اختزنوه لانفسهم. كما سكنا في بيوتهم ذات الجدران الحجرية السميكة التي كانت خالية تماما من السكان. واستأجرنا لسريتنا بيتا في مدينة بيت لحم ليكون محطة لرجال سريتنا عند انتقالهم من صوريف الى القدس وبالعكس.

مؤتمر أريحا (١٩٤٨/١٢/١)

في هذا الجو الكئيب انعقد مؤتمر أريحا. لم يكن الا قليل من الناس يعلمون ان توفيق

ابو الهدى رئيس وزراء شرق الأردن ومعه غلوب باشا اجتمعا مع وزير الخارجية البريطانية ارنست بيفن في شباط / فبراير ١٩٤٨ ـ أي قبل دخول الجيش الأردني الى فلسطين ـ واتفقا على قبول قرار التقسيم وتنفيذه، وعلى ضم القسم الذي خصص للعرب بموجب قرار التقسيم إلى دولة شرق الاردن، الأمر الذي كشفه غلوب باشا سنة ١٩٥٧ في كتابه: «جندي مع العرب».

إلا أن اطراف الاتفاق السري، كانوا يعرفون ذلك، وكان عليهم ان يواجهوا مؤتمر غزة الذي عقد برئاسة الحاج أمين الحسيني في ١٩٤٨/١٠/١ والذي قرر اقامة حكومة عموم فلسطين. ولهذا كان لا بد من اخراج اتفاق ابو الهدى ـ بيفن الى حيز التنفيذ العلني. ولذلك جرى عقد اجتماع كبير في اريحا يوم ١٩٤٨/١٢/١ بذلت الحكومة الأردنية كل ما في وسعها لتشجيع الناس على حضوره. كما طلب غلوب باشا من رجاله تأييد المؤتمر بالدعاية اللازمة وبأن يساعدوا كل من يرغب في السفر الى اريحا بالانتقال في السيارات العسكرية. وانتخب الشيخ محمد علي الجعبري رئيسا للمؤتمر. وكان أهم قرار اتخذه المؤتمر هو مبايعة الملك عبد الله ملكا على فلسطين.

بطبيعة الحال، لم أحضر مؤتمر أريحا، كما انني لم أحضر مؤتمر غزة قبله. وكنت ناقما على ما يجري على الساحة السياسية وعلى التخاذل العسكري. وكان اعلان ضم الضفة الغربية الى الضفة الشرقية من قبيل تحصيل الحاصل، وكانت عملية الضم تحتاج فقط الى مسرحية الاخراج. فقد كان الجيش الاردني بمساعدة الجيش العراقي يسيطر عمليا على ما بقي من اشلاء فلسطين، وكان في القدس والخليل ورام الله ونابلس حكام عسكريون تابعون للحكم الأردني. وكان اليهود يهددون الوجود العربي بأكمله كما كانوا راضين عن عملية الضم.

لم يكن الذين حضروا مؤتمر اريحا يملكون حق تمثيل شعب فلسطين او التعبير عن ارادته. ولذلك كان لا بد، فيما بعد، من اعطاء الضم أو الوحدة الصبغة القانونية الدستورية، الأمر الذي تحقق بعد إجراء انتخابات نيابية لبرلمان واحد للضفتين اتخذ قرارا بوحدة الضفتين عام ١٩٥٠ مع تحفظ يقول: «على أن لا يؤثر ذلك في المستقبل في أي حل للقضية الفلسطينية». ومن جهتها أعلنت حكومات جامعة الدول العربية عدم موافقتها على الضم.

أكبر معركة ميدان خضناها

لم نتوقف عن الدوريات الليلية على الرغم من حلول الشتاء ولكنها تناقصت. وتناقصت كذلك محاولات اليهود مهاجمتنا ليلا. وفي ليلة ليلاء، أرجح أنها ليلة ٢٤ ـ ٢٥ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٨ تصادف اننا لم نقم بأعمال الدورية في تلك الليلة. فتقربت قوات يهودية من مواقعنا واحتشدت على بعد نحو كيلومتر واحد دون أن نشعر بذلك. وقدرت

مجموعها بكتيبة أو أكثر معززة بالمصفحات. وتهيأت لمهاجمة مواقعنا عند أول ضوء. ويظهر ان اليهود يئسوا من محاولات اجلائنا عن مواقعنا بالهجمات الليلية المحدودة، وقرروا استخدام قوة كبيرة لا يستطيعون استخدامها والسيطرة على قيادتها ليلا. وكان هدف الهجوم تدمير قواتنا والاستيلاء على قرية صوريف نفسها ان لم يكن أكثر من ذلك.

بدأ الهجوم نحو الساعة الخامسة صباحا بقصف مواقعنا في خربتي علّين والدير قصفا ثقيلا بمدافع المورتر من عيار ٣ انش اشتركت فيه نحو ١٠ مدافع، واستمر القصف مدة طويلة، الا ان مواقعنا لم تصب بأية اصابة مباشرة.

وفيما بعد بدأ العدو يتقدم على شكل ثلاثة أرتال، تقدم الأول (القلب) على الطريق الترابي المعبد المؤدي إلى قرية صوريف مباشرة، والذي تقع على جانبه خربتا الدير وعلين، وتطلان عليه من مواقع مرتفعة مسيطرة. وكان من شأن هذا الرتل اذا نجح في التقدم، ان يشطر قواتنا إلى شطرين. وكانت القوة التي تتقدم على هذا المحور معززة بثماني مصفحات كبيرة، وكان عليها ان تجتاز سدودا من الحجارة تمتد على مسافة كيلومتر واحد تقريبا، فضلا عن الحفر والألغام التي تعترض طريقها. كما كان عليها ان تتعرض لنيران رشاشين ثقيلين ضد الدروع ومدفع مورتر من عيار ٨١ ملم في خربة الدير.

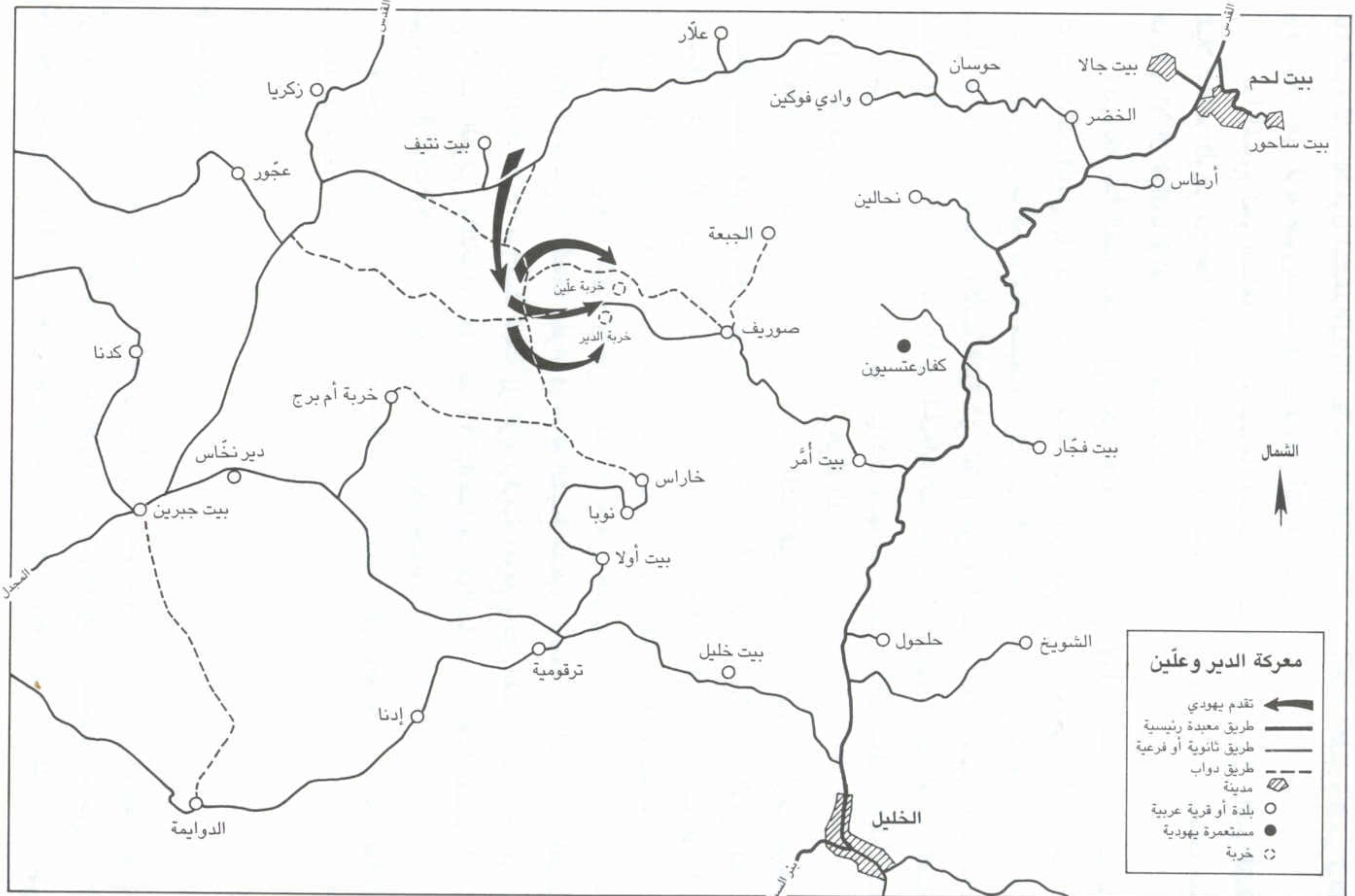
تقدم الرتل الثاني (الميسرة) المؤلف من المشاة على يمين خربة علين في أرض مرحان منبسطة يسيطر عليها مرتفع علين، وجعل يهاجم الخربة من الشمال. أما الرتل الثالث (الميمنة) وكان مؤلفا من عدد كبير من سيارات الجيب المصفحة التي استخدمت بما يشبه استخدام قوات الخيالة، فتقدم من يسار خربة الدير، وتسلق مرتفعا يوازي مرتفع خربة الدير لا يفصله عنه سوى واد ضيق، وجعل يهاجم الخربة من الجنوب.

وتمركز فصيل في المنطقة الحرام في خربة الشيخ مذكور المرتفعة إلى الغرب من الطريق الترابي المعبد المؤدي من بيت نتيف إلى قرية ترقومية وموقع وادي القف حيث توجد قوات من الجيش العربي والمناضلين على بعد ١٥ كيلومترا من مواقعنا، وزرع هذا الفصيل ألغاما كبيرة ضد الآليات لكي يغلق الطريق على اية نجدة محتملة.

وتبين لنا فيما بعد أن العدو أقام مركز اسعاف ميدانيا في موقع مستور خلف قواته، واحتفظ بقربه بقوة احتياطية.

طبيعة المعركة

لا أنكر أن عنصر المفاجأة وكثافة نيران المورتر وشعورنا بقرب العدو من مواقعنا كان له أثر كبير في معنوياتنا في البداية. الا اننا اجتزنا ذلك بسرعة وقررنا الثبات، وخوض معركة مواجهة. وكان الوضع في خربة علّين على غير ما أحب. وقال رجال ابو دية هناك أن ذخيرتهم



معركة الدير وعلّين
تقدم يهودي
طريق معبدة رئيسية
طريق ثانوية أو فرعية
طريق دواب
مدينة
بلدة أو قرية عربية
مستعمرة يهودية
خربة
الشمال
بيت لحم
بيت جالا
بيت ساحور
الخضر
حوسان
أرطاس
وادي فوكين
علّار
نحالين
الجبعة
زكريا
بيت نتيف
عجّور
خربة علّين
خربة الدير
صوريف
كفارعتسيون
كدنا
خربة أم برج
بيت أمّر
بيت فجّار
دير نخّاس
خاراس
نوبا
بيت جبرين
بيت أولا
حلحول
الشويخ
بيت خليل
ترقومية
إدنا
الدوايمة
الخليل
القدس
المجدل
بئر السبع

تكاد تنفد. فأرسلت مفرزة من خربة الدير لتعزيز رجالي في علّين وتزويد رجال ابو دية بكمية كبيرة من الذخيرة.

اتضح لي بعد فترة قصيرة ان تكتيك العدو في ادارة المعركة يقوم على مشاغلة خربة علين من الشمال ومشاغلة خربة الدير من الجنوب لتخفيف المواجهة على الطريق الرئيسي الذي تحاول المدرعات ان تجتازه. وإذا تمكنت المدرعات من اجتياز العوائق والوصول الى ما بعد خربتي الدير وعلّين شرقا يلتقي معها الرتلان الجنوبي والشمالي في عملية تطويق واسعة للخربتين معا، ولكل منهما على حدة وتدمير قواتنا والتقدم بعد ذلك بسهولة إلى قرية صوريف. وكان من الواضح ان المعركة ستطول. وعلى ضوء تقدير الموقف هذا اصدرت الأوامر التالية:

١ ــ الاقتصاد الشديد في الذخيرة.
٢ ــ تركيز القوة على مواجهة المحور الرئيسي (القلب) الذي تتقدمه المصفحات.
٣ ــ الثبات والمقاومة الشرسة.
٤ ــ العمل على استقدام نجدات.

وبهذه المناسبة لا بد لي أن اشير إلى ان قواتي طوال حرب ١٩٤٧ ــ ١٩٤٩ لم تَشْكُ من نقص الذخيرة او نفادها لا في القدس ولا في صوريف، خلافا لما جرى مع غيرها من السرايا لشدة حرصي واشرافي اليومي المباشر على تنفيذ تعليمات صارمة بعدم تبديد الذخيرة او سوء التصرف بها. ولذلك كان لدي في خربة الدير احتياطي كبير من الذخيرة بالاضافة الى ما يحمله المناضلون أنفسهم بمعدل ١٠٠ طلقة لكل بندقية و ٥٠٠ لكل رشاش و ١٠٠ قذيفة لمدفع المورتر.

سير المعركة

طوال ٥ ساعات من الخامسة صباحا حتى العاشرة استمات الرتل الذي يتقدم على الطريق الرئيسي (القلب) في اجتياز عوائق الحجارة معتمدا على كثافة النيران وقنابل الدخان. وتمكن بالفعل من اجتياز معظمها والتقدم، حتى لم يبق امامه سوى حاجز واحد يتألف من أربعة جدران. وكان بذلك قد تجاوز كل مواقعنا الأمامية المحاذية لتقدمه وتوقف إلى جانب آخر موقع. وكان قد فقد ثلاث مصفحات اصابتها مدفعيتنا المقاومة للدرع، قبل ان تتعطل هذه المدافع نفسها. واستمرت محاولة اجتياز الحاجز الأخير نحو الساعة، وكنا لا نطلق النار الا عندما ينزل العدو من المصفحات لازالة الحواجز فيضطر إلى العودة الى المصفحات.

أما رتل الميسرة الذي يتقدم بالمشاة شمال خربة علين فكان مكشوفا لنيران علّين، كما

تعرض لقصف المورتر من الفصيل السوداني المتمركز خلفنا في خربة الساقعة. ولذلك تجمدت حركته وأصبح في موقف المدافع والمنتظر لتقدم المصفحات.

وكذلك جرى لرتل الميمنة الذي يتقدم بسيارات الجيب المصفحة جنوبي خربة الدير، فقد تجمد تقدمه أيضا بسبب وعورة المرتفع الذي تسلقه، والنيران التي واجهته خصوصا من مدفع المورتر ٨١ ملم المعار لنا من الجيش المصري، وعدم نجاح محور القلب ومصفحاته في التقدم.

وكان لصمودنا ساعات طويلة آثار متعددة. فقد وصلت أخبار المعركة إلى القرى المجاورة وإلى مدينتي الخليل وبيت لحم. وابتداء من الساعة العاشرة صباحا بدأت تصلنا النجدات. فوصلتنا سيارتا باص من الخليل، ثم توالت النجدات. ولم تصلنا أية نجدة من قيادة جيش الجهاد المقدس ولا من قيادة الجيش المصري في بيت لحم. ووصلنا جاويش من الجيش الأردني المرابط خلفنا في قرية بيت أمر فارا من وحدته ليقاتل معنا، وأخبرنا ان جنود وحدته العرب وضباطها الذين كانوا يراقبون سير المعركة بوضوح من موقعهم المشرف، ضغطوا على قادتهم الانكليز لكي يتقدموا لنجدتنا فرفض الانكليز بشدة وقالوا ان قوات المناضلين موجودة في مواقع تخص اليهود. ثم أمروا مجموعة بالتقدم الى منتصف الطريق بين بيت أمر وصوريف وهناك لغمت الطريق لنسفها وعرقلة تقدم القوات اليهودية اذا تغلبت علينا واحتلت صوريف وتقدمت الى بيت أمر. وكانت اهم قوة تقدمت لنجدتنا تلك التي جاءت من قرية خاراس وهي أقرب قرية الى مواقعنا من ناحية الجنوب. وكانت لي بأهالي خاراس علاقات متينة نشأت قبل حضوري إلى خرب صوريف وازدادت أثناء ذلك. وكان من أهالي خاراس الأخَوان ابراهيم عبد ربه وخليل عبد ربه اللذان كانا عاملين في الكلية الابراهيمية وقاتلا معي في القدس.

تحركت النجدة من قرية خاراس من الجنوب مستفيدة من خبرتها في الأرض سالكة طريقا غير مكشوف للنيران: شلال (أي مجرى سيل المطر)، والتفّت على القوات اليهودية من الغرب ووصلت إلى خربة جبين نقّار المرتفعة خلف الفصيل المرابط في خربة الشيخ مذكور وبذلك انكشف العدو للنيران من الخلف، واضطر الفصيل المذكور الى الهرب تاركا الألغام التي زرعها في الطريق. ونحو الساعة الثانية عشرة بدأ العدو الانسحاب وسحب مصفحاته الثلاث المعطلة. وتشاورت مع الضابط السوداني أحمد الذي كان وصلنا مع بعض رجاله بشأن القيام بهجوم معاكس، وتعقب العدو اثناء الانسحاب. فلم يوافق وقال: «الهجوم المعاكس في النهار بتّال». ومع ذلك اخترت عددا قليلا من خيرة رجالي يقودهم سلامة عودة وطلبت منهم ملاحقة العدو. وعلى الرغم من قلة عددهم فقد أربكوا العدو الى حد كبير وطاردوه مسافة طويلة وعادوا وهم يحملون بعض الأسلحة والذخيرة التي غنموها. وفي الساعة الثانية بعد الظهر كانت المعركة قد توقفت تماما.

التعليق على المعركة

ثبت لي في هذه المعركة:

١ ــ ان العدو كان يعتمد في خططه على عدم صمود العرب طويلا امام الهجوم.

٢ ــ ان العدو يتجنب المخاطرة. فلو أن اليهود تقدموا نحونا في علّين والدير بهجوم ارضي مباشر بواسطة المشاة لاستطاعوا ان يغيروا وجه المعركة.

٣ ــ ثبتت لي صحة القاعدة القائلة «أنت تكسب المعركة بما تعده قبل المعركة». فتوفر الذخيرة، ومتانة التحصينات والعوائق، واخلاص الرجال وانضباطهم ساعدنا على الصمود وشجع الناس على نجدتنا. وهنا أشير إلى أن بعض استحكاماتنا (الدشم) تهدمت جزئيا من ثلاث جهات، أي أنها كانت تتعرض للنيران من الشمال والجنوب والغرب، ومع ذلك ظلت قائمة وظل رجالها الشجعان صامدين.

٤ ــ على الرغم من عنف المعركة وطول مدتها لم نفقد شهيدا واحدا، ولكن وقعت بعض الاصابات.

٥ ــ غنمنا عددا من البنادق والرشاشات والذخيرة ومركز اسعاف ميدانيا بكل معداته وستة ألغام ارضية ضد الآليات من صنع اليهود. ودلّت مواقع الدم على وقوع عدد من الاصابات بين أفراد العدو.

٦ ــ بعد انتهاء المعركة زارتنا عدة وفود من قيادة الجيش المصري وقيادة جيش الجهاد المقدس، ومن القرى المجاورة، وتفقدوا ميدان المعركة وآثارها وأبدوا اعجابهم وتقديرهم للقادة والأفراد وقدموا بعض الخراف طعاما للمقاتلين. وقد استنسبت ترفيع بعض القادة وفي مقدمتهم الملازم عبد المهدي المحتسب والجاويش عبد القادر ابو عريش.

٧ ــ لا يفوتني ان أنوه بشجاعة رجال فرقة التدمير الذين كانوا معنا في خربة الدير وخاضوا المعركة بكل بسالة.

إصابتي الثامنة

بعد المعركة المار ذكرها، فكرت في جلب المزيد من التعزيزات لقواتي في الدير وعلّين، ولا سيما ان قواتي في القدس كانت لا تقوم بأي عمل عسكري حيث الهدنة مستتبة، ولم يبق لها سوى حراسة اسواق المدينة القديمة ليلا من اللصوص. وكانت لدي مصفحة من طراز (G.M.C.) حاملة برن كنت نقلتها من القدس إلى بيت لحم. فقررت ان أنقلها إلى منطقة صوريف. كانت الطريق من بيت لحم إلى بيت أمر جيدة جدا ولكن الطريق من بيت أمر إلى صوريف ترابية وضيقة وشديدة الانحدار وهي لذلك خطرة، ولا سيما ان المصفحة ثقيلة. ففكرت ان أنقلها عن طريق أُخرى أكثر استواء مع انها اطول بكثير، وهي الطريق الترابية

المؤدية من مواقعنا في الدير وعلّين إلى قرية ترقومية حيث تتصل بطريق بيت جبرين ـ الخليل الجيدة المعبدة.

كان علي ان استكشف الطريق الترابية المذكورة، وطولها نحو ١٥ كيلومترا، المتجهة من الشمال إلى الجنوب محاذية المنطقة الحرام الواقعة إلى الغرب منها. فاستعرت سيارة الجيب خاصة فرقة التدمير واصطحبت ثلاثة مناضلين والسائق الذي جلست إلى جانبه. وتوجهنا جنوبا بكل بطء وحذر حيث كنت اخشى ان تكون الطريق ملغومة أو ان نتعرض لكمين. وكنت اتوقف عند كل مفترق يؤدي شرقا إلى القرى المجاورة للطريق وهي خاراس ونوبا وبيت أولا، وأسأل رجال هذه القرى عن احتمال وجود الغام. فكان الجميع يطمئنني. واخيرا اقتربنا من الطريق العام المعبد (بيت جبرين ـ الخليل) عند قرية ترقومية. وشعرت بالاطمئنان خصوصا عندما شاهدنا عددا من القرويات والقرويين يسيرون على الطريق مع دوابهم. وعندما اصبحنا على بعد نصف كيلومتر من ملتقى الطريق المعبد دوى في السيارة انفجار هائل لم نعرف كنهه في البداية، وقفزت بنا السيارة وشعرت بعدة ضربات لطمت رأسي دفعة واحدة من الخلف، كما قذف الانفجار بالمناضلين الثلاثة الذين يجلسون في المقعد الخلفي فوقعوا على كتفي وكتف السائق. وتوارد إلى ذهني بسرعة افتراضان: الأول ان قنبلة يدوية انفجرت بين يدي أحد المناضلين الجالسين خلفنا، والثاني اننا وقعنا في كمين يهودي أطلق علينا قذيفة مدفع. فصرخت: الأرض! الأرض! وقفزت من السيارة قبل توقفها.

كان سائق السيارة شجاعا وماهرا، كنا نسميه البرنس ولا أتذكر اسمه، حاول ان يوقف السيارة بسرعة. وعندما قفزت تدحرجت على الأرض عدة مرات قبل ان اتخذ وضع الاستعداد للرمي في اتجاه المنطقة الحرام، ولكنني لم اشاهد عدوا. ونتيجة لذلك كسرت يدي اليسرى عند الرسغ في المكان نفسه الذي كان قد كسر في القدس يوم ١٩ أيار / مايو ١٩٤٨. واكتشفنا بسرعة ان الانفجار نتج عن أن سيارتنا داست لغما أرضيا ضد الآليات. ونظرنا إلى الحفرة التي احدثها الانفجار واذا بنا نشاهد لغما آخر إلى جانبه وشعرت أن الحظ حالفنا جدا. فقد داست السيارة بدولابها الخلفي لغما واحدا فقط، ولو أنها داست اللغم أو اللغمين بالدولابين الأماميين لما بقي منّا حي، ولقذف الانفجار بالسيارة وبنا إلى الوادي المجاور للطريق. وفي أية حال، اصيب المناضلون الثلاثة المرافقون لي بجروح متوسطة في رؤوسهم وسالت دماؤهم. أما السائق فلم يصب بأذى، ولم نلبث أن تعرضنا لاطلاق نيران كثيفة من اتجاه قرية ترقومية. فقد سمع حراس القرية صوت الانفجار، وظنوا اننا اعداء. لذلك صعدت على مقدمة السيارة واخذت ألوّح بحطتي البيضاء وأصيح: عرب! عرب! ومرت بضع رصاصات بالقرب مني، فقفزت وانبطحت ثانية، حتى توقف اطلاق النار. وعندها علّقت يدي المكسورة بحطتي، واسعفنا الجرحى لايقاف النزيف وركبنا السيارة مسرعين إلى الخليل، وتوجهنا فورا إلى المستشفى الوحيد (مستشفى مار لوقا). وهناك استقبلنا الطبيب

المقيم الدكتور عبد الرحيم بدر، وطلب مني ان يفحص ذراعي فأكدت له انها مكسورة، ورجوته ان يسعف الجرحى أولا، فأخبرني ان ليس لديه في المستشفى مطهرات او ضمادات من اي نوع وانه يستعمل الماء والملح لتطهير الجروح. فوافقت، ثم غادرت المستشفى غاضبا وتوجهنا بسرعة إلى بيت لحم، حيث ذهبنا إلى المستشفى الفرنسي الذي كان يعالج جرحى المناضلين في تلك الأيام. وتوجهت إلى الغرفة التي يقيم فيها المناضل ابراهيم ابو دية المصاب بشلل في ساقيه على أثر اصابته برصاصة في العمود الفقري كما سبق أن ذكرت، ووجدت عنده عددا من قادة المناضلين. فاهتموا بنا وكذلك فعل المسؤولون في المستشفى وأسعفوا الجرحى بسرعة وضمدوا جروحهم، وتبين انهم ليسوا بحاجة للاقامة في المستشفى. أما انا فقد طلبت من ابراهيم ابو دية ان يدلني على مجبِّر عربي لأنني كنت اعتقد ان لدى المجبرين خبرة في تجبير العظام أكثر من الأطباء ولا سيما ان يدي هذه التي كسرت من جديد كان جبّرها طبيب وجاءت معوجة، ولا أريد أن يجبرها طبيب آخر خوفا من أن تعود معوجة مرة أخرى. فأكد لي إبراهيم أبو دية ان مدير المستشفى اخصائي في العظام ويمكن أن أطمئن الى خبرته. فوافقت وتعاون الطبيب الفرنسي وطبيب آخر عربي من عائلة دبدوب على تجبير يدي بكل عناية واهتمام ووضعا عليها الجبس وقضيت تلك الليلة في المستشفى. وفي مساء ذلك اليوم دخل ممرض إلى غرفتي يحمل اليَّ الطعام، وسأل: «هل أنت من عائلة ابو غربية». فقلت: «نعم». قال: «في هذه الغرفة توفي جريح من عائلة أبوغربية». فشكرته على هذا الخبر قائلا: «بشرك الله بالخير». وكان قد أثار أشجاني، فقد كان المتوفى المذكور هو أخي المناضل شفيق رحمه الله، وقد سبق ان تكلمت على حادثة استشهاده في بداية مذكراتي. وفي الصباح غادرت المستشفى، وانطلقت إلى واجباتي ويدي معلقة إلى عنقي، وظلت كذلك نحو عشرين يوما. وبعد إزالة الجبس تبين أنها معوجة قليلا.

في أواخر سنة ١٩٤٨ كانت الجبهتان العراقية والاردنية هادئتين. وفي ١٩٤٩/١/٧ قبل المصريون واليهود وقف القتال وعقد هدنة دائمة. وبدأت المفاوضات بشأنها في جزيرة رودس يوم ١٩٤٩/١/١٣ باشراف ممثل الأمم المتحدة المستر رالف بانش. وفي هذه الفترة بالذات أقدم رئيس وزراء مصر محمود فهمي النقراشي باشا على حل جمعية الاخوان المسلمين واعتقال عدد من زعمائها.

وفي الوقت نفسه فوض الملك عبد الله إلى حاكم القدس العسكري عبد الله التل التمهيد للمفاوضات الرسمية مع اليهود*. وفي ١٩٤٩/١/١٨ حاصرت قوة من الجيش العربي الاردني مقر قيادة جيش الجهاد المقدس في قرية بير زيت واستولت على البناية بما فيها من سلاح وعتاد وجهاز لاسلكي واعتقلت من وجدتهم فيها. وبدأ غلوب باشا تنفيذ خطة تدريجية لتصفية جيش الجهاد المقدس وجمع السلاح من أيدي الشعب، فأطلق عددا من تجار السلاح لشراء الاسلحة على نطاق واسع وبأسعار مغرية. واقبل الناس على البيع لأنهم شعروا ان القتال توقف نهائيا، ولأن اوضاعهم المالية كانت سيئة.

ومن ناحية ثانية عرض مفوضو غلوب على عدد من قادة جيش الجهاد المقدس الالتحاق بالجيش الاردني كضباط، فقبل عدد منهم هذا العرض.

في هذه الأجواء المحبطة صرت اتردد على مدينة القدس واتابع أخبار التطورات السياسية. ومن أجل ذلك رحت اتصل بثلاث جهات: قيادة جيش الجهاد المقدس وجريدة البعث ومكتب الارتباط الخارجي.

قيادة جيش الجهاد المقدس

بعد ان انتقلت معظم قوات جيش الجهاد المقدس من القدس الى منطقة بيت لحم، وبوجود الجيش العربي في القدس، واستقرار الهدنة، لم تتناول لقاءاتي مع القيادة في القدس أية مواضيع عسكرية. ولما كان القائد خالد الحسيني ومساعده ليسا شخصين سياسيين، لذلك اقتصرت اللقاءات على تبادل الاحاديث والاخبار حول التطورات السياسية الجارية والمنتظرة من دون التفكير في لعب دور معين مشارك والاكتفاء بدور المراقب المستسلم للقدر.

* عارف العارف، «النكبة»، مصدر سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٤٠.

جريدة البعث

في هذه الاثناء اصدر الاستاذ عبد الله الريماوي جريدة باسم «البعث» كان يطبعها على مطابع دار الايتام الاسلامية في القدس. وكنت التقيه ومعه آخرون في مدرسة الايتام نتبادل الاحاديث والمعلومات خصوصا بعد ان تقرر انسحاب الجيش العراقي من فلسطين، وبعد ان أصبحت اتفاقيات الهدنة في رودس موضع التطبيق الخطير الشائن، الذي كان يتطلب تسليم اليهود اراض واسعة في منطقة طولكرم ومنطقة الخليل وغيرها لم يكن اليهود قد دخلوها.

تعرفت على عبد الله الريماوي قبل نشوب حرب فلسطين، وكان قد حضر الى الكلية الابراهيمية، حيث أعمل، بصحبة أخي شفيق ابو غربية الذي كان يعمل هو الآخر في الابراهيمية، وكانت تربط عبد الله بشفيق مشاعر احترام ومودة متبادلة، نشأت اثناء زمالتهما في التعليم في المدرسة العامرية بيافا حيث كانا مع زميلهما أحمد السبع يحركون تيارا قوميا بين طلابهم.

لم يكن عبد الله الريماوي منتميا الى حزب البعث العربـي في هذه الاثناء، على الرغم من انه سمى جريدته باسم البعث. الا انه كان التقى بعض قادة الحزب واطلع على دستوره، ولاقت مبادىء هذا الحزب استحسانه. وكان خط الجريدة يعبر بعنف عن سخط الجماهير على العجز والتقصير والاستسلام العربـي الرسمي، ويهاجم الانظمة العربية بشدة. واذكر ان عبد الله الريماوي كتب افتتاحية نارية، جعل عنوانها «إني لأرى رؤوسا اينعت وحان قطافها» ادت الى اغلاق الجريدة واعتقاله ونفيه هو وصديقه عبد الله نعواس الذي كان يكتب احيانا في جريدة «البعث»، الى معتقل باير الصحراوي.

اما أنا فلم اكن حتى ذلك الحين قد التقيت قادة حزب البعث سوى لقاء عابر مع الاستاذ ميشيل عفلق في القدس سبق ان اشرت اليه. ولم اكن اطلعت على دستور حزب البعث ومبادئه، ومع ذلك كتبت في جريدة عبد الله الريماوي «البعث» اكثر من مقالة على شكل قصص قصيرة واقعية تدور في اطار كفاحنا المسلح، وشخصياتها ابطال حقيقيون من رفاقي في حرب فلسطين. واشير الى انني رفضت أن اشارك في الكتابة في العمود الخاص الذي كان يحرره عبد الله الريماوي وعبـد الله نعواس وغيـرهما ويـذيلونه بتـوقيع «من البعثيين. . ».

مكتب الارتباط الخارجي

أنشأ الحاكم العسكري عبد الله التل في القدس مكتبا سمي بـ«مكتب الارتباط الخارجي» كان يعمل فيه ويتردد عليه عدد من المتطوعين من رجالات المدينة الذين صمدوا فيها، وحاولوا تقديم كل عون ممكن للادارة العسكرية؛ اذكر منهم أنور الخطيب وأحمد السبع وعبد الله الريماوي وعبد الله نعواس وأخي نهاد أبو غربية والدكتور موسى عبد الله الحسيني.

وكانت المهمة الرئيسة لهذا المكتب تقديم المساعدة لتنظيم الاتصالات العربية مع هيئة الصليب الأحمر وغيرها من الهيئات الدولية والهيئات الدبلوماسية وممثلي هيئة الأمم المتحدة. وفي احدى زياراتي لهذا المكتب عرض علي الدكتور موسى الحسيني بحضور عبد الله التل ان التحق بالجيش العربـي الاردني برتبة ضابط فرفضت ذلك.

مؤتمر عروبة القدس

في زيارة أخرى لمكتب الارتباط الخارجي في أوائل شباط / فبراير ١٩٤٩ حدثني أنور الخطيب عن ترتيبات تتخذ لعقد اجتماع شعبي، الغرض منه اعلان التمسك بعروبة الجزء المتبقي للعرب من مدينة القدس، ورفض قرار تدويلها الصادر عن هيئة الامم المتحدة، والذي وافقت عليه دول الجامعة العربية ما عدا الاردن. ويومها أبديت رأيي في ضرورة رفض التدويل ولا سيما ان اليهود، الذين رفضوا التدويل، لن يوافقوا على تدويل القسم الذي يحتلونه من القدس. واذا قدر للتدويل ان ينفذ فلن يطبق الا على القسم الباقي للعرب من المدينة الذي يضم الاماكن المقدسة الرئيسة كالمسجد الاقصى وكنيسة القيامة. وطلب مني انور الخطيب ان اشترك في هذا المؤتمر وان القي فيه كلمة، فاعتذرت. وإزاء إلحاحه في الطلب وخصوصا بعد انضمام عبد الله التل لاقناعي وعدتها ان افكر في الأمر. وبعد ذلك بنحو الاسبوعين زرت مكتب الارتباط وقد اعددت كلمة قدرت أن انور الخطيب والمشرفين على المؤتمر لن يقبلوا بها. الا انني فوجئت بعدم اعتراضهم على اية جملة او كلمة فيها، فأسقط في يدي ولم أدرِ ما أفعل. وبدا علي انني وافقت على القاء الكلمة، الا أنني وجدت المخرج والتصميم على الرفض عندما علمت ان كميل شمعون موجود في القدس وأنه جاء ليترأس المؤتمر، فاتخذت من ذلك مبررا لرفضي المشاركة وأعلنت ذلك باصرار.

في مساء ذلك اليوم زرت بيت السيد رؤوف درويش الذي كان اركان قيادة جيش الجهاد المقدس يلتقون فيه كل مساء تقريبا، فوجدت خالد الحسيني وسامي بك الحسيـني وغيرهما يتحدثون عن المؤتمر ويبدون اعتراضهم وتذمرهم لعدم اشتراك أحد من قادة جيش الجهاد المقدس فيه، وقالوا ان الحاج أمين الحسيني اتصل من القاهرة وطلب منهم تأييد رفض تدويل القدس، وبالتالي ضرورة المشاركة في مؤتمر عروبة القدس. فحدثتهم عما جرى معي بهذا الخصوص فألحوا علي بأن أعود وأوافق على القاء كلمة باسم جيش الجهاد المقدس في هذا المؤتمر. وازدادت حماستهم عندما اطلعوا على الكلمة التي أعددتها وأعجبوا بما جاء فيها. ولما كان من الصعب علي أن أعود الى الاتصال بعبد الله التل أو أنور الخطيب لأعرب عن موافقتي، فقد قام خالد الحسيني بالاتصال بهما وأخبرهما بموافقتي.

وفي اليوم التالي توجهت الى قاعة المحاضرات في دار المتحف الفلسطيني لالقاء الكلمة، مرتديا ــ لأول مرة ــ الالبسة العسكرية حاملا رتبة يوزباشي (نقيب) وعلى عقالي شعار جيش

الجهاد المقدس. وهنا اشير الى انني كنت طوال مدة التحاقي بجيش الجهاد المقدس ارتدي الالبسة المدنية وأرفض حمل رتبتي العسكرية على اساس أنني مجرد مناضل مقاتل لم أدخل كلية عسكرية.

عندما وصلت الى قاعة المؤتمر هالني ان أجد في مدخلها مساعد القنصل البريطاني في القدس ومعه موظف عربي في القنصلية البريطانية اسمه أديب شبلي، نعرفه ونعرف انه من رجالات المخابرات البريطانية، يستقبلان الحضور مع باقي المستقبلين. فثارت ثائرتي وتوجهت رأسا الى حيث يجلس عبد الله التل وانور الخطيب وقلت لهما: انني اسحب موافقتي على القاء الكلمة احتجاجا على اشراف الانكليز وأعوانهم على المؤتمر. الا ان عدة اطراف تدخلت وعملت على تهدئتي. وعندما جاء دوري ألقيت الكلمة فقوبلت بحماسة كبيرة. الا انني، فيما بعد، ندمت، ليس على الموقف من تدويل القدس، بل على المشاركة في مؤتمر يشرف عليه الانكليز وأعوانهم وما زلت نادما على ذلك.

اليهود يحتلون المرشرش وجميع النقب

بينما كان الوفد الاردني يتهيأ للسفر الى جزيرة رودس في أواخر شباط / فبراير ١٩٤٩ للاشتراك في مفاوضات الهدنة الدائمة، كان الجيش اليهودي يزحف بحذر نحو خليج العقبة. وقد لاحظت الحكومة الاردنية والجيش الاردني هذا الزحف واحتجت على ذلك لدى ممثلي هيئة الامم المتحدة. وفي ٢٥ شباط / فبراير ١٩٤٩ طلبت الحكومة الاردنية من وفدها في رودس ان يبلغ شكواها الى الوسيط الدولي الدكتور بانش، وتكررت احتجاجات الاردن من دون جدوى. وواصل اليهود تقدمهم الذي حاولوا انكاره، الا أنهم اعترفوا في النهاية باحتلالهم منطقة وادي عربة الممتدة حتى خليج العقبة، على اعتبار أنها وجميع منطقة النقب خصصت لهم بموجب قرار تقسيم فلسطين لسنة ١٩٤٧. وفي ١٠ آذار / مارس ١٩٤٩ وصلوا خليج العقبة ورفعوا العلم الصهيوني على ميناء المرشرش الذي سمّوه ايلات، وسيطروا على جميع منطقة النقب.

خلال هذا التحرك العسكري اليهودي لم تكن للجيش العربي الأردني قوات في المنطقة سوى سرية واحدة، تجنبت الاشتباك مع اليهود بأوامر من القائد غلوب باشا الذي كان في ١٠ آذار / مارس يوم احتلال المرشرش يشاهد تمثيلية تؤديها فرقة من هواة التمثيل من الجالية البريطانية في عمان*.

في ٢٥ آذار / مارس ١٩٤٩ نزل الجيش البريطاني في ميناء العقبة لحمايتها، ورست سفينة حربية بريطانية في الميناء بناء على طلب من الحكومة الاردنية بموجب المعاهدة الاردنية ـ

---

* غلوب باشا، «جندي مع العرب»، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٢.

البريطانية التي كانت عقدت في ١٥ آذار/مارس ١٩٤٨. وفي ٣ نيسان/ابريل ١٩٤٩ جرى في رودس توقيع اتفاقية الهدنة الدائمة بين الأردن واليهود.

حفلة ألعاب رياضية..!

كانت احدى سرايا جيش الجهاد المقدس تتمركز في قرية عابود من قضاء رام الله بقيادة محمود ابو الخير وفخري مرقة، وكانا من مساعدي القائد الشيخ حسن سلامة في منطقة اللد، ومن المناضلين الذين اشتركوا معه في ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ وفي حرب ١٩٤٧ ــ ١٩٤٩. فلما استشهد الشيخ حسن سلامة في معركة رأس العين سنة ١٩٤٨، وبعد ان سقطت مدينة اللد انسحب عدد من رجاله الى منطقة رام الله واستقروا في قرية عابود حيث ترابط كتيبة (جحفل) من الجيش العراقي بقيادة العقيد محمود مظلوم، الذي تعاون مع سرية الجهاد المقدس المشار اليها تعاونا متينا.

وكانت تربطني بالمناضلين محمود ابو الخير وفخري مرقة علاقات قوية. وعلى هذا الاساس اتصلا بي في آذار/مارس وطلبا ان يستعيرا بعض الادوات الرياضية لتقديمها للجيش العراقي في عابود الذي يستعد لاقامة مهرجان رياضي (يوم ميدان). فقدمت لهما بعض الادوات من الكلية الابراهيمية. وفي هذه الاثناء قمت مع بعض قادة جيش الجهاد المقدس بزيارة عابود وتعرفنا إلى العقيد محمود مظلوم، وجرت بيننا أحاديث مطولة وتقويم للأوضاع، كان يؤكد فيها انه كان باستطاعة الجيش العراقي احراز نصر ساحق على اليهود لو أن القيادة السياسية للعراق كانت تنوي وتسمح بذلك. ومما قاله لي في هذه الزيارة، بعد ان أراني خاتما كان يضعه في أحد اصابعه: «هذا خاتم ابنتي. ألبستني اياه في بغداد ليدخل تل ابيب.. هَسّا لما نرجع بغداد اقول إلها ما اقدرت..؟ تشذب والله!! هاي اللد أمامي، وهناك تل أبيب.. لكن لعنة الله على...». وكان باستطاعتنا ونحن نتحادث أن نرى الطائرات وهي تهبط وتقلع من مطار اللد الدولي بكل وضوح.

ومرة أخرى دعيت الى عابود مع قادة جيش الجهاد المقدس لمشاهدة «بروفة» للمهرجان الرياضي، فذهبت أنا وخالد الحسيني قائد جيش الجهاد المقدس وابراهيم نسيبة استاذ الرياضة البدنية المعروف ورؤوف درويش، ولما وصلنا كان الجو ماطرا فدخلنا الى (ميس) الضباط حيث عدد من كبار ضباط الجيش العراقي المدعوّين وعلى رأسهم العميد الحاج طاهر الزبيدي حاكم نابلس العسكري، الذي أخذ يدير الحديث بيننا مركزا على الانتقاد والشكوى من أهل نابلس الذين على حد قوله لم يتعاونوا معه ومع الجيش العراقي، فلم يعيروه سياراتهم ولم يعطوه البنزين... مما أثار اعصابي ولكني كظمت غيظي. الا أنه اتبع ذلك بقوله: «ذاك اليوم الجيش العراقي متوجه للمعركة... فَدْ فلاح فلسطيني، جاعد يمّ الطريق، وبندقيته في حجره.. دي يصفق الهم.. دي قوم روح وياهم...!». وهنا لم املك الا ان أفضح كذبه

وسوء نيته فقلت: «هل سيادتك قائد عسكري جاء الى فلسطين ليحارب. . ؟ لو كنت كذلك لوضعت يدك كحاكم عسكري على وسائل النقل والوقود وكل المستلزمات العسكرية، وليس من طبيعة الحرب ان يطلب القائد التبرع بما يحتاجه. . ! أما ذاك الفلاح إلّي كان جاعد يم الطريق، أنا كنت يَمّهْ. . هذا كان ناطر الجيش تَيْروح وياه، ولما عدا الجيش وما أخذه وياه. . دار يبتشي!!» وتكهرب الجو، واراد رؤوف درويش ان يلطف الجو فقال:

«الحقيقة يا بك إحنا اركنا عليكم اكثر من اللازم. . !».

وبعد انصراف العميد طاهر الزبيدي انفرد بـي العقيد محمود مظلوم، قائد الجحفل وقال: «عيني هذا الزبيدي من زلام نوري السعيد. . وآني أقلك ايش غرضه. . هذا قبل فترة جمع الضباط القادة وكنت بينهم. وقال: هناك تسيّب في الجيش العراقي، وعدم اطاعة أوامر والجنود يتذمرون لأنهم لا يقومون بأي عمل عسكري ضد اليهود، وان هذا الوضع يحتاج الى علاج. وطلب منا تقديم اقتراحات لمعالجة الأمر. وبعد ان استمع الى آرائنا، أمر بأن نعالج الأمر بالقيام بمحاضرات كل في وحدته نهاجم فيها الفلسطينيين على اساس أنهم باعوا اراضيهم. . ! ويتجسسون لليهود وغير ذلك. الامر الذي سبب ضياع بلادهم!». وأوضح مظلـوم ان الغرض من هذه المحاضرات هو ان تهبط عزائم الجنود العراقيين ويتوقف التذمر والتسيب.

شكرت محدثي العقيد محمود مظلوم، وأكدت له أننا نقدر الجيش العراقي حق التقدير منذ ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ حتى الآن. واننا نعرف حماسة الشعب العراقي وحماسة الجنود والضباط الشديدة لنصرة شعب فلسطين، وانهم جاؤوا ليحاربوا بكل حماسـة واستعداد للتضحية. ولكن قادة العراق السياسيين وبعض كبار قادة الجيش خاضعون لسيطرة الانكليز وينفذون خططهم واوامرهم.

انسحاب الجيش العراقي

لم يشترك الجيش العراقي في مفاوضات جزيرة رودس، وبالتالي لم يوقع اتفاقية الهدنة مع اليهود. لكن الحكومة العراقية قررت في ١٩٤٩/٣/٢٠ سحب الجيش العراقي من فلسطين الى العراق. وبدأ الجيش بتسليم مواقعه للجيش الاردني، اعتمادا على ان الحرب انتهت واتفاقية الهدنة الدائمة بين الاردن واليهود جاهزة للتوقيـع الذي تم بالفعل في ١٩٤٩/٤/٣.

في هذه الاثناء وبعد ان تسربت أنباء قرار انسحاب الجيش العراقي هاجت مشاعر الفلسطينيين حيث يوجد الجيش العراقي في مناطقهم، خصوصا منطقة طولكرم وقلقيلية. وشكلوا وفودا ذهبت الى عمان لمقابلة قائد الجيش العراقي نور الدين محمود لتطلب منه استمرار بقاء الجيش في مناطقهم، لأن عدد الجيش الاردني قليل ولا يستطيـع اذا انتشر في هذه المناطق ان يحميها. الا ان الجهات الاردنية لم تمكنهم من الوصول الى قائد الجيش

العراقي من أجل «عدم احراج العراق بعد ان اتخذ قرارا نهائيا». وزاد الطين بلّة عندما علم ان اتفاقية رودس تقضي بتسليم اراض جديدة لليهود ما تزال بيد العرب وبخاصة اراضي طولكرم وقلقيلية وعددا من القرى المجاورة، عرفت فيما بعد بأراضي المثلث. وكانت ارضا زراعية ممتازة عامرة بالبيارات ومأهولة بالسكان الذين دافعوا عنها بشجاعة وحموها من السقوط في يد العدو. كما نصت اتفاقية رودس على تسليم اراض واسعة في منطقة الخليل، لم يكن اليهود وصلوها حتى ذلك الوقت. وعلى أثر ذلك وقعت بعض الاضطرابات التي قمعت بعنف. وازداد هياج الشعب وسخطه على الأنظمة العربية ورؤساء الدول العربية. وعبر الشعب عن ذلك بوسائل مختلفة في اثناء مرور الجيش العراقي بمخيمات اللاجئين في اريحا منسحبا الى العراق. ولم يكن رجال الجيش العراقي الشجعان انفسهم أقل ألما وسخطا على القادة العرب. وقد اكتمل انسحاب الجيش العراقي من فلسطين في ١٩٤٩/٤/٢٨.

وداع بيارة وادي الصور

في ظل الاوضاع المريرة، وبعد أن صمت السلاح، لم يعد هناك مبرر ولا امكانية لاستمرار جيش الجهاد المقدس. وقررت ان أصفي قواتي، وان أجمع منها السلاح قبل فوات الاوان. فأعلنت رغبتي هذه للقيادة في القدس وبيت لحم، وتوجهت الى منطقة صوريف حيث امضيت بضع ليال أطوف مع دورية مسلحة من رجالي مودعا جميع خرب وادي الصور ابتداءً من الساقعة والدير وعلّين، وانتهاء بأم الجاج والشيخ مذكور وجبين نقّار في اطراف المنطقة الحرام. وفي كل ليلة من تلك الليالي المقمرة نتوقف لنشرب عند بيارة وادي الصور التي لم يعد أحد من الرعاة أو الواردين يَرِدُها، فأصبحت مهجورة تبدو عليها الكآبة، وامتلأت حتى فاض صدرها وانحدر ماؤها مشكلا جدولا صغيرا يتلألأ ماؤه حزينا تحت ضوء القمر، وكأنه الدموع تنهمر من هذه العين محاكية دموع عيوننا. ودعت البيارة والشعاب المحيطة بها وانا اعرف انها وجميع الخرب المذكورة تقع ضمن الاراضي التي يجب ان يستلمها اليهود بموجب اتفاقيات رودس. وكان عدد قليل من الجيش الاردني (الفرسان) موجودا في قريتي صوريف والجبعة وتوقف عندها ولم يصل الى الخرب المذكورة.

ودعت بيارة وادي الصور في اواخر آذار / مارس ١٩٤٩ ولم ارها منذ ذلك اليوم.

إخفاء السلاح

منذ عهد الانتداب البريطاني كانت لي مخابئ للسلاح. وشعرت أن السلاح لا بد ان يلزمنا في المستقبل، ولذلك لا بد من اخفائه ولا سيما أن قيادة جيش الجهاد المقدس لم تطلب مني تسليم العهدة ولم تكن قادرة على استلامها مني ومن غيري من قادة السرايا والمجموعات.

كما ان القيادة الاردنية لم تطلب منا ذلك، مع أنها، كما ذكرت سابقا، كانت تعمل ضمن خطة مدروسة على تصفية جيش الجهاد المقدس وجمع السلاح من الناس.

سلمت حافظ بركات سريته التي كنت اتولى قيادتها، وسلمته سلاحها، بعد أن اصبح حافظ في وضع صحي يمكنه من الاشراف على ذلك في ظل توقف القتال. وجمعت السلاح من أفراد سريتي وعملت على اخفائه في أماكن متعددة، فكان اكبر مستودع لي في اطراف قرية خاراس، في مغارة قرب بيت الشهيد ابراهيم عبد ربه وهو من ابناء قرية خاراس. وكان ابراهيم من اشرف المناضلين وموضع ثقتي التامة، وكان قد اشتغل في الكلية الابراهيمية اكثر من عشر سنوات توطدت خلالها صداقتي معه وثقتي به. غير انه في خريف سنة ١٩٥٢ علم اليهود بأمر هذا المخبأ فهاجموا المكان واستولوا على السلاح وقتلوا ابراهيم بعد ان قتلوا ابنه أمامه وكان طفلا في العاشرة من عمره. كما نسفوا المغارة ونسفوا البيت.

وكانت لي في مدينة القدس نفسها عدة مخابىء أحدها في حارة المغاربة، واثنان في حارة السعدية واثنان في بناية الكلية الابراهيمية. وفي سنة ١٩٥١ وقع في القدس حادث اغتيال الملك عبد الله، وخاف المشرفون على مخابىء حارة المغاربة وحارة السعدية، وتخلصوا من السلاح بالقائه في آبار قديمة. أما مخبآ الابراهيمية فقد اكتشفتها السلطات الاردنية في عملية تفتيش جرت سنة ١٩٥٧ وصادرت ما فيهما من سلاح باشراف محافظ القدس حسن الكاتب.

عندما صدر وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧ كان من الصعب ان يتصور العرب أن الجزء الاكبر من فلسطين سيغدو دولة يهودية صهيونية في مدى ثلاثين سنة. الا أن عرب فلسطين كانوا يشعرون بهذا الخطر. وقد عبروا عنه في مناسبات مختلفة، منها ما جاء على لسان الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود في قصيدة ألقاها يوم زيارة ولي العهد السعودي الامير سعود بن عبد العزيز لفلسطين سنة ١٩٣٥ حيث قال:

المسجد الاقصى أجئت تزوره   أم جئت من قبل الضياع تودعه

ربما لم نتوقع ان تكون النتيجة بهذا السوء. اذ ان ٥٦,٤٧ ٪ من مساحة فلسطين خصصت لليهود. وبموجب قرار التقسيم استولوا عليها بأكملها كما استولوا على ٢٠,٩٣ ٪ من الجزء المخصص للعرب، فأصبحت دولتهم تشغل ٧٧,٤ ٪ من مساحة فلسطين، ولم يبق للعرب سوى ٢١,٣ ٪ عرفت باسم الضفة الغربية و١,٣ ٪ لقطاع غزة، مع ان اليهود لم يكونوا يملكون عند بدء الانتداب سنة ١٩١٨ سوى ٢ ٪ من أرض فلسطين. وحتى أيار / مايو ١٩٤٨ لم يملكوا سوى ٥,٦٧ ٪.

كما طرد اكثر من ٩٠٠ ألف عربي فلسطيني من اراضيهم وبيوتهم وأصبحوا لاجئين، ولم يبق في القسم المحتل بعد انشاء دولة العدو سوى ١٧٠ ألف عربي.

انها النكبة حقا، ولكن علينا ان نقول ان عرب فلسطين صمدوا وناضلوا وقاتلوا وضحوا بالغالي والرخيص وقدموا آلاف الشهداء للحيلولة دون وقوع هذه النكبة. الا أن الامبراطورية البريطانية والولايات المتحدة الاميركية بل وجميع الدول الغربية ألقت بكل ثقلها وراء الحركة الصهيونية العالمية. كما ان الحكومات العربية كانت خاضعة للسيطرة الاجنبية وتأتمر بأوامرها.

وهنا يعود السؤال المعهود يطرح نفسه مجددا: لماذا لم تقبلوا بأنصاف الحلول كمشروع التقسيم في سنة ١٩٣٧ والكتاب الابيض سنة ١٩٣٩، وقرار التقسيم في سنة ١٩٤٧. ومع انني أجبت عن هذا السؤال أقول باختصار اننا كنا نعرف حقيقة الاطماع الصهيونية وخططها العدوانية التوسعية بحيث إذا وافقنا على قيام دولة يهودية على جزء من فلسطين فانهم سيملأونها سلاحا ومهاجرين ويواصلون عدوانهم التوسعي الاستيطاني بأسرع ما يمكن، ولذلك فضل شعبنا المقاومة لعرقلة هذا التوسع الصهيوني بقدر المستطاع.

فهرست الأعلام

ـ خ ـ

ـ د ـ

ــ ش ــ

ــ ص ــ

ــ ط ــ

ــ ع ــ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

فهرست الأماكن

ـ ت ـ

ــ ج ــ

ــ ح ــ

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ذ ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ